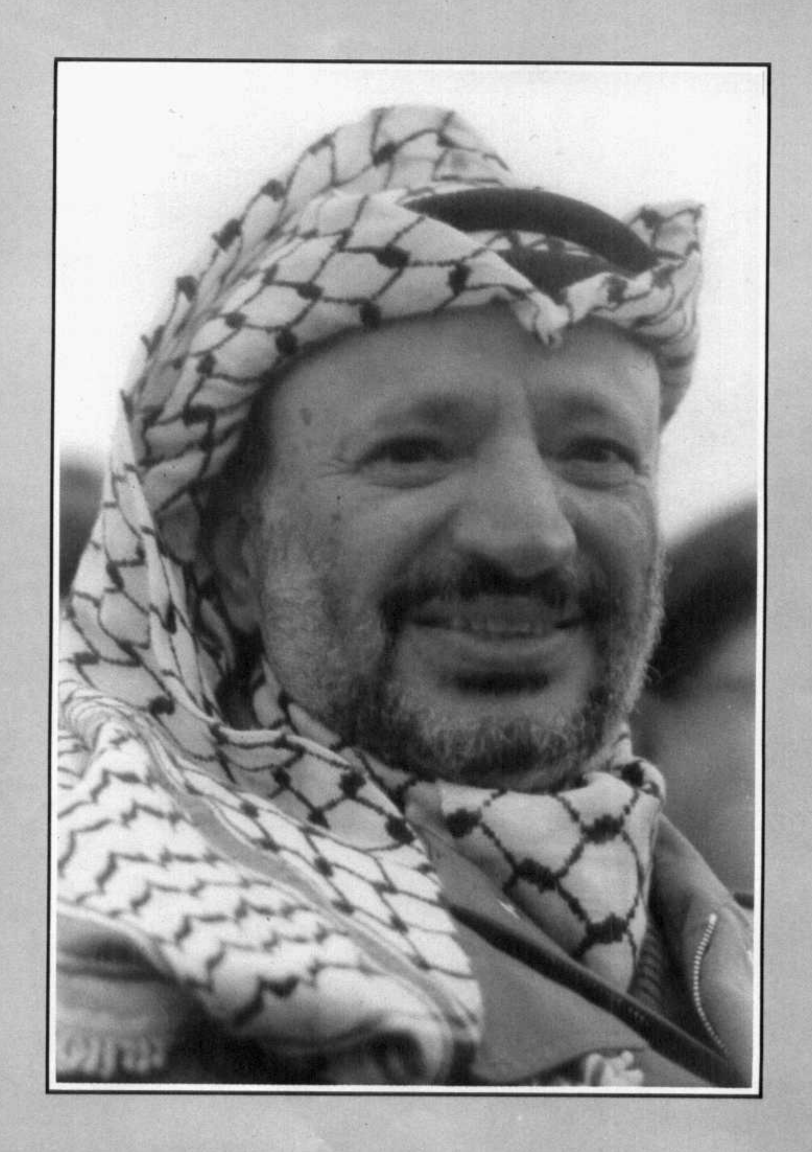
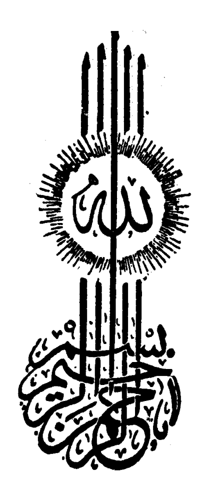
# ياسر عرفات
# الرقم الصعب

بقلم الدكتورة رشيدة مهران



# رجل اسمه «ياسر عرفات»





# الباب الأول:

## ● الزعيم بين الواقع والاسطورة

* رجل اسمه «ياسر عرفات»
* فن القيادة
* «عرفات» بين الحرب والسياسة

# الزعيم بين الواقع والأسطورة

## * رجل اسمه «ياسر عرفات»

حين التقيت «ياسر عرفات» لم يسعني الا ان احني الرأس احتراما له. ففي كيانه الدقيق تتمثل الاسطورة!.. اسطورة الوجود الحي النابض البارز الذي يحفر اسمه بأحرف بارزة على ارض الواقع. وبدون شخص «ياسر عرفات».. ما كان يمكن ان تتجسد الاسطورة الفلسطينية.. وتفرض وجودها من بين جدار المستحيل الذي فُرض على هذا الوجود.

ولا نستطيع ان نقول ذلك الا اذا كان هذا الشخص يمتلك من الملكات والموهبة ما يكفل له هذه المكانة. فالرجل يختصر في شخصه كل آمال وآلام ومعاناة واحلام الشعب الفلسطيني.. يقينه وصموده وايمانه.. حتى خرج بذلك عن حدود الانسان العادي!

والانطباع الأكيد الذي يتركه شخصه فيمن أمامه.. ان الرجل ليس عاديا. وكيف وهو قد استقر على رأس حركة تحررية بكل تناقضات واقعها الاليم؟!

ثورة تعيش مغتربة ليس لها ارض لتنطلق منها ولكنها تستطيع ان تنتصب في اي مكان لتعلن وبحدة عن وجودها وكيانها!.. لو كانت الثورة الفلسطينية تعيش فوق ارضها لكان الامر شبيهـا بكل الحركات التحررية التي شهدها العالم.. ولكان «ياسر عرفات» قائدا مناضلا مجاهدا كغيره من اصحاب البطولات الشعبية. ولكنها ثورة مغتربة.. ثورة منفية عن ارضها. وهذا ما يجعل الامر مختلفا تماما. فعلى الرجل ان يمسك بيديه كل مقومات الوجود وحتى لا تضيع الثورة في الاغتراب او تتوه في المنفى. وهذا لا يستطيعه انسان عادي.. إنما يتطلب قائدا مُلهما خارقا.. وقد كان الرجل كذلك.

فإذا قلنا انه استقر في مكانه من الثورة طوال هذه السنوات وبارادة حرة ديمقراطية شعبية سجلتهـا له كل المجـالس الـوطنية التي يجري فيهـا الاقـتراع على احـدث النظم الديمقراطية والتي كثيرا ما لا تتوافر في مجالس نيابية شرعية لبعض الدول.. عرفنا كمّ الحب والثقة التي يوليها له الناس. ولو سمعنا الاحاديث التي تُروى عنه ورأينا تعلق الناس به.. لعرفنا قيمته القيادية.

ولو أدركنا تبلور القضية بكل نواحيها في شخصه لعرفنا ايضا كيف تحول الى رمز.. والى معنى.

«ياسر عرفات».. معنى كبير يجسد قضية، قضية الشعب الفلسطيني.

فهل نستطيع ان ننفذ الى اعماق الرجل لنعرف السر في مصداقية وجوده الخارق على خريطة العالم؟.. لا بد وان هناك مفاتيح لهذه الشخصية الفذة التي استطاع بها ان يكون هذا المعنى الكبير في وجدان العالم.

ففي شخصه يكون القائد . . وتكمن القضية ويعيش الثائر . . ويبرز الوجود المميز له ! . . تدرك لأول وهلة انه القلب النابض لفلسطين . شوقه وحنينه للارض مرتسم في عينيه . ملامحه الحادة تحمل كل متناقضات المعاني . فيها الامل . . وفيها المعاناة والمرارة . وفيها الهدوء والثورة وفيها اليقين والايمان بالحق . وفيها السخط والادانة للعالم ! . . وفيها الذكاء واللماحية والقلق والتوتر والسكينة !

الرجل عالم في حد ذاته . فهو قبل كل شيء تاريخ . وليس هناك من يستطيع ان يكتب تاريخ القضية الفلسطينية بدون تاريخه . ولا يعني هذا ان تاريخ القضية يستطيع احد ان ينكره قبله . ولكنه يمثل بحق اوضح وابرز وأشق مراحلها .

وهو كفاح . . فكل مراحل كفاح هذه الثورة كان هو بداخلها . كان صاحب الطلقة الاولى كما سُجل له !

وهو ثورة لان الثورة تستمد استمراريتها من وجوده . حقيقة ان الثورات لا تموت ولكن وجود القائد الملهم على رأس الثورة هو الذي يعطيها فاعليتها وبقاءها .

حين اقـول كل هذا عن «ياسر عرفات» . . لا اخشى ان يتهمني احد بالمبالغة او الحماس الزائد او الرومانسية . . فسأدعم كل الصفات التي عرضتها بالحقائق والبراهين لا لشيء الا لنكتشف جميعا اننا امام شخصية تاريخية مميزة لا يوجد لها مثيل الا القليل في العصر الحديث ! . . . واننا امام قائد خارق تتجمع فيه كل صفات المعجزة ! !

وقد سمعت هذا الرأي من مؤلف كتاب «عرفات ارهابي أم صانع سلام» . . لقد قال لي : « حين اقتربت من الرجل أدركت أنه معجزة .. معجزة حقيقية » . وانا اقول ان الرجل اكثر من ذلك . . فهو اسطورة ، فالمعجزة تحدث وتنتهي في وقتها . . لكن الاسطورة تبقى ويتناقلها الناس . ويطمحون لتمثل خطاها ومثالها . . فما بالك والاسطورة حية نابضة ناطقة بيننا ؟ ؟

ولكن . . لا بد لنـا شئنـا أم ابينـا ان نتـطلع للرجـل بالعين المجردة . . وبالحكم المتجرد . . وبموضوعية ايضا لنثبت مصداقية مقولتنا . فلنقس الرجل إذا بالمقاييس العادية التي تتحكم في حياة البشر . نسلط عليه الضوء الكاشف لنستطيع الكشف عن مقومات هذه الشخصية التي حققت النمط المتفرد في القيادة والزعامة .

والقيادة الفريدة هي التي تتقن فن القيادة . فالقيادة فن له خصائصه واهمها الحب الشعبي ـ على الا يكون الشيء الوحيد ـ فقد احب الناس «علي بن ابي طالب» . . لكنه سقط شهيدا بينهم ! . . ولم يحبوا ابدا «معاوية» . . لكنه استطاع ان يحكم ويؤسس الدولة لا لشيء الا لانه اتقن فن القيادة بما يقتضيه من موهبة .

و «ياسر عرفات» يملك الحب الشعبي . . والموهبة القيادية وهنا يكمن السر في زعامته

التاريخية .

فليس هو الحاكم الذي يبقى في مكانه معتمدا على قدرة اجهزة المخابرات السرية ولكنه يبقى لانه يجب ان يبقى !

وحين يتحدث التاريخ عن ابرز زعماء المنطقة سيذكر «عبد الناصر» و «ياسر عرفات» مع فارق كبير ان «عبد الناصر» كان حاكما . . وكان دولة وكان سلطة .

اما «عرفات» فهو حب ونضال وعطاء متفرد . . وحلم وأمل ومعاناة!

اصبح بكل ما فيه صرخة الدم في ضمير العالم . وهذا ما يقفز به الى الصف الاول من الزعامة .

ولا يستطيع المتحدث عن شخصية «ياسر عرفات» ان يغفل عن تلك الشخصية الأخاذة فهو فوق كل شيء مؤثر بشخصه . فبسهولة يستطيع ان يأسر مَنْ امامه او يستولي عليه تماما!! وكم من جلسات واجتماعات أعدت خصيصا للمعارضة . . ولكن ما تلبث ان تتحول الى التأييد! . . . فحقيقة انه يمتلك هذا النوع من الشخصية الآسرة التي لا تستطيع ان تتحرر من تأثيرها بسهولة . ولا أدري أهي موهبة شخصية ينميها «عرفات» في نفسه . . . ام انها ايضا هبة إلهية اراد الله ان يختصه بها؟

وقد لقيته اول مرة في حياتي عام **١٩٧٤** في بيروت وفي اجتماع عام . . ومن وقتها لم استطع ان اتخلص من تأثيره المبهر الذي استمر الى عام **١٩٨٤** حين لقيته عن قرب . . وكان هذا من اكبر دوافعي للكتابة عنه .

هذه القيادة التي استمرت طوال تلك المدة جمعت في كيانها نبض قلب الشعب الفلسطيني . وحقيقة فلا أحد يطاول الرجل في شعبيته . . وكل من يحاول ان يصطدم بهذه الناحية يفعل ذلك لا لشيء إلا لمجرد اثبات الذات أو كمن يتسلق سلم الشهرة بالهجوم على اصحاب الشهرة!

فالمقاومة في داخل الارض المحتلة حين تبلغ حد الثورة ترفع صورة «ياسر عرفات» في وجه الصهاينة الذين يخشون صورته والتجمع حولها اكثر من الطلقات لانهم يعرفون ان وجود صورته يعني وجود الرمز والمعنى الذي يلتف حوله الفلسطينيون . ومعنى ذلك استمرار النضال ضدهم . والمقاتلون يقاتلون تحت علم فلسطين ولكنهم يضعون صورته في قلب العلم! . . رأيت ذلك بنفسي في مجموعة صور أخذت لأبطال العملية البحرية التي حملت الأبطال الى شواطىء فلسطين .

وهكذا فعلينا ان نلمس هذه المقومات التي خلقت من «ياسر عرفات» زعيما . . زعيما حقيقيا على الارض العربية وفي وجدان العالم . . أو المقومات لشخصيته القيادية الفريدة

التي جعلت من رجل ما هو أكبر من معنى . . . وأكثر من رمز. وهكذا يكون «ياسر عرفات».

من أكثر الاشياء الموهوب بها «ياسر عرفات» حلاوة الحديث! فحديثه يستولى على من امامه تماما. فتتوفر به الصراحة والبساطة والهدوء والجاذبية . . وعذوبة الروح! . أقول هذا عن احاديثه الخاصة. اما حديث السياسة فالعالم كله يسمع ما يقول . . ويهتز بما يقول سواء بالرضى ام بالسخط . . ولكنه يهتز لما يقول! . .

جلست أمامه كاتمة الانفاس وانا اسأله عن حياته العظيمة وبداياتها. وكأن القائد فهم طريقتي التي لا تفضل ان تبدأ بتقديم الشخص من خلال تعريف روتيني يشبه المعلومات المدونة في البطاقة الشخصية . . وكان لمّاحا في هذا فأي بطاقة تلك التي يمكن ان تتسع للتعريف بشخص «عرفات»؟! وكما هو انسان مختلف بدأت بداية مختلفة.

ولكن قبل ان يبدأ الحديث قلت له: معي تعريف لك كتبته احدى معتنقات «عرفات» . . هل أقرأه لك؟ قال: إقرئي.

قرأت . . . تقول الكاتبة: طالما تساءلت عنك . . أنت من أنت؟ . . وما أنت؟! ولم أجد إجابة عن تساؤلي الا انك أنت هو أنت! . . رجل بكل رجال العالم!

شملت الابتسامة وجهه المضيء وقال . . هذه مبالغة لا استحقها وان كان هذا يسعدني على الصعيد الشخصي كرجل يتلقى مثل هذه الكلمات من سيدة. ولكنها مبالغة كبيرة كبيرة . . وارجو ان تشكري هذه السيدة نيابة عني.

واضطررت ان اصمت حتى يبدأ هو الحديث.

قال: حين كنت في السابعة عشرة من عمري كتب القدر ان اكون ـ رغم صغر سني ـ احد المناضلين الذين يقاتلون في الجيش الفلسطيني الذي تكوّن باشراف الهيئة العربية الفلسطينية العليا وبقيادة «عبد القادر الحسيني» حيث عملت في هذا الجيش قبل ان يتحرك لميدان القتال في عدد من المهام الصعبة بما فيها جمع الاسلحة من الصحراء الغربية المصرية في عدة مواقع كالعلمين والحمام والسلوم بما فيها من مخاطر وصعوبات. وفي نفس الوقت تحتاج إلى قدرات خاصة لاننا كنا نتعامل مع قبائل وعشائر بدوية متناثرة في الصحراء الغربية جمعت هذه الاسلحة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي نفس الوقت لم تكن هناك تسهيلات كافية من المسؤولين في ذلك الحين.

وكان والدي تاجرا في فلسطين واتينا مصر قبل النكبة كنا نعيش في القاهرة. وتركت دراستي وانضممت الى الجيش وذهبت الى فلسطين! وسألت: اذن لم تنشأ في فلسطين؟ . قال: نشأت في فلسطين الى ما بعد الحرب العالمية الثانية. لم أكن عند والدي في النشأة

الاولى . . كنت عند اخوالي عائلة ابو السعود وتربيت عندهم في القدس وكنا نسكن داخل الحرم بجوار باب المغاربة .

ولكن عدت الى فلسطين كمقاتل ضمن هذا الجيش . تركت القاهرة والتعليم وانا في السابعة عشر من عمري . وتوليت مهاما كبيرة رغم صغر سني . . مثل جمع الاسلحة ومطاردة العدو ومواجهة استخباراته والتي كانت متشعبة في البلاد العربية ثم . . القتال .

وأريد ان اقـول ان هذا الجيش كان يعـرف في ذلـك الوقت باسم «جيش الجهاد المقدس» وهو الذي شكلته الهيئة العليا وتولى قيادته عبد القادر الحسيني . وكان بجانبه جيش آخـر شكلته الجامعة العربية اسمه «جيش الانقاذ» وقائده فوزي القاوقجي وهذا قبل ان تدخل الجيوش العربية فلسطين . اما جيش التحرير فتشكل عام ١٩٦٤ وتقرر تكوينه في جلسة الجامعة العربية التي انعقدت بالاسكندرية وصدر قرار بذلك في يوم ١٩٦٤/٩/٥ بتشكيل جيش التحرير الوطني الفلسطيني . وكانت بداياته ودعائمه الكتائب التي انشأتها مصر باسم الكتائب الفلسطينية في الجيش المصري . كانت هي الدعائم الاولى للجيش الفلسطيني .

وبعـد النكبـة اصبت كما اصيب كل الاخـوة من حولي بكل المرارة والحسرة والالم واليأس . وكنت لهذا افكر في الهجرة الى امريكا لاكمال تعليمي بها وقدمت طلبا لذلك وجاءني القبول بالفعل . .

ولا اعرف كيف اصف لك هذه الفترة التي كانت تتجاذبني فيها عوامل كثيرة . هل اذهب الى امريكا مهاجرا؟ ام ابقى منغمسا في المأساة؟

وكنت في ذلك الحين في السنة الاولى في كلية الهندسة . . وجلست أكثر من ثلاثة شهور وأنا بين مدّ وجزر . . ثم قررت ألا أذهب ورأيت انه يجب ان ابقى هنا في هذه المنطقة الى جانب شعبي .

سألت : هل جال بخاطرك في هذه الايام انك يوما ستقود هذا الشعب؟

قال : لا . . كانت كل رغبتي في اداء مهمتي . . وكنت اشعر ان علي واجب نحو شعبي ونحو وطني . . وفي مواجهة النكبة التي حلت بهذا الشعب خاصة وان الظروف التي بدأت تجد في المنطقـة العربية كانت كلها تنبىء بالتغيير . بداية الثورة في مصر . الانقلابات في سوريا . ظهور التيار القومي . هذه التغيرات التي حدثت في المنطقة العربية كلها كانت تؤدي الى العوامل التي نازعتني بين الذهاب والبقاء . فحسمت أمري بالبقاء . كان لا بد ان ابقى . وفعلا بقيت في مصر . فقد كان هنالك نداء خفيا يشدني للبقاء ويصرفني عن الرحيل الى امريكا .

وفي مصر نشأت لي هذه العلاقة الفريدة المتميزة بيني وبين المناضلين المصريين في حرب القنال ضد الانجليز . . وانطلاقا من خبرتي القتالية رغم انني كنت لا زلت طالبا .

وهكذا انضممت الى المناضلين المصريين في عامي ٥١، ٥٢ لمحاربة الانجليز بالقنال . واتاحت لي هذه الفترة التعرف على معظم رجال مصر وفي مقدمتهم رجال ثورة ٢٣ يوليو، لقد تعرفت في ذلك الحين على ـ كمال الدين حسين ـ وخالد محي الدين ـ وعبد الحكيم عامر ـ ومجدي حسين ـ وعبد المنعم عبد الرؤوف، وعدد آخر من مجلس قيادة الثورة .

اما «عبد الناصر» فقد قابلته وتعرفت عليه بعد ذلك والذي عرّفني عليه هو كمال الدين حسين ومجدي حسنين .

في هذه الفترة التي قررت فيها ان ابقى في مصر قريباً من شعبي بدأت افكر مع اخوتي في انه لا بد ان نفعل شيئا من اجل فلسطين . وكانت رابطة الطلاب الفلسطينيين التي استطعنا ان نشكلها ونعطيها هذا الدفع القوي والمكانة الهامة . والتي لم تكن رابطة للطلاب الفلسطينيين فقط وإنما كانت عبارة عن بؤرة من بؤرات النضال الفلسطيني والعربي .

على سبيل المثال كانت هي بؤرة يتجمع فيها كل الطلاب العرب المقيمين في مصر . وهذه المعرفة والعلاقة التي قامت بيني وبين القيادات المصرية التي تولت الحكم بعد قيام الثورة المصرية قد اتاحت لي التمكن من تقديم الكثير من الخدمات لهذا الشعب المعذب الذي واجهته النكبة الساحقة .

على سبيل المثال . . اقنعت الاخوة في مجلس قيادة الثورة ان يقبلوا اول دفعة من الضباط الفلسطينيين في الكلية الحربية المصرية من قطاع غزة . وهؤلاء الآن من دعائم جيش التحرير الفلسطيني من قائد قوات عين جالوت منصور الشريف الى مساعد رئيس الاركان عبد الرزاق المجايدة وفخري شقورة وغيرهم .

وسألته : ألم تفكر ان تلتحق ايضا بالكلية الحربية؟ . . قال : «انا كنت قد انهيت دورة الضباط الاحتياط . . وهذا غير الدورات التي كنت قد اجتزتها قبل التحاقي بجيش الجهاد المقدس الفلسطيني . . لقد تلقيت تدريبي على ايدي بعض الضباط والخبراء والاصدقاء الذين التحقوا بصفوف المجاهدين الفلسطينيين! ويواصل محدثي كلامه : بعد ذلك استطعنا ان نتصل بمختلف القيادات الفلسطينية في اماكن تواجدها خلال النشاطات الطلابية للشباب الفلسطيني . . وتشكلت اول نواة فلسطينية في عام ١٩٥٤ في غزة تحارب العدو الاسرائيلي وكان فيها أخي خليل الوزير «ابو جهاد» .

كذلك حصل بيننا نحن الطلاب الفلسطينيين وبين الفلسطينيين في غزة ما سمى

بثورة المعلمين في قطاع غزة الذين شكلوا لمدة تسعة ايام حكومة فلسطينية في غزة. ثم ألقي القبض عليهم واودعوهم السجون! [لقد كانوا اول حكومة فلسطينية في غزة] ومكثوا في السجن مدة طويلة. وكانت غزة تابعة للحكم المصري في نفس الوقت الذي كانت الضفة الغربية تعيش أبأس حالاتها من ناحية القهر والظلم والعنف الذي وقع على الفلسطينيين. وفي نفس الوقت كان التيه في اللجوء الفلسطيني.

من خلال هذه المحن والخطوب تشكلت النوّيات الاولى للثورة الفلسطينية المعاصرة.

وبعد تخرجي عملت سنتين كمهندس في المحلة الكبرى في مصر. وبعدها ذهبت الى الكويت واتصلت بالفلسطينيين الموجودين في الكويت وقطر والسعودية. وهكذا بدأت اتصالاتي الثورية الفلسطينية الجدية وشُكلت لجنة اسمها لجنة الخريجين الفلسطينيين في القاهرة. ومن خلالها تابعت الاتصالات وكنت قبل ذلك قد أُنتخبت رئيسا للطلاب الفلسطينيين مدة خمس سنوات.. اي رئيس اتحاد طلبة فلسطين. وفي الكويت.. وفي الخليج.. أُعلنت «فتح». قبل ذلك لم يكن اسمها «فتح» وانما كنا نطلق اسماً لنضع ولنجمّع النضال الفلسطيني تحت اسمائه المختلفة في غزة وفي سوريا وفي الضفة الغربية وفي مصر. ولكن اول ما أُتفق على اسم «فتح» كان في الكويت.

سألت: هل انت الذي اقترحته؟ قال: الحقيقة انا الذي اقترحته بالفعل. هو اسم: حركة تحرير وطني فلسطيني ح.ت.و.ف حذفت الواو. وقلبت الاحرف لتكون «فتح»..

«انا فتحنا لك فتحا مبينا.. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك.. وما تأخر.. وبدأنا بعد ذلك في تجميع الاسلحة والتدريب لاعداد الثورة التي انطلقت ليلة ١٩٦٤/١٢/٣١».

«ياسر عرفات» من ذلك الصنف النادر من الرجال الذي يميزه سحر الشخصية! لا تعرف جيدا اين يكمن سر الجاذبية الطاغية في شخصه!

ربما لا تستطيع اكتشاف ذلك من بعد.. اقصد من صوره المنشورة او لقطاته على شاشات التلفزيون.. رغم انه يجيد تماما التحرك امام الكاميرات! ولكنك تلحظة بسرعة شديدة حين تلقاه.. اذ لا تلبث ان تجد نفسك أسيرا لهذا السحر الخفي الذي ينبعث منه!

لقد لمست تأثيره على الناس بنفسي.. ورأيت بعيني كيف تتحول الجماهير من حوله الى بوتقة حب تنصهر فيها مشاعره ومشاعرهم!.

رأيته وسط الاسرى المحررين وهو يرفع كلتا يديه بشارة النصر بينما تمتد اليه مئات الايدي لتلامس يديه! رابطة عجيبة تربطه بهم لدرجة انه من كثرة السلام والعناق والايدي الممتدة اصيب بتمزق في عضلات ذراعه!

ورأيته في معسكر للاشبال وهو يقبل كل شبل على حدة بينما تحتضنه مئات العيون البريئة. ورأيته في معسكر الخرج ويحيطه اكثر من خمسة آلاف شخص من اهالي اشبال المعسكر يهتفون باسمه وسط زغاريد النساء واهازيج الرجال والورود تتناثر عليه. رأيته وهو يتحدث الى كوادر حركة «فتح» في عمان وحديثه ينساب بيسر وتلقائيه ليشعر كل فرد من الحضور انه يحادثه على انفراد!

ورأيته وهو يتحدث في وسط اليأس فيمنح كل فرد من الحضور جذوة الامل. ورأيته وهو يسيطر على الجماهير بحديثه الصريح القوي التلقائي. وحين خرج اليه نصف مليون انسان في السودان يعلنون تأييدهم كان هذا سابقة في التاريخ لم تحدث من قبل الا مع «عبد الناصر» وبعد هزيمة ٦٧! ولم يمتلك احد في المنطقة العربية كلها قدرة التأثير على الجماهير الا «عبد الناصر» و «ياسر عرفات» مع الفارق.. ان «عبد الناصر» كان يؤثر في الجماهير مع الشعور بان هذا هو الرئيس «عبد الناصر» يتكلم. اما هو.. فيتكلم ويؤثر مع شعور كل شخص بانه يمتلك هذا الرجل! كل من يستمع لـ «ياسر عرفات» يشعر ان له جزءا منه! مع انه يبقى بشخصه فوق حدود الامتلاك دائما الا ان كل فرد في الشعب الفلسطيني يشعر ان «ابو عمار» ملك له! وهو نفسه يسعد بهذا ويقول دائما: انا لست ملكا لنفسي.. ولكني ملك لهؤلاء! ولعل هذا الشعور الذي يتملكه ويعرفه الناس به هو ما يجذب اليه كل الناس. اذ ان كل من يتعامل معه منهم يشعر أن له من نفسه نصيبا. وهو ايضا لا يجد نفسه الا وسطهم. بابه مفتوح دائما.. ولا يرد احدا ابدا عنه!

وعلى كل ما في ذلك من ارهاق الا انه لا يسعد الا هكذا.. لا يستطيع ان يجلس وحيدا ولو للحظات. انتفت عنده الخصوصية.. اصبح عاما.. «ملك عام!!». وكنت أرى ان هذا ينعكس على شخصه وصحته فهو بشر على كل حال ولكن الضجة لا تهدأ ابدا من حوله.. فهم لا يتركوه ابدا حتى وان اسلم جفنيه للنوم! ولا احد يتصور ان تمتد المقابلات الى الرابعة والخامسة صباحا ولكن طالما هو جالس.. فهم جلوس من حوله!.. حتى اني تصورت ان الرجل يخشى ان يكون وحيدا. او انهم لا يسمحون له ان يأخذ شيئا لنفسه حتى ولو كان لحظة راحة!!.. ولعل هذا يكون رأيا معقولا اذ ما معنى انه لا ينسلت منهم الا حين يصبح عاجزا عن مقاومة النوم؟!

علاقة عجيبة وغريبة! احيانا اشعر ان هذا الرجل الفذ اسير لارادة اصغر حارس من حراسه! بل اني رأيت أحدحراسه وهو يحاول الغاء مقابلة طلبها هو شخصيا.. وحاولت ان اسبر دوافعه.. ولكني احترت ربما يكون غيرة عليه.. وربما ضنا بوقته مع انه هو أعلم بوقته.. ورجح عندي استخسار فترة زمنية ولو كانت قصيرة يسعد الرجل فيها بلقاء اختاره

ربما خرج به دقائق عن حرق الدم الذي يعيشه طوال يومه!

ولقد قال لي احد اصحاب المناصب المهمة بالنص. . وسأورد ما قاله فقط لاشهد العالم على الظلم الذي تفرضه المناصب على اصحابها. . كل شيء ممنوع عليه! قلت له: لكن هذا حرمان من الآدمية. قال: نعم نحن نحرمه بسبب ارهاقنا له بالعمل!! ولبشاعة الكلمات لم اشأ ان استمر في مناقشته! بالطبع لا تكفي كل علامات التعجب لو وضعتها بعد هذا الكلام. الا ان ما سمعته قد أربك ذهني لمدة طويلة. هل وضع هذا القالب الجامد مسبقا وبإرادة اصحاب النفوذ حتى يدخل فيه «عرفات» ويصير هو الصورة الوحيدة التي يراها العالم كله له؟! ام ان هو الذي وضع نفسه عن اختيار؟. . وهل كان اختياره حرا. . ام أجبر عليه؟؟!! لو استطعت يوما ان اناقشه في ذلك فسأفعل. وان كنت اشك ـ بعد حديث ذلك المسؤول ـ اني سأصل الى الحقيقة!

وفي مرة حدثت احد مرافقيه فقلت له: حرام عليكم هذا. لماذا لا يوضع برنامج للمقابلات واللقاءات حتى لا يُستنزف الرجل بهذا الشكل؟. . ولعجبي فقد صاح المرافق باندهاش: برنامج!. . انحن في القصر الجمهوري؟!. . نحن ثورة وفي الثورة كل شيء غير عادي! هكذا كانت اجابته. والذي لم يسمعه اني قلت في نفسي. . تقصد كل شيء مباح حتى القتل بالحب!

ولا ادري تماما أهو الذي عودهم على ذلك ام هم الذين عودوه؟!!. . المهم اني شعرت ان كل هذا جناية على الرجل وان هذا استنزاف فظيع لكل رصيده الصحي والنفسي والعصبي!

عرفت تماما ان الزعامة غير الرئاسة. فهذا الزعيم ملك للناس. . ودائما يتواجد بين الناس بعيدا عن كل تعقيدات البروتوكولات او حتى الاصول. وكما قلت يخيل الي انه هو نفسه لا يجد نفسه الا بين الناس.

ولكني عرفت ايضاً ان الجماهير تريده هكذا. فلا احد يسمح له بشيء من الخصوصية وكأن كل فرد منهم حين يراه يتحدث لانسان ليس منهم يغار اذ يشعر ان هذا حق مكتسب له هو فقط! فقد سمعت من احد مرافقيه وهو يدافع عن هذا الضغط الممارس على الرجل يقول: ماذا نفعل ونحن اذا أتانا صاحب مشكلة ولتكن مثلا طلب كوب ماء ونقدمه له نحن. . يقول لا . . اريده منه هو!! ولم استطع الا ان اقول ان هذه هي ضريبة الحب. . . والزعامة!

وينغمس «ياسر عرفات» في هذا الطوفان لاقصى درجة. فلم يحدث ابدا ان تناول طعامه مثلا بمفرده.. او حتى في جلسة خاصة فليس له حياة خاصة ولا اسرة ولا اولاد! لذلك فهو دائما يتناول طعامه مع الجميع. حتى وجبة الافطار كثيرا ما يضطر ان يخصص وقتها القصير لمن لن يسمح يومه للجلوس اليهم!

ربما كان الوقت الوحيد الذي يمكن ان اجلس اليه للعمل لبعض الوقت وهو يتناول الكورن فليكس بالشاي!.. كأي طفل صغير يتمنى ان تناوله أمه ملعقة تلو ملعقة من اكلته المفضلة!

لكن العمل لا يرحمه حتى في هذا الوقت القصير. فكثيراً ما يدخل احدهم يحمل خبراً او ورقة للتوقيع. رأيته وهو يبعد فنجان الشاي عن شفتيه وهو يمسك بالورقة المقدمة ويقول: «اذن احضر لي منظار القراءة». فلم يكن قد انهى استعداده بعد لدخول المكتب ولذلك لم يحضر المنظار.. لأنه كان يأكل.. لكن الأحداث لا تنتظر!!.

اقسم اني هممت مرة ان انهر احدهم لاقول له دعه الى ان يتم طعامه. ولكني حين رأيته يتقبل ما لا بد وان يندرج تحت عدم اللياقة.. خشيت التدخل. فقد ايقنت ان هذا حقهم عليه ـ سواء منحه لهم هو أو انهم فرضوه عليه ـ والكل يتصرف على هذا الاساس!.. لدرجة اني لم اجلس معه على انفراد ودون ان يتقدم احدهم ليقف امامنا.. اكثر من خمس دقائق!! انسان لا يملك نفسه لمدة خمس دقائق.. لسبب بسيط انه زعيم!

«ياسر عرفات».. رغم انه رجل الاحزان والآلام الا انه قوي متماسك بشكل غريب. هذه الصلابة العنيدة لا شك انها من مكونات الزعامة! رأيته بعيني اثناء حرب المخيمات وكان من الواضح انه يحترق من الداخل.. ولكنه كان متماسكا بشكل مذهل.. لا يفقد اعصابه ابدا. رأيته والالم يعتصره ولكنه ثابت يقيم الدنيا ويقعدها.. يخاطب قواده على البعد وكأنه بينهم. سمعته يقول لأحدهم عبر الهاتف: يجب ان تكون كالاسفنجة تمتص كل ما حولك! كل ما كان يظهر عليه من علامات التوتر في هذا الوقت العصيب هو هزة خفيفة بقدمه!.. ولعل لم يلاحظها غيري لاني كنت اتفحصه لاصل الى اعماقه في هذا الوقت الصعب.

بعد الغارة الجوية الاسرائيلية على تونس وعلى كل ما مثلته له من ألم، اخبرني احدهم انه تحدث اليه بالهاتف ليطمئن.. وبمجرد ان سمع صوته سالمًا انهار باكياً. وكان «ابو عمار» هو الذي يشجعه.. ومن قلب المحنة التي يعيشها يقول له لا يصح ان تفعل هذا.. فنحن بخير!... وحادثته انا شخصيا بعد الغارة بأربعة ايام وكنت اظن ان صوته سيأتيني حزينا

محطها. . ولكني فوجئت باجابته حين سألته: أريد ان اطمئن عليكم. فقال: لا تخافي. . فنحن حديد!!

ولكن حين شاهدت فيلماً خاصاً عن الغارة ورأيته وهو يتفقد اماكن القصف ورأيته وهو يتصدر الجناز ثم يخطب في الجماهير يختلج صوته بالالم والحزن. وهو يودع الجثث المشحونة الى الاردن بالتحية العسكرية. ثم وهو يودع افراد اسر شهداء المصاحبين للشهداء في رحيلهم ويواسيهم ويقبلهم فردا فردا. . عرفت اي رجل هو. . هذا الذي يرتفع فوق الاحزان والآلام. هذا الذي يختزن المه ليكون رفيقا له في وحدته. . عرفت عظمة القائد. . وهكذا يجب ان يكون العظماء.

حضرت معه تسجيل الكلمة التي كانت ستذاع بمناسبة اعياد الثورة الاحدى والعشرين. واقسم انني اختنقت بالدمع مع نبرات صوته واختلاجها وهو يقول: يا رفاق الدرب والخندق والنصر. . ثم يحكي مسيرة الثورة وسط شلال الدم. كلماته الصادقة التي تخرج من قلبه وليس من شفتيه التي تصل الى شعبه في الارض المحتلة تصنع الصمود وتدعمه. وليس عجيبا ان ينتظرها كل فرد من افراد الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة!.

هذا الشعب الذي يرفع صورة «عرفات» في كل مناسبة رغم جنون جنود الاحتلال من تواجد صورته. . ولا يخلو بيت منها ابدا!

حين هنأته بعد الكلمة قال: «انا اسوأ خطيب قارىء!». . وهو بهذا يظلم نفسه كالعادة فليس هو اسوأ خطيب قارىء فيكفيه تلون صوته بمدلول الكلمات.

وربما قال هذا عن نفسه لانه كان يقرأ امام الاجهزة ولم يشهد التجاوب المهول الذي تعود ان يلقاه. فعرفات حين يخطب في الجماهير تتعلق بشفتيه القلوب لانه ينطق باليقين. ويكفي ان يرفع يده بشارة النصر حتى يجن جنون الجماهير وترتفع الايدي كلها بشارات النصر. . ويهدر الهتاف باسمه. وهو حريص ان يختم كلامه دائما بهذه العبارة او هذا اليقين الحقيقي. . . وانها ثورة حتى النصر. وهو صاحب العبارة المحببة - يا جبل ما يهزك ريح - وهنا يشتعل حماس الجماهير.

هناك مخاطبة خفية بين «عرفات» وبين افراد شعبه!. حين رأيته يستعرض طوابير المجندين. . رأيته كيف ينفذ الى قلوبهم بالخطوة والحركة والنظرة والتعبير على وجهه. خطوته ونظراته وحركته امامهم مرسومة بنفاذ الى داخلهم. . لدرجة انني وانا في خارج الصفوف تهيأت أني واحد منهم. . ولو أمرني في هذه اللحظة ان احمل بندقية واتبعه. . لفعلت!!

برغم ان مائدة «ابو عمار» دائما حافلة بالطعام والرفاق الا ان الرجل لا يأكل كثيرا! . . ويقضي معظم أوقات الطعام في تقديمه للآخرين. فهو يعتني حتى بالجالس على نهاية

المائدة! . . وينتقي بعض الاشياء ليضعها امام احد الضيوف. افطاره كما قلت مكون من الكورن فليكس والشاي وقطعة جبن ان وجدت! وكثيرا لا توجد فتنقله السريع من مكان لآخر لا يتيح تعدد الاصناف. . وهو ايضا لا يحبذ تعددها. مرة سألت من احضر الافطار وقبل ان يدخل هو اليناالماذا لا تقدمون له الا هذا الافطار الفقير. ضحك وقال تصوري انه في مرة كاد ان يعاقبني لاني عددت بعض الاصناف في الافطار وكنا في بيروت ايام الحصار. فثار علي وقال لمن كل هذا؟ . . من تظنني حتى انعم بكل هذه الخيرات؟ . . ارفع هذا الطعام فورا واطعم به الناس! فحرام ان يوضع كل هذا الطعام امام شخص واحد. سألته بفضول: ماذا كنت قد قدمت له؟ . . قال صنفين من الجبن وزيتون وزعتر وزيت وعسل ابيض!

غداؤه يبدأ بقليل من الشوربة ثم يمد يده للصنف الذي امامه ايا كان ليأخذ كمية صغيرة. . . وينشغل الكل عنه بالطعام والكلام بينما يهتم هو بالجميع! . . ولكن انا كنت اراقبه. قلت له مرة انت لا تأكل تقريبا. . قال انا اتبع القول اذا أكل ابن آدم فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه. واضحك واقول هذا ليس ثلثا قل ثمنا او تسعاً!

اما عشاؤه فلا يعدو اكثر من جبن وبيض واحيانا فول وزبادي. وتعدد الاصناف هذا يكون لكفاية الموجودين. . اما هو فلا يزيد اكثر من تناول الجبن وكوبا من العصير. . ان وجد. وهو لا يدخن ولا يشرب القهوة ولا الشاي. فيما ندر يطلب شايا في وسط النهار ويحليه بملعقة من العسل. وكثيرا ما ينسى طلب الشاي وعلى هذا لا يتناول شيئا بين الوجبات.

ورغم قلة الطعام فهو يمارس الرياضة. . اقصد بعض التمارين السويدية الخفيفة لمدة ربع ساعة كل صباح ليحتفظ بلياقته!

اللون الكاكي اصبح جزءا من جسد «عرفات» لم اره ابدا الا في هذا اللون. والغريب حقا انك لا تمل رؤياه بهذا الزي. . . بل اني لا يمكن ان اتصوره في غير هذا الرداء! لقد اصبح مكملا لملامحه! واذكر مرة اننا كنا مسافرين اليه. وكان احد اعضاء مكتبه يحمل حقيبة يقول ان بها بعض الملابس التي طلبها. وعند وصولنا قلت له اريد ان ارى حقيبة ملابسه لارى ماذا طلب. ففتح امامي الحقيبة. فوجدت ثلاثة قمصان وثلاث بنطلونات كلها بدرجات اللون الاخضر! واقسم انني وقتها احسست بالتفاهة التي نحن فيها وقلت لرفيقي بالله انظر في حقائبنا نحن وانظر لهذه الملابس! ما هذه التفاهه التي نحن فيها؟ . . لقد تكدست حقائبنا وشيء للنهار وشيء للمساء وعديد من الاحذية والحقائب. . فكيف نحن هكذا. . ويكون هذا الانسان بمثل هذه البساطة؟! وكأن رفيقي اشفق عليّ من لوم النفس

فقال هذا زعيم . . ونحن اشخاص عاديين . ولم تكفني الاجابة بل قلت في نفسي هذا انسان عجيب . الانسان الذي طوّع كل منزع بشري بنفسه في سبيل كفاحه الوطني .

ورغم هذا يبدو «ياسر عرفات» انيقا ! . . انيقا من نوع آخر . . غير هؤلاء المرتدين تصميمات بيير كاردان او غيره . . بل انيق بتفرده بزيه التقليدي . . . ويزداد اناقة حين يستدفىء بالكوفية الفلسطينية حين يلفها حول رقبته في عقدة انيقة ويضع الكاب العسكري على رأسه ! . اما حين يضع كوفيته الفلسطينية على رأسه فتكتمل له سمات الرمز الكبير الذي يسكنه .

لكن حين يشتد البرد فيضع على رأسه ذلك الرداء من الفرو يزينه شعار المقاومة . . يصبح صورة خرافية تتجمع في صورته اشياء كثيرة . وجدت نظري ينتقل بين رأسه وحزام الوسط الجلد الذي يحمل المسدس . ونظرة عينيه التي اوضحها ذلك اللون الداكن فوق رأسه وجدتني اهمس بنفسي . . خرافة . . فارس . . مقاتل ! ووجدت نفسي مدفوعة الى ان اسأله هامسة : أحقيقة لا تحب المرأة؟ فوجىء بالسؤال . . ولكنه قال : «وهل يوجد من يكره المرأة»؟ قلت له : اذن . . لماذا؟ ابتسم وقال : «لاني اخاف عليها» . قلت : هذا ليس خوفا عليها . . هذا عدم ثقة بها . قال ؛ «بالعكس . . انا اثق بقدرات المرأة ومنهن مناضلات ومكافحات» . قلت : ربما لا تشعر ان هناك من تستحق ان تشاركك حياتك . واقسم اني رأيت الألم على وجهه وهو يقول : «لا تتجني علي . . لماذا لا تقولي اني لا اريد ان اعذب معي احدا؟ لماذا لا تقولي اني لا اريدها ان تشاركني تعاستي . . وانا كما ترينني انسانا تعيسا معذبا .

لم استطع ان اضيف كلمة بعد ذلك . انما احنيت رأسي امام كبير ثوار العالم . . الذي يشعر بالتعاسة والعذاب !

اخذتني المفاجأة حين دخلت الى مسكن «ياسر عرفات» . . او المكان الذي يعمل ويعيش فيه ! فهو دائما يعيش حيث يعمل وهو يعيش ليعمل فقط . وما كنت اتصور ان يكون المكان بمثل هذه البساطة ! حقيقة فالرجل ثائر وليس بحاكم تحيطه ابهة الحكم والسلطة .

وعند قدومه الى تونس خصص له قصر ليقيم فيه . ولكنه رفض وآثر ان يكون في ذلك المكان الذي يتيح له ان يكون بين رجاله . . وكما تعود .

وحين فتح المسؤول امامي الباب لادخل الى المكان . . وجدت ان المكان لا يتعدى مساحة غرفتين اجريت بهما التعديلات والتقسيمات لتتناسب مع ما يمكن ان يناسب قائدا عاما !

فغرفة المكتب هي الوحيدة المتسعة في هذا المكان بل يبدو انها قد طغت على القسم المتبقي من المساحة كلها . . وما اظن الا انها جعلت بهذا الشكل الا لتتسع لعدد المجتمعين

به. مكتبة.. يحمل اوراقا كثيرا فوقه وبعض الملفات ايضا.

آخر ورقة كانت امامه قبل ان يسافر قرارابتعيين احد المناضلين في عمل من الاعمال.

وعلى المكتب ايضا لافتة صغيرة تحمل اسم «ياسر عرفات»... وكأن الرجل يحتاج الى تعريف!!.. وكأن اسمه لم يتجاوز كل حدود التسميات والمسميات.. وينتصب شامخا في سمع العالم!

وسألته لماذا تضع هذه اللافتة على مكتبك؟ قال: كما ترين هي من الخزف وهي هدية وصلتني من رجل فلسطيني لا يعرفني ولا اعرفه يعيش في القدس ولكن عندما عرف ان صديقا له سيأتي لمقابلتي صنع هذه اللوحة وارسلها لي ولذلك فانني اعتز بها لان فيها رائحة الوطن وهي من هذا الانسان الفلسطيني الذي لا اعرفه ولكن تربطني به هذه الرابطة الطيبة التي اعتز بها وانها من روائح القدس الحبيبة - ألست ثائرا على طريق القدس وهذه نفحة منها ومن ترابها؟

على يمينه الكرة الارضية ولكن اظن انه لا يتركها تدور.. فقد ثبتها على موقع فلسطين من العالم.. علم فلسطين فوق رأسه.. ثم بعد ذلك عدد من المقاعد يشكل صالونا صغيرا.. ثم الطاولة المستطيلة بكراسيها المتعددة للاجتماعات.. وهذه هي غرفة مكتب الزعيم بكل بساطتها وثوريتها!

ملاصق لغرفة المكتب حجرة لا تحتوي على شيء الا على طاولة اخرى يستعملها الرئيس للغداء مع بعض ضيوفه.. واحيانا لبعض الاجتماعات الخاصة. تليها غرفة ليس بها سوى مكتب وكرسيين عدا كرسي المكتب وهي مخصصة للشخص المناوب. بعدها ممر قصير يفضي الى غرفة نوم الزعيم مباشرة. تهيبت ان انظر في هذه الغرفة.. لانها تحوي أثمن مقومات الثورة الفلسطينية.

هنا ينام «ياسر عرفات» وحيدا الا من احلامه وآلامه! هنا فقط يستطيع ان يفرغ لنفسه بعض الوقت.. والله وحده يعلم ماذا يفعل بها!

أيرفق به النوم فيأتيه؟.. يمنحه لحظات هادئة يحتاجها بعد ضجيج يوم بكل انواع الضجيج؟.. ام ان النوم يغدو شيئا مستعصيا يكمل ساعات العناء بين جفنيه! هل يستطيع الرجل حقا ان يخلص الى نفسه في هذه الغرفة؟

انظر فيها.. فماذا وجدت؟؟.. لا ادري كيف اخذني شعور بالوحشة!.. الغرفة تبدو باردة خاوية زادها الفراش العاري من المفروشات - التي رُفعت بعد سفره - برودة على برودة. أفي هذه الغرفة البسيطة ينام «ياسر عرفات» أعظم ثوار العالم؟ ايستطيع ان يتحمل

برودة الوحشة في هذه الغرفة . . اللهم الا اذا كان وجوده المُتقد وحده هو الذي يحيل وحشة هذه الغرفة الى دفء وحياة! . . واني لعلى ثقة من ذلك . . فهو يمتلك هذا النوع من الوجود المشع الذي يمكن ان يحيل اي مكان الى مكان زاخر بالحب والدفء!

وربما أستطيع ان أسأله السؤال الذي أرجو ألا يعتبره فضولا مني . . وهو لماذا تنام في مثل هذه الغرفة؟! . . وليتني استطيع. ولا ادري من الذي اختار له اثاث هذه الغرفة؟ . . سامحه الله فقد اضاف اليها بهذا اللون الداكن على ما بها . . مزيدا من الكآبة!

وفي مواجهة غرفة نوم الرئيس هذه . . غرفة صغيرة ربما تكون للاستراحة وقبل ان يدخل الرئيس الى غرفة مكتبه حين يفكر ان يشرب قدحا من الشاي او يغيب بعض الوقت في دنيا التأمل .

وهذه هي كل محتويات مسكن «عرفات»! . . انه مأوي يضع فيه القائد نفسه بعيدا عن كل المظاهر والمظهرية . إنه مأوى الثائر . . أو عرينه!

هبطت الدرج وأنا لا استطيع ان اخفي تأثري هزتني بساطة الرجل وتقشفه «ياسر عرفات» يعيش حقيقة حياة الثوار .

ودخلت المطعم حيث يتناول الرجال طعامهم وعلمت انه دائما يتناول طعامه معهم الا فيما ندر وحين يكون لديه ضيوف لا يريد ان يصطحبهم الى المطعم .

ان معظم العاملين في مكتب «ابو عمار» من ابناء الشهداء . . شباب من ذلك الشباب الفلسطيني المميز الذي يؤمن بشيء واحد فقط وهو انه في يوم ما مطلوب للشهادة وهو في انتظار هذا اليوم .

رأيت نظام العمل في المكتب الصحفي . . فالاتصالات قائمة طوال الوقت . . والشباب يرسلون ويتلقون الانباء التي تصل من بيروت عن (حرب المخيمات) التي كانت دائرة في هذا الوقت فور وصولها الى كل الجهات . يُملي احدهم احد الانباء الخاصة بالهجوم على المخيمات ووجهه يتقلص من الألم . . ولكنه يقوم بالعمل . وآخر يسجل ما يحمله له الهاتف من انباء الكارثة لكنه متماسك ليتم عمله . فريق متكامل في خدمة العمل ولا شك في ذلك .

فهم يدركون حجم المسؤولية التي تقع عليهم كجهاز اعلامي يعمل من مكتب القائد العام . وتملكني العجب من كل هذا الحماس الذي يعمل به الشباب . . بل القدرة على مواصلة العمل . ولكني علمت من اين تأتيهم القدرة . ان القائد هنا هو المثل . «فياسر عرفات» يعمل دائما حوالى عشرين ساعة!! لذلك فهم أيضا دائما ساهرون . فليس هو من

الحكام الذين ينامون ويسهر حوله الحرّاس. . ولكنه ساهر يعمل. . فيسهر الرجال حوله.
وهكذا يجري العمل في مكتب «ابو عمار». .

واذا تأملت بعض الاشخاص الذي يحيطون بعرفات وجدت انواعا مختلفة وحين اقول المحيطين به اعني هؤلاء الذين يتعامل معهم يوميا. . فهناك كثيرون يحيطون به ولكني لم اتمكن من تكوين فكرة عنهم ربما لانهم كثيرون وربما لانهم يتغيرون. واكثر الظن لاني لم احتك الا بقليل منهم.

● القائد الثوري الكبير «صلاح خلف» ابو إياد. . الشريك التاريخي لـ «ياسر عرفات» تربطه به وشائج قديمة قوية عبر شريان الفداء والتضحية. قد تجمعه نقاط وتبعده نقاط عن «ياسر عرفات» لكن بقدر. . . لم يتجاوز ابدا الخلاف في وجهات النظر. واختلاف لم يتطرق ابدا للمساس بوشائج الحب المزروعة في ارض الفكر الواحد والامل الواحد.

قبل ان ألقى «ابو إياد» سمعت عنه كثيرا وقرأت عنه كثيرا اذ يقترن اسمه دائما بصفة الارهاب. ورغم اني كنت اعطيه العذر في كل ما اسمع عنه. . الا انني عندما لقيته علمت كم ظلمه الناس عندما الصقوا به صفة الارهاب. لانهم لم يستطيعوا ان يفرقوا بين الارهاب وبين هذه الثورية الفدائية العارمة التي تسكن نفس الرجل. فهو طاقة جبارة لا تنفذ للنضال الشريف من اجل الحق. ولا اكون مغالية ان قلت اني لمست به رقة ورهافة حس ما كنت اتوقع ان اجدها في هذا الرجل الذي يقترن اسمه دائما بالارهاب! فحديثه الهادى وصوته الخفيض ودفء كلماتهونظرته الحانية تعلن عن الانسان الرائع الذي يسكنه! وادهشني وعيه الراقي لقيمة زعامة «عرفات». وادهشني ايضا تواضعه وعدم رغبته في الظهور.

قال لي حين اخبرته. . سأكتب عنك في كتابي هذا. . قال المهم ان تكتبي عنه هو لان الكتاب باسمه. . ولانه في الحقيقة يملأ اكثر من كتاب!.

وعندما قلت له اريد ان اطلعك على مادة الكتاب قبل صدوره. . قال: المهم ان يراها هو ويوافق عليها! . . مثل فريد عن تكريس الاهمية حول القائد وسط كل الادعاءات التي سمعتها عن «ابو إياد»!.

وسألت نفسي وانا استمع اليه وهو يحدثني عن «ياسر عرفات» وانا لا اعجب. . هل يمكن لهذا الثائر ان يمتلك مثل هذا الاحساس؟. . وسمعته وهو يقول: قد اختلفت معه في بعض النقاط ولكن حقيقة احبه. . يربطني به عمر طويل على مدى خمس وثلاثين سنة. اصبح بالنسبة لي جزءا مني. . من ماضيّ وحاضري ومستقبلي. خارج نطاق اي شيء كالخلاف في الرؤية مثلا يربطني به رباط متين. اتمنى ان اراه مرتاحا واتمنى ان اخفف عنه اي ضغط عصبي او نفسي. اتمنى ان اراه يحصل على لحظة سعادة او لحظة حنان دافىء.

اقصد طبعا هذه الاشياء التي حرمته الظروف منها. اتمنى حقيقة لو يحصل على سعادة شخصية». ولااخفي انني شعرت بالاعجاب الكبير وانا استمع الى كلماته الحانية.

والحقيقة ان اعجابي به لم يكن وليد اللحظة او لكلماته الحميمة عن القائد فقط. فقد عايشت «ابو إياد» فكريا من خلال كتابه الرائع «فلسطيني بلا هوية» عايشته في كل كلمة وكل نبضة. في كل صرخة الم وشهقة أسى. عايشته منذ ان كان صبيا في سن الخامسة عشر.. الى ان تكوّن هذا التكوين الثوري الحتمي.. كنت معه وهو يخطو فوق طريق الاخطار لا يحمل الا الرغبة في العيش الحر وجذوة الامل وحرارة اليقين.

الى ان اختتم كتابه بمرحلة لبنان بحربها الاهلية التي غمرتهم!.

لقد نزف «ابو إياد» ذكرياته على صفحات الكتاب.. وقد نزفت مشاعري معه وشاركته الالم والمعاناة بين الكلمات المقروءة التي استطاع ان ينطقها بأنينها الحارق.

ورغم ان الكتاب جاء بمثابة سيرة ذاتية سياسية للقائد الكبير.. الا ان اسم «ياسر عرفات» عبر كل صفحاته لم ينفصل عن اسم صاحب الكتاب وكأنه ايقن انه عندما يؤرخ لنفسه لا يستطيع بحال ان يفصلها عن شريكه التاريخي.. لانه ومنذ البداية اتخذ زمام المبادرة حين اعلن «عرفات» ناطقا باسم «فتح» دون الانتظار لاخذ رأي احد.. وما لبث الجميع ان ايدوا وجهة نظره لانه والكل يعلمون قيمة «ياسر عرفات».

ويحتسب هذا الموقف لـ «ابو إياد» لنعرف نفسيته ونقاء مشاعره. وحقيقة، ففي الرجل نقاء غير متوقع.. وشفافية لا يستطيع احد ان يخطئها. وما كنت احسب ابدا اني حين اجلس اليه وهو الذي يشيعون عنه انه مسؤول ايلول الاسود ان ارى وجهه ينطق بكل هذا الحنان والوداعة والحساسية. قد يكون هو حقيقة هذا المسؤول وقد لا يكون.. ولا انكر اني سألت نفسي هذا السؤال وانا انظر الى وجهه. ولكن اجبت نفسي الرجل ثائر من الثوار.. والثائر يملك اسبابه ودوافعه.

ليكن «ابو اياد» ما يكون ولكن وجدت فيه الثائر الانسان الذي تتكون نفسه من كل الصفات الجميلة الراقية.. وهكذا وجدت «ابو إياد» الشريك التاريخي لـ «ياسر عرفات».

● أما الرجل الذي بهرني بشخصه وفكره وجعل نظرة الاحترام والتقدير والاعجاب أول أساسيات تعاملي معه «هاني الحسن». احد نجوم السياسة الفلسطينية والرجل المصاحب لعرفات في كل مقابلاته واجتماعاته السياسية. عقلية جبارة.. منظمة منطقية. له تأثير كبير في احراز نجاحات عديدة لخط عرفات السياسي. أروع ما به انه يكتب في السياسة باسلوب الادب.. اي انه يؤدب السياسة!... او يسيس الأدب! أعجبتني بعض عبارات كتبها في مذكراته الخاصة قرأها لي لا تدل الا على رهافة الحس واجادة العبارة الادبية. واعجب كيف

والرجل من المفروض انه لا يجيد الا البنود والاتفاقات السرية والعلنية. وتكميلا لهذه الصورة كثيرا ما يستشهد «هاني الحسن» بالشعر على بعض آرائه ورؤياه! ورغم كل الخطورة التي تسكن رأس «هاني» الا انه صاحب وجه بشوش. . لا تجده الا مبتسما ابتسامة كبيرة تلف وجهه كله. . ولكن الذي يلاحظه بدقة يجد لعينيه نظرة عجيبة تبرق في لحظات قصيرة تخيفك لانها بسرعة شديدة تنقلك من الاحساس بأنك امام عبقري. . الى الخوف ان تكون هذه العبقرية قد بلغت حد الجنون! وتشعر بيقين انه على درجة خطيرة من الذكاء. . . وهذا الذكاء هو الذي يلمع في عينيه بالعبقرية الجنونية التي ربما تخيفك للحظات ما تلبث البشاشة التي تشتمل وجهه ان تبددها على الفور!

حين سألته عن «عرفات» قال. . بصرف النظر انه القائد والرئيس. . الا اني ارتبط به برباط حب خفي. . قوي لا استطيع ان اغفله ابدا وفي كل خطواتي.

ارى فيه مأساة شعبنا مجسدة فلا أستطيع الا ان احتويه بكل الحب. . الحب الشخصي الذي يبعد عن اي اعتبارات اخرى. لا استطيع ان اراه متألما او حزينا. بسمته ضرورة لازمة في حياتي! . . وبالفعل فدرجة التفاهم بين الرجلين تبلغ الحد الذي تجعل «هاني» يتحدث بالنيابة عنه امام المعارضين والخصوم بما يريد «عرفات» ان يتحدث به دون اي توجيه.

● اكثر الاشخاص التصاقاً به. . والذي مهمته الا تغفل عينه عنه الا حين يؤمّنه ليذهب لينام خاصة حين يكون في الخارج في سفراته. . هو العقيد «ابو الطيب» قائد قوات الـ ١٧ وهي تقريبا القوات الخاصة. والرجل دائما في مهمة خطيرة. وقد كان احد ابطال بيروت اذ كان مسؤولا عن القاطع الثالث في بيروت اثناء الغزو. وقد اصدر كتابا تحت هذا الاسم قرأته وهزني ايام العذاب التي عاشها الابطال في بيروت. لقد وجدت في كتابه هذا يوميات للحرب. وقد اطلعت على مستندات لعمليات خطيرة كان «ابو الطيب» طرفا بها. وحين كنت اقرأ بكل ما به من هول كنت اقطع القراءة وانظر في وجه الرجل. . فلا اجد الا وجها طفوليا!! فأبو الطيب يحمل وجه طفل بكل سماته ومعالمه البريئة! ويزيد من وضوح ذلك الوجه الطفولي حركة بالعينين بين الفتح والغلق سريعة تزيده براءة على براءة!

وجدته في تعاملاته شهما متعاونا بطريقة عجيبة. . فهو يقدم المساعدة بدون ان تسأله. الوحيد الذي اتصل بي وعرض خدماته. وقد افادتني خدماته كثيرا. فالرجل رغم صبغته العسكرية. . الا انه يكتب ويؤلف الكتب الخاصة بالشيء الذي يجيده. . وهو الحرب. . والأمن! بعد ان رأيت العديد من كتبه قلت له اتمنى ان اشاركك في كتاب نصدره

سويا. رحب بالفكرة وهو يقفل عينيه ويفتحهما ببراءة كبيرة ويقول. . وليكن عن الارهاب!

● من الرجال الملتصقين بعرفات - ربما روحيا اكثر من اي شيء آخر - «نصر يوسف» وهو قائد حربي وقعت عليه مهمة تجميع القوات الذاهبة الى طرابلس من بين فكيّ الكماشة السورية التي كانت تفعل المستحيل لتحول دون وصول هذه القوات الى طرابلس اثناء الاقتتال الانشقاقي الذي دبرته وضلعت فيه القوات السورية. . وألقي الرجل في السجن من اجل ذلك. «نصر يوسف» في شخصه ابعد ما يكون عن صورة المقاتل اذ انه رقيق هادىء لم أعرف خطورة دوره وخطورة المهام الملقاة على عاتقه حاليا! الا من اثناء حديثه! . . ورغم ان حديثه كله كان عن حركة القوات وتنقلها. . والمعارك التي خاضها الا ان الحديث كان يتسم بالعاطفة الجياشة. بلغت به درجة التأثر وهو يحكي عن مرحلة الانشقاق ان غص واحتبس صوته وطلب كوبا من الماء! . . القائد الحربي الذي خاض معارك حربية وسط أقسى الظروف ينطوي على الاحساس المرهف الذي يميز صاحبه! . . في حديثه عن «عرفات» كان وجهه يشرق بالحب والتقدير الزائد لشخصه بدرجة اقنعتني انه لا يوجد قائد ربما في كل العالم يمكن ان يتمتع بحب رفاقه كما يتمتع «ياسر عرفات».

بالطبع لا استطيع ان اقول كل انطباعاتي عن هؤلاء الذين يحيطون «بياسر عرفات» ولكن في الجملة هم يمتازون بشيءخاص اهم ما يبرز فيه انهم جميعا يتعاونون ليسير العمل في الطريق الذي يرسمه القائد. فحتى مرافقيه يحرصون على ان يشعر اي انسان يزور القائد انه موضع عناية منهم الى ان يستطيع مقابلة القائد.

● اما الرائد «يوسف» ذلك المحارب العتيد فهو متحمس بشكل ظاهر. . ولكنه يضحك وبكثرة وكأنه يطبق القول: شر البلية ما يضحك! . . لقد كان يحكي لي عن القتال في بيروت وهو يضحك. كذلك عن طرابلس. لكن ضحكاته من حكايا طرابلس كانت تتسم بالعصبية وهذا يعكس صورة الفارق بين الحرب في بيروت والحرب في طرابلس. يقول انه في حرب بيروت كان يحارب وهو سعيد رغم شراسة القتال وقوة القصف لانه يعرف انه يحارب العدو ولا يخاف من الموت لانه شرف اما في طرابلس فقد كان خائفا! ولكنه كان يلطف حديثه الحزين بهذه الضحكات. ابدى ترحيبه الشديد بكتابي عن «عرفات» ووعدني ان يترجم هذا الكتاب الى اللغة الروسية ليقرأه مليونا عربي في روسيا يجيدون اللغة مع كل الروس ايضا. كل ما اغاظني منه هو انه كان يحكي بعض الاشياء المثيرة. . ثم يقول: ارجوك لا تسجلي هذا عني. . فهذه امور سرية! . . وكنت استزيده فيخبرني روايات لو سمح لي بتسجيلها لكانت من اكثر عوامل الجاذبية في هذا الكتاب! ولكنه كان باستمرار يكرر تحذيره. وما كان في وسعي الا ان اعده ليستمر في رواياته حتى لا افوت على نفسي

● اما «عادل» المرافق الدائم لعرفات ففيه كم من الطيبة غير عادي. رغم ان الظروف تضطره ان يراوغ احياناً. فهو يرحب بك ويظهر الود الذي هو طبع فيه لا شك ولكنه يفلت منك بدبلوماسية. فمثلا حين سألته لقد اتصلت بكم في تونس ووعدت انك ستتصل بي حين تسمح الظروف فلماذا لم تتصل؟... يقول لقد سافرت بعدها مباشرة وانا اعلم انه ليس من المعقول ان يضع السماعة ويتجه الى الطائرة.. ولكنه يعتذر بلباقة.. ومرة اخرى أسأله هل وصّلت ما اخبرتك به للرئيس بعد ان فرغ من اجتماعاته كما وعدت؟.. فيقول آسف جدا والله نمت مباشرة لان الاجتماع استمر الى ساعة متأخرة.. وهكذا.. ولكنك لا تستطيع الا ان تتظاهر بانك تصدقه فهو يلقي كلماته بطيبة شديدة!

● احد المرافقين اسمه «أسد»! اسد بغداد.. وهذا بقية اسمه.. انسان ضخم يبدو الاسم مناسبا له تماما. ولكنه يحمل قلبا طيبا شفافا لا تتصور ان يضمه هذا الكيان الضخم. قلت له حدثني عن «ياسر عرفات».. وكاد الدمع ان يغشى عينيه وهو يقول «ياسر عرفات» انسان مقدس.. وهب نفسه وحياته للثورة. وجوده اهم اسباب استمرار هذه الثورة. وحكى اشياء كثيرة ولكنه استحلفني ان لا اذكر اي شيء عن لسانه. حاولت ان افي بوعدي الا انني لا استطيع ان اكتم هذه الحكاية العجيبة. اذ ان «اسد بغداد» هذا قام مرة وبعد مراهنات بين بعض كوادر فتح ـ باختطاف جندي اسرائيلي والعودة به محمولا الى لبنان من الحدود. ثم اخرجه معصوب العينين الى الاخ ابو علي اياد في سوريا ليكون اول اسير للثورة الفلسطينية لدى «فتح» وتم استبداله بالسجين العربي «محمود حجازي» عن طريق الهلال الاحمر الفلسطيني وكان هذا اول اعتراف رسمي اسرائيلي بهيئة الهلال الاحمر الفلسطيني. وكان هذا نتيجة لتباري كوادر «فتح» في من يستطيع احضار اسير اسرائيلي... وقد احضره اسد!.. واعتذر له عن ذكره هنا اذ ما كان يسعني الا ان اذكره وانا اكتب عن المحيطين «بياسر عرفات»..

● ابو جعفر.. مرافق يدعونه الدكتور. كنت اظن ان لقب دكتور لا يعدو ان يكون اسما حركيا مما تعودوا ان يطلقوه من اسماء! ولكني علمت ان الرجل درس الطب بالفعل وفي جامعات موسكو!

اول انطباع يعطيه ابو جعفر للشخص الذي امامه هو الخوف او الترقب. فهو ضخم صلب... يحلق شعر رأسه كله بالموسى!.. فيعطي شكله هذا الانطباع. ولكن حين اقتربت منه اكتشفت انه وديع بالفعل.. ولدرجة كبيرة!! وحين جلست للحديث معه

اكتشفت انه خطير ايضا! فالأفكار التي تسكن رأسه عجيبة. . وجريئة بل جنونية! . . وحين ابديت دهشتي لافكاره سألني بل استحلفني هل أرى هذه الافكار صحيحة ام لا؟! . . . وبرغم اندهاشي من آرائه. . وامام نبرة الصدق في حديثه لم استطع الا ان انظر اليها بموضوعية.

ولهـولي. . وجدتني اقره عليها!!!. . ولا ادري كيف استطاع ان ينقل إليّ جنون افكاره بهذه البساطة! وحين سألني هل ستعلنين آرائي هذه؟ . . قلت لا . . فسأبتلعها الى ان تستطيع انت إعلانها وساعتها سأشهد انني كنت اول الموافقين عليها!

«عرفات» هو الهاجس الاول الذي يسكن قلب ابو جعفر. . اراه في بعض التنقلات وهـو يسـير في مقـدمـة الجمـع يتلفت فأخاله وحشا يبحث عن فريسة! ولكن رغم آرائه الخاصة. . وشكله العنيف مرح ويحب الغناء! وكثيرا ما اجده يتمتم بشفتيه بصوت منخفض فأقترب واصغي فاجده يترنم بايقاع اغنية. . وحين اسأله اية اغنية هذه؟ . . يرفع صوته فأسمعه يقول: ياسر حبيتك!

● اما «مراد»، المصور الخاص لعرفات فانه كتلة من اللحم المتحرك. . سمين دائما يسبـح في عرقه. في ثواني تجده حاملا الكاميرا يتابع خطوات الرئيس. . ولكنه لا يمنح الصور الا لمن يرضى عنه. ولا تعرف المقاييس التي تتدخل في عملية رضائه. ويمارس عملية تعذيب على الراغبين في الحصول على الصور يستمد منها الاحساس بالاهمية. وهو سعيد حين يرى الجميع يطلبون منه صورهم مع القائد. . يمكن ان يعطيها لهم. . لكنه يقترّ في ذلك فيوعد ويؤجل تنفيذ الوعد ليركض الناس خلفه! . . كل ما يميز «مراد» حبه الهائل لشخص «ياسر عرفات» واينما يتحرك «عرفات» يتحرك «مراد» حاملا كاميراته راكضا حوله. ولكن لا شك ان به كثيرا من طيبة أهل مصر. وتشم فيه بساطة ونقاء وتفاني الانسان المصري.

● الثنائي اشرف. . وكاسترو. . يتشابهان في اشياء كثيرة اهمها الهدوء والصمت! كاسترو. . . شاب دقيق نحيف صامت غامض. . تتوه ملامح وجهه بين كثافة شعره وبين كثافة شعر ذقنه ايضا! . . لا يظهر من وجهه الا عينان يتجمع فيهما السخط على العالم! . حاولت ان آخذ منه بعض التفصيلات عن خروج «عرفات» السري من تونس الى طرابلس بلبنان اثناء احداث طرابلس. فقد عرفت انه الوحيد من يملك هذه التفصيلات. وقال الجميع ان الامر يستوجب اذنا خاصا من القائد العام ليحكي لك.

وحـين طلبت من «ابـو عمار» الاذن بذلك ناداه امامي وقال له: اخبرها بما تريد. وظننت ان الامر انتهى عند ذلك. لكن بعد مدة وحين استطعت العثور عليه ـ وقد كنت

ألاحظ انه يختفي من أمامي كلما رآني ـ قلت له لا بد ان تتكلم. فسأل عن اي شيء تريدين الحديث؟ . . قلت عن الخروج الى طرابلس. صمت فترة ثم قال: لا استطيع ان اعطيك شيئا الا بعد ان يأذن القائد العام! قلت لقد اعطاك الاذن امامي! قال: لا . . . لقد قال اعطها ما تريد. . ولكنه ربما لا يعلم انك تريدين هذا الموضوع بالذات. قلت: لقد قال اعطها ما تريد. . وما أريده هو هذا الموضوع بالذات. قال ليس قبل ان يأذن لي! قلت: لن اعثر عليك بسهولة ثانية ولا تضيع الوقت وسجل لي الحكاية اختصارا للوقت. قال اذن اختلي بنفسي لأسجل دون ان تسمعيني وحين يسمع القائد التسجيل ويوافق عليه سأعطيه لك!

وحين حضرنا «ابو عمار» تظلمت من كاسترو. . فابتسم وقال: عنده حق. . فانه حريص! وسوف اسمع الشريط ثم اعطيه لك. ولم يحدث فقد سافروا بعد ذلك بساعات دون ان احصل على حديث كاسترو الغامض. . ولكن لن ايأس ولا بد ان اجعل كاسترو يفتح فمه ليتكلم!

● أما اشرف او الطرف الثاني من هذا الثنائي فهادىء بشكل كبير. . لا يبدو عليه الغموض الواضح على كاسترو. . ولكنه غامض بطريقة اخرى! . . . لا تظفر منه بأكثر من ابتسامة صغيرة بين حين وآخر. كل غموضه في صمته! كلماته قليلة جدا واحيانا. . لا كلام! نجلس مجموعة ويتكلم الجميع . . . ولا يشارك هو الا بالصمت الذي تقطعه من حين لآخر ابتسامته الصغيرة. ويكتفي فقط بتجول عينيه الساهمتين بين الجميع! ولكن رغم عينيه الساهمتين لا أدري كيف أشعر أن في عينيه رادارا راصد! او كاميرات لاقطة تتفحص الجميع وتسجل انطباعاتها! . . ولكن ربما لو قابلته في غير هذا المكان وغير هذه الظروف فربما خرجت عنه بانطباع آخر وقد يمثل في خاطري بعينيه الحالمتين فارسا من فرسان عصور البطولات او شاعرا من شعراء العصر الرومانسي!

أشرف هذا بتكوينه الجسدي. . وهدوئه. . وصحته. . مثال لرجل الأمن الحقيقي! الرجلان أشرف وكاسترو يكونان ثنائيا متقاربا في اشياء كثيرة وهذا ما لاحظته وحين إقتربت منهما علمت انهما صديقان على المستوى الشخصي والاسري. . والتفاهم بينهما متكاملا ومعظم فترات عملهما معا. وحين يسافران في صحبة الرئيس. . تنضم عائلتيهما لبعضهما انتظارا لعودة الرجلين!

● فتحي الليبي. . شاب وديع أسرتني النظرة الودودة في عينيه! منذ رأيته وهو يعتني باعداد طعام الافطار لـ «ياسر عرفات» وأنا أشعر ان خلف نظرته الطيبة وابتسامته الحانية ما هو أكثر من مجرد انسان يؤدي عمله! . . . كان يفرح عندما يراني قادمة للافطار مع الرئيس

ويحضر الطعام يضعه امامي وهو يشير الى كوب الشاي المخصص لي ويقول هذا من اجلك. . وينتظر إلى ان يدخل «ابو عمار» فينسحب في هدوء راض! سألت «ابو عمار» عنه وانا اقول لهذا الشاب موقع خاص في نفسي. . احس انه قريب مني جدا كأنه ابن او أخ. فقال: بالفعل هو كذلك. وقد لا تعرفين فهو اصلا من ليبيا. ولذلك يلقبونه فتحي الليبي. لقد كنت في احدى الزيارات لليبيا حيث استقبلني اهلها بود وحب حقيقيين. وتقدم مني احد المواطنين وقال لي انا أهب لك ابني حبا وكرامة لك يا ابو عمار. وكان هذا الابن هو فتحي. كان وقتها في الحادية عشرة من عمره. ومنذ ذلك الوقت وهو معي. واعتقد انك من هنا شعرت بهذا الشعور تجاهه. وسألت فتحي العزيز. . . انت اذن ربيب ابو عمار يا فتحي. قال نعم. هو كل من لي وما لي في الحياة. ولا شك ان فتحي قد اكتسب الكثير من خلق «ابو عمار» نفسه تماما كالابن حين يقتدي بوالده. ولا استطيع الا ان اقول ان فتحي الليبي لمس من نفسي وترا خاصا بكل ما يميزه من دماثة خلق وهدوء ووداعة. . ونظرته الودودة. ولا عجب في ذلك فقد نشأ ونما في كنف «ابو عمار» فكان بهذه الصورة الرائعة!

كل ما يميز هؤلاء جميعا هو قوة حبهم للقائد. الحب المطلق له. . وتأثيره الشخصي فيهم. ولقد قدرت فيهم جميعا قوة حبهم وولائهم.

على كل فقد عرفت من اين يأتي «ياسر عرفات» المدّ الحقيقي للقوة الخارقة التي تكمن في شخصه. . من الحب الذي تحيطه به قلوب الناس.

● حاولت ان اتابع يوم عمل في حياة «ياسر عرفات». . ولكن غلبني الارهاق والتعب. فيوم «ياسر عرفات» لا يقل عن عشرين ساعة! يوم كامل بالفعل واحيانا يستغل مسافة الانتقال بالطائرة في النوم ليكون حين يصل جاهزا للقيام بالعمل!

ولم اعلم في حياتي ان رئيسا او مسؤولا يمكن ان يستقبل وفودا بعد الساعة الثانية صباحا. . ولكنه يفعل ذلك. ولا أدري هل يشعر دائما ان الوقت يجب الا يمر بدون ان يشعر انه يفعل شيئا لصالح قضيته ام انه حقيقة يشعر أنه يسابق الزمن في مروره لينتزع من الزمن اي نجاح لاهدافه؟

كل من يعمل معه لا بد وان يشعر بالارهاق والتعب. . ولكن تعبه يخف فلا يليق ان يذهب للراحة والقائد ما زال يعمل! . . ومع ذلك فهو يعرف انه يتعبهم فيلاطفهم ويخفف عنهم. سمعته مرة يعتذر لقائد الحرس الذي كُلّف من قبل دولة مضيفة بملازمته ويقول له آسف اشد الاسف فقد اتعبتك. . سأنام في هذا المكان وتستطيع ان تستريح قليلا فقد ارهقناك!

حين يبدأ يومه في التاسعة صباحا فالكل يعرف انه لن ينتهي الا في الرابعة او الخامسة

صباحا . . اي في اليوم التالي! . . لذلك لا يفوته حدث ولا خبر ولا يغيب عنه اي طارىء حتى ولو كان صغيرا فهو حاضر دائما على كل وسائل الاتصال .

رأيتـه يخرج من اجتماع هام لزيارة اسر الشهداء ثم يعود في العاشرة مساء ليحضر اجتماعا آخر لم ينته الا في الرابعة صباحا . . وكان اليوم عيدا!! فما بالك باليوم العادي؟ جربت ذلك بنفسي يوم اعطاني موعدا لمناقشة موضوع هام . وظل هذا الموعد يؤجل من يوم الى آخر رغم انه كان يؤكد لي الموعد في كل مرة يراني فيها . وبعد ايام طويلة من تأكيداته الشخصية ذهبت وكانت الساعة الحادية عشر مساء . . ورأيته يهم بالانصراف لموعد هام . فذكرته بموعدنا فقال ارجو ان تنتظري . . بل ان هذا رجاء لك بالانتظار!

وظننت انـه لن يغيب طويلا ما دام قد أمر بالانتظار . . فاذا بالساعات تمر والليل يتسابق في انهاء نفسه الى ان وصلت الساعة الثالثة والنصف صباحا . وسمعت ان هناك وفدا قادما من بيروت ولا بد ان يلقاه فور عودته نظرا للاهمية! وحرت هل انصرف ام ابقى . . وهـل سيلقاني كما وعد ام سيلقى الوفد . واذا التقى الوفد اولا فهل سيتبقى منه هو شخصيا ما يقابلني به؟ . . . ولكن لم يكن امامي الا الانتظار .

وحـين عودتـه في الثـالثـة والنصف صبـاحـا ووجـدني تسـاءل منـدهشـا اما زلت منتظرة؟!! . . عل كل هذا شيء جيد ان تنتظري الى هذه الساعة . . واقترب منه من يخبره بوصول الوفد فنسيني فجأة وكأني قد تبخرت من امامه او ان صورتي اختفت من تحت عينيه وجـرى لملاقـاة الـوفد المهم ولم يقل شيئا!! . . وحرت مرةاخرى . . ماذا افعل أأنتظر ام انصرف؟ وكان الارهاق قد نال مني مداه . . وسألت هل أنصرف؟ فاخبرني احد المرافقين . . سيراك بعد الوفد! وظللت في مكاني الذي كنت قد تصلبت فيه نظرا لطول الجلوس حتى بلغت الساعة الخامسة صباحا فاذا به يظهر ولكن على درجة من الارهاق والاعياء كبيرة جدا وقال أرأيت بنفسك شدة انشغالي؟ . . الحمد لله انك رأيت ذلك بنفسك . وحين سألته . . وهل هذا اسلوب عمل؟ قال : وماذا افعل؟ . . هل تنتظرني المعارك؟ . . . المعارك لا تنتظر احدا!

واشفقت على هذا الانسان الذي يعتبر نفسه في معركة طويلة دائمة! واشفقت اكثر عليه وانا ارى آثار الانهاك عليه . وبالطبع لم استطع ان اثير اي موضوع . ونهض في الخامسة والنصف ليقول سأراك غدا لمناقشة الموضوع!

وانصرفت في هذه الساعة وانا اقسم ألا اعود . فلم اعد اريد مناقشة اي موضوع معه بعد كل هذا التوتر الذي عانيته . ولكني عدت في الغد وفق الموعد المضروب وكان الحادية عشر صباحا الى الثانية عشرة وقد استدعى منحي هذا الموعد منه ان يؤجل مواعيده ساعة . .

ولكن للاسف لم يستطع احد الاستيقاظ مبكرا لاحضاري . . فقد تركتهم في قرب السادسة صباحا . . وضاع مني موعدي المؤكد . ولم ألقه الا في الثانية عشر حيث تبدأ المواعيد الاخرى . ومنحني ربع ساعة فقط . . ولم تكن كلها خالصة لي . . ففي كل دقيقة يدفع احدهم الباب لاعطائه ورقة او ليطلب منه كلمة . وطبعا في ربع ساعة متوترة لا يمكن مناقشة اي موضوع فكان ان رمى بكلماته دون اي اعتبار لاي ظروف . . الامر الذي لم استطع تحمله وقلت فليذهب اي كتاب الى الجحيم اذا كان سيحرق اعصابي بهذا الشكل .

ولم ارجع عن فكرتي هذه الا بعد ان علم هو بانزعاجي الشديد فحاول بعد يوم ان يخفف من ألمي وانزعاجي بمنحي بعض الوقت اجلس فيه معه ونتحدث كما يتعامل البشر!

ولا أدري كيف استجمعت شجاعتي مرة وسألته السؤال الذي كان يدور بذهني طوال الوقت . وربما يكون الذي شجعني هو بشاشته وتلك الابتسامة التي تضيء وجهه كله عندما يكون هادئا . وشجعني اكثر الرغبة الكبيرة في النفاذ الى قلبه الوحيد لأعرف سر وحدته! هذا الغريب الذي يسكن في غربته ولا يستطيع ان يقترب من الحب او يسمح باقتراب الحب منه يدفن فيه غربته وحيرته .

هذا الثائر الذي يتحدى العالم بغربته وثورته ومعاناته وهموم شعبه! حمل كل آلام شعبه في قلبه ولم يرد ان ينفذ الى قلب يحتوي كيانه الرقيق!

هل لم يلتق «ياسر عرفات» بقلب يستطيع ان يقنعه بانه يمكن ان يحنو عليه ويحتويه كله بحبه الكبير للشعب وآلامه وعذابه ومعاناته؟ . . أم انه شخص قد استطاع خنق الخفقة في قلبه فلم يعرف قلبه الخفق الا فرحا بنصر عسكري او حزنا على الشهداء؟ . . ام انه قد تجمد منه الاحساس بالمرأة في خضم احداث واقعه الغريب؟ هنا يكون السؤال الحقيقي .

وقد حورت في السؤال حتى لا يكون مباشرا . . . وحتى لا اجعل السؤال استفزازيا فيثير ناحية الرفض فيه . فالمتعامل مع «ياسر عرفات» لا بد وان يكون متفهما لخاصية هذه التركيبة النفسية الفريدة . وحتى لا يلقى باجابة تقليدية اعتاد ان يقولها في بعض الاحيان مثل انه متزوج من القضية الفلسطينية! ولاني اريد تفسيرا لهذا الموقف غير العادي في حياته غير العادية .

قلت يا ابو عمار ـ كل عظماء العالم وقادته وساسته وحكامه . . حتى زهاده بل وطغاته ايضا كانت لهم نساء . . حتى غاندي اشهر زهاد العالم . . حتى هتلر اشهر طغاة العالم لم يجد عند موته الا صدر امرأة احبته . والتي عقد زواجه منها في احلك اوقاته واقساها . . ثم اسند رأسه على صدرها واحتوته . . وماتا معا . فلماذا . . . وصمت فترة ثم اضفت . .

لماذا؟ . . ولم اكمل سؤالي وفضلت ان اتركه مفتوحا .

هدأت ابتسامته الواسعة وارتسم على وجهه شيء من الشجن وقال: هذا عهد! عهد قطعته على نفسي. انا مناضل اختلف تماما عن كل من ذكرت. طبيعة الحياة التي احياها. . والظروف وقضيتي تفرض علي ذلك. تفرض ان اكون متفرغا تماما لما أنا فيه. كل ما يحيط بي يجعلني اتجاوز اوضاع الرجل العادي اقصد الرجل الذي يعيش حياة طبيعية. . . ولاني دائما اشعر انني لست ملكا لنفسي!

قلت هل معنى هذا ان قلبك لم يخفق ابدا خفقة حب؟ ازدادت ملامحه هدوءا وشجنا وقال: وهل يعقل ان يعيش انسان على مدى هذا العمر دون ان يخفق قلبه؟!

وشجعني رده على ان اسأل: اذن لماذا لم تستجب لهذه الخفقة النورانية التي يتمناها كل البشر؟ . . قال متخلصا من السؤال: لانني لا اعيش حياة مثل كل البشر؟

ـ اذن اخبرني كيف استطعت؟ . . تنهد القائد الذي يواجه الدنيا كلها بتحديه الاسطوري. . . لاني تعودت ان اقتل نفسي بقرار!!

قلت: اذن خفق قلبك بالحب؟ . . قال نعم.

قلت اذن كيف كنت تتخذ القرار القاتل في امر يستعصي على القرارات؟ . . هذا امر يختلف عن امورك السياسية التي يمكن ان تتخذ من اجلها القرارات. ـ ألم اقل اني لست ملكا لنفسي؟ . . اذا كل اموري اخضعها لقرار. قد يكون ليس امرا سياسيا ولكنه امر وجودي. . ووجودي ينبع من الالتزام الفلسطيني الذي لا اتنفس الا من خلاله!

ـ هل افهم من ذلك ان وجود المرأة برأيك يمكن ان يكون عائقا دون نجاح اي دور يقوم به الرجل من خلال التزامه بقضية او بموقف؟

قال ابدا فالمرأة قد تكون دفعا هائلا لاي نجاح ولكن للذين يحيون في ظروف عادية. . وحياتي كما ترين صعبة ومعقدة. وقد يظلم وضعي اي مخلوق يشاركني إياه! هل ترضى امرأة ان تشاركني الطائرة او كل يوم في بيت ا و في بلد. قلت بفضول هل افهم انه لو وجدت انسان باستطاعتها ان تتحمل كل هذه الصعوبة وكل هذا التعقيد وتأكدت انت من ذلك تسمح ان تشركها في حياتك؟

قال حتى لو وجدت. . لا استطيع ان اشعر بعقدة الذنب تجاه مخلوق بوضعه في كل هذا العناء!

قلت: حتى لو اقتنعت ان هذا المخلوق يتمنى بكامل اختياره ان يشاركك هذه الحياة؟ ويبدو انه ضاق بهذا الحوار الذي يتناول امرا يعرف جيدا انه مثار تساؤل كبير بين

الناس فقال بشيء من العصبية. . قلت لك ان هذا عهد قطعته على نفسي. . ولا يمكن ان يحدث والـظروف المحيطة بنـا كما هي. . ونحن لا نستـطيع ان نثبت اقـدامنـا فوق الارض. . فسألت: وهل تستطيع ان تحتمل؟! قال نحن لا ننسى اننا ثورة بساط الريح والجالس على المقود أتعس من فيها ثم ابتسم ابتسامة متعبة او متألمة. وقال: لقد استطعت طوال هذه المدة من العمر. . فكيف لا استطيع فيما تبقى؟.

في ٢٤ ديسمبر ٨٥ ذهبت الى «ياسر عرفات» في تونس. وكان قد مرّ على الغارة الاسرائيلية على تونس أقل من ثلاثة شهور. فقد كانت الغارة الآثمة في اول اكتوبر ٨٥. وكنت اتمنى ان لا اذهب اليه في تونس بعد هذا الحدث وقبل مضي وقت طويل تهدأ فيه الجراح وتتعلق النفس بالنسيان حتى تستطيع تقبل ما كان. تهيبت ان ادخل تونس فلا اجد اناسا كنت اعرفهم واعرف انهم ذهبوا ضحايا الغارة. وكنت اتهيب ان ادخل تونس فلا اجد المكان الذي اعرفه. ذلك المكان الذي كان مقرا لـ «ياسر عرفات»، بملحقاته والذي وصفته بدقة في صفحات سابقة من الكتاب. بيت الزعيم. غرفة مكتبه وغرفة نومه! . . فما زلت احتفظ في ذاكرتي بأدق اوصافها. وكنت قد قضيت وقتا ليس بالقصير في تأملها لدرجة اثارت عجب المسؤول الذي كان مصاحبا لي. وقال وقتها: فيما تتأملين كل هذا الوقت؟ ماذا كنت تفعلين اذن لو انه موجود هنا؟ . . قلت: حقيقة انه ليس بالمكان ولكن اشعر ان روحه به. وكم كنت اتمنى لو اني املك قدرة لاخفاء كياني حتى ارقبه في لحظاته الخاصة. او لحظاته الهادئة التي يتركه فيها الزحام والضجيج ويتوقف سباق الكوارث من حوله. كنت اتمنى. . ولكن هذا كان شيئا مستحيلا! .

كان من الصعب علي ان اذهب لأجد كل ما شاهدته انقاضا وحطاما. ولكن الرجل كان مريضا في هذا الوقت. وكانت وسائل الاعلام تتضارب في نشر اخبار مرضه وتتكهن كثيرا بنوع هذا المرض لدرجة اني شعرت بالقلق رغم تأكيد بعض المسؤولين القادمين من عنده بأنه تماثل للشفاء. نويت ان اطمئن بنفسي.

وحين ذهبت ولقيته وجدته كما هو. . بلباسه المعتاد وكوفيته حول رقبته. سألته وفي صوتي رنة الانكار: هل كنت مريضا؟! . . ابتسم وقال: نعم كنت مريضا. . . خرجت مني كلمة: كيف؟ . . بدون ارادة. . ضحك وقال: مرضت كما يمرض الناس. قلت: لكن انت لست ككل الناس! .

فضحك بعفوية وقال: لقد هاجمني فيروس سبب لي بعض الالتهابات في القصبة الهوائية وارتفاع في درجة الحرارة. . هذا كل ما حدث.

ولم استطع ان اقول شيئا فقد كانت خواطري غير مقبولة لو قلتها. اذ اني كنت أود ان اقول اي فيروس هذا الذي تجرأ ليهاجمك! ولكن يبدو ان ملامحي اظهرت ما يجول بداخلي. . فازدادت ضحكته المضيئة وهو يشير الى جريدة كانت تنشر اخبار مهولة عن مرضه وقال: كما ترين لم يتركوا مرضا لم يدّعوا أني مريض به! ونظرت بالصحيفة

فوجدتها تقول إن «عرفات» مصاب بانهيار عصبي وتسوس في العظام او نوع من انواع السرطان! .

فقلت له: لو سمحت لي سأكتب خبرا عن مرضك لأثبت للناس انك بخير.

فقال: اكتب ما شئت فانا كما ترين.

وفي آخر الجلسة قال: ارجو ان تزوري حمام الشط لترى بنفسك بشاعة الدمار الذي سببته الغارة.

واعترف اني لاول مرة كنت لا اود ان اجيب طلبا له! . . فكم هو قاسي على نفسي ان اذهب لهذا المكان الذي كان عامرا به وبأصحابه فلا أجد الا اكوام الركام! .

وفي صباح اليوم التالي ارسل لي من يأخذني الى المكان . . فعلمت انه مصمم على ذلك فلم يسعني الا ان اذهب. وكانت رحلة قاسية عليّ . . فحين وصلت المنطقة وقفت ورفاقي أمام احدى البنايات وحين دخلتها علمت ان كل شيء قد انتقل الى هذا المكان. ووجدت المكان يضج بالحياة والحركة والعمل! .

وحين تأملت الوجوه ورأيت الحزن الممزوج بالعزم . . عجبت! حقيقة عجبت من ذلك الانسان الفلسطيني الذي لا تقهره الاحداث! انهم في كل مرة ينهضون من جديد! . . ولقد علمت ان هناك خطة لتعمير المكان مرة اخرى واعادة كل شيء على ما كان عليه! وتردد على اذني جملة قالها «هاني الحسن» وهي: نحن ابناء النصر الآتي من تحت الركام!! وقال ابو عمار: «اننا طائر الفينيق في العصر الحديث ينهض من تحت الرماد اكثر قوة وتصميما وارادة».

وقلت: حقيقة هؤلاء اولاد النصر الآتي من تحت الركام والرماد! .

واخذوني الى اماكن القصف . . وكان يصحبني مصور. وهو في الحقيقة ليس مصورا ولكنه احد الشباب المثقفين درس فن الاخراج السينمائي في بلغاريا وحصل على الماجستير وهو يعد الآن للدكتوراه. وقد اخرج افلاما عن المقاومة نالت الجوائز وكانت موضوع رسالته. اسمه عبد الحميد زعموت . . متحمس يحتضن الكاميرا يسلطها على الركام وكأنه يحتضن قلبه الممزق! . . قال لقد صورت المكان فور توقف القصف وكم كان أليما ان أرى جثث ودماء اصدقائي واخواني . . ولكن كنت اصور . . كنت اصرخ: في ألم . . ولكن اصور. كان شيئا مخيفا ان ترى عيوني هذا الهول. كان وجهي يحترق ولا ادري اهي دموعي أم أنه لفح النار المنبعث من الركام المنصهر تحت القصف. أشار إلى كوم من الركام ليس بالكبير لأن القذائف كانت من ذلك النوع الذي يصهر الأشياء فلا يبقى منها الا قليلا وقال: هنا كان مقر قوات الـ ١٧ . . وكأن الصهاينة قد وضعوا حقدهم كله على ذلك المقر لما تمثله لهم قوات

الـ ١٧ من فزع . لقد كان الانتقام رهيبا بالذات على مبنى الـ ١٧ لقد ازالوه تماما من على وجه الارض . فقلت : وما الفائدة لقد أزالوا بنيانا وقتلوا بعض الضباط . . . ولكن الـ ١٧ باقية وها هي من جديد تذيقهم الويلات . ولا احد ينسى اول ضربات الـ ١٧ وبعد الغارة بأيام حين حطمت مبنى المخابرات الاسرائيلية وقتلت به من قتلت ! .

ولكن حين وقفت على اطلال المقر الرئيسي الذي دخلته ووصفته . . شعرت بقلبي يتمزق . يد قوية من ألم اعتصرتني وانا لا اجد شيئا من ملامح المكان ! كأني لم أدخله أو لم أتعرف عليه ! .

قالوا لي : لقد اسقط صاروخ في وسط غرفة نومه بالذات . . وقد وجدنا بعض ملابسه وبعض فراشـه هنا وسط الركام . والاوراق كلها كانت محترقة ومبعثرة في وسط الحجارة . وكل الاجهزة التي كانت في المكاتب كانت متفحمة وسط البقايا . الجثث كانت مطحونة تحت الانقاض وبُذل جهد كبير لاخراجها من تحت الركام ! كان المكان كله مخيفا ورهيبا وشاهدا على الظلم الذي وقع عليه .

ايّ يد آثمة امتدت وسمح لها العالم ان تبطش بكل هذا البغي الذي وقع على هذا المكان ؟ هؤلاء من يتحدثون عن الارهاب . . اي ارهاب يمكن ان يقارن بهذا الارهاب الذي تمارسه اسرائيل ومن يساندونها . . . ثم أي سلام تتشدق به اسرائيل وقادتها الذين يقولون انهم يسعون له ؟ ! .

بالله من يقع عليه مثل هذا الاعتداء . . هل يمكن له ان يصدق اي كلام عن السلام ؟ .

اخذتني خواطري وانا في وسط الركام . . ولكن الدموع استعصت عليّ ! ! ـ فليس هذا مكان تذرف فيه الدموع . . لكنه مكان يثير في النفس كل مشاعر الغضب والادانة والانتقام .

ولفت نظري بوابة بيت «الرئيس» الخلفية . فقد ظلت هذه البوابة شامخة كما هي وكأنها لم تمس . لقد بدت بحديدها الذي لفه لون الدخان بانتصابها الكامل وكأنها الدليل على الصمـود الفلسـطيني ! نظرت الى البوابة وكأني اشكرها ان بقيت صامدة . . وكأنها الأمل الحي ابـدا في نفـوسهم لا يمـوت . كان لا بد لي ان اشاهد شيئا مازال قائما في هذا المكان . . ما كنت أقوى ان أراه كله متناثرا على الارض . فحققت لي هذه البوابة أمنيتي ! ! .

وفي الجوار يوجد ركام بعض البيوت المجاورة التي كان يسكنها تونسيون . . وقد نجا منهم من نجا وقُتل من قُتل ليكون دليلا على وحدة الدم العربي . وقد رفض اصحاب هذه المنـازل قبول التعويض من منظمة التحرير كرمز للتضامن مع الشعب الفلسطيني ، لكن

القرار الذي اصدره ياسر عرفات كما عرفت فيما بعد هو اعادة بناء جميع ما تهدم بالمنطقة على حساب منظمة التحرير وتعويض اسر الشهداء، ولفت رفيقي نظري الى حفرة هائلة العمق والحجم لدرجة اظهرت المياه الجوفية من باطن الارض من قسوة القصف المركز.

غادرت المكـان وأنا اكتم مشاعر الرفض والسخط والادانة للعالم كله الذي يسمح بمثل هذا البغي!.

وعندما رأيت «ياسر عرفات» بعدها سألني: هل زرت الشط؟. فلم اقوى الا ان اقول حمدالله على السلامة.. ولم يزد عن ان قال: أرايت؟ ورغبة مني في ازالة التوتر.. وكنت أعلم ان هناك مظروفا كبيرا كان يحتوي بعض الاوراق التي كنت قد سلمتها له لمراجعتها فقلت ضاحكة: اظن ان مظروفي الذي كان عندك احترق بأوراقه كلها؟.. فابتسم وهو يقول: قد تعجبين.. لقد أتوا الي بمظروفك هذا سليما الا من بعض النقرات الصغيرة على المظروف فقط بعد ان وجدوه وقد قذف به الانفجار الى قرب شاطىء البحر ليبقى سليما وينجو من الاحتراق!.

ومع كل الاندهاش الذي اصابني الا اني تمتمت بصوت خافت ولا ادري ان كان قد سمعه ام لا: **حماه الايمان!**

الا ان ظلال الغارة مازالت مخيمة على «تونس».. او بالدقة على وجود «عرفات» في تونس! وقد ادت المواقف والتصريحات بعدها الى ان تعيش القيادة في حالة استنفار أمني بالدرجة القصوى.

وكـانت هذه الحالة خطة اسرائيلية مرسومة!. فقد هدفت السياسة الاسرائيلية ان تشيع الخشية من ضرباتها سواء عن طريق القصف الجوي او طريق الاغتيالات الى ارباك القيادة الفلسطينية بحيث يصبح كل همها توفير الحماية لنفسها مما يعوقها عن العمل او التنظيم.

ولكنهم يتصورون ذلك لانهم لا يدركون النسيج النفسي «لعرفات».. وذلك النسيج المتفرد الذي يجعله يستطيع ان يعمل وفي قمة لياقته بينما يسكن في حقيبة متنقلة او فوق مقعد طائرة!.. فليس هو القائد الذي لا يستطيع ان يعمل الا في المكاتب الفاخرة بينما يصطف حرس الشرف لتحيته عندما يخرج او عندما يدخل.. انه القائد الذي يستطيع وببساطة ان يكون في أي مكان.. وكل مكان!.

وهو يعيش هذه الحالة كواقع يجب عليه ان يتحمله. قلت له باشفاق: كم انا خائفة عليك! قال: لا تخافي الله معي. قلت: يعني انت مطمئن؟. قال انـا رجـل مؤمن!.. فوجدت ان كلماتي كلها غير ذات معنى مع هذا الانسان الذي يخطو فوق النار.. معتمدا

على الله.

لقد قابلته في هذه الزيارة ست مرات ولم اجده في مكان واحد الا مرتين فقط وعندما كان مازال في فترة النقاهة!!. وبهذا لا يستقر في مكان.. دائم الحركة. وفي اي مكان يكون تتخذ القيادة كامل مقوماتها بأجهزتها وعدتها ولا يمل من حوله لبسط ذلك وجمعه في ساعات قليلة!.

لقد حكى لي بعضهم مرة بعد ان اوصلوني الى الاوتيل انهم حين عادوا وكان هذا بعض نصف ساعة فقط من مغادرتي المكان لم يجدوا لهم اثرا في المكان الذي تركوهم به. لقد غيروه بسرعة الى مكان آخر كلفهم البحث عنه ان يظلوا ساهرين الى الرابعة صباحا!.

الا اني اشفق من كل هذا الجهد على الرجل.. فمن هذا الذي يستطيع تحمل كل هذا التوتر؟.. من هذا الذي يحتمل عدم الاستقرار الدائم وكل ما يحيطه من خطورة بهذا الشكل؟.

لقد ظل «عرفات» بعد الغارة لمدة خمسة واربعين يوما ساكنا في الطائرة التي تجوب به انحاء الارض. ولو اراد احد ان يلاحقه لقطعت انفاسه خلفه ولكن الرجل يحتمل. لقد قال امامي في احد المرات التي حط فيها على الارض في احدى زياراته السريعة... بالله أية امرأة ترضى ان تسكن معي في الطائرة؟! ولكن بعد ان رأيت سرعة تنقله في تونس... وكل التوتر الذي يخوضه سألته بفضول وتحفظ.. لاني كنت قد ابتدأت أصدق انه قد ألف مثل هذه الحياة وانه حتى ولو اتيحت له الحياة المستقرة... فلن يفضلها لانه لم يتعودها. فسألته بحذر: الا تتمنى ان تهدأ وتستقر كباقي البشر؟.. رد على الفور: اتمنى.. ولكن هذا قدري.. ألم أقل لك إني تعيس!!.

الا اني اعتقد انه ليس تعيسا.. ولكنه زعيم عظيم.. لذلك يحتمل هذا النوع العجيب من الحياة. وكأن القدر اختاره هو بالذات لزعامة الشعب الفلسطيني لانه الوحيد الذي كان يمكن له ان يحيا هذه الحياة!.. شديدة الظلم والقسوة والقلق والدم.. والشهداء والنضال وعدم الاستقرار.. وانتفاء الخصوصية!.

## * فن القيادة

إذا كنا قد إتفقنا أن القيادة فن . . وان القيادة لا تسلس الا في يد من يستطيع تملكها فان «ياسر عرفات» يكون أبرز محترفي فن القيادة في العالم! وقد تميزت قيادته بتوافر ملكات طبيعية ومهارات مكتسبة نمّاها داخل سياج الضرورة المفروضة على كيانه! هذا القائد الذي روّض طبيعة الانسان فيه بحيث يرتفع به عن الصورة المألوفة والمتداولة . هذا القائد الذي استطاع ان يخط طريقا لتعاملاته يؤدي به الى قمة النجاح رغم تناقضات الواقع الذي يحيطه . وينمي مواهبه الطبيعية بحيث يحيط بكل ما ينفع او يدفع بصلة الى الامام . فليس غريبا ان يفهم فن الهندسة . . والميكانيكا وعلوم الطيران وتصور الخرائط وعلم الفلك . تصنيع اضافات على بعض الاسلحة وعلوم الحرب والاقتصاد والاعلام وكل شيء يمكن ان يدخل في تكوين الشخصية القيادية!! .

وحين نعرض لفن القيادة عند «عرفات» فلابد لنا ان نتكلم عن نواح كثيرة نستطيع استخراجها من كلام العاملين معه . . والذين يعرفونه جيدا .

وكان من اظهر نواحي تميزه حسه الاقتصادي . فهو بماله من خبرة ومعرفة يدرك تماما اهمية الاقتصاد في دفع اي هدف نحو التحقق او الفشل . ولان جميع النظريات السياسية أثبتت ارتباط الاقتصاد بالسياسة .

والدول المستقرة تبني كل استراتيجياتها وخططها السياسية على الاساس الاقتصادي . وحين قام «ماركس» ببناء نظريته الاقتصادية اظهر بجلاء اثر الاقتصاد في المجتمعات . بل اوضح ان الاقتصاد هو الدافع الاساسي في تغيير الواقع للوصول الى الافضل .

لكن منظمة التحرير ليست دولة ولم تستقر على ارضها بعد لتكون لها مؤسساتها وخططها للتنمية الزراعية والصناعية . فكيف كان فكر «ياسر عرفات» الاقتصادي؟ وكيف خرج من وسط ظروفه الصعبة هو وحركته الى فرض واقع اقتصادي لمنظمة التحرير ان لم نقل انه مستقر تماما فهو في سبيل الاستقرار والتماسك؟ كيف استطاع انشاء المؤسسات المستقرة في الفراغ تمهيدا لاستقرارها فوق الارض؟! . . حين تتملك الارض في يوم من الايام؟! .

كيف استطاع الخروج من كل الضربات العسكرية التي كثيرا ما نالت ودمرت مؤسسات الثورة بتماسك وصلابة اكبر في إعادة تأسيسها؟ . . وهل يتملك «ياسر عرفات» العقلية الاقتصادية التي تمكنه الرؤية والكشف من وسط الضباب حوله؟ . . هل وهل؟ .

يقول «ابو علاء» مدير عام مؤسسات صامد والمستشار الاقتصادي لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير . ان المعروف ان «ياسر عرفات» كان رجل اعمال ناجح علاوة على انه كان مهندسا متخصصا . ولكنه ايضا كان رجل اعمال ناجح في الكويت . . وكان يمتلك شركة مقاولات . لذلك فالحديث عنه لا يمكن ان يغفل الناحية الاقتصادية لانه اكتسب

خبرة في مجال هذا العمل مكنه ان ينظر لهذه الناحية بشكل اكثر عمقا من الآخرين ويقول «ابو علاء» انه تعامل معه منذ عام ٧٠ سواء من الناحية المالية او الناحية الاقتصادية . ويقول انـه تعلم منه الكثير مع انه متخصص في هذا المجال! . ولكنه كان اسبق من الجميع في تفكيره سواء بالنسبة للشعب الفلسطيني في الارض المحتلة واحتياجاته في مرحلة النضال ومـرحلة التحـرر الوطني او حتى في النظر الى المستقبل في مرحلة الاستقلال المأمولة . او بالنسبـة للشعب الفلسـطيني خارج الارض المحتلة ومعـانـاته في المخيمات وضرورة توفير احتياجاته . وكذلك بالنسبة للروابط والعلاقات مع الدول الصديقة وتطويرها ليس في مجال القضية السياسية فقط وانما في المجالات الاقتصادية كذلك .

فمثـلا الفلسطينيون في المخيمات . . وخاصة في مخيمات لبنان كانوا يعانون من قلة فرص العمل . ولا يعطونها الا في حالات قليلة ونادرة حين يمثل الفلسطيني كفاءة او تخصصا نادرا . فكـان هناك مشكلة بطالة . ومن هنا كان بعد نظر «ياسر عرفات» بضرورة وجود معامل ومصانع ومشاغل في المخيمات الفلسطينية لتشغيل الفلسطينيين .

ولم تعفه مشكلة التسويق التي تمثل اكبر عقبة في وجه اي صناعة . وتغلب عليها بفكره بحيث اصبـح التسويق للايفاء باحتياجات الثورة والقوات . ومن هنا كان قراره الواضح الصريح بأن الانتاج الذي تنتجه الثورة او مؤسسات صامد يسلم الى القوات . وهكذا حلت مشكلة التسويق وتوفرت فرص العمل في المخيمات اكثر من المتوقع .

مثال آخر على فاعلية فكره الاقتصادي . . فحين حدثت كارثة «تل الزعتر» واخرج سكـانه وهم حوالى خمس وثلاثين الف نسمة وحوالى عشرة آلاف لبناني . . وكانت الثورة ملزمة بالطبع بهؤلاء الناس . وكان من رأيه ايجاد عمل لكل فرد حتى لا يشعر انه يأخذ ما يأخذ كمنحة او هبة وانه يأخذ ما يأخذ مقابل عمل . وكانت تعليماته واضحة انه خلال خمسة عشر يوما لابد ان يشغل ثلثمائة عامل . . أي تستفيد ثلثمائة اسرة وكان هذا امرا صعبا فحتى لو ارادت دولة تشغيل مثل هذا العدد في نفس هذه المدة لضاع اضعاف اضعافها في عمل دراسات واعتبار الجدوى الاقتصادية وهكذا . ولكنه لم يعبأ بأي جدوى اقتصادية وكان يقول يهمني الجدوى السياسية والجدوى الاجتماعية لهؤلاء الناس حتى يبقى ارتباطهم بالثورة طالما هم يعملون في مؤسساتها .

وكانت الاستجابة ضرورية وحتمية بحيث تم تشغيل ثلاثمائة عامل في الدامور عدا عما تم تشغيله في برج البراجنة وصبرا وشاتيلا! .

وفي عملية الانتـاج ايضـا . . كان دائـما يؤكـد على ضرورة تحقيق الاكتفاء الذاتي لاحتياجات الثورة . كان دائما يقول يجب النظر لما تحتاج الثورة . . ليس بالضرورة ان تكون

الارض موجودة للزراعة ثم تقوم الصناعات عليها كما يحدث عادة. فعندنا الظروف متغيرة. فاذا كانت القوات في حاجة الى ملابس.. يجب ان نكفي احتياجات هذه القوات. المقاتلون بحاجة الى الاحذية.. فصنع احذية المقاتلين.. الملابس الداخلية.. غطاء رأس المقاتل ايضا. ويحتاج المقاتل الى اثاث لبيته فليصنّع الأثاث وهكذا قامت سلسلة من الصناعات للايفاء بالاحتياجات الضرورية.

وكما هو معروف لم يمتلك الفلسطيني ابدا وفي خلال تاريخه الطويل الآلة.. لانه ببساطة لم تكن له دولة مستقلة ليعمل بها.. فهو لا يعرف الا الملكية الخاصة. لكن مؤسسة «صامد» اصبحت ملكية عامة. وهنا دخلت المؤسسة في مشكلة علاقات الانتاج فكيف يتعامل مع العامل وكيف يتعامل هو مع الآلة وما هي علاقتهم مع بعضهم وما هي حقوق العامل وهكذا.

وكانت تعليماته واضحة ومحددة في رسائل متعددة.. شكلوا نواة القطاع العام الفلسطيني بعيدا عن البيروقراطية والروتين واعطوا العامل كل الاهتمام واعطوه كافة الضمانات والحقوق. وبالفعل فرغم أن هذه المؤسسة ليست في دولة سميت قطاعا عاما.. سواء تجاوزا او حقيقة. فالقطاع العام دائما يوجد على ارض وحدود. ولكن هذا القطاع العام مهاجر ايضا مع الثورة. ولكن بحكم ملكيته العامة للثورة اعتبر ملكا ايضا للشعب. واصبحت مؤسسة «صامد» حقيقة قطاعا عاما! ولتكن هذه هي تجربة للمستقبل.. فحين تصير هناك دولة ـ وهذا لابد وان يكون ـ نكون قد مررنا بمرحلة التجربة والخطأ ولو نسبيا فنستقر بمؤسساتنا وقد بدأ هيكلها وتجربتها على الاقل لمن يريد ان يبنى قطاعا على الارض المحررة. وتتعرض هذه المؤسسات للرقابة. فهناك لجنة عمالية. لجان فتح ولجان المنظمات الاخرى وفي المؤتمر الحركي يقدم تقرير مالي عن هذه المؤسسات.

حتى مثالب القطاع العام في الدولة تجاوزناها لحسن الحظ.. ولصدفة تاريخية إننا نمارسها قبل الوصول الى السلطة وهذا اساس ربما يكون الاهم في تدعيم البندقية.. او هو الطريق الى البندقية التي هي تعبير عن ارادة جماهيرية وتنظيم سياسي يمثل هذه الجماهير التي لا يقتصر تعبيرها على التعبير السياسي او الثوري ولكن لها ايضا تعبيرها الاقتصادي.

فهنالك البندقية الثائرة.. وهنالك ايضا المجتمع الفلسطيني الذي يحاول ان يفرض وجوده من العدم. فهو حين يقيم هذه المؤسسات يحاول ان يجعل البندقية تفرض واقعا ويفرض الاقتصاد واقعا آخر.. موازيا له.

لذلك نقول ان الاقتصاد الفلسطيني لا يقل اهمية عن البندقية الى جانب الاسباب الاجتماعية والسياسية التي يقول بها «ابو عمار». فهناك اسباب في تكنيكية الثورة نفسها.

فإرتباط المقاتل بالثورة لا يكون عن طريق الحلم او الخيال . . انما هو ارتباط مصير وارتباط حياة . . ارتباط حيوي .

اما بالنسبة للفلسطيني داخل الارض المحتلة فهناك ايضا جملة مشروعات قائمة والمشروعات التي استحدثت وقُدم لها الدعم في اطار دعم الصمود الفلسطيني على الارض المحتلة . فالدعم الصحيح ليس هو اعطاء المال . . لكن الدعم الصحيح هو انشاء المؤسسات . . بناء البنية التحتية للناس . . بناء المصانع . . اقامة المشروعات الزراعية . . بالطبع هذه قضايا لا يعلن عنها ولكنها كانت جملة التوجيهات التي تصدر بالنسبة للمشروعات في الاراض المحتلة بالرغم من الحرب العنيفة المفروضة من المحتل الاسرائيلي على هذه الناحية .

وهناك جانب آخر مهم جدا وهو جانب العلاقات مع الدول الاخرى . . وهي في الاصل علاقات سياسية بالدرجة الاولى . واحب ان اوضح كيف كان الحوار بيننا وبين «ابو عمار» في هذا الموضوع . فكثيرا ما اختلفت معه انا شخصيا حول قيمة المشروعات في بعض الدول الافريقية التي تسيطر عليها رقابة النقد المشددة جدا . . والتنمية فيها متخلفة بحيث يصبح اي استثمار فيها من الناحية الاقتصادية غير مجد .

لكن تعليماته كانت واضحة وحاسمة ان لابد من اقامة مشاريع في هذه الدول! فالجدوى هنا جدوى سياسية . فكل ما يهمه ان يقدم شيئا يكون شاهدا على العلاقات السياسية والصداقة الثابتة مع هذه الدول . «فليست لدينا امكانيات نفطية لأقدم نقدا لهذه الدول . . ولكن امتلك الخبرة . املك امكانيات ولو كانت بسيطة استطيع ان اقدمها على سبيل المثال في شكل مشروع زراعي نموذجي تكون فيه مختبرات ويكون فيه فنيون» وكانت تعليماته ايضا ان الفنيين الموجودون في المشروع ليسوا لخدمة المشروع فقط ولكن لابد وان يتعاونوا مع الوزارات المختصة في هذه الدول . ايضا كان يعمد ان يوجد في كل مشروع زراعي على سبيل المثال عيادة طبية . . ليست للعاملين في المشروع فقط ولكن للقرى المجاورة كذلك! .

فمثلا في «غينيا كوناكري» في منطقة تبعد ٤٠ كيلومترا عن العاصمة . . اقام الاهالي في المشروع مسجدا . فأمر بتوصيل الكهرباء اليه والاسهام في تقديم مواد البناء . واقيمت مدرسة ايضا لخدمة المشروع واقيم سوبر ماركت لاول مرة في هذه المنطقة من اجل هؤلاء السكان . . وأوصلت الكهرباء من المشروع الى القرى المجاورة! .

واصبح هذا المشروع كما في غينيا بيساو كذلك هو حديث الناس هناك . وقد كانت هذه المشاريع اقوى من السفارات باعتبار ان كل من يعمل في هذه المشاريع هو سفير

لقضيته. وهذه المشاريع هي الباقية كشاهد على قدرة الانسان الفلسطيني. ولو اخذنا مثلا وجدنا ان اسرائيل كانت في غينيا كوناكري تستغل الارض حتى عام ٦٧ وحين قدمت الارض للفلسطينيين من الدولة. قال «سيكوتوري» بالحرف الواحد: اعتبروا ان هذه اول ارض فلسطينية محررة.. وعليكم ان تنجحوا في العلاقة مع الشعب الغيني لان العلاقة بين الاسرائيلي الذي كان يسكن الارض والغيني كانت علاقة استغلال واضطهاد. وهكذا كانت ايضا توصيات «ابو عمار» الذي كان يوصي دائما بأن الذين يذهبون هناك يجب ان يكونوا سفراء لقضيتهم، لذلك يجب ألا يتعالوا على الناس، بل يجب ان يخدموهم. وبالفعل قدمت هذه المشروعات الهدف السياسي المطلوب وان كانت على المستوى الاقتصادي ليست كاملة.. ولكنها ادت الغرض المطلوب بالنسبة للصداقة مع الشعوب..

ففي اوغندا على سبيل المثال.. طلب «عيدي امين» في ذلك الوقت اقامة مصنع للادوية. وفعلا اقيم المصنع لينتج ستا وثلاثين صنفا من الدواء!.. وهي تكفي لاحتياجات الشعب الاوغندي. وكان هذا حدثا بالنسبة لافريقيا بالتحديد ان يقام مصنعا من هذا القبيل. والامثلة كثيرة علاوة على وجود الفنيين خارج المشاريع في مجالات متعددة.

اذا هذه النظرة البعيدة المدى التي كنا نصطدم فيها مع «ابو عمار» بحجة انها لا تحقق جدوى اقتصادية، اثبتت بعد النظر الحقيقي للقائد وهي بنفس قدر بعد النظر في فهم القضية السياسية.

ولا نزعم بذلك انه رجل اقتصاد متخصص.. ولكن القائد الذي لا ينظر الى الموضوع الاقتصادي لا يستطيع ايضا ان ينظر بوضوح الى الموضوع السياسي. فالسياسة في حد ذاتها اقتصاد مكثف!. وحتى على مستوى الدول فأي دولة لا تستطيع ان تبني اقتصادها لابد ان تكون تابعة.

ويحضرني هنا انه في اثناء زيارته لليابان عام ٨١ كان له لقاء مع رجال اعمال يابانيين. وكانت هذه اول زيارة له لليابان.. هذا البلد المتقدم خاصة في ميدان الالكترونيات والتكنولوجيا الحديثة. فجرى لقاء موسع مع سبع وعشرين من كبار رجال الاعمال. وبعد ان عرض عليهم القضية السياسية اقترح معهم موضوع التعاون في المجالات الاقتصادية رغم اننا لا نستطيع ان نضيف فيها شيئا. وابدى اليابانيون حماسا لذلك من زاوية ان الفلسطيني متواجد في غالبية الاقطار العربية ومتواجد في مجالات متعددة. وكان في ذهن «ابو عمار» محاولة تأهيل كادر في مجال صناعة الالكترونيك وما هي امكانية ذلك. لان الفلسطينيين من الصعب ان يتملكوا الصناعة الثقيلة حتى ولو في دولتهم، فليس لديهم طاقة ولا مواد خام.. اذاً ما يستطيعونه هو اقامة صناعات خفيفة منافسة من ناحية النوع

والسعر. وهذا يتيسر في المجالات الالكترونية.

وهـذه العـلاقـات تتطور ببطء الآن مع اليابان. وقد قبلوا لأول مرة ستة طلبة في الجامعات وقد وعدوا بقبول طلبة في البلوتكنيك في المعاهد للتدريب في المجال الالكتروني. ايضـا جرى معهم البحث في اقـامة مراكز نحددها نحن سواء داخل الارض المحتلة او خارجها للتدريب على المهارات الاقل. . واذا ما تم ذلك نكون قد حققنا جزء من خطة لابد ان تتبع في المستقبل وهي صناعة الالكترونيك وهي خطوة للمستقبل.

ولا ننسى العلاقات مع الدول الاشتراكية. فالعلاقات معها تطورت الى درجة توقيع اتفـاقيات تعاون اقتصادي. والمعروف ان اتفاقيات التعاون لا توقع الا بين دولة ودولة. فنحن اول حركة تحرر وطني في التاريخ توقع اتفاقية تعاون اقتصادي مع دولة. واذكر على سبيل المثـال انه في المانيا الديمقراطية حين وقع الاتفاقية بعد نقاش دام سنة، قال وزير التجارة الالماني اننا نعرف مع من نوقع هذه الاتفاقية ولماذا. فنحن نوقع اتفاقية مع منظمة التحـرير، وهي حركـة تحرر وطني. . ولكننـا نوقعها لكي ننقل اعترافنا بكم من القضية السياسية الى الارض.

وهذا كله ما كان يتم لولا ايلاء «ابو عمار» الاهتمام الشخصي الكبير لهذه المجالات. ونكون نحن اول حركة تحررية في العالم توقع ثلاث وعشرين اتفاقية تعاون اقتصادي مع دول مثل المجر والمانيا الديمقراطية وبولندا ورومانيا ونيكاراغوا وكوبا، واغلبية الدول الافريقية المناصرة. ليس القرار سهلا لتوقيع هذه الاتفاقيات. . وما حققته منظمة التحرير يميزها عن كل حركات التحرر في العالم. بل ان التجربة موضع للدراسة من حركات كثيرة. ونحن نمدها بالمعلومات والخبرات. . حتى الهنود الحمر من الولايات المتحدة الامريكية جاء منهم اربعون فتاة الى بيروت للتدريب في مشاغل «صامد»!.

كل هذه الرؤية والنظرة على المدى البعيد ينعكس على حسه المالي بلا شك وفي محاولة تأمين مصادر دخل ثابت. وطبعا هذه نقطة في منتهى الاهمية. فكثير من الثورات وحركات التحرير تنتهي بتوقف الدعم المالي. . او تضطر تحت ضغط الحاجة المادية ان تتبع جهة من الجهات او نظاما من الانظمة. وهنا يبرز حسه الدقيق جدا لهذه الاهمية ويعمل دائما على ان ننمي مصادرنا وهذه هي النزعة الاستقلالية.

وللتأكيد على اهمية العمل الانتاجي. فهو حين يوجه في عيد الثورة رسالة الى الشعب الفلسطيني والى المقاتلين. . يوجه رسالة الى عمال صامد في كل عام.

وفي كل مرة يرسم خطة جديدة ووصيته الدائمة فلتبنوا نواة القطاع العام الفلسطيني المتحرر من البيروقراطية والروتين. فلتشكلوا نواة الطبقة العاملة الفلسطينية الملتزمة بالثورة

وخطها وبرامجها . . لن تكتمل تجربتنا ولن تأخذ مداها ولن يكتب لها الخلود ان لم تمتد الى شعبنا في الارض المحتلة .

وفي الخطاب يؤكد على تطوير العلاقات وفتح قنوات جديدة من التعاون مع الدول الصديقة والشقيقة في مجال الاقتصاد . ودائما يقول حقا ان القضية السياسية هي الاساس . . لكن اجعلوا لها قنوات تصب فيها . . وليكن الجانب الاقتصادي اهم هذه القنوات . . ذلك بالطبع لانه يعلم قيمة الاقتصاد بالنسبة لحركة تحررية تحاول الاستقلال بمقدراتها ولا تجعلها خاضعة لاحد . وعلى هذا يكون «ابو عمار» قد اقام برنامجا متكاملا في هذه الناحية التي تشغل مساحة كبيرة من تفكيره الثوري .

● وقد استطعت حضور مؤتمر صامد الثالث الذي عقد في عمّان في ١٧ يوليو ١٩٨٥ بمناسبة الذكرى الخامسة عشر لقيام المؤسسة . وقد اتاح لي هذا المؤتمر ان اعرف عن مؤسسة صامد من خلال خطابي «ابو عمار» و«ابو علاء» ، رئيس المؤسسة ، التي حددت مهامها منذ انشائها بتدريب وتوفير العمل لابناء المخيمات والعمل على التنمية الاجتماعية للتجمعات السكانية الفلسطينية وتحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي لكوادر الثورة وجماهيرها من خلال توفير السلع الضرورية وتنشيط الاقتصاد الوطني عن طريق انشاء مؤسسات عامة وايجاد الكوادر الفنية والعمالية اللازمة وخلق نواة القطاع الاقتصادي الفلسطيني وذلك حسب الامكانيات المتاحة ودعم الصمود للشعب الفلسطيني في الارض المحتلة والمساهمة عبر المشروعات المشتركة بتعزيز العلاقات مع الدول العربية والصديقة .

وقد اوضح مسؤول صامد ان المؤسسة يعمل فيها ثلاثة آلاف عامل في بيروت وقامت بتدريب ثلاثين الف عامل في اربع قارات كما ان فيها ثلاثمائة مهندس وفني . وقال ان المؤسسة لا تعمل بالفراغ ولابد لها ان تتفاعل مع واقعها لتحقيق الاهداف المرسومة في اطار الالتزام بالشرعية لتحويل قراراتها الى ارض الواقع . وعرض لبعض الأزمات التي تعرض للمؤسسة والتي كانت كفيلة بالقضاء على اية مؤسسة لولا طبيعة الصمود التي تميز العمل الفلسطيني كله .

فكم من أزمات تعرضت لها اثناء حرب الاستنزاف في لبنان والتي زادت من الحصار على الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة . فبلغت الخسارة بسبب حرب لبنان حوالى ٧٧ مليون ليرة لبنانية . اي ١٧ مليون دولار حسب العرض في ذلك الوقت . ولكن القيادة الفلسطينية قررت اعادة بناء المؤسسات وذلك لاسباب اجتماعية ونضالية بعيدة عن أي هدف مادي . وبالرغم من ان معامل صامد عادت وتدمرت اثناء حرب المخيمات الاخيرة الا ان الثورة قررت مرة اخرى اعادة بناء منشآت المؤسسة مهما بلغت الخسائر وقد تم البدء وتم

انجاز اعادة بناء عمل ثلاثة مصانع ومازال الاستمرار جاريا بإعادة بناء البقية.

أمـا «عرفات»، فحين تحدث اوضح نقطة جوهرية في صلب هذه المؤسسة. فهي ليست مؤسسة اقتصادية تضع الربح والخسارة هدفا. بل ان هذه المؤسسة خلقت لتشكل نواة اقتصاد فلسطيني قادر على مجابهة التحديات المطروحة حيث تم انشاؤها في ظروف بالغة التعقيد. وبكـل روح الفـداء المعروفة عنه قال ان خسائر مؤسسة صامد من جراء الغزو الاسرائيلي للبنان وما تلاها من اعتداءات هي جزء من ضريبة تدفعها الثورة الفلسطينية عن امتنا العربية في ظل الاوضاع العربية المؤسفة وفي زمن الهرم المقلوب والزمن العربي الرديء.

وبعد كل هذا تأكدت من ان هذه الثورة تستطيع دائما ان تغرس وجودها فوق الارض العربية قافزة به فوق تحديات المستحيل. ولم استطع الا ان اقول له صادقة.. بكل هذا تكون قد استطعت ان تخلق دولة في اللامكان... فأضاءت وجهه الطيب ابتسامة عريضة. فلا شيء يسعد «عرفات» قدر احساسه ان الثورة تحقق انجازات في مسيرتها النضالية. وكل انجاز يتحقق لا شك يكون بسبب هذا القائد المتميز الذي يتقن فن القيادة بمهارة نادرة!.

وفن القيادة عند «ياسر عرفات» يلهمه به في انغماسه في وسط الناس!... فليس هو قائدا فوقيا متعاليا. ولكنه قائد ميداني وشعبي.

في بيروت مثلا كان على صلة بأحياء بيروت الصغيرة والمسؤولين عنها صلة يومية صلة عمل ومتابعة لذلك كان قادرا على تقديم الحلول لكثير من المشاكل على عكس كل القوى الاخـرى حتى يقـال ان بعـد خروجـه كان كثير من اللبنانيين يقولون كنا نتصل بـ «ابو عمار»... والآن بمن نتصل ليحل مشاكلنا؟.

وعندما سقط «تل الزعتر» وانتهى الامر بخروج الناس الى اي مكان في بيروت كانت بلدة الـدامور هي البلدة التي تقطع الطريق بين بيروت والجنوب قد تم احتلالها من قبل القوات المشتركة وخاضت معركة ضد القوات اليمينية التي كانت مسيطرة. وعلى ذلك اتخذ «ابو عمار» قراره بأن مهجري تل الزعتر يذهبون الى الدامور. وذهب «ابو عمار» للاشراف على اسكان الناس! اشرف اشرافا فعليا وليس اشراف البروتوكول. اشرف عمليا على توزيع المسـاعـدات المـالية على النـاس.. تفقـد البيوت ليرى مدى صلاحيتهـا. يقـول «نبيل عمرو»... كنت معه واشهد على ذلك. ثم وقف امام الناس وقال نريد معا ان نبني حياتنا المؤقتة في هذا البلد... مكان نعيش فيه مؤقتا ربما نعود منه الى فلسطين. ولكن اثناء وجودنا يجب ان نعيش هنا وهذا يأتي بتعاون منكم جميعا. واصدر امره بأن يقوم كل منهم بما كان يقوم به من عمل واشرف على تصنيف الاعمال بنفسه. وبذلك اصبحت الفعاليات متكاملة خلال اربع وعشرين ساعة بعد ان امدهم بكل ما يلزم من مستودعات

الثورة. . وبعدها عاد الى بيروت!!.

لهذا الحد ينغمس القائد في معاناة الناس! يهتم ان يضع حلاقا او بقالا في هذه القرية وفي نفس الوقت يكون على تماس مع شبكة من العلاقات السياسية والاحداث في لبنان والعالم العربي والعالم الخارجي لا يقطع الاتصال مع اي عنصر من عناصر العملية السياسية التي يقودها. وهذه هي القيادة النادرة التي يمثلها «ابو عمار».

ويواصل «نبيل عمرو» حديثه. . كنت مرة في بيروت احضر مقابلة صحفية معه فسأله احدهم: انت متهم بأنك قائد فردي في قيادتك!. . فماذا تقول؟. وسكت «ابو عمار» قليلا فهو لا يحب الحديث عن ايجابياته الشخصية. واحسست انه لكي يدافع عن نفسه لابد ان يذكر هذه الايجابيات فاستأذنت ان اجيب انا عن هذا السؤال فقال بشرط ان يكتب الجواب باسمك! فوافقت وقلت ان هناك فرقا بين القائد المركزي والقائد الفرد او القائد الشامل والقائد العادي. فأنا مثلاً كمسؤول لو اعترضتني مشكلة في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وجدته حاضرا لكي يعطيني الجواب. يحدث قصف او معركة مثلا على قلعة شقيف على الحد الفاصل بين لبنان واسرائيل يكون «ابو عمار» اول الواصلين عند المقاتلين هناك. يسقط شهيد فيكون اول المعزين واذا سمحت الظروف من السائرين في الجنازة. بل كثيرا ما يجلس يتقبل العزاء ثم ينتقل الى مكتبه ليمارس عمله!. . . هو القائد المتواجد دائما في الحدث لانه على الجانب الفلسطيني هو صانع الحدث. . لذلك تحس بارتباكه وألمه النفسي اذا كان هناك حدث فلسطيني ولم يكن هو موجودا في قلبه جغرافيا!.

لذلك يقول بألم. . اول معركة يخوضها الفلسطينيون ولا اكون فيها هي معركة المخيمات ورغم هذا فهو على اتصال دائم كأنه في صبرا!. . . لا يتوقف عن الاتصال مع المقاتلين في اي مكان وطوال الوقت حتى الصباح.

«وابو عمار» يمارس قيادة حازمة في اتخاذ القرار وادارة الصراع وادارة المعارك. ولكنه يفتح المجال امام القادة الشبان لكي يأخذوا دورهم. مثلا في المخيمات لم يقل اصمدوا يوما او يومين. فهو لا يؤمن بذلك. وانما كان يستعرض معهم الموقف السياسي. . يعرّفهم على ابعاد المؤامرة التي تتطلب تصديقا معينا. . ولمواجهة هذه المؤامرة المطلوب كذا وكذا. كان يقول لهم بدافع ظروفكم ووعيكم واحساسكم تصرفوا ميدانيا وانا أعطيكم! وهو بذلك يجعل القرار ينبع منهم. . فللقائد الميداني حرية اتخاذ القرار التي يتيحها لهم بالطبع الا في المسائل الاستراتيجية الكبرى التي يجب ان تتخذ القيادة فيها قرارها حتى ولو كانت بعيدة عن الميدان.

بذلك يشعر الصامدون في المخيم ان قائدهم معهم. . يحملهم المسؤولية ويعطيهم

حرية العمل . . وفي نفس الوقت يغطيهم سياسيا . فهو لا ينام . . يثير العالم كله من اجلهم يهز كل اسلاك البرق بكلماته وطلباته ليتحرك العالم! . يؤمن كل وسائل الصمود التي تبدو متاحة والتي تبدو غير متاحة في نظر بعض الناس . كثير من المسائل كان كل من حوله لا يقيمون لها وزنا ولكنه هو يرى فيها نافذة تنفتح على واقعه . فهو يعرف ان الكل يتحملون جزء بسيطا من قرار كبير واجهته ومصدره والمسؤول عنه هو . ويكتشف الجميع ان ما كان يهتم به لابد وان يأتيه بنتيجة واحيانا فيما بينهم كانوا يقولون لماذا يمنح هذه الاشياء البسيطة كل هذا الوقت؟ . . فأحيانا يستقبل وفدا يرون جميعا انه لا يستحق كل هذا الوقت وكل هذا الاهتمام . . ولكنهم يكشفون انه يبني طوبة طوبة . فهو دائما يقول . . مجموع الاشياء البسيطة يشكل الاشياء الكبيرة . وهذا هو فن القيادة الحقيقي .

وفي مستوى الاعلام ـ والحديث لنبيل عمرو وهو المسؤول الاعلامي ـ هو اعلامي من الطراز الاول . يدرك تماما اهمية سلاح الاعلام في المعركة . ولا يهدأ في مخاطبة العالم كله . فتح المجال على مصراعيه للاعلام الفلسطيني ايمانا منه بأن الاعلام وسيلة كبرى للتوعية بالقضية ومعرفة منه بأن السياسي الذي لا يكون اعلاميا من الطراز الاول يكون فاشلا . وان الكلمة يجب ان تساند البندقية . في العصر الحديث لم يعد الاعلام دعاية . . انما هو عنصر قوة . . لذلك يجب ان يتم استثماره بوعي ووفق رؤية سياسية مدروسة صافية بعيدة النظر . وبالتالي انك قد تستطيع صنع المعجزات على الارض . . لكنك قد تخفق ان لم تستطع ان تستثمر الاعلام بالشكل الصحيح . من هنا يركز «ابو عمار» على الاعلام بشكل كبير يدرس ، يتابع ، يسمع نصائح ويقبلها . ويفهم الاعلام الحديث ودرجة تأثيره .

خلق جيلاً . . او اسهم في بناء جيل يتعاون معه ويفهم لغته ويفهم ماذا يريد . فمثلا قد يسافر ولا يعطي توجيهات في العمل في الاذاعة . . قلما اعطاني توجيهات . . فأساسيات الموقف السياسي كما شربناها منه لا تغيب عنّا . . كثيرا ما كنا ننقطع عن الاتصال به ولا نخطىء في شيء . بل بكل موضوعية اقول انه ساهم في بنائي وبناء معظم الكوادر بطريقة غير تعليمية وغير مباشرة واهم شيء في قيادته هو فتح المجال للمبادرة . يكون قاسيا في حالة الخطأ ولكنه لا يكسر . . يقسو على المخطىء ثم يفتح الطريق له لكي يصحح الخطأ . . وهذه مأثرة لمسناها جميعاً .

● عدد الناس الذي يقابله «ياسر عرفات» في يومه عددا ضخما . . وعدد من يتحدثون اليه في اليوم عدد ضخم أيضاً . . ولا ادري كيف يستوعب رأس انسان كل هذا الكم من المتحدثين! . . ورغم هذا تجده باسما حين تلقاه . . ودودا حين تقترب منه! بسيطا الى اقصى درجات البساطة هذه البساطة الصادقة التي تجبر الانسان على احترامه . في مخاطبته لمرؤوسيه

يبدو هادئا ـ الا فيما ندر ـ وهم يتعاملون معه بحرية . . لكن بحب كبير واحترام اكبر. ومع ذلك فهو صارم في لوم المخطىء . . لكنه اللوم الذي يستهدف البناء والاصلاح . ليس عنده عقاب من اجل العقاب او السيطرة حتى اصبح كل من يتعامل معه يفهم تماما ماذا يريد فيتصرف من وحي التزامه فينطلق في عمله من وحي ذاته الا في المسائل الكبرى والتي تقضي مراجعته شخصيا .

يقول «نبيل عمرو» ان شخصية «ابو عمار» شخصية ابعاد متعددة، بها جانب طفولي طبعي! . . في اثناء فترة احتكاكي المستمر رأيت في هذه الشخصية بالنسبة لي شخصية القائد . . السياسي . . الاعلامي والصديق . . انسان يسهل التعامل معه اذا كان الشخص يدرك اهمية الشخص الذي يتعامل معه .

و«ياسر عرفات» بما يملكه من موهبة فن القيادة يعرف جيدا كيف يرسي هذه القاعدة الاساسية . . التي تمثل اهم دعائم قيادته المتفردة .

ويؤكد هذه النقطة العقيد «نصر يوسف» احد كبار ضباط الثورة الفلسطينية . . يقول: «ابو عمار» صاحب قانون المحبة في هذه الحركة! . . كل فرد منّا يخوض معركته . . معركة موقعه . . لكنه هو الوحيد الذي يخوض كل معاركنا! .

يُعتبر شاهدا على المأساة . لقد عاش بداياتها . وهو يحكي لنا دائما حكاية مازالت تسكن نفسه بكل ما فيها من الم . لقد كان يملك عام ثمان واربعين رشاشا انجليزيا اسمه «تومي جن» . . ويذكر دائما وبألم شديد كيف جُرد من هذا السلاح ايام الملك فاروق، يعي تماما هذه الحادثة ولا ينساها . يذكرها في كل ازمة مع دولة عربية! تجريده من السلاح في وقت مبكر من العوامل المهمة التي ايقظته على الوضع العربي .

وربما كان هذا اول عنصر تكوين في شخصية «ابو عمار» . . اذ تفتح وجدانه مبكرا على بشاعة الواقع حين عاش مأساة ثمان واربعين وشهد عليها . ثم وعيه الذي تفتح مبكرا ايضا على ان لا حامي له الا سلاحه . . وان هذا السلاح لن يكون خالصا له بسهولة ولكن سينازعه عليه دائما وأبدا الاعداء والاصدقاء . وان انتماءه لامة عربية كبرى لن يعطيه كثيرا من الامان فالأيدي التي ستمتد احياناً لتجرده من سلاحه . . ستكون عربية! ! .

ويرى «نصر يوسف» ان العامل الاساسي الآخر الذي شارك في تكوين شخصية «عرفات» انه مسلم . . مسلم بعقله وقلبه . فله عقلية الاسلام او فكر الاسلام . . ومنه يعتنق فكرة الجهاد . وفكرة الكفاح المسلح يحسها كممارسة عملية للجهاد . وهو لا يغفل التدبر وحسن الادارة كما تقضي بذلك النظرية الاسلامية . فهو ينتقل من عقلية الجهاد وبموضوعية غير عادية يدير الحركة السياسية . . وبلورة ما يريد . فله على ذلك واقعية الممارس

وليس مثالية المنظر الذي يجلس وراء المكتب ويخطط. وممارساته تنعكس عليها مقومات الحلال والحرام والضمير. لذلك فواقعية الممارسة عنده ترتكز على فكرة الجهاد التي هي مستمدة من شعور ديني وهذا جانب لا شك مهم في تكوين شخصيته النضالية والقيادية.

ومن ابرز مقومات شخصية «عرفات» والتي تؤثر في الناس انه قدري! . . رجل يؤمن بالقضاء والقدر وببساطة يدخل الى مكان او مهرجان فيه ما لا يقل عن الفي بندقية وفيه خصوم واتباع . . ويسمع الرصاص ينطلق من كل مكان. او حتى في تشييع شهيد فان الرصاص ينطلق بأكثر من خمسة آلاف طلقة ايضا بين خصوم واتباع. وهذه لا شك جرأة غير عادية وهذه الجرأة جزء من تكوينه وتضفي عليه كثيرا من هيبة القائد الذي يقود بتحدي لكل الظروف.

وهنا طلبت من «ياسر عرفات» ان يحكي لي بعض محاولات الاغتيال التي نجا منها.

ابتسم وقال: «انا رجل مؤمن . . العناية الالهية تتدخل لانقاذي. وهذه الحكايات دليل على ذلك». وقد قال لي ابو الطيب عن بعض هذه الحوادث كما يلي:

**١ - قبل ان يقوم نظام دمشق بطرد ابو عمار تلقى دعوة من رفعت الأسد وحضر من طرابلس لمحاولة الاسهام في حل مشكلة الانشقاق بمبادرة من السيد رفعت الأسد. وكان من المفروض ان يغادر في اليوم التالي ولكن بسبب اصرار بعض الأخوة على بقائه لليوم الثاني لحضور اجتماع للقيادة الفلسطينية، بقي وارسل سيارته الرانج روفر لمصاحبة قافلة سيارات تحمل مواد طبية وعددها احدى عشرة سيارة الى طرابلس ولكن كميناً في الطريق قبل حمص فتح النار على سيارة الرانج روفر وبقية القافلة مستخدماً الرشاشات وقذائف آر. بي. جي لاعتقادهم انه موجود في سيارته ودمرت جميع السيارات واستشهد من استشهد وجرح من جرح.**

**٢ - اثناء حصار بيروت كان هدفا اساسيا لشارون وبيغن وريغان هو اعتقال «ياسر عرفات» وهو ما اعلنوه صراحة وفي اكثر من مناسبة. وكانت الطائرات الاسرائيلية تقوم بقصفها الوحشي لبيروت. مهمة اخرى وهي مطاردة ابو عمار بالطائرات والسيارات الملغومة المفخخة حتى سمت بعض الصحف هذه العملية (القنص بالطائرات لياسر عرفات) وكم من مرة دمرت مراكز واماكن في بيروت وفي ظنهم حسب تقارير استخباراتهم انه فيها وبعضها كان قد غادرته بدقائق قليلة قبل القصف.**

**٣ - كثيرة تلك المرات التي غير فيها موعد سفره او تغيير الطائرة في آخر لحظة او لخطأ في الاستخبارات الاسرائيلية وتقاريرهم المغلوطة. ثم تصاب الطائرة بصاروخ اسرائيلي مثلما حدث للطائرة الليبية التي دمرت في الجو والطائرة المصرية قبلها او تلك الطائرات التي**

اختطفتها اسرائيل سواء كانت مغادرة بيروت او قادمة منها .

٤ ـ ولعل آخر هذه المحاولات المعلنة بوقاحة والتي اشتركت فيها اسرائيل وامريكا هي الكمين الذي اعد له بقصف مقره وبيته الخاص في حمام الشط في ١/١٠/١٩٨٥ ، والتي كشفها رئيس الاركان الاسرائيلي بعد الغارة مباشرة عندما قال امام مندوبي الصحافة والتلفزيون ووكالات الانباء ان الهدف الرئيسي كان «ابو عمار» ونحن متأكدون انه الآن تحت الانقاض ـ اللهم ارحم الشهداء . فقد فقدنا ١٨ كادرا و٥٦ بطلا في هذه الغارة الغادرة ونفس هذه الغارة سبق ان قامت بها الطائرات الاسرائيلية لضرب مقره في الفاكهاني سنة ١٩٧٨ ولم يكن ساعة القصف موجودا في المقر ولكن كنت على بعد حوالي مائة وعشرين مترا منه فقط لا غيرا .

وعندما سألت عرفات عن هذه المحاولات قال لي : كثيرة هي المرات التي اقيمت لسيارتي كمائن على طريق بيروت ـ دمشق او بيروت ـ صور ولكن عناية الله فوق كل عناية «اذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» صدق الله العظيم ـ وفي الحديث المقدس «قل لو اجتمعت الجن والانس على ان يضروك بشيء ما كتبه الله لك ما كان ليضروك به خفيت الاقلام ورفعت الصحف» . وكثيرة هي المرات التي حاولت اسرائيل اثناء تواجدي داخل ارض المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ اعتقالي او اغتيالي وقامت بإرسال كمائنها وقواتها لي في رام الله والقدس ونابلس وبيت فوريك وخوبة خاس واريحا وغزة وجنين . وغيرها .

وهذه الوقائع تؤيد رأي الناس فيه ، فهم يعرفون تماما الى اي مدى يبلغ ايمانه . ويقول نصر يوسف :

وهذا أيضاً يتبع انتمائه الديني الذي يقضي بالقول : «قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا» .

لذلك فهو كثيرا ما يلجأ الى الله ويصفو ذهنه في العبادة كثيرا . لذلك كان في المراحل الاولى يحمل على كتفه السلاح ويقاتل معنا . وفي عام ١٩٦٧ عاش مرحلة مهمة في الضفة الغربية تحت الاحتلال مختفيا .

قناعاته الدينية هي جزء من ذلك التكوين ليس خارج البعد القومي . القائد الذي يحس ان الوضع القومي تراث لامتنا العربية وجزء من مكوناتها .

نستطيع ان نقول عنه مسلم فلسطيني ـ عربي ـ قومي .

أبـرز قيادتـه عمليا انـه مقاتل . الوحيد الذي كان يحمل بندقيته ويقاتل على نقط التماس . ونحن نرى ان من يقاتل هو الذي يقود . رجال الفقه لا يقودون . اذن اهم ما يميز

قيادته عن بقية القيادات في منطقتنا العربية انه من القلة القليلة الذي يمكن ان يكون جاهزا ابدا لان يرفع البندقية ويقاتل!! جاهز دائما ان يكون على نقط التماس في أدق اللحظات. ولم استطع انا الا ان اضيف الى كلام «نصر يوسف».. والقائد العربي الوحيد الذي خرق حرمة الحدود الاسرائيلية بشخصه.. ابتسم محدثي وقال هذا صحيح.. استمر ـ للتاريخ «فأبو عمار» عندما تتراجع الوحدات تجدينه في المقدمة. دائما سلاحه في جانبه.. القيادة فن استخدام القوات في القتال. حين تتراجع الوحدات يكون هو في قلبها يقودها ويحركها ويوجهها في وسط المعركة.. ممكن ان يصاب جندي على بعد مترين منه. هو دائما في لهيب القتال وليس على المكتب.. وهذا ما يميزه. وهذا ما يعطي دفعا لمعنويات القوات دائما. كم مرة دخل الاسرائيليون الى الجنوب وتراجع الوحدات او تتقدم ويكون هو دائما في مقدمتها.. قائد فعلي ميداني!.

ويواصل «نصر يوسف» حديثه فيرى ان ما يميز قيادة «عرفات» هي صفة الجرأة، الجرأة في اتخاذ القرار في أدق المواقف. وحين تتردد الناس يستطيع هو ان يحسم وهذه ميزة يفتقدها بعض اخوانه. قدرة رائعة وممتازة في مسألة القرار لانه قبل كل شيء واضح الرؤية وهذا يؤهله لاتخاذ القرار.. او من اهم مميزات صاحب القرار لانه يعرف ماذا يريد ويختار افضل الطرق للوصول!.

اعطى كل ما عنده لفلسطين. قطع صلته بالحياة المدنية، بما فيها العائلة والاسرة والمجتمع وهذا ميزه اكثر لانه التزم بالثورية وبكل تزمت!! وان كان التزمت مكروها في أي شيء.. الا ان «عرفات» متزمت ثوريا.. ويميزه هذا عن غيره. فمنذ عام **١٩٦٥** لم يخلع عرفات اللباس الكاكي ولم يجلس على مقهى او اقام في منتزه او مشى في شارع او اخذ اجازة طيلة الثورة ولا عاش حياة البشر العادية. وهذا اعطاه كثيرا من الاحترام.

وهنا يروي (حسام) احد افراد مكتب القائد العام قصة طريفة. انه في عام **١٩٦٩** وحين كان «عرفات» ورفاقه يقطعون طريق السفر بين مصر وليبيا ـ للمحافظة على حسن العلاقات بينهما كوساطة وذلك لمرات عدة متلاحقة. شعر «ابو عمار» ببعض الارهاق فذهبوا به الى مستشفى المعادي. وبعد كشف الطبيب قدم له النصح.. سيدي الرئيس يجب ان تحدد مواعيد عملك على ان تنتهي في الثانية بعد الظهر مثلا وبعدها يمكن ان تسترخي في حديقة القصر وتمنح ذهنك بعض الراحة وانت تتأمل مياه حمام السباحة امامك!.. وبينما كان «ياسر عرفات» ينظر للطبيب فاغراً فاهه دهشة! انفجر مرافقوه بالضحك لأن الطبيب لا يدري ان مسكن «عرفات» في ذلك الوقت لم يكن اكثر من الحقيبة التي يحملها ومقعد في الطائرة التي تنقله.. وبعدها يضع جانبه في أي مكان لينام!!.

ويواصل «نصر يوسف» حديثه: «ابو عمار» يعيش كثيرا بين الاطفال. . يرعى اطفال الشهداء بشكل ابوي دائم. . يعيش والمأساة في اعماقه او اصبح يعيش للمأساة. لا يخرج منها يتفرغ لها، يعيشها بكل ابعادها وتفاصيلها الدقيقة. هذا لا يكون الا بإرادة عجيبة. نستطيع ان نقول انها ارادة القادة هي التي قطعته عن كل الحياة العادية.

وعـلاوة على انـه صاحب قانون المحبة السائد في الحركة والذي يقوم على كثير من التسامح فهو اولا صاحب فكرة الديمقراطية. ديمقراطية البنادق او الديمقراطية في ظل غابة من البنادق. لقد عشنا عشرين عاما في صراع المنظمات ومن خلفنا الانظمة العربية كلها بكل تناقضاتها. . وكنا نستطيع ان نحل مشاكلنا بطريقة ديمقراطية وكان سبب كل هذا انسان اسمه «ياسر عرفات».

وهنا لم استطع ان اكتم السؤال: ما الداعي اذن لما فعله المنشقون؟!. . ويرد «نصر يوسف» الذين انشقوا ورفعوا البنادق منشقون عن الدعوة ذاتها. . هم انقلابيون. . امتداد لعالمنا الثالث العربي بكل فساده. باحثون عن السلطة. . «ابو عمار» اعطاهم كل شيء، اشياء لا يحلمون بها في سبيل ان يتجنبوا الاقتتال. ولكنهم رفضوا لانهم لم يكونوا اصحاب قرار، مستخدمين!. . ومع ذلك نجده من ذلك النمط الفريد «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس». . من اصحاب الخلق السمح. . لانه الآن يستقبلهم مرة اخرى بعد فشل انقلابهم وبعد ان تبينوا انهم كانوا طعما لمؤامرة بعض الحكام العرب وخاصة حكام سوريا. مرة جاءتنا احدى زوجات احد رموزهم محتاجة. صرف لها راتب ثلاثة اشهر كاملة وقال: ولا تزر وازرة وزر اخرى! فهؤلاء ابناء شعبنا!. . «ابو عمار» يصرف راتباً لابن الجاسوس حتى يعيش. وهناك كثير من الاسماء. يعرف ان هناك عملاء لاسرائيل. . ومع ذلك يصرف لابنائهم رواتب ليأكلوا ويعيشوا!! لانه صاحب قانون المحبة والذي يُذكر به دائما ويقول لا تنسوه ما ذنبه اذا كان ابوه جاسوسا؟ وهو الذي يقول دائما في اشد حالات الخلاف مع زملائه يقول. . رب اهد قومي فانهم لا يعلمون وهذا ربما يكون اكثر ما يكون من تأثير التجربة الاسلامية لديه وتسامحها المؤثر في اعماقه. نعرف ذلك تماما حين نراه يستقبل هؤلاء الناس الذين اطلقوا النار عليه في طرابلس!. . يقول دائما الانتقام يولد الحقد. . والتسامح يولد المحبة. . ونحن بشر ونخطىء وقد يكون فينا من يدعو للانتقام والثأر. . ولكنه هو دائما وأبداً متمسك بقانون المحبة الذي أرساه.

وهنا لم استطع الا ان اتدخل بوجهة نظر شخصية لم اقو على كتمانها. . حقيقة ان الحب والتسامح اشياء لازمة ومهمة جدا في التعامل الانساني. ولكن «ياسر عرفات» على رأس ثورة تحوطهاوتتحرك في داخلها متناقضات العالم العربي كله. . وهذه حقيقة لا اظنها

غائبة عنه . . فهل تكفي المحبة قانونا وهل يكف التسامح رادعا؟ . . وفي حالة الانقضاض على الثورة وإفقادها الكثير من مكاسبها وفاعليتها ومكانتها كما حدث . . ايكفي قانون المحبة لان يكون سلاحا في وجه الاسلحة المشرعة في وجه الثورة؟ . . واذا كان يكفي فلماذا خاض «عرفات» نفسه قتالا في طرابلس بغير سلاح المحبة؟ وهل كان يتحتم عليه ان ينتظر الى ان تصل الامور الى الحد الذي وصلت اليه ليتحرك ضد المناوءة المقصودة والمتعمدة طوال عمر الثورة . . وبالذات في الوقت الذي سبق المواجهة؟ اذن . . لماذا قاتل في طرابلس ولم يعتمد على قانون المحبة الذي يرفعه؟ . . وهل قانون المحبة هذا يمكن ان يمنع القائد من ان يتخذ اجـراءات حماية ثورته من العناصر التي تريد الاضرار بها وعلى مر السنين ويتركها الى ان تستطيع توحيد قواها والاستناد الى قوى خارجية لتدمير مكاسب الثورة بهذا الشكل الذي كان؟! . ولماذا ايضا حاربهم وفي المراحل الاخيرة فقط وحين اصبح لهم ثقل طارحا بذلك قانون المحبة؟ . . لماذا لم يتحرك «عرفات» وهو القائد البعيد النظر لكبح جماح هؤلاء حتى يؤمّن مسـار الثورة؟ . لقد وقعت انا نفسي كفكر مقتنع تماما، بل مؤمن بقيادة عرفات في التناقض!! لذلك لابد لي هنا من وقفة معه هو شخصيا للخلاص من هذا التناقض . . ان كان هناك منطق يستطيع ان يخلصني منه! . . الا ان موضع الاجابة ربما جاء في موضع آخر من هذا الكتاب .

● على أن شخصية «عرفات» بكل ما سمعت عنه لم توح لي بالبساطة! . واعني بالبساطة هنا بسـاطة التركيب! . . فالرجل رغم كل ما سمعت ليس بسيطا ولا هيناً، بل هو مركب تركيبة خاصة جدا . . وخطيرة جدا في الوقت نفسه! ومعظم ما يبديه من هدوء وتسامح وبساطة لا يلعب الجـزء الاكـبر فيه التكـوين الـطبعي وحده . . ولكنه يأتي ضمن تخطيط متقن منه لاستكمال صورة الزعيم الاسطوري! . . حقيقة هو طيب ودود متفاهم . . ولكن لا يقف خلف كل هذا التلقائية وحدها! . . كأي رسام ماهر يضيف الى خطوطه الالوان الجذابة الزاهية لتبدو الصورة في قمة تألقها! ولا شك ان هذا يعد ايضا مهارة منه يقتضيها موقعه في وسط واقعه الصعب . واذكر حين اقترابي منه وفي ايامي الاولى . . كنا نتحدث انا والمؤلف الانجليزي «آلان هارت» صاحب كتاب «عرفات ارهابي ام صانع سلام» . . واثناء حديثنا عن شخص «عـرفات» المميز ان قال شيئا اغاظني واغضبني وجعلني اعارضه واطلب منه سحب كلامـه . لقد قال: انتبهي . . فرغم ان الرجل معجزة حقيقية . . واهم شخصية

سياسية بالشرق الاوسط كله الا انه ايضا ممثل كبير! . . وهذه الكلمة هي التي اغضبتني . والعجيب ان «آلان هارت» قابل ثورتي بالابتسام والهدوء واضاف . . ردا على كل ما قلت ستكشفين بنفسك ذلك . . وسنرى! ويبدو ان هذا المؤلف الانجليزي كان قد اقترب اكثر مني في ذلك الوقت من شخص رئيس منظمة التحرير! . . فقد اثبتت الايام وملاحظة من تصرفاته ان رأى «آلان هارت» كان به شيء من الصحة!! .

على اني مازلت التمس للرئيس العذر في كثير من هذا المظهر. فالظروف التي يعيشها غير عادية مما يضطره الى كل وسيلة للوصول الى النتائج التي يبغيها او حتى الى جزء منها . الا اني آخذ عليه ان يترك السياسة تدمغ شخصه الى هذا الحد بحيث يطبق منهجها على كل الاشياء حتى تصرفاته الشخصية! . . فهو مشهور بحبه واتقانه للمناورة في كل خططه السياسية . . الامر الذي وصفه «هاني الحسن» بأنه يعبد المناورة في السياسة وذلك لافتقاره دائما الى تملك القوة . .

وقد دافعت انا عن هذه الاوصاف في الرجل نظرا لحاجته اليها في تعامله مع واقعه الصعب . .

وقد جربت ذلك بنفسي في موضوع خاص بي وبعملي لاتمام هذا الكتاب حين طلبت منه ابداء رأيه في جدول سير العمل في الكتاب . ولم يستطع «عرفات» صاحب القرارات الحاسمة المدوية في أصعب الاوقات ان يعطيني كلمته مباشرة . وظل يتأرجح بي بين الرفض والقبول متظاهرا بأنه يدرس الموضوع حتى آخر يومين من موعد عودتي لعملي ليقول انه يفضل ان اعود في فترات معينة لتجميع ما يلزمني من معلومات . . واستغرق منه هذا الاعداد للقرار مدة شهرين! . . رغم انه كان متخذا قراره منذ ان طرحت الفكرة عليه . . لكن ذلك يبدو بالتأكيد طبعاً ذاتياً يدخل في تكوين «عرفات» اكتسبه من طول معاشرته السياسة بكل ما فيها من مناورات وخدع وتضليل . واكرر ان هذا رأي شخصي لي كونته عنه من اول تجربة تعامل معه . وان كنت انكرته على المستوى العادي والبعيد عن السياسة فمازلت اؤيده فيه في كل ما يستدعي ذلك النهج . وحين لقيت «آلان هارت» قبل سفري بساعات سألني : هل اكتشفت في شخصيته ما سبق ان اخبرتك به؟ . . والعجيب العجيب اني قلت لا! . . فمازلت عند رفضي لتلك الصفة التي اطلقتها عليه . . وان ارتفع في داخلي صوت يقول : وانت ايضا كاذبة! . . الا اني لم اكذب الا في هذه النقطة مضطرة امام مؤلف

انجليزي . . واقول ان هذا رأي شخصي يمحوه تماما كل ما بالرجل من تميز . فقد سبق ان قلت اني اقف مبهورة امام كل ما في الرجل من تميز وتفرد والافضل ان نكون عادلين في تقييمنا له . فلكل انسان ظروفه ودوافعه وواقعه الذي يسهم في تكوين نفسيته التي وبالضرورة تنعكس على تصرفاته . وليس هناك اشق ولا اقسى ولا اصعب من ظروف «ياسر عرفات» وتكوينه النفسي لابد وان يتأثر بكل الضغوط الخفية التي تلعب دورها في تكوينه العام بالضرورة . ورغم اي شيء يبقى «ابو عمار» بنظري اعظم ثوار العالم ـ ورغم حبه للمناورة ! .

وعندما سألني احد الصحفيين عندما علم اني اعد كتابا عن «ياسر عرفات» هل يمكن لك ان تكتبي كلمة ضده في هذا الكتاب؟ . . وهل يسمح لك بذلك؟ .

قلت هذا ما لا استطيع الاجابة عنه الآن . وعليك انتظار صدور الكتاب .

# * «ابو عمار» بين الحرب والسياسة

كيف استطاع «ياسر عرفات» ان يعيش حياته بين الحرب والسياسة؟ . . كيف استطاع ان يكون محاربا مقداما . . وسياسيا ماهرا في نفس الوقت؟ . هل لأن الحرب هي سياسة التعامل مع العدو؟ . . ام لان السياسة هي الحرب الخفية بين كل الاطراف؟ .

«عرفات» يحارب بكل قوى المحارب التي تستمد روحها من الحق اليقين الذي يؤمن به . ويعيش السياسة كعقل لَمّاح قادر على ادراك الخفايا وشديد القدرة على التوقعات! ! .

انه الوحيد الذي يملك النسخة الثانية من مفاتيح اللعبة السياسية الدائرة في المنطقة . فرغم كل المخططات والقدرات السياسية الهائلة لمن يهمهم امر المنطقة . . لكنه لا يمكن أبداً تجاوز شخص «عرفات» . . و«عرفات» بالذات! . فهو دائما يدخل في الامور تحت شعار: نكون او لا نكون . . لانه على ثقة من قدرته الخارقة على الخروج من قلب المستحيل لكي يحفر بأسنانه واظافره كلمة . . نكون . . على ارض الواقع .

فلا احد يستطيع ان يقود رجاله تحت القصف المتواصل والدائم بينما تكون خططه السياسية سارية في تقدمها مثله! وهو القائد الوحيد الذي يمكن ان يحمل مدفعه الرشاش ليضرب بشراسة . . ثم يجلس بعد ساعة على الطاولة في نقاش رصين في السياسة! .

هو القائد الوحيد الذي يعيش برجاله تحت القصف المتواصل منذ عام ١٩٦٥ . . وللآن ولم يوقفه ذلك عن التحرك المدروس الدقيق في اتجاه السلام . واستثمر ذلك التحرك السياسي ربما في انجاح مشروع الدولة الفلسطينية المأمولة .

يقول «هاني الحسن» عن «عرفات» في واقعه بين الحرب والسياسة ـ وبالحرف الواحد ـ هو رجل يرفض ان يعيش في عالم فصَّله له خصومه! . هو رجل مسؤول امام ضميره وحده اولا . . ثم امام التاريخ . مسؤوليته امام ضميره نابعة من ان هذا الضمير ركيزة فهمه للحقيقة . . اما التاريخ فلأنه الوسيلة الوحيدة للتثبت من صحة حقيقة المفهوم! .

وهاني الحسن حين يقول عن «عرفات» هذا الكلام فلأنه يكاد أن يكون الاقرب لعقلية الرجل . فهاني عاش عمره الثوري كله ملتصقاً به يكاد ان يستطيع قراءة افكاره قبل ان ينطق بها . من هنا يأتي تقييمه له مشاركة في تكوين هذا الفكر الذي يعتنقه هاني نفسه . لذلك يقول عنه مخلصا «وقف ضده أقرانه . . لكن سينصفه التاريخ» .

فهو اذن يعتنق موقف «عرفات» عن اقتناع وفهم . وان كان يعتبره ليس منظِّراً فلأنه يعلم ان «عرفات» يعد نفسه مسؤولا امام ضميره فقط . وضميره هذا هو «فلسطين» الوطن السليب الذي يُفني «عرفات» نفسه في سبيل استعادته . وحين يصفه يقول . . «عرفات» تكتيكي عجيب! . . يجيد شد الخيوط اكثر من البناء . يفضل المناورة الذكية على المواجهة والصدام! . . يعبد المخاتلة في السياسة وذلك لافتقاره دائما الى تملّك القوة في مواجهة

الخصوم المتعددين . . لذلك يحل الحيلة مكان القوة في مواجهة هؤلاء الاعداء الكثر وعلى اكثر من صعيد عربي ودولي! وهذا يدل على تمكن «عرفات» من مفردات السياسة. فالسياسة والنجاح فيها يعتمد اكثر ما يعتمد على القدرة في استخدام المفردات. . او بالاحرى تطويعها.

يضيف «هاني الحسن» ضاحكا يقول: «الشيء الذي يلائمه هو حدث سعيد. . او حدوث تغيير امامه يكسب من خلاله نقطة!» وكأن «عرفات» بهذا الرأي يتمنى حلاً إلهياً!! . . وماذا باستطاعته اكثر من التمني عندما تتكاتف قوى الشر امامه؟ . . الا ان هذا بالطبع لا يكون الا من قبيل الهواجس الداخلية التي ربما راودته في ساعة التأمل. . . ولكن على الساحة فميزته الاولى كما يضيف «هاني» «انه تكتيكياً متفوق. . يسيطر على الحلبة حين يكون حقل الصدام محدودا او الاهداف محدودة من الخارج. انه رجل ذكي قادر على المناورة بشكل مذهل. وهو يتقن بشكل كامل استراتيجية الخطوات التكتيكية القصيرة. ولكن الجميع يتعاملون معه ومنذ عشرين عاما باعتقاد: سأمسك به هذه المرة!! . . ولكن لا احد يستطيع! واذا كانت الزئبقية في السياسة ظاهرة مريبة. . الا انها ليست كذلك في هذه المنطقة من العالم.».

ولا يسعنا الا ان نصدق على قول «هاني الحسن» هذا لان هذه المنطقة من العالم بالذات تمارس بها كل انواع الخداع والمراوغة والقسوة والخيانة في كثير من الاحيان! . . فكيف يتعامل الانسان الشريف مع كمّ المتناقضات الذي يحكم هذه البقعة من العالم وقوى الشر المتحكمة في مصيرها. . وكل تلك الاصابع التي تجيد التحرك في الظلام؟ . وقد لخص «هاني الحسن» الموقف في رده المختصر على احدهم وهويتهم «ياسر عرفات» بالكذب. . فرد عليه: «اتستطيع ان تقول لي من منكم كان صادقاً معه؟!.

ورغم العقلية التكتيكية القافزة التي يمتلكها «ياسر عرفات» والتي تعتمد على الخبطات السريعة نتيجة افتقاره الى القوة دائما. . ولان متغيرات الواقع المجنون حوله لا تمكّنه من وضع الخطط لمدة سنة او حتى ستة شهور مما يجعله يعتمد دائما على تغيير المحاولة رغم صعوبة ذلك. . الا انه يتحلى بالصبر! . او بالقدرة على النفس الطويل. . كمن يستطيع ان يكتم انفاسه لأن الماء يغمره فلا يملك الا اعتماده على قوته الذاتية في التحمل. . وفي كل مرة يعتقد اعداؤه انه فقد القدرة على التنفس في عمق الماء الضاغط فوقه. ولكنه يخرج سالما مثبتا للجميع انه يستطيع دائما التنفس تحت الماء. . ومهما طالت المدة! . . قدرة عجيبة وصبر أعجب. . وكأنه رغم شخصيته المتفجرة يستطيع ان يهدأ في انتظار تحقق هذا المثل الذي يقول: اذا ازعجك احد فلا تغضب. . اجلس على النهر وانتظر فإن جثته ستمر

حتما امامك! .

وهـذا ربما ما اعطاه القدرة الشخصية على ممارسة كل من الحرب والسياسة بنفس الكفـاءة ولانـه مهيأ طبيعيا بتكوين خاص . هذا التكوين الذي يقول عنه «هاني الحسن» . . «انه رجل رابط الجأش . . متجرد وحاسب من الطراز الاول . . وهو بدون شك اهل لاتخاذ قرارات جريئة . انه يمارس بهوى فن السلطة»! .

وأرى ان السلطة هنا هي التي ترتكز على دعامتين لعله لا يملك غيرهما من دعامات السلطة . . وهما قدرته العسكرية . . وقدرته السياسية . فهو كما قلنا لا يمتلك تلك الاجهزة التي عادة ما تدعّم السلطة في داخل أي دولة . «فعرفات» لا يملك الا البندقية . . والعقلية التي تستطيع التحكم في هذه البندقية . . اتدفعها للانطلاق ام تتحكم فيها بقبضة قوية مسيسة؟! .

كم من مرة حمل «ياسر عرفات» سلاحه وخاض قتالا؟ . . وكم مرة زامنت عقليته السياسية خبطاته السريعة التي يدفعه اليها افتقاره لامتلاك القوة؟ . . التكتيك السريع هو العمود الفقري للعمل العرفاتي . . وهو يحاول بفنية تطويع السياسة لذلك! .

واذا تأكـدنـا ان الثـورة الفلسطينية دائما وابدا في صراع من اجل الجبهة . . عرفنا صعوبة، بل استحالة النجاح! فالقائد يقسم استراتيجيته الى قسمين اساسيين : صراع من اجل الجبهة . . وصراع من اجل الحفاظ على الذات . وللأسف فقد شارك العرب في ايجاد هذين الشقين! وهنا يقول «هاني الحسن» : «ملخص تاريخ الثورة الفلسطينية الحديث هو صراع من اجل الجبهة . العرب يأخذون منّا الجبهة والعدو يسحقنا جسدياً»! .

وهنا نلمس ضخامة التحدي الذي يواجه «ياسر عرفات» . . الذي حاول دائما ان يفتح جبهة على عدوه . . ثم يحمي جسد الثورة في الوقت نفسه! .

وعندما نزل «ياسر عرفات» مع اول دورية مهاجمة للعدو وعلى الارض المغتصبة في ١٩٦٥/١/١ امسك بزمام المبادرة فقط ليعلم الجميع ان من هنا يجب ان ينطلق العمل الفلسطيني . وليؤكد لكل من كان يعارض بداية الانطلاقة ان هذه هي البداية، وان الكفاح المسلح هو الوسيلة مهما بدأ بسيطا .

وأمام «بيسان» على ضفاف نهر الاردن تسلم «عرفات» ورفاقه السلاح الذي احضر لهم . . وكـانت القنابل اليدوية من بين ذلك السلاح . . ولكن القنبلة اليدوية كانت من البساطة بحيث لم يكن لها حلقة لتمسك بها . . وانما كانت مربوطة بخيط يجب ان يُفك قبل الالقـاء . وهنـا امسـك بها احد رفاق «عرفات» وهو «احمد موسى» وسأل : أبهذه القنبلة المربوطة بالخيط سأحرر فلسطين؟ .

فأجابه «عرفات»: «نعم.. فهذه القنبلة المربوطة بالخيط ستأتي بالقنبلة التي لها حلقة وهذه ستأتي بالرشاش الثقيل والرشاش بالمدفع والمدفع بالدبابة»!.

وفي عام ١٩٦٦ بعد ان خرج من السجن السوري ـ اثناء الصراع مع السلطة السورية ومحاولاتها الاستيلاء على الحركة الثورية الجديدة ـ قام بقيادة دورية عبر الاراضي اللبنانية ولاول مرة يستخدم مدفع هاون في قصف المستعمرات الاسرائيلية! وكانت مغامرة خطيرة. فمن يقصف بمدفع هاون مداه كيلومتر واحد يحدد موقعه واتجاهه ببساطة. وبرغم هذا فان «ياسر عرفات» فعل ذلك وبنفسه!.. أي انه يواجه بإمكانياته البسيطة عدوه وباصرار. ولكن المشكلة لم تكن في هذا.. وانما كانت حقيقة في رجوعه والاسرائيليون يلاحقونه على الحدود اللبنانية فاذا بالسلطة اللبنانية تلقي القبض على هذه الدورية وتلقيها في السجن ليقضي فيه خمسين يوما.. ولم يعرف اللبنانيون في ذلك الوقت انهم يأسرون «ياسر عرفات».. احد كبار ثوار القرن العشرين!.

وبسبب هذه العملية.. وهذا السجن تمكن التنظيم ان يقف على قدميه من جديد بعد ان تجاوز مرحلة الصراع الاولى.

وحين يتذكر «هاني الحسن» تلك المرحلة يقول: «منذ بدأت الثورة و«ياسر عرفات» مشكلة!.. يريد ان يسبق أقرانه.. بل انه يسابق الزمن نفسه! انه مستعد ان ينفّذ ما يقول. اذا قال يجب أن نقاتل.. لم يكن هذا من منطلق فلنقاتل وانا القائد اشرح لكم ما تفعلون.. ولكنه يتقدم التنفيذ دائما. لذلك عندما ولدت القوات العسكرية ولدت منضبطة له لان الذي يقاتل مع القوات هو الذي يستطيع ان يقودها. لا يمكن لأحد أن يقود مقاتلين ان لم يكن مقاتلا. لا يمكن ان يقبل المقاتل ان يخضع او يُعنّف في القتال الا اذا علم أن من يعنّفه او ينتقده قد خاض المعركة ويتكلم عن تجربة، بل وتجربة تتميز بالأداء الأفضل».

وكان «هاني الحسن» في ذلك الوقت يحضر من اوروبا الى المعسكر الذي اتخذته الثورة قرب دمشق، وهو معسكر الهامة. وكان يعجب ان «ياسر عرفات» يعنّف المقاتلين او يعاقبهم بالسجن او بغيره، لان معظمهم لم يلتزم بالاوامر، أو لم يكن أداؤه بالكفاءة المطلوبة. وكان يذهل حين يرى خضوعهم له ويقول انه تقصى الامر بنفسه ليعرف سر هذه الظاهرة.. فعرف ان السر في ممارسة «عرفات» نفسه للقتال.. ولانه لا يطلب منهم شيئا لا يفعله هو قبلهم فقد كان اول من استخدم مدفع الهاون في قصف مستعمرة كما ذكرنا ـ وبالتالي وفي عديد من العمليات عندما يطلب من احدهم ان يذهب ويقصف لا يعترض لأنهم جميعا يعرفون انه هو يستطيع ان يذهب ويفعل الشيء نفسه.

وكان في معسكر الهامة ـ في مرحلة اعداد مقاتلي الثورة ـ ليس اكثر ممن ٥٠٠ مقاتل

وحين قامت حرب ١٩٦٧ او حرب الايام الستة . . تسرب معظمهم بقيادته وراء خطوط العدو حيث كانوا يحاولون اعاقة تقدم القوات الاسرائيلية . . ولما تأكدت الهزيمة . . عادوا الى دمشق .

وانقسم مؤتمر «فتح» الذي عقد في ١٢ يونيو بعد الهزيمة في مناقشة جدوى الكفاح المسلح . وهل عاد بوسعهم مواجهة العدو بالسلاح وهو المنتصر في الحرب . او يتركون السلاح وينضمون بذلك الى بقية الجيوش المهزومة؟ .

لكن «عرفات» لم ينتظر نتيجة المناقشات وكان اول من نفذ الى الارض المحتلة للقيام بأعمال ضد المحتلين يقصد بها وبالدرجة الاولى الى رفع الروح المعنوية للناس . وبينما كان العالم العربي كله غارقا في الهزيمة تحت ثقل الضربة القاسية التي تلقاها . كان هناك من يهز قلب اسرائيل من الداخل ويقلق أجهزة الأمن ويمنعها من الاسترخاء في ظل النصر الخاطف الذي اقتنصته .

وكان وجود القائد بين الشعب في لقاء فعلي هو الدعم الاكبر لديمومة الثورة واشتعال الروح الثوري بين الناس .

وحين اطمأن «عرفات» الى ارتفاع معنويات الناس لفاعلية العمل الثوري ومع اشتداد القمع الاسرائيلي خرج «ياسر عرفات» متنكرا من الارض المحتلة وتحت سمع وبصر دوريات التفتيش الاسرائيلية التي اعماها الاضطراب عن شخصه! خرج ليستأنف كفاحه الأبدي ضدهم من أي موقع يتيح له حرية التحرك . وبهذا يكون «ياسر عرفات» هو القائد العربي الوحيد الذي عبر بشخصه وبرجاله داخل الارض المحتلة . .وضرب حرمة الحدود الاسرائيلية المزعومة! .

وفي شهر مارس عام ١٩٦٨ حين كان للمقاومة قواعد بطول نهر الاردن شنت اسرائيل هجوما بقصد ابادة هذه القواعد . وقد نبه الناصحون الى قرب وقوع الهجوم الاسرائيلي وضرورة انسحاب قوات المقاومة الفدائية امام الجيش النظامي . لكن «عرفات» رفض وقال : «نطعم لحومنا لجنازير الدبابات . . . ولا ننسحب! .

وخاض برجاله معركة من أعجب المعارك الفدائية بمجموع مئات عدة من الفدائيين في مقابل ارتال الجيش الاسرائيلي . معركة امتدت منذ الصباح الباكر في السادسة صباحا وحتى التاسعة مساء حيث اضطرت القوات الاسرائيلية ان تنسحب بعد ان عجزت عن تحقيق أي تقدم وبعد أن أنهكها اسلوب حرب العصابات . وسجلت معركة الكرامة أشرف نصر للمقاتل الفلسطيني الذي طال بسلاحه لاول مرة الجيش المنتصر الذي فرض الهزيمة على امة بأسرها! .

وتتلاحق الحرب على «ياسر عرفات» الذي قلنا انه عاش برجاله تحت القصف المتواصل منذ عام ١٩٦٥ وللآن.

وكان للمقاومة تواجد على الحدود اللبنانية. لكن اللبنانيون نازعوه عليه. ودارت الحرب اللبنانية ـ الفلسطينية التي انتزع بها بعض النجاح باتفاقية القاهرة عام ١٩٦٩.

وبعد الدوي الهائل لمعركة الكرامة وتدفق المتطوعين الى صفوف الثورة.. كان على الرجل ان يخوض حربا اخرى من نوع مختلف لا يواجه فيها عدوا.. وانما يقاتل دفاعا عن النفس! وكانت مذابح سنة ١٩٧٠ و١٩٧١ في الاردن ايذانا بنهاية الوجود الفلسطيني المتنامي على ارض الاردن. وكانت هذه الضربة من أقسى الضربات التي نزلت على قوات المقاومة الفلسطينية.. قاتل فيها «عرفات» دفاعا عن النفس وعن كيان الثورة كله.. وكانت من أمَرّ الحروب!.

وفي عام ١٩٧٢ حين كانت المقاومة تعيش في العرقوب على اطراف الجنوب اللبناني.. في هذه الارض التي اسماها العدو (فتح لاند).. شنت القوات الاسرائيلية هجوما مباغتا عليها. فكان «ياسر عرفات» في قلب المعركة واقفا على قدميه لمدة اربعة ايام هي مدة المعركة!. واستطاع ان يوقف تقدم القوات الاسرائيلية في الارض اللبنانية وبعد ان احتلت قرى الهبارية وكفر حمام وكفر شوبة وشبعة.. اضطرت الى الانسحاب امام صلابة المقاومة والتي دخلت معها القتال بالسلاح الابيض احيانا؛ وان كان قد سقط في هذه المعركة الباسلة ثمانية وثلاثون شهيدا.. الا انهم كانوا ثمن ارتداد القوات الاسرائيلية. وكان السبب القوي المباشر لهذا هو وجود القائد على رأس مقاتليه. فعرفات دائما قائد في قلب المعركة!.

وحين قامت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ حاول «ياسر عرفات» فتح جبهة ثالثة مع اسرائيل من فوق الارض الاردنية ولكنه اصطدم بالرفض.. وهذا لم يمنعه من المشاركة حيث نقلت وحدات من جيش التحرير الفلسطيني بالطائرات الهيليوكوبتر منذ اليوم الاول للقتال وأُنزلت وراء خطوط العدو.

ومنذ عام ١٩٧٥ وجد «ياسر عرفات» نفسه منغمساً في الأتون اللبناني. بعد أن ظل طوال تواجده في لبنان يصد الهجمات الاسرائيلية المتوالية على الجنوب.. واذا به يواجه ضربات اليمين الماروني الذي كان يعد العدة لهذا اليوم منذ زمن بعيد. ودُمر مخيم ضبية. وبعده بأسبوع محيت أحياء الكرنتينا من على سطح الارض!.

وفي عام ١٩٧٦ وجد نفسه يخوض حربا عجيبة ضد القوات السورية النظامية المتحالفة مع الكتائب!.. ويفعل المستحيل لفك حصار تل الزعتر.. الا ان المخيم سقط وتوقفت المواجهة السورية ـ الفلسطينية باتفاق وقف اطلاق النار! ولكنه لم يدم وعادت

المواجهة اعنف وتقدمت الدبابات السورية لفتح بحمدون وعاليه ولم يوقف هذا الا قمة مصغرة في الرياض! .

ورغم استمرار القصف الاسرائيلي والذي يكاد ان يكون يوميا لتجمعات الشعب الفلسطيني والقرى والمدن اللبنانية، الا ان معركة الخيام في مارس ١٩٧٨ ومعركة الشقيف وأرنون كانت من أقسى المعارك التي خاضها «ياسر عرفات» . . وكان دائما تحت القصف يقاوم قوات اليمين المسيحي وحلفاءهم الذين فسدت العلاقات بينهم وبينه نتيجة تحرك المخططات الغامضة على مسرح السياسة في لبنان! .

ومنذ ان نُصب السيرك اللبناني و«ياسر عرفات» برجاله يواجه في كل يوم معارك ومع استمرار هذه المعارك لم تتوقف اسرائيل عن غاراتها او قصفها! الا ان سنة ١٩٨١ شهدت اجتياح الجنوب اللبناني بما عرف بحرب الجليل . ولا نستطيع ان نقول ان مسلسل الحرب او ان القصف اليومي الذي يعيشه «ياسر عرفات» انتهى بغزو لبنان . فقد شهد عام ١٩٨٢ الغزوة الاسرائيلية الكبرى والصمود الاسطوري لمدة ثلاثة شهور . وكان حقيقة يعيش تحت القصف حين تحولت مهمة الطائرات الاسرائيلية الى مطاردته شخصيا . . وكأنه الهدف الوحيد من غزو بيروت! .

وامتدت ايام الحرب على مدى ثلاثة شهور و«ياسر عرفات» يعيش المعركة بكل ابعادها . . ودوره فيها معروف اذ لولا وجوده الشخصي ما كان يُقدر للقوات كل هذا الصمود والتحدي .

وبخروج «ياسر عرفات» من بيروت وذهابه الى تونس كان الكل يظن أن الطلقات قد هدأت ولو لفترة من فوق رأس الرجل . ولكن قبل أن يهدأ أو حتى يستطيع أن يلتقط أنفاسه . . عاجلوه بتدبير مواجهة اخرى من نوع آخر . . اذ كان عليه ان يخوض في طرابلس معركة وجود حقيقي وشرعي ضد من يحاولون انتزاع مصداقية وجوده منه . والذي هو السبب الرئيسي لكل الحقد والكراهية التي تحملها السلطة السورية له، ولذلك استعملت رؤوس المنشقين ضده فيما حاولت تصويره على انه انشقاق في الصف الفلسطيني يصل الى حد الاقتتال .

وخاض «ياسر عرفات» أمرّ معاركه في «طرابلس» . . معركة خاسرة لكل الاطراف ولكنه الوحيد الذي كسب المعركة معنويا حين خرج تحيطه قواته . . ويحيط به اربعة آلاف مقاتل بعد أن ظن أعداؤه انه لن يخرج ـ ان خرج ـ الا وحوله حفنة قليلة من الرجال .

وبعد طرابلس . . هل هدأت الطلقات من فوق رأس الرجل؟ لا احد يستطيع ان يقول ذلك . فنحن ان كنا قد حددنا هذه المعارك بتواريخها المحددة فلأنها برزت بوقوعها في

هذه التواريخ . . ولكن لا احد يستطيع ان يسقط كل انواع الهجوم الاسرائيلي والقصف المتواصل التي كانت تواجهه اسرائيل الى الثورة الفلسطينية . . منذ ان تواجد في الجنوب اللبناني . . اذ كانوا دائماً يردون على عمليات المقاومة في الداخل بهذا القصف المتواصل . ولم تتوقف المقاومة في يوم من الايام . . وايضاً لم يتوقف القصف في يوم من الايام .

وان كان لا احد يستطيع ان يستبعد تأثير القائد الشخصي في كل عمليات المقاومة التي سُجلت للقوات الفلسطينية . . ولهذا تواجد القائد دائما في كل حرب خاضها رجاله . وهو يعد ذلك التزاما ثوريا لوجوده العسكري نفسه .

هكذا عاش «ياسر عرفات» الحرب كأشرف ما يكون المقاتل . يزيده اشتعالها من حوله دائما ثباتا ويقينا . ولاشك ان هذا اليقين ينبع اصلا من التزامه بفلسطين . . والتزامه الوجودي كله ينبع من انه فلسطيني ! .

يشعر في كل حركة وسكنة له انه مسؤول مسؤولية كاملة عن تجسيد معنى الفلسطينية في ارقى صورها . لذلك فهو نمط اخلاقي منزّه . . وهذا يضفي عليه احتراما استثنائيا .

يقول نبيل عمرو . . «لا يتخلى عن الكبرياء الفلسطيني حتى في أقسى الظروف . لا يقبل مهما كانت الحاجة السياسية ان يتساهل في هذا الكبرياء ابدا . يدرك ان اهمية الفلسطيني او القائد الفلسطيني او الظاهرة الفلسطينية في استقلالها وفي تعبيرها عن الروح الفلسطينية ، يدرك ذلك بعمق وهو على استعداد ان يقاتل العالم كله دفاعا عن هذه الحقيقة . وهذه ثوابت في شخصيته . . يتحدد تبعا لها سلوكه ومنهجه السياسي . لذلك فهو يسقط من نظره اي قائد يقيم وزناً او يتأثر بأي ضغط عربي على حساب الموضوع الفلسطيني .

يطرح على نفسه يوميا سؤال : من هو الفلسطيني ؟ . . ويراقب على هذا الاساس ولا يفهم إلا أن الفلسطيني هو الانسان الذي يستطيع ان يحافظ على فلسطينيته رغم كل محاولات الاستيلاء والاحتواء . هو الذي يضحي بمصالح مالية او تنظيمية مقابل المصلحة الفلسطينية» .

لذلك خاض ولعدة مرات معركة القرار المستقل حتى نجح أن يستقل بالقرار الفلسطيني . ولا أحد ينسى ان لحركة «فتح» في سوريا مثلا مصالح مئات الملايين من الدولارات بين مستودعات وممتلكات وقوات ومعسكرات . كل هذا يضحي به في لحظة امام الموقف السياسي . لانه يعرف انه لو حافظ على هذا البقاء في سوريا بالتفريط في القرار السياسي الوطني فستأتي دولة اخرى باسم المصالح تطلب تغيير القرار . ممكن ان يقيم علاقات سياسية تكتيكية . . ممكن ان يعطيهم من هذا الجانب ويأخذ من هذا الجانب . . لكنه يظل أبدا ممسكا بالقرار السياسي . وعندما تصبح المقايضة على القرار والمصالح يضحي

بالمصالح لانه يعلم جيدا انه لو فقد هذا القرار لتركه العالم. فلا أحد يعتني الا بصاحب القرار!.

على هذه الارضية من الفلسطينية الخالصة والعميقة يفتح «ياسر عرفات» مساحة واسعة للحركة. فهو يقيم تحالفات متعددة متشابكة ومعقدة. وبرع في التوفيق في هذه التحالفات حتى انه يمكن ان يكون حليفا لكل من طرفيّ نقيض! المهم ان يوظف هذه التحالفات لخدمة القضية لانه يؤمن تماما ان قضيته الفلسطينية معنويا وسياسيا وتاريخيا هي أقوى وأعمق وأهم القضايا العربية وبالتالي من يطرح أي طرح مع القضية الفلسطينية.. لابد أن يكون على علاقة مع «ياسر عرفات».

لذلك يقال ان «ابو عمار» هو الوحيد الذي يستطيع ان يطير، بكل بساطة، من الرياض الى موسكو!!.

هو صاحب قضية وبالتالي لا يُجرّ الى ان يكون طرفا في قضايا الآخرين مادامت قضيته قائمة.. يقول: «الناس يجب ان يكونوا معي اولا قبل ان يفكر الآخرون ان يستقطبوني معهم في قضايا اخرى».

● العقلية السياسية المرنة هي السر في تميز «ياسر عرفات» سياسيا. وقد أتاح له ذلك أن يحتل مكانة بارزة بين سياسيّي العصر. التزامه بقضيته ذلك الالتزام المطلق.. ثم توظيف اهمية هذه القضية في علاقات فلسطينية وعربية ودولية يؤديه بشكل ثوري متفرّد. فهو يفتح الابواب باهتمامه الشخصي امام الساحة الفلسطينية. فمثلا حين تؤثر الحرب العراقية - الايرانية استراتيجيا على القضية يجب ان يكون له دور لانهائها. او حين تقاتل امريكا اللاتينية الولايات المتحدة في جبهة.. فالالتزام الثوري يدفعه لأن يدعم المجاهدين هناك!.

ورغم كل اهمية قضيته له.. فهو ليس متقوقعا بها. فالتزامه الفلسطيني عنيف ولكن بامتداد عربي ودولي واسع!.

وهو يدرك أن التضامن العربي مصدر قوة للقضية الفلسطينية، فيعمل بكل قواه على انجاز هذا التضامن ليكون مكرّساً لخدمة القضية الفلسطينية والموقف العربي منها. يعي تماما المتناقضات التي تعيش على الارض العربية. ولا يسمح للمنظمة ان تعيش هذه التناقضيات.. وينأى بها عن أي منها.. ويعرف ايضا ان استمرارها يؤثر على منظمته بحكم تواجدها في قلب المنطقة فيعمل جهده على انهائها فلا يمكن للمنظمة ان تعيش الانعزال في وسط العالم العربي.

وقد سقط هؤلاء الذين أرادوا الانضمام لأي نظام ليصبحوا جزءا من هذا التناقض، فاذا بهم يتوهون تماما في خضم المتناقضات. مواقفه محسوبة ومدروسة.. لا يعطي مواقف

مجانية. فهو قومي عربي مؤمن بالامة العربية والامة الاسلامية.. يدرك ان الانتماء العربي يجب ان يضم الجميع.. فلا يفرّق بين مسيحي ومسلم، المهم عنده انتماؤه العربي في حساباته وبذلك يكوّن حالة من التعادل على الساحة الفلسطينية والعربية. وكما يقول نبيل عمرو «ربما لم يهتم بهذه الناحية احد غيره والدليل على ذلك مثلا في مؤتمر الطائف الاسلامي.. لأول مرة في التاريخ يحضر رجال الدين المسيحي مؤتمرا اسلاميا. وكان هذا بمبادرة من «ابو عمار» وهذا يدل على انه نجح في أن يجمع اكثر عناصر ممكنة تبدو متناقضة وغير متجانسة حول القضية الفلسطينية!.

لا يترك شاردة او واردة، يجمع كافة الاوراق ليضعها في خدمة القضية. رأيناه في بيروت ـ والكلام مازال لنبيل ـ يستقبل هنودا حمرا!. لا ييأس يبدأ مع الناس من الصفر. لا يستهين بأي قوى مهما صغرت. يعتبر ان أي شيء مهما صغر قابل للاستفادة منه في القضية.

لذلك هو على مستوى العلاقات الدولية يستخدم كل طاقاته وملكاته. فلكي يستخدم الوضع الدولي لابد ان يفهم تفاصيله. يفهم ما هو المؤثر على قرار اوروبا الغربية مثلاً. وكيف يدير الاتحاد السوفياتي سياسته ومصالحه.. يتابع الولايات المتحدة اهتماماتها واولوياتها. يقرأ كل التقارير حتى ولو كان بعضها غير جدير بالقراء.. ويستمع من الخبراء الى تحليلاتهم عن الوضع الدولي.. والعالم المؤثر في قضيته سلبا وايجابا ليعرف كيف يتشكل قراره.

يتميز كسياسي بوضوح الرؤية.. وطول المدى وطول النفس. يزرع للمستقبل. يقيم علاقات مع قوى ستكون مؤثرة في المستقبل ان لم تكن مؤثرة الآن. يقيم علاقة مع حزب في دولة حتى ولو كان يقيم علاقة مع السلطة في هذا البلد. علاقاته لا دخل لها بالوضع الداخلي في أي بلد لأنه صاحب قضية وطنية. ولذلك اصبح له شبكة علاقات وصداقات بنيت على مراحل طويلة.

هذا القائد الذي يمد يدّ الصداقة للعالم اجمع يستميت في دفاعه عن حق امتلاك القرار الفلسطيني الذي لابد وان ينبع من الالتزام الفلسطيني فقط يسانده قدرة عجيبة على تحطيم المعادلات واعادة تشكيلها من جديد. فالمعادلة التي تتجاهله او تلتف حوله لاحتوائه يسقطها حتى لو كلفه ذلك حربا. وقد خاض حربا قاسية ومريرة في طرابلس دفاعا عن استقلالية القرار. وان كانت كل التوقعات قد اشارت الى نهايته في هذه الحرب النهاية التي لن تقوم له قائمة بعدها. وقد قال «شولتز» بنفسه لاحد اصدقاء «ابو عمار» (اولف بالمي): ها هي منظمة التحرير تدفن الآن في طرابلس!.

ووفقاً للحسابات التقليدية الامريكية كان لابد ان يحدث هذا. فاذا «بياسر عرفات»

يخرج من طرابلس يلتف حوله رجاله بسلاحهم لتعود منظمة التحرير مرة اخرى الى واجهة الاحداث!.

أي جهد بذله «ياسر عرفات» حتى تعود المنظمة الى واجهة الاحداث مرة اخرى؟ أي جهد وأي فكر سليم انتهجه جعل من المنظمة التي يرأسها الحجر الصلد الذي يقطع أي طريق يريد الالتفاف حولها؟.. أي جهد هذا الذي بذله ليجعل امريكا تعيد حساباتها لدرجة انها توشك ان تعترف بالمنظمة وتجلس معها على مائدة المفاوضات؟! منظمة التحرير التي كانت امريكا تؤكد انها ستدفن في طرابلس.. تصبح الآن العقدة الاساسية في حل مسألة الشرق الاوسط.

● اذن فقد شكل «ياسر عرفات» معادلات سياسية جديدة.. تكونت بمجهود ميداني وعسكري وسياسي واعلامي متكامل استطاع ان ينسقه ويعبر عنه ويفرضه رغم كل الجراح التي تدمي قلبه! استطاع ان يتخطى اليأس الذي كانت كل مقوماته ممثلة في الواقع.. ولكنه تخطاه بقفزة التشبث بالحياة لقضيته.

ورغم كل هذا فهو لا ينسب لنفسه شيئا ولا يدعي قدرة وانما يقول بكل بساطة وتواضع: «معادلة منظمة التحرير يصنعها الانسان الفلسطيني»!.

ولا يفرق «عرفات» بين العمل السياسي والعمل العسكري. فهو يعرف تماما انه قائد ثوري. والقائد الثوري يستغل كل الامكانات ليصل الى الهدف. والهدف عنده هو مجموع اهداف تشكل في النهاية الهدف الاكبر. ولهذه المجموعة من الاهداف وسائل مختلفة للتحقيق منها العسكري ومنها السياسي.

بل هو يعرف تماما البديهية الاولى التي تقول ان العمل العسكري شكل من اشكال العمل السياسي. وهو كما يقول نبيل عمرو.. «ليس «ياسر عرفات» جنرالا محترفاً خريج اكاديميات عسكرية نزل الى الميدان ثم قفز على السياسة بانقلاب! هو غير الجنرالات الذين نجحوا بانقلابات في الاشتغال بالسياسة... فقد تشكل على اساس ثوري يتطلب العمل السياسي المتداخل مع العمل العسكري وتوظيف كل منهما لصالح الآخر. ويدرك ان العلاقة الجدلية بين العمل السياسي والعمل العسكري تبرز المحصِّل! فحين اتخذ هو واخوانه قرار الثورة لم يقولوا انها ثورة مسلحة وتوقفوا عند ذلك. بل قالوا انها حركة التحرير الوطني الفلسطيني التي تعني بتجنيد كل طاقات الشعب لتحقيق الهدف الوطني. وتجنيد كل طاقات الشعب بالتأكيد.. قمة العمل السياسي..

ومن المؤكد ان حركة وطنية ثورية تقاتل من اجل استرجاع وطن يقع في بقعة جغرافية من اخطر بقاع الدنيا ويقع في قلب تشابك مصالح عربية وعالمية لابد وان يعزز بحركة

سياسية واعية على المستوى العربي والعالمي توازي اهمية الموقع واهمية الهدف واهمية القضية نفسها. ومن هنا اصبح «ياسر عرفات» يقاتل في الكرامة.. ثم يلقي خطابا في الامم المتحدة! ينام احيانا في ظل درج ـ في المعارك ـ ثم يقوم بزيارة الاتحاد السوفياتي مثلا ويستقبل رسميا ويصنع اتفاقات مشتركة!».

«ياسر عرفات» القائد الثوري المتكامل.. يخوض الصعب والمحال ممسكا بيديه طوق النجاة دائما لمنظمته التي هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. يعرف تماما حتمية وجود المنظمة.. وقد قلنا عنه انه يدخل دائما في الامور تحت شعار نكون او لا نكون.. خاض بمهارة معركة الوجود الفلسطيني على المستويين الحربي والسياسي.

خاض الحرب في بيروت كمعركة مصير وخرج منتصرا! لم يكن النصر العسكري هو الوحيد في هذه المعركة. فقد القى الجيش الاسرائيلي بكل ثقله في هذه الحرب التي تعتبر اطول حرب في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وكانت التقديرات تتردد عن مدى القدرة على صد الهجوم وكم من الوقت يلزمنا ـ والحديث هنا لـ («ابو الطيب» قائد القاطع الثالث من قطاعات بيروت الحربية ـ وقائد قوات الـ ١٧...) لايقاف وصد الجيش الاسرائيلي. وقد كانت مقاومة القوات الباسلة للهجوم الاسرائيلي في آذار ١٩٧٨ قد غيرت كل الحسابات لاننا واجهنا في تلك الحرب ثلث قوة الجيش الاسرائيلي.. وكان السؤال واضحا فيما اذا استخدم القادة الصهاينة كامل قوتهم العسكرية.. ما هي قدرتنا على الصمود؟. وكم يستغرق ذلك من وقت؟.

وبعد ان شرح «ابو عمار» لفريق من الجنرالات السوفيات حرب عام ١٩٧٨ استغربوا كيف استطعنا الصمود امام ثلث الجيش الاسرائيلي؟! وكانوا هم انفسهم يقدرون ان لا تتجاوز الفترة ثمان واربعين ساعة!. فكيف بعد ان صمدت الثورة وحدها مدة ثلاثة اشهر امام كل الجيش الاسرائيلي وستين بالمائة من قوة احتياطه»!.

وهكذا صمد «عرفات» برجاله ثلاثة شهور امام آلة الحرب الحديثة ومخطط القضاء على الوجود الفلسطيني! ولم يستطع الجيش الاسرائيلي اقتحام بيروت الغربية في وجود المقاتلين الفلسطينيين ابدا.. انما دخلها بعد أن رحلوا!! فهل يعد هذا الجيش منتصرا؟.. لقد كانت كل الحسابات تظهر أن الامر لن يتعدى ثمان وأربعين ساعة لتنتهي منظمة التحرير بقائدها ومقاتليها وكيانها البشري كله.. فاذا الامر يطول الى ثلاثة شهور.. ثم يخرج «ياسر عرفات».. برجاله بسلاحه ليزرع الوجود الفلسطيني فوق الارض العربية من جديد بعد ان عجز العدو عن اقتلاعه من ارض لبنان!.

لو كان «ياسر عرفات» قائدا تقليديا يخضع لحسابات القوى المتحدية له ومن حوله..

لانتهى في معركة بيروت. فلم يكن هناك من يستطيع ان يتنبأ بأي بارقة امل. ولكن الرجل لا ييأس فهو يعرف قوة تأثيره الروحي على شعبه. لذلك فحين اتخذ قرار الصمود في لبنان كان يعرفه انه يسطره بدمه ودم شعبه كله.

كان «ابو عمار» اول من اطلق استنتاج ان القوات الاسرائيلية ستندفع نحو بيروت وهي التي تحركت تحت شعار تأمين عمق الحدود الشمالية فقط... لذلك بدأ الاستعداد الفعلي لهذه المعركة. ويقول نبيل عمرو.. «في بيروت عشت لحظة اتخاذ قرار الصمود. كانت اخبار المعارك تقول انها ستطول وتستمر وتتطور الى ان تصل الى بيروت. بدأ القتال ومضت ايام عدة واذا بشارون يصل الى ابواب بيروت. أحكم الطوق حول بيروت. واصبح مقر قيادة «عرفات» لا يبعد عن مقر قيادة شارون اكثر من ثلاثة كيلومترات! لاول مرة في التاريخ يحاصر القائد بالمطلق برا وبحرا وجوا في دائرة لا تتجاوز الاربعة كيلومترات مربعة. وجاءت التقارير.. الآن أُكمل الحصار حول بيروت.. اذن بدأت اخطر مراحل الوجود الفلسطيني. حاول «ابو عمار» التحدث بالتليفون فلم يستطع نظرا لقطع وسائل الاتصال. وأحسست انه شعر بوطأة الحصار الذي يمنعه الاتصال بالعالم الخارجي.. والاتصال الخارجي بالنسبة له في منتهى الاهمية.. فهو دائم الاتصال بالعالم أينما وجد حيث لابد ان تكون كل القنوات مفتوحة. وأحسست امتعاضا على وجهه غير عادي. وساعتها استأذن ان يختلي بنفسه وتركنا. واخذنا نحن نتحدث.. ما العمل؟.. ونسأل ماذا بوسعنا ان نعمل، فقد كان الظرف غير معقول. كنا نستشعر الخطر.. وبعضنا اصابه القلق او بعض اليأس. غاب عنّا لحظة وعاد ليقول «.. يا اخواني قراري هو القتال حتى الاستشهاد»!.. وقال: «هبت رياح الجنة»!.. سمعته بنفسي يقول ذلك. ثم دعا القيادة الفلسطينية ـ اللبنانية المشتركة واخبرهم بالقرار. وقال: «من يلتزم به فقد اختار.. ومن لا يلتزم فلا نستطيع ان نلزمه! فقرار الصمود قرار طوعي».

فتعاهد الجميع على الصمود وبدأ العمل لتحصين بيروت من الحارة والشارع والبيت ويشرف هو على ذلك شخصيا! وفي قلب الحصار.. ووسط المعارك لم يغفل «ياسر عرفات» عن الوضع الانساني. كان يعرف لكي يصمد الناس.. يجب ان تعطيهم مقومات الصمود. فالصمود ليس قراراً فقط.. ولا بندقية فقط.. ولكنه مقومات.

مثلا كان يقوم بجولة على الافران.. عقد اجتماعات بها وطلب العمل اربع وعشرين ساعة متواصلة. نصف اليوم للمواطنين والآخر للمقاتلين. اعتنى بمشكلة المياه بعد ان بدأت بيروت تعاني من نقص المياه.. فأمر بحفر الآبار. مثلا مشكلة توفير الوقود.. وهكذا كان يتابع كل ذلك من مقر العمليات.. وينزل ميدانيا للمتابعة!».

● في معركة بيروت كان «ياسر عرفات» يحمل الهم العربي كله لم يكن همه الفلسطيني الا جزءا من ذلك الجسد العربي الذي يمتهن في بيروت . . ويسأله اللبنانيون على ما تراهن وانت هنا في الحصار؟ . . فيقول «انا لا اراهن على شيء . . لكن بيروت العاصمة العربية لا يصح ان تسقط دون مقاومة! . . ونحن الفلسطينيون نقدم دماءنا دفاعا عن بيروت . . ومجد بيروت فهل يعتبر احد هذا خطأ»؟ .

كان يعمل ضمن معادلة يومية . . مراهنا على تحولات يصنعها الصمود! . . قال في رسالة موجهة الى جماهير الامة العربية في ١٩٨٢/٦/١٧ : «بيروت اول عاصمة لدولة عربية يدق ابوابها الغزاة الصهاينة بمدرعاتهم وآلياتهم ومدافعهم . ولكن اقول باسم هؤلاء المقاتلين وباسم جميع الاحرار والشرفاء . . باسم الجماهير العربية ان الدماء التي نزفت والتضحيات التي قدمت والشهداء الذين سقطوا دفاعا عن الحمى لن تذهب هدرا، بل ستصنع التحول العربي القادم . . وستصنع الفجر العربي الجديد لا محالة» .

هكذا كان «ياسر عرفات» في بيروت، يقوم بجولات على كل المواقع ويوجه المعارك يلاحق جنوده في كل خطوة في كل خندق . يعرف انه يقود اعظم معركة في تاريخ الامة العربية . يقول العقيد «ابو الطيب» . . كان انسانا قريبا من قلوبنا بشكل يفوق الوصف . كان حانيا صلبا نستمد من بسمته الصمود والاقدام . لم يترك موقعا الا تفقده . . ولم يبن متراس في بيروت الا بمعرفته . كان يطوف بالشوارع يلتقي بالناس يواسيهم يعزز من ثقتهم بأنفسهم . . يقدم لهم حاجياتهم . . لا ينام الا قليلا! .

ادارته للمعركة كاملة واجتماعاته متواصلة واتصالاته لا تتوقف! ! . . كان هكذا في الوقت الذي تنهال فيه القذائف الاسرائيلية قذيفة كل خمس عشرة ثانية! في احدى الغارات، قال عنه احد مراسلي الصحف اللندنية : «ان ياسر عرفات» موجود في مقر قيادته في بيروت وسلاحه في يده . . وانه مستعد للقتال حتى آخر قطرة من دمه . . . دون ان يستسلم!» .

«ياسر عرفات» يتحدى حداثة الآلة الاسرائيلية بوسائل بسيطة، بل تعد بدائية . . ولكنه يعتمد فيها على عنصر المفاجأة! من كتاب «زلزال بيروت» للعقيد «ابو الطيب» نورد هذه الفقرة : «امر «ابو عمار» بوضع عشرين برميلاً كبيرا مملوءة بالمازوت والزيت والبنزين عل مداخل المنطقة الجنوبية بحيث تكون مخفية وتكون قريبة من الالغام المشركة التي زرعناها على هذه المداخل . وبالقرب من هذه البراميل من عنصرين الى خمسة وان يكون سلاحهم من الرشاشات المذخرة بذخيرة «خارق حارق» . . وعندما يصل العدو الى تلك المناطق تطلق النار على البراميل! . . لقد تراجع العدو بآلياته وفوجىء بطبيعة الكمين حتى ان كثافة النيران

والدخان وضخامتها جعلت العدو يظن ان لدى الثورة سلاحا جديدا لم يُعرف بعد!! . . ويوصى ايضا بصنع خنادق على شكل بيوت صغيرة من الحديد السميك كانت تدفن تحت الارض واستعملت بكثرة خاصة في منطقة الرمل العالي نظرا لان هذا الموقع يعتبر منطقة مكشوفة تماما» .

هكـذا كان «ياسر عرفـات» في بيروت رغم ان مهمة الطائرات الاسرائيلية تحولت للبحث عنه . . تتبعه الى كل مكان . . كل بناية وكل شارع . . وكأنه كان الهدف الوحيد من غزو بيروت! «ياسر عرفات» الذي قال عنه مناحيم بيغن في رسالته بتاريخ ٤ آب وجهها الى الرئيس الامريكي ريغان: «في الحرب التي تهدف الى القضاء على زعيم المخربين في غربي بيروت اشعر كالذي يرسل جيشا الى برلين للقضاء على هتلر في خندقه!» . . لقد كان الرجل هو الهدف. يعرفون تماما قيمة وجوده . . وكانوا يعملون بكل جهد على انهاء هذا الوجود. وعندما قصفت عمليات (٣) كان يبعد عنها بضع امتار وحينما قصفت عمليات (٥) كان من المفروض ان يكون داخلها . . وعندما ضربت بناية الصنائع كان من المؤكد ان يكون مجتمعا فيها. وضربت احدى البنايات وتضررت سيارته التي كان مفروضا ان يكون جالسا فيها! .

يقول قائد قوات الـ ١٧ في كتابه «زلزال بيروت» «ليس اصعب من تلك الايام ان تكون بالقرب منه فما ان يمر بجانب بناية حتى يهرب الجميع من المكان الذي يتواجد فيه. لقد هرب كل سكان بناية البيكاديللي عندما سمعوا بوجوده فيها . . ولم يكن هناك! كانت النساء اللبنانيات يتقدمن نحوه وهن يبكين ويخاطبنه: يكفي يا أبا عمار من اجل اطفالنا. كان ينتقل من سيارة الى اخرى . . ومن منطقة الى اخرى بسرعة لا يمكن ملاحقتها. وكانت اذاعة الكتائب تكمل الحرب النفسية وتنذر سكان البنايات من وجوده وتعلن عن اماكن تواجد وهمية له لتعطي مبررا للعدو لقصفها . . فكان الناس يفرغون المنطقة على الفور! .

كان متماسكا طيلة الوقت ممسكا بزمام الامور بين يديه مدة ثلاثة اشهر!! لم أشاهده ضعيفا حزينا باكيا الا يوم قصفت بناية الصنائع . . كان يحمّل نفسه السبب وكان يقول ما ذنب هؤلاء الاطفال يسقطون تحت الركام لا من اجل شيء الا لانني زرت البناية مرة او مرتين! .

اخذ قرارا بأن لا ينام في اية بناية . . وقد مكث اكثر من اسبوع ينام في السيارة وفي المناطق الخالية من اي تجمع سكاني وبمفرده الا من مرافق او اثنين. كان ينام حيث لا يتوقع العدو في المناطق التي ضربت . . تحت الجسور في المناطق الجنوبية . . كان يتحدى في المعارك حتى ذاته! .

في الايام الاخيرة للحصار قام الطيران الاسرائيلي بأكثر من مائتين وخمسين طلعة من

الساعة السادسة صباحا حتى التاسعة مساء بدون توقف. لم تترك منطقة في بيروت الا وقصفت. . كان ذلك اليوم هو الجحيم بعينه. كان العدو يهدف من ذلك ـ وكما قال شارون ـ ان يخرج «ياسر عرفات» حاملا راية بيضاء»!.

لكن «ياسر عرفات» لم يخرج تحت الراية البيضاء مستسلما. . بل استعصى على طالبيه واستطاع ان يُفشل جهود العدو في تقديم الحل العسكري على الحل السياسي. فقد رمى العدو بكل ثقله العسكري مستخدما الفرق الثلاث ولمدة اربعة ايام اخيرة في بيروت استمرت المعارك لوضع العالم كله امام الامر الواقع. ولكن ذلك لم يحدث فقد كانت هناك اتصالات سياسية وديبلوماسية يديرها وبسرعة كبيرة وعلى كافة المستويات.

وقد ارسل «ابو عمار» برقيات حول الوضع العسكري والعدوان الوحشي الاسرائيلي على بيروت الى الملك فهد وبريجنيف والرئيس ميتران.

● قاد «عرفات» ليس اعظم معركة حربية فحسب. . بل خاض اعظم معركة سياسية قادها وهو تحت القصف ضد التحالف القوي الضاغط. فلم يكن مستغربا ان يخرج كل الزعماء والملوك العرب لاستقباله في مطار الدار البيضاء في المغرب اثناء انعقاد قمة فاس. ولم يكن مستغربا ان يصرخ بيغن في حدة المعركة السياسية بقوله: «لا ادري هل انا الذي احاصر بيروت. . ام ان «ياسر عرفات» هو الذي يحاصر تل ابيب؟!.

لكن كل هذا لم يكن لان «ياسر عرفات» يحاصر تل ابيب. . ولكن لأن «ياسر عرفات» هو الذي اوقف الجيش الاسرائيلي عاجزا على مشارف بيروت! هو الذي اوقف ذلك الجيش ليضطر قادته ان يترددوا الف مرة قبل ان يقرروا اقتحام بيروت الغربية مقدرين حجم الخسارة التي يتحتم عليهم ان يخسروها في عملية الاقتحام طالما ان «ياسر عرفات» ورجاله صامدون بداخلها. لانه هو الذي استطاع تشكيل المعادلات الجديدة في المنطقة كلها. فحقيقة ان القوى التي تضافرت عليه وعلى منظمة التحرير والاحداث التي مرت خاصة في الثلاث سنوات الاخيرة كانت كفيلة لو تم مواجهتها بحسابات تقليدية لان تنتهي منظمة التحرير نهائيا. لو القت هذه الاحداث بثقلها على دولة من الدول ذات الكيان المستقل سحقتها. . ولكن المنظمة باقية. . ونستطيع ان نقول انها ـ به ـ باقية.

وبعد كل هذه المحن استطاع «ياسر عرفات» ان يكون بمنظمته الصوت العالي للوجود الفلسطيني الذي لم ينسحق تحت ثقل الجيش الاسرائيلي. . او يتوه في سيطرة القوى التي تسعى لاحتوائه حتى يضعف هذا الوجود لمصلحة العدو ورغبات المصالح الطامحة.

● وخاض «ياسر عرفات» اعنف معاركه السياسية بعد خروجه من «طرابلس» وهي معركة المجلس الوطني الفلسطيني. لقد ارادت القوى المتآمرة ان تسقطه. . فدبرت له معركة

ارادت لها ان تكون الفاصلة . . الفاصلة في نهاية «ياسر عرفات» . فبعد ان احتوت رؤوس الانشقاق قامت بتجميع كل قواها في طرابلس للقضاء على «ياسر عرفات» . وكان هو في تونس . ولكن قواته تجمعت هناك في طرابلس لمواجهة التمرد . وكم حاولت «سوريا» الحيلولة دون تجمع هذه القوات . ولا يعلم الا الله كيف تسللت القوات لتكون في مكانها المفروض . وحين اخرجت «سوريا» «عرفات» من دمشق بطلب طرد عجيب يتنافى مع كل مقتضيات الاخوة والوطنية والقومية ، كانت تظن انها ببساطة تستطيع ان تستولي على القوات . وان هذه القوات ستخضع حين ترى قائدها يخرج مجردا الا من كبريائه . حقد عارم على شخص «ياسر عرفات» فلأي مصلحة يقيم نظام عربي كل هذا المخطط الا لاخضاع القرار الفلسطيني لمشيئته . . وبما أن القرار الفلسطيني يقف شامخا بشخص «عرفات» . . فلابد أن يختفي . . ليحل محله عملاء يستطيعون السيطرة عليهم . لقد ارادت القوى المتآمرة ان تسقطه في طرابلس . ولكن حين خرج ويلتف حوله اربعة آلاف مقاتل . . أفشل محاولة عزله . وكانوا يظنوه سيخرج وحيدا . . فاذا به يقلب كل الموازين ويخرج بعد أن خاض معركة تورطت فيها بعض الانظمة العربية التي كشفت عن اشتراكها في التآمر الدائر على ارض العرب ! .

لقد قال لي «ابو عمار» . . «لاول مرة في التاريخ أرى علنا المصالح الاسرائيلية والمصالح العربية تتفق . كانت اسرائيل تحاصرنا من البحر وتقصفنا . . والقوات العربية تحاصرنا من البر وتقصفنا» . اسرائيل تريد ان ينتهي «ياسر عرفات» . . وبعض العرب يساعدونها على ذلك ، لانهم ايضا يريدون ان ينتهي «ياسر عرفات» ! .

حين خرج «ياسر عرفات» من طرابلس . . اعاد تشكيل معادلة الواقع العربي من جديد . واستطاع رغم كل قذائف طرابلس ان يبرز من تحت الدخان في صورة واضحة بارزة المعالم . وحاول الخارجون عليه افشال المؤتمر الوطني ولكنه بمهارة دقيقة مدّ لهم الحبل الى آخره . . وحتى يشهد العالم كله كيف يتعامل «ياسر عرفات» حتى مع الخارجين عليه ! . . فكان انهم لم يحسنوا استخدام الفرصة المتاحة لهم وشنقوا انفسهم بالحبل الذي مدّه لهم ! ورغم كل محاولات التشكيك واعتماد مخطط الاغتيالات وممارسة الارهاب على الدول حتى لا تقبل بانعقاد المجلس على اراضيها . . فقد تحدى «ياسر عرفات» كل هذا . وقال لي «لو اقتضى الامر سأجلس في سفينة في البحر ترفع علم الامم المتحدة . . واعقد المجلس» ! . وهذا هو طبعه . . التحدي دائما . . تحدي الثقة . . «فأبو عمار» يعرف قدره ويعرف شعبيته ويعرف انه قادر على تحقيق ارادته . وحين قال سينعقد المجلس الوطني كان على يقين من ان الشعب سيأتيه مؤيدا .

وعقد المجلس . . ورغم كل المحاولات المعوقة اكتمل النصاب . وخرج «ياسر

عرفات» رئيسا شرعيا من جديد لمنظمة التحرير. وكان هذا اكبر عملية تحجيم وعزل لمن ناوؤه.

وقد شهد العالم اجمع نوعا من الممارسة الديمقراطية الراقية التي لا تتوافر الا في الدول العريقة في الديمقراطية! وقد شاهدت بنفسي هذا النوع الفريد من الديمقراطية فقد حضرت جميع جلسات المجلس الوطني في عمّان. وكانت مشاهد جلسات المجلس الوطني تعرض على شاشات التلفزيون الاردني بين دهشه وعجب الاسرائيليين انفسهم حتى صرح احد قادتهم بقوله.. اني لا اصدق ما اشاهده! ولكنّا كنا نصدق.. فقد كنا شهود عيّان لكل ما يجري. وهذه هي مصداقية زعامة الرجل في العالم العربي.. وانتهى المجلس.. وبقي «عرفات» شوكة في حلق اسرائيل!.

وكما كانت معركة بيروت تحديا عسكريا وسياسيا.. وكانت معركة طرابلس معركة وجود واستقلال. كانت معركة المجلس الوطني تحديا وجوديا وشرعيا. وقد سألته انا شخصيا وفي حديث صحفي. اتعتبر انتصارك في المجلس الوطني انتصارا شخصيا ام فلسطينيا او قوميا؟.. فابتسم بسمته المضيئة وقال «.. فلنقل انه كل هذا».

لقد خاض «ياسر عرفات» معركة وجوده ووجود منظمته كلها بتكتيك سياسي عبقري لا يسانده فيه الا ذلك الرصيد الضخم من الحب والتأييد الشعبي الذي يظفر به وحده على الساحة الفلسطينية.. ورغم ضخامة المؤامرة على وجوده الى الحد الذي اسكن الخصومة فوهة المدفع في طرابلس! ورغم انه خرج من طرابلس يحيط به اربعة آلاف مقاتل.. كانت الرؤية ماتزال غائمة امام خصومه الذين ظنوا ان ما كان سيُفقد الرجل حسن تقديره لموضع قدمه.

وزغردت الفرحة في قلوبهم حين لاحت لهم الفرصة بوقوع «عرفات» في المحذور بزيارته لمصر! لقد نهض الجميع ضده لذلك.. الاعداء والاصدقاء، حتى بعض رفقاء عمره استنكروا هذه الفعلة.. واراد الجميع ادانته. وسانده في هذا الموقف بعض رفاقه في اللجنة المركزية والمجلس الثوري.

ويقول «هاني الحسن» في مذكراته الخاصة عن هذه الزيارة.. «هنالك بين اقران عرفات ورفاقه من هم كالبحارة المتربصين للتمرد... ولكن ليس قبل ان يصطدم ربانهم الجريء في سفينته بالصخر. وقد ظنوه اكثر من مرة قد اصطدم بالصخر. ودائما تكون المفاجأة ان تلك لم تكن الحقيقة. فعندما خرج «عرفات» القوي من «طرابلس» خاف جورج حبش.. فأمسك برحلة القاهرة كغطاء لأهوائه الذاتية لتحجيم «عرفات»!.. وساعده في ذلك آخرون من فتح!!.

امـا زيارة القـاهرة في حد ذاتها فقد كانت خبطة سياسية نظر اليها خبراء السياسة العالميون بعين التقدير. حتى ان القادة السوفيات انفسهم اشادوا بها. وتكشفت الحقائق بعـدها ان «عرفات» بزيارته للقاهرة لم ينضو تحت مظلة «كامب ديفيد» فالرجل صاحب مبادىء وثوابت لا يحيد عنها. ولكنه وكما يقول: «لم يكن من المعقول.. ان أمر على البلد الذي ساعدني في الخروج من طرابلس دون أن احييه وأحيي رئيسه».

● ولكن السبب الرئيسي كان هذه المرونة السياسية التي يتميز بها «عرفات» والتي تقضي على القادة بالتحرك في كل اتجاه. و«عرفات» يعرف ان هذه المرونة تقتضيه ان يمد يده لمن مال عن الخط الذي يتبعه.. فربما استطاع اجتذابه في اتجاهه من جديد.. او على الاقل ليظهر له حسن استقباله له لو نظر باتجاهه مرة اخرى!.

ان التصلب في المـواقف وعمليات الخصـام والمقـاطعـة والهجـوم لا تجري الا بين المتخلفـين سياسيا. ولكن السياسيين الـواعين يعرفون ان المرونة وسيلة من وسال تحقيق الاهداف. وهذا لا يغيب عن سياسي كعرفات يلم تماما بتفاصيل الواقع العربي والدولي.

● وقد جرى التخطيط المتقن بعد هذه الزيارة ومنذ قرارات عدن حتى تمر زيارة القاهرة من المجلس الوطني بسلام، رغم كل ما اتخذ في مؤتمر عدن من قرارات!. وقد كان الهدف البعيد من انعقاد المجلس في عمان تحت عين «هاني الحسن».. وربما وحده لأنه يعرف جيدا ما هي قيمة انعقاد المجلس في عمان!.. ولم يشأ «هاني» ان يفصّل دقائق هذا التخطيط السياسي كجزء هام من التخطيط العرفاتي.. واكتفى بالنتائج.. فكما يقول.. العبرة بالنتيجة... والتي كان نجاحها دليلا كبيرا على دقة التخطيط.

«ياسر عرفـات» يستميت على أي فرصـة تسنح له ومهما كانت صغيرة. يرضى بما يستطيع الحصول عليه.. لا ما يجب الحصول عليه.. وحتى لا يقف منتظرا على أبواب المجهول ينتظر هذا الذي يجب! وهذه هي المرونة المطلوبة في السياسي اذ لا يقف متصلبا أمام مكسب مهما بدا صغيرا مادام هو مكسبا. وتثبت الايام دائما ان من هذا المكسب الصغير تتكون المكاسب الكبرى. لقد رضي «ياسر عرفات» من إتفاقية القاهرة عام ٦٩ بموطىء قدم له ولمقاتليه على الارض اللبنانية.. الامر الذي عارضه الجميع ولكنه قبله إيمانا منه بأن موطىء القدم هذا في ظل شرعية عربية لا بد وان يتسع ليصبح نقطة إنطلاق الى هدفه. قبل هذا وهو في اشد الازمات التي هددت الوجود الفلسطيني على الارض اللبنانية بعد ان حاربه اللبنانيون انفسهم.

ولنبدأ القصة من أولها لنرى بعد نظر هذا القائد الفذ. ففي عام ٦٨ وحين كانت القيادة الفلسطينية تهتم بالجبهة الاردنية التي ينبع اهميتها من قربها من الضفة والقطاع ومن

الـوجود الهائل للشعب الفلسطيني على الاراضي الاردنية . . في ذلك الوقت كان الاهتمام بالساحة اللبنانية أقل . . ولكن ما كان احد لينساها خاصة «ابو عمار» . . وان كان لم يعطها الجهد الكافي بعد . ولكن عينه كانت دائما عليها لانها جبهة ان لم يحتجها فعلى الأقل تكون رديفا لجبهة هو فيها .

وكانت الحكومة اللبنانية مسيطرة والجيش اللبناني في كامل قواه . . فهو الجيش الذي لم يخض حربا وهو بهذا غير الجيش الاردني او السوري او المصري . . وكان يسيطر تماما على الارض اللبنانية اي كانت له القدرة الذاتية . وفي هذا الوقت كان «ابو عمار» قد ارسل فصيلا ربما ليس أكثر من ثلاثين عنصرا للتواجد في نقطة التماس الاسرائيلي اللبناني ليكون ابعد ما يمكن عن السيطرة اللبنانية . . واقرب ما يمكن من الحدود الاسرائيلية حتى يتفادى أكبر قدر من التصادم مع السلطة اللبنانية . . اي الهروب من الصديق باتجاه العدو! . . وبعد هذا التواجد الصغير حدث هجوم اسرائيلي لبناني على هذا الموقع ودمّر! .

بعدها تنبهت القيادة الفلسطينية وخاصة «ابو عمار» الى اهمية لبنان . وارسل قوة لا تقل عن سيارتين تسللتا الى لبنان للتواجد في مساحة معينة .

وفي ذلـك تصاعدت شعبية العمل الفلسطيني نظرا للعمليات الفدائية التي كانت تحدث في ذلك الوقت . ومع تصاعد هذه الشعبية ولأن الحكومة اللبنانية كانت تريد تفادي اي تصادم فلسطيني جرت عدة اتصالات ووافقت السلطة اللبنانية على السماح بالتواجد فقط بالجبل ـ ومُنع النزول الى القرى ـ في منطقة لا تزيد عن ستة كيلومترات محصورة بكمائن وحواجز للجيش اللبناني في كل الاتجاهات . وليس بالمنطقة الا طريق ضيق او بالاحرى ممر ضيق وعار تماما . وكانت اي حركة مرصودة ومعروفة . وكان الامداد لا يأتي الا عن طريق جبل الشيخ وكانت هناك صعوبة شديدة بل قسوة في الحياة بهذا الشكل .

ومنذ عام **٦٩** بدأ التواجد الفلسطيني يجد له صدى في الشارع اللبناني وبدأ يمتد **ويؤثر، وهنا احس بعض اللبنانيين بخطورته** . فقدامتدصداه الى المخيمات الفلسطينية التي كانت موجـودة بلبنان منذ عام **١٩٤٨** . وكان نتيجة هذا ان بدأت احداث **٦٩** اي القتال الفلسطيني ـ اللبناني . وقامت الثورة الفلسطينية بنقل وحدات من الاردن وسوريا التي كان لها بها ايضا وجود وان لم يتملك حرية العمل الكاملة . انتقلت هذه القوات واشتركت مع القوات المتواجدة في القتال ضد **الطائفيين** . وكانت نتيجة القتال ان دعيت الاطراف المتنازعة الى القاهرة لتوقيع اتفاقية القاهرة التي سمحت للثورة بالتواجد بحجم محدود وعبر مناطق محددة ضمن ممرات بالكاد يستطيع ان يصل عبرها الا مداد . . وربما في شهور الصيف فقط .
واعطاها ايضا حق التواجد المسلح في المخيمات بحجم سبع بنادق لكل الف مقاتل! .

وقبل «ابو عمار» ذلك!! واعتبره انجازا ومكسبا كبيرا في ذلك الوقت وكان هذا اول إتفاق لبناني فلسطيني في ظل شرعية عربية . . ولذلك اعتبره انجازا ضخما . وقد رفضت كل التنظيمات الفلسطينية هذا الاتفاق . . حتى كوادر فتح رفضت ايضا . وكان الكل يراه ضيقا لا يتسع لجسد الثورة .

الا «ياسر عرفات» . . الذي كان ببعد نظره يراه الانفراجة التي ستسمح بالنمو بعد ذلك . وقد اثبتت الاحداث ان ذلك الاتفاق هو الذي سمح لذلك الجسم الضخم ان ينتقل الى لبنان بعد احداث ايلول وفقدان الجبهة الاردنية . ولولا هذا الاتفاق ما كان يمكن للثورة ان تتواجد في لبنان . اي ان الوجود الفلسطيني الضخم على الارض اللبنانية بدأ بموطىء القدم الذي كان لا يراه الا انسان واحد هو «ياسر عرفات»! .

وهكذا يرضى «عرفات» بالممكن . . في انتظار الذي يجب . . وهذا ما يميزه عن الآخرين النظر البعيد . لا يريد كل شيء مرة واحدة . يأخذ ما يمكن ان يأخذه ليكن نقطة ارتكاز . واذا تصلب عند الرفض دائما . . . لكان كمن يرتكز على الهواء . . يتناثر من تحته فيذهب هباء! .

وهذا الموقف يشبه تماما موقف بعضهم من الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني . من خلال هذا الاتفاق يحاول «ياسر عرفات» ان يأخذ ما يمكن أخذه بعد ان ضاع كل شيء . . ويعارضه الجميع كالعادة . . وكأنهم لم يستفيدوا ابدا من دروس الماضي، ونسوا ان الرفض الدائم لكل الحلول قد اضاع ارض فلسطين كلها . ولو كانت الثورة الفلسطينية قد ارتكزت على أية بقعة من أرضها لنمت وكبرت واصبحت قوة معادلة للقوة الغاصبة . وقد نمت هذا النمو العظيم وهي خارج أرضها فما بالك لو كانت على أرضها؟ .

لقد اثبتت الاحداث دائما ان رؤية الرجل كانت سليمة . وان القليل يجلب الكثير . . ولكنهم لا يعتبرون او كما يقول هو دائما «اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون» .

لقد كان هذا الاتفاق . . وبعد فقدان الساحة اللبنانية هو المخرج الوحيد . ولولاه ربما ما كان قدر للثورة ان تعيش . فما دامت الثورة ترتكز على وجود الجماهير . . فهي ثورة حيّة . وتستمر الحيوية اكثر من قربها من الحدود . . حدود الوطن السليب .

والآن فقط بدأ كثير من المعارضين يتكشفون الرؤية . واحسوا ان هذا الاتفاق يتيح لفاعلية الثورة ان تتجدد مرة اخرى بعد خروجها من تحت الضربة القاضية التي وجهت لها في لبنان .

وكم هوجم «ياسر عرفات» . . وكم تطاول كثيرون على تفكيره . لقد ظل الرجل مدة شهرين كاملين في حوارات واجتماعات وصراعات دون ان ييأس .٠. ودون ان يهتم بهجوم

شخصي وقيادي عليه. لانه يتحمل دائما في سبيل القضية التي يؤمن بها والذي لا يستطيع احد ومهما بلغت احقاده ان يشكك في اعتناقه لها. . لذلك فهو لا يهدأ ولا يكف عن العمل الدائب الذي يسمح له بامتلاك نقطة مضيئة في طريقه الشاق الطويل. وميزته الكبرى انه لا يسمح لاحد بحرمانه من هذه النقطة مهما كلفه هذا من جهد ووقت وشرح ومجادلة واحتمال! وقد احتمل مدة طويلة تلك المعاناة يوميا ليقتنص الموافقة على الاتفاق من قلب التصلب والرفض المتعمد للنيل منه شخصيا. فالرجل لا يقدم شخصه ابدا على قضيته فيقينه اولا ثم اي شيء آخر.

وهذا واقع. . والا لرأيناه يخرج من بيروت ـ قبل الغزو الاسرائيلي ـ وحين نصحه الجميع بذلك بما فيهم قيادات فلسطينية ايضا! وكان الرأي ان تخرج القيادة من بيروت قبل ان تخوض حربا يعرف الجميع انها خاسرة. . وبقناعة ان القيادة تستطيع ان تعمل في اي مكان غير ميدان المعركة، فما كان منه الا ان امسك البندقية وقال لقائد القوات: «سجل إسمي بين اسماء مقاتليك!». القائد العام يقبل ان يقاتل كجندي في الصفوف اذا ما كانت رتبة القائد ستعوقه!. وهذا ما جعله يرد على احد السفراء الاصدقاء حين نصحه بالخروج قبل ان يلتقطه الاسرائيليون بالشبكة أسيرا!. . فرد عليه: «ان من يملك طلقة واحدة في هذا ـ واشار الى مسدسه ـ لا يمكن ان يُلتقط اسيرا بالشبكة»! وقد روى لي هذا بنفسه. وهكذا هو لا يأس ولا توانى ولا تخاذل ولا ضعف ولا تصلب ولا غفلته تمسك عظيم بالأسس. . ومرونة هائلة في ممارسة العمل ضمن السقف الذي يبسطه هو رغم كل الظروف العصبة. وهذه هي ثورية العمل بما تقتضيه روح الثورة من تفاعل. . ولا يغفل ابدا عاملا من عوامل النجاح مهما كلفه الامر من تضحيات.

وفي نفس الموقف نتذكر الحال بعد احداث ايلول سنة ٧٠ حين خرج جسد الثورة مطعونا نازفا من الاردن. وكان السؤال الرهيب الى أين؟.

واصدر «ابو عمار» اوامره للوحدات ان تتحرك الى «جبل الشيخ». . لامه كثيرون من القيادة وقد خالطهم شعور داخلي ان هذه هي نهاية الثورة وان هذه المرحلة مؤقتة، وان لا جدوى من كل هذا. . وان الحل الوحيد هو العودة الى العمل السري. . وكثير من المنظمات الفلسطينية شكلت احزابا استعدادا لمرحلة العمل الجديد وهي مرحلة العمل السري!.

مثلا الجبهة الشعبية فورا اعلنت حزب العمل الاشتراكي!. . الديمقراطية لم تعلن بناء حزب جديد ولكنها داخليا صنعت البناء الحزبي استعدادا ايضا للانتقال للمرحلة الجديدة. اما التنظيمات الاخرى. . الصاعقة او جبهة التحرير العربية فهي في الاصل تنظيمات حزبية قائمة. وحتى «فتح» كان كثير من قياداتها يرون ان لا بد من العودة الى

السرية وبناء التنظيم التحتي. لكن كان هاجس «ابو عمار» الوحيد هو كيفية المحافظة على هذا الانجـاز. فقد كان موقنا ان جسد الثورة انجاز بناؤه انجاز. . . وهذا الانجاز بُني بالدماء لا بالقرارات فكان كل همه ان يحافظ على استمرارية هذا البناء الضخم.

وفعلا تحركت القوات. . وكان هو يستطلع لها بنفسه مع بعض الضباط! . وبعدما حدث في ايلول كان يقول: «والله لقد كانت ثلوج جبل الشيخ أحنّ علينا من أفئدة الدول العربية!»، وكان رجاله يقولون: عندما تذوب الثلوج يا «ابو عمار» ستجدنا واقفين كالصقور في اماكننا! .

● ومـرة اخـرى اثبت «ياسر عرفات» انه يتخطى المستحيل دائما. فبعد ان خرج برجاله واغترابه من الاردن وسكن الثلوج بمن معه. . اذا بالشمس تشرق والثلج يذوب ويكشف عن ذلك الجسد الكبير الذي تعافى ونهض من جديد! . ولا شك ان الصعود الى الجبل هو الذي أوصل «ابو عمار» الى الامم المتحدة. . والذي جلب وحدانية منظمة التحرير للشعب الفلسطيني. . وهو الذي تسبب في كل الانجازات الدولية السياسية التي حققتها المنظمة للشعب الفلسطيني. وهذا كله ما كان يمكن ان يكون لو أن «ياسر عرفات» خضع لرأي الاغلبية وحاول هو ايضا الاجهاز على الجسد الثوري المنهك الذي خرج من الاردن. . عرف كيف يحافظ عليه وكيف لا يسمح بتقطيع أوصاله الى احزاب خفية مرة اخرى بعد ان اعلن وجوده الخارق على الارض العربية. بعد ذلك الاعلان الصارخ بالوجود لا يمكن ان يعود الى الاختفاء في صورة مجموعات بسيطة.

وكانت المحافظة على هذا الكيان براعة قيادية عسكرية سياسية شاقة ومستحيلة في نفس الـوقت! وهذا يرجع الى قدرة القائد الذي دائما وفي أشد اللحظات ظلمة يتمسك بالأمل. . . رغم انه يكون وحده الذي يتمسك به. . وسط اليأس. . وهو الوحيد الذي يبعث الأمل في كل مراحل اليأس ولا يهتز ابدا يقينه حتى في أكثر اللحظات بأسا. . وأشد الازمات ضيقا يقول: «إني أرى مآذن القدس». . ومعنى هذا اليقين هو العمل بإرادة لا تلين للوصول.

ولعـل ارادة الـوصـول هذه هي التي تجعله يعلو عن أي معـوقـات. فهـو لذلـك يتحمل. . . يتحمل فلسطينيا وعربيا حتى من أقرب المقربين له. وكم وقف ضده اقرانه واعوانه ولكنه يحتمل. وهذا ما لا يستطيع اي قائد آخر عليه. هو وحده ينسى. . ينسى كل شيء امام فلسطين. . ينسى حتى ذاته ويكبر على الجراح! . . الوضع العربي كله قتله ولكنه يستطيع ان يقفز دائما على الدمار لصالح القضية.

يقول «نصر يوسف» بفهم عميق. . «أهم ما يميزه انه لا يعيش عقد الخلافات. .

بل يتجاوزها بمرونة السياسي المخلص لمبدأ واحد هو إنجاح قضيته». لو وقف «عرفات» متصلبا أمام الخلافات العربية واخطائها في حقه لاستنفزته هذه الخلافات ولم يتقدم خطوة. ولكنه دائما يُقبل بقلب مفتوح لكل من يريد الانتماء للخط القومي متجاوزا كل الاخطاء والقصور السابق. مثلا النظام السوري بكل ما به من صلف وغرور وكل ما ارتكبه من جرائم.. لا يتوانى «ابو عمار» ان يمد له يد المصالحة! يرسل الوفود تلو الوفود للمصالحة ولا ييأس. يتخطى كل الأشياء.. وتبقى فلسطين هي كل نفسه!. وهذا ايضا ما يميزه عن كثير من رفقائه وعن كثير من الزعماء العرب.

و«عرفات» رغم انه منغمس في فلسطينيته لدرجة انه ان لم ير الفلسطينيين يوميا يضجر.. لانه يريد علاقته بهم يومية.. لكنه عربي بشكل غير عادي منتمٍ للأمة العربية واحساسه ودود بالنسبة لها وتجاهها. يشعر ان الظلم الواقع على الفلسطينيين جزء من الظلم الواقع على الأمة العربية ككل.. وان كان الأقسى والأمر هو الظلم الواقع على الفلسطينيين!.

وانطلاقا من انتمائه الكبير الى العروبة لا يعادي أيا من الدول العربية بل يسعى جاهدا الى ان يتناسى الإساءة ويطوي الصفحة ليبدأ دائما من جديد لأنه يشعر أنه في وسط العروبة أقوى. وان العرب باجتماعهم تحت وحدة العروبة أقوى.

قام بمفاوضات كثيرة وحاور وناقش ليقرب وجهات النظر بعضها البعض سواء بين الدول العربية كوساطة أو بين الدول العربية وبين المنظمة.

يتمنى دائما ان يعمل تحت الغطاء العربي ليكون هو اليد التي تمتد عن الدول العربية الى اسرائيل ولكنهم لا يمكنوه.. ومع ذلك، فانه دائما مستعد لتناسي كل شيء ليبدأ من جديد مع اي نظام مهما كانت قسوة الخلافات التي كثيرا ما وصلت الى حد المذابح.. اذا كانت الصفحة ستبدأ باحترام القرار الفلسطيني».

لقد استطاع ان يضع منظمته في معظم المحافل الدولية في مكانة سياسية ودبلوماسية ربما لم تحرزها اي حركة من حركات التحرر قبل منظمة التحرير!. فالمنظمة عضو مراقب في الامم المتحدة. وعضو في دول عدم الانحياز والدول الاسلامية.. وجامعة الدول العربية وعضو مراقب في منظمة الوحدة الافريقية.. ويعترف بها اكثر من مائة وسبع عشرة دولة اقامت فيها سفارات وممثليات ومكاتب اضافة الى الدعم السياسي الذي تلقاه من جميع حركات التحرر والاحزاب والهيئات التقدمية والعمالية. كل هذا نتيجة للتحرك السياسي «لياسر عرفات».. وما كان يمكن ان تحتل هذه المكانة الضخمة لو لم يكن هو على مثل ما هو عليه من الديناميكية في العمل السياسي.

ويعلم تماما دقة قضيته وصعوبة الظروف التي تحيط بها. وقد اعاقه كثيرا التصلب غير الواعي الذي كان يواجه به. وازعجه مَنْ لا يعتنقون الا الرفض لا لشيء الا للظهور بمظهر المتشدد في الحلول. ولكنهم كانوا دائما يتراجعون عندما يطالبهم بطرح البدائل. فلا بدائل عندهم وانما هم يحاربون بالكلمات او بالمعارضات فقط!.

مَنْ يستطيع أن يرى أن «ياسر عرفات» يفرط بالقضية الفلسطينية؟ من يستطيع ان يسمي نهجه بالنهج الاستسلامي وهو من وقف في وجه الجيش الاسرائيلي ثلاثة شهور؟.. الا يكون هذا من قبيل محاولته اضعاف الرجل ووضع العراقيل بوجهه فقط.. لا لشيء الا لانه يريد ان يستقل بقراره.. ولانه كشف عن كل المخططات التي وُضعت للمنطقة لاعادة ترتيبها من جديد بشكل يضمن مصالح اصحاب المصالح... وعلى رأسهم اسرائيل.

وان كانت اسرائيل قد اخذت الضوء الاخضر من امريكا للقيام بعملية غزو لبنان.. فانها كانت تتحرك في نطاق استراتيجية مرسومة يقتضي تنفيذها.. تدمير منظمة التحرير إما بإنهائها تماما... أو على الاقل إضعافها الى الدرجة التي تستطيع بها فرض كامل شروطها إذا قبلت بالتفاوض.

وللاسف فقد تورط نظام عربي في هذا المخطط والذي كشف «عرفات» عن تورطه بما يسميه دائما كامب مورفي!.

كما كشف عما دار من اتفاقات خفية في «الناقورة» بلبنان بحيث تم التعهد بانهاء الوجود الفلسطيني في الجنوب اللبناني مقابل تسليم صيدا وصور واتمام الانسحاب الاسرائيلي منها. وكان الوجود الفلسطيني هو ثمن ذلك التسليم والانسحاب!.

وعندما نشبت حرب المخيمات كانت حركة «أمل» تكمل ما بدأته اسرائيل بغزو لبنان بهدف ضرب البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية.. والقضاء على قوتها نهائيا. وبالطبع لم تنجح في ذلك، فكان ان اكملت او حاولت ان تكمل بعض ميلشيات «امل» ما لم تستطع انجازه اسرائيل!!.

وتعد حرب المخيمات الحلقة الثانية من مسلسل القضاء على الوجود الفلسطيني الذي يقوم ببطولته العرب والذي كانت حرب طرابلس أولى حلقاته الفاشلة. وكانت حرب المخيمات ثاني الحلقات.

● عاش «ياسر عرفات» اياما عصيبة ايام حرب المخيمات لانه كان - ولأول مرة - بعيدا عن ميدان المعركة. كان احساسه انه بعيد.. وهم هناك وحدهم يقاتلون يمزقه. عاش ايامه ولياليه على الهاتف... وقد رأيته في هذه الفترة. وعرفت كيف تكون معاناة القائد وهو بعيد عن المعركة. قال له «هاني الحسن» في محاولة تهدئته.. لماذا تحزن... اولادك اصبحوا

جنرالات يستطيعون ان يقودوا المعارك! .

تابع المعركة يوما بيوم وساعة بساعة، كأنه كان بينهم . استطاع ان يجمع مجلس جامعة الدول العربية للنظر في الأمر رغم كل محاولات المنع . سمعته وهو يحادث احد وزراء الاعلام العرب ويقول له : «هل يمكن ان يجتمع مجلس الامن لينظر في شأننا . . . ونعجز نحن عن جمع مجلس الجامعة؟! . . ماذا يكون شكلنا امام العالم؟!» .

ونجح «ياسر عرفات» في جمع مجلس الجامعة . وكان هذا النجاح نتيجة تحركه السياسي الفعّال وحده! .

قلنا عنه انه قائد نافذ البصيرة . . وشديد القدرة على التوقعات . . لذلك فهو يسبق الاحداث بتوقعها . . والتحذير منها . حسه السياسي لا يتوقف عند التوقعات الخاصة بقضيته الفلسطينية وحدها . . انما يكون بالنسبة للمنطقة كلها وللأمة العربية التي تعد قضيته أهم ما بها .

سمعته يلقي خطابا في الاحتفال بالذكرى الخامسة عشرة لتأسيس مؤسسة «صامد» . . وبالطبع لم يستطع ان يبتعد عن حديث السياسة . و«ابو عمار» في كل كلماته وفي اي مناسبة من المناسبات يتحدث عن الابعاد السياسية لما يدور على الساحة . سمعته يقول في هذه المناسبة عن ابعاد المخطط التآمري الذي ينفذ على الساحة اللبنانية بهدف تقسيم لبنان مؤكدا ان مخاطر هذا المخطط لن تنحصر في لبنان وحده بل ستمتد الى الاقطار العربية الاخرى . واشار الى ان هذا المخطط استهدف رسم خطوط سياسية جديدة على الواقع اللبناني . وهو أمر حذر منه في أكثر من مناسبة . . وقبل عدة سنوات . وكان هذا احد توقعاته التي ثبتت صحتها على ارض الواقع .

وكان نتيجة تحركه الديناميكي ايام حرب المخيمات ان جاءت دعوة الملك المغربي «الحسن الثاني» الى مؤتمر قمة طارئة للنظر في القضية الفلسطينية بعد وضوح حجم المؤامرة عليها . وكان ان قامت المعارضة الشديدة لانعقاد القمة من الدول التي يضيرها عقد قمة تبحث القضية الفلسطينية! . ورغم ان رغبة الاغلبية كانت بالموافقة على عقد القمة الا ان محاولات مستميتة بذلت لاعاقة هذا الاجتماع بما في ذلك التهديد والابتزاز . وتقرر إلغاء الدعوة! .

وهنا نشطت ديناميكية «عرفات» السياسية . . وقام بعدة جولات حققت دفعا جديدا للرغبة في معاودة المحاولة . . وعدّل ملك المغرب من صيغة الدعوة وجعل الهدف منها تنقية الاجواء العربية . وفاجأ ملك المغرب الجميع بقرار عقد القمة بمن حضر فالمفروض الا يكون هناك معترض على محاولة تنقية الاجواء العربية .

وحين تقرر عقد القمة الطارئة بمن حضر . . كان هذا أكبر نصر سياسي «لعرفات» يظهر موقعه من الاهمية على الخريطة السياسية للعالم العربي . . . وقفزا بالارادة العربية فوق كل محاولات السيطرة والاعاقة .

وانعقدت القمة الطارئة بالرباط في السابع من اغسطس عام ١٩٨٥ بحضور خمس عشرة دولة عربية بالاضافة الى منظمة التحرير. وقد قال «عرفات» في كلمة الافتتاح «ان انعقاد القمة الطارئة اكبر دليل على انتصار لإرادة الخير للأمة العربية»! . . ومهما كانت نتائج هذه القمة فهي انتصار حقيقي لتحرك «ياسر عرفات» السياسي .

وان لم تتخذ القمة الطارئة صيغة القرارات الحاسمة الا انها بمباركتها للاتفاق الاردني الفلسطيني تعتبر قد وافقت على هذا التحرك السياسي لكل من الاردن ومنظمة التحرير. ولعل هذا التحرك لا يحتاج الا الى هذا التأييد الذي اكدت القمة الطارئة انه بالفعل ينطلق من مشروع قمة فاس للسلام . والامر لهذا الاتفاق لا يحتاج الى اكثر من ذلك . . فكثير من الاتفاقات العربية لم تقرها لا الجامعة العربية ولا مؤتمرات القمة باعتبار ان اي تعاون بين دولتين عربيتين لا بد وان يتفق مع الآمال العربية .

فدول الخليج قامت بانشاء اتحادها برغبة تلقائية جمعت بين دولها . وهناك مشروع الوحدة بين ليبيا والمغرب . وكذلك يكون الامر بالنسبة للتعاون الاردني الفلسطيني . انما ما يستحق العرض على مؤتمرات القمة ومجلس جامعة الدول العربية . . . هو ما يحدث بين اطراف عربية وغيرها بما يكون ضد المصالح العربية كما حدث بذلك الاتفاق الاستراتيجي بين ليبيا وايران والذي يوجه مباشرة ضد العراق لانه في حالة حرب مع ايران . . بما يغفل تماما اتفاقية الدفاع المشترك بين دول جامعة الدول العربية .

كذلك ما يحدث بين اطراف عربية من اتفاقات تكون موجهة ضد طرف عربي آخر مثل الاتفاق بين سوريا وليبيا ضد العراق الدولة العربية التي تعيش حالة الحرب!!

وعندما اتفق «ياسر عرفات» مع الملك حسين ملك الاردن على التحرك المشترك . . لم يشغل فكره الا القضية الفلسطينية التي يناضل من اجلها . ولم يشغل فكره ابدا امكانية العمل ضد اي بلد عربي . وكل ما فعله الرجل انه يبحث عن حل يتيحه له موقعه كرئيس لمنظمة التحرير التي هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . وحين وقع الاتفاق . . كان يعرف تماما انه ينطلق من قاعدة مشروعة وهي مقررات فاس للسلام . فلا يغيب عن فكر سياسي كياسر عرفات أهمية وجود الشرعية العربية واهمية استناده اليها . ولانه يصل من فوق قاعدة ثابتة واساسية وهي استقلالية القرار الفلسطيني . . وهو الذي قلنا عنه انه قد خاض المعارك العسكرية والسياسية للمحافظة على استقلالية هذا القرار . . . وقد كلفه هذا

سنوات وسنوات من الكفاح. لذلك فليس من حق الغير التدخل لرسم الخطوات التي تسير عليها المنظمة في طريق البحث عن حل.

لقد قال أمامي: «أين كان هؤلاء حين كنت أحارب في لبنان؟.. وأين كانوا وأنا اتحمل انا وشعبي ضربات اسرائيل طوال السنين في الجنوب اللبناني؟ ولماذا لم يتقدموا بحلول لوقف نزيف الدم الفلسطيني ولماذا الآن يعارضون.. وماذا عندهم من حلول للقضية التي نحملها على رؤوسنا منذ عام ثمان واربعين؟».

والمتأمل في فكر «عرفات» السياسي.. لا يستطيع حتى مجرد سماع ما يجرؤ عليه البعض من تسميته بالنهج الاستسلامي!.. فمتى وضع الرجل سلاحه واعلن استسلامه؟!. وقد بينّا - وان كان ظاهرا ومبينا - انه يعيش برجاله تحت القصف المتواصل مذ عام ٦٥ وللآن. ولو كان «ياسر عرفات» استبسلم في يوم من الايام لما ظلت هذه القضية قائمة للآن. كيف يكون مستسلما والمعارك لم تترك له وقتا - ولو قصيرا - لمجرد التقاط الانفاس. ان الرجل يعيش دائما حالة حرب مع عدوه.. لم يسكت بندقيته ابدا. لقد كان يقف على جبل لبنان وقبل الغزو الاسرائيلي ويقول بكل فرح: «هنا سأقاتل شارون عندما يأتي!».. وكان الكل يستغرب مقولته هذه فلم يكن احد يعلم ان شارون سيأتي الى هذه المناطق ليخوض حرباً!!».. ولكنه هو كان يعلم.

وقد وجه في يوم العاشر من شهر يوليو **١٩٨٢** رسالته الى جماهير الأمة العربية ومن قلب الغزو تظهر موقفه وموقف العالم العربي منه وهو يخوض اكبر وأطول معركة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي.

لقد قال: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين»... لليوم السابع والثلاثين والصمت العربي يلف المنطقة.. كأنما ذهبت الأمة في سبات عميق بعيدا في متاهات الاحلام السعيدة. او كأنما لجذر اصابها فهي لا ترغب في المزيد من الحياة. ان من حق هذه الجماهير ان تتساءل اليوم وان تحاسب غدا وان تعاقب بعد غد. ونحن هنا في بيروت الصامدة الأبية التي ترفض الركوع وترفض الاستسلام ولكنها تقاتل كأروع ما يكون القتال وتجاهد كأشرف ما يكون الجهاد وتدفع الثمن وتقدم الاضاحي ليبقى الرأس عاليا مرفوعا فوق هامة الزمن.. وليبق لهذه الأمة شرفها وعزتها وكرامتها».

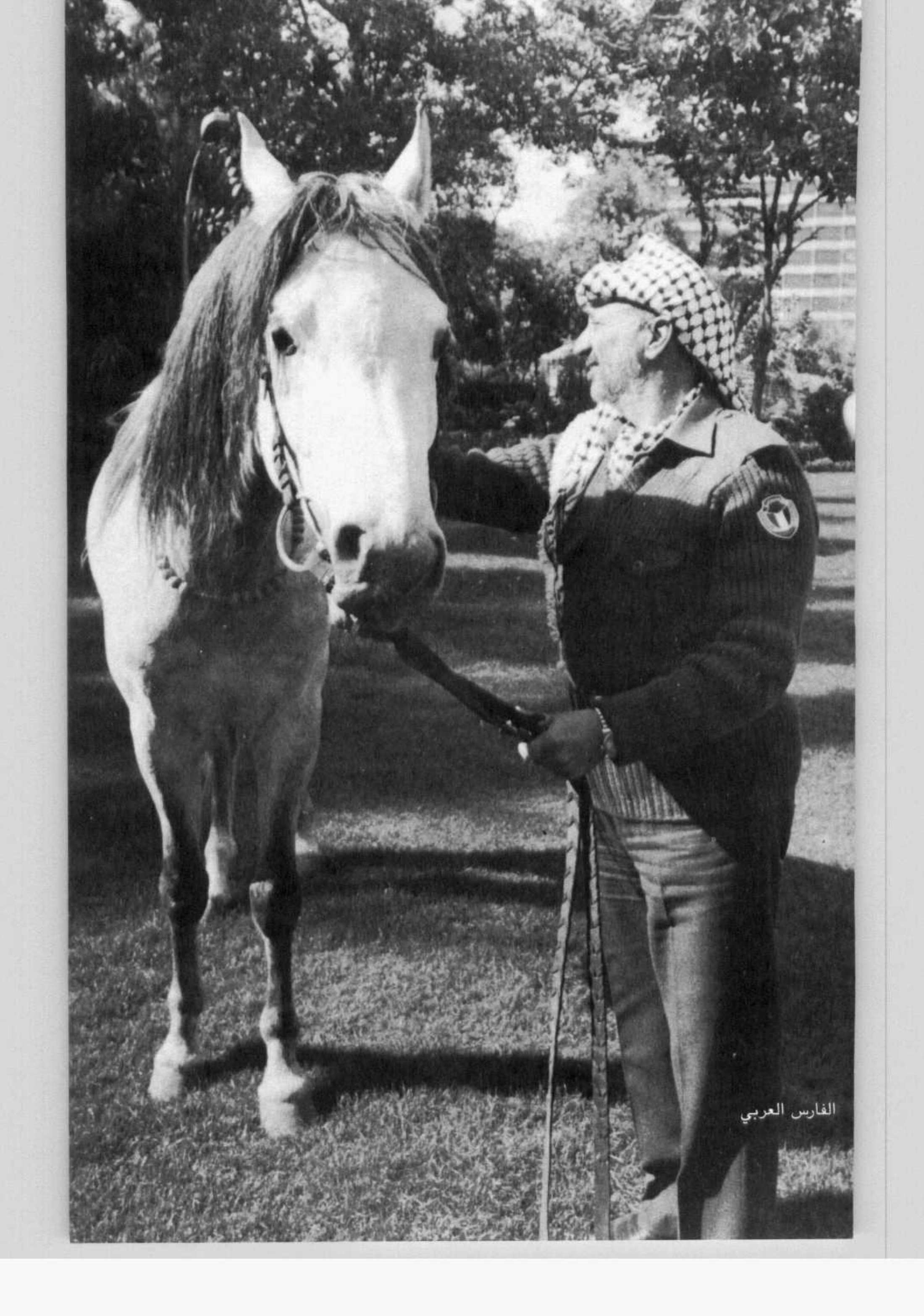
هذا هو منهج الرجل مصورا في رسالة من قلب المعركة.. فكيف يرمي هذا القائد الذي علا صوته فوق صوت القصف بالاستسلام؟.. ان الاستسلام يكون فقط من خصائص المهزوم. ولم يُهزم «ياسر عرفات» ابدا في معركته الخالدة.. لقد خرج من بيروت بعد ان خاض قتالا قصرت عنه جميع دول المنطقة بجيوشها النظامية. وقال يومها: «قد أكون

خسرت معـركـة . . ولكني كسبت الحـرب»! . وهذا ما أكدته جميع التحليلات السياسية والكتب حتى الـذي صدر منهـا في اسرائيل نفسهـا عن نتـائـج غزو بيروت وبـاعـتراف الاسرائيليين انفسهم! .

وان كان اليوم يتحرك سياسيا . . فلانه القائد الذي يقود معركته عسكريا وسياسيا . ولانه يدري تماما انه يجب ان يتحرك في النطاقين معا . وهذه بديهيات طبيعة وضعه . او هذا هو المنطوق الصحيح للقضية التي يناضل من اجلها .

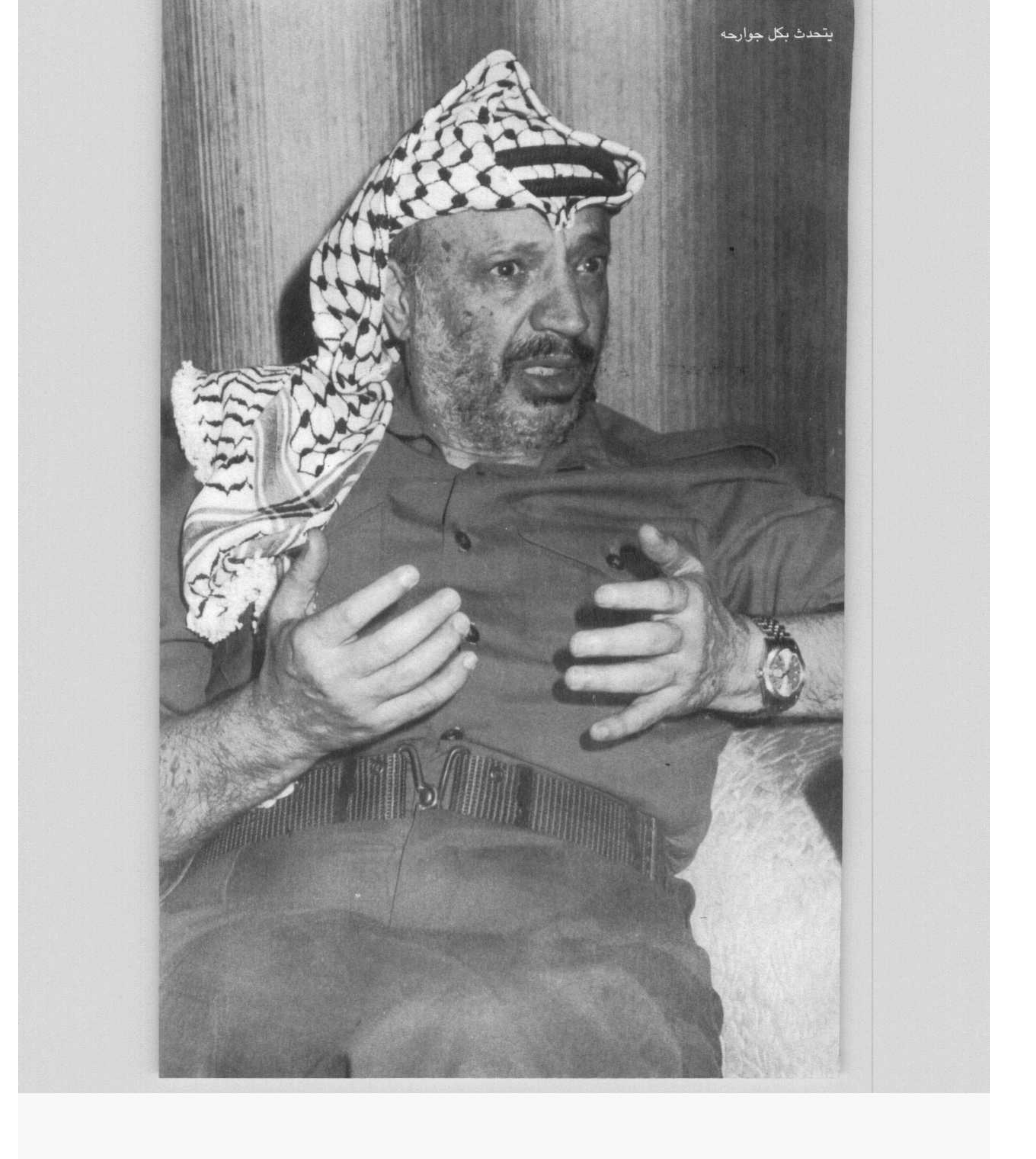
لقد عاش «ياسر عرفات» ويعيش بين الحرب والسياسة طوال تاريخه الثوري لانهما الوجهان الوحيدان لقضيته العادلة . ولانهما الوضعان الوحيدان تحتمهما الظروف والمتغيرات والاطماع التي تحيط به . ولانه يتميز بقدرة خارقة على ممارسة كليهما . . واتقان شديد لمفهوم كل منهما وتطبيقه على ارض الواقع .

ولو نجح «ياسر عرفات» في تحركه السياسي الاخير هذا . . لدخل التاريخ كأعظم قائد حربي عربي يحقق نجاحا على المستوى السياسي الدولي بامكاناته المشروعة والمحدودة . . وينتزع حقه من بين فكّي المستحيل! .

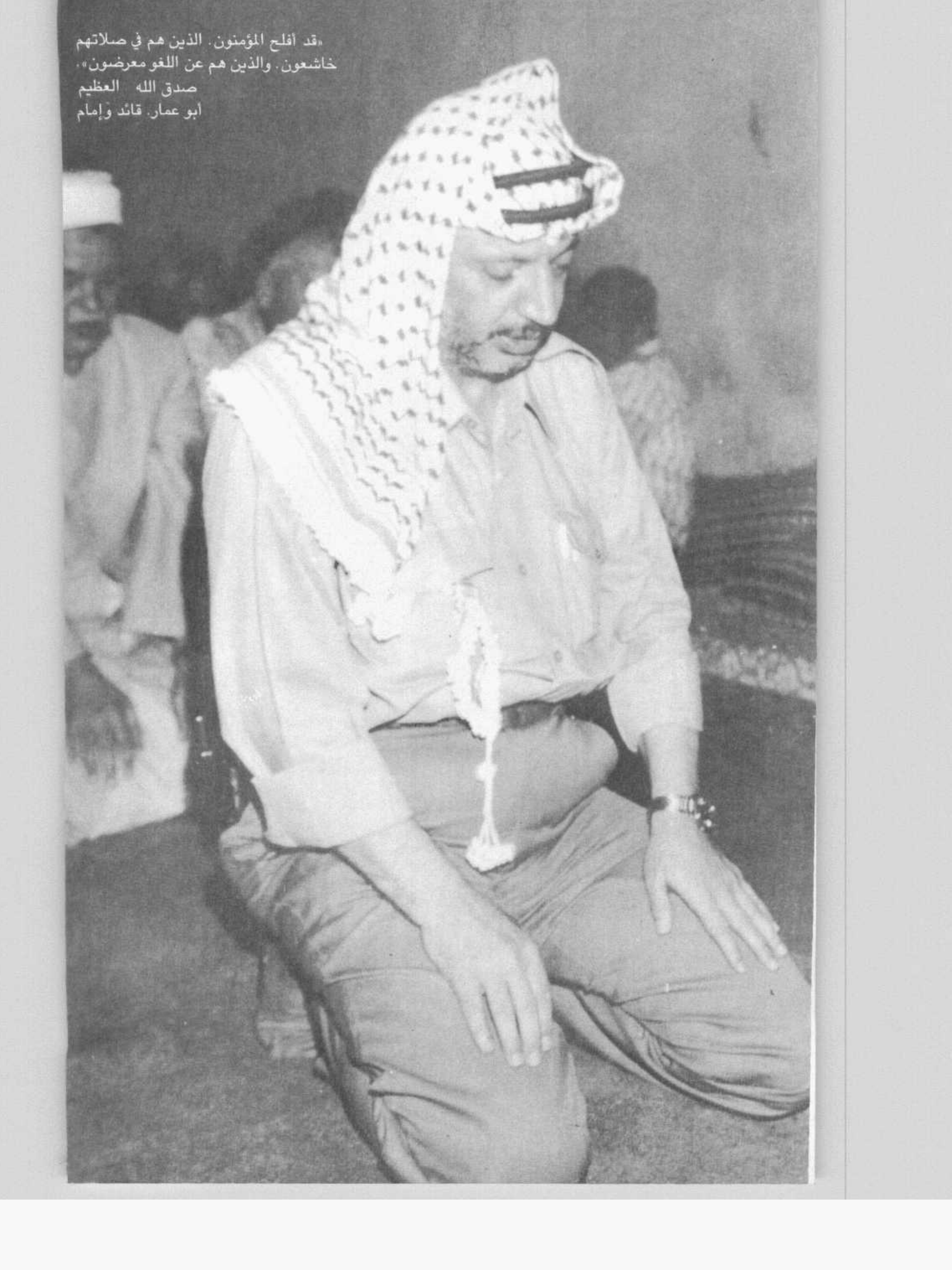


الفارس العربي


أبو عمار ـ فلسطين: الانسان والقضية



يتحدث بكل جوارحه



«قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون».
صدق الله العظيم

أبو عمار. قائد وإمام



«الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله» صدق الله العظيم



«ابو عمار» في لحظات الصفاء الروحي



حنان الأب

يشاركه شبل وهو يوقع شهادات تخرج الأشبال





ماذا يحكي أبو عمار لأطفاله؟!



قبلة على جبين
كل زهرة وكل
شبل في معسكر
الأشبال بالجزائر.
(وتبدو المؤلفة
خلف عرفات)





صورة عرفات تتصدر أي تجمع للشعب الفلسطيني بالأرض المحتلة



الجماهير تقاوم
وترفع شارة
النصر وصورة
ياسر عرفات

رغم الاعتقال
والقمع... فهم
يرفعون صوره!



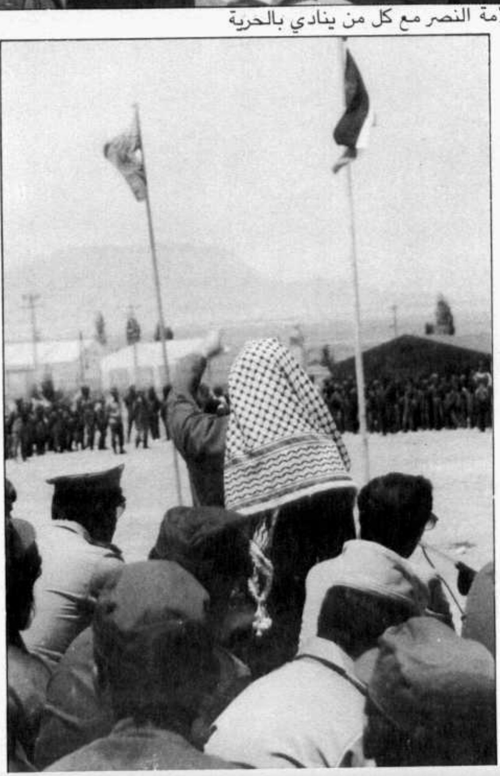
لحظة الانتصار في معركة الشرعية بالمجلس الوطني في دورته السابعة عشر بعمان

يرد على الجماهير التي تهتف باسمه بالمجلس الوطني





دائما يرفع علامة النصر مع كل من ينادي بالحرية



العلم والكوفية



المؤلفة وهي تتفقد آثار الدمار الذي خلفته الغارة الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير في حمام الشط. وقد بدت عليها مشاعر الألم والاستنكار.









# الباب الثاني:

## ● الملف السري لحركة «فتح»

* فلسطين... مأساة تأخذ عمق القضية
* حركة «فتح»
* من الهزيمة ولدت بداية النصر
* نطعم لحومنا لجنازير الدبابات... ولا نهرب (معركة الكرامة)
* انكفاء الثورة!

## * فلسطين مأساة تأخذ عمق القضية !

بدأت خيوط المأساة تتجمع حول «فلسطين» منذ ان كانت فكرة الدولة اليهودية مجرد فكرة طامحة في عقول من خططوا لاقامة هذه الدولة.

ولم تكن فلسطين هي الارض الوحيدة التي حامت حولها مطامع الصهيونية.. الا انها طغت على غيرها من الخيارات فاذا بها تصبح الاولى.. بل الوحيدة التي يمكن ان يتحقق عليها الحلم الصهيوني!

لقد كانت الاماكن المتعددة المقترحة لتوطين اليهود كثيرة.. ولم تكن فلسطين الا احداها. ولكن «هرتزل».. صاحب كتاب الدولة اليهودية قال في نهايته عن فلسطين كموقع: ربما كان افضل الاماكن المحتملة لاقامة الدولة عليها. فالدولة اليهودية في فلسطين ستكون جزءا من الحصن الاوروبي لمواجهة القارة الآسيوية وسنكون نحن رأس الحربة للحضارة ضد الهمجية!

وهناك شيء آخر كان يرجح كفة فلسطين عن غيرها في فكر الصهيوني هرتزل.. ان الاسطورة الجبارة كانت في صالحها!

واستطاع هرتزل ان يضع «فلسطين» كموقع متفرد تحت اطماع الدول الاوروبية التي كان يحاول ايهام كل منها انها ستكون صاحبة السيادة والمصالح الاولى من هذه الدولة عند انشائها ثمنا لمساعدتها.

وكانت كل الدول الاوروبية تتنافس على اقتسام املاك الدولة العثمانية المنهارة وما كان لها ان تغفل موقعا كفلسطين بأهميته الاستراتيجية.. ووجدت في الدعوة الصهيونية مخلبا لتنفيذ هذه المطامع.

وحين انتهت الحرب العالمية الثانية وتم التفاهم بين المنتصرين على توزيع الغنائم كانت الفكرة الواضحة في ذهن الجميع هو المساعدة على قيام الدولة الصهيونية الجديدة!

فقد كانت بريطانيا تعرف اهمية فلسطين بالنسبة لمصالحها ورأت ان تستفيد من تجمع اليهود فيها واستخدامهم لتحقيق هذه المصالح.

وكان هرتزل يعرف كيف يثير المطامع الانجليزية دائما بانها ستحتاج قاعدة بديلة في حالة فقدانها لمصر وحينئذ لن يجدوا انسب من فلسطين اليهودية عونا لهم. ومنذ البداية كان الصهاينة يعملون على ارضاء انجلترا نظرا لقوتها في ذلك الوقت ونظرا لانهم كانوا يعلمون ان فلسطين لا بد وان تقع في دائرة نفوذها بعد الحرب العالمية الاولى. وبالفعل.. ووفقا لقرارات مؤتمر «سان ريمو»... وموافقة الدول المتحالفة وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني!

واعترف لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ان مصلحة بريطانيا كانت الدافع

الاساسي لاصدار وعد بلفور.

والعجيب ان بلفور هذا هو الذي كان قد سبق واصدر قانونا في عام ١٩٠٥ حظر على اليهود الروس المضطهدين والناجين من المذابح دخول بريطانيا! . بما عرف بقانون الاجانب والغرض الواضح هو تنظيم الهجرة الى بريطانيا. . ولكن غرضه الاساسي كان وقف هجرة اليهود!

وبظهور امريكا قوة جديدة على مسرح الاحداث. . فقد لعبت دورا كبيرا لاخراج وعد بلفور الى حيز الوجود. واكتسب الوعد مصداقية وجوده حين وافقت عليه حكومات فرنسا وايطاليا والولايات المتحدة في عام ١٩١٨ . والكل يعرف ان عرب فلسطين لم يكونوا في ذاكرة هذا الوعد باكثر من الاشارة اليهم بتعبير الطوائف غير اليهودية. مع انهم كانوا في ذلك الوقت يكونون نسبة تسعين بالمئة من سكان فلسطين ويمتلكون معظم اراضيها. ولم يشر الوعد بالطبع والحال هكذا من التجاهل الى اية حقوق سياسية لهذه الطوائف غير اليهودية.

وتناست بريطانيا تماما وعد آخر كانت قد قطعته للعرب قبل ذلك بسنتين فقط بمنحهم الاستقلال مقابل قيامهم ضد الحكم التركي تمهيدا للاجهاز عليه لمصلحتها في الحرب.

وقد قال الرئيس الامريكي ويلسون عام ١٩١٨ وبعد هزيمة تركيا الكاملة. . اعتقد ان الامم الحليفة قد قررت وضع حجر الاساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا!

وبرغم كل ضلوع بريطانيا في المؤامرة الا انها كانت تعمل على عدم كسب عداوة العرب في ظروفها الصعبة في الحرب. . . واصدرت كتابها الابيض على اجزاء والذي كان يضع قيودا على الهجرة اليهودية.

ووافقت المنظمة الصهيونية الامريكية على برنامج بلتيمور الذي أيّد اقامة دولة يهودية في فلسطين وتكوين الجيش اليهودي ورفض كتاب بريطانيا الابيض! واعلن الرئيس الامريكي روزفلت في عام ١٩٤٤ ان بلاده تدعو الى فتح ابواب فلسطين على مصراعيها للهجرة اليهودية.

ورغم ان بريطانيا كانت قد اصدرت اربعة اجزاء من الكتاب الابيض وتقرر في الجزء الاخير منه قيام دولة عربية فلسطينية في المستقبل. . الا ان ميزان القوى كله كان قد تحول

في صالح امريكا فهي الدولة الوحيدة التي لم تحارب على ارضها اثناء الحرب لذلك كانت لا تعاني من الانهاك الذي خرج به باقي الحلفاء رغم انتصارهم. فكان ان ظهر للنفوذ الامريكي كامل القوة بينما تقلصت قوى بريطانيا في المنطقة. وتقدم ترومان نفسه ليعلن عن تأييد الولايات المتحدة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. والعجيب ان بريطانيا اعترضت - رغم دورها الفعال لتهيئة ذلك. ويعتقد ان اعتراضها ما كان الا من باب معاكسة النفوذ الامريكي المتزايد. ولكنها لم تستطع فعل اي شيء الا ان تترك الامر كله للامم المتحدة لتفصل فيه.

ونتيجة كل هذا الدعم من الرئيس الامريكي تكونت العصابات الارهابية المسلحة لتقوم بدورها في الاستيلاء والنهب حين يحين الحين!

وحين عقدت الجمعية العامة للامم المتحدة جلستها في نوفمبر ١٩٤٧ وضعت اساس المأساة الكبرى والتي ما زالت تنزف منذ ذلك التاريخ والى وقتنا هذا. فقد اعلنت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وكان للحركة السياسية الامريكية أكبر نصيب في انجاح هذا القرار إذ انها مارست كل صنوف الضغط والارهاب والاطماع لتأمين اغلبية الثلثين التي تتطلبها الموافقة على اي مشروع.

وكان قرار الامم المتحدة رقم ١٨١ اهم ركيزة للمأساة الفلسطينية.. وقد اوصى القرار دولة الانتداب وجميع اعضاء الامم المتحدة بتنفيذ قرار التقسيم الذي قضى بان تقوم في فلسطين بعد انتهاء الانتداب دولة عربية مستقلة مع حدود منصوص عليها.. ودولة يهودية مستقلة مع حدود منصوص عليها باستثناء القدس من اراضي الدولتين لتصبح القدس كيانا منفصلا تديره الامم المتحدة!

وسيذكر التاريخ دائما لامريكا دورها الاسود في انشاء هذه الدولة الدخيلة وحمايتها.. وتأمينها وزرعها شوكة في قلب العالم العربي لتأمين مصالحها الخاصة في هذه المنطقة الحيوية من العالم.

وسيدين التاريخ - لو كان عادلا - كل هذه القوى الطامعة التي زرعت فوق الارض العربية هذه الدولة العميلة ركيزة لها. ويدين الدول العظمى التي توجه سياستها الخارجية والداخلية وتسلحها وتدعمها اقتصاديا وتعمل على تهجير اليهود اليها على حساب اصحاب الارض الشرعيين الذين اغفلهم الضمير العالمي في غمرة الاعداد للجريمة الكبرى. بل لا بد وأن يدين العصر كله الذي جرت ونفذت فيه هذه المؤامرة.

واذا كان قرار التقسيم هو قراراً ظالماً ومجحفاً ومنافياً لكل المبادىء الانسانية والدينية. . . حتى لقد خالف الفكرة الدينية اليهودية والتي تنكر اقامة دولة بالقوة ـ فان عدم قبوله في ذلك الوقت كان خطأ كبيرا!

ولعل هذا رأي خاص لا أعرف هل هو في حد ذاته خطأ ام صوابا!!. . فقد ادى رفض قرار التقسيم الى ضياع ارض فلسطين بما فيها الحدود التي اقرت للدولة العربية.

ولكن. . . هل كان قبوله سيحول دون ذلك؟. . . ربما. . فالعالم كله يعلم ان سر ازمة الثورة الفلسطينية في عدم وقوفها على ارض تملكها. وان سر أزمتها ان الارض دائما وابدا تُسحب من تحت اقدامها في كل بلد عربي مهما طال وقوفها فوقها!

وحين اقول ان رفض قرار التقسيم كان خطأ. . فليس ذلك الا من منطلق مسلسل العذاب البشع الذي تتعرض له الثورة الفلسطينية نتيجة افتقارها الدائم الى جبهة. . الامر الذي ترجوه الآن بانشاء دولة على اي ارض محررة تصغر بكثير عما منحه لها قرار التقسيم!

ولو كانت الثورة الفلسطينية منتصبة فوق ارضها منذ ذلك الوقت لتغير وجه التاريخ! فهل كان يتحتم علينا المرور بكل الاحداث الدامية حتى تقتنع العقلية العربية بالحصول على

الممكن وليس على ما يجب؟. . . ورغم هذا ما زلنا نرى من يرفض حتى هذا الامل الاخير وكأنهم ينتظرون ضياع القضية نفسها. . بعد ان ضاعت الارض. . . كل الارض بالرفض والسلب والتهجير والحرب والضم والتهويد وانشاء المستوطنات!.

وفي اليوم الخامس عشر اعلن قيام الدولة اليهودية!. . . وبعد ساعات من اعلان الدولة اليهودية كانت قوات عربية من سبع دول تعبر حدود فلسطين لفرض واقع آخر من خلال الحرب!

ولم تكن هذه الجيوش قد أهلت أو أعطيت امكانات تغيير الواقع. فلم يكن يجمعها لا وحدة القيادة ولا وحدة الهدف فقد انبثقت في تكوينها من ظروف واوضاع مختلفة ايضا ومتباينة!

وكانت في مجموعها لا تزيد عن سبعة عشر ألف من الجنود ليسوا على درجة من الكفاءة لمواجهة اثنين وستين الف جندي من الصهاينة المسلحين والمدربين على احدث طراز.

وفي الاسابيع الاولى . . والتي كان الارتباك ما زال واضحا فيها على هذه الجيوش . . . حُسمت نتائج الحرب!

ولاحق مجلس الامن الحرب بقرارات وقف اطلاق النار المتعددة . . والتي ادت الى عقد اتفاقيات للهدنة . وانسحبت الجيوش العربية بموجب هذه الاتفاقية من فلسطين . ولم تبق الا القوات المصرية المسيطرة على منطقة غزة . والقوات الاردنية في الضفة الغربية .

ونستطيع ان نقول ان نتائج الحرب افقدت الفلسطينيين كثيرا من بنيتهم السياسية والاجتماعية والجغرافية . . وضياع الهوية والتسمية الفلسطينية للناس والاماكن ، وخرج مليون لاجىء الى الدول العربية . وفقد الشعب الفلسطيني هويته الخاصة . فمن بقي في الارض المحتلة اصبح مواطنا في دولة اسرائيل . ولجأ كثيرون الى الهوية الاردنية . . في حين انسحبت تسمية ـ لاجئين ـ على تلك الجموع التي هرعت الى الدول العربية!

وكان لكل هذه التغيرات والمستجدات في البنية الاساسية للفلسطينيين آثار بالغة وهي التي ستمد للفلسطينيين فيما بعد بكل مقومات الصمود والكفاح . فقد اتى هذا التمزق والشتات بنتيجة عكسية اذ زاد الفلسطينيين انتماء وتعلقا باصلهم وترابهم!

وان كانت الحرب الفاشلة التي خاضتها الجيوش العربية ونتائجها اهم الاسباب في كل هذا الضياع! . . . الا ان اليهود كانوا يعملون مسبقا بالاعتداء وبالقوة على الاستيلاء على اكبر قدر من الارض . فاحتلوا بالقوة عددا من المدن واستولوا على جزء كبير من اراض فلسطين . . وبذلك هتكوا تلك الحدود التي وضعها قرار التقسيم للدولة العربية المستقلة المرفوضة! فاحتلوا مدينة طبرية وحيفا ويافا وعكا . . . والاحياء العربية في مدينة القدس . . واللد والرملة . . . كل هذا قلص المساحة التي كانت مخصصة للدولة العربية .

ولم تدخر وسعا في تهجير الناس عن طريق الارهاب . وكانت مذبحة دير ياسين في ٩ ابريل ١٩٤٨ اكبر العوامل الارهابية التي سببت هجرة فلسطينية مذعورة عن الارض في سبيل النجاة بالنفس .

وبعدها لم تجد اسرائيل صعوبة في طرد الناس من مدن طبرية وحيفا ويافا فقد كانت انباء مجزرة دير ياسين مروعة ورهيبة . . وكان سيل اللاجئين لا يقف تدفقه لا اثناء الحرب ولا بعدها .

وكل هذا ولا شك كان له آثاره المدمرة الخطيرة على بنية المجتمع الفلسطيني التي ما

زال يعاني منها هذا المجتمع الى يومنا هذا داخل وخارج الارض المحتلة خاصة وان اللجوء لم يقف بهم عند حدود الدول العربية وحدها . . وانما ساح بهم في جميع ارجاء الارض . . فضاعت هويتهم الذاتية تحت اضطرار العيش . وكان هذا سابقة ربما لم تحدث طوال عصور التاريخ المعروفة . . ان أكرهت اغلبية سكان بلد ما على الخروج والتشرد من ديارها لتنفيذ الوضع الباغي الذي اتاح لغرباء عن هذه الأرض فرصة السيطرة وانتزاع ارضها وخيراتها من ايدي اصحابها وتحويلهم الى مواطنين من الدرجة الثانية في وطنهم وتحت قوة الاحتلال او الى جموع من اللاجئين المشتتين!

هذا الدمار الاجتماعي زامنه وزاده ضياع كياني سياسي لدولة فلسطين نفسها منذ ان صدر قرار التقسيم . فبعض فلسطين اخذ اسم الضفة الغربية وجنوب فلسطين عرف باسم قطاع غزة . وبقيتا تحت الحكم الاردني والمصري بعد انتهاء الحرب .

وكانت الاراضي التي لم تشملها اسرائيل بعد محطا للصراع . وقد كانت الهيئة العربية العليا في ذلك الوقت هي التي تتصرف بالعمل الفلسطيني وقد كانت اول الرافضين لقرار التقسيم والذي نفذ بالقوة . . ثم عادت وقد صار الحال الى ما صار اليه وطالبت بقيام الدولة العربية الفلسطينية عقب انتهاء الانتداب وبدء الحرب!

لكن الحرب بنتائجها حالت دون انجاح الفكرة . . اذ سيطرت بعض الجيوش العربية على اجزاء من خريطة فلسطين مما يصعب معه قيام الكيان السياسي لدولة مستقلة . فكان ان لم تجد الهيئة العليا غير ان تقـــر في مؤتمر غزة في اكتوبر ١٩٤٨ تشكيل حكومة عموم فلسطين . وتشكل مجلس وطني من ممثلي الشعب الفلسطيني وكان على رأس هذا المجلس . . الحاج امين الحسيني . وتشكلت الحكومة برئاسة احمد حلمي . واعلنت الحكومة استقلال فلسطين . واعترفت الدول العربية بهذه الحكومة . . ما عدا الاردن!

وبعد فترة وجيزة فقدت دول الجامعة حماسها لهذه الحكومة ولم يعد احد يدعوها الى اجتماعات الجامعة!

وتمثلت معارضة الاردن في ايجاد مؤتمر فلسطيني آخر في عمان يقرر تسليم الامر كله الى ملك المملكة الاردنية الهاشمية الملك عبد الله ومنحه حق تمثيل الفلسطينيين والوكالة في جميع شؤون مستقبل فلسطين . وقرر سحب الشرعية من مؤتمر وحكومة غزة والتي أشرفت عليها الهيئة العربية العليا .

وبعد شهرين من مؤتمر عمان في ديسمبر عام ١٩٤٨ عقد مؤتمر أريحا وكان من اهم قراراته مبايعة الملك عبد الله ملكا على فلسطين وضم الضفتين ، واتخذ مجلس الامة الاردني التدابير لتطبيق ذلك .

وضاعت اول محاولة لاعادة بعث الكيان الفلسطيني على ما تبقى منها خارج نطاق

الاحتلال الصهيوني.

وربما يرجح المحللون ذلك الاخفاق الى سلبية العمل الفلسطيني في ذلك الوقت الا اني ارجعه اكثر الى ما كان يحيط بهذا الشعب من ظروف غير عادية. فاحيانا تكون الضغوط المحيطة قوية بدرجة لا تسمح بحرية التحرك. فمعظم اراضيه سلبت وسحبت عنها جغرافيتها الطبيعية. ومعظم ابنائه اقتلعوا من فوق أرضهم ورُمي بهم في الشتات وفقد بذلك كل مؤسسات تحمي كيانه السياسي والاجتماعي.. مع تناقض شديد في الواقع العربي يتأرجح بين المساندة والاطماع. ومواجهته لمجتمعات جديدة لا تتعامل معه كجزء منها وانما كجزء زائد عن الحاجة. واولا واخيرا الى افتقاره الدائم الى القوة في حين ان القوة تحيط به من كل جانب. والانظمة العربية التي تعمل جهدها على اذابة الشخصية الفلسطينية.. فكان ان تم التوجه والانتماء الى بعض هذه الولاءات!.. ثم استيعاب رؤوس القيادة الفلسطينية في المؤسسة الاردنية.. وكان ان انتهت التجربة بالفشل الذريع. هذا الفشل السياسي الذي اودى بالآمال في امكانية قيام كيان فلسطيني سياسي!

وهذا ما سيقود ـ بلا شك ـ بعد ذلك الحركة السياسية فيما يلي من سنوات.. وحتى اصبحت منظمة التحرير ذلك الكيان الصلد الذي تتكسر على حوافه كل محاولات الهدم او الاستيعاب او الضم.

الا اننا يجب هنا ان نتوقف لنصور منعطفا في العمل الوطني الفلسطيني الذي فشل في ايجاد الكيان الفلسطيني المستقل وقاومه وهو تحيز قوة الانتداب والضغط الصهيوني. وحتى بعد قيام الدولة الاسرائيلية لم يقو هذا العمل ان يثبت وحده امام التيارات العربية التي ناقضت آماله في الاستقلال.. فظن انه يستطيع ان يحقق شيئا مع هذه التيارات العربية خاصة وان كل الدول العربية في ذلك الوقت كانت ترفع كلمة العروبة. وكثير من هذه الدول كان به حركات تحررية تهدف لتحقيق الاستقلال وفازت اغلبها بذلك. فليس غريبا ان يبرز هذا الاتجاه ناحية العروبة فربما انسحب على فلسطين الامر نفسه. لذلك تنازعت الفلسطينيين كافة الاتجاهات والمنظمات القومية التي توزع بينها الشعب العربي الفلسطيني. ولعل هذا التوزيع كان اكبر دافع لهذه الانتماءات.. فقد كانوا جزءا من واقع هذه الدول. وان هذا لم يدفعهم الى اذابة شخصيتهم الفلسطينية في وسط هذه المجتمعات... وانما بقوا في محياتهم تسكنهم الهوية والآلام.. والآمال الفلسطينية!

وفي هذه المرحلة المبكرة كان امل العودة هو التيء الوحيد الذي يسكنهم وان كانت هذه العودة لم تتمثل بعد في العودة الى كيان سياسي كانوا يمتلكونه بل كانت الرابطة العاطفية بالديار والاهل والمكان هي الحنين الدائم في قلوبهم. فلم تكن بعد قد تبلورت الافكار

الوطنية او الانتماءات القومية. وانما كان اكبر الدوافع هو ذلك الحنين الشخصي للذكريات ومسقط الرأس والممتلكات. وتحت هول الضربة الاولى ظل الامر كذلك بينما اخذت الناس تفيق على قسوة الواقع وان هذا اللجوء لا يمكن ان يكون اكثر من لجوء مكاني وان هناك عدوا لن يرتدع الا بالمواجهة.

ولعل من اكبر العوامل التي اسهمت في انماء الوعي.. العدوان الثلاثي على مصر في عام ٥٦ واحتلال قطاع غزة بقوات الاحتلال الاسرائيلية. ووجود المقاومة في وجه ذلك الاحتلال مع وجود بعض العمليات الفدائية التي كان ينظمها بعض الضباط المصريين ويشرفون عليها.

ولعل هذا الاحتلال الجديد لجزء من الوطن لم يكن خاضعا للاحتلال من قبل قد ايقظ وعيا جديدا بين الفلسطينيين بأن مرحلة جديدة من مراحل الصراع قد بدأت تستدعي ايجاد قواعد تنظيمية جديدة لاطلاق عمل منظم يضع الاساسيات الأولى لحركة تحرير ربما تقود الى اعادة الهيكل الوجودي للكيان الفلسطيني.

وشهدت الفترة بين وقوع العدوان الثلاثي في سنة ٥٦ وحتى بروز منظمة التحرير الى الوجود كمؤسسة تحررية تمثل كل الشعب الفلسطيني وعيا جديدا نشطا يعتنق ايديولوجية معينة محددة تستوعب كل تناقضات الواقع الفلسطيني. وان كانت هذه الحركات او التنظيمات لم تستطع ان تتجاهل الواقع العربي الذي يحيط بها.. ولعل هذا ما اعاقها كثيرا عن تحقيق الثوابت التي قامت عليها.

وولدت حركة «فتح» اكبر واهم قوى التنظيمات منذ عام ٥٧.. واتخذت الشكل الحقيقي للحركة الفلسطينية الوطنية منذ عام النكبة في عام ٤٨... فلم يسبقها اي تنظيم فعلي طوال كل المدة السابقة.. ولكنها كانت الاولى وان لم تكن الوحيدة.

فقد ادى ازدياد الوعي والانتماء الى الحركات والاحزاب العربية الى ظهور عدد من المجموعات او التنظيمات التي كانت كلها تطمح الى المشاركة في العمل الوطني الفلسطيني.. الا ان ما ميز «فتح» انها قامت على ثوابت. وتميزت ايضا بالاستقلال.. وتميزت بأيديولوجية خاصة سنشرحها فيما بعد.

واخذ الحماس الوطني لجديد اشكالا مختلفة.. وكان ابرزها الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي تأسس في عام ١٩٥٩ جامعا برابطة قوية الوجود الطلابي الفلسطيني في مصر ولبنان وسوريا. واتخذ الشكل العلني لوجوده على قاعدة انتخابية لممثلين من الطلبة مما شكل نقطة جذب للجماهير الطلابية المتعطشة الى ديمقراطية التمثيل مما لفت نظر اعداد من المناضلين الى اهمية الممارسة والمشاركة به.

وخرج من بين صفوفه عدد كبير من القيادات الفلسطينية . . ومن بينها كثيرون من قادة «فتح» نفسها .

وكان اتحاد الطلاب ابرز الاشكال الفلسطينية العلنية . . واكتسب مكانة كبيرة واعتراف عربي ودولي .

ولعل حركة المقاومة في غزة قد تسببت في وجود اكثر من تنظيم سواء أكان سياسيا او عسكريا فكانت «الجبهة الوطنية» التي تعتمد على القوميين العرب . وكانت «المنظمة الشعبية» التي تعتمد الفكر الماركسي . . وان كان التنظيمان لم يستطيعا التحرر من السلطة المصرية التي كانت مهيمنة على قطاع غزة . . . الا انها كانا دليل وجود فلسطيني يتحرك علنا في اتجاه العمل السياسي .

وفي نفس الوقت نشأ الاتحاد القومي الفلسطيني بايحاء من وجود الاتحاد القومي العربي الذي شكل في الجمهورية العربية المتحدة بجناحيها مصر وسورية وأعتبر الاتحاد ممثلا شعبيا لسكان غزة . الا ان واقع الامور استلب من هذا الاتحاد قوته الفعلية . . . واجهز عليه تمزق الوحدة بين سورية ومصر .

وفي هذا الوقت نما في وسط العالم العربي تيار القومية العربية الذي تأسست على مبادئه «حركة القوميين العرب» . . ورغم ان الحركة كانت تناضل من اجل القومية العربية الا ان اول همومها كانت فلسطين التي اتخذت اهم وابرز واخطر بنود القومية . واصبحت العقيدة القومية تصطبغ بسمات فلسطينية واضحة وربما كان تأسيس الحركة كله في الخمسينات كرد فعل على النكبة الكبرى التي حلت بفلسطين والتي اعتبرت نكبة قومية للجميع .

واصبحت القضية الفلسطينية هي القضية القومية البارزة كما اتضح من نشرتها الاسبوعية «الثأر» .

الا ان التوجهات القومية في مختلف البلاد العربية ادى الى بروز قيادات فلسطينية حاولت البروز بالعمل الفلسطيني كاتجاه قومي اول فوجدت الساحات الفلسطينية بزعامات مختلفة تنضم كلها تحت قيادة واحدة الا ان هذا لم يعزل هذه القيادة عن اتجاهها القومي ايضا وان كانت ترتدي الوجه الفلسطيني اولا .

وحين رفع حزب البعث العربي الاشتراكي شعارات تحرير فلسطين في المناسبات المأساوية الفلسطينية لفت انظار الفلسطينيين الى امكانية الاستفادة من المشاركة به لتبنيه دعوى التحرير بل تحسين احوال اللاجئين واعدادهم للمشاركة في النضال . بل ان الحزب تقدم بمذكرة الى وزراء الخارجية العرب في بغداد في يناير **١٩٦١** طلب فيها اطلاق حرية الشعب الفلسطيني في التنظيم بحركة تحرير فلسطينية . . وعدم اقحام القضية في الشؤون

الاقليمية ودفع الحركة لاتباع نموذج الثورة الجزائرية الناجحة في ذلك الوقت.

ولا تفوتنا الاشارة الى تأسيس حركة سياسية تتخذ مقوماتها من النبض الفلسطيني الخالص وداخل الارض المحتلة نفسها وبين العرب المقيمين تحت الاحتلال والمتمسكين بالارض. واتخذت من كلمة «الارض» اسما ومدلولا على اعتناقها الاول.

وان لم يكن واقع الاحتلال يسمح بنشوء مثل هذه الحركة فلسطينية خالصة ولان العرب المتبقين عرفوا باسم العرب الاسرائيليين. فلم يجد هؤلاء الا الحزب الشيوعي الاسرائيلي والذي كانت اغلبيته عربية لانه يتجاوب مع الآمال العربية بحركة مضادة للحكم العسكري ومساواة العرب باليهود وتوقف مصادرة الاراضي العربية.. الا ان واقع التطبيق كان شيئا مختلفا. اذ لم يظهر اي عمل فعلي في اتجاه المطلب السياسي الاول للفلسطينين وهو حق تقرير المصير.

وقد اخبرني احد الاسرى الذي حرر اخيرا عن هذا الانتماء وقد عاصر تلك الفترة بان التعبئة السياسية للحزب الشيوعي آنذاك كانت قوية لدرجة اقنعت الكثيرين بان لا داعي لعمل مناوىء للسلطة ما دام الحزب ينادي بنفس الشعارات التي يريدها الفلسطينيون. وقال لي بالحرف: وقتها من كان يخبرني باطلاق طلقة واحدة ضد السلطة كنت اقاومه ولو باطلاق الرصاص عليه!... فقد كنا نعتقد اننا من خلال العمل السياسي المستند على مبادىء سنحقق شيئا. ولكننا شيئا فشيئا تحققنا من البعد الشاسع بين النظرية والتطبيق. والامر كله كان لا يتعدى حركة معارضة سلبية ضد بعض الاجراءات... لكن لا تنفيذ لشيء على ارض الواقع مما صدم وجداننا القوي وبدأنا ننسلخ عن الحزب لاقتناعنا بانه يتبنى ايديولوجية لا تطبق على ارض الواقع. وبدأنا بالانضمام الى اعمال المقاومة الامر الذي انتهى بي الى السجن. وكان مجموع الاحكام الموقعة علي اكثر من مائة عام. ظللت في السجن مدة خمسة عشر عاما.. ثم حررت!

وهذا الاسير اسمه «علي شكور».. وهو يعيش الآن في عمان حيث التقيت به.. ولكنه كان وحين لقيته يبحث عن وضع يمكن ان ينسيه مرارة السجن. وان كانت كل الظروف معاكسة!.

وان كانت كل هذه الحركات قد افرزتها السنين التي تلت النكبة.. هذه السنون التي طحنت الفلسطينيين وصهرتهم داخل بوتقة معاناتهم اليومية الحياتية والوجودية والسياسية حتى دفعت بهم الى طريق العمل المنظم للمقاومة والنضال من اجل الحق.. فقد برزت «فتح» كأول حركة تحرير اتخذت اسمها وهويتها ومنطلقها ودفعها من الرغبة في التحرير.. وانضوت تحت شعار: حركة تحرير فلسطين.

ونستـطيع ان نقـول انـه منـذ بروز الكيان الصهيوني على الارض العربية في سنة ١٩٤٨ . . لم يبرز امامه الوجود العربي الفلسطيني الا في عام **١٩٦٤** بقيام منظمة التحرير الفلسطينية التي شكلت «فتح» في ما بعد عمودها الفقري . . وان لم تبدأ معها .

## * الملف السري لحركة «فتح»

اذا كانت «حركة فتح» قد مثلت اول تجمع فلسطيني يقوم على متغيرات جذرية سياسية وعسكرية فرضها واقع خبره الفلسطينيون وعرفوا ان لا سبيل لوجودهم الفعلي الا ان يعدّلوا في اطراف المعادلة . . وان يستقل العمل الفلسطيني عن التبعية والا يذوب في النضال العربي ويدعه يحتويه .

فقد كانت الضرورة هي التي دعت الى ذلك . وهذا التغيير الذي حدث لم يحدث الا بعد فترات تبينّ لهؤلاء فيها ضعف وتفكك العمل الفلسطيني وعجزه عن ايجاد استراتيجية للعمل والتعامل مع ذلك الواقع المتغير . وضعف وسلبية العمل العربي ايضا الذي لم يستطع فرض اي متغير جديد .

الا ان الكل كان يعلم بوجود البطولات والتضحيات التي لم تأخذ الشكل الجماعي . ولانها اولا واخيرا تخضع لكل التحكمات والانظمة لدرجة ان المتأمل في الوضع كان يرى ان هذه البطولات، الفدائية التي تمارس على الارض كان لو قدر لها ان تلقى العناية والتخطيط لكان يمكن التطور بها والارتقاء وجعلها نواة للحرب التحررية . وربما كان الوضع تغير كثيرا في ذلك الوقت المبكر لو ان هذه المجموعات الفدائية خاضت حرب عصابات لغطت على نتيجة هزيمة الجيوش .

ولكن التجربة التي جلت وجدان هؤلاء الشباب الذين كونوا «فتح» في بداياتها . . كانت تلك المواجهة السافرة بين الشعب الفلسطيني وقوات الاحتلال وبعد انسحاب الجيش المصري من غزة سنة **١٩٥٦** حيث وجد الفلسطينيون انفسهم عزلا من السلاح امام عدو باطش قوي .

ربما كانت . . او بالاحرى كانت هنا البداية . . بداية مرحلة جديدة احس فيها الفلسطينيون بالمسؤولية القدرية الملقاة عليهم . وعرفوا ان احساسهم بذاتهم ودورهم الحتمي في التاريخ هو القاعدة الاولى للتحرير .

وان كانت هناك على ارض الواقع العربي احداث جعلت الفلسطينيين يتطلعون اليها . فلا احد يستطيع ان يغفل وجود ثورة يوليو في مصر وكل ما أتت به من مبادىء . ثم وجود شخص «عبد الناصر» نفسه كأول قائد عربي يتكلم بلغة جديدة تثير مشاعر العزة الوطنية والتحرير والاستقلال .

وكما قال لي احد قادة «فتح» : لقد ولدت فتح من رحم الناصرية . وانه كان لا يمكن لفتح ان تسبق ابدا وجود عبد الناصر .

كذلك كانت هذه الثورة الجزائرية كنموذج حي لحرب تحرير ناجحة . مما جعل مكوني «فتح» يقتنعون ان حرب التحرير الشعبية هي الوسيلة الوحيدة للمواجهة مع العدو

الصهيوني وليست الحرب النظامية. وان لا بد من تمثل النموذج الجزائري لخوض حرب التحرير ضد الصهاينة.

وتكونت «فتح» في صورتها التنظيمية الاولى في النصف الثاني من عام ١٩٥٧. تكونت من كل القوى المقاومة التي اشتركت في مقاومة الاحتلال الصهيوني عام ٥٦. وكانت كل هذه القوى تشترك في المقاومة ربما دون ان تجمعها اي رابطة. ووضع ضرورة استمرار التعاون والترابط بعد زوال ذلك الاحتلال وعلى ذلك تكونت الخلية السرية الاولى في التنظيم عام ١٩٥٨.

الا ان ما ميز «فتح» في هذه المرحلة المبكرة تبنيها لاستراتيجية محددة وواضحة. ولاول مرة تبرز مثل هذه الاستراتيجية لتنقل العمل الفلسطيني من كونه جزءً من النضال العربي الى واجهة النضال على انه يجب ان يكون طليعة النضال العربي من اجل التحرير وليس العكس.

لذلك كانت اساسياتها تقوم على قاعدة من الاتجاه الفلسطيني نفسه. فالتحرك باتجاه القضية لابد وان يكون من منطلق فلسطيني مرتبط بالوطن. اعتماد الكفاح المسلح طريقا وحيدا لتحرير فلسطين. ادراك ان الزمن يقع في صالح العدو وان الاسراع بالمعركة سينقل عامل الزمن لصالح العمل الوطني. محاولة جذب الجماهير العربية الى الانضمام للكفاح المسلح.. فالشعب العربي مادة الكفاح المسلح والفلسطينيون هم رأس الحربة. العمليات الفدائية نواة لحرب تحرير شعبية.. والتعاون مع التنظيمات والهيئات غير المنضمّة الى «فتح» لخدمة الهدف الوطني.

كذلك وُجدت «فتح» بوجه جديد رغم ان العمل الفدائي لم ينقطع كما قلنا منذ بداية النكبة. ذلك العمل الذي اخذ شكل الفردية او المجموعات الصغيرة. ووجد ايضا العمل الفدائي تحت اشراف اجهزة المخابرات المصرية. وكان اوسع عمل باشراف المخابرات وشارك فيه كثير من الفلسطينيين والمخابرات السورية. كل هذا كان موجودا.. ولكنه لم يتخذ شكل الكفاح الشعبي المنظم.

وكانت هذه الفكرة هي التي سيطرت على فكر هؤلاء الفتية المؤمنين بتراب بلادهم منذ اواسط الخمسينات.. وان لم تنطلق مباشرة.. ولكن هذا ولا شك يمثل تحول الفكر الفلسطيني نفسه تغيرا جذريا نحو الانطلاق بنضالهم على انه طليعة النضال العربي كله.

وعلى هذه الاستراتيجية.. واعتناق هذه الايديولوجية المشرقة.. كانت «فتح».

ونستطيع ان نقول ان «فتح» ظهرت بهذه الايديولوجية الجديدة.. ليس من فراغ. وانما كانت حصاد تجربة مريرة تشتت بالفلسطينيين بين مختلف الاتجاهات والتيارات التي

دفعتهم اليهـا الانـظمة العربية برفضها الدائم لقيامهم باي نشاط سياسي مستقل. فلم يستطيعوا الا ان يتفرقوا بين احزابها واتجاهاتها وان بقيت عيونهم ابدا على فلسطين قضيتهم الاولى. ولم تكن انتماءاتهم المختلفة الا ظنا منهم ان هذا الاتجاه او ذلك سيقودهم الى تحقيق الامل المنشود.

فوجدنا منهم من دخل الاحزاب الاسلامية كالاخوان المسلمين لاعتقادهم بان العودة الى الـدين هي طريق الخـلاص. ومنهم من اعتنق الفكـر الماركسي فانتظم في الاحزاب الشيوعية العربية. وبعضهم كان يعتقد ان فلسطين لن تعود الا عن طريق الوحدة العربية فدخلوا في حركة القوميين العرب او انتموا الى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كانت مبادؤه تنادي اول ما تنادي بتحرير فلسطين. او الانتماء الى الحزب القومي السوري الذي كان ينادي بوحدة الهلال الخصيب. وكان في اعتقادهم ان هذه الوحدة ربما قادت الى تحرير فلسطين.. وهكذا.

وحـدها «فتح» التي رأى مؤسسوها فشل الدول العربية بكل احزابها واتجاهاتها في العمل من اجل فلسطين فاعلنوا مبادءهم التي تقضي بان على الفلسطينيين ان يكونوا في طليعة النضال من اجل فلسطين.. وان وسيلتهم الوحيدة هي الكفاح المسلح لحرب تحرير شعبية طويلة.

وقد كانت الرؤوس التي قررت قيام حركة «فتح» في البداية لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة. ولكن هؤلاء كانوا من التصميم والعزم والثورية بحيث استطاعوا ان يضعوا نواة سليمة لحركة التحرير الوطني! ... كانوا من القوة والنقاء بحيث حملوا على اكتافهم اصعب مهمة في التاريخ الحديث وهي مهمة تكوين حركة مقاومة لثورة تعيش ظروفا مختلفة تماما عن ظروف كل الثوارت. وعلى ارض المنفى.. ومن اماكن الشتات المتفرقة استطاعوا ان يجمعوا جموع الثورة التي انتصبت عملاقة طوال السنوات التالية.. والى الحين! فكانت اكبر ثورات التاريخ التي تعيش خارج ارضها!

وتقول «هيلينا كوبان» في كتابها المنظمة تحت المجهر.. «بعد قيام اسرائيل بوقت قصير غادر «ياسر عرفات» غزة الى مصر حيث درس الهندسة في الجامعة المصرية وكان في طليعة المؤسسين لاتحاد طلبة فلسطين. ومن هنا تعرف على «صلاح خلف» سنة **١٩٥١** وكان من يافا. وكان هناك «خليل الوزير» واصله من الرملة والذي كان يقوم بطريقته في تنظيم غارات فدائية وراء الخطوط الاسرائيلية انطلاقا من سيناء. وعندما قبضت عليه المخابرات المصرية متلبسا طُرد من مصر وعمل مدرسا في المملكة العربية السعودية ثم انتقل الى الكويت وكان هناك «خالد الحسن» وهو من حيفا اصلا وكان يعمل في بلدية الكويت وكان يبني تنظيمات

للفلسطينيين ومؤيديهم في انحاء الخليج[1].

وفي هذه النقطة يقول «ابو جهاد» . . في النصف الاخير من العام **١٩٥٧** كان اللقاء الاول لحركة فتح. لقاء مجموعة من المناضلين في الوقت الذي لم يكن فيه عدد اعضاء المجموعة الاولى يزيد على خمسة مناضلين جاءوا من مناطق فلسطينية مختلفة ومن مناطق تشرد متعددة. فقد كان كل مهم يحمل تراث تجربة نضالية في ميدان من الميادين وكل يحمل معه حلقة وتنظيما قطع شوطا على هذا الدرب . . وكانت الكويت على الخليج العربي هي موقع اللقاء الاول»[1]

وهكذا كانت هذه القاعدة التنظيمية الاولى على ارتباط مع امتدادات تنظيمية في كل من مصر وغزة والاردن وسورية ولبنان والسعودية وقطر والعراق.

وهكذا قامت «فتح» ببنية متفردة وان كانت قد اعتمدت الخلية الواحدة لقيامها الا انها استطاعت ان تبني وبسرعة عجيبة خلية فوق خلية وطبقة فوق طبقة من المنضمين المنظمين لنجاح عجيب.

وقد ظل هؤلاء الرجال في اماكنهم منذ بداية التنظيم والى الآن.

وحتى الاعضاء الخمسة عشر المنتخبين للجنة المركزية لحركة «فتح» عام **١٩٨٠** من المؤتمر العام للحركة اغلبهم من العاملين في الحركة ومنذ انشائها.

ان الصلابة والنجاح الذي زامن قيادة «فتح» منذ البداية والى الان هو اكبر دليل على وحدة الصف الفلسطيني او التفاف الفلسطينيين حول قيادتهم. وكان هذا طريقا شاقا مجهدا قاسيا ولكنه أكسبهم القدرة والخبرة والممارسة للتعامل مع العالم كله باتجاهاته المختلفة . . ومع العالم العربي ايضا بتناقضاته المتنوعة ومع مجموع الشعب الفلسطيني بكل ما يعمل في بنيته من تغيرات ويعصف به من رياح.

ورغم كل هذا . . فالبداية لم تكن سهلة ولا كانت الطرق ممهدة ولا مفروشة بالزهور امام الخطوات الاولى لحركة تحرير ناشئة وسط اقسى ظروف واعجب واقع. انها كانت العاصفة في انتظارها كخلية جديدة نقية وطاهرة الشريان تحاول ان تنزرع في وسط الجسد العربي الذي كان يحتاج لعملية تغيير دم حتى يستعيد عافيته ويتطهر.

وكان لا بد لهذه العاصفة ان تلقي بظلالها حتى على هؤلاء القادمين الجدد. فتلقي بشيء من غبارها على تفكير بعضهم بحيث تغيم الرؤية امام بعض العيون وتلقي بكم من

---

(١) هيلينا كوبان المنظمة تحت المجهر. الطبعة الأولى ٨٤ لندن.

(١) ابو جهاد نشرة صوت العاصفة.

ضبـابهـا ليحجب الـطريق الصحيح . . ولـو لبعض الوقت . وهكذا بدأ التنظيم الجديد بالاختلاف حول موعد انطلاق الثورة!

وفي هذا روى لي هاني الحسن حديثا مطولا . . قال : «مرت فتح بازمة انطلاقها في عام ٦٥ اذ ان القيادة المـوجـودة في ذلـك الـوقت انقسمت الى فريقـين . احـدهما عرف بالعقلانيين وعرف الآخر بالمجانين!

وقد بنى العقلانيون استراتيجيتهم من منطلق ذاتي . . وكما يرى «هاني الحسن» فان الاهواء قد تولد آراء! وقد كانوا ينظّرون! . . . وقد رأوا ان الثورة لا يمكن ان تنطلق الا اذا ملكت ثلاثـة آلاف مقـاتـل ومبالغ كبيرة من المال توضع في البنوك لتدفع تعويضات لمن يستشهد مع تأمين الوضع المادي للثورة للمستقبل او لعدة سنوات على الاقل .

وحين قال «هاني الحسن» عن العقلانيين ، انهم انطلقوا من منطلق ذاتي فلانه يعتقد انهم لو سلموا بان الثورة يجب ان تبدأ اليوم فان هذا يحتم عليهم ان يتركوا الكويت وحياة الاستقـرار ويأتون الى دمشق متخلين عن كل شيء واهبين انفسهم لثورة لا يبدو لها اي مستقبل في ذلك الوقت .

اما المجانين فكانوا يرون ان الثورة يجب ان تنطلق اليوم . وكان لهم رأيهم الواضح وهو ان الثورة كالانسان لا يمكن ان تولد شابة . . فلا بد ان تمر بكل المراحل . مرحلة الحمل فالمخاض فالولادة والطفولة والشباب . وبالتالي لا يمكن تأمين ثلاثة آلاف مقاتل الا عبر ممارسـة الحرب . ولا يمكن ممارسة الحرب والحصول على الامكانات المادية الا من خلال استثارة الاعجاب الشعبي بهذه الثورة .

وكان هؤلاء المجانين هم : «ياسر عرفات» . . وابو جهاد «خليل الوزير» . . وابو مازن «محمود عباس» وابو يوسف النجار .

وبرغم صعوبة الموقف ومنطقية العقلانيين في بعض تنظيراتهم الا ان المجانين انطلقوا بالثورة التي اجمعت كل خبرات الاستراتيجية في هذا الوقت وعبر كتابات عديدة انها لا يمكن ان تولد . . ولا يمكن ان تنتصر!

فمثلا «وليد الخالدي» وهو من اكبر العقول الفلسطينية كتب عدة مقالات يبين فيها استحالة قيام الثورة الفلسطينية الآن . ويقارن بين الثورة الجزائرية وبينها ليوضح اختلاف الـظروف . فبرأيه ان الثـورة الجـزائـرية كانت تمتلك مقـومـات النجاح بينما تفتقر الثورة الفلسطينية الى هذه المقومات .

فالثورة الجزائرية على أرضها والثورة الفلسطينية لا تمتلك الارض . والثورة الجزائرية كانت تتمركز في الغابات والجبال . . وفلسطين ليس بها جبال ولا غابات . الشعب الجزائري

عشرة ملايين بينما الشعب الفلسطيني قليل العدد ومتشرد في اماكن عدة. وهكذا. ,

حتى «ماوتسي تونج» القائد الشعبي الصيني وصاحب الخبرة الطويلة في حرب العصابات كان يقول: اذا انطلقت الثورة الفلسطينية وقدّر لي ان اكون على قيد الحياة.. اذا انطلقت وتمكنت من الاستمرار فاني آمل ان اكون على قيد الحياة لاكتب عنها! وذلك لانه كان يعتقد ان استمرارية هذه الثورة غير ممكنة.

وقد قال مرة في كلمة له وامام «هاني الحسن» في كلية بكين العسكرية.. لقد درست قضيتكم فوجدت العوامل المحلية والدولية متداخلة فيها تداخل اسنان القرش!.. لذلك اذا تمكنتم من تفجير الثورة والاستمرار فيها اتمنى ان اكون حيا.. لأكتب عنها، فقد كان يعتبرها حالة شاذة وهو كمنظّر لحرب الشعب اراد ان يدرس هذه التجربة لكي يطور قوانين حرب العصابات التي سبق وان كتبها حيث يفترض ضرورة عمق الارض لامكانية المناورة.

ويستمر «هاني الحسن».. في ظل هذا الوجوم الفكري وفي ظل العامل الذاتي وقف مؤسسون اساسيون في «فتح» مثل عبد الله الدنان ـ الذي لعب دورا مهما في البداية. وعادل عبد الكريم ـ وهي اسماء يجب ان تذكر لان لها علاقة بالمستقبل وقفا ـ ضد الانطلاق.

قلنا ان المجانين رفضوا شروط العقلانيين لقيام الثورة.. وخاصة العامل المادي لانهم كانوا يعتقدون ان الثورة التي تبدأ باخذ المال من النظم او الحكومات محكوم عليها بالفشل منذ بدايتها.. ومن هنا لا يمكن للشعب ان يستثار ويعطي الا من خلال عمل شجاع يثير الاعجاب والامل.

وكان اهم شيء للشعب الفلسطيني اثارة مشاعر الثأر والكرامة لديه فقد أُضطهد منذ عام ثمان واربعين وحتى عام خمس وستين من جميع النظم العربية بشكل لا يعقل!... كنا نُمنع حتى من اقامة نادي كرة قدم يحمل اسم فلسطين!.. ومن هنا نشأ الخلاف الكبير.

ونزل المجانين دمشق حيث كانوا يقيمون في معسكر قربها هو معسكر الهامة. وكانت الحياة في داخله صعبة ولكن الكل كان يتحملها. واذكر اننا كنا ـ والكلام ما زال لهاني الحسن ـ نأتي من اوروبا للتدريب به فكان مثلا من يحضر منا الغذاء الجماعي يأكل ومن لا يحضر عليه ان ينتظر الى ان يحين وقت الوجبة التالية.. فالامكانيات لا تسمح بغير ذلك. فكان الحل الوحيد هو ان تعد كمية من الطعام غير المكلف لتكفي الجميع حين يأكلون معا!

وهكذا بدأت انطلاقة الثورة ومضى عام ٦٥. ولا شك ان البعثيين في دمشق كانوا قد احتضنوا ولادة الثورة الفلسطينية.. ولكنهم فعلوا ذلك للمزايدة على «جمال عبد الناصر» من اجل اخذ مكان المنافسة على الدور العربي الاول.

وظنا منهم ان هؤلاء الشباب يسهل احتواؤهم. وكانوا يعتقدون انهم سيستفيدون من

الثورة كمزايدة ثم ستفشل فيأخذون لانفسهم الرصيد ويكونون قد سيطروا على هذه الحركة التي بدأت ترفض كل النظريات العربية التي كانت قائمة في ذلك الوقت. وكانت هذه النخبة المقاومة تعتمد في عملياتها على مبدأ: اضرب واهرب! وكان عليهم لذلك ان ينطلقوا من معسكر الهامة - بموافقة الحكومة السورية - فيعبرون بالسيارات حدود الاردن. . . ثم يعبرون الاراضي الاردنية الى داخل الارض المحتلة فيضربون. . ثم يعودون!.

وعند هذا الحد في الحديث يتحمس «هاني الحسن» بشكل واضح ويقول: كانت الثورة المعجزة والاسطورة. . ثورة اللامعقول!. . ارادة غير عادية هي التي كانت تعبر بنا اراضي الاردن المليئة بالجنود الذين يرفضون ان نشتبك بالعدو فنسبب لهم المتاعب. فقد كان هذا العبور يعني اشتباكا حقيقيا. . والعجيب ان اول شهيد لحركة «فتح» قتل على يد الجيش الاردني ولم يقتل على يد الاسرائيليين! وهو الشهيد «احمد موسى». . قتل بعد تنفيذ العملية في نفق عيلبون وبعد عودة دوريته أسر. . وقتل. !.

وهنا يظهر صعوبة الظروف التي كنا بها خاصة ان الفريق «علي علي عامر» قائد القوات المشتركة كان قد اصدر قرارا بملاحقة الفدائيين على كل الجبهات. . لان «فتح» هتكت محرمين كان معمولا بهما في ذلك الوقت.

اولا كان حمل السلاح في الساحة العربية محرما. . فرفعت «فتح»« شعار ان السلاح زينة الرجال. وثانيا كان عبور الحدود محرّماً أيضاً. فأتت «فتح» وحطمت حرمة حدود اسرائيل!. . ونحن اول من عبر وحتى هذا اليوم. . . الحدود الاسرائيلية! وكما نلاحظ، كانت كل الانظمة العربية خائفة. . ونحن الوحيدون غير الخائفين.

وحتى الآن لا يوجد أي مقاتل عربي او جيش عربي عبر داخل الارض المحتلة غيرنا. واعني بكلمة حدود. . معنى الحدود وليس ارضاً محتلة مثل الجولان او سيناء والتي هي خارج الحدود.

لقد رفضنا بذلك النظرية التي كانت تقول بأن خط الهدنة خط ثابت. . وانه خط دفاعي وليس خطاً هجوميا».

وكان في كلام «هاني» كثير من الفخر والاعتزاز. ولم يسعني وانا استمع وبضمير محايد الا ان احني رأسي اجلالا لعظمة هذه الثورة التي تفجرت ومن قلب المستحيل باسم الحق والحياة. وكنت اوافقه على اعتزازه فكل ما يقوله كان حقيقة اضاءت الواقع العربي. .

ويكمل هاني الحسن حديثه. .

**. «لذلك حين جاء عام ١٩٦٦، بدأ السوريون يدركون خطورة ما تبنوا! وبدأوا يضعون الخطط. بدأوا يدركون ان هؤلاء قد كبروا مع الزمن وليس**

من السهل القضاء عليهم . . وانه لا يمكن استيعابهم . وان الاستراتيجية التي ينادون بها ستنقلب عليهم بعد ان قامت اسرائيل بقصف معسكر الهامة قرب دمشق . . وبدأ الخلاف بين الحركة وسوريا .

وبدأت اول الاتصالات بين الحركة وبين السعودية مع الملك فيصل . وعرض الملك على الحركة اموالا ولكننا رفضنا - كما يواصل هاني الحسن - لا لشيء الا لاننا كنا لا نريد ان نبدأ بالتبعية . طلبنا الاساسي كان الاعتراف السياسي رغم اننا كنا في امس الحاجة الى المال ! .

وهنا بدأ السوريون يدبرون عملية للضغط . . فبدأوا يقترحون تشكيل قيادة مشتركة تعرف باسم مجلس الطوارىء . فعرضوا علينا ان نقبل - احمد جبريل - وهو في الاصل ضابط استخبارات في الجيش السوري . وكان علينا ان نقبله عضوا في مجلس الطوارىء ونقبل آخرين معه ! . أي ضباط آخرين من الجيش السوري كيوسف عرابي - وهو فلسطيني ايضا لكنه كان يعمل في الجيش السوري . .

شكلوا هذا المجلس المشترك ونحن قبلنا وقتها مقابل الاحتفاظ بشيء مهم - بل اهم شيء بالنسبة لحركة المقاومة وهو وجود جبهة للقتال . . وهي الازمة الدائمة التي تواجه الثورة الفلسطينية منذ ان وجدت . . ذلك الصراع الذي فرض على المقاومة ان تخوضه دائما . . الصراع من اجل الجبهة .

قبلوا كل ما املته سوريا مقابل استمرار الجبهة والقتال . . لانهم كانوا يعلمون ان الطريق مازال طويلا وشاقا ! .

وقد كان السوريون يرتبون ايضا ان تنتقل القيادة الى ايدي رجلهم - احمد جبريل - فرتبوا عملية فتنة داخل التنظيم وداخل العمل العسكري فجرى لذلك ترتيب عدة قضايا .

ففي احد البيوت دخل يوسف عرابي وقتل ضابطا من «فتح» اسمه «ابو حشمة» . .

وكان في نفس الوقت يوجد اخ فلسطيني من الحركة اسمه «زغموت» . وهذا الرجل اي «زغموت» مازال منذ ذلك الحين . . وحتى هذه اللحظة في السجن بعد ان لفقت له تهمة القتل ! .

ونتيجة هذه الفتن الداخلية قام السوريون باعتقال جميع القيادات المتواجدة في دمشق وكان عددهم ثلاثة عشر مسؤولا . ووضعوهم في السجن بحجة انهم عملاء ! .

وبدأت تلفيقات كبيرة لافراد القيادة . واكثروا من الاشاعات حولهم . وخرجت الصحف بالتساؤلات لافتعال الضجة . . ما هو سر الحقيبة السوداء التي احضر بها مال الحلف الاسلامي ؟ . محاولة ايهام الجميع ان هناك جهات تدفع الاموال لاقامة التكتلات .

رغم ان القيادة لم تكن تقبل اخذ المال مع ان الملك فيصل كان يريد ان يدعمها لانها حركة تحرير ضد العدو الاسرائيلي.

وسجنت القيادة! . ومورست ضغوط على القياديين القصد منها اهانتهم!

وجرت في ذلك الوقت تدخلات كثيرة وأتى بعض الاخوة من الكويت ليتدخلوا في صالح المسجونين والعمل على الافراج عنهم. وكان «ابو اياد» و«ابو اللطف» مندوبين عنهم.

كان ـ عبدالله الدنان وعادل عبد الكريم ـ من الاخوة المترددين امام هذا الحدث بينما كان «ابو السعيد» و«ابو اياد» و«ابو اللطف» و «ابو مازن» و «ابو يوسف النجار» و«ابو ايمن» وآخرون من الذين يقولون يجب ان نحمي الاخوة.

وجرى حوار طويل مع السوريين وكان حافظ الاسد وزيرا للدفاع في ذلك الوقت وكان الرئيس هو نور الدين الاتاسي. . وجرى اتفاق بعد محاولات طويلة ان يفرج عن الجميع على ان يخرج «ياسر عرفات» من سوريا ولا يعود اليها. بينما يبقى الجميع لمتابعة العمل في الثورة! .

وبالنسبة لثورة ناشئة. . فان مرحلة كهذه من الصراع لابد وان تنعكس على بنيتها. فما جرى من قتل واعتقال لابد ان يزعزع اي تنظيم. خاصة وان «فتح» لم تكن بعد تمتلك في سوريا التنظيم الشعبي الكبير الذي يستطيع ان يحميها. . اللهم الا تنظيم العمال والطلاب الذين يدرسون في اوروبا وهم كثر. وبجانب التنظيمات القليلة الحجم التي كانت لفتح في دول الخليج ومصر وغزة والضفةو الاردن، كذلك كانت «فتح» تسيطر على العمل النقابي والطلابي الفلسطيني في مصر.

يقول «هاني الحسن» في النقطة هذه. . هنا برزت بقوة ومن جديد قوة «ياسر عرفات» في اخذ زمام المبادرة عندما نزلت الدورية الاولى في ١٩٦٤/٢/٣١، الى الارض المحتلة. . وكان يخطط ويعدها ويسلحها «ياسر عرفات». . ومعه «ابو يوسف النجار» ودار بينه وبين «ياسر عرفات» والشهيد محمد شرف قائد المجموعة حوار عن بساطة القنبلة التي كانوا يعدونها مع هذه الاسلحة البسيطة. وهل يمكن بمثل هذا السلاح الضعيف نبدأ تحرير فلسطين وكان رد «ياسر عرفات» ان هذه القنبلة البسيطة ستأتي بالقنبلة الكبيرة وهذه تأتي بالرشاش الذي سيأتي بالمدفع والمدفع يأتي بالدبابة. . ويقول «هاني» عن هذا الحوار: هذه الرؤية هي التي تجسّد الموقف الذي كان متمثلا في ذلك الوقت بين العقلانيين وبين المجانين. فقد ثبت بالتجربة ان المجانين كانوا هم عقلاء الثورة. . وان من كانوا يدعون العقلانية هم الجاهلون بعلم الثورة! .

وقد قام «ياسر عرفات» بقيادة دورية عبر الاراضي اللبنانية. . ولاول مرة يستخدم

مدفع هاون (٦٠) في قصف المستعمرات الاسرائيلية. فكانت اول عملية يستخدم فيها مثل هذا المدفع.. وكانت تعد مغامرة جنونية لسهولة الكشف عن مكان القصف.

وفي طريق عودته تنبهت السلطات اللبنانية بعد احساسها بعملية المطاردة فقبضوا على المجموعة وقادوها الى السجن ليقضي افرادها فيها حوالى خمسين يوما وكان من بينهم «ياسر عرفات»!.

المهم ان هذه العملية حولت الانتباه كله نحو العمل العسكري واهميته. وادت الحملة التي قام بها التنظيم الى الافراج عن المسجونين بعد ان ادى سجنهم وبطولة العملية التي قاموا بها الى اشعال الحماس بحيث تمكن التنظيم ان يقف مرة اخرى على قدميه ويتجاوز مرحلة الصراع الداخلي الذي كان السوريون يغذونه بما سفك من دم وقد كانت الثورة الحديثة المولد لم تتعود بعد على هذا النوع من الصراع.

فحدث استعادة الروح الوطنية وقبل عدد من استقالات القيادات التي كانت مناوئة لتوقيت انطلاق الثورة.

وهنا يجب ان نتأمل ماذا كان رد فعل المعارضة التي كانت موجودة ومنذ وجدت «فتح» في شخصية «جورج حبش» ساعة اسمها القوميون العرب وساعة اسمها الجبهة الشعبية وساعة اسمها جبهة الرفض، واخيرا اسمها جبهة الانقاذ!.

في ذلك الوقت اصدرت حركة القوميين العرب بيانا كنّا نسميه - والكلام لهاني الحسن - بيان الـ تا تا تا!.. ثلاث تاءات تدل على التوقيت الخاطىء. وتوريط القوى الثورية. وعدم التنسيق مع القوى الوطنية.

وكتبوا مقالات كثيرة في هذا المعنى، حتى «غسان كنفاني» وكان يكتب في مجلة القوميين العرب تحت اسم طارق.. كتب يقول: ان طريق التحرير تمر في عمّان ولا تمر في القدس. علينا ان نحرر البلاد العربية اولا.. ثم نذهب لتحرير فلسطين»!. ولا انكر انا شخصيا اني تعجبت من هذا الكلام اذ كيف يلقون بمثل هذه التبعة الشاقة على كاهل حركة تحرير وطنية ناشئة قامت اساسا لانتزاع اراضيها من الاحتلال.

وهنا اوضح محدثي دور القائد ودور التنظيم ودور المعارضة منذ ان كانت حركة «فتح».. بما القى الضوء الكاشف على الوضع بأكمله. فالقائد يريد ان ينطلق الى اقصى مدى.. والتنظيم كبنية لابد وان يتأثر بكل ما يدور بداخله وحوله.. ولكنه يتابع قائده في انطلاقه الجبار منذ اول لحظة. والمعارضة تحاول ان تعوق الركب لتفرض ايديولوجياتها التي تؤمن بها. وهنا مكمن الخطورة اذ ان ايديولوجيتها ليست ثابتة بل تتغير بتغير المواقف. وهذا

هو الفرق الحقيقي بين التنظيمات المعارضة وبين «فتح» التي اعلنت ايديولوجيتها منذ البداية باعتناق ولم تغيرها ابدا. بل جعلتها من الثبات بحيث يقوم عليها العمل الفلسطيني كله. . وبين المعارضة التي تتبنى كل فترة اتجاها جديدا لذلك تذبذب موقفها دائما تبعا لاهتزازات الرؤية المستقبلية لها.

وهنا أتدخل انا برأي متواضع. . فقد كنت ارى ومنذ بداية اهتمامي بهذه القضية. ان لا معارضة في الثورة! . . الثورة لا يمكن ان يكون بها جانب معارض وآخر موافق. . الثورة تنطلق ككل. . وحين تنجح وتأخذ شكل الحكم المستتب فلتوجد المعارضة لخطوات الحكم. انما ترك اناس يخربون في الثورة او يسلبونها مكاسبها بدعوى الديمقراطية والرأي الآخر. . فهذا هو الخطر. . وهذا ما دفعت ثمنه الثورة الفلسطينية غاليا فيما بعد

نعود لاستئناف الحديث فنجد ان حتى الوقت هذا لم يكن لفلسطين وجود رسمي الا ما يعرف باسم الهيئة العربية العليا. . وحكومة عموم فلسطين المحتلة في جامعة الدول العربية برئيسها احمد حلمي. ولم يكن يوجد كيان فلسطيني يمثل الفلسطينيين حق التمثيل. وقد رأت الدول العربية بخاصة مصر ـ ان يكون للفلسطينيين كيان خاص حتى يستوعب مختلف نشاط الفلسطينيين المنتشرين في الدول العربية والذي كان يسبب قلقا للحكومات. وليكون واضحا وعلنيا تحت اعين اجهزة المخابرات ليتسنى لها الاشراف عليه.

لذلك قدمت الخارجية المصرية المذكرة تلو المذكرة لمجلس الجامعة العربية لانشاء الكيان الفلسطيني. ولم يتخذ اي قرار بهذا الشأن حتى عام **١٩٦٣** حين بحثت دورة الجامعة الاربعون تعيين خلفا لاحمد حلمي الذي توفي في العام نفسه فتم تعيين احمد الشقيري في هذا المنصب!.

وكان الرئيس «عبد الناصر» يريد ابراز الكيان الفلسطيني في صورة جديدة غير الهيئة العربية الاولى. وكذلك ايد العراق الفكرة.

وكان لتحرك احمد الشقيري في معظم دول الجامعة اكبر الاثر في ابراز هذا الكيان رغم عدم رغبة بعض هذه الدول في تنفيذ الفكرة. ووافق مؤتمر القمة العربي الاول الذي عقد في **١٣** يناير **١٩٦٤** على انشاء الكيان الفلسطيني. وبذل «الشقيري» في ذلك جهدا كبيرا لطمأنة الدول العربية المتخوفة من وجود مثل هذا الكيان بأن هذا لن يكون الا تنظيم للشعب الفلسطيني يتعاون مع الدول العربية. وانشئت منظمة التحرير الفلسطينية باعتراف الدول العربية منذ عام **١٩٦٤**.

وفي ذلك الوقت كانت «فتح» تتنامى وتكبر وتتسع وتنتشر خلاياها ويوضع تنظيمها

بدقة متناهية .

وقد قسمت العمل من خلال جهازين كبيرين اولهما عسكري والآخر سياسي . وتديرهما لجنة مركزية تستمد سلطتها من المؤتمر العام يضم ممثلي كل قطاعات الشعب الفلسطيني . وتحت اللجنة المركزية المجلس الثوري وتحته لجان مناطق ولجان فروع ثم خلايا القاعدة .

بهذا الترتيب الهرمي استطاعت «فتح» ان تبني جهازا متماسكا ثوريا اتاح لها حرية الحركة . واستطاعت ان توجد كثيرا من الخلايا سواء في الضفة الغربية او غزة وفي قلب المخيمات في سوريا ولبنان . . وداخل كل تجمعات الفلسطينيين في اي مكان في الدول العربية والعالم .

كل ذلك كان يدور في سرية كاملة . وهذه السرية هي التي تتيح دائما لأي عمل ثوري امكانية الانتشار بعيدا عن الرقابة واعمال القمع .

وكبرت «فتح» بانضمام كثير من التنظيمات الاخرى اليها خاصة حين تبين تمسكها بوجهها الفلسطيني ولانها بدت وكأنها الوحيدة القادرة على المواجهة المسلحة .

لذلك لم تعبأ «فتح» كثيرا بتأسيس منظمة التحرير لانها كانت قد اعلنت عن برنامجها للكفاح المسلح . ولم يرق ذلك للشقيري الذي لم يكن مرتاحا للمنهج الذي تتخذه «فتح» في الكفاح المسلح والذي جعل شعبيتها تتنامى بهذا الشكل الكبير حتى لقد استطاعت السيطرة على الساحة الفلسطينية فيما بعد . ورغم ذلك فقد اشتركت «فتح» في اعمال المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في القدس في ١٨ مايو ١٩٦٤ . . حتى لا تغيب عن الساحة السياسية .

ويعرض «ابو إياد» في كتابه فلسطيني بلا هوية هذه الفترة ويقول : « . . كانت هناك اسباب تدعونا للاشتراك في هذا المجلس منها ضرورة عدم انقطاعنا عن الحياة السياسية الفلسطينية ومنها الضرورة الاخرى الاكثر الحاحا وهي ضرورة التسرب الى داخل منظمة غنية وقوية للافادة من الوسائل التي تتمتع بها . . فقد كان يسعها فعلا ان تستخدم استخداما مفيدا كواجهة لنشاطاتنا السرية ! .

وما لبثت الانتقادات ان بدأت توجه الى الشقيري بسبب قيادته الانفرادية للمنظمة والذي يعترف هو نفسه وفي مذكراته بأنه كان يتخذ بعض القرارات دون الرجوع الى اللجنة التنفيذية او المجلس الوطني . وتطورت الانتقادات حتى وصلت الى حد الموقف العلني ضده

---

(١) فلسطيني بلا هوية ـ صلاح خلف ـ مؤسسة صيام .

من قيادة المنظمة . وتعالت اصوات بإقصائه عنها ، فقد كانت المنظمات الفلسطينية تكاد ان تسيطر عليها . وعلى رأسها بالطبع «فتح» .

ويقول «خالد الحسن» : «ان الشقيري اراد ان يسلم المنظمة الى «فتح» . . وكان هو يوافق على هذا الاقتراح . . لكن بقية القادة كانوا يفضلون ان يروا منظمة التحرير جبهة شاملة لكافة التجمعات الفلسطينية . . اي ممثلة للشعب الفلسطيني في المنفى!» .

ومعنى هذا الكلام ان «فتح» لا تستغل الفرص . ولكنها حقيقة كانت تهدف الى دعم العمل الفلسطيني بدعائم الشرعية . ولتصبح بعد ذلك منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . وكان هذا هو الهدف البعيد من عدم احتواء «فتح» للمنظمة وحتى لا تكون المنظمة تمثل حركة «فتح» وحدها ، وانما ارادوا لها ان تمثل الجميع حتى تستطيع ان تتحرك باسم الشعب الفلسطيني . . وقد كان! .

وفي اجتماع اللجنة التنفيذية تم تنحية الشقيري في اول ممارسة ديمقراطية عربية فعلية واقعية . واستولت المنظمات الفدائية على قيادة المنظمة من خلال توزيع عضوية المجلس الوطني على كل التنظيمات تمهيدا لدخولها اللجنة التنفيذية وسيطرتها على قيادة المنظمة . . وكان النصيب الاكبر فيها لفتح .

وكان «ياسر عرفات» قد ظهر قبل ذلك كناطق رسمي بلسان «فتح» فانتخب رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .

بقي الحال الى ما صار اليه بعد مرحلة الصراع الاولى الى ان وقعت حرب **١٩٦٧** فادخلت الوضع العربي العام كله في وضع جديد .

وحين نقول في وضع جديد فلأن الهزيمة التي فرضت وجودها الساحق على العالم العربي كانت سببا لكل ما سيجري بعد ذلك من احداث! .

---

(٢) احمد الشقيري من القمة الى الهزيمة ـ بيروت ـ دار العودة **١٩٧١** ص **١٣** .
(٣) مقابلة مع هيلينا كوبان المنظمة تحت المجهر .

## * من هزيمــة يونيو ٦٧
## ولدت بداية النصر الكبير!

بينما زلزلت الهزيمة العسكرية التي ألحقتها إسرائيل بالدول العربية وجدان الناس جميعا . . لم تهتز إستراتيجية «فتح» بالقدر الذي يجعلها تنسحق تحت ثقل الهزيمة! فقد كانت رؤيتها الاستراتيجية نافذة بحيث لم تفاجأ بالهزيمة!

فقد كانت ترى ان استراتيجية الوهم لابد وان تقود الى الهزيمة. وكانت ترى ان الاستراتيجية العربية لا تقوم على اساس . . إنما كانت كمن يبني قصورا على الرمال!

ووجدت في افكارها ومعتقداتها رصيدا لم يستنفذ بعد للصمود في وجه هذه الهزيمة الكبرى. واخذت تبحث عن طوق النجاه للقفز به فوق الهزيمة وتجاوزها.

انتهت ايام الصدمة الأولى والتي ادت بالرئيس «عبد الناصر» الى اعلان تحمل مسئولية الهزيمة كاملة والى تقديم استقالته بناء على ذلك . . ثم خروج الجماهير المصرية الجريحة مطالبة بالعدول عن ذلك . . وسحبه الاستقاله مقدرا ان يبقى لاعادة بناء قواته المسلحة لاعادة الأرض التي ضاعت واصبحت تحت اقدام الاسرائيليين على ضفة القناة.

عقدت «فتح» مؤتمرا لها في الثاني عشر من شهر الهزيمة يونيو في دمشق لمناقشة جدوى الكفاح المسلح في مثل هذه الظروف.

ورغم ان الرأي كان قد انقسم حول ذلك في هذا الاجتماع . . إلا أن «ياسر عرفات» حول المؤتمر الى تأييد الاستمرار في الكفاح المسلح . بل ان الأمر اصبح ضرورة ملحة في مثل هذا الوقت بالذات حتى لا يخمد الروح الثوري تحت ثقل الهزيمة.

وكان ان قرر المؤتمر من بين قراراته ان تتكون مجموعة من أبناء الارض المحتلة بهدف إحياء الروح الثوري ودعم وتوسيع جهاز «فتح» السري لاستئناف العمليات الفدائية.

وتقرر ان يكون على رأس هذه المجموعات التي تتسلل الى الأرض المحتلة «عرفات» نفسه!

وكان اختيار «عرفات» ليكون على رأس هذا العمل لتأكيد موقعه من الشعب الفلسطيني الذي كان في أمس الحاجة الى احياء الروح الثوري متجسدا في شخصه وفي ذلك الوقت بالذات.

وكان هذا هو اللقاء الفعلي والثوري لديمومة المد الثورى القوى. ورغم صعوبة النفاذ الى الأرض المحتلة تحت ظروف الاحتلال الجديد الذي فرض على الضفة وغزة . . إلا ان الوصول الى الضفة الغربية عبر مسالك نهر الاردن كان اسهل بكثير من قطع الرمال الشاسعة الى غزة.

ولكن المجموعة نفذت . . واستطاع «عرفات» ان يتجول في الارض المحتلة . ليست فقط التي وضعت تحت الاحتلال حديثا وانما في ارض سنة ٤٨ المحتلة منذ قيام الدولة

الاسرائيلية!

وقد قال في مقابلة صحفية له «إنه مرّ امام البيت الذي عاش فيه طفولته في القدس نفسها. . وكان اخوه واقفا بباب البيت. واضطر ان يمر أمامه صامتادون حتى القاء التحية عليه حتى لا ينكشف أمره!.

وبرغم انه لم يكن يفصح عن طبيعة وضعه الحقيقي من الحركة للناس. . إلا ان الناس كانوا يستقبلونه بكل المحبة والود والموافقة التامة على مقترحاته. وقد اقتنع «عرفات» بزيارته هذه بأن الهزيمة لم تحبط روح الثورة بين سكان الضفة وغزة رغم سقوطها الحديث تحت الاحتلال. وكان هذا بتأثير اللقاء الحميم بين القائد والشعب!

واثناء وجود «عرفات» في الأرض المحتلة كانت قيادة «فتح» لم تصل بعد الى القرار النهائي في استمرار العمل المسلح.

والحقيقة انها كانت ماتزال حائرة بين قدرتها الفعلية على مواجهة المنتصرين بالسلاح في مواجهة حقيقية مع التفوق العسكري الاسرائيلي. . ام وقف اي عمل فدائي لتنضم «فتح» بذلك الى فريق المنهزمين وتفقد الجماهير الفلسطينية أملها في اي قدرة على الصمود. لقد كان القرار هنا مصيريا ودقيقا.

ودعت «فتح» لمؤتمرها الثاني لاتخاذ القرار النهائي في هذا الأمر في ٢٠ أغسطس. وأسرع «عرفات» بالعودة بعد أن إطمأن على استمرار الروح الثوري ليحضر الاجتماع لتتخذ «فتح» اخطر قراراتها في انطلاق العمل الفدائي الى قلب الأراضي المحتلة.

وفي هذا الوقت كانت التدريبات تجري وقد تدفقت جموع من الشباب للالتحاق بمعسكرات «فتح» للتدريب.

وهنا إنضمت بعض المنظمات الاخرى والتي كانت ضد العمل المسلح والتي كانت تنضوي تحت مبادىء القوميين العرب وغيرهم واعلنت ميلاد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. . . تدعو اول ما تدعو الى الكفاح المسلح!

وفي هذا تناقض واضح فيما كانت تعتقده من ايديولوجية مسبقا. ويُظهر هذا تناقض جورج حبش مع نفسه ومع معتقداته. وهذا ما قلنا عنه عدم وضوح الرؤية. ونضيف الأن محاولة ركوب الموجة. فحين كانت المعارضة للعمل المسلح هي الموجة السائدة لوجود التيار القوي للقومية العربية كان جورج حبش على رأس القوميين العرب المتحالفين مع «عبد الناصر» والرافضين لمبدأ الكفاح المسلح. وعندما انطلق العمل الفدائي واصبح له كل ذلك الصدى الشعبي تولى جورج حبش مهمة النداء بالكفاح المسلح. وتخلى تماما عن حليفه القوى السابق الذي هزم واصبح مركزه ضعيفا تماما على الساحة العربية!

وهكذا تخلى حبش عن «عبد الناصر» الضعيف بعد ان تأكد ان استراتيجية لم تعد تجد الـدعم عنـده كما كانت. فمثـل هذه الاسـتراتيجيات غير الثابتة لا تستطيع ان تحيا الا باستنادها الى قوة خارجية لتدعمها.

بينما كانت «فتح» مبتعدة عن «عبد الناصر» القوى المسيطر.. بدأت بعد الهزيمة تقترب منه باعتباره حصيلة التجربة القاسية التي يمر بها العالم العربي. وان هذه التجربة لابد وان تكون قد انضجته ورأت ان تقاربها منه في هذا الوقت يمكن ان يصنع شيئا يسير بهما معا الى طريق جديد.

وفي لقاء الزعيمين «عبد الناصر» و«ياسر عرفات» قال «عبد الناصر»: «ان المقاومة ولدت لتبقى.. ووجدت لتستمر».

وبذلك كانت حرب ٦٧ ورغم الهزيمة قد ولدّت بعض الايجابيات المهمة جدا في حياة الثورة الفلسطينية!

ففي الوقت الذي حدث فيه ذلك الشرخ الخطير في بنية الجسد العربي باحتلال اراض جديدة كالجولان وسيناء وبقية الأراضي الفلسطينية بما فيها الضفة الغربية وقطاع غزة وانهيار الجيش المصري بصـورة انسحابه المضطربة.. انعكست الصورة على المقاومة الفلسطينية بالضوء المكثف عن انبثاق الارادة النضالية الفلسطينية الايجابية.

وظهـرت نتيجة الحرب واضحة بأن الجيوش النظامية لا تستطيع مواجهة قوة اسرائيل مواجهة ناجحة مما أيد فكرة الحرب الشعبية التي تبنتها «فتح» منذ قيامها. حيث ان الحرب الشعبية هي الشيء الوحيد المتبقى امام ابناء الشعب الفلسطيني الذي ازداد يقينه بعد الحرب ان عليه وحدة تقع اعباء التحرير لذلك لابد من ان يتولى بنفسه زمام المبادرة لحل قضيته عسكريا وسياسيا.

ومن هذه النتيجة ترسخت فكرة استقلال القرار الفلسطيني الذي ناضلت المنظمة بعد ذلـك للفـوز بامتلاكه من بين ايدي الأنظمة العربية التي كانت تدعى العمل على تحرير فلسطين حيث ظهر جليا ان هذه الانظمة كانت لا تصل فعليا للاستعداد لخوض معركة تحرير بمعناها الصحيح.. ولم تعد نفسها عسكريا لتنفيذ هذه الدعوات القومية مما اسقط عنها كل الهيبة والبريق الذي كان لها من خلال دعايتها المتكررة.

وبالتالي خفت قبضة تلك اليد التي كانت هذه الانظمة تقبض بها على رقبة العمل الفلسطيني ولا تتيح له اجهزتها السرية والقمعية حرية التحرك بسقوط هذه الانظمة نفسها التي اثبتت الحرب انها كانت مسلطة ايضا على كل التحركات الوطنية في داخل بلادها نفسها.

ولم تجد الجماهير العربية التي احسست بوطأ الهزيمة امامها إلا ذلك النقاء الثوري المتمثل في المقاومة الفلسطينية أملا في فتح طريق التحرير. فالتفت الجماهير العربية في صورة تلقائية حول المقاومة بمدها بالمال والرجال وإتاحة الفرصة للحركة.

وكان التأييد المعنوي والنفسي لحركة المقاومة اكثر عناصر التأييد دفعا لنمو حركة المقاومة الفعالة.

ووجدت الجماهير الفلسطينية نفسها بعد احتلال الضفة وغزة في مواجهة حقيقية مع العدو الذي انتصر على الجيوش العربية فالتحمت بقوات المقاومة التي كانت قد اثبتت وجودها الفعلي على الساحة بقيامها بالأعمال الفدائية قبل الحرب بثلاث سنوات. وكان هذا التفاعل بين هذه الجماهير والمنظمات الفدائية دفعا جديداً لازدهار حركة المقاومة.

رغم أن المقاومة نفسها ما كانت تعتقد ان بوسعها من وضعها الراهن بعد الحرب ان تدعى قدرتها على اشعال الحرب الشعبية الشاملة او ان تؤثر في قوة اسرائيل العسكرية إلا ان مؤتمر «فتح» والذي انعقد في ٢٠ اغسطس وحضره «عرفات» بعد عودته من الأراضي المحتلة قد قرر بصفة نهائية إنطلاق العمل الفدائي ابتداء من ٣١ اغسطس!

وكما يقول «ابو اياد» في كتابه «فلسطين بلا هوية». . «اتخذت اعمالنا في الارض المحتلة اشكالا متنوعة كزرع الالغام والكمائن وهجمات بالقنابل اليدوية وغير اليدوية. طلقات بازوكا وقذائف صاروخية. وكانت اهدافنا متواضعة وهي رفع معنويات الجماهير العربية ومناوشة العدو وابقائه في حالة تيقظ وفي افضل الأحوال إرباك الاقتصاد الاسرائيلي!».

ومهما بدت هذه الاهداف متواضعة إلا ان وقوعها كان النقطة الوحيدة المضيئة في ذلك الظلام الذي حط على العالم العربي بعد الهزيمة.

واهم من ذلك فإنه قد اثبت استراتيجية «فتح» كمنطلق وحيد للخوض في ذلك الصراع التاريخي بين العرب واسرائيل.

وقبل ان ننهي هذه النقطة لابد لنا من ان نتعرض لجانب المعارضة والتي قلنا انها وجدت منذ وجود جورج حبش في الحركة الوطنية الفلسطينية. وهنا يقول «أبو اياد» في كتابه. . «ومهما يكن الأمر فإننا كنا في الأشهر الاولى التي تلت حرب عام ٦٧ نواجه العدو وحدنا واسلحتنا في يدنا. . في حين ان المنظمات الاخرى التي ستشكل بعد ذلك ببضع سنوات جبهة الرفض لم تكن قد ظهرت بعد على المسرح او انها لم تكن قد اتخذت قرارها بعد بخوض الكفاح المسلح!».

وقد جاءت ولادة الجبهة الشعبية بعد خمسة اشهر من حرب ٦٧. ورغم انها ولدت

بعــد ان تم الاتفــاق على دمــج عدد من المنظمات ببعضهــا الا ان تقلب قيادتهــا بين الايديولوجيات المختلفة وعدم الثبات عند ايديولوجية معينة قد عرّضها للانشقاقات والانقسامات .

فقد اقترب الخط العام فيها تمام التقارب مع الماركسية والارتداد عن الخط القومي .
ثم صدر بيان من بيروت بعد اعتقال احد عناصرها من قبل السلطات السورية ان لا علاقة إطلاقا للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بحركة القوميين العرب في سوريا ولا في اي قطر آخر!

وكان ان اصدرت في ابريل ١٩٦٨ جبهة التحرير الفلسطينية وهي احدى الفصائل التي تشكلت منها الجبهة الشعبية بيانا تنفي فيه اي علاقة لها بحركة القوميين العرب .

وبدأت الأمور تتفاقم داخليا في الجبهة بحيث اصدر كل طرف بيانات من جهته يتهم فيها الطرف الآخر بتخريب الوحدة الوطنية وشق وحدة الصف الى ان حسمت الأمور نهائيا في شهر تشرين اول ١٩٦٨ عندما انشقت جبهة التحرير الفلسطينية ـ عن التحالف لتشكل فيما بعـد الجبهـة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وقد انسحب منها الناصريون المستقلون . . بينما احتفظ الطرف الثاني باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وضم حركة القومين العرب فرع ـ شباب الثأر ـ ومنظمة ابطال العودة![1]

وفي مطلع العام ١٩٦٩ بدت داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بوادر انشقاق جديد اسفـر عن إنشقـاق فريق من الجبهة الشعبية وتشكيل الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين! .

ونظرا لكل هذه الخلافات الداخلية لم تحضر الجبهة دورة المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة في ١٩٦٩/٢/١ . فقد كانت للجبهة ايضا مواقفها من المجلس وطريقة تشكيل لجانة وقياداته! وشكل هذا الانشقاق في صفوف الجبهة بخروج فريق منها ليشكل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ضربة جديدة انعكست على اوضاع الجبهة التنظيمة والسياسية والعسكرية حيث ادى الأمر الى وقوع صدامات مسلحة بين الفريقين علاوة على تبادل التهم فيما بينهما! .

ورغم هذا فقد اصدرت الجبهة بيانا تستنكر فيه اللجوء الى العنف في حل الخلافات وعـاهـدت الجماهير على عدم تسديد اي رصاصة الا باتجاه العدو. وبعد انعقاد المجلس الـوطني في القـاهـرة في فبراير ـ شباط ٦٩ اصدرت الجبهة الشعبية بيانا فسرت فيه عدم

---

(١) هيلينا كوبان: المنظمه تحت المجهر.

اشتراكها في المجلس وكان اهم بند في بنود البيان ان الجبهة ترى ان م.ت.ف. في تكوينها الحالي تعيش واقعا مكتبيا بيروقراطياً لا يصلح ولا يمكنها من قيادة القتال والمقاتلين والجماهير ولا يؤهلها لتحقيق صيغة وحدة وطنية سليمة!

وفي مؤتمرها الذي عقد في شباط ٦٩ اكدت الجبهة الشعبية على اهمية التحالف بين القوى الثورية كافة واكدت على اهمية النظرة الثورية والفكر السياسي. واكدت ايضا انها تسعى الى بناء الحزب الثوري المستند الى الاستراتيجية التنظيمية.. واثبتت الجبهة في مؤتمرها هذا تبنيها للماركسية اللينينية! وقال جورج حبش الأمين العام للجبهة بأن الماركسية الأسيوية وماركسية الأحزاب الفيتنامية هي الأقرب للأوضاع التي نعيشها!

وحين اشتركت في المجلس الوطني في دورته السادسة اصدرت بيانا توضح اسباب اشتراكها وجاء في مشروعها المقدم للمجلس: رفض كل الحلول الرجعية والصهيونية القائمة على الاعتراف بدولة اسرائيل ورفض كافة الحلول العربية القائمة على ذبح اليهود ورميهم في البحر والنضال من أجل حل ديمقراطي للمسألة الفلسطينية والمسألة الاسرائيلية. وانشاء دولة فلسطينية ديمقراطية شعبية يعيش فيها العرب واليهود دون تمييز.. وتصبح هذه الدولة في المستقبل جزء من دولة اتحادية عربية في المنطقة.

ورغم كل هذا فقد اعلنت الجبهة في اواخر عام ٦٩ تعليق عضويتها في قيادة الكفاح المسلح ـ وكما تدعى ـ نظرا لسيطرة فريق دون آخر على هذه القيادة!

وهنا يجب ان نتوقف امام مواقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفي رغبتها الدائمة في ان تكون الطرف المعارض. ويثبت ذلك بيانها الاخير الذي اوردناه والذي لم تأت فيه بجديد اللهم الا المزايدة بالكلمات في الوقت الذي كانت فيه «فتح» تنطلق في تأكيد دور الكفاح المسلح وتمسك بزمام العمل الثوري الذي كان لا يعيقه الا تناقض الجبهة الشعبية الى الحد الذي وصل بأفرادها الى الصدام المسلح.

وحين اتهمت الجبهة منظمة التحرير بأنها تعيش واقعا مكتبيا بيروقراطيا كانت قوات المقاومة تستعد لخوض معركة بطولية خالدة في «الكرامة» في اول لقاء سافر بين الجيش الاسرائيلي وقوات المقاومة تنتصر فيها وترد القوات الاسرائيلية عن مواقعها وتكبدها ـ ولأول مرة ـ خسائر فادحة.. رغم سقوط الشهداء!

# * نطعم لحومنا لجنازير الدبابات . . .
# ولا نهرب (معركة الكرامة)

قلنا ان هزيمة ٦٧ كان لها تأثير كبير على وضع الثورة الفلسطينية. هذا الأثر الذي هز صورة الزعامات العربية وبالتالي انظمة هذه البلاد التي كانت تتعقب الفدائيين وتحول دائما دون إنطلاقهم.

وقد أدى التغير الاستيراتيجي الناجم عن هذه الحرب الخاطفة الى التفاف الجماهير العربية والفلسطينية حول قوات المقاومة باعتبارها الأمل الوحيد المتبقى. وادى الوضع الجديد ايضا الى تفرغ القوات الاسرائيلية لمراقبة الفدائيين واعمالهم البطولية بعد فراغها من القضاء على القوى العربية النظامية المواجهة لها.

وقد ايقن الجميع.. ومن خلال حالة اليأس المسيطرة ان المقاومة هي القوة القادرة الوحيدة لعمل اي شيء في مقابل الهزيمة التي اسقطت الجيوش العربية. لذلك اجتذب العمل الفدائي كثيرا من المتطوعين من الفلسطينيين ومن الشباب العربي. وقد نشرت احصائية تظهر ان ألفا ومائتين شاب مصرى قد تدفقوا على مكتب «فتح» بالقاهرة للتطوع في العمل الفدائي! وحدث نفس الشيء في بلدان عربية اخرى.

ويقول «ابو اياد» في كتابه.. فلسطيني بلا هوية».. «فتحت هزيمة الأيام الستة آفاقا جديدة امام نمونا وتطورنا.. فالنظام الاردني بات اضعف من ان يتصدى لمشروعنا. وافرج عن مئات الوطنيين الفلسطينيين الذين كانوا قد سجنوا من قبل. واغفلت السلطة الاردنية عينها عن اقامة قواعد على طول نهر الاردن لتكون نقاط اسناد للفدائيين».

وهكذا استطاعت المقاومة ان تثبت اقدامها فوق ارض الاردن في وسط تأييد شعبي كبير سواء من الجماهير التي تعيش في الاردن ومن اهل المخيمات الفلسطينية والتي تمثل كثافة سكانية كبيرة في الاردن وحتى في داخل القوات الاردنية نفسها.. والتي كانت تساعد الفدائيين في اعمالهم ربما بدافع الشعور القومي.. وربما بدافع الاعجاب الذاتي! وقد كانت المقاومة ايضا تتلقى الدعم من الجزائريين والصينيين وغيرهم من القوى الحرة.

واستطاعت القوات الفدائية ان تثبت قواعدها على الضفة الشرقية لنهر الاردن بعد ان طاردهم الاسرائيليون في الضفة الغربية بعد الحرب. كل هذا كان يشكل بالطبع قلقا لاسرائيل وهي ترى نمو قوات الثورة والتي خلقت لنفسها ما يشبه الخط الدفاعي في مواجهة القوات الاسرائيلية في الضفة الغربية.

لذلك كانت اسرائيل تشن الغارة تلو الغارة على مواقع الفدائيين في الضفة الشرقية وتضرب بذلك الاراضي الاردنية. وكانت المقاومة تعمد الى ايجاد نقطها قريبة من التجمع السكاني في المخيمات حيث يمكن ان يوفر السكان حماية للعمل الفدائي.

وكان مركز القيادة يقع قرب تجمع «الكرامة» حيث كانت تتجمع كوادر «فتح» في نقطة

رئيسية تتمتع بالموقع الاستراتيجي الممتاز الذي يلزم القيادة في تحركها .

وامـام اشتـداد اعـمال المقاومة قررت اسرائيل ضرب قواعد تمركز القوات الفدائية والقيادة في «الكرامة» .

وعلمت بالخبر المخابرات الاردنية عن طريق المخابرات المركزية الامريكية وهنا نصح الناصحون القيادة الفلسطينية بالانسحاب ضناً بقوات المقاومة من التعرض لضربة ساحقة من الجيش الاسرائيلي .

بل ان رئيس الاركان العامة الاردني نصحهم بنفسه اخلاء المواقع وتفادي المواجهة والانسحاب الى داخل الاراضي الاردنية . وكان برأيه ان قيادة «فتح» تكون قد ارتكبت خطأ عظيما لو عرضت نفسها لخطر المواجهة .

ووفق قوانين حرب العصابات والتي كانت تطبقها المقاومة الفلسطينية كان يحتم على المقـاومـة ان تنسحب لان هذا النوع من الحرب لا يناسبها . ولانها كانت تعتمد اسلوب «اضرب واهرب» وهي الابجدية الاولى لحرب العصابات .

ومن بين تقنينـات «مـاوتسي تونـغ» للحرب الشعبية هذه المبادىء الثلاثة التي تقوم عليها استراتيجية الحرب الشعبية . وهي : اذا تقدم العدو نتراجع ـ واذا اقام نزعجه . . واذا تراجع نطارده .

فحرب العصابات لا تستطيع تحقيق استراتيجية . . وانما هي في حقيقتها كسب مواقع لخدمة الاستراتيجية ! .

فبكـل المقاييس كان يتحتم على المقاومة اخلاء الساحة . ولكن . . هل كان بوسع المقـاومـة ان تنسحب؟ . . هل كان بوسعها ان تطفىء بقية الامل المتبقي في صدر الامة العربية؟ . . هل كان بوسعها ان تصدم الجماهير العربية في المثل الذي تتطلع اليه؟ . . وهل كان بوسعها وهو الاهم حرمان رجالها فرصة مواجهة العدو والنيل منه في اول مواجهة سافرة بينهما؟ ! .

لا يمكن . . . لقد كان الموقف دقيقاً وحرجا بحيث لم يكن هناك خيار الا القتال . . ورغم كل النتائج المحتملة .

لقد القى «ياسر عرفات» بمقولته الخالدة . . . «نطعم لحومنا لجنازير الدبابات . . ولا نهرب» ! .

وفي هذه المقولة تتضح صلابة القائد الذي يعلم انه الروح الدافع لقواته . ويتضح اكثر التركيب النفسي لشخص الفدائي الذي لا يستطيع ان يعقل اخلاءه للساحة امام عدوه .

تلك الروح الفدائية التي كانت تسري في دم رجال المقاومة . . فتجلو جوهر الانسان فيهم .

وقد كان هذا رأي الجميع حين التقت القيادة كلها لمناقشة الامر. وربما كانت المرة الاولى التي لم يطل فيها النقاش اذ كان الكل يجمع على انه لا ينبغي للمقاومة ان تتراجع امام العدو! ولكن كان الاقتراح هو ان على اعضاء القيادة مغادرة مقراتهم كإجراء محافظ على حياتهم .

ويقول «هاني الحسن» في هذه النقطة . . احمد جبريل وجورج حبش عارضا . . ورفضا . . ثم انسحبا! . . وفي الكلمات الثلاث تلخيص لموقفهم من هذه المعركة! . . والرجال مواقف كما يقولون! .

وثبتت قيادة «فتح» بثلاثمائة وسبع وتسعين مقاتلا . . في انتظار الجيش الاسرائيلي! .

وفي فجر ٢١ مارس سنة ١٩٦٨ بدأ الهجوم الاسرائيلي بحوالي الف وخمسمائة جندي . . وعلى طول جبهة نهر الاردن . . الا ان الهجوم المكثف كان على «الكرامة» .

حرب شاملة تبدأها المدرعات باجتياز النهر . . وتتبعها تشكيلات المشاة وقصف مدفعي مركز وطائرات هيليوكوبتر تنزل المظليين خلف الخطوط! جيش نظامي كامل متكامل بعتاده وسلاحه يواجه اقل من اربعمائة رجل!! .

ويقول «ابو إياد» ان المدفعية الاردنية اشتركت في المعركة وبدون ان ينتظر قائدها التعليمات من القيادة العليا . . وفتحت النار على الجيش المتقدم! وأستقبلت الدبابات الاسرائيلية في الكرامة باطلاق نارغزيرمن قذائف الآر . بي . جي وبوابل من القنابل اليدوية .

ونزل الفدائيون من التلال ليخوضوا المعركة وجها لوجه مع العدو. وبلغ التلاحم حد استعمال السلاح الابيض . وقام كثير منهم بأعمال فدائية بطولية نادرة . فكان بعضهم يفجر نفسه بالديناميت لتفجير دبابة متقدمة! .

واستمرت المعركة خمسة عشر ساعة . ولم تنته المقاومة ولم تنهار! وحين ادرك العدو استحالة استمرار المعركة من ناحيته لعدم تعوده على مثل هذا النوع من الحرب الانتحارية . . اخذ في الانسحاب حاملا جثث قتلاه وجرحاه بعد ان اذهلته المقاومة العنيدة لهذا العدد البسيط من الرجال الذين كانوا يعانقون الموت ولا يفكرون في الاستسلام . سقط من رجال المقاومة ٩١ شهيدا دفن منهم ٦٧ في مقبرة جماعية للشهداء في «الكرامة» و٢٤ دفنوا في مدافن الشهداء في عمان .

وسقط من الجانب الاسرائيلي ثلاثون قتيلا ومائة جريح وفق بياناتهم . وان كانت

الخسائر ومن المؤكد تفوق هذا العدد بكثير. وكانت الخسارة الاكبر هي في شعور الاحباط الـذي انتشر بين جنوده حين رأوا عجزهم عن احراز أي نصر نهائي على هذه الحفنة من المقاتلين. ولفقد مثل هذا العدد من جنودهم ولاطلاعهم على نوعية المقاتل الذي واجههم والذي لم يقابلوه من قبل!.

فقد تعود الجيش الاسرائيلي ان يواجه الجيوش العربية ويهزمها.. اما هذا النوع من المقاتلين فلم يعرفه من قبل. هذا النوع انزل به خسائر في الارواح لم يعتد على ان يخسرها في اي حرب خاضها. وهنا كانت الهزيمة النفسية اكبر بكثير من الهزيمة المادية.

واحدثت معركة «الكرامة» دوياً هائلاً في الوطن العربي باعتبارها معركة ثأر من العدو الـذي فرض الهـزيمـة على الوجدان العربي كله. واحدثت ايضا دويا هائلا بين الجماهير الفلسطينية اذ كانت متنفسا لحقد قديم وجد منذ عام ١٩٤٨.

وبـرزت «فتح» بنصرها الجديد املا في قلوب هذه الجماهير. فلا عجب ان تتدفق عليها حشود الشباب طالبة الانتظام في صفوفها وتطلب شرف الحصول على الهوية الفدائية.

واشتعل الحماس، فاذا بالعمليات الفدائية تكثر وتشتد وتلقى التأييد التام من سكان الارض المحتلة.

وعرفت «فتح» انطلاقة لم يسبق لها مثيل بالعمل الفدائي بشكل ارهق قوات الاحتلال وحرمها من الامن والاستقرار. ولم تستطع البلاد العربية الا ان تعترف وتشيد بهذه المقاومة التي صمدت امام الجيش الاسرائيلي حتى ان ملك الاردن بنفسه اعلن بعد المعركة بيومين فقط شعار «كلنا فدائيون».

وتقابل الرئيس «عبد الناصر» مع بعض قيادات «فتح» بعد ان ابدى النظام المصري رغبته في اقامة علاقة مميزة معها.

وعن هذه المقابلة يقول «ابو إياد».. «ان صراحته شجعتنا على أن نحدثه بمنتهى الحـرية عن «فتح».. وراح هو يسألنا على مدى اكثر من ساعتين حول تأسيس منظمتنا وايديولـوجيتهـا ومصادر تمويلها ونشاطاتها. كان يريد ان يعرف كيف استطعنا ان نصمد للاسرائيليين في «الكرامة»؟! كما وعد بتقديم الاسلحة وتأمين تدريب الفدائيين».

وهكـذا أكسبت معـركـة الكـرامـة المقـاومـة الفلسطينية مكانة كبيرة على المستوى الفلسطيني والعربي. واتاحت لها نموا كيانيا كبيرا مكنها من زيادة حجمها وثقلها العسكري والسياسي.

واستطاعت «فتح» ان تكسب مركزا متميزا من الدول العربية تبعا لذلك. الا ان

(١) فلسطين بلا هوية - صلاح خلف

زيادة العمل الفدائي والذي ألهب الشعور الوطني الفلسطيني من سكان بعض البلاد العربية ازعج السلطات وخشي كل من النظام في الاردن ـ وهو البلد الذي يكوّن الفلسطينيون النصف من سكانه ـ وكذلك الحكم في لبنان والذي كان الفلسطينيون يمثلون نسبة ١٢ بالمائة من عدد سكانه . . خشي كلا النظامين من استفحال هذه القوة الثورية بحيث يمكن بها المنافسة على الحكم . . وخاصة في الاردن . ولذلك فان معركة الكرامة كانت ذات نتائج كبيرة وخطيرة في الوقت نفسه . اذ وضعت السلطة الاردنية كل مكاسب هذه المعركة تحت المجهر الاستخباري لبرصد بدقة وقلق نمو هذا الجسم الغريب داخل كيان الاردن، الامر الذي استدعى الحذر، بل شدة الحذر ايضا من السماح لهذا الجسد ان يتمدد الى مشارف السلطة التي لم يكن هناك من شك لدى الاردنيين انه ولابد ان يطمح اليها! .

والحقيقة ان «فتح» لم تلتفت الى هذه العيون السرية التي كانت تحيط بها وانما كانت منصرفة تماما لتدعيم وجودها على خريطة العالم العربي والخارجي بعد ان ابرزها نصرها في «الكرامـة» لتكسب صفة الوجود الشرعي على الارض . فقام قادتها بزيارات واتصالات لعديد من الدول العربية والصديقة لتدعيم هذه المكانة .

ولقي استيلاء المنظمات الفدائية على جهاز منظمة التحرير قبولاً وارتياحاً لدى الدول العربية بعد ان أمّنت لنفسها الأغلبية العظمى من مقاعد المجلس الوطني في دورته الخامسة التي عقدت في فبراير ١٩٦٩ .

ولا يعود هذا الارتياح الذي ظهر لدى الدول العربية الا لأن «فتح» كانت قد أرست مكـانتهـا بالنسبـة للبـلاد العربية وحصلت على ثقتها من انها لا تبغي تدخلا في شؤونها الداخلية . . وانها تكرس كل جهودها ضد العدو. واحتلت بالتالي المنظمة مكانة كبيرة من خلال مكانة «فتح» التي كانت قد اكتسبتها .

وكما كان تحرك «فتح» بالنسبة للعالم العربي . . كان تحركها في المجال الدولي لكسب التأييد والدعم . وقد وجدت في الدول الاشتراكية بالذات حسن التقبل والمساعدة .

وكانت هذه الفترة بمثابة العصر الذهبي لـ «فتح» بعد ان حطمت اسطورة الجيش الذي لا يطال باحداث خسائر لديه في الارواح والعتاد . وبعد ان ضربت المثل في التضحية والفداء . وبعد ان اصبحت النموذج الذي يحتذى .

وكانت هذه الفترة منذ وقوع معركة «الكرامة» الى عام ١٩٧٠ هي سنوات النجاح البـاهـر لـ «فتح» فعلا . . فقد تدفق عليها المتطوعون وتوالى عليها التأييد والدعم المادي والمعنوي وحققت سيطرة فعالة على المنظمة واكتسبت مكانة عربية ودولية كبيرة .

وانكشفت امامها بقية التنظيمات وانشقت الى حركات مناوئة لبعضها البعض بينما

كانت هي متماسكة ومترابطة وقادتها ثابتون منذ ان ولدت والى الآن.

وأدى تمسكها الواضح باستراتيجيتها منذ تكوينها الى ثبات مكانتها واحترامها. بينما بدت المنظمات الاخرى كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مثلا غارقة في تخبطها الايديولوجي وضائعة وسط الانشقاقات والانقسامات وحائرة في اتخاذ الخط الذي تنتهجه.

وحدها «فتح» هي التي تجني مكاسب ما قدمت وتجني ثمرة ما زرعت، ولم يكن كل ما مر بها الا حصاد تجارب اضافته الى رصيد نضجها الفكري والسياسي والعسكري.

وساعدها على ذلك وأمدها بالنجاح قدرتها التي انتقلت بالوجدان العربي كله الى مدارج الامل بعد ان استطاعت تجاوز هزيمة ٦٧ وقاتلت وحدها منتصري الحرب وصمدت امامهم.

ولكن شاء الحظ ان تشهد سنة ١٩٧٠ انكفاءة للثورة التي كانت قد بلغت اوج ازدهارها بمعركة الكرامة.

وشهد عاما ١٩٧٠/١٩٧١ احداثا دامية قطّعت جسد الثورة العملاق الذي كان يتمدد على ارض الاردن ممثلا اكبر هم يومي وحياتي ووجودي للاحتلال الاسرائيلي المواجه له على الضفة الغربية!.

## * انكفاء الثورة!

شهدت السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ . . واول سنة ١٩٧٠ مراحل ازدهار ونمو المقاومة الفلسطينية التي استطاعت ان تبدد ظلام الهزيمة بانتصار عربي ناصع في الكرامة . .

وكما رأينا، فإن نمو المنظمة والثورة كان قد استقر على دعامة عربية ودولية اعطت للثورة الفتية كل هذه القيمة التي جعلت كثيرا من القيادات العربية تتحالف مع «فتح» لتدعم مكانتها بين الجماهير العربية .

الا ان الوجود الكبير للمقاومة في كل من الاردن ولبنان بكل هذا الحماس الذي اجتاح الجماهير الفلسطينية في البلدين شكل قلقا لدى الحكام بحيث خافوا ان يطغى هذا التيار الجديد فيقلب موازين القوى بالنسبة لاستقرار الحكم .

ورغم ان «فتح» كانت تعلن ضمن ايديولوجيتها عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد عربي . . الا ان هذا لم يكن كافيا ليطمئن الحكم الى هذا التنامي المستفحل لقوة المقاومة . . وخاصة في الاردن . . فعلى هذه الارض سجلت المقاومة انتصارها وعلى هذه الارض تعيش الثورة بين جماهيرها التي تمثل نصف السكان . . وعلى هذه الارض يرتفع المد الثوري ليطغى على أي صورة اخرى .

ولا يسعنا الا ان نعترف انه الى حد ما كانت هذه الفكرة صحيحة! فقد ادى نمو العمل الفدائي والتوسع به بعد عام ١٩٦٧ . . ومعركة الكرامة الى تضاعف وتعدد المنظمات الفدائية . ولا ننسى ان بعض هذه التنظيمات كان مازال يحمل في جذوره بعد التوجهات العربية التي كانت تقوم من خلالها سابقا .

وتقول هيلينا كوبان في كتابها المنظمة تحت المجهر . . «ربما لم تقدر «فتح» حق التقدير باعتبارها اكبر واقوى هذه المنظمات الاخطار الكامنة في تضاعف وتعدد المنظمات المنافسة . . ذلك ان بعض الاعضاء كانوا يميلون بالتأكيد الى الفكرة القائلة بأن المطلوب للحركة الفدائية في تلك المرحلة هو مجرد تكاثر الاعداد . . بصرف النظر عن هوية الانتماء . و«فتح» نفسها تلبست بجرم احداث انشقاق جديد واحد على الاقل في الثورة عندما سهلت لمجموعة نايف حواتمة الخروج من الجبهة الشعبية وتشكيل منظمته الخاصة باسم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطلع ١٩٦٩»! .

وربما كان هذا لان قيادة «فتح» الاساسية كانت منهمكة في معالجة مشكلاتها الجسيمة الخاصة بها وفي اتجاهها السياسي لكسب الاعتراف العربي الرسمي ، فلم يكن هناك وقت كافٍ لمعالجة تفاصيل المشاكل الداخلية في الجسم السياسي الفلسطيني خاصة وان معظم التنظيمات التي افرزتها الساحة والعمل كانت تنظيمات عربية لبست الثوب الفلسطيني وكانت تحتمي بهذه الدول العربية وكانت هذه الدول تحميها وتصرف عليها وتغذيها .

وبعضها كان يلبس رداء القومية العربية او الماركسية او خلاف ذلك

هذه الحماية العربية كانت وراء التعدد الكبير لهذا العدد الكبير للتنظيمات التي لبست وسمت بالاسم الفلسطيني.

وهذا بالضبط ما منع عملية الحساب والعقاب ان تتم بسهولة داخل جسم الثورة لان هذه التنظيمات كانت تلجأ الى هذه الدول العربية التي افرزتها لتكون لها ذراع داخل الثورة.. فتقوم هذه الدول بحمايتها من أي حساب وضد اي عقاب.

الا اني اخالف هذا الرأي.. فلاشك ان سلامة الجسم السياسي لأي تنظيم هو الذي يدفع بهذا التنظيم الى الوصول والنجاح - وبرأيي - ان أي نجاح يُحرز يكون هشاً ومعرّضاً لسرعة السقوط ان لم يستند على جسد سياسي سليم قائم على تنظيم داخلي قوي ومتماسك.

وكان هذا هو ما حدث تماما. فكل النجاح الذي كسبته حركة المقاومة تداعى.. وبسرعة نتيجة اخطاء داخلية كان يمكن تلافيها بشيء من الحزم واحكام قبضة التنظيم على افراده. ولكن للاسف.. غرتهم الديمقراطية بكل مظهرها البراق وفاتهم الى حد ما ان الثورة الزام.. اي لابد ان يلتزم كل من ينتمي الى الثورة بشيء واحد.. وتكون الطاعة اولى مفردات العمل الثوري. وتأتي الديمقراطية حين تنجح الثورة لتكون اولى ثمار نجاحها.

● وهنا وجدت أن من الضروري ان اسأل «ابو عمار» عن العمل الثوري وطرق الحكم والفرق بينهما؟!. والفرق بين القانون الثوري ودستور الحكم الذي يقوم على المؤسسات. وذلك لأعرف جيدا على أي مبدأ يسير؟!.

وقد قال: لابد للاجابة عن هذا السؤال ان نضع في اعتبارنا جميعا ان هناك فرقا كبيرا بين الثورة الفلسطينية والثورات الاخرى مما جعلها لا تستطيع الاستناد على القانون الثوري وحده. فالثورة الفلسطينية بسبب ظروفها الموضوعية وبسبب ظروف النكبة التي احاطت بشعبها والتي حاولت ان تشطب الشعب الفلسطيني من خريطة الوجود السياسي في المنطقة العربية. حيث انه بعد تقسيم فلسطين في عام **١٩٤٧** نشأ على هذا الكيان كيان آخر اسمه الكيان الصهيوني.. ثم توزعت الدول العربية بقية الاجزاء الفلسطينية فيما بينها. فغزة تحكم حكما اداريا من قبل الحاكم الاداري المعين من قبل القاهرة وجزء تبع سوريا وهو منطقة الحمة.. والجزء الكبير الاساسي وهو الضفة الغربية اصبح تابعا للملكة الاردنية الهاشمية.

وبدل ان تتعاون الدول العربية على انشاء الكيان الفلسطيني من هذه الاجزاء

---

المنظمة في عشرين عاماً - دراسات.

الفلسطينية ليواجه هذا الكيان الاسرائيلي الدخيل . . توزعت الدول العربية هذا الجسد الفلسطيني المتبقي فيما بينها!!.

وتوقف الزعيم لحظة يزدرد غصة مرارة قبل ان يواصل حديثه . . بالاضافة الى هجرة ستين بالمئة من الشعب الفلسطيني وهو ما اصطلح على تسميته مشكلة اللاجئين الفلسطينيين!.

اذن الثورة الفلسطينية كانت تواجه - ولازالت - تواجه شيئين : الشيء الاول انها تقاتل العدو الصهيوني ضمن المفهوم الثوري المتعارف عليه في كل الثورات . . وفي القاموس الثوري . . وفي نفس الوقت وجدت نفسها مسؤولة مسؤولية مباشرة عن معالجة الشؤون المعيشية والحياتية للشعب الفلسطيني! . مسؤولة عن حياته ، عن اقاماته وتعليمه ومختلف اوجه نشاطاته الصحية والتعليمية والعلمية والثقافية الى جانب العبء العسكري الذي كانت تنهض به . فهي اول ثورة تتحمل المسؤولية في الوقت نفسه ، مسؤولية الشعب وما يحتاجه هذا الشعب من مؤسسات في حياته الخاصة حتى يستطيع البقاء ولا يذوب ويتلاشى .

وفي الجانب الآخر تتحمل المسؤولية الثورية بكل ما تتطلبه المسؤولية الثورية . لذلك كان لابد من حدوث تزاوج بين المسؤوليتين . فكان لابد - وهذه كانت نصائح من نثق بهم ومنهم الرئيس «عبد الناصر» . . كان لابد ان تدخل منظمة «فتح» منظمة التحرير الفلسطينية حتى لا يحدث تعارض بين المهمات الحياتية التي تقوم بها منظمة التحرير والعمل الثوري الذي تقوم به «فتح» .

وعلى سبيل المثال - أنا - لم أكن من المتحمسين لهذا القرار! . . كنت اوافق على ان تدخل «فتح» منظمة التحرير الفلسطينية ولكن ما كنت اريد ان اصبح رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد انتخبت وانا خارج القاعة! .

كان هناك اجتماع في دار الصحفيين المصريين في القاهرة وانتخبت رئيسا لمنظمة التحرير .

لماذا كنت اقول هذا لاني كنت ارى من الصعب هذا التزاوج!

وهنا سألته : معنى ذلك انك كنت تريد الاقتصار على العمل الثوري فقط؟ . قال : «نعم . . فقد كان من الصعب هذا التزاوج . . ولكن . . بلاشك ثبت انني لم اكن مصيباً كل الاصابة . . ولم يكن الرأي الآخر خطأ كل الخطأ! . انما كان لابد لهذه المفاهيم ان تتزاوج مع بعضها البعض . الا ان «فتح» لم يكن في نيتها فرض الوصاية على الآخرين وكانت تجد في تعدد المنظمات تلك الظاهرة الصحية التي لابد وان تحوط جسد الثورة .

وكانت المجالس الوطنية هي التي تحدد مدى نجاح او اخفاق هذه المنظمات». ويؤثر عن «ياسر عرفات» انه كان يقول دائما: «دع كل الزهور تتفتح في واحة الثورة»!.

ذلك ان اعتماده على الديمقراطية اساس في تكوينه القيادي وان كانت بعض المنظمات خاصة في الاردن قد اساءت بحيث أدى ذلك الى وقوع الصراع مع السلطة.. فما كان هذا الا السبب الظاهر والذي اتخذته السلطات ذريعة للصدام المباشر..

ولكن.. ما كان مقدرا ان تسمح اي سلطة بمثل هذا الوجود القوي للثورة داخل اراضيها حتى ولو لم يقع اي من التجاوزات التي قيل ان المأساة قد وقعت بسببها.

وهذه هي الحقيقة.. فان وجود قوات الثورة نفسه بكل ما كان لها من النجاح والصدى الجماهيري.. هو الذي أثار السلطة وجعلها تتحين الفرصة لقمع هذا المارد الذي تمدد على طول وعرض اراضيها ليجذب الانظار عنها ويكون موضعا للاعجاب والاكبار.. وهذا ايضا رأي خاص.

وقد كانت بعض التنظيمات لا تعتنق نفس ايديولوجية «فتح» في عدم التدخل في الشؤون الداخلية. وقد غرتها القوة والتأييد في فرض افكارها ولو بالقوة! وكانت ترى ان النظام القائم في الاردن ينتمي الى الرجعية بما لا يتناسب مع وجود الثورة على هذه الارض. بل كانت هذه المنظمات تغالي باعتقادها ان المواجهة مع النظام ضرورة لتغييره!.

وعلى النقيض من ايديولوجية «فتح» دفع غرور القوة الى انتشار الحواجز الفلسطينية في بعض الطرقات في محاولة للقبض على عنان النظام!.

ولاشك ان وجود قوة ضاربة كالمقاومة الفلسطينية على اي ارض مدعاة للقلق من جهة الدولة المضيفة. ولا نستطيع ان نقول ان كل ما جرى كان قدرا مرسوما بدون ان ندخل فيه العوامل البشرية التي تساعد الى حد كبير في تشكيل هذا القدر المحتوم!.

فسواء كان ملك الاردن يخطط لازالة هذه السلطة التي طالت سلطته والتي تجذب مشاعر الناس نحوها وتتصدر في المكان الاول من الاهمية.. وسواء ان الاخطاء التي وقعت فيها المقاومة او حتى المظاهر التي كانت تحوطها جعلت اي حاكم يساوره القلق على نفوذه وتمكنه من أعنة الحكم - فقد اشترك الطرفان في تخطيط هذه المأساة التي دارت على الأرض.

فعندما كان يسمع الملك ان بعض ملوك ورؤساء الدول العربية يقولون ان استيلاء المقاومة على الحكم يُعد شيئاً طبيعيا.. وعندما تتجمع عشرات الآلاف لتشييع جناز احد المناضلين وتُلقى الخطب وينتشر الحماس الفلسطيني وسط كل هذه الآلاف. وحين يُختطف ضابط من الحرس الملكي الاردني على يد منظمة سرية تدعي انها فلسطينية. وعندما يلقي أحد اعضاء المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يرأسها الدكتور جورج

حبش خطابا يهاجم فيه الملك وعائلته . وعندما تظهر على الساحة الفلسطينية قيادات تُظهر التشدد والتصلب بحيث تتخطى حدود اللياقة في مخاطبة السلطات الرسمية بما فيها الملك نفسه . وفي حين يسود شعور بين القوات الفدائية بالتميز والتفوق الذي يبرز مقومات التحدي للجيش الاردني . . فلابد أن يوجد كل هذا الخطوط العريضة لشكل المأساة التي كانت ولابد قادمة ! .

وان كانت القيادات الفلسطينية تتهم السلطات بأنها كانت تسعى جاهدة للاعداد لهذه المجزرة باعتمادها على اثارة المصادمات الدموية بين الفدائيين والقوات الملكية او بتدريب فريق سري على يد المخابرات الاردنية لارتكاب المخالفات والصاقها بالفلسطينيين . . فان نظرة انصاف كانت يجب ان تشمل ذلك النظام الذي يحاول ان يحمي نفسه على ارضه ! .

الا ان نظرة الانصاف هذه لا يمكن ان تبرر كل ما جرى بعد ذلك . وكان النظام يستطيع ان يحمي نفسه بدون اللجوء الى فرض ثمن الدم الباهظ الذي فرضه . كانت السياسة والاتفاقيات يمكنها ان تحل محل الاقتتال الذي دار ليضعف وينهي الوجود الفلسطيني على اكثر الجبهات حيوية امام العدو! .

وقد أصبحت كل النُذر تنذر بالنهاية . وكانت المصادمات الدموية تجري بين الطرفين نتيجة الشعور المتزايد لدى القوات الملكية بالقهر او الضعف امام هذه القوات الفدائية الفتية ولدى القوات الفدائية بالتفوق والشعبية والقدرة .

وكان الملك يرقب كل هذا . . وربما ارضاه ما يجري ! . . لانه سيكون اهم اسلحته عندما يحين الوقت ! .

ومن اقواله المأثورة في هذا الوقت وحين كان بعضهم يستنكر الموقف السلبي للحكومة امام ما يجري : اني أمُدّ لهم الحبل الذي سيشنقون به أنفسهم ! .

وفي حين ان قيادة «فتح» كانت مقتنعة تماما بأنه يجب على الثورة الفلسطينية ان تبحث عن طريقة تعايش سلمي تضمن لها البقاء على الارض الاردنية دون احداث دامية . . كانت بقية قيادات المنظمات الاخرى يظنون أن الملك لن يأمر ابدا بمهاجمة الفدائيين لانهم منتشرون بين السكان وانه لن يوقع مجزرة بين سكانه . . وايضا كانوا يعتمدون على ان الجيش الملكي ربما يرفض اطلاق النار لو تلقى امرا بذلك! .

وفاتهم أن الملك كان قد أمّن ولاء ضباطه بما فيهم الفلسطينيون أنفسهم والذي كان لا يضعهم في وحدات هامة وحيوية وكان قد عمل على أن يلقنهم المعتقدات المضادة للحركة الفدائية بنسبتها الى الشيوعية العالمية او جهات اجنبية بما يظهرها وكأنها عميلة لبعض الاتجاهات ! .

على انه كان يجب ان تنفجر الاحداث خاصة بعد التغيرات السياسية التي جرت في المنطقة واعلان «عبد الناصر» قبوله لمشروع روجرز للسلام وزاد النار اشتعالا التحاق ملك الاردن ايضا بهذا المشروع .

بينما كان الفلسطينيون يرفضون هذا المشروع كما سبق وان رفضوا القرار ٢٤٢ والذي قبلت به الدول العربية لانه لم يذكر شيئا عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.

وكانت القيادة الفلسطينية بالاجماع قد رفضت مشروع روجرز هذا . . الا ان الجبهة الشعبية برئاسة جورج حبش كانت ترفع شعار التهور في هذا الرفض . ويقال ان اعضاءها قاموا بأعمال منافية للادب والسلوك السوي تجاه شخص الرئيس «عبد الناصر» .

وفي هذه الاثناء قام ملك الاردن بزيارة «عبد الناصر» . . وأشيع انه قد اعطاه الضوء الاخضر لتأديب الجبهة الشعبية! . ولم يكن يدور بخلد «عبد الناصر» ان ضوءة الاخضر هذا ـ واذا كان حقا قد أعطاه ـ سيكون سببا لسحق قوات المقاومة .

واذا كان الملك قد حصـــل على موافقـة لوقف تيار الهجـوم على شخص الـرئيس المصري . . فقد حولها الى مواجهة شاملة لم تتوقف الا بجهود «عبد الناصر» الشخصية مما ينفي عن الرئيس «عبد الناصر» تهمة الموافقة على ضرب المقاومة . وما كان لرئيس مثل «عبد الناصر» بكل ما عرف عنه من قومية ان يشارك او يوافق او يتسبب في ضرب المقاومة . . ومهما كانت الاسباب .

وحتى هذه الموافقة الجزئية والتي قال بها البعض من انه كان يوافق فقط على تأديب افراد الجبهة الشعبية تبقى مشبوهة . . فلا يمكن لمن هو مثل «عبد الناصر» ان يأمر بتصفية قوات ترفع البندقية في وجه اسرائيل .

ويؤكد القائد ابو إياد» اقوال الرئيس «عبد الناصر» شخصيا على مأدبة العشاء التي دعا اليها ذلك الوفد الذي زاره في الاسكندرية برئاسة «ياسر عرفات» للاطمئنان على الوضع بعـد قبـوله بمشروع روجرز والذي أبدى قلقه على الوضع في الاردن قال: انا اعلم ان المخابرات الهاشمية اشاعت انني شجعت الملك على ضربكم. والعكس هو الصحيح . . فقد حذرته خلال زيارته الاخيرة للقاهرة من مثل هذه المحاولة مرتين . . مرة في اجتماع مغلق ومرة ثانية بحضور رئيس وزرائه عبد المنعم الرفاعي!» .

على كل . . كان الملك قد عقـد عزمـه وبدأ بضرب مراكز المقاومة! واتسعت هذه المعارك بحيث تعدت حد المصادمات التي كانت تحدث سابقا.

**الا ان التهور هو الذي دفع بالاحداث كلها الى الأسوأ . اذ انه في السادس من سبتمبر ١٩٧٠ قام اعضـاء الجبهة الشعبية بعمل ضارب للسيادة الاردنية بخطف اربع طائرات**

ركاب عالمية . . وقيادتها الى مدرج صحراوي في الاردن عرف فيما بعد باسم مطار الثورة .

والمدهش ان هذا الحادث لم ينعكس فقط على الساحة الاردنية وحدها بآثاره السيئة . ولكن احدث هزة دولية ايضا حين اتخذت القوات الامريكية درجة الاستعداد للقتال في الشرق الاوسط واوروبا تحسبا لنتائج هذه الازمة! فقد كانت امريكا تنسب قوة المقاومة الى موسكو .لذلك تشككت بهذا الحادث بحقيقة التحرك السوفياتي . . وما يمكن ان يكون . وربما يكون هذا الموقف قد افاد الملك كثيرا في الحصول على هذا التأييد الدولي لسحق هذه «القوى الارهابية» الرابضة على ارضه . واطمأن على مصداقية ضربته التي سيوجهها للمقاومة . خاصة وان امريكا على وشك التدخل لضمان اخلاء وسلامة المدنيين في الاردن . وايضاً ضمن الا تمر اي مساعدة عربية الى الثورة الفلسطينية من تحت عيني امريكا واسرائيل .

وهكذا نرى ان الاخطاء الفادحة يكون ثمنها فادحا ايضا . هذا الخطأ القاتل الذي ارتكبته الجبهة الشعبية ادى الى ان تدفع المقاومة وجودها ثمنا له . والاسئلة كثيرة . . لماذا لم يحاكم المسؤولين عن هذا الحادث . . ان شيئا من هذا لو حدث ربما كان باستطاعته احتواء الازمة . فقد كان على المخطئين وحدهم ان يدفعوا ثمن ما ارتكبوه .

ولكن للأسف لم يحدث شيء من هذا ، ولـذلك قامت قوات البدو الموالية للملك بالهجوم على مواقع الفدائيين وعلى مخيمات اللاجئين في كل انحاء العاصمة الاردنية . . واخذت المدفعية تقصف مواقع مكاتب المنظمة . وعمت المعارك في كل مكان .

وشنت القوات الملكية هجوما عاما ضد الفدائيين . وفي حين كانت في الاردن قوات عراقية تبلغ سبعة عشر الف جندي وذلك منذ حرب عام ١٩٦٧ . .

واجتمع مجلس قمة طارىء في القاهرة لبحث أزمة الاردن . قاطعه كل من العراق وسوريا نظرا لتأييدهم لموقف المقاومة! . . ولأن سوريا كانت تشتبك في حرب على حدودها مع الاردنيين بالفعل! وقاطع المغرب ايضا هذا المجلس ولكن . . لدعمه لملك الاردن! .

ووسط هذا التناقض العربي ارسلت القيادة الفلسطينية رسالة استغاثة لهذا المؤتمر! .

واذا تتبعنا الاحداث وفق رواية «ابوإياد» في كتابه «فلسطيني بلا هوية» وجدنا القائد الفلسطيني يتصدى لهذه الاحداث بكثير من التفاصيل تضعه موضع المسؤولية المباشرة فيما وقع من احداث . . والتي يعلن بنفسه في نهاية فصل احداث ايلول من كتابه بأنه كانت هناك اخطاء بمعنى الخطأ الجماعي . ولم يحدد مسؤوليته هو داخل الخطأ . في حين سيحدثنا «هاني الحسن» بعد ذلك بتحديد الاخطاء من زاوية اخرى .

ونقرأ ما يسرده «ابو إياد» من احداث وهذا لأن «ابو إياد» احد القادة البارزين . واحد اهم من لعبوا دورا مهما في احداث ايلول . . لذلك نأخذ التفاصيل من كتابه لانه اقرب من يمكن له ان يروي الاحداث . . فقد كان شاهدا على كل ما يجري .

ونجد القائد الفلسطيني يتصدى لهذه الاحداث بكثير من التفاصيل فيقول انهم «طالما حاولوا تجنب الاقتتال . . فدخلوا لذلك في مفاوضات مضنية حتى توصلوا الى تسوية كانوا يرون فيها ظلما وتعسفا ولكن ـ عبد المنعم الرفاعي ـ رئيس الوزراء الاردني خابر «ابو إياد» طالبا منه توقيع اتفاق التسوية للضرورة . ووثقوا بكلام رئيس الوزراء لانهم كانوا يعرفون تعاطفه مع المقاومة . ولكن الملك أقال حكومة الرفاعي في اليوم التالي . . وأقام حكومة حرب كل اعضائها من العسكريين ! .

وهنا بدأ الهجوم الشامل للقوات الملكية . وهنا يقول «ابو إياد» : اننا لم نكن مستعدين لمواجهة هذا الامتحان برغم انه كان متوقعا منذ بضعة اشهر! ويقول ان جيش الملك احتل مقر قيادة «فتح» العسكرية العامة خلال دقائق . وكان هذا المقر في جبل الحسين وهو حي يسهل اقتحامه . ويعترف ايضا فيقول كنا اقل تنظيما مما كان حالنا يوم معركة الكرامة . فلم نعد أي مخطط للمعركة ولم نكن نستطيع ان نتصل ببعض القيادات العسكرية ولم تعد مخابىء لاعضاء القيادة ! .

وفي هذا الوقت أُسر «ابو إياد» بعد سلسلة من المغامرات وايضا بعد ضغوط مورست عليه هو ورفاقه في التحقيق والاستجواب . ويصف حاله في الاسر فيقول كانت زنزانتي تبلغ المترين طولا والمتر الواحد عرضا . . رطبة قذرة الرائحة بحيث انها قززتني وجعلتني الاثنتا عشرة ساعة المتوالية التي امضيتها فيها في عتمة دامسة دون طعام او شراب اغرق في كآبة عميقة ليس لأن اغتيالنا كان يبدو امرا محتوما . . وانما بسبب الوصمات التي سيحاول اعداؤنا تلويث شرفنـا بها بعد اعدامنا اذ لا ريب انهم سيقدمون توقيفنا كاستسلام جبناء بهدف تحطيم معنويات قواتنا . ويقول ان ضباط الحرس من حولهم كانوا يوصلون اليهم الاخبار المتواترة . . مرة بأن «ياسر عرفات» استسلم . . وتارة بأنه قتل واحيانا بأن البحرية الامريكية ـ المارينز ـ تستعد للانزال لمساعدة القوات الملكية .

هذه المعلومـات التي كانت تثـير القلق في نفوسهم في الوقت نفسه الذي كانوا فيه يجهلون حقيقـة الـوضع . ثم جاءتهم ثلاث شخصيات اردنية بينها رئيس الاركان العامة ورئيس الاستخبارات للتباحث . . وهنا يقول انه عرض عليهم مشروع اتفاق لوقف اطلاق

النار لا يدخل حيز التنفيذ الا بعد موافقة «ياسر عرفات» وبقية اعضاء القيادة. ويذكر ايضا انه الح بأن يعرض المشروع على الملك حسين على مسؤوليته وحده اذ كان تفكيره انه اذا كان الفدائيون على وشك الهزيمة فانه يكون قد قدم لهم مخرجا مشرفا وصان حياة كثيرين. اما اذا كان الظرف لصالحهم فانه يكون المتورط الوحيد! وهذا بالطبع لانه كان يجهل حقيقة الوضع نتيجة لأسره.

وكان المشروع الذي يحرره بحضور محادثيه الاردنيين يتضمن اربع نقاط: عودة الجيش الملكي الى ثكناته. واخلاء الفدائيين لعمان. الشروع في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. واقامة قواعد فدائية على طول الخط الفاصل عن الاراضي التي تحتلها اسرائيل.

ويقول «ابو إياد» انه بناء على اقتراح الشخصيات الاردنية المطلقة الصلاحية فانه قرأ النص بصوت عال فسجلوه بدون علمه.. ونقلوه للملك!.

ويقول ايضا ان الاتفاق نص على ان يذهب هو ورفاقه الى سفارة مصر حيث يتصلوا بعرفات بالراديو لاخذ موافقته غير ان الملك - كما يقول - انتهك كل التعهدات المعطاة حين بث من راديو عمان منذ صباح ٢٣ ايلول هذه الاقتراحات بعد ان قدمها كاقتراحات صادرة عن قيادة «فتح» ومعلنا موافقته عليها.

ويضيف بأنه كان قد اوضح بأنه ليست له كسجين اية صفة تخوله التفاوض فضلا عن اتخاذ قرار باسم منظمته.

وطبقا للاتفاق وافق على الذهاب الى سفارة مصر الا انه - حسب روايته - لم يستطع لأن السيارة المدرعة التي وضعوه فيها لم تفلح في التقدم.. فقد كانت المعارك التي تدور في هذا القطاع كثيفة جدا واجبرتهم العيارات والانفجارات على ان يعودوا ادراجهم بعد عدة محاولات. او بمعنى آخر انه لم يستطع ان يصل حيث يستطيع مخاطبة «عرفات» واخذ موافقته.

ويقول انه للأسف اثناء هذه المحاولات ادرك اخيرا ان الفدائيين لم يهزموا وانهم لايزالون يسيطرون على احياء عدة من العاصمة!. وكان يجهل في الوقت نفسه ان قوات المقاومة في اليوم ذاته كانت قد حررت مثلث اربد - الرقى - جرش.. وانها تسيطر على هذه المدن الشمالية الثلاثة!.

وفي هذه اللحظات الحرجة او القاتلة التي كان يتحدد فيها مستقبل ومصير المقاومة. يروي لنا «هاني الحسن» هذه الاحداث الدقيقة بشكل آخر! وعن هذا الحدث بالذات والذي أثر اكبر الاثر في نفسية المقاتلين!

ويقول «هاني الحسن» بالحرف الواحد ـ وقد أخبرني انه يقول ما يقول تصحيحا للأقوال المشاعة واحقاقاً للحق! .

يقول: جرى القتال الى ان أُسر «ابو إياد» وابو اللطف وابراهيم بكر والعقيد سمير الخطيب. عندما أُسر «ابو إياد» نقل الى القصر. واستطاع الملك ان يوهمه ان الامور كلها قد انتهت وان الجميع قد استسلموا. فظهر على التلفزيون الاردني والقى خطابا مهما.

وهذا الخطاب، في ذلك الوقت لعب دوراً خطيراً اضطر القيادة لاصدار قرار بتجميد كل من وقع في الأسر. واصدرت القيادة العسكرية قرارا بالاستمرار في الدفاع عن الثورة ولكن لا شك ان هذا اثّر تأثيرا كبيرا على الوضع العسكري لمدة يومين او ثلاثة.

واذا اطلعت على الكتاب السنوي لعام ١٩٧١ ستجدين الخطاب كاملا فيه ويوجد ايضا في الاذاعة الاردنية كاملا بصوته، وكما تلاحظين فان ابو اياد كان يرغب ان يبدو كمنقذ وان يظهر ان الامور عندما تدخل هو.. انقذها!

وهنا يجب ان اكتفي بكلام «هاني الحسن» عند هذه النقطة لاعود اليه بعد ذلك.. وقد هالني ما يقول.. وهذا التناقض في الرواية من قطبي الرواية التاريخية التي عاشوها على ارض الاردن.

ونعود الى استكمال الاحداث.

وكان مؤتمر القمة في القاهرة قد أرسل وفدا ليقوم بمساعي المصالحة ويضع حدا للمعارك الدائرة بين الطرفين برئاسة الرئيس السوداني السابق «جعفر النميري» واصطحب هذا الوفد السجناء الثلاثة معه الى القاهرة. ويقول «ابو إياد» ان الرئيس ـ النميري ـ اطلعه في الطائرة فقط على البيان الذي القاه من اذاعة الاردن لوقف اطلاق النار ونسبه اليه والى رفاقه! .

ويروي «ابو إياد» انه ثار لذلك والقى نص البيان ارضا وهو يعلن استنكاره! ويتم هذه النقطة بأن قيادة «فتح» كانت قد اصدرت بيانا تنفي فيه الموافقة على هذا البيان لأن من شاركوا فيه كانوا سجناء وليسوا هم في وضع يمكنهم من ممارسة ارادتهم بحرية!

ونسير مع الاحداث فنجد «ابو إياد».. في حضرة «جمال عبد الناصر» يستمع الى اعتذاراته وتبريراته لابطائه في التدخل لمدة خمسة ايام لوضع حد للمعارك. ولكن كان المطلب الاول لابو إياد هو سرعة التحرك لاخراج «ياسر عرفات» من عمّان لأن الملك لن يوقف

المعارك طالما ان رئيس المنظمة في الاردن. ويقترح عودة نميري الى عمّان لاخراج «عرفات».

وذهب الوفد الى عمّان مرة اخرى وكان من بين افراده الفريق محمد صادق الذي كان كل هدفه اخراج «عرفات» سالما حتى يتمكن من حضور مؤتمر القمة الذي دعا اليه الرئيس عبد الناصر، وهو ما كشف النقاب عنه الفريق محمد صادق شخصيا في مقابلاته مع مجلة الوطن العربي.

وكان خروج عرفات من عمّان مغامرة خطرة اعتمد فيها «عرفات» على الحظ الذي أعمى بصيرة القوات والحراس والمخابرات عن هذا الذي يلبس البدوي ويسير باتجاه السفارة المصرية.. ليغادرها بسرعة الى الطائرة التي اقلته الى القاهرة. [وقد لبس ملابس كويتية باعتباره احد المرافقين مع الشيخ سعد العبدالله الذي أصر ان يصاحب ابو عمار] ورغم ان الاجهزة كلها كانت قد التقطت المكالمة التي دارت بين السفارة وبين مخبأ عرفات والتي تحدد موعد وصول وطريقة وصول رئيس المنظمة الى السفارة. وبخدعة بسيطة جرت في التوقيت وصل الرئيس الى السفارة.. تحت الأسنة المشرعة!!.

وأدى ظهور «ياسر عرفات» في مؤتمر القاهرة الى اسراع ملك الاردن الى المؤتمر الذي كان يماطل من قبل في حضوره.. ليتفق مع «ياسر عرفات» على وقف اطلاق النار بين الطرفين المتقاتلين في عمّان ويشرف على ذلك ضباط عرب ارسلوا الى الميدان.

ودفع «جمال عبد الناصر» حياته ثمنا لهذا الجهد العصبي والنفسي الذي كان يعيش فيه منذ ان انفجر القتال بين الاردنيين والفلسطينيين والذي دعا من اجله مؤتمر القمة هذا.

وربما كان ما يجري قمة التوتر والضيق والألم في نفسية الرجل الذي كان ينزف منذ ثلاث سنوات.. منذ ان حلت به هزيمة ٦٧... فلم يحتمل ذهنه المتقد بالوطنية.. ولا قلبه النابض بالعروبة مزيدا من الهزائم على الجبهة الداخلية التي كانت ما تزال ترزح تحت ثقل الهزيمة المروعة التي اوقعها بها العدو.

وخمدت انفاس «عبد الناصر» في آخر يوم من الاجتماعات التي استنزفته تماما والتي وضع في آخرها اتفاق وقف اطلاق النار. وكان الرجل بذلك خطا خطوة نحو إراحة ضميره المعذب منذ ثلاث سنوات!

وسجل «ابو اياد» كلمة للحق وللتاريخ وهو انه على ثقة من ان الملك حسين ما كان ليجرؤ على انجاز مشروعه الدامي بتصفية الفدائيين في الاردن لو ان «عبد الناصر» بقيّ حيا.. بحيث ان مجازر جرش وعجلون التي تشكل نهاية استراتيجية كانت ستصبح مستحيلة.

وباعتراف.. وصفي التل.. الذي عين رئيسا للوزراء وحاكما عسكريا للاردن في ٢٨

اكتوبر وبعد توقيع الملك على اتفاق في ١٣ من الشهر نفسه مع منظمة التحرير لابي اياد، ان الملك لم يكن ينـوي حين وقـع الاتفـاق تطبيقـه! . . فقد كانت شروط الاتفاق تبقى للفلسطينيين حرية عمل واسعة كما كانت تسمح للمسلحين البقاء في المدن. وكان الشرط الـذي لا يكاد ان يحتمله الملك هو ذلك البند الذي يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني. اذ ان احد اهداف حرب ايلول كما يقول «ابو اياد» كان بالضبط اعادة حق التفاوض على مستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة وغزة الى العرش الهاشمي!

وتظاهر «وصفي التل» بانه لا يريد الا توفير انطلاقة جديدة للحركة الفدائية في حين انه كان يقيم بجوار كل مركز للمقاومة مركزا للجيش الاردني!

وفي بداية عام ٧١ في شهر يناير بدأت الحوادث والمصادمات وتبادل اطلاق النار تندلع بكثرة. وقال «وصفي التل» بانه لا يسمح بهذا الوضع المتردي الذي تسببه حركة لا تستطيع فرض الانضباط في صفوفها.

وسيرتفع السؤال امام اذهاننا. . لماذا لم تستطع الحركة فرض الانضباط بين صفوفها ومن المسؤول عن ذلك؟

وطلب رئيس الحكومة مغادرة الفدائيين لكافة مدن المملكة ونزع السلاح. واكد على ضرورة ان تتجمع قوات المقاومة في جرش وعجلون حيث تستطيع مقاتلة العدو بصورة افضل.

ويقول «ابو اياد» بالحرف: وافق ممثلونا في نهاية شهر يناير على عقد اتفاق ينص على تسليم السلاح ظانين ان في وسعهم مغافلة السلطات وافراغ الاتفاق! . . ويقول كنت مقتنعا باننا ارتكبنا خطأ فادحا سوف يكلفنا ثمنا باهظا. . وقد صوبت الاحداث لسوء الحظ. . . رأيي!

وبدأ - وصفي التل باصدار قانون يوقع عقوبة الاعدام على كل شخص يحمل سلاحا ناريا. وبدأ الجيش تفتيش الاحياء منزلا منزلا ويكشف مخابىء السلاح بسهولة. وظهر ان قوات الامن كانت على اطـلاع بكـل الخـطط السرية ويقـول «ابو اياد» رأيا في التطرف سنحتاجه ايضا فيها بعد. . . اذ يقول وقد اتاحت لنا التحقيقات التي قمنا بها لاحقا ان نكتشف عددا من عملائهم الذين كانوا يبدون في الغالب مناضلين متعصبين من انصار التطرف. . الامر الذي عزز قناعتي بان دعاة التطرف لا يمكن ان يكونوا الا اغبياء او خونة!

ويقول انه مع اتضاح معالم المؤامرة طلب مقابلة الملك. . ولم يراع في مقابلته هذه اصول اللياقة ولا المجاملة. ولكن في الشهرين التاليين تكاثفت الازمة وبدت ساعة المواجهة القصـوى - كما يقول «ابو اياد» - فدعا الى اجتماع عام في الخامس عشر من ايار في مخيم

اللاجئين بالوحدات في عمان .

ووصف واطال في هذه الحادثة وعن الخطبة التي القاها في الحشود التي احتشدت رغم حصار قوات الجيش الاردني التي وجه اليها «ابو اياد» الخطاب ولامها على توجيه الاسلحة الى العزل من النساء والاطفال والشيوخ مما اخجلهم وجعلهم يديرون فوهات اسلحتهم عن الجمهور .

ونـدد في الخـطبة بازدواجية الملك ورئيس وزرائه وقد اخلفا وعودهما بان يبقيا على الفدائيين المحتشدين في جرش وعجلون ولكنه يشعر بنذر المجزرة .

ولا يذكر هنا «ابو اياد» اي تفصيل عن موضوع تجمع الفدائيين في جرش وعجلون انما يقول في مرور سريع بهذه النقطة . .«بعد شهرين اي في ١٥ يوليو انه ذهب الى مدينة مرسى مطروح في مصر حيث كان يجتمع الرئيس السادات والرئيس الليبي معمر القذافي ومحمود الايوبي رئيس وزراء سوريا وعضو من مجلس الثورة السوداني ليطلب منهم التدخل على عجل لوقف المجازر التي بدأ الجيش الاردني بتنفيذها منذ يومين في جرش وعجلون» .

ويقـول . .«بعد يومين استنفذت الجريمة ولم يبق في وسع احد ان يفعل اي شيء للثلاثة آلاف فدائي من القتلى والجرحى والموقوفين او الهاربين! وفي ١٨ يوليو تموز اعلن وزير الاعـلام الاردني عدنـان ابو عودة على الصحفيين بان اتفاقية ١٣ تشرين اول بين الملك والمقاومة باتت لاغية . . . . وقلبت صفحة من تاريخنا بصورة نهائية!» .

وهكذا قلب القائد «ابو اياد» الصفحة التي شهدت اقسى وأمر الفصول من المأساة الفلسطينية الطويلة الجرح والنزف .

وقبل ان يختتم هذا الفصل الدامي في كتابه يقول : «لم يبق لنا الا ان نعلن افلاسنا وان نعرض بيان ادارتنا وان نخطط للمستقبل على ضوء الدروس التي استخلصناها من التجربة» .

وكان مؤتمر «فتح» الذي انعقد في تشرين الاول اكتوبر ٧١ احد اهم المؤتمرات التي شهدتها المنظمة ابان وجودها كله . . وجاء التعطش للانتقام نتيجة طبيعية لليأس وخيبة امل المناضلين . . وقد اصبحت كلمة القائد الفدائي «ابو علي اياد» التي قالها قبل ان يدمر جهاز الارسال الموجه الى القيادة والتي قال فيها : «نموت واقفين ولا نركع» . . دستورا بين شباب فتح كلهم . واصبحوا حريصين على ممارسة عنف ثوري من نوع جديد . فكانوا لا يريدون مهـاجمـة العـدو الصهيوني فحسب . . وانـما القتلة والخونة العرب الذين جعلوا انفسهم مساعدي اسرائيلي .

● وهكذا نزف القائد الثوري «ابو اياد» ذكرياته التي كانت ولا شك ـ ورغم كل شيء ـ قد شكلت جرحا داميا في وجدانه الحي . وان كان قد طمس بعض التفاصيل والتي كانت ولا شك تشكـل بروز الخطأ القاتل الذي أدى الى هذه النهاية المأساوية . . الا اني اقول

وبضمير المحايد انه في وسط تكاثف الظلمة قلما تتضح معالم الطريق الصحيح . . . وقلما يستطيع المرء تبين مواطىء قدميه . وكثيرا ما يظن انه يضع قدمه على خيط من نور . . فاذا به جذوة من نار في لهيب الثورة المشتعل!!

اقول هذا وانا اسرد حديث «هاني الحسن» عن احداث ايلول والذي يعطي صورة اخرى للوضع كان يمكن ان تؤدي به الى نتيجة افضل او على الاقل . . اقل خسارة من حجم الخسارة التي وقعت .

يبدأ «هاني الحسن» حديثه بتساؤل ضخم يرى ان المؤرخ لهذه الاحداث يجب ان يتوقف امامه . . وهو: لماذا استمر القتال والحرب الاهلية في الاردن من ايلول ٧٠ الى يوليو ٧١ اي حوالي سنةفقط . . بينما الحرب في لبنان احتاجت الى حوالى ثمان سنوات لاخراج الفلسطينيين . . رغم ان في الاردن شعبا كان لا يريدنا ان نخرج ويعتبرنا اهل الارض بينما في لبنان الشعب لا يعتبرنا اصحاب الارض؟!

ورغم ان الجو الثوري ونحن في الاردن كان متصاعدا من حولنا . . فقد كان «عبد الناصر» في مصر وهناك الجبهة المصرية المجابهة لاسرائيل اي ان الوضع الثوري ونحن في الاردن كان في نهوض . . بينما في لبنان لم تتوفر مثل هذه الامور؟

ويضيف . . اذكر مرة انني كنت في السيارة مع «ياسر عرفات» متوجهين الى شتورة بعد ان تمكنا من صد الهجوم السوري الاول عام ٧٦ وتوصلنا الى اتفاق شتورة ولقد كانت عملية هائلة عملية ٧٦ . . . قال «ياسر عرفات» يومها . . لو اننا تركنا في الاردن نتصرف كما تركنا هنا نتصرف . . . لما خرجنا من الاردن!

طبعا خروجنا من الاردن بهذه السرعة لم يكن بالصدفة . وليس فقط بسبب الهجمة الشرسة التي يحاول دائما رجال المنظمات اليسرويون ـ وليس اليساريون ـ ان يتذرعوا بها!

فعندما ندرس مشكلة ايلول فسنجد عديدا من الاخطاء ادى الى اكتمال المأساة .

سنجد اولا ان هناك كان انشقاق في الجبهة الشعبية . انشقاق ادى الى صراعات في الشوارع والى ان يقتلوا بعضهم بعضا .

وقد حدث قبل ايلول باسابيع قليلة ان قامت قوات الجبهة الشعبية بقصف اماكن تجمعات للجبهة في وسط مخيم الحسين بمدافع الهاون! . . وفي نفس الوقت وقع جورج حبش ضحية مخطط ذكي وضعته المخابرات الاردنية لم يتكشفه هو وقتها .

فقد أرسل اليه «عطا الله غاصب» قائد اللواء الاربعين الذي اخبره انه اذا وقعت قلاقل في عمان فسيتدخل هو ليقمعها كما هو مفروض . فاتفق معه على ان تحدث قلاقل بالفعل في عمان ليأتي هو وبدل ان يقوم بالقمع . . ينضم للمقاومة!

ولم يبلغ جورج حبش احدا بهذا الاتفاق! وقد حدث اجتماع قرب دمشق في بلد

اسمها القابون ـ كما عرفنا بعد ذلك ـ جرى فيه دراسة الوضع .

واتفقوا جميعا ان يخفوا الموضوع عن «فتح» وعن القيادة لانهم ارادوا ان يأخذوا السلطة من «فتح» . . ومن يد «ياسر عرفات» . وقد يبدو هذا ليس مهما . . انما المهم انهم وقعوا في فخ المخابرات الاردنية . وبدأوا بالفعل بخلق مشاكل في المدينة . وبدأوا في الشوارع بالاعتداء على الجنود من اجل ان يعطوا المبرر لقوات اللواء الاربعين ان يأتي المدينة ليحتلها!

ونعرف ان الجيش الاردني جيش قبلي مؤلف من العشائر . . فاذا قتل او جرح جندي من جنوب الاردن من الطفيلة مثلا . . تصبح كل قرية الطفيلة ضدك . . لان الجيش الاردني في بنيته من البدو ومن الفلاحين لان غالبيته من الاردنيين والاردنيون يسكنون اما في البادية اوفي الريف . نسبة الاردنيين في المدن عام ٧٠ كانت قليلة جدا من حيث الوجود .

وقد بدأت الاعتداءات منذ شهر نيسان حتى شهر ايلول وخلال خمسة شهور كانت البادية وكل الريف اصبحا ضدنا لاننا نعتدي على ابنائهم . والحقيقة لم يكن هناك اعتداء من الثورة الفلسطينية . . بل كانت هناك خطة تنفذها الجبهة الشعبية لاستدراج اللواء الاربعين للدخول الى المدينة!

واذكر انه ضمن الاضطرابات انهم كانوا يحرقون سيارات القمامة التي تنظف الشوارع . . واني ذهبت الى مخيم الوحدات والقيت خطابا بان الثورة ليست ضد النظافة ولماذا نحرق عربات القمامة . . وهل هذا هو الهدف المطلوب تدميره؟ كنا نستغرب هذا الموقف . لذلك عندما بدأت احداث ايلول ذهب جورج حبش الى كوريا ثم عاد اثناء الاحداث ظنا منه ان اللواء الاربعين سيتدخل . . ففوجىء بان اللواء الاربعين على الحدود السورية مشتبك مع السوريين . وقد جرح عبد الله غاصب اثناء تصديه للقوات السورية التي كانت تهدف الى مساعدتنا في اربد!

والسؤال هنا . . لماذا لم يجر قمع الجبهة الشعبية؟ . . سيسجل التاريخ ان فقدان الانضباط الفلسطيني في السيطرة على الامور في عام السبعين كان مسؤولا عن انجاح المخطط المضاد لنا .

قلت : لمن هذا السؤال : قال محدثي . . بدأت اولى المشاكل في حركة «فتح» حينما اخذ فريق يحاول تمرير افكار داخل «فتح» . . فيستعينون بالتحالف مع المنظمات اليسارية الفلسطينية والاخرى التي لها علاقات مع بعض الدول العربية من اجل فرض آرائهم داخل «فتح» محتمين بموضوع الوحدة الوطنية .

**وصحيح انني ضد الاقتتال الفلسطيني ولا يمكن ان اقبل بحرب اهلية فلسطينية ولكن هذا لا يعني بأي صورة من الصور اننا اذا كنا على ظهر باخرة واتى من يريد ان يحفر في مكانه ثقبا في الباخرة ان لا نقمعه بحجة رفض الاقتتال الفلسطيني!**

ولم يسعني الا ان امضغ المرارة التي احسها ولانني طرحت نفس الرأي من قبل وكان لي نفس الرؤية.

واستأنف محدثي كلامه.. الذي حدث ان البعض بشكل اساسي كما هو دائما في كل العمل - وحتى في لبنان ايضا - يرفض ممارسة عملية فرض الانضباط على المنظمات حتى عندما ترتكب اخطاء تفقدنا الوحدة الشعبية. فالوحدة عنده مع الجبهة الشعبية والمنظمات اليسروية اهم من رأي عام شعبي على الارض لانها حليفته.!

ولذلك مر هذا المخطط. مثلا كان ينزل رجل منهم ليأخذ رواتب الجيش في آخر الشهر. جزء من رواتب الجيش تكون في سيارة عسكرية ذاهبة الى منطقة. فيعتقل الرجل ويعيد المال ولكنه كان لا يعاقب. ثم يبتسم «هاني» على مرارة ويقول هذا الرجل كان اسمه المصيبة. وثبت لاحقا انه كان مدسوسا على المنظمات. وكان هناك رجل آخر مثلا في مخيم البقعة يقف يلقي خطابا في كل يوم يشتم فيه الملكة ويتطاول عليها بالالفاظ النابية مع ان شعبنا الفلسطيني لا يقبل الهجوم على النساء حتى ولو كانوا نساء الاعداء. نحن بدو فلاحون لا نقبل هذا الاسلوب ولو ضد الاعداء. فكان حين يسمع البدو الاردنيون هذا يتكلمون ضدنا لان مخيم البقعة هو مدخل القرى الاردنية في صوف وفي جبال جرش وهذا الرجل كان مدسوسا بالطبع من الجبهة الشعبية واسمه - ابو الرائد - وبعد ذلك ثبت انه ضابط في المخابرات الاردنية! فلماذا لم يتخذ ضده الأمن الفلسطيني اي اجراء؟..

عندما نتكلم للاجيال القادمة نتكلم فيما قصّرنا لا نقتصر على ذكر الاحداث فقط. هنا لا بد ان نسأل: من المسؤول؟... من الذي لم يحل دون ذلك؟ كل منا كان يعلم ان الاعتداء العشوائي على الجيش الاردني يجعل الجيش بيد النظام وقوة النظام اذا تكتل الجيش حوله. فكيف اذا تكتل الجيش وانقسم المجتمع الى فلسطينيين مع الثورة واردنيين مع النظام. خاصة والاردنيون يعيشون في القرى والريف وفي البادية وبالتالي تصبح المدن محاصرة. وعلم حرب الشعب تقول ان علينا ان نسيطر على الريف قبل الاستيلاء على المدن. المدينة اذا حوصرت لا يطول حصارها. لذلك نحن دائما في اي عملية يجب ان نستولي على ما يحيط بالمدينة لكي نكسب المعركة داخل المدينة.. وهذا امر معروف ومكتوب.. ويدرّس في «فتح».

وما كان يحدث ضد هذه البديهيات. فمثلا عندما اتت الذكرى المئوية للينين.. قامت الجبهة الديمقراطية برفع العلم الشيوعي على مسجد مدينة السلط... فرض اجراء احتفال لمدة اسبوعين للذكرى المئوية للينين!.. وقد كان النظام ذكيا عندما ترك هذا العرض يجري على التلفزيون.. وعندما ذهب الجميع يحتجون قال لهم الملك: ماذا افعل مادام الفدائيون مسيطرون على الاذاعة والتلفزيون؟

وقتهـا ناقشنا موضوع خطورة هذا العمل واستفزاز مشاعر الناس خاصة ونحن في وسطهم . . ناقشنا في تنظيم «فتح» ولكننا وجدنا ان اتخاذ اي اجراء مضاد لهؤلاء الناس يعني عدم وحدة «فتح» . وهنا تدخلت مستفسرة . . هل معنى هذا ان الامر كله كان بيد قائد واحد وحده؟ . .هل كان الوحيد الذي يستطيع ان يكبح جماح المتمردين؟ ويرد «هاني الحسن» بدون شك «ياسر عرفات» ايضا كان يستطيع ان يكبح لكن كان اذا فعل ذلك فسيؤدي به الامر الى مشكلة داخل «فتح» . .

فهنـاك مسؤول عن الامن ومعارض على الارض . . واعضاء في القيادة معارضون وحـين نتـدخـل نحن تأتي التصاريح بانباء اننا نريد ان نصفي القوى التقدمية في الثورة الفلسـطينية . . في رأيي ان هذا كان خطأ كبيرا فقد كان يجب ان ننقذ الوضع لان انقاذ الوضع لا يقل اهمية عن الوحدة الوطنية .

ومن الاشياء القاتلة انه كانت تأتينا التقارير من الميليشيات انها تحتاج الى وقت لتتمكن من المجابهة مع النظام . . وهذا طبعا من اجل ادخال السلاح وعمل الترتيبات اللازمة . ورغم هذا أعلن عن لسان «ابو اياد» العصيان المدني في يوم الخميس ٩ ايلول على ما اظن . لذلك قدم النظام المجابهة كي لا يأتي يوم العصيان المدني . . ورغم كل هذا لم يكن هناك الاستعداد الكافي!

كان هناك خطة للاستيلاء على رئاسة الاركان الاردنية . وهذه الخطة كلف بها جهاز الامن . لان قيادة الامن الاردني في داخل قيادة الاركان كانت مؤلفة من اربعة اشخاص . رئيس الاستخبارات وهو محمد البشير وثلاثة آخرين من الفلسطينيين .

فاشترطوا انه قبل اربع وعشرين ساعة من اعلان حالة الطوارىء هم على استعداد لادخـال مسلحـين الى داخل رئاسة الاركان والى تعبئة حائط معين بالديناميت من اجل استخدامه عند الضرورة .

وجرى التصعيد بناء على هذه الخطة . . . لكن عندما بدأت الخطة فاذا بجهاز الامن يقول انه لم يستطيع تنفيذ او انجاز المهمة بعد ان انفجر القتال . هنا التقصير!

ثم بعد ذلك جرى القتال الى ان اسر «ابو اياد» وابو اللطف وابراهيم بكر . . وجرى ما جرى .

واستمرت سلسلة الخطأ الى ان قادتنا الى الكارثة النهائية سنة ٧١ . اذ بعد ان توقف القتال في ايلول ٧٠ . . . جاء قتال مايو ٧١ . كان «ابو اياد» في عمان بينما كان «ياسر عرفات» و «ابو جهاد» في الاحراش حيث احاطت القوات الملكية بالاحراش تريد القضاء على «ياسر عرفات» اولا اعتقادا منهم ان نهايته تنهي المقاومة . فكان علينا اولا اخراج «ياسر عرفات» من هذا الحصار .

ولاخـراج «ياسر عرفـات» من الاحـراش قصـة طويلة احكيهـا لترى كيف رتبتها لاخراجه سليما. كان قد استقر في الاحراش وابتدأوا يقتربون منه حتى اوشكوا بالفعل ان يطبقوا عليه!

كان ينتقل من مغارة الى مغارة . . لقيته في احدى المغارات وكانت ذقنه قد استرسل شعرها وكأنه من سكان الكهوف!

كم كانت ايامـا عصيبـة قاسية . . . حتى اقسى من حصار بيروت! . . في حصار بيروت لم نكن مثل الفئران نقفز من مغارة الى مغارة!

وتتلون ملامـح محدثي بالالم ويتوقف لحظات ثم يواصل حديثه . . ذهبت للملك واخبرته ان «ابو عمار» سيأتي ونتفاهم لانهاء المواضيع كلها كما يريد . ولكني اشترطت ان يخرج «ابو عمار» بسيارة السفير السعودي محتميا بالجيش الاردني حتى اضمن الا يقتل في الطريق . وكنت قد اتصلت بملك السعودية الملك «فيصل» واتفقنا على ذلك . وكان الكحيمي هو سفير السعودية في الاردن في ذلك الوقت.

فصعدنا الى المغر واقنعناه بالخروج معنا ووضعناه في السيارة بيننا، لان الملك كان يعتقد انه سيأتيه مستسلما . . وكان هذا يُعد نصرا في حد ذاته .

وعندما خرجنا ووصلنا الى منطقة جرش حيث الذهاب الى اليمين يعني الذهاب الى عمان . . والى اليسار يعني الذهاب باتجاه دمشق!

وكنت اجلس بجانب السفير وهو على عجلة القيادة . فطلبت منه ان يتوجه الى اليسار فرفض وقال انه يجب ان يذهب براكبه الى طريق عمان . فنهرته وقلت له ان اوامر الملك ان تنفذ ما اقول انا . فاضطر الى الاتجاه نحو اليسار وهو يتساءل لكن لماذا اذهب في هذا الاتجاه؟ . . قلت له لان هناك من يقصف من سوريا على الاردن . . ولا يجوز ان يذهب «ابو عمار» الى الملك في عمان الا بعد ايقاف القصف.

ويضحك محدثي وهو يتذكر . . . والى اليوم حين نتقابل انا والسفير هنا او هناك يبدأ في الضحك من عند الباب لانه اكتشف كم كان غافلا عندما ظن ان القصة حقيقية . وبعد ذلك اكتشف ان القصد كان فقط هو انقاذ «ياسر عرفات» . فالسفير بنفسه كان يقود السيارة وهذا كان الشرط ان تأتي السيارة عليها العلم السعودي ويقودها السفير حتى تضمن سلامة ابو عمار. وكنت قد اتصلت بالملك «فيصل» ورتبت معه الموضوع . . الملك فيصل . . كان يعلم بالخطة . . قلت له «عرفات» في خطر فأرجو منك اعطائي الصلاحيات لاصطحاب السفير بالسيارة لانقاذه . . فوافق.

بعد ذلك وصلنا الى الرمثة حيث وصلت سيارة خاصة لـ «ابو عمار» نقلته الى درعا . وبقينا ننتظره اربع ساعات ليعود . . بعد ان يكون قد قام بمفاوضات لوقف اطلاق النار.

وطبعـا كنت اعلم انه لن يعود. وهذه كانت الخطة. طبعا اضطررنا للتوقف لاننا ما كنا نستطيع الدخول الى سوريا لانه كانت هناك حرب لذلك وصلنا الى الحدود الاردنية وتوقفنا ودخل هو الى الاراضي السورية.

وبعـد انتظار اربع ساعات اجريت محادثة تليفونية ثم اخبرت رفاقي انه سيعود في المساء! وفعلا عدنا مرة اخرى في المساء لاحضاره وذلك لعدم اظهار الخطة!

ولا انسى كيف كدنا ان نموت عندما انفجرت بنا الالغام التي كان قد وضعها ابو جهاد ولم يكن يعلم اننا سنمر في تلك اللحظة. وبعد الانفجار مات جنود اردنيون فقفزنا نزحف.. وقـد زحفت انـا كدود الارض لاختبىء والغـريب ان سيارة اخـرى كانت تمر وأصيب فيها شقيق سائق سيارتنا نحن فرجع وسلط علينا الرشاش يريد قلتنا. رغم كل هذا فقد اصروا على ان تكمل الطريق الى ان وصلنا الى الحدود الاردنية.. ولكن عودتنا كانت عن طريق الزرقاء.. ونجونا بعد ان شاهدنا من امامنا في السيارة يتطاير بالانفجار.. المهم في هذا كله.. لم يعد «ياسر عرفات»!

ولم اتمالك نفسي الا ان اسأله: وكيف واجهت انت الموقف؟ اجاب «هاني»... قلت انه رفض الحضور!

وكان بعد ان اطمأنينا على خروج «ياسر عرفات» تصلبنا في تفسير كل التعهدات التي كان«ابوعمار»قد اعطاها. فقد كان لا بد من اعطاء تعهدات بنزع السلاح من اجل اخراجه لان السلاح كان لا يزال موجودا في عمان لان المفروض ان «ابو عمار» كان سيأتي الى الملك ليتفاوض على امور منها اخراج السلاح من عمان. فاخرجنا «ابو عمار» حتى يبقى القرار في الخارج.

بعد رجوعي الى عمان.. كان اعلى مرتبة فيها هو «ابو اياد».. فذهبنا في يوم الى بيت منيب المصري.. واتى ـ وصفي التل ـ وبدأ «ابو اياد» يهاجمه يا سفاح.. يا قاتل.. الا ان وصفي التـل ذلك الداهية الصبور لم ينبس ببنت شفة. وعندما انتهى «ابو اياد» من هجومه. قال وصفي التل: دعنا ننفذ ما اتفقت انت والملك عليه وهو اخراج السلاح من عمان. قال له «ابو اياد متحمسا».. نعم نحن سنخرج السلاح من عمان لاننا اناس شرفاء ولا نريد قتل الشعب!

فقلت له لماذا تقول ذلك الكلام؟ وكيف نخرج من عمان؟... واذا خرجنا فلماذا نخرج الى جرش.. اذا خرجنا فلنخرج الى اربد حيث نضع قواتنا فنتصل بالحدود السورية. وكثيرا من القوات كان قد خرج الى سوريا.. حوالى خمسة آلاف مقاتل.. فاذا كان لنا خط تموين نستطيع ان ندافع. وكان هذا امراً بديهياً. فماذا يعود علينا من تجميع القوات وعزلها في جرش؟!

وكنت انا عضو مجلس ثوري . . وهو عضو لجنة مركزية . . فقال ردا على كلامي : هذا قراري . . وانت لست صاحب القرار . . انا صاحب القرار! و «ابو عمار» ابلغ الملك عبرك باننا سنسوي الامور ونحلها واتفق على ذلك .
قلت له . . قلنا ذلك لنخرج «ابو عمار» . . بدليل ان «ابو عمار» لم يأت . . لو انه اراد الاتفاق لذهب الى القصر . . واخبرته كيف رتب ذلك مع الملك فيصل . لو كان «عرفات» يريد نزع السلاح لكان ذهب هو وتفاوض . «ياسر عرفات» لا يقبل قرارا ليس هو صانعه ولا يقبل حلا ليس هو الذي وقّع عليه طيلة حياته . . حتى لو كان الموضوع ناضجا . . يجب ان ينهيه هو.

وقال ابو اياد، لقد اتفقت مع الملك ان يدخل الجيش صوريا فيفتش ثم يخرج من عمان ولذلك انا اخبرت الشباب ان يخبئوا كثيرا من السلاح! فقلت له يا «ابو اياد» لا يوجد جيش في التاريخ يدخل عاصمته ويخرج منها. الجيش الذي لا يدخل الى عاصمته او يخرج منها نظام ساقط. ولذلك لن تكون المعركة حول اربد . . المعركة حول عمان العاصمة . وصحيح اننا نعاني ولكن اذا اردنا ان نحل فلنأخذ ثمنا باهظا واول هذا الثمن ان لا نذهب الى جبال جرش التي هي في وسط الاردن. يجب ان نذهب الى جبال سال القريبة من اربد المتصلة بالحدود السورية بحيث يبقى لنا خط امداد وبالتالي نضمن الوجود.
وفعلا ما حدث بعد ذلك ان جبال جرش اصبحت مطوقة . . فسقطت عسكريا! اي اننا خرجنا من المدن . . من العاصمة حيث النظام مضطر ان يحسب لان قتل المدنيين يثير الرأي العام . . الى منطقة جبلية لا يسمع احد في العالم صدى الصدام بها . . . واخذ هو على عاتقه هذه العملية رغم معارضة «ابو عمار» و «ابوجهاد» الشديدة . . وهناك دارت المذبحة!

ووضعت الخطة . . وجلسنا جميعا ننتظر التنفيذ. فدخل الجيش في البداية الى الهاشمي الشمالي ثم فتش المنطقة . . ولم يخرج منها ولا من بقية عمان .
ثم اضاف هاني . . حين نقرأ كتاب «ابو اياد» نجده دائما يقول اخطأنا! . . من الذي اخطأ؟ . . الصواب لا يظهر الا اذا جُسّد بالمصيب والخطأ لا يظهر الا اذا جُسّد بالمخطىء . لا يمكن ان نقول هنا ان الشعب الفلسطيني اخطأ . . . لا يمكن ان نقول ان حركة «فتح» اخطأت! صحيح ان حركة «فتح» مارست خطأ . . . ولكن من اتخذ قرار هذا الخطأ الذي دفع ثمنه كل فرد في «فتح»؟ . هو لا يروي كل هذه التفاصيل! .
ويضحك «هاني الحسن» رغبة منه في تخفيف هذا الجو المشحون الذي يلفنا . . حين اهدده اقول له سأكتب ردا على كتابك باسم «فلسطيني بهوية»! ويستمر في كلامه . . نحن الجيل الذي قاتل ليس لدينا عقد! فنحن نواجه كل شيء .

مثلا (احد ابطال المحررين) حين وصل الى عمان بعد ان قضى في السجن اثني عشرة سنة حدثت ضجة كبيرة. بطل عائد. وهو حقيقي بطل. لكن حين كان يسأل ويناقش لماذا لا توجد خلايا؟ مثلا استطيع ان ارد عليه انا نحن لا نشتغل بأسلوب الخلايا وبكل صراحة قد لا يقبلها من اي انسان عادي. وقد لا يسكت. وحين قابلته قلت له لا تتكلم معي هكـذا.. كانت قدم «ياسر عرفـات» على قدمك حين أسرت.. انت حملت مرة واحدة ودخلت ونحن قضينـا سنـوات ونحن نحمـل على ظهـورنـا. انت وقعت في الاسر الاسرائيلي... نحن واقعـون في الاسر العربي. كنت تتألم على المجابهات التي تحدث في الخارج.. ونحن كنا وقودا للمجابهات.

وأمـام نظرة التـأثـر في عينيّ قال محدثي.. انـا عنـدي جرح مكان رصاصة وسام اخذته.. ولكني لست الوحيد الذي يملك هذا الوسام. انه شرف هذا الشعب. الحاملون اوسمـة في معارك حربية.. كثُرٌ آلاف مؤلفة.. ولكن ما من احد يستطيع ان يأخذ مني حقي.. فانا مالك هذا الوسام. ولا استطيع ان ادعي انني الوحيد أو أنا المتميز لان الآلاف مثلي.. وافضل منا جميعا الذي استشهد.

«ياسر عرفات» ليس لديه عقدة نزع سلاح ولا عقدة خروج من معركة لذلك حين كان يتكلم في معركة بيروت لا يتكلم من موقع المزايد.

ودائما العدو يفتش على من عنده خلل داخلي. لذلك نجد دائما ان تسعين بالمائة من المتطرفين عندهم نقاط سوداء بحياتهم لا يستطيعون تغطيتها! ومن المؤكد من لم يكن مقاتلا لا يستطيع ان يقيّم العمل العسكري.

اعـظم الاسـتراتيجيين السياسيين في العالم من كانوا ضباطاً غير عاديين ثم امتهنوا السياسـة. مثـلا ديجـول.. ما هي ألمعية ديجول؟ وما هي ألمعية ايزنهاور وستالين؟ حتى كندي، كل العظام في العالم اتوا من المقاتل.. لان المقاتل فقط يعرف كيف عانى من اجل النصر لذلك يعرف كم هو غال ان يخسر ما كسبه.. بينما من لم يتعب في شيء لا يعرف لا معنى بقائه.. ولا معنى ذهابه!

بهذا انهى «هاني الحسن» حديثه عن احداث الاردن.. لكن.. وبعد كل ما قال «هاني» قلت له: هذا الكلام يتناقض مع كلام «ابو اياد»! فقال بانفعال... ليس المطلوب ان نتناقض مع هذا القائد او ذاك. علينا اذا كنا نكتب للأجيال ان نظهر حقيقة ما جرى لتتعلم الاجيال. ومن هنا يكون تزوير الحقيقة او اللجوء الى العموميات لا يفيد. ولا يجوز لانسان ان يدعي العصمة. وعدم ادعاء العصمة يكون حين يقول الانسان انا اخطأت.

ولو اردنا نحن ان نبحث عن وصف لنهاية لهذا الفصل الذي كشفنا فيه عن اسرار احداث الاردن لن نجد اصدق ولا اوجع من كلمات القائد «ابو اياد» حين يقول: «دقت

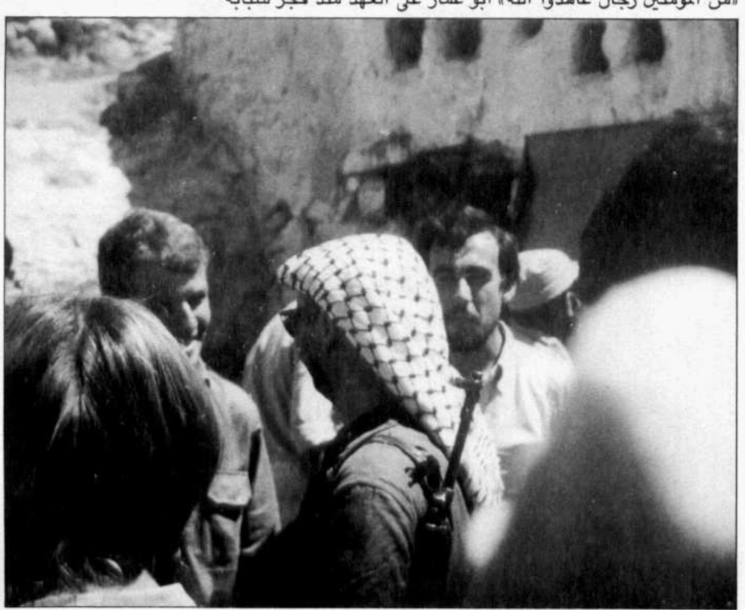
معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة الفلسطينية في الاردن . . فعلى مدى الايام الخمسة الممتدة بين الثالث عشر والسابع من شهر يوليو عام ١٩٧١ راح نحو من ثلاثة آلاف فدائي متحصنين في الغابات والهضاب المكسوة بالاشجار في هاتين الناحيتين الواقعتين في شمال المملكة الهاشمية يقاتلون حتى الطلقة الاخيرة ببطولة خارقة ضد القوات الملكية الهائجة المنفلتة العقال . . والتي كانت تبيد كل ما يعترضها بمقصد واضح هو تصفية آخر رقعة بقيت للفدائيين بعد مذابح سبتمبر سنة سبعين . فكانت الدبابات والمدرعات تطلق النار لتقتل ثم تسحق الناجين في عبورها . وطالت المجزرة بالكامل نحوا من سبعمائة فدائي . . . ووقع نحو الفين آخرين في الاسر . وافلح نحو من مئة في اللجوء الى سوريا او أنهم - لعظيم المذلة - لجئوا الى الضفة الغربية المحتلة حيث وافقت السلطات الاسرائيلية على منحهم حق اللجوء» .

● هذه المقولة تظهر كثيرا من الاوضاع التي تظهر حرص ابو اياد واوجاعه على الثورة . ولا بد ان نقول حقيقة هامة وهي ان الاوقات العصيبة تختلط فيها الرؤيا وتتعدد الآراء حتى من القادة انفسهم وهل هنالك ثورة لا يوجد فيها اخطاء .

وهكذا طويت هذه الصفحة الدامية من تاريخ المقاومة الفلسطينية . هذه الصفحة التي شهدت مجد هذه الثورة وبروزها على الساحة العربية كقوة ضاربة فتية تملك وحدها قدرة قتال العدو رغم الفارق الكبير في العدد والعتاد .

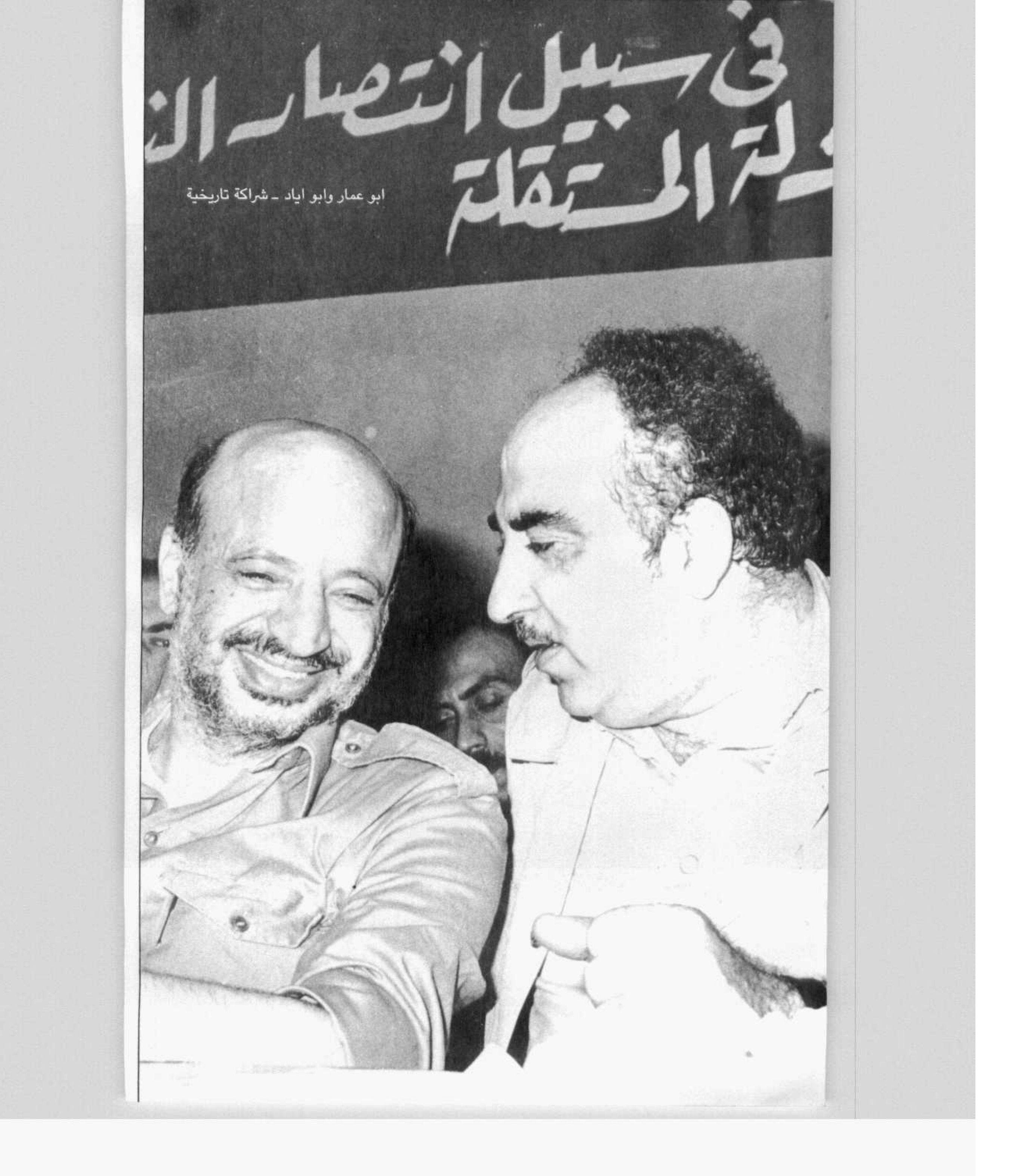
فيشاء القدر لهذا الجسد العملاق الذي تكوّن ونما على أرض الاردن . . ان ينسحق على نفس الارض وان يلملم جراحه - قبل ان ينهض - ليخرج هاربا ! .


«من المؤمنين رجال عاهدوا الله» ابو عمار على العهد منذ فجر شبابه

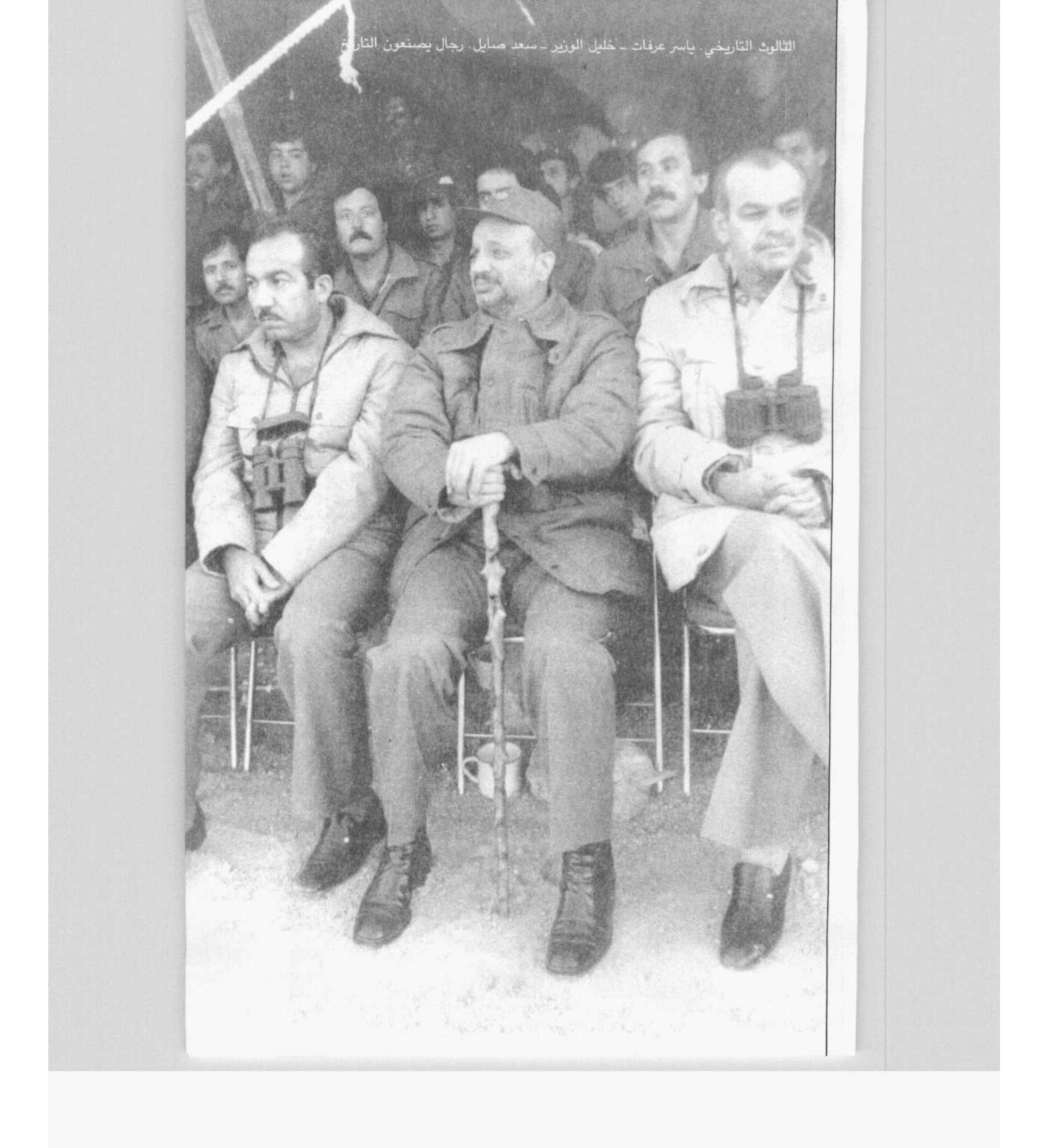

في البدايات وأبو عمار يحمل سلاحه على كتفه



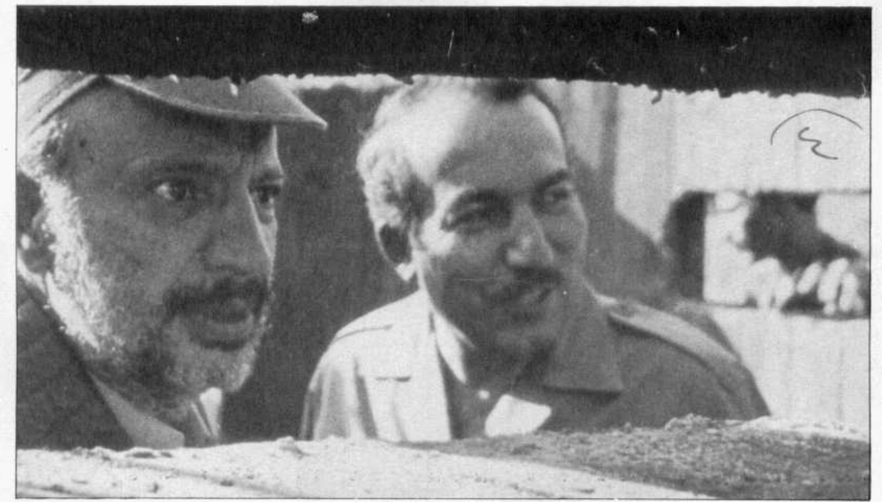
رفقاء الدرب في لقاء حميم




ابو عمار وابو اياد ـ شراكة تاريخية



الثالوث التاريخي. ياسر عرفات ـ خليل الوزير ـ سعد صايل. رجال يصنعون التاريخ



ثنائي القيادة



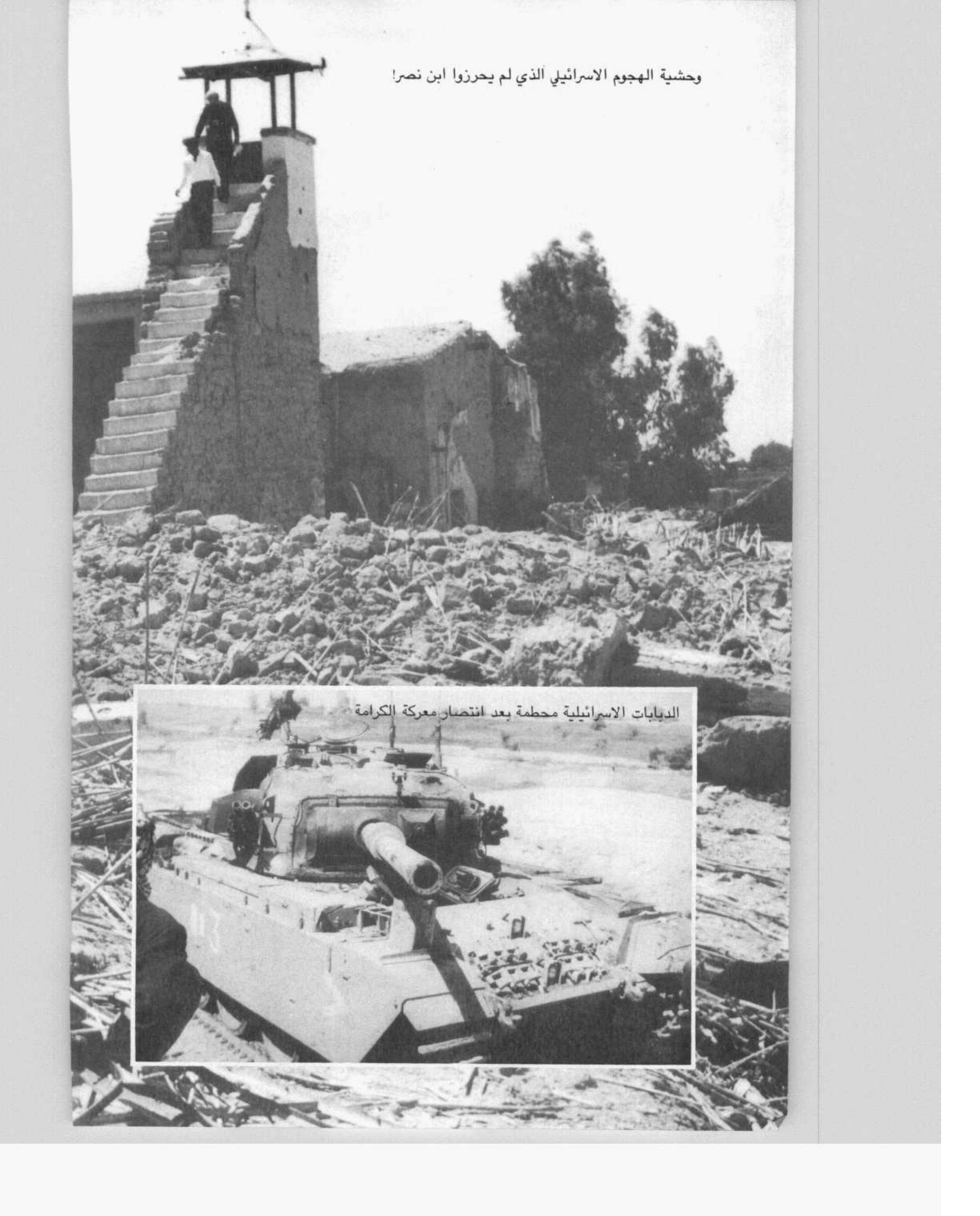
جورج حبش ونايف حواتمة مع القيادة الشرعية



على الجبهة ـ القائد ونائبه

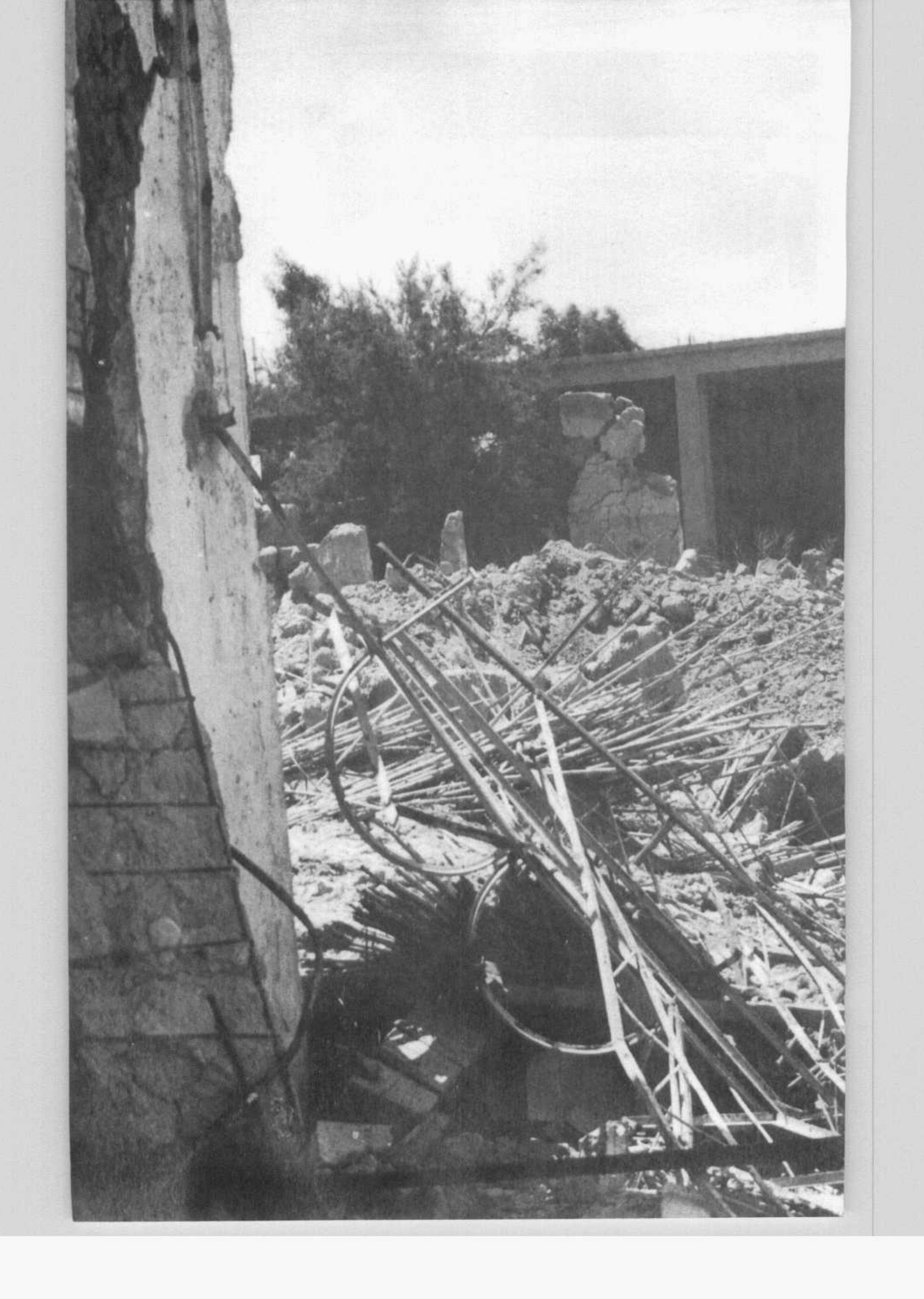


ابو عمار بين رفيقي كفاحه



وحشية الهجوم الاسرائيلي الذي لم يحرزوا ابن نصر!

الدبابات الاسرائيلية محطمة بعد انتصار معركة الكرامة





الدمار الذي ألحق بالمخيمات الفلسطينية اثناء احداث ايلول



الاطفال الفلسطينيون بين الركام على أرض الاردن!



صورة للظلم الانساني الذي وقع للفلسطينيين في عامي ٧٠، ٧١





# الباب الثالث:

# ● لبنــان

* الوطن الثاني...
* المخططات...
* الفتنة...
* غزو لبنان...
* الحصار.. بيروت.. الخروج الأول.
* الانشقاق.. طرابلس.. الخروج الثاني.

## * الوطن الثاني . . .

في يوليو عام ١٩٧١ انتهت اسطورة الوجود الفلسطيني الخارق على أرض الاردن نهائيا . . لينتهي فصل من أشد فصول المأساة الفلسطينية دموية وإيلاماً! وسقط من الفلسطينيين بين عسكريين ومدنيين خمسة وعشرين ألف شخص بين شهيد وجريح بدون ان يستطيع احدان يرثيهم او يودعهم . ونجا من نجا بالهرب من الاردن ايضا بدون وداع . . فلا احد يستطيع وداع المطارد! .

ورتب هذا خسارة كبيرة لقوات الثورة الفلسطينية التي خسرت جبهة عربية تمتد على اطول حدود عربية مع الدولة الدخيلة التي هي من المفروض عدوها الرئيسي . . والوحيد! .

وكان أن أُغلقت هذه الجبهة في وجه المقاومة الفلسطينية وعلى مدى اكثر من اثنتي عشرة سنة تالية تميز اكثر من نصفها بالعداء السافر . . والنصف الثاني في محاولات للتقارب الى ان تم التقارب في الربع الاخير منها! . . لكن دون فتح الجبهة ثانية امام الفلسطينيين . أي اننا نستطيع ان نقول ان الجبهة الاردنية ومنذ عام ١٩٧١ عندما أُغلقت في وجه النضال الفلسطيني . . لم تُفتح ثانية والى الآن . . وربما الى ما شاء الله! .

وما كان هناك مكان تستطيع ان تلجأ اليه الثورة المطاردة . . الا ذلك الموقع الذي كانت تتواجد فيه بعض القوات الفلسطينية هناك على الحدود اللبنانية .

وهنا يقول «ابو عمار» في سياق حديثه لي عن لبنان : «كنا موجودين في لبنان اثناء وجودنا في الاردن . وكانت هناك ـ فتح لاند ـ في العرقوب . وشهدت «فتح لاند» كثيرا من المعارك ومع ذلك كثفنا وجودنا في جبل الشيخ . ولم نترك فرصة لانهاك عدونا . . ومعركة الاستنزاف التي فتحها النظام السوري بينه وبين القوات الاسرائيلية على سفوح جبل الشيخ عمليا . . كانت حرب استنزاف ثلاثية . الفلسطينيون من الجبهة الغربية للجبل والاسرائيليون من الجهة الجنوبية وفي الوسط والسوريون من الجهة الشرقية لجبل الشيخ . يعني السوريون في السفوح الشرقية والفلسطينيون في السفوح الغربية والاسرائيليون في السفوح الجنوبية وقمة الجبل .

في ذلك المكان النائي الذي نازعتهم القوات اللبنانية على وجودهم فيه . وقامت بينهم المعارك التي عرفت بالحرب اللبنانية ـ الفلسطينية ، وانتهت باتفاقية القاهرة التي ساعد على ابرامها «عبد الناصر» بما كان له من ثقل سياسي ، واعتبرها «ياسر عرفات» انفراجة كبيرة لشرعية الوجود ، والتي اتاحت له بعد ذلك سعة من المكان والتنقل مما جعل المراقبين يطلقون على هذه الارض التي كانت تشغلها قوات المقاومة في ذلك الوقت في العرقوب على اطراف الجنوب اللبناني اسم «فتح لاند» .

اذن كان لبنان هو **الملاذ** الوحيد لهذه القوات المطاردة المشتتة . ولعل ما ابرز اهمية

هذا المهرب ذلك التواجد الكبير للمخيمات الفلسطينية للاجئين منذ عام ثمان واربعين اذ ان القوات المقاتلة لابد لها من غطاء جماهيري يدعم ويدفع وجودها . لذلك شعر الفلسطينيون بالعوض عن الاردن بتواجدهم في لبنان .

وأهم من كل شيء تلك الحدود التي تطل على وطنهم السليب . واذا كانت ضاعت جبهة . . فهناك البديل الممكن . المهم ان لا يعدموا وجود الجبهة . وان كان وكما سبق ان ذكرنا ان الثورة الفلسطينية عاشت دائما في صراع من اجل الجبهة لان الحكومات لا تترك لها حرية العمل على جبهات المواجهة . . الا ان الفدائي الفلسطيني كان لا يعوقه شيء ابدا . . المهم ان يتواجد في مكان على الحدود المشتركة . . وهو يعرف طريقه ! .

اذن فرح «ياسر عرفات» بموطىء القدم الذي اتاحته له اتفاقية القاهرة وكان يعلم تماما ان مراحل النمو قادمة لا محالة . فجسد الثورة له خاصية التمدد رغم كل الظروف الخارجية .

ولكن . . ما كان مجرد اللجوء الى لبنان كافياً ان يلغي كل الآثار والاضرار التي تسببت فيها مأساة الاردن .

فالمأساة كانت كبيرة ولابد ان يكون لها ردود فعل . وكان رد الفعل الاول هو موجة العنف التي انفجرت ربما انتقاما او ثأرا او يأسا من كل ما كان ! ولا ننسى ان اليأس اول دواعي الاندفاع .

وقد ولّد اليأس اندفاعا هائلا نحو الانتقام من كل من حاربوا الثورة ومارسوا عليها محاولة الاذلال والافناء . والانسان اليائس ربما كره الجميع ! . وخاصة ان الفلسطيني تلفت فوجد نفسه وحيدا في كل المحنة ورغم كل مظاهر التأييد . . الا انهم تُركوا وحدهم ! .

فالقوات العراقية التي كانت موجودة على أرض الاردن لم تستطع تقديم مساعدة كبيرة . ولم يؤد تدخل القوات السورية الى نتيجة لأنها كانت بلا غطاء جوي وآثرت ان تتوقف مع بداية تقدمها ثم تنسحب وبسرعة خارج الحدود وواجه الفلسطينيون المذبحة بمفردهم . .

وكانت النتائج السياسية لكل هذا ان الثورة الفلسطينية هي التي يجب ان تحمي نفسها وان الانظمة العربية لا يمكن لها ان تحمي هذه الثورة نظرا لتضارب المصالح وتحكم القوى الخارجية وتأثير الاتجاهات المختلفة على السياسات العربية لذلك كان الدخول الى لبنان يحدوه الحذر حتى لا تنغمس الثورة في متاهات جديدة .

ولكن الدعم الشعبي الذي كانت تلقاه المقاومة من الجماهير الفلسطينية والعربية الاخرى رغم الهزيمة . . ربما هو الذي بدد الحذر واعاد الثقة الى قادة العمل الفدائي مما منحهم الدعم النفسي للانطلاق من جديد . وكان اول الانطلاق عمليات الانتقام من

الذين خانوا الثورة من العرب ثم من الاسرائيليين! .

وكـانت العمليات ضد الاسرائيليين وقتها كأنها تجري تحت عامل نفسي بحت. . كمن يريد ان يذكّر بنفسه. . وبقوّته ويشعر العدو انني مازلت هنا! وان كانت هذه التذكرة قد أدت الى ان تدخل المقاومة الفلسطينية في دوامة من اعمال العنف المتبادل.

ولكننا نقول، بل نؤكد ان هذا كان شيء لابد منه! .

فإثبات الوجود من جديد لابد وان يتكلف بعض الضحايا. وكانت تسمية ايلول الاسود تثير الرعب والفزع على انها جماعة ارهابية او انتقامية ولكنها شدت انظار العالم الى هؤلاء المطرودين ابدا من الامن والامان! .

وسقط حائط الحـذر مرة اخـرى بعـد استعـادة الثقة بالنفس. . ورغم ان القيادة الفلسطينية كانت معنية تماما بتنظيم العلاقة بينها وبين السلطة اللبنانية على اساس اتفاقية القاهرة التي وقعت عام ١٩٦٩ الا انها كانت احيانا تواجه بمحاولات اختراق لهذه المعاهدة من قبل المعارضين لها في لبنان. . الامر الذي جعل منظمة التحرير تصدر ومن عمّان ـ قبل الخروج ـ تحذيرا للسلطات اللبنانية من خرق الاتفاقية.

ولكن بعد ذلك ورغم حدوث بعض المناوشات الا ان الجانبين اصدرا تصريحات تظهر مدى حرصهما على التعايش وعلى تذليل كافة العقبات التي تعترض سبيل العلاقات الودية بينهما.

واصبـح لبنان هو الساحة الرئيسية لتواجد المقاومة الفلسطينية خاصة بعد الخروج النهائي من الاردن في عام ١٩٧١.

وهذا نشّط من رفض القوى المعارضة للوجود الفلسطيني في لبنان! ولكن رغم كل تيارات الرفض او تدخل السلطة او تقييد حركة الفلسطينيين الا ان احدا لا يستطيع ان ينكر ان الشعب اللبنـاني قد تداخـل مع الوجود الفلسطيني على ارضه تداخلا تلقائيا دون ان يستطيع احد ان يعي كيف حدث هذا! .

وشهد التواجد الاولي الفلسطيني في ارض العرقوب تعاطفا وتقاربا من قبل الشعب اللبناني. وحظيت الاعمال الفدائية بإعجاب اللبنانيين. وتحول العطف الشعبي الى احترام وتقدير لهؤلاء الذين يقفون وحدهم ضد اسرائيل.

ولا ننسى ان معركة الكرامة والتي كانت قد اسقطت اسطورة الجيش الذي لا يهزم. . كانت قد أثرت في كل الشعوب العربية وأثرت اكثر في الشعب اللبناني نظرا لوجود المخيمات الفلسطينية المتعددة على ارضه. ولان كثيرا من ابناء هذه المخيمات ذهب الى الاردن للتدرب في معسكرات الثورة والعودة الى مخيمات لبنان لتدريب شباب المخيمات ومن شغفوا بالعمل

الفدائي الفلسطيني من اللبنانيين .

ولم يمر كل هذا كشيء عادي . . انما كان من عوامل التقارب والتلاحم بين افراد الثورة واهل لبنان .

وعشق الفلسطينيون لبنان واهل لبنان . ولم يصبح بالنسبة لهم مجرد جبهة تطل على ارضهم السليبة . . وانما نظروا اليه على انه وطن ثان لهم . وطن يسكنونه الى ان يهيىء الله لهم طريق العودة .

وطن لم يحاولوا ان يفرضوا عليه سلطة او قوة . . وانما وطن يأويهم . . الى يوم موقوت .

ورغم ان السلطة كانت تعاملهم في البداية معاملة سيئة كتجميعهم في اماكن محددة وفرض قيود على هذه الاماكن بما يعود بالذاكرة الى معسكرات الاعتقال . . ورغم ان الفلسطيني كان يعتبر اجنبيا على الارض اللبنانية . . ورغم حرمانه من العمل في اي مرفق من مرافق الدولة . ورغم عدم قدرتهم على الحركة من المخيمات في الجنوب الى العاصمة الا بالتصاريح . رغم كل هذا فقد كان الفلسطيني ينظر الى لبنان على انه الوطن الثاني ! .

وكما يقول العقيد «ابو الطيب» في كتابه ـ زلزال بيروت : «شكل استشهاد اول لبناني في الثورة الفلسطينية ـ عز الدين الجمل بداية مرحلة جديدة في لبنان . فلقد خرج لبنان كله في وداعه وانطلقت المظاهرات المؤيدة للثورة والعمل الفدائي في صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعلبك ـ العمل الذي عزز وجود الثورة الفلسطينية على الارض اللبنانية» .

وكان الفدائيون يلقون كل الترحيب والدعم من سكان القرى والمدن الجنوبية الامر الذي أقلق السلطة اللبنانية فافتعلت الصدامات مع المقاتلين وقطعت عليهم طرق الحركة واشتبكت معهم في اكثر من موقع ، الامر الذي واجهته الجماهير اللبنانية بالرفض .

ولذلك حينما هاجرت الثورة الى لبنان كان ذلك بالنسبة لاهل المخيمات بداية عهد جديد من الانفتاح على الشعب اللبناني . . ولبنان كله .

وازداد التمازج حتى ان الوجود الفلسطيني على ارض لبنان قد اصبح بشكل او بآخر جزءا لا يتجزأ من البنية الاساسية للمجتمع اللبناني . وما كان يمكن ان يتوارى الوجود العسكري المتنامي لقوات الثورة الفلسطينية عن ميزان القوى الداخلي للبنان واصبح ذلك الوجود العسكري عنصرا اساسيا في الوضع اللبناني داخليا وعربيا ودوليا . وتعاطف الناس مع هذه القوات الباسلة . .

وفي حين كانت اسرائيل تقوم بغاراتها على الجنوب لتفسد العلاقة بين اللبنانيين والثورة الفلسطينية . . كانت الجماهير تزداد تعلقا والتصاقا بقوات الثورة . بل ان كثيرا من اللبنانيين تعلموا من المقاتلين وتدربوا معهم على فنون المقاومة حتى يستطيعوا مواجهة اعتداءات

اسرائيل .

وبعد عملية ميونيخ حين قامت اسرائيل باعتداء كبير على الجنوب اللبناني توتر الوضع كثيرا بين الفلسطينيين والسلطة اللبنانية .

وبرغم هذا فان المقاومة كانت تحظى بالتأييد الشعبي والتأييد من القوى المناوئة اصلا للسلطة في لبنان .

والكل يعلم ان لبنان ومنذ زمن بعيد تعيش فيه فئات وطوائف متباينة . . ولم يكن الحكم فيه ابدا يتمتع بسلطة شاملة . لذلك وجدت كل الاحزاب والقوى المعارضة للحكم في لبنان ، ان من الافضل الاستناد الى المقاومة الفلسطينية لتعارض السلطة وتصدر دائما بيانات رفض واستنكار لتعدي السلطة والجيش على المقاومة . وتطالب بحماية المقاومة الفلسطينية في لبنان وتدافع عن التواجد الفلسطيني في جنوب لبنان .

وبالتالي لم يسع المقاومة الا ان تركن الى هذا الحليف الوطني . وكان اعلان التحالف بينهما ضروريا ولازما لكلا الطرفين .

ومن هنا كان الشعور لدى الفلسطينيين انهم في وطنهم الثاني . وكثيرون من الفلسطينيين ولدوا في لبنان ولا يعرفون غير لبنان وطن نشأتهم وان لم تغب عنهم ابدا جذورهم الممتدة في فلسطين وطنهم الاصلي السليب .

وقد سمعت من كثيرين منهم القول . . لو نزلنا بمائة عاصمة . . فلا بديل عن بيروت ! بل ان من اشد الاشياء ألماً لنفوسهم بعد خروجهم منها علاوة على كل ما كان من خسارة عسكرية وسياسية واجتماعية . . هو فراقهم لبيروت نفسها .

ان حزنهم على ضياع بيروت منهم يسكن قلوبهم بشكل موجع . ولقد لمست من «ياسر عرفات» نفسه مثل هذا الحزن حين قال وانا اسأله عن بيروت . . بعد ان سكت برهة متألمة : «بيروت كانت هانوي الثورة» . الا ان من يملكون السلطة في هذا الوطن الثاني ومن سيشاركون بعد ذلك في المؤامرة الكبرى على الوجود الفلسطيني في لبنان لم تعجبهم مقولة الوطن الثاني . وأبوا إلا ان يكون لبنان خالصا لهم في نزعة أنانية عنصرية تغفل كل مشاعر القومية والوطنية والعروبة والاخاء .

وعلى قدم المساواة مع اسرائيل قام الطيران اللبناني لاول مرة بقصف المخيمات الفلسطينية في الثاني من شهر مايو ١٩٧٢ بعد اشتباكات عنيفة بين الجيش اللبناني وقوات المقاومة حول المخيمات الفلسطينية ! .

وظهرت في الافق ظلال من الشك على مدى التواطؤ الذي يمكن ان يكون بين العدو وبين السلطة في لبنان خاصة وقد سبق هذه المعارك الاخيرة عملية اسرائيلية في قلب بيروت

راح ضحيتها كل من محمد يوسف النجار . . وكمال عدوان . . وكمال ناصر، حيث اغتالتهم المخابرات الاسرائيلية في منازلهم . ودخل رجال اسرائيل مدينة بيروت وخرجوا دون ان يعترضهم معترض! وكأنها ليست دولة ذات سيادة وبها ضبط وامن . . في اشهر حادث يعلن اختراق المخابرات الاسرائيلية للدولة اللبنانية! .

واثار حادث فردان استياءا عارما ضد السلطة في لبنان . . ولم يعفها احد من مسؤولية الحادث اما بالتواطؤ او على الاقل بالاهمال .

وعم لبنان اضراب شامل . . وخرج من بيروت وحدها نصف مليون شخص في مظاهرة احتجاج .

وبتأثير هذا . . كان لابد ان يقع الصدام . وهنا يقول «ابو عمار»: «حصلت مشكلة كبيرة بيننا وبين الجيش اللبناني بعد استشهاد القادة الثلاثة في عملية فردان . . وبعد شهر من هذه العملية وقع الصدام بيننا وبين الجيش اللبناني وكان هذا اول صدام كبير بيننا وبين الجيش اللبناني داخل بيروت . وكان هذا قبل حرب ١٩٧٣» .

وكلما كانت تزيد قبضة السلطة على المقاومة كلما ازداد التقارب الشعبي والجماهيري حتى أضحى في شكل تحالف فعلي ادخل الفلسطينيين في طبيعة التركيب الخاصة للمجتمع اللبناني والتي تحتم بالضرورة تكوين التكتلات والتحالفات .

وعلى كل ما في ذلك من خطر الا انه كان لابد مما ليس منه بد! وأدى الشعور الطبيعي الذي كان سائدا بين الفلسطينيين ان لبنان وطن ثان لابد لهم من التمسك اكثر واكثر به . والعمل على تثبيت بقائهم فيه حيث انهم لم يكونوا يملكون الا هذا البقاء .

وكل من لام الفلسطينيين على دخولهم أتون لبنان يغالطون الحقائق . . ولا يعرفون معنى ان يصبح الانسان مهددا في بقائه بوطنه . بل انه ليس وطنه الاول . . بل انه المأوى الاخير له! .

وعندما قامت حرب ١٩٧٣ اعطت لقوات الثورة الفلسطينية ظهورا حقيقيا على ارض الوطن الثاني . . الامر الذي جعل «ابو عمار» يقول في حديثه لي عن لبنان ـ هذا الحديث الذي يحرك في نفسه كل الذكريات بحلوها ومرّها . . نظرا لموقع لبنان الخاص في نفسه .

يقول: «لقد بدأ التواجد الحقيقي الفلسطيني في لبنان عام ١٩٧٣ . . وخاصة عندما تواجدت معظم قوات الثورة الفلسطينية في الجنوب اللبناني ـ ثم عندما نشبت الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ١٩٧٣ . وفي هذه الحرب كان هنالك ثلاث قوات عربية قامت بها ثم انضمت اليها قوة عربية اخرى سميت في مؤتمر القمة الذي انعقد في الجزائر بعدها القوة العربية التي ساندت القوات الثلاث .

وكانت القوات الرئيسية وكما هو معروف الاولى كانت القوة المصرية والثانية كانت القوة السورية ثم كانت هناك قوة صغيرة ولكنها معنوية وهي القوة الفلسطينية التي كانت لها جبهتان، الجبهة الاولى، كانت من جنوب لبنان. الجبهة الثانية، كانت من داخل ارضنا المحتلة بجانب اشتراكهم رسميا على الجبهتين المصرية والسورية بقوات نظامية. وعندما توقف القتال طبقا لقرار ٣٣٨ اصر المندوب الاسرائيلي في مجلس الامن ان يقول ان وقف القتال يجب ان يشمل جميع الاعمال الحربية ـ غير النظامية... وقد سمى الجبهة اللبنانية الجبهة الثالثة!.. فقد قال بالرغم من ان الجبهة اللبنانية جبهة صغيرة فتحها علينا الفدائيون الفلسطينيون الا اننا نعتبرها جبهة ثالثة واعتبرها من ضمن الاعمال غير النظامية.

لكن مجلس الامن لم يلتفت الى هذا الموضوع واكتفى فقط ان يكون هناك ايقاف للقتال بين القوات الاسرائيلية والقوات العربية النظامية. في ذلك الوقت لم نكن اعضاء في الامم المتحدة». وهنا قلت للزعيم الفلسطيني.. اذن كانت لحرب ١٩٧٣ نتائج ايجابية بالنسبة لكم».

فلمعت عيناه بنظرة ظافرة، وقال: «بدون شك.. فبعد حرب ١٩٧٣ واشتراك القوات الفلسطينية في الحرب اشتراكا مباشرا سواء كان من الجبهة اللبنانية او داخل الارض المحتلة بعمليات فدائية الى ايجاد الرقم الفلسطيني داخل المعادلة العسكرية والسياسية في المنطقة.

كانت قبل ذلك موجودة.. ولكنها لم تكن بهذا الوضوح، اصبحت بشكل رسمي. بعد ذلك على سبيل المثال دخلنا اعضاء كاملي العضوية في الجامعة العربية».. وحين لحظ التساؤل على وجهي ابتسم وقال: «كنا في السابق اعضاء مراقبين في الجامعة العربية»!.. ولكني اكدت السؤال: منذ نشأة منظمة التحرير لم تكن كاملة العضوية في الجامعة العربية؟.. قال: «ابدا لم تكن لنا عضوية كاملة.. كنا مراقبين!، وفي سنة ١٩٧٦ اخذنا العضوية وكنا قد اخذنا في عام ١٩٧٤ عضوية المراقب في الامم المتحدة. وبعد ذلك اخذنا العضوية الدائمة في المؤتمر الاسلامي. وفي دول عدم الانحياز. اي ان كل هذه الآفاق تفتحت بعد اشتراكنا الفعلي والمباشر في حرب ١٩٧٣.

الدول العربية الاخرى التي اشتركت في حرب ١٩٧٣ سُميت دولا عربية مساهمة ومشاركة. ثلاث قوى.. كانت تشكل جبهة واحدة بقيادة المشير أحمد اسماعيل. القوات الفلسطينية والقوات السورية والقوات المصرية وكلها كانت بقيادة المشير احمد اسماعيل.. وحين اشتركت القوات العربية الاخرى جاءت لتشارك هذه القوات الثلاث. نحن شاركنا مشاركة فعلية. جيش التحرير شارك على الجبهة السورية.. وكذلك شارك جيش التحرير

على الجبهة المصرية بالاضافة الى القوات التي قال عنها هيرتزوغ انها فتحت جبهة ثالثة في الجنوب اللبناني بالاضافة الى قوات اخرى من الفدائيين كقوات اليرموك وقوات جيش التحرير التي اشتركت مع السوريين وقوات «فتح» وجيش التحرير شاركت مع السوريين والقوات الاخرى الفلسطينية شاركت من الجنوب اللبنانين. والقوات الفدائية الاخرى شاركت من داخل الارض المحتلة. لقد شاركنا عمليا على اربع جبهات بغض النظر عن حجم المشاركة.. ولكنها مشاركة»..

وسألته بتقدير كبير : وأين كنت أنت شخصيا يا سيدي؟.. قال: «انا كنت في ذلك الحين موجودا على الجبهة اللبنانية..

وحررنا بالفعل اجزاء ـ وبقيت هذه الاجزاء معنا محررة على سفوح جبل الشيخ وهي تلال الرمثة وتلال التحدي.. حررناها وظلت معنا من عام **١٩٧٣** الى **١٩٧٦** عندما دخلت القوات السورية اذ بعد ان حصل بيننا وبينها اشتباك اضطررنا ان نسحب هذه القوات من مواقعها.. وابتلع ريقه، وقال, وهذه بلا شك كانت نقطة مهمة ومؤلمة».

قلت له: لقد سلبت القوات السورية منكم ما حررتموه من الاسرائيليين! أطرق برهة.. ثم رفع عينيه وقال بهدوء: «نعم سلبوه ولكن ليس لهم وانما ترك للاسرائيليين!».

وهكذا كانت المراحل الاولى للوجود الفلسطيني في لبنان تدعيا كبيرا لهذا الوجود واعلانا لنهوض جسد الثورة العملاق مرة اخرى لينتصب على الارض سليماً معافيا!

وكأن حرب **١٩٧٣** كانت شرارة الانطلاق على المستوى الدولي والعربي واللبناني الداخلي حيث تحركت كل الطاقات اللبنانية الوطنية التي جعلت من وجودها درعاً واقياً ومساعداً للثورة الفلسطينية في مواجهة اعدائها الداخليين والخارجيين.

ولم يتحقق كل هذا بسهولة او يسر كما رأينا.. ولكن انتزع الفلسطينيون شرعية وجودهم بأسنانهم من بين قبضة المستحيل!!.

## * المخططات . . .

هل نكون مغالين اذا قلنا ان المخططات قد اتخذت لبنان نقطة ارتكاز لها عندما ارادت القوى الغاشمة ان تقلب تخطيط المنطقة كلها؟ . . بالطبع لا فمن الواضح ان السياسة العليا وجدت بغيتها في لبنان . وكأنها كانت تبحث عن تربة خصبة لينبت منها الشر الذي سيصب لعناته على المنطقة كلها .

ولم يكن هناك اصلح من لبنان . فهذا البلد الذي يحوي كل المتناقضات وكل الملل . . وكل النحل وكل الاطماع والرغبات وتعدد الهويات حتى كان يقال عنه ان لبنان يقف وحده بين الشرق والغرب تستهويه الميول الاوروبية . . وترهقه الروابط العربية ! .

ولاشك ان لبنان كان يقع ومنذ زمن شأنه شأن اي ارض عربية في نطاق الاطماع الصهيونية .

ومنذ ان حددت ملامح الدولة الصهيونية . . ورغم وعد بلفور بالارض الفلسطينية الا ان الاطماع الصهيونية كانت تمتد الى خارج حدود الارض الفلسطينية .

ورغم ان قرار التقسيم المجحف قد حدد مساحة الارض للدولة اليهودية الا ان الصهاينة كسروا قرار التقسيم وتخطوا حدوده وتمددوا الى بقية الارض الفلسطينية جائرين على الارض التي خصصت للدولة الفلسطينية بمقتضى قرار التقسيم واتبعوا في ذلك كل وسائل الارهاب من تهجير ومذابح وقتل واعتقال . ولم يعد هناك الا الضفة الغربية التي كانت تحت الحكم الاردني وقطاع غزة الذي كان تحت الحكم المصري كنتائج لحرب ١٩٤٨ الفاشلة التي خاضتها الجيوش العربية النظامية .

وقد كان ان استولت اسرائيل على اراض الضفة وغزة بعد حرب ١٩٦٧ الساحقة لتكمل سيطرتها على كامل التراب الفلسطيني . . ورغم هذا فقد اعلن اسحاق شامير بكل صفاقة . . ان اراضي الضفة الغربية وغزة لا تكفينا في عصر التطور النووي هذا ! .

اذن كانت الارض اللبنانية في مرمى المطامع الاسرائيلية . . وبالتحديد كل جنوب لبنان بما فيها نهر الليطاني ومرتفعات الجولان وكلتا ضفتي نهر الاردن الشرقية والغربية .

وبقيت فكرة الاستيلاء على اراضي لبنان قائمة في السياسة الاستراتيجية للقيادة الصهيونية .

لذلك كانت توضع المخططات للبنان ومنذ زمن ! وحين نصح بن ـ غوريون بتحريك الوضع في لبنان . كان القصد هو حسن استغلال الوضع المنقسم داخل المجتمع اللبناني خاصة وبنيته التي تقوم على الطوائف الدينية .

فكانت الرغبة في استهداف طائفة من الطوائف لتقيم التعاون مع اسرائيل بما يكفل لها السيطرة على الوضع كله في لبنان ثمنا لتخليها عن بعض المناطق في الجنوب لتضمها

اسرائيل.

وكان الساسة الاسرائيليون واثقين من تمرير خطتهم هذه لدقة معرفتهم بحقيقة مثل هذا المجتمع الطائفي الذي تتنازع فيه الطوائف لكسب مميزات على الارض. ويستطيع أي دخيل ان يستغل ذلك بتنمية هذه الحزازات الطائفية لضمان بقائه هو، وكما فعل الاستعمار الفرنسي من قبل لضمان استمراره. وكانت اسرائيل هي القوة الخارجية التي قررت ان تستفيد من هذا الوضع لأقصى درجة.. ولانها تعلم أن الجو مهيأ تماما.

واذا كان هدف استغلال الوضع الداخلي في لبنان هدفا من اهداف اسرائيل الاستراتيجية.؟ فقد دعمت ذلك بمحاولة اثارة الداخل ضد الوجود الفلسطيني نفسه ليفقد هذا الوجود الدعم الداخلي والمساندة الشعبية.

فأخذت ضمن المخطط الشامل تصب بنيران هجماتها الهمجية على الجنوب اللبناني هادفة بذلك الى الغرضين معا.

اولا، اضعاف القوة العسكرية لقوات المقاومة.. وايقاع الذعر بين المدنيين الفلسطينيين حتى تحرم القوات من الغطاء الشعبي لها.

ثم الهدف الثاني، وهو تحريض المواطنين اللبنانيين للعمل ضد هذا الوجود الفلسطيني الذي يجلب لهم كل هذه الويلات.

وقد جعلت اسرائيل من منطقة العرقوب وشمال فلسطين مسرحا للعمليات العسكرية الدائمة بالاضافة الى قصف القرى اللبنانية لاستثارة كل التناقضات الكامنة داخل البنية اللبنانية.

وقد زاد وجود المقاومة المتنامي هذا من حدة الانقسام بين القوى الوطنية المتعاطفة والملتحمة مع الثورة الفلسطينية وبين القوى الرجعية المتطرفة طائفيا.

وهكذا كانت مخططات الشر تحيط بلبنان. وكما يقال: لو كان لبنان مقتصرا على تنافس الفئات الداخلية فقط دون التدخلات الاجنبية.. ما كانت نشبت هذه الحرب الاهلية الطاحنة التي ابتلعت كل مقومات الدولة وهدمت لبنان حتى اختفت ملامحه وسماته المميزة.. واخضعت الكيان اللبناني للخطط التي أعدت له!.

وعندما سألت «ابو عمار» عن كنه المخططات التي استهدفت لبنان والتي كنت قد سمعته يشير اليها بدون تفسير عندما التقيت به في عام ١٩٧٤ في بيروت في لقائي الاول به ضمن رحلة جماعية.. سمعته وقتها يقول.. وانا اذكر كلماته جيدا: «نحن على ارض تعبث بها أيد خفية. واشعر ان هناك شيئا يُدبر في الخفاء ولكن لا اعرف ما هو تماما. لقد علمت انه بالامس فقط وصلت شحنة من السلاح يبلغ عددها اربع عشرة شاحنة سلاح. لمن

اعطيت؟ وضد من؟ . . لا احد يدري. ولكن هذا يشير الى ان هناك شيئا ما يدبر في الخفاء!».

وعندما ذكرته بهذا الحديث مع سؤال عن المخططات التي حيكت ضد لبنان قال: «لقد أثبت لك ومنذ زمن بعيد انه بالفعل كان هناك ما يدبر في الخفاء. وتكشف بعد ذلك ان كل ما كان يُدبر كان يدبر ضد لبنان لسبب واحد هو وجود المقاومة فيه.

والهدف الاول، هو القضاء على هذه المقاومة التي يزعج وجودها الكيان الصهيوني. وسأحكي لك واقعة تدعم هذا الكلام. فكما هو معروف ان المشاكل بدأت تتصاعد بيننا وبين اللبنانيين في سنة ١٩٧٥. سألته يعني داخليا؟. قال: نعم داخليا. . أي بداية الحرب اللبنانية الاهلية. .

ولكن قبل هذا وفي ١٩٧٤/١٢/٥ بالتحديد ذهبت لزيارة الرئيس تيتو في يوغسلافيا ـ وأفضى لي الرئيس تيتو بهذا الكلام الخطير:

قال: قبل ان تصلني بثلاثة ايام كان عندي ـ كيسنجر ـ وقال لي ان قرارات مؤتمر القمة العربية في الرباط ـ ١٩٧٤ ـ وكان هذا قبل اشهر معدودة ـ قال ان القرارات التي صدرت عن هذا المؤتمر قد خلطت كل الحسابات! ذلك لان مؤتمر القمة العربي السابع الذي انعقد في الرباط بتاريخ ٢٨ اكتوبر ١٩٧٤ اتخذ فيه قرار اكد فيه على حق الشعب الفلسطيني في اقامة سلطته الوطنية المستقلة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني على اي ارض فلسطينية يتم تحريرها.

ويواصل الرئيس تيتو كلامه فيقول: «انني فهمت من كيسنجر انه امام هذا الخلط الذي حدث معه ـ سيبلقن ـ الحرب في المنطقة! . ولأول مرة كنت اسمع تعبير البلقنة من الرئيس تيتو في ١٩٧٤/١٢/٥». وسألته باستغراب: وماذا كان يقصد تماما بكلمة البلقنة؟. قال: «يعني تعريب الحرب. بدلا من ان تكون الحرب عربية ـ اسرائيلية تكون الحرب عربية ـ عربية! .

وتشبيها بالنزاع الذي قام في فيتنام عندما قالوا فتنمة الحرب! كانت الحرب فرنسية ـ فيتنامية. . وامريكية ـ فيتنامية. . فأصبحت في سايغون ومن خلال حكام سايغون اصبحت قوات فيتنامية وفرنسية واميركية ضد فيتنام أي ضد الشعب الفيتنامي ـ قال لي الرئيس تيتو هذا الكلام وحذرني من البلقنة في المنطقة. وبعد شهرين من لقائي الرئيس تيتو. اندلعت الحرب! .

**بدأت بمقتل البطل معروف سعد الذي قتله الجيش اللبناني يوم ١٩٧٥/٢/١٩، وهو احد الزعماء اللبنانيين الناصريين في لبنان. وبعد مقتل معروف سعد بدأت الاحداث**

تنفجر. وحدثت مجزرة عين الرمانة بالباص الذي كان ينقل فلسطينيين. وبعدها حصل ما حصـل.. حصلت اشياء كثيرة، وعلى هذا اقول آسفا ان مخطط كيسنجر بدأ يتفاعل في لبنان». وسألته: هذا يعني ان كل ما جرى في لبنان كان مخططا له؟.

قال: «طبعا كل ما جرى.. وكل ما يجري الآن. المنطقة بكاملها موضوعة في نطاق مخطط خطير يقضي بتغيرات في خريطة المنطقة. وفي عام **١٩٧٦** فوجئنا بأن كيسنجر اقنع الرئيس الاسد ان يدخل بقواته في لبنان بعد ما تمكنا نحن وحلفاؤنا اللبنانيون من تشكيل الجبهة العريضة التي ذكرتها لك من قبل. والتي كان فيها المسلمون والمسيحيون، المسلمون بكل طوائفهم والمسيحيون بكل طوائفهم. شكلنا جبهة عريضة ووقعنا على اربع عشرة نقطة للاصـلاح السياسي والاداري في داخل لبنان. وتمكنا وحلفاؤنا اللبنانيون بمساعدتنا من السيطرة عل **٨٢** بالمائة من ارض لبنان. وكنا على ابواب ان نعلن حكما عربيا جديدا في لبنان!.

وفي سنة **١٩٧٥** كان قد جاءني بعض المسيحيين، فقلت لهم اسمعوا: الامريكيون والاسرائيليون يريدون ان يدمروا لبنان. واذا كنتم لا تصدقون ارجعوا للكتب الاسرائيلية. واطلعتهم على بعض الـوثـائق التي تقـول انه لابد من اغلاق المصرف العربي في لبنان، المصرف الذي تمثله البنوك اللبنانية في لبنان ويتجمع فيها اموال البترول.

فلقد كانت اموال البترول بعد **١٩٧٣** تتصاعد والثروة العربية تتصاعد وكانت كل اموال البترول تمر عبر لبنان ومن لبنان تتوزع على العالم. فانتعش لبنان بصورة لم يسبق لها مثيل من خلال كونه المصرف الوسيط عربيا. قلت لهؤلاء الزعماء المسيحيين اللبنانيين اسمعوا هذه اسرائيل وامريكا تريدان ان يغلق مصرفكم. لذلك تدفعكم لان تشتبكوا معنا. ونحن لا نريد ان نشتبك معكم. نحن نريد فقط ان نتعايش معكم. ان نعيش الى ان نعود الى ارضنا. واظهرت لهم مخططا اسرائيليا سمي بمخطط الدوائر وهذه الدوائر تريد ان تقيمها اسرائيل في المنطقة.

الـدائرة الاولى، مركزها تل ابيب، وهي دائرة القيادة والصناعة. والدائرة الثانية، وفيهـا الفلسـطينيون واللبنانيون، وفيها اجزاء من جنوب سوريا تسمى Buffer State أي الولايات العازلة وهذه مهمتها فقط توريد العمال الى المنطقة الصناعية الاسرائيلية!.

وينتقل المصرف العربي من بيروت الى تل ابيب حتى تنتقل اموال البترول اليها بدل ان تكون في المصرف العربي ليصبح المصرف الجديد للمنطقة في تل ابيب!.

سألته: كل هذا كان مذكورا في هذا المخطط؟.

قال: هذه كانت بعض الوثائق التي اطلعتهم عليها تحت اسم الدوائر الثلاث. وتأتي

الـدائـرة الثـالثة، وهي دائرة التصريف والاستهلاك لهذه الصناعات الاسرائيلية. . يعني منطقة النفوذ. أي يكون هناك عقل ومركز قوة مالي وصناعي مركزه تل ابيب ثم دائرة اخرى عمالية. ثم دائرة الاستهلاك. . بما فيها نقل المصرف العربي! قلت لهم هذا الكلام. . قلت لهم اصحوا. . افهموا هذا.

قلت هذا ولم يستمعوا إليّ! . . ثم دخل لبنان الدوامة!».

اذن، اذا قلنا ان الجحيم الذي تفجر في لبنان لم يكن تلقائيا. . ولا كان نتيجة التعدد في بنية المجتمـع اللبناني ـ فاننا نكون قد وضعنا يدنا على الباعث الحقيقي. والحقيقة ان التقسيم الذي وضع بعد الحرب العالمية الثانية لتفتيت املاك الدولة العثمانية المنهارة في ظل التغيرات الكبيرة التي جرت على المنطقة وبروز اسرائيل كقوة كبيرة من قوى المنطقة واشتعال الحروب بينها وبين العرب من حين لآخر. . مع الميل الكبير في السياسة الامريكية والغربية بوجـه عام الى الاستفادة من قوة اسرائيل. . ثم ظهور العرب كقوة اقتصادية مؤثرة وتركز الثروات والخيرات في دول عربية في المنطقة ورغبة السياسة العالمية ايضا الاستفادة من هذا أدى الى ان تجد بعض التعديلات في ميزان القوى لفرض استراتيجيات وسياسات جديدة تلائم هذا الواقع المتغير وتضمن فائدة المصالح الطموحة في هذه المنطقة.

وكما قلنا كان المناخ في لبنان مناسبا تماما لتجري على مسرحه كل هذه الاحداث والتي كان لا يمكن ان تقتصر نتائجها على لبنان فقط. . وانما نصب السيرك اللبناني لتتصارع على ارضه كل قوى المنطقة تبعا لذلك التوزيع الطائفي الذي قامت على اكتافه الحرب.

وحـين نقـول التوزيع الطائفي لا نقول انه يتحتم بالضرورة مساعدة دول المنطقة لطائفة دينية لانها فقط توافق ميولها العقائدية. وانما كان للطائفية هناك مفهوم آخر! كانت الطائفية التي تساعد على تحقيق الاطماع. . وهذا هو الاهم.

فهذه الحرب اللبنانية الاهلية وان كانت قد اتخذت الشكل الديني او العقائدي. . الا انها قامت من اجل شيء آخر. والا ما كنا نرى دولة اسلامية كسوريا تدخل الحرب في لبنـان الى جانب الكتـائب المسيحية ضد القـوى الاسـلامية المتحالفة مع القوى الوطنية المسيحية وهذا يُظهر ان هناك الغرض السياسي اولا الذي قد يؤدي الى تحقيقه هذا الادعاء الديني او ذاك.

ان الحرب التي دارت في لبنان باسم الدين. والدين براء منها ومن إثمها. هناك كانت اليد الخفية والتي ابتدأت بيد كيسنجر. . ثم شاركته مئات الايدي. فمنذ اليوم الذي كانت تأمل فيه اسرائيل بايجاد ضابط مسيحي يستطيع ان يلعب دور المنقذ للمسيحيين ويصل بمساعدة اسرائيل الى اقامة كيان مسيحي يتعامل مع الكيان الصهيوني بما يضمن مصلحته

الى اقامة الجيش العميل باسم جيش لبنان الجنوبي . . ووضع الضابط الخائن سعد حداد على رأسه . . الى اطماع تجار السلاح واصحاب الخيانات والعمالة . . الى ظهور طبيعة الانسان الوحشية والايدي الخفية تعبث بلبنان! .

الا ان الخطورة تكمن اكثر في هذه المخططات البعيدة التي لا نستطيع ان نصل الى هدفها البعيد الا بعد المرور بفترات وفترات من المحن تتضح فيها المخططات الظاهرة وكأنها هي كل المراد! .

فمن كان يتصور ان تحول حرب اكتوبر لجر مصر بعد ذلك الى صلح منفرد مع اسرائيل؟ . . ومن كان يتصور ان هذه القفزة البطولية للجيش المصري الى شط القناة الثاني وانقضاض الثأر الذي قامت به القوات المصرية يبهت بثغرة مصطنعة يتسرب منها الجيش الاسرائيلي . . ويحاصر الجيش الثالث ويتقدم الى ان يصل الى الكيلو ١٠١ والذي لا يبعد عن القاهرة اكثر من ساعة ونصف! .

ومن كان يصدق ان الرئيس السادات وهو القائد الذي حققت القوات في عهده معجزة العبور لا يجد بداً من طلب الوساطة الامريكية لفك اشتباك القوت ويدق اول مسمار للقدم الامريكية ـ الصهيونية في ارض مصر . . ليغوص بعدها في الرمال الناعمة التي لا يستطيع النجاة منها فيقدم على ما اقدم عليه . والذي كان يبدو كأنه سيستمر في التوسع به خاصة وانه تمازج تماما مع ـ العزيز ـ كيسنجر ولقاءات بيغن الحارة التي كانت تبدأ وتنتهي بالعناق دائما! .

ولأن المخطط كبير . . فانه ما تكاد تبدو بادرة امل في الحل الا وتتصاعد المؤامرات لتقضي عليها وهنا يقول «عرفات» في سياق استعراضه للمخططات : «اخطر ما في الامر انه كان بامكاننا ان نصل الى حل في عام ١٩٧٦ . . وعندما وصلنا الى الاتفاق من اربع عشرة نقطة . . اذا بكل شيء يتبدد» .

قلت بلهفة : كيف؟ قال : «بددته القوات السورية بدخولها الى لبنان بعد اتفاق تم بين كيسنجر وحافظ الاسد!» .

سألته بفضول حاد : هل دخلت القوات السورية قبل ما يتقرر في مؤتمر القمة دخول قوات الردع العربية؟ . قال بحدة : «قبل» . سألت : دخلت على اي اساس؟ . قال بسخرية : «ولا على أي أساس اطلاقا . . . وانها كمن تأبط شرا . . لقد دخلت القوات السورية فقط من اجل ان تسيطر على القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية وتمنعها من النجاح في تحقيق اهدافها! فوجئنا بدخول القوات السورية خاصة بعد ان سيطرت القوى الوطنية ونجحوا في تشكيل هذه الجبهة الوطنية العريضة التي قلت لك عنها والتي كانت

تتشكل من كل زعماء لبنان. من ريمون أده لجان عزيز عن الموارنة الى الامام الصدر الى صائب سلام الى تقي الدين الصلح ورشيد الصلح الى رشيد كرامي الى حسين الحسيني الى الشيخ ابو شقره الى كمال جنبلاط. وكان هو لولب ورأس الحركة الوطنية اللبنانية لأن الحركة اللبنانية كاسم رسمي جاء بعد مقتله لكن كان هو الوجه القيادي الذي كان ظاهرا لهذه الجبهة الوطنية العريضة.

في هذا الخضم دخلت القوات السورية.. ودخل لبنان في متاهة كبيرة جدا ولم تتوقف هذه المتاهة حتى يومنا هذا .

اجل... والى يومنا هذا!.. فها هي الحرب اللبنانية الاهلية تدخل عامها الثاني عشر ولم تكف اليد الخفية بعد. ومن الألم الحارق في قلوبنا نقول. لقد كانت بعض اللبنانيين من الغفلة والاستسلام بحيث سمحوا بكل هذا الهول الذي يجري على ارضهم.. بل سمح بعضهم ان يكونوا اداة في يد المخططات العدوانية. وخاضوا الحرب دون ان يتلفتوا الى بشاعة ما يحاك لهم. ولو تبصروا ولو قليلا لعرفوا ان من أبرز انواع الخديعة التي خدعوا بها هذا التضليل الذي اوقعتهم به المخططات حين اوهمتهم ان سر بلائهم الحقيقي هو ذلك الوجود الفلسطيني وانه يجب ان يتخلص لبنان من الفلسطينيين حتى تستقر الامور. وان الوجود الفلسطيني هو الذي ساعد على اذكاء الطائفية وساعد على وجود الاحزاب والتحزبات!.

وصدقوا ولكن عندما تخلصوا من الفلسطينيين ازداد سعير الحرب الاهلية وانقلبت كل الاطراف تطحن بعضها بعضاً.

وتفتتت الطوائف الى فتات الفتات وانقسمت كل فئة على نفسها في تضخم سرطاني داخلي عجيب!.

فقد خرجت القوة الكبرى من لبنان... التي كانت تعدل ميزان القوى.. وتتجمع حولها كل القوى الوطنية اللبنانية الاسلامية والمسيحية ولكن كيسنجر نجح بتوريط الجيش السوري اولا ليشتت هذه القوى.. ويشهد التاريخ هزيمة القوى الوطنية على يد الجيش السوري الذي تضامن مع الكتائب ثم بعملية الغزو الاسرائيلية الكبرى.. لتخرج المقاومة الفلسطينية من لبنان في عام ١٩٨٢... ومازال اللبنانيون يقتتلون.

وكانت مقولة خطر الوجود الفلسطيني في لبنان... هي أقوى حلقات المخطط! والتي اثبتت الاحداث بعد ذلك بطلانها.

## * الفتنة الحرب الأهلية . . .

اذا قلنا إن الحرب الأهلية في لبنان بدأت بحادثة عين الرمانة . . . نكون قد بترنا الدخول الصحيح الى هذه الحرب الناجمة عن الفتنة التي تُعد أشهر فتنة طائفية في العصر الحديث .

ذلك ان حادثة عين الرمانة او غيرها ما كان يمكن ان تسبب كل ما حدث الا اذا كانت هي ذروة الوضع المتفجر كله . واذا قلنا ان الوضع المتفجر كان من طبيعة تكوين المجتمع اللبناني وحده على ان نُخلي تماما اثر تواجد المقاومة الفلسطينية لكنا غير دقيقين في نظرتنا وحساباتنا . وكذلك بالنسبة للبصمات العربية والاجنبية وتأثيرها على لبنان .

والحقيقة فكما نظرنا في طبيعة بنية المجتمع اللبناني فيجب الا نغفل ابدا عن طبيعة تكوين المجتمع الفلسطيني . فالوجود الثوري الفلسطيني الذي تكون في ٦٥ كان ذا طبيعة متنامية بما في مبادىء الثورة من قوة جذب للجماهير ثم ما حققته هذه القوة من انتصار كان الوجدان العربي كله في مسيس الحاجة إليه مما جعل هذا الوجود يأخذ طابع التمدد السريع .

وكما حدث بعد معركة الكرامة من ظهور القوة الفلسطينية ذلك الظهور القوي الذي أزعج السلطة الشرعية في الاردن وجعلها تتحسس لهذه القوة .

وان كانت مأساة الاردن قد قامت بعملية جزر سريعة لتمدد هذه القوة الا انها لم تفقدها هذه الطبيعة التي ما لبثت ان لحقت بها في لبنان .

وفي لبنان اصلا كان الوضع غريبا حيث أقر النظام الطائفي بمساعدة فرنسا رغم انها منحت الاستقلال للبنان ولكنها فرضت نظاما سياسيا يعتمد على المسيحيين رأسا لبنية الدولة وان كانت لم تستطع ان تغير من البنية التحتية التي تتكون من أغلبية مسلمة . ورغم انه تم التوقيع على الميثاق الوطني في سنة ١٩٤٣ بموافقة زعماء الموارنة وزعماء المسلمين السنة وهما الطائفتان الظاهرتان في ذلك الوقت ـ الا ان هذا الميثاق كان يحمل بعض الحساسيات . فهو يقضي بان تكون رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش في يد الطائفة المارونية . . على ان تكون رئاسة الحكومة في يد المسلمين السنة . وادى هذا التقسيم الى تدعيم الطائفية والى بذر بذور الشقاق داخل مجتمع تقوم فيه المناصب على اساس طائفي بحت .

الا ان المجتمع اللبناني لم يظل كما هو . . فقد طرأت عليه بعض التغيرات التي تمثلت في هجرتين إلى ارضه . ولسوء حظه فان الهجرتين كانتا من دعامات القسمة الطائفية الحادة في لبنان .

فحين هاجر إليه آلاف اللاجئين من الارمن المسيحيين للنجاة من المذابح التركية ، انخرط هؤلاء كمسيحيين متعصبين الى جانب الحكم المسيحي .

وكانت هجرة الفلسطينيين الى لبنان ايضا تدعيما للجانب الاسلامي فيه اذ ان غالبية الفلسطينيين من المسلمين . والمسيحيون فيهم ولاؤهم الاول للفلسطينية . وهم مسيحيون

ارثوذكس وليسوا موارنة .

لهذا كان الفلسطينيون كلهم محسوبين على القوى الاسلامية . وكان وجود هذه القوة الاسلامية كحقيقة على ارض الواقع اللبناني بمثابة الغطاء او الحماية لقوى لبنان الاسلامية ، والعجيب ان المقاومة الفلسطينية لم تفكر بهذا الوضع حين دخلت الى لبنان بعد ان خاضت الحروب المتكررة على الموقع . ولكنها وجدت نفسها فيه حين اعتمدت عليها القوى الاسلامية تلقائيا خاصة وان المعارضة للوضع اللبناني المختلط كانت تظهر بشكل سرطاني بين كل الفئات المتضررة من هذا الوضع لاننا عندما تكلمنا عن الرئاستين. . . رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء متمثلتين في الطائفتين الكبيرتين. . .تركت بقية الطوائف الصغيرة تتخاطف بقية المناصب فيما بينها مما ادى الى نشوء تيارات معارضة للحكم واتجاهات وولاءات متعددة ومتشعبة .

هذه الميول المعارضة وجدت في الوقوف الى جانب المقاومة الفلسطينية اكبر ضرب للسلطة التي كانت تحاول قمع حركة المقاومة كما كانت تقمع بقية الطوائف . ووجدت كل اشكال المعارضة هذه في المقاومة الفلسطينية المتنفس الاكبر في مقاومة السلطة .

وهكذا وجدت حركة المقاومة نفسها في عمق مشاكل المجتمع اللبناني . وما كانت تستطيع ان ترفض يدا تمتد إليها بالصداقة والتأييد خاصة وهي ترى السلطات الرسمية تضيق وتتحرش بها ، وهي لا تملك الا هذا الموقع الذي حصلت عليه بكفاح ودماء ثم اصبح المأوى الوحيد او الاخير بعد خروجها الحزين من الاردن :

اذن دخلت المقاومة الفلسطينية تلقائيا في نسيج القماشة اللبنانية! وان كان هذا الدخول قد اتاح لها انفتاحة كبيرة ونموا أكبر. . . الا انها وجدت نفسها متورطة في المشكلة الاساسية في حياة اللبنانيين. . . وهي الطائفية . ولكن ليس بمعنى انها هي نفسها قد انحازت لفرق طائفية . . وانما انحازت اليها الفرق المظلومة والمتضررة الى جانب احرار واصحاب النخوة في لبنان! .

والحقيقة ان تاريخ الحرب اللبنانية لم يبدأ بحادث عين الرمانة . اذ لا بد ان نذكر حادث اغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة في فردان على يد القوات الاسرائيلية وتواطؤ بعض قيادات الجيش اللبناني في ذلك ، مما ادى الى استقالة رئيس الوزراء السيد صائب سلام وكذلك الاشتباك الذي وقع عقب ذلك بين الجيش والمقاومة الفلسطينية يوم ٢/٥/١٩٧٣ ثم جريمة اغتيال القائد الناصري اللبناني معروف سعد في صيدا يوم ١٩/٢/١٩٧٥ ، فجاء حادث الباص المحمل بالفلسطينيين وبعض اللبنانيين الى مخيم تل الزعتر من خلال حي عين الرمانة صاحب الغالبية المسيحية ليكون كالقشة التي قصمت ظهر البعير.

واحدث هذا الحدث هزّة وتخلخلا في الأمن اللبناني كله حيث اتضح ان هناك من

يدبر للبنان بالعقل مستهدفا الامن به . . ومستهدفا الوجود الفلسطيني ايضا. وقد اتضح الهدف وهو سحب القدم الفلسطينية للحرب! .

وبرغم ان الايديولوجية التي كانت تحكم منظمة فتح . . والتي اعلنها قادتها منذ اول يوم كانت تقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد عربي. الا ان وضع المقاومة في لبنان أوقع القادة في الحيرة. اذ ان التكوين الداخلي في لبنان كان يشمل الفلسطينيين انفسهم كأحد مكونات هذا الداخل. وما كان باستطاعة حركة المقاومة ان تغمض عينيها باعتبار ان ما جرى هو امر داخلي وهو يستهدفها هي كهدف أول بها يحدث.

واتضح وجود المخطط الموضوع مسبقا الا ان قوات «فتح» لم تشترك او تتدخل بكل ثقلها في هذه المصادمات التي وقعت وتفجرت بعد حادث عين الرمانة. اذ انها كانت مركزة وبشكل كبير في مواجهة الحدود الاسرائيلية . . ولانها كانت تحدوها روح الامل في ان يهدأ الوضع.

و«ابو عمار» (الذي كان خارج لبنان اثناء الحادث)، ينظر بعين المتفحص لكل ما يجري. فرأى ان يطلع الملوك والرؤساء العرب على حقيقة ما يجري.

فبعث برسالة الى كل الملوك والرؤساء العرب يطلب منهم التدخل. وان كان لم يتلق ردا من اي منهم الا انه ظل طوال الوقت بعد هذا وبعد تلقيه أية ضربة يهرع بارسال ارسائل اليهم دائما! ولا احد ينسى رسائله الدائمة اثناء الحرب والحصار في بيروت بعد ذلك والتي كان يستغيث فيها بهم . . ولكن ما من مجيب. وحين سألته عن هذه النقطة قال: «دائما انا اقول اننا سنظل نقاتل وحدنا الى ان تلحق بنا أمتنا العربية».

وفي هذا الوقت الذي كان يلجأ فيه «ياسر عرفات» الى رؤساء أمته العربية يستنجدهم قام الاب شربل قسيس رئيس الرابطة المارونية واحد اركان الجبهة الانعزالية بزيارة الى حيفا لبحث الوضع والتنسيق في الخطوات اللاحقة مع الاسرائيليين»![١].

ولم يهدأ الوضع . . بل سار من سيء الى أسوأ. وابتدأت عمليات الخطف والقتل على الهوية واتسع نطاق الاشتباكات وظهر التناحر واضحا بين السلطتين الكبيرتين في البلاد مما ادى برشيد الصلح رئيس الوزراء الى الاستقالة بعد ان وضح ادانته للكتائب المسيحية وحمّلها مسؤولية ما يجري بها في ذلك مجزرة عين الرمانة. واكد التهمة فان هذا الحزب يتعمد ان يصعد الموقف ضد حركة المقاومة الفلسطينية.

ويقول العقيد «ابو الطيب» في كتاب زلزال بيروت عن هذه الفترة: «كانت جولات الصراع متلاحقة وكثيرة وكانت الحوادث التي أذكت نيرانها ومن ابرزها اغتيال معروف سعد والاعتداءات الاسرائيلية المتوالية على قرى جنوب لبنان ومجزرة عين الرمانة والخطف على

---

زلزال بيروت ص ٢

الهـوية والقنص والقصف العشوائي والسبت الاسود، هذا بالاضافة الى معارك الاسواق التجـارية والفنـادق ومعارك الجبل والكرنتينا وتل الزعتر. وتجدر الاشارة الى محاولة اغتيال ريمون أده واغتيال الشهيد كمال جنبلاط وغيره من الشخصيات اللبنانية الوطنية.

وفـرز الوضع العام قوتين متناقضتين الجبهة الانعزالية التي تزعمها حزب الكتائب برئاسة بيار الجميل، ورئاسة كميل شمعون للوطنيين الاحرار، وإيتان صقر لمنظمة حراس الارز والاباتي شربل قسيس رئيس الرابطة المارونية، والمردة بزعامة طوني فرنجية اضافة الى احزاب مسيحية اخرى.

ووقف من الجانب الآخر الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية بقيادة كمال جنبلاط. ووضـح ان العدو الصهيوني يزود الميليشيات الانعزالية بالاسلحة عن طريق ميناء جونية وتدريب العسكريين حيث تم فتح ثلاث معسكرات لهم في شمال فلسطين. وكانت التقارير تشـير في ربيع ١٩٧٥ الى ان الكتـائب قاربت استكـمال استعدادها العسكري لكوادرها المحاربة وتزودت بالسلاح والذخيرة بكميات تكفيها فترة الصدام الاولى[١]».

وظهر واضحا ان النية مبيتة ضد الفلسطينيين وان حزب الكتائب ما كان يهمه القضاء على معارضيه من اللبنانيين انفسهم بقدر ما كان يهمه القضاء على الفلسطينيين او ربما كان يتصـور ان القضـاء على الفلسـطينيين اولا هو الـذي يتيح له وببساطة القضاء على بقية خصومه! . اذ ان قوات المقاومة كانت السند القوي لكل المتضررين من الهيمنة المارونية الكتائبية.

الا ان القيادات السياسية لحزب الكتائب ما كانت تظهر ذلك العداء. وكانت تحاول ان تتصف بالمرونة. ويقول القائد «ابو اياد» في كتابه فلسطين بلا هوية، عن هذه الفترة التي كان الفلسـطينيون يحاولون فيها إقامة علاقة صداقة وتعاون مع هذه الطوائف المتمايزة في المجتمع اللبناني خاصة الطائفتين الكبيرتين؛ «كثيرا ما كان القادة الفلسطينيون و«عرفات» بخاصة يلتقون مع بيار الجميل وكميل شمعون في جو يسوده الود بل التقدير المتبادل. وكان شمعون يظهر من خلال هذه الاجتماعات وفي مواقفه العلنية اعتدالا مثاليا. في حين ان سلوك الزعيم الكتائبي كان يحيرنا فهو في الاجتماعات متفهم ومعقول دائما ومستعد للتسوية الا انه لا يلبث فور انتهاء المحادثات ان يصدر او يفضي بتصريح معاد معاداة واضحة للفلسطينيين.

وحين أبدينا ذات يوم دهشتنا من هذه الازدواجية فسر لنا ذلك بعدم قدرته على ان يفعل غير ذلك، بالنظر الى مشاعر انصاره ومحازبيه الذين لايفهمون كنه الحوار القائم مع رؤساء المقاومة.

---

زلزال بيروت ٢١ ـ ٢٢

وفهمنـا بعـد ذلـك بكثـير ان الكتائبيين كانوا يعبئون الرأي العام منذ ذلك الحين استعدادا للصدام مع الفلسطينيين»[1].

حقيقة كانهذا واضحا . . ولكننا ما كنا نستطيع ايضا اغفال الوضع الخارجي العربي في تصعيد حدة التـوتـر في لبنـان ولا الوضع السياسي الامريكي في تضييق الخناق حول الفلسطينيين في لبنان باعتباره نقطة التمركز الاولى لقوتهم الضاربة .

فالوضع العربي كان يبدأ مباحثات ومفاوضات ويوقع اتفاقات بما عرف باتفاقية فك الاشتباك الذي نجم نتيجة حرب اكتوبر . وايضا تنامي قوة المنظمة منذ اليوم الذي اتخذت فيه قمة الرباط في ٢٨ اكتوبر **١٩٧٤** قرارا لتأكيد حق الشعب الفلسطيني في إقامة سلطة وطنية مستقلة تحت قيادة منـظمـة التحـرير الفلسـطينية الممثـل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني على اي ارض فلسطينية يتم تحريرها . . . الأمر الذي جعل دور الاردن يتوارى في محاولة حصوله على اي ارض من اراضي الضفة . وكان هذا الاعتراف العربي كأنه تأكيد لغياب دور الاردن عن حرب ٧٣ ولذلك فلم يكن له حق الحصول على أية مكاسب ! .

وفي نفس الـوقت اذن هذا بدخـول كبـير وواضـح لمنـظمـة التحـرير الى الـوضع الديبلوماسي . بينما ظل دور سوريا مشكوكاً فيه بعد ان قبلت اتفاقية فك الارتباط الاولى ولم يظهر بوضوح ما اذا كانت ستواصل الاتفاقيات ام انها ستتخذ لنفسها موقفا خاصا .

ولكن بعـد ان حدثت التغيرات في الرئاسة الامريكية وسقوط الرئيس نيكسون . . وتـولى الـرئيس الجـديد جيرالـد فورد واعتماده ايضا على كيسنجر في ادارة وزارة الخارجية وبالذات مهمة ادارة الصراع في الشرق الاوسط .

واستطاعت الديبلوماسية الكسنجرية ان تسفر عن اتفاقية سيناء الثانية التي اعلنت في اول سبتمبر **١٩٧٥** بين مصر واسرائيل . . . وبعدها بثلاثة ايام وقعت الاتفاقية في جنيف والتي تعهـدت فيها مصر بالامتناع عن استعمال القوة ضد اسرائيل والسماح بمرور سفن البضائع خلال قناة السويس الى اسرائيل ! . . . امام انسحاب اسرائيل من بعض اجزاء مهمة في سيناء .

ولكن كان هناك بعض البنود السرية والتي هي من طبيعة هذه المعاهدات التي توقع بين العرب واسرائيل والتي لا يقوون على إذاعتها في وقتها .

كان اهمهـا ما يتعلق بالفلسـطينيين خاصـة والتعهدات كانت قائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل حول مؤتمر الصلح المزمع عقده في جنيف . وهو الفيتو الذي وضعته امريكا على منظمة التحرير ارضاء لطفلتها المدللة اسرائيل والذي تتعهد فيه امريكا انها لن تتفاوض معها ولا تعترف بها طالما ان المنظمة لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس

---

[1] فلسطين بلا هوية ص ٢٥١

الامن ٢٤٢ و٣٣٨.

وأثرت هذه الاتفاقية ببنودها العلنية والسرية التي ما لبثت ان عُلمت على كل المستويات على الوضع في لبنان.

وكان تحفظ الولايات المتحدة بمثابة إشارة ضوء لكل من يريد القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية.. والتي صورتها للجميع عقبة في سبيل أية تسوية أو حل!.

وبهذا كان الوضع في الخارج وفي الداخل ينبىء بما سيجري. اذ ان كل الظروف باتت تدفع بالوضع نحو التهلكة. وامام كل هذا كان الفلسطينيون يحاولون جاهدين عدم الانغماس بالكامل في الحرب اللبنانية. الا ان قوة الدفع كانت أكبر وأشد. وتلاحقت الاحداث بحيث غمر طوفانها الجميع.. فاذا بالكل غرقى في أليم!.

ففي نهاية ٧٥ قامت القوات المسيحية باستخدام القوة ضد سكان الاحياء المسلمة والفلسطينية وحصارها لخنق اي مقاومة بها للتهجير. وفي اوائل عام ٧٦ تم تدمير مخيم ضبية الفلسطيني رغم ان سكانه كانوا مسيحيّ الفلسطينيين. ومحيت احياء الكرنتينا من على الارض وهي الاحياء الاسلامية الفقيرة في بيروت.

وأقيم الحصار حول المخيمات الفلسطينية خاصة تل الزعتر. ولم تجد القيادة الفلسطينية بدا من التدخل بكامل قوتها، خاصة وانه لم يكن هناك من شك ان هناك تعاونا وثيقا قام بين اليمين المسيحي وبين اسرائيل في مراحل هذه الحرب الاهلية. ولم يكن المسيحيون يخفون ذلك ويظهرونه لتأمين بقائهم بل ان سعد حداد انضم وعلنا بميليشياته المارونية في الجنوب الى اسرائيل. وانتقل بشير الجميل قائد القوات الكتائبية الى بلدة نهاريا الاسرائيلية للتشاور مع قادة اسرائيل. وفي جونية ايضا، وهي مقر قيادة اليمين المسيحي دارت لقاءات للكتائبيين مع الاسرائيليين.

وقد فصّل كل هذا الكاتب الاسرائيلي شيمون شيفر «في كتابه ـ كرة الثلج» ونشر بالصور والوثائق زيارات القادة الكتائبيين والاسرائيليين. ويعلل صاحب الكتاب ذلك بان المسيحيين كانوا يؤمنون ايمانا راسخا تقريبا ان باستطاعة دولة اسرائيل الانتصار على كافة اعدائها وكان الاسرائيليون يحسبون بكل هدوء ودقة أهمية اكتشافهم فقد كانوا يعتقدون ان بامكان اللبنانيين مساعدتهم على محاربة المنظمات الارهابية.

ويقول ان تفكير المسيحيين الذي قدموه سهلا جدا: اننا نقاتل نفس العدو.. الفلسطينيين![1].

ويكمل القائد «ابو اياد» الحديث وهو يقول: «الواقع هو ان المعونة المتعددة الاشكال المقدمة من الدولة الصهيونية كانت مغرية فقد كانت الاسلحة الامريكية الصنع البالغة

---

عملية كرة الثلج شيمون شيفر

التـطور تتدفق على جونيه. وقد استخدمت هذه الاسلحة في ارتكاب أفظع الجرائم التي عرفها لبنان والتي تشهد على الطابع الفاشي للميليشيات المارونية. ولاحظت انه منذ يناير ٧٦ ان الحـرب قد اتخـذت منعـطفـا جديدا. فقبـل ذلك بأسبوع طوّق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومُنع اهله من التموين والدواء وحتى الماء، وبعد ذلك بأيام اقتحم الكتائبيون ومغاوير حراس الارز مخيم ضبية المأهول بالفلسطينيين المسيحيين والمسلمين.

وبرغم ذلك فان المخيم دمر وذبح أهله وبعد ذلك بأسبوع في ١٩ يناير مسحت احياء الكرنتينا عن وجه الارض بواسطة جرارات. وكانت الحصيلة ثلاثة الاف قتيل مُثل بكثير منهم تمثيلا وحشيا ثم ان جنـود بيار الجميل وكميل شمعـون احتفلوا بانتصـارهم بشرب الشمبانيا فوق اكوام الجثث وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم! «كما ظهرت ذلك الصور التي اخذها لهم المراسلون الاجانب».

اما الناجون من المخيّم فانهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في المخيمات الاخرى للاجئين والتي سيستأصلها الجنود الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق.

وطـرحت علينا هذه المجازر خيارا خطيرا فنحن لا نريد من جهة اولى ان نتدخل بصورة واسعة في النزاع طبقا للقرار الذي اتخذناه في مطلع الحرب الاهلية والقاضي بالا ننزلق الى الشرك المنصوب لنا غير انه كان من الصعب علينا من الجهة الثانية الا نرد على التحديات التي تلقيها احزاب اليمين المسيحي في وجهنا فقد كان من شأن الهجمة الدموية انها وجهت ضربـة معنـوية شديدة الى الفـدائيين والى الفلسـطينيين والمسلمين اللبنانيين الذين بدأوا يستنكرون سلبيتنا.. فكان لا بد لنا من استعادة المبادرة، وقررت القيادة العسكرية المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ان تحتل الدامور[1]

وكان على القوات المتمركزة في منطقة العرقوب والجنوب اللبناني وقواعدها قرب الحدود الاسرائيلية الشمالية... كان لا بد لها من دخول الحرب وخاصة بعد حصار مخيم تل الزعتر الذي كان موقعا مهما للحركة الفدائية والذي كان يضم حوالي سبعين الف فلسطيني بينهم كثيرون من اللبنانيين الفقراء!.

وكانت القوات اليمينية قد أقامت لها مراكز عسكرية خاصة في منطقة الدامور وايضا العيشية والـريحان. وقاموا بإيقاف الفلسطينيين على هذه الطرق وقتلهم على الهوية وقطع طريق الجنوب اكثر من مرة امام القوات الفلسطينية سواء القادمة من الجنوب او الذاهبة اليه فلم يكن في وسع القوات الفلسطينية الا ان تنضم لذلك الحصار الذي ضربه المعارضون اللبنانيون حول معقل كميل شمعون في الدامور الى ان سقطت البلدة. ومنذ ذلك اليوم،

ارتبط مصير المقاومة بمصير المعارضة اللبنانية مما سيؤدي الى قيام تحالف فعلي بينهما تحت اسم القوات المشتركة.

وبرغم اختلاف الانتماءات الايديولوجية بين المقاومة الفلسطينية وبين الخط المعارض المتمثل في عديد من الطوائف، الا ان ما وحد بينهم هو دفع الخطر الماروني الكتائبي المسيطر. وكان هذا الذي حدث اكبر اشعار بتردي الوضع ككل في لبنان. وادى تفتيت الجيش اللبناني ـ الذي كان رشيد كرامي يحاول تلافي تفتته بين الطوائف ومنع اشتراكه في اي عمليات حتى لو كانت للمحافظة على الأمن منعاً لانحيازه مع اية طائفة لكن سليمان فرنجية بمساعدة شمعون استخدما الجيش للدفاع عن الميليشيات المسيحية، لذلك بعد انشقاق احمد الخطيب اتبعه حوالي الف جندي وضابط تحت اسم جيش لبنان العربي والذي دعم قوة قوات المعارضة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية سواء بالسلاح او بالخبرة العسكرية.

ومع تناثر الجيش اللبناني في صيف ٧٦ كان يمكن للقوى الوطنية السيطرة على الاوضاع وهذا الامر الذي لا يرضى الاغراض البعيدة من الحرب اللبنانية ولا الايدي الخفية التي تحركها.

وهنا بدأ الظهور السوري على مسرح الاحداث في لبنان فقد رأت سوريا في نفسها فجأة انها الوحيدة القادرة على الوقوف بين كافة اطراف الصراع اللبناني. وبدعمها استطاع الرئيس سليمان فرنجية تقديم برنامج للاصلاحات السياسية فيما عرف باسم برنامج العمل الوطني.

ولكن ظهور سوريا بهذا الشكل ازعج بعض الفعاليات الهامة على الساحة اللبنانية التي رأت دعم سوريا للرئيس اللبناني تخلٍ عن الحركة الوطنية.

وبرز الزعيم كمال جنبلاط الذي يمثل اليسار اللبناني كأكثر المتضررين من هذا خاصة وانه كان يرى ازاحة الرئيس اللبناني الذي تدعمه سوريا.

وسوريا كانت حجتها في هذا التدخل انها تخشى التدخل الاسرائيلي في لبنان من جراء استمرار هذا التناحر. وكان الفلسطينيون في حيرة من امرهم بين هذا الخلاف الناشب ولا يستطيعون تقرير الانضمام الى اي المعسكرين.

وتقول هيلنا كوبان في هذا الموقف.. وفيما كان الفلسطينيون حائرين في هذه المشكلة العويصة فان الاطراف المعنية على الصعيد اللبناني يمينا ويسارا لم يتمكنوا من الوصول الى صيغة لتنفيذ برنامج ١٤ فبراير ـ وهو برنامج العمل الوطني.

فانتقلت المبادرة على الصعيد اللبناني الى ضابط سني مغمور في الجيش اللبناني يدعى عبد العزيز الأحدب. وكان الأحدب، القائد العسكري لمنطقة بيروت. وفي ١١ مارس ١٩٧٦ ظهر فجأة على شاشة التلفزيون اللبناني معلناً نفسه حاكماً عسكرياً مؤقتاً للبلاد كلها داعياً

فرنجية الى الاستقالة. ولقيت دعوى الاستقالة تأييداً واسعاً لدى كثيرين من اللبنانيين الذين كانوا يرون ان الزعيم العشائري الجبلي العجوز القابع في القصر الجمهوري يشكل عقبة حقيقية في طريق المصالحة.

ووقع ٦٨ نائباً من أصل ٩٩ يشكلون البرلمان اللبناني عريضة تدعو فرنجية الى الاستقالة، لكن الرئيس تمسّك بمنصبه تمسكاً عنيداً.

وتضيف هيلنا كوبان «انه من الملفت للنظر ان الأحدب لم يتوجه الى محطة التلفزيون برفقة قوة لبنانية رسمية او غير رسمية بل برفقة وحدة فلسطينية يقودها مسؤول الأمن في «فتح» علي حسن سلامة!. وبهذه الاشارة اومأ قادة «فتح» انهم اختاروا دعم جنبلاط على طول الخط لأن جنبلاط هو الذي كان أول من أطلق الدعوة لاستقالة فرنجية.. حتى قبل ان يقوم الاحدب بانقلابه»[1].

وهنا تدخلت القوات السورية ذلك التدخل الذي وصفه «ابو عمار» بأنه - تأبط شرا.

فحين صمم الزعيم كمال جنبلاط على شرط إقالة فرنجية لوقف القتال اوقفت سوريا كل امدادات السلاح التي كانت تقدمها لتحالف اليسار اللبناني وقذفت بخمسة آلاف جندي الى نقطة الحدود على الطريق الرئيسي بين بيروت ودمشق والى دير العشائر الطريق الرئيسي الذي يستخدمه الفلسطينيون في وصل الامدادات الى مواقعهم في الجنوب. ثم قذفت بوحدات اخرى لاحتلال مواقع استراتيجية مشرفة على بيروت.

وحاول «ياسر عرفات» القيام بعملية توفيقية.. لكن سوريا كانت قد حسمت امرها بالتدخل النهائي في لبنان وفرض ما تراه من متغيرات بقوة السلاح ضاربة عرض الحائط بأية اعتبارات اخرى. واشرفت سوريا على انتخابات مقدمة عن موعدها ودعمت اختيار مرشحها الياس سركيس في حين كان فرنجية مازال يرفض الاستقالة.

وتقدمت القوات السورية الى شمال لبنان والى سهل البقاع، واعلنت سوريا انها تهدف لشيء واحد من هذا التدخل وهو منع تقسيم لبنان! فهل تحقق هذا بعد عشر سنوات!.

وعند هذه النقطة لم يكن هناك بد من ان يبحث الجانب الآخر عن منجاة من الوضع المتأزم الذي خلقه تدخل الجيش السوري، وتلقائيا تجمعت الحركة الوطنية الفلسطينية وجيش لبنان العربي بقيادة عسكرية موحدة تحت اسم القوات المشتركة... لصد القوات السورية!.

الا انني راجعت «عرفات» نفسه فقد كان أثار معي موضوع سورية ودخولها الى لبنان والذي وصفه بانه كمن - تأبط شرا - قلت له: لقد قلت لي دخلت القوات السورية الى

---

هيلينا كوبان المنظمة تحت المجهر ١١٩ - ١٢٠

لبنـان . . ودخل لبنان متاهة كبيرة جدا ولم تتوقف هذه المتاهة حتى يومنا هذا . . فكيف حدث ما حدث؟ . قال: «هذه النقاط التي اشرت اليها تفاعلت بعد ذلك في لبنان . ودخول هذه القوات ادى الى تصعيد الحرب بشكل كبير .

لقد ادعت سوريا انها تدخل لتحمي لبنان من التقسيم . . فاذا بدخولها وضع لبنان وبحده على شفا التقسيم .» .

قلت: «لكن عندما دخلت القوات السورية . . الم تعلن انها تدخل للمحافظة على الأمن في البلاد مثلا؟ قال: «ابدا لم يطرحوا اي شيء! دخلوا كما قلت لك بدون اساس دخلوا بناء على اتفاق مع كيسنجر، الم أقل لك ان كيسنجر كان قد وضع مخططا للمنطقة . قلت: وماذا كان مطلوبا منهم بالضبط؟ .

قال: «آه هنا السؤال . كان مطلوبا منهم ان يسيطروا على الوضع حتى لا يقوم في لبنان حكم عربي تقدمي . . . الذي كان اللبنانيون مسلمين ومسيحيين ينظرون الى تنفيذه من خلال مساعدات الثورة الفلسطينية . وهذا ما كان يأباه كيسنجر وتأباه السياسة الامريكية الصهيونية، لم يكن في نيّة احد ان يقيم نظاما ماركسيا ولا نظاما شيوعيا . هذه التهمة التي دفعتها دمشق في ذلك الحين ضد الحركة اللبنانية الوطنية . قلت: اتظن ان دخولهم هذا كان يستهدف وجودكم انتم اولا؟ قال: بدون شك . . للاسف اتضح ان دخولهم ادخل لبنان الدوامة بشكل اعنف . لقد دخل متاهة التقسيمات الطائفية وفي ظلهم قويت شوكة بشير الجميل واصبح دولة داخل الدولة»! .

وسألت: كيف قوي بشير الجميل في ظلهم؟ . قال: «بعد ان دخلوا كل لبنان اذا بهم فجأة واكرر ـ فجأة . . ينسحبون من المناطق المارونية» .

سألت ايضا: بعد ان كانوا يسيطرون عليها؟ . قال: «طبعا فعندما دخلوا كل لبنان بدأ تنفيذ الاتفاق السري الذي تم بين الرئيس الاسد وكيسنجر بالانسحاب من المنطقة المارونية .

وفي هذه المنطقة المارونية نشأت دولة داخل دولة . وانشأ بشير جميل قوته العسكرية الـذي يقـول إيتـان رئيس الاركـان في كتـابـه الجـديد ويقـول ساجي رئيس المخـابرات الاسرائيلية: لقـد اعـطينا هذه الدولة من الاسلحة ما يفوق قدرة استيعابهم لاستخدام هذه الاسلحة . واكثر من ذلك، فقد اعطوا من الاموال وهذا باعتراف بيغن واعتراف ساجي واعتراف إيتان ـ انهم اعطوا من الاموال ما اعتبر انه حجما كبيرا تسليحا وتمويلا وتخطيطا .

ولقـد حدث اهم اتصـال ماروني ـ اسرائيلي من خلال بشير الجميل . ومن خلال الكتائب ومن خلال غيرهم من الزعماء اللبنانيين» . قلت: يعني اشتبكتم مع السوريين؟ . قال بأسف: «لقد فرض علينا الاشتباك واستمر اكثر من ستة أشهر»! .

ومن وسط انـدهـاشي قلت: اريد ان اسـأل حين انسحب السوريون من المناطق

المارونية . . الى اين تحركوا؟ قال بحدة: «الى المناطق الوطنية والاسلامية . . لا تستغربي . . انسحبوا من منطقة الموارنة وبقوا فقط في المناطق الوطنية الاسلامية ولذلك نشأت في منطقة الموارنة دولة بشير الجميل! .

تركوا الحرية للقوات اللبنانية ان تتسلح وتتدرب وان تتمول وتقيم دولة داخل الدولة لانهم انسحبوا منها وظلت سيطرتهم على المناطق اللبنانية الاخرى من الزهراني جنوب صيدا ـ اي من خط العرض ٣٧ وحتى طرابلس في الشمال». قلت: لكن بشير الجميل لم يكن قد اصبح بعد رئيسا للجمهورية! . قال: «ليس مهما فقد كان هو قائد قوات الكتائب واستطاع ان يتخلص من كل خصومه ويصبح الرجل القوي في المنطقة المارونية . وبذلك اقامت سوريا عمليا سيطرة الكتائب المسيحية على لبنان» .

سألت: لمصلحة مَنْ؟ ابتسم وهو يقول: «احزري انت . . لمصلحة مَنْ؟» . .

وهنا نتوقف لحرج الموقف الذي كانت تسببه القوات السورية . فقد ضيقت الخناق وحاصرت بيروت وطريق دمشق . وكان لا بد للقائد الفلسطيني ان يخرج من بيروت او ان يبتعد عن هذه القبضة الحديدية التي يحاول ان يلفها حوله اعداؤه .

وكتب العقيد «ابو الطيب» عن هذه النقطة في كتابه زلزال بيروت يقول: «وخرج دون ان يشعر به احد وعاد ثانية الى قلب بيروت بطريقة اخرى . وفوجىء العالم كيف خرج وكيف عاد؟» .

ولكني عرفت كيف خرج وكيف عاد والراوي احد مرافقي «عرفات» في هذه الرحلة . ووعدته الا اذكر اسمه . قال: لقد حلق «ابو عمار» ذقنه وركب طائرة مدنية وسط الركاب العاديين . ولم ينتبه احد ابدا ان هذا الراكب الذي يدخن البايب هو «ياسر عرفات» الزعيم ـ الرمز!

وبقي مدة خارج بيروت وهي في حصارها السوري . وعندما قرر ان يعود اتخذ طريقا مغايرا تماما اذ انه استقل ومرافقوه سفينة من ميناء الاسكندرية وصفها محدثي بانها كانت تعيسة اذ انها كانت قديمة متهالكة . . واخذت تقطع بهم الماء في اتجاه بيروت دون ان يعرف القبطان خطورة ركابه ولكنه علم بالامر قبل ان يصل فأراد ان يكر راجعا . . ولكنه وافق على مواصلة طريقه بحماية ركابه الخطرين! .

وبمجرد ان اقتربت السفينة من الشواطىء اللبنانية بجوار صيدا اخذت تقصفها المدفعية السورية بنيرانها مما جعل القبطان يبتعد . . ووجهه الركاب ناحية تبعد عن مرمى النيران السورية . . ولكن عندما وصلها اصر على ان يغادروا السفينة على ظهر قارب صغير لا شك انه كان في حالة اتعس من السفينة نفسها . . واضطر الرجال ان يقبلوا! .

وقذف القبطان بهم الى عرض البحر بزورقهم الصغير التعيس . وهنا غادرهم اثنان

ممن يجيدون السباحة بقصد الوصول الى الشاطيء والحضور بزورق كبير ينقل هذا الحمل الخطير الى الشاطيء.

وبقي «ياسر عرفات» ومرافقوه في زورقهم الصغير فوق سطح البحر وتحت ظلمة الليل في انتظار رفاقهم كاتمي الانفاس واصبع كل منهم على زناد مسدسه لان المنطقة كانت مرتعا لقوارب دوريات الحدود الاسرائيلية! . وقد امرهم القائد انهم لو تعرضوا لهجوم اسرائيلي فلا بد من الالتحام ولكن ليبقى كل منهم الطلقة الاخيرة لنفسه حتى لا يقع اسيرا للاسرائيليين. وقال محدثي . . لك ان تتصوري تلك اللحظات ونحن في انتظار الموت في كل لحظة. وكان هو اكثرنا ثباتا وسكونا. ثم اتتنا النجدة حين عاد الرفيقان بالزورق الكبير وفوجئنا بخروج مئات الزوارق لاستقبال وتحية «ابو عمار» حين علم اللبنانيون بوصوله فخرجوا في شبه مظاهرة. وهكذا خرج «ياسر عرفات» من بيروت في مثل هذا الوقت العصيب. . . وهكذا عاد! .

الا ان المواجهة التي تمت في الدامور وانتصار القوات المشتركة والهزائم التي اصابت الميليشيات المارونية كانت تزعج سوريا الى أقصى حد. وهي تبرر هذا الانزعاج بان اي انتصار فلسطيني تقدمي لا بد وان يؤدي الى تدخل أجنبي من جانب امريكا او اسرائيل. فإما امريكا فللقضاء على المد الشيوعي . . . واما اسرائيل فللقضاء على النجاح الفلسطيني. وهذا ما كان يزعج الرئيس السوري وما جعله يتدخل لمصلحة لبنان. . او سوريا. . . او. . . ! .

على كل أعلن الرئيس السوري غضبه على المقاومة والقوى المتحالفة معها وقذف بتهمه في وجه «ياسر عرفات» وابو اياد اللذان كانا يقومان ايضا برحلات مكوكية من والى دمشق للتفاوض مع الرئيس السوري. وكانت هذه المرة بحضور رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود الذي كان يحاول القيام بالوساطة. وكان الرئيس غاضبا في هذه المقابلة مهددا بارسال جيشه الى لبنان لاعادة النظام اليه. وبعد ذلك باسبوعين كما يقول القائد ابو اياد بدأ ستة آلاف جندي سوري سيصل عددهم بعد ذلك الى ٣٠,٠٠٠ مدعومين بمئات الدبابات والمدافع الثقيلة باجتياز الحدود اللبنانية! وادى هذا الى وجود تذبذب داخل المنظمات. فقد قامت المنظمات الموالية لسوريا باستغلال الوضع لصالح سوريا وبتحريض منها. . الا ان القيادة تنبهت وقامت قوات «فتح» باحتلال مكاتب المنظمات التابعة لسوريا ونزعوا سلاحها. وانتهت حركة التمرد هذه بسلام، اذ انه على ما يبدو ان هذه المنظمات الفلسطينية لم تكن حقيقة راغبة في القتال مع اخوانهم من اجل سوريا بما أبطل مفعول مخطط كيسنجر والسياسة الصهيونية التي كانت تنتظر حدوث المواجهة السورية الفلسطينية.

وبعدها وبعد حادث اغتيال سفير الولايات المتحدة الجديد في بيروت من الجبهة

الشعبية، وبعد حادث الاغتيال بستة ايام اي في يوم **٢٢** يونيو **٧٦** بدأت معركة تل الزعتر الذي كان محاصرا من قبل القوات المسيحية منذ شهر يناير واستمرت المعركة اكثر من خمسين يوما متتالية من أطول واشرس معارك الحرب الاهلية اللبنانية.

وتشير المؤشرات كلها ان القوات المارونية والقوات الكتائبية التي كانت تحاصر المخيم ما كانت تستطيع ان تفعل به ما فعلت وترفض عرض التسوية الذي قدمته المقاومة والقوى الوطنية قبل دخول الجيش السوري بأسبوع واحد.

وظهر ان هذه القوى الباغية تستند اساسا على الوجود السوري ودعمه والذي كان يتمركز في الشمال وفي الشرق فيشل حركة المقاومة شللا كاملا بحيث لا تستطيع التحرك لفك الحصار عن المخيم.

وشهد سقوط تل الزعتر كثيرا من المآسي الانسانية التي تلطخ وجه لبنان كلية بالهمجية واللا انسانية. كما شهد قصص بطولة وتعاون وصمود مما يعتبر فخرا لكل من صمد وناضل وسقط في تل الزعتر. ولو اقيمت محاكمات في لبنان لمجرمي الحرب الاهلية لحوكم جلادو تل الزعتر كأعتى مجرمي الحروب اذ ان عمليتهم الخسيسة غدرت بكل الاتفاقات حين فتحت النار على جميع سكان تل الزعتر وهم يغادرون المخيم عزلا من السلاح وفق الاتفاق المعقود بواسطة ممثل الجامعة العربية. وسقط حوالي ثلاثة آلاف ضحية!.

ويقول القائد «ابو اياد» في كتابه فلسطيني بلا هوية: «ولكن جلجلة تل الزعتر افادت في انها اظهرت مرة اخرى انه ليس بوسعنا الاعتماد على غير انفسنا. فقد ادار العالم المتحضر عينه بخفر واحتشام عن المجزرة. ولا ريب انه وجد في اوروبا رجال ونساء سخطوا واستنكروا ونظموا الاجتماعات ومظاهر الاحتجاج الا ان عملهم هذا ظل اكثر تواضعا من ان يؤثر على مجرى الاحداث غير ان الفضيحة الحقيقية وقعت في موضع آخر... في العالم العربي الذي لم ترفع فيه دولة صديقة ولا عدوة اصبعها لتنقذ الخمسة وثلاثين الف مواطن ومواطنة من ابناء تل الزعتر. وليس في وسع احد ان يقنعني ان مائة مليون عربي يعجزون عن كسر حصار فرضه بضع آلاف من الاشخاص او عن ان يرفعوا صوتهم ليمارسوا الضغوط ان لم يكن على الميليشيات فعلى سوريا التي كانت تحميهم على الاقل».

وفي **١٣** اغسطس **١٩٧٦** عقد بشير الجميل قائد ميليشيات حزب الكتائب مؤتمرا بعد نجاحه بقواته وقوات ميليشيات النمور التابعة لكميل شمعون في اقتحام مخيم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين في منطقة بيروت الشرقية. وبعد هذا المؤتمر دعا الصحفيين لدخول المخيم ليروا بانفسهم ما انجزه فيه!.. وقال لهم بالنص: اننا فخورون بما سوف ترونه هناك!!.

ويحمل ابو اياد في اتهام ادانة على العالم كله الذي تخلى عنهم في محنتهم ويقطر كلامه

بالمرارة . . «كما قلت فان الدول العربية لم تكن تخشى شيئا خشيتها انتصار القوات الفلسطينية والتقدمية ولانهم كانوا مكرهين برغم كل شيء ونتيجة للرأي العام عندهم على دعمنا من اطراف السنتهم واحيانا الى دفع معونات سخية لنا فانهم كانوا يمولون ويشجعون المشروع السوري في لبنان في آن معا بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي وحتى عندما كانوا لا يتمنون إزالة «فتح» فانهم كانوا يحرضون على تدمير الجناح اليساري في المقاومة . وخلافا لما يمكن ان يعتقده البعض فان شاغلهم لم يكن حماية المعتدلين بين الفدائيين لانهم كانوا يمدون دعمهم الى التشكيلات الفاشية داخل جبهة الرفض»[1]

ولا يستطيع منصف الاوان يتساءل . . لماذا فعلت سوريا ذلك . . الا ان السؤال الاكثر ايلاما كيف تركها البلاد العربية الاسلامية تفعل ذلك؟! . وان كانت الحجة موضوع اليسار . . فهل تبتعد سوريا عن اليسار كثيرا؟ . . وهل المقاومة الفلسطينية القوة الوحيدة التي تقف في وجه اسرائيل متهمة ايضا بوجود بعض التيارات اليسارية فيها؟. وهل تعنيهم قضية اليسار واليمين اكثر مما تعنيهم قضية وجود اسرائيل وخطر اسرائيل؟. ترى . . ايهما أخطر؟! .

وتقول هيلينا كوبان البريطانية : «كان حصار تل الزعتر ثم سقوطه تجربة دائمة الاثر في الحركة الفدائية لانها جسدت للاجيال الفلسطينية الجديدة ذلك النوع من الرعب الذي خبره اسلافهم على يد جماعات الارغون التي قادها مناحيم بيغن في الاربعينيات لكن القتلة هذه المرة ـ كما في الاردن قبل سنوات ـ كانوا من اخوانهم العرب! .

وفيما اليمينيون اللبنانيون منغمسون في حفلة القتل الاخيرة وقد قتل فيها ١٥٠٠ من سكان المخيم في يوم واحد هو يوم اجلاء المخيم . . كان جيش نظامي عربي «قومي» . . . يقف على رؤوس التلال القريبة مكتوف الايدي ان لم يكن متواطئا بالفعل . . وهذا هو المشهد داخل تل الزعتر في اليوم التالي لسقوطه!»[2] .

هذا كان وصف هيلينا كوبان البريطانية . . نورده بدون تعليق! .

وادت التغيرات التي وقعت على الارض بعد سقوط المخيم الى تعزيز المواقع انتظارا لحل او مفاوضات دبلوماسية . خاصة بعد النداء الذي وجهه «عرفات» بيوم واحد من سقوط المخيم الى رؤساء الدول العربية لعقد مؤتمر قمة . وكان على القيادة الفلسطينية العمل بحذر لافشال الهجوم العسكري والديبلوماسي المنتظرين من السوريين . الاول بالهجوم على مواقعهم في المناطق الجبلية من المتن الأعلى والثاني بمحاولة خلق قيادة بديلة موالية لدمشق في حركة المقاومة الفلسطينية .

---

فلسطيني بلا هوية (!)
المنظمة تحت المجهر ٢

وهـذا الامـر الاخـير سنلاحظه بعد ذلك في كل الازمات التي مرت في العلاقات السورية ـ الفلسطينية.

هذا الامر الذي كان دائما يخلق نوعا من البلبلة داخل صفوف المقاومة بوجود هذه الفصائل التي توالي سوريا إذ انه اصبح المشكل واضحا من جديد بين الخيارين. التحالف مع اليسار اللبناني بقيادة الزعيم كمال جنبلاط.. ام المواجهة مع سوريا؟.

وحين شن السوريون هجومهم المنتظر على جبال المتن الاعلى نجح الفسلطينيون في الانسحاب الى اماكن دفاعية في صوفر وبحمدون وعاليه. وهي المواقع الجبلية المتقدمة.. الامر الذي كان يعارضه جنبلاط الذي كانت هذه المواقع الجبلية تمثل له اهمية كبرى في مواجهة قوات اليمين اللبناني!.

وهاجمت القوات السورية بحمدون في اول اكتوبر الا ان القوات المشتركة نجحت في إيقاف الزحف السوري الكتائبي المشترك الذي اكملته القوات الكتائبية على محور بحمدون ـ عاليه!.

وأدى تحرك «عرفات» الذي كثف رسائله ونداءاته الى رؤساء وملوك الدول العربية كذلـك لرئيس الاتحاد السوفياتي «بريجنيف» في ذلك الوقت. ويحكي لي رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن هذا الموقف الدقيق: «كانت معجزة تلك التي جعلتني انجح في الاتصال بالامير «فهد» ولي عهد السعودية في ذلك الوقت. الذي اهتم بالامر عندما ناشدته التدخل وقـال مخلصا: امهلني ساعات. وفي ثاني يوم صدر القرار باجتماع قمة مصغرة في الرياض عاصمـة المملكة السعودية. وفي يوم صدور هذا القرار اصدر الاسد قرار وقف الهجوم، واعلن وقف اطلاق النار على كافة الجبهات.

ولك ان تعلمي انني وللعجب ـ لم اجد وسيلة للانتقال الى مكان القمة الا عن طريق طائرة سورية حملتني الى احد المطارات السورية حيث استقليت الطائرة السعودية! وبرفقة السفير السعودي وبقرار من القادة العرب الذين وصلوا الى الرياض وكنا في اجتماع الرياض ستة، الملك خالد رحمه الله وامير الكويت والرئيس السادات والرئيس الاسد والرئيس اللبناني الياس سركيس وأنا. وبرغم الاشتباك الذي حدث بين الرئيس السادات والرئيس الاسد الا ان الملك خالد اوقف بثقله السياسي ونفوذه القوي هذا الصدام، اذ اقنع الجميع اننا لم نجتمع الا من اجل الانقاذ. وبالفعل عاد الوئام للرئيسين المتخاصمين في ثاني جلسة! وبعد جلسـة مغلقة تمت بين الرئيسين مساء في جناح الرئيس المصري». وسألت رئيس منظمة التحرير: هذا المؤتمر الذي قرر دخول قوات الردع العربي الى لبنان؟.. قال: «نعم.. الا اننا اعتبرنا ان قرارات المؤتمر كسبا مباشرا لنا. فقد كانت تقضي بوقف اطلاق النار واحترام تطبيق اتفـاقية القـاهـرة بيننـا وبـين اللبنـانيين. وتـأكيد الـدعم العـربي لمنظمة التحرير

الفلسطينية. ثم أهم نقطة والتي اعتبرناها اكبر المكاسب التي لم تلبث ان تحولت الى النقيض ـ وهي التي تقضي بانسحاب الجيش السوري واحلال ما سمي بقوة الردع العربي التي تتألف من وحدات عسكرية تابعة لعدد من البلدان العربية.

وكان المقصود بعد تطبيق كل البنود هو العودة الى الوضع الراهن في العلاقة بيننا وبين اللبنانيين مسبقا.. ويتم ذلك تحت اشراف من قوة الردع العربية! وما كان احد يعرف ان قوات الردع العربي المشتركة التي قررها مؤتمر الرياض لم تكن تعني الا سوريا عمليا وبعض القوات العربية الصغيرة العدد رمزيا. ويشير المراقبون الى ان عدم المعرفة هذا امتزج بارتياح عندما حملت سوريا عنهم العبء اذ ان اكثرهم كان لا يرغب في إرسال قوات الى هذا البلد المتفجر.. وكان الجميع قد قدموا موافقة ضمنية متضامنة صامتة في الاجتماع الذي عقد في القاهرة للقمة الموسعة بعد قمة الرياض المصغرة لتأكيد الدور السوري في لبنان. وبالفعل لم يكن وجود اي قوات عربية تحت اسم قوات الردع العربية الا وجودا هزيلا ما لبث ان تلاشى نهائيا حين تم انسحاب الوحدات العربية لتبقى الوحدات السورية فقط!.».

وسألت عرفات: هل كنتم تتوقعون تغييرا في الدور الذي تلعبه سوريا بعد هذه القمة المصغرة؟ اجاب: «الحقيقة كنا نتصور ان هذه القوات التي دخلت لبنان تحت اسم قوات الردع حتى ولو كانت سورية الا انها ستحترم الاساس الذي دخلت من اجله. لقد دخلت على اساس قضيتين: اولا المحافظة على لبنان ارضا وشعبا اي وحدة الشعب اللبناني ووحدة التراب اللبناني. وثانيا، الحفاظ على المقاومة الفلسطينية. وهذه كانت قرارات الرياض».

قلت بفضـول: ثم؟.. قال بأسف شديد: «ثم صار الامر الى ما تعلمين!. فلا حافظت على لبنان.. ولا حافظت على المقاومة؟».

وقـد اعجبني وصف ورد في كتاب فلسطيني بلا هوية لابي إياد حين قال عن عدم رغبة اشتراك الدول العربية في قوة الردع وترك المهمة كلها الى سوريا. «واذا كان لا بد من تفسير لرفض البلدان العربية هذا فانني أقول ان بعضا منها لم يشأ ادخال اصبعه في وكر الزنابير اللبنـاني. وان غالبيتها كانت تتمنى في قرارة نفسها ان تتولى سوريا وحدها مهمة تحجيم المقاومة.. واليسار اللبناني!!». (1).

والحق ان الفلسطينيين كانوا يعتقدون ان سوريا قد اضعفتهم بالابتعاد عنهم فهم يعدونها قبل وبعد اعتداءاتها حليفا استراتيجيا لهم.. ورغم تحول السياسة السورية السريع بين الوفاق والانقلاب عليهم الا انهم ظلوا ابدا يفتحون صدورهم بأمل أية بادرة تقارب معها.

وقد حمل عام ٧٧ تغيرات هامة على الساحة العربية حين انفرد السادات بصلح منفرد

---

فلسطيني بلا هوية

فقلب المائدة على الجميع . . . الا ان هذا ربما يكون قد قارب بين الفلسطينيين والسوريين! .

وفي دنيا السياسة لا نعجب ان نرى فرقاء الامس هم حلفاء اليوم . . والعكس! .

ورغم ان هذا التقارب لم يمنع وقوع حادث اغتيال كمال جنبلاط الذي تشير فيه اصابع الاتهام الى سوريا . ورغم ان «ياسر عرفات» كان يحاول من قبل وصل الجسور بين جنبلاط وبين السوريين ـ وفشل هذه الوساطة ـ الا ان هذا لم يدفع للمواجهة السافرة بين «فتح» وبين سوريا . وقد حاول «عرفات» بكل ما عرف عنه من حنكة سياسية ان يتجنب بقدر الامكان حدة المواجهة مع سوريا .

وتقول هيلينا كوبان هنا : «وهكذا قدر لقيادة «فتح» في النهاية ان تخرج من الحرب الاهلية اللبنانية سالمة كما ان السواد الاعظم من قواتها المقاتلة لم تخرج سالمة فحسب بل انها تمرست ايضا على مختلف اوضاع المعارك . لقد منح مؤتمر القمة العربية في القاهرة سوريا انتدابا واقعيا للسيطرة على المسرح اللبناني ولكن «فتح» انتزعت من دمشق قدرا معينا من حرية الحركة ولاسيما بحكم سيطرتها على تلك المناطق الجنوبية التي عملت اسرائيل صراحة على استثناء امكانية مرابطة اي قوات سورية فيها . وتصاعدت قوة المساومة لدى «فتح» مع السوريين خلال الاشهر التي اعقبت قمتي الرياض والقاهرة . عندما بدأ السوريون يدركون حجم المشكلة التي يمكن لليمين اللبناني ان يواجههم بها بمساعدة غير قليلة من اسرائيل! ـ وكذلك العجز الفاضح لليسار اللبناني في غياب جنبلاط»[1] .

ولعل المنصف والمتأمل للوضع في لبنان في هذا الوقت لا بد ان يسجل مؤشر النجاح بالنسبة لحركة «فتح» خاصة في غياب حضور وطني للمنظمات التي كانت تدين بالولاء لسوريا . . . والتي اصبحت مدموغة بالعمالة خاصة في مثل هذا الظرف الدقيق الذي يدور فيه القتال بين السوريين والفلسطينيين . وبالتالي حصلت «فتح» على نجاح في المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في القاهرة في شهر مارس عام ٧٧ . واستطاعت ان تمرر برنامجها السياسي من تحت أعين جبهة الرفض .

وان كانت حركة المقاومة ككل قد انهكتها الاشتباكات المسلحة التي استنزفتها في خلال اشهر طويلة تتعدى العام ونصف العام . . بالاضافة ايضا الى فقدان الحليف اللبناني بانفراط عقد المعارضة اللبنانية بغياب جنبلاط . . الا ان ورغم كل هذا فقد ضعفت ايضا القوة السورية . بل واصبح موقف سوريا مخجلا وهي التي تحارب في لبنان وتنسى الجولان . ولم يعد وجودها في لبنان يتمتع بكل ما كان له من مهابة وبريق! .

على كل فقد كان هذا الضعف الذي اصاب القوة السورية يقلق القيادة الفلسطينية التي كانت ـ وبرغم كل شيء تعتبر سوريا ذلك الحليف الاستراتيجي الطبيعي الذي لا بد

---

هيلينا كوبان ١٣٢ ١٣٢

وان يساندها عند اللزوم. ولان القيادة كانت ترقب بقلق المكاسب الاسرائيلية من كل ما جرى. وطالما حذر «عرفات» من استفادة اسرائيل من هذه الحرب التي لا تدمر الا القوى العربية. وكان محقا في تحذيره فوحدها اسرائيل هي التي ربحت في هذه الجولة.

لذلك كثف «عرفات» من جهوده التي تحاول باستماتة الحصول على اجماع عربي يصل بهم الى المؤتمر الدولي للسلام الذي هو الامل المرتقب للفلسطينيين للحصول على حل مرض وعادل بعد ان تبخرت امالهم في حضور مؤتمر السلام في جنيف الذي تجاهلهم تماما.

غير ان كلامنا هذا لا يعني عزل سوريا وانتصار المقاومة غير اننا نريد ان نشير الى انه وبعد عامين من الاقتتال ورغم وقف اطلاق النار ـ فان المقاومة كانت تواجه عدة مشكلات وعقبات مهولة. والعجيب ان تتمثل كلها في الخطرين السوري والاسرائيلي!.

ولا نستطيع الا ان نلاحظ ان الهم السوري كان بجانب الخطر الاسرائيلي لان قوات سوريا وتحت اسم قوات الردع العربي كانت تقوم بالردع على أكمل وجه الا فيما يتعلق بردع اسرائيل او قوات اسرائيل التي كانت تعمل بكل جد ونشاط وبمساعدة الانصار اللبنانيين على تقوية مراكزها. ولم يدخل تحت الردع السوري تحرك اسرائيل عن طريق الجيش العميل بقيادة سعد حداد للسيطرة على ثكنة مرجعيون التي كانت ثكنة للجيش من قبل والتي تتحكم في طريق استراتيجي بين موانىء لبنان من الجنوب وبين قواعد الفدائيين في منطقة العرقوب!.

واصبح الردع العربي ساريا فقط على الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين واغفل ابدا النشاط الاسرائيلي المشبوه وحلفاءهم في الكتائب اللبنانية والجبهة المارونية اللبنانية. وكانت القيادة الفلسطينية تعرف تماما انها الوحيدة المكلفة بالردع العربي للاسرائيليين وان ما تقوم به اسرائيل سيستهدفها هي.. وهي وحدها.. ومنذ زمن بعيد لم تعد تثق باي حلفاء.. ولا بمقولة التضامن العربي ـ فتجاربها المريرة اكدت لها بما لا يقبل الشك انه لا يجب الاعتماد الا على قوتها الذاتية. وكان يكفيها ان تكف الانظمة العربية عن العبث بها داخليا لتكون قوة متماسكة وعلمتها تجاربها المريرة ايضا ان دماء الفلسطينيين لم تكن عزيزة على العرب اكثر من معزتها عند الاسرائيليين. فقد ذبحتهم الايدي العربية في عام ٧٠ و٧١ وفي عام ٧٦ بأكثر مما طالتهم الايدي الاسرائيلية!.

فلم تغفل عيونهم ابدا عن مواجهة اعدائهم ومنذ زمن بعيد اقاموا تحالفا شعبيا مع المواطنين اللبنانيين وخاصة مع الفقراء الشيعة الذين كانوا يسكنون الجنوب. وكانت المقاومة تدرب وتسلح هؤلاء المواطنين ليشاركوا بالدفاع عن انفسهم ضد الاغارات المتكررة على الجنوب من اسرائيل. مما اوجد تحالفا طبيعيا بين هؤلاء والفلسطينيين في شبه تكتل في مواجهة المصير الواحد.

ولكن منذ حلول جيش سعد حداد في الجنوب وامتداد يد اسرائيل الى داخل لبنان حدث شرخ بين هؤلاء الجنوبيين بما اوجد - كطبيعة المناخ في لبنان - امتثالا داخليا بين من بقوا مناصرين للفلسطينيين وبين المنتمين الى الاسياد الجدد! . وادى ذلك بالتالي الى تدهور الوضع في الجنوب خاصة في حالة غياب الدولة او أية قوة كبيرة مسيطرة.

وانذر هذا الوضع المتدهور بان اسرائيل لا بد وان تستغل الوضع وان لا بد من حدوث مواجهة وشيكة بينها وبين الفلسطينيين. واعتقد كثير من المراقبين ان دخول الردع العربي الى لبنان أنهى بقدرة زمن الحرب الاهلية بلبنان! .

ولكن الردع السوري - كما يجب ان نسميه - لم يكن ينفذ مهمته الا باتجاه الفلسطينيين فقط، ولذلك ظل غائبا عما يجري في الجنوب ولم يستطع حتى ان ينظر الى هذا الاتجاه. فهناك كان الخط الاحمر الذي وضعته اسرائيل والذي ادارت القوات السورية له ظهرها حتى لا تراه ولا يراها، وهذا ما حدث عندما اجتاحت اسرائيل الجنوب سنة ١٩٧٨. ولكن لم يسقط ابدا من اهتمام الردع السوري ان يقوم بقصف المخيمات الفلسطينية بالقرب من بيروت كلما اختلف مع المقاومة الفلسطينية او احد فصائلها، وما كانت القيادة الفلسطينية تستطيع ان تغفل ابدا عن هذا العدو الدائم المتربص على الحدود مهما شغلها العدو الداخلي.

وقد استقر في يقينهم انهم سيلاقون مواجهتهم مع الاسرائيليين بمفردهم. فلا يعقل ان تشترك هذه القوات السورية التي تمارس عليهم - وحدهم - عمل الردع في معركة شاملة ضد اسرائيل لو فكرت بالهجوم على لبنان من بوابته الجنوبية! .

وأثبتت الاحداث ان كل ما كانوا يتوقعونه صحيحا! .

## * غزو لبنان ـ حرب الجنوب

## (معركة الليطاني)

نظرت في وجه «ياسر عرفات» المضيء وقلت له . . سأبدأ فصلاً عن غزو لبنان . . فماذا تقترح لتكون البداية؟ .

ابتسم ابتسامة هادئة ساعدت على أن يبدو وجهه مشرقا . . وقال بهدوء شديد : «اكتبي ان هناك كتاب «كرانجيا» والذي اسماه «خنجر اسرائيل» يكشف فيه عن وثائق حلف بغداد . وهذه الوثائق وقعت في يده بعد حادث الطائرة . وكشفت الوثائق عن مخطط موضوع للمنطقة بأسرها . . أهم ما فيه انشاء كانتونات ودول طائفية . . وان الهدف من كل ما جرى في لبنان هو ضرب التلاحم الفلسطيني اللبناني وانهاء التزاوج الثوري اللبناني الفلسطيني الذي كان نسيج وحدة في المنطقة» .

وقد قلنا ان دخول قوات الردع السوري الى لبنان كانت على اساسين هامين هما المحافظة على وحدة لبنان . . وحماية الثورة الفلسطينية . ولكنها كانت تقصف المخيمات الفلسطينية كما كانت تشتبك مع القيادات المسيحية احيانا! .

اي انها لم تحقق ايا من الاساسين! في نفس الوقت كانت التغيرات السياسية التي ظهرت على الساحة العربية بزيارة السادات المفاجئة لاسرائيل التي قلبت ميزان القوى وغيرت الاستراتيجيات . . وكانت بمثابة مفاجأة غيبت اهمية كل ما كان دائرا من جهود دبلوماسية لعقد مؤتمر السلام في جنيف وتذليل عقبة تمثيل الفلسطينيين فيه .

وكانت تبدو الآمال قاب قوسين او ادنى احيانا بما يرفع نسبة الأمل خاصة وان القوات الفلسطينية في لبنان كانت تتعرض لهجمات متتالية من الاسرائيليين . . فاذا بالرئيس المصري يقصي كل الاطراف باعلانه عن هذا التقارب المباشر بينه وبين اسرائيل! .

وقد كان «ياسر عرفات» حاضرا جلسة البرلمان المصري حين أعلن السادات استعداده للسفر الى اسرائيل .

ورغم ان «عرفات» لم يكن يعلم ان كان هذا ممكنا ام هو نوع من انواع الدعاية فقد غادر الجلسة غاضبا . وحين حاول السادات ان يحصل على تأييد الرئيس السوري بصفته على الاقل شريكا في حرب اكتوبر . . رفض ايضا وكان في طليعة المعارضين له ، فلم يكن هناك بد من تقارب بين المنظمة وبين سوريا رغم كل ما كان بينهما .

واذا كانت زيارة السادات للقدس قد أوقعت بعض الخلاف بين قادة المنظمة من حيث التعامل مع مصر بعد ذلك - الا ان «ياسر عرفات» ومن دمشق اعلن في بيان مشترك بينه وبين الاسد استنكار الزيارة وحث الشعب المصري على رفض الخيانة .

ولا شك ان منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا قد وقعتا في الخلل الاستراتيجي الذي حدث بانسحاب القوة المصرية من ميزان القوى بما يقوي الوضع العسكري الاسرائيلي :

وتجمعت بعض الدول العربية في طرابلس بليبيا لتكوين ما اطلق عليه جبهة الصمود والتصدي، وقد رد الرئيس السادات بقطع علاقاته الديبلوماسية مع هذه الدول. وكان قد اغلق مكتب منظمة التحرير في القاهرة من قبل. واسكت اذاعة صوت فلسطين من القاهرة!.

كل هذا دفع «ياسر عرفات» الى التقارب مع السوريين.. هذا التقارب الذي اصبح لا بديل عنه. والذي كان حادثا منذ الاعلان عن الزيارة وتحسبا لأي هجوم اسرائيلي.

وكـان الفلسطينيون ورغم كل شيء ومنذ بدايات ٧٧ قد حصنوا وعززوا وحداتهم بالجنوب وعادوا الى نفس القوة التي كانوا قد سحبوها من الجنوب في ٧٦ حين وقعت المواجهة الداخلية.

ومـا كان للعـين الاسرائيلية ان تغفـل عن ذلـك. فقـد كانت ترى حين اضـطر الفلسـطينيون الى سحب قوتهم لمواجهـة الكتائب المسيحية.. ثم للمواجهة السورية.. وكـانت ترى حين عادت لتحصـين نفسهـا وتعـزيز مواقعهـا.. كانت ترى هذه الطبيعة الفلسطينية المحيرة لاسرائيل.. طبيعة التجدد.. والتمدد!.

وفي مطلع عام ٧٨ نشبت معركة ضارية في الجنوب اللبناني. استمرت هذه المعركة اثنتي عشرة يومـا وعرفت باسم معركة الخيام. وامتدت من رأس الناقورة وشمع والبياضة مرورا ببنت جبيل حتى بلدة الخيام.

واستخدم الاسرائيليون في هذه المعركة كل أنواع الاسلحة ومنها اسلحة تستخدم لاول مرة. ورغم ان هذه المعركة كانت بمثابة جس النبض الا انه لاول مرة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي تصل قذائف المدفعية الى عمق فلسطين المحتلة.. واستطاع الفدائيون ان يوقفوا كافة محاولات التقدم الى المواقع الفلسطينية.. الا ان هذه المعركة كما قلنا كانت بمثابة جس النبض لكفاءة القتال الفلسطيني في المعارك الطويلة.

تماما كما قلنا فقد كانت اسرائيل تنوي القيام بعملية كبيرة. وكانت هذه المعركة لسبر الاعماق وحتى تعرف حجم القوة التي ستدفع بها!.

وكان الوضع يستدعي القيام بشيء ما لاحياء روح المقاومة واظهار ان هذه الدعوة الانهزامية لم تفرض روح الاستسلام على الجميع.

وفي مارس ١٩٧٨.. قامت الشهيدة دلال المغربي بعمليتها الفدائية الشهيرة والتي قادت فيها مجموعة انتحارية حيث اختطفوا حافلة ركاب ودارت معركة عنيفة مع القوات الاسرائيلية الامنية استشهـد فيهـا ستة من الفدائيين. لكن قتل من الصهاينة اكثر من

ثلاثين شخصاً، وخاضت الفتاة الصغيرة ذات الثمانية عشر ربيعاً مع رفاقها معركتهم ببسالة نادرة ذهل لها الاسرائيليون أنفسهم.

والغت عملية دلال المغربي ادعاء العمق الامني للاسرائيليين.

ورغم ان كل الدلائل كانت تشير الى ان اسرائيل تنوي القيام بعمل ما في الجنوب وقد اصبح الجو مناسبا مهيأ لها. واستشعرت القوة بعد غياب القوة المصرية وفي الوقت الذي كانت تكثف فيه من طلعات طيرانها وهجماتها على الجنوب.. فانها اتخذت حادثة دلال المغربي ذريعة لتشن الهجوم الكاسح على الجنوب اللبناني.

والعجيب ان يتخذ الصهاينة من مثل هذا الحادث مثل هذه الذريعة في حين ان المعارضين للقيادة الفلسطينية كانوا يظنون ان حادث دلال المغربي حادث قد دبر للخلاص من الجنوب تمهيدا لذهاب القيادة للتسوية!!.. وهذا ما اخبرني به هاني الحسن! ان عيب هؤلاء انهم يتربصون لاصطياد الخطأ. وكما وصفهم هاني الحسن - ينتظرون السفينة حتى تصطدم لانهم لا يستطيعون القيام بتمرد الا بعد ان تصطدم السفينة ليظهروا.

في هذا الوقت وبعد حادث الشهيدة دلال بثلاثة ايام... اجتاحت اسرائيل الجنوب اللبناني، حتى نهر الليطاني ما عدا جيب مدينة صور وما حولها من المخيمات الفلسطينية. قاذفة بعدد مهول من الجنود يبلغ حوالي ٢٥ الف جندي!... كان اجتياحا بكل معنى كلمة الاجتياح حيث اكتسح امامه عددا من القرى اللبنانية.. وسقط ما لا يقل عن سبعمائة قتيلا من الفلسطينيين واللبنانيين اكثرهم من المدنيين. وتحققت المقولة التي تقول ان اسرائيل أمنت ظهرها من مصر فاستدارت الى الفلسطينيين في لبنان.

فلم يحدث ان فكرت اسرائيل بحشد مثل هذه القوة في مواجهة الفلسطينيين، ولكن ما الذي كان سيعيقها هذه المرة؟.

والمؤسف حقا ان قوات الردع السوري كانت مازالت موجودة داخل لبنان ولا عذر في سكوتها امام القوات الاسرائيلية فالتقارب السوري الفلسطيني كان قد تم.. صنعه السخط المشترك على السادات. ومع ذلك لم يتحرك الردع السوري لا لانقاذ اللبنانيين ولا لمساعدة الفلسطينيين.

وفي ١٩ مارس اتخذ مجلس الامن القرار ٤٢٥ مطالبا القوات الاسرائيلية بالانسحاب من الاراضي اللبنانية، وتشكيل قوات للطوارىء دولية في الجنوب اللبناني.

وفي ٢١ مارس وافق وزير الحرب الصهيوني على وقف اطلاق النار في المناطق التي تحتلها اسرائيل في جنوب لبنان وكان ذلك بعد يومين من صدور قرار مجلس الامن. ولكن المنظمة لم توقف اطلاق النار!.

وفي هذه النقطة سألت رئيس منظمة التحرير: لماذا لم تأمر بوقف اطلاق النار عند صدور القرار ٤٢٥ رغم قبول اسرائيل به؟.

ابتسم وقال: «اسرائيل عملت به بعد يومين من صدوره. ثم لانها هي المعتدية. او ربما لانها فوجئت بالمقاومة، ثم لان القرار ذكرها بالاسم. . اما نحن فلم يكن احد قد طلب مني وقف اطلاق النار! . . فانتظرت الى ان يأتوا لمخاطبتنا. . . وحين جاءني قائد قوات الطوارىء بالطلب قبلت». وسألته باعجاب: «هل كنت تسعى في مثل هذا الظرف الدقيق الى اعتراف بك؟ . . قال: «ولم لا. . انا طرف في النزاع فلماذا لا يخاطبوني؟. لقد كان لقائي بمندوبي الامم المتحدة هو الاعتراف العلني بنا. . لكن الذاكرة الامريكية تُسقط ما تشاء حين لا تجده يوافق مخططاتها. وهذه المرة تلتها مرات. ولكنهم يتعمدون النسيان!».

وسألته: هل فضلت الوجود عن البقاء؟ . . لقد كان الموقف يتعلق بالبقاء. . ولكنك ناضلت لفرض الوجود!.

ابتسم وقال: «لقد أثرت بهذه النقطة قضية فلسفية وسياسية ولكنها في نفس الوقت حقيقة واقعة. هذه القضية شبيهة بالقضية التي أثارها شكسبير حين اورد التساؤل على لسان هاملت: اكون أو لا اكون To be or not to be . . فلا بد أن يعلن وجودي عني. . ولا بد ان يشعر الآخرون بهذا الوجود!».

واعجبت بحنكة الرجل السياسية التي لا تغيب عنه في أدق المواقف واصعبها حتى ولو كانت المعارك الحربية المستعرة. ولم يسعني الا ان اقول: انه «ياسر عرفات»!.

ولم يهتم «عرفات» كثيرا بالمعارضة التي ثارت نتيجة قبوله باتفاق وقف اطلاق النار. فقد كان يعتبره مكسبا حيث اتاح له الحصول على نقطة في مجال الاعتراف لذلك ضرب بيد من حديد كل من حاول خرق الاتفاق تحت عنجهية الرفض والمعارضة او اظهار التطرف.

وقد كانت هذه الاطراف مدعومة من بعض الانظمة التي كانت تعارض وجود أية تسوية مع اسرائيل. والغريب ان هذه الانظمة كانت تعتبر ان وقف اطلاق النار في القتال بين الفلسطينيين والعدو هو البدء في تسوية سلمية. . وكأنه كتب على الفلسطينيين فقط ان يظلوا ابدا تحت النار لتقتنع هذه الانظمة ان لا تسوية سلمية هناك!.

وتتخذ مثل هذه الانظمة مثل هذه المواقف المتشددة وهي لا تشترك في قتال ولم تواجه ابدا معركة مع اسرائيل!.

لذلك تستغل هذه الانظمة بعض الموالين لها ليعملوا تحت راية الوطنية الزائدة لتخريب اية فرصة تلوح.

وكان هذا الموقف من المواقف التي قال عنها هاني الحسن «انهم ينتظرون السفينة حتى تصطدم». وكان يقول هذا الكلام عن هذا الموقف بالذات اذ انه بعد وقف اطلاق النار هنا

واعلان بعض القياديين معارضته انشق ضابط اسمه محمد داوود عوده ـ ابو داوود ـ عن «فتح» واعد تمردا عسكريا صغيرا الهدف منه نسف وقف اطلاق النار الذي ينفذ تحت اشراف الامم المتحدة.

ورغم ان محاولته فشلت الا ان هذا التمرد ربط بالمنشق صبري البنا ـ ابو نضال. والـذي كان منشقا عن «فتح» منذ العام ١٩٧٤. ويهاجم قادة «فتح» بتوجيه ودعم من بعض العرب.. الذي كان يتهم قيادة المنظمة بأنها تسعى لتسوية سلمية مع اسرائيل.

الا ان هاني الحسن يشير في كلامه الى اكثر من هذا في سياق حديثه عن ان هؤلاء من يتمنون ازاحة «عرفات» وقيادته للقفز على مكانها. لقد قال: بعد عملية دلال المغربي ظنوا اننا صنعناها لتحدث دويا نذهب بعده الى التسوية. وقال بالنص: كانوا جالسين في مكاتبهم حتى نخلص نحن ويحضروا هم للاستلام!!.. وراحوا في ذلك الوقت حاولوا ان يتفقـوا مع بعض العرب ليحدث تمرد في الجنوب.. وقصة ابو داوود معروفة للجميع».

لقد كان اذن على «ياسر عرفات»، ان يعمل في كل الاتجاهات وان يكون يقظا لكل التيارات. فكثيرا ما كانت تأتيه المشاكل من داخله! واستطاع «عرفات» كما قلنا ان يلغي خطة تفجير الموقف في جنـوب لبنان بعد وقف اطلاق النار مع اسرائيل... ولم يشهد المراقبون الا بعض الحوادث القليلة جدا والمتفرقة بحيث انهم شهدوا ان القوات الفلسطينية وحلفاءها كانوا اكثر مرونة في التعامل من الطرف الاسرائيلي والموالين له. وقد أكسب هذا الموقف الفلسطينيين بعض التعاطف الغربي خاصة وان الطرف الاسرائيلي هو الذي اخذ يماطل في تنفيذ قرار مجلس الامن!

وبدأت انسحابها في ٦ ابريل ٧٨.. وانهته في ١٣ يونيو.. وعلى مراحل. وكانت قوات الامم المتحدة هي التي تحل محل القوات الاسرائيلية المنسحبة. وكانت اسرائيل وفي كل مرحلة انسحـاب تتصلب وتطالب بالشروط! والضغط الديبلوماسي الغربي هو الذي أوصل اسرائيل الى مرحلة الانسحاب الاخيرة في ١٣ يونيو ٧٨. الا انها كان لا بد لها وان تستفيد بما قامت به من اجتياح فلم تنسحب من المنطقة الاخيرة التي عمقها حوالي عشرة كيلومترات على طول الحدود الدولية فنشرت فيها قوات جيشها العميل بقيادة سعد حداد وهو ما سمي بالشريط الحدودي.

وكان من المفروض ان ينزل الجيش اللبناني الى هذه الاراضي التي تسلمتها القوات الـدولية وطبقـا لقرار مجلس الامن ٤٢٥. ولكن الجيش اللبناني لم يستطع ابدا استخدام الطريق عبر خطوط القوات الدولية لان الجيش العميل كان يسيطر على بعض نقاط المرور في الطريق.

ولم يستطيعوا الوصول الى منطقتهم في الجنوب الا عبر الطريق الساحلي الذي كانت

تسيطر عليه القوات الفلسطينية . وهذا ما يدل على ان الفلسطينيين لا يريدون من لبنان الا مكانا ينفذون منه الى عدوهم . وليس هناك طمع في الارض ولا رغبة في الاستيطان . بينما كان هنـاك جيش حداد في الشريط الحـدودي يستقبـل فقط وفـود الميليشيات الكتـائبية بترحاب . . . فقد استند الجميع على الحليف الصهيوني ! .

الا ان اجتياح الجنوب اللبناني والذي انتهى بالانسحاب قد ترك اثارا عديدة على الساحة السياسية . . وعلى الارض ! .

فعندما بدأ الاجتياح في شهر مارس من عام ٧٨ ظن العرب والمخلصون ان ما يجري من اسرائيل بالاعتداء المسلح على الجنوب اللبناني معقل الفلسطينيين وقواتهم المشتركة من حلفـائهم اللبنـانيين مع كل من في الجنوب من مدنيين فلسطينيين ولبنانيين سيلفت نظر السادات ويجعله يوقف ذلك التقارب المسموم الذي بدأه ، وسيقنعه ان اسرائيل ليست من دعاة السلام . وانها ستنقض في يوم قريب على كل ما ستعطيه له اليوم .

ولكن السادات كان يغمض عينيه ويصم اذنيه عن كل ما يجري ويقع . وكان ماضيا في مباحثاته ومفاوضاته الماضية قدما الى توقيع معاهدة سلام .

في نفس الـوقت كانت هنـاك المنـظمات الخاضعة للسياسة السورية والسوريين في الداخل . . وتعارض كل خطوات السادات . كانوا شهدوا على ما يجري . . وامامهم القوات الاسرائيلية تجتـاح وتحـارب وتدمر . وهم الرافضون للتصالح معها والداعون الى استمرار الحـرب ولكنهم . . لا يحاربون ابدا ! حتى ان الاسرائيليين انفسهم تعجبوا موقف سوريا وقالوا انهم قادرون على اسكات سوريا دون استخدام طلقة واحدة ضدها ! .

وكان منظر السوريين سيئا للغاية بين اللبنانيين انفسهم وهم يرون قوات الردع ساكنة خلف الخط الاحمر ناسية تماما الهدف من تواجدها عليه ! .

ولكن سوريا استطاعت ان تدير مدافعها لتشتبك في قتال مع الميليشيات الكتائبية في بيروت الشرقية . وادى القصف المتتالي الى التكتل الماروني والكتائب الى استطاعة ـ وفي نهاية الاشتباكات في سبتمبر من العام نفسه ـ ان يعلن بيروت الشرقية منطقة مقفلة تخضع للسلطة الكتائبية منفصلة بذلك عن سلطة الدولة الاساسية ! .

وادى هذا الاعلان الى قيام اول دويلة طائفية مستقلة معلنة على ارض لبنان ! . . كهدف من اهداف الحرب الاهلية اللبنانية ! واسرائيل قضمت جزءا من ارض الجنوب ممثلا في هذا الشريط الحدودي الذي اخضعته لسلطتها بعيدا عن سلطة الدولة الغائبة في لبنان مؤمّنة به نفسها من هجمات الفلسطينيين بإقامة الجيش العميل حائلا بينهم وبينها .

وبنـاء على هذا لم يستقر الوضع للفلسطينيين في الجنوب . ورغم كل ما جاءت به كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية التي وقعت في سبتمبر ١٩٧٨ من إقامة

حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تنسحب بعدها القوات الاسرائيلية الا من مواقع معينة خاصة بالامن، وبعدها تجري مفاوضات لتحديد الوضع النهائي لهذه الاراضي وعلاقتها بجيرانها على ان تعقد معاهدة سلام في نهاية الفترة الانتقالية بين اسرائيل والاردن.

هذا ما اتت به المعاهدة خاص بالارض المحتلة ـ من باب ذر التراب في العيون وحتى لا يقال ان السادات لم يفعل شيئا للقضية الرئيسية والتي هي قضية فلسطين ـ مغفلة تماما منظمة التحرير! . . وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره! .

ولم يقبل اي من الدول العربية هذه المعاهدة. ودعت منظمة التحرير الى اضراب عام في داخل وخارج الارض المحتلة في يوم ٢٠ سبتمبر تعبيرا عن رفض المعاهدة كلا وجزءا.

ودعت الحكومة العراقية من بغداد الى مؤتمر قمة عربي لمعارضة كامب ديفيد.

وانعقد في بغداد مؤتمر القمة التاسع غابت مصر عنه. وبعث المؤتمر للسادات وفدا يحاول ان يثنيه عن المضي في غايته مع تقديم كل المساعدات التي تحتاجها مصر.

ومع رفض السادات فرضت العقوبات المعروفة عليها مع تكوين صندوق لدعم دول المواجهة ومنظمة التحرير للصمود ضد اسرائيل.

وفشلت اسرائيل في ايجاد صدى لمقولة الحكم الذاتي او ايجاد شخصيات قيادية تقبل ان تضطلع بهذه المهمة. . مما أشعر اسرائيل بان الجزء الخاص بالفلسطينيين او الارض المحتلة في كامب دايفيد. . لم تنجح.

وان النجاح الوحيد الذي كسبوه. . هو خروج مصر. وهذا في حد ذاته كان نجاحا كبيرا. فخروج مصر من الحلبة اتاح لهم الدخول بهذا الحجم في الحرب اللبنانية اذ تخطت العمليات العسكرية بكثير حجم المناوشات والمعارك المحدودة المعتادة بين الفلسطينيين واسرائيل.

نبه هذا كله حس القائد «ياسر عرفات» ان اسرائيل ستحاول لأقصى حد الاستفادة من الوضع وهو اكثر من نبه الى المخططات والمؤامرات التي تحاك للأمة العربية.
وما كانت معاهدة الصلح هذه في نظره ـ الا حلقة من الحلقات التي ستجر المنطقة كلها الى ما يراد لها من اوضاع.

لذلك حاول باية وسيلة لكسب اي تقدم ديبلوماسي عن طريق وسيط بينه وبين الولايات المتحدة لكن اسرائيل كانت توقف اي تقدم. وفشل مشروع الحكم الذاتي اذ رفضه رؤساء البلديات، لكن الزعيم الفلسطيني قد ابتهج كما ابتهج معه الشعب الفلسطيني كله حين انتصرت الثورة الاسلامية في ايران بعد سقوط الشاه في عام ١٩٧٩.

ونظرا لان الثورة الفلسطينية كانت ترى في شاه ايران حليفا لاسرائيل، ولان كثيرا من المنظمات الاسلامية واليسارية في إيران كانوا يتلقون تدريباتهم في معسكرات الثورة فقد كانت الثورة الفلسطينية اولى حلفاء الثورة الدينية المنتصرة في إيران.

وكان «ياسر عرفات» اول زعيم يُدعى لزيارة ايران. واستقبله الايرانيون استقبالا عظيما. حكى لي هاني الحسن انهم كانوا ينامون في الشوارع بالايام حتى قدوم «ياسر عرفات»، وكان حين يظهر ليلقي كلمة فيهم كانوا «يهستروا»، ولم يجد هاني الحسن في اشتقاق اللغة العربية اقدر على وصف ما كان يصيبهم من فرح بالزعيم الكبير اكثر من هذه الكلمة المشتقة من اسم هستيريا - وهي اشد انواع الجنون.

لقد كان الزعيم الفلسطيني يمثل لهم رمز الثورة.. وكانوا يرون فيه ثائراً عظيماً.

وهذا الوقت الذي كان اخبرني عنه «ابو عمار» حين وقف خطيبا في الجماهير الايرانية وهو يقول: «ان عمقي الاستراتيجي يمتد من صور وحتى خراسان». وكان قد عقد المجلس الوطني الفلسطيني لاول مرة بدمشق - ثم العراق من خلال التحالف العراقي - السوري الذي كان قد تم قبل قمة بغداد - ثم ايران. قلت هذا الكلام امام حشد يتكون من مليون ونصف مليون انسان! ولكن هذا العمق الاستراتيجي الذي كان يباهي به الزعيم الفلسطيني ما لبث ان تصدعت اركانه.

ولم يستطع العالم العربي ان يبقى كثيرا على حالة التماسك التي لاحت بعد غياب مصر. او كانت ضرورة بعد خروجها من حلبة الصراع.. والتي اشعرت اسرائيل لفترة انها وان كانت قد كسبت مصر الا انها ستواجه تكتلا عربيا ربما ضايقها خاصة بعد خسارتها حليفا قويا كالشاه وانتصار الثورة الاسلامية بايران.

لقد حدث اول تصدع بين العراق وبين سوريا والعودة لحالة الخصام الحادة التي كانت بين النظامين من قبل! وانحاز الاردن الى جانب العراق، وعلى هذا تكون الجبهة الشرقية التي حلم بها «ياسر عرفات» والمكونة من الفلسطينيين اصلا ثم سوريا والاردن والعراق - وصولا الى ايران قد انتهت.

واريد ان اضيف هنا ان «ياسر عرفات» مازال محلم بهذه الجبهة حين لاح تقارب بين سوريا والاردن وكان الكلام ايضا عن احتمال تقارب بين سوريا والعراق. لقد قال لي يوما بفرح: «لو تم ذلك على ان نستعيد مصر لقامت أقوى جبهة ضد اسرائيل».

وحين كنت ارى الفرحة في عينيه لم استطع ان افسدها واقول له: وهل ضمنت نوايا سوريا؟ او ان اقول له ان سوريا تقاربت من الاردن لتعيقه هو ولن تقترب من العراق. لانه لا يلزمها الآن - ولن ترضى عن مصر بسهولة. لم أقل أي شيء من هذا فما اظن الزعيم فاته ان ينتبه الى ذلك ولكنها لحظات من التفاؤل. .وكم كان جميلا ان اراه يحلم بالمستحيل

ولو للحظات ! .

نعود الى الوضع المتدهور الذي اعقب فورة التقارب والتصالح . فقد وقع الشقاق بين العراق وايران بمجرد حدوث الشقاق بين العراق وسوريا . ووقع الصدام بين ايران والعراق بالفعل مما احدث ذلك تصدعاً كبيراً في المواجهة مع اسرائيل .

وبانشغال القوتين الكبيرتين بحربهما الطاحنة انتشت اسرائيل . فليس هناك قوة كبيرة تخشاها بعد ان غابت مصر وغابت العراق وايران . واثبتت سوريا عجز امتنا ، بظهور ضعف السلاح الجوي السوري في تحقيق اي نجاح بالاشتباك مع الطائرات الحربية الاسرائيلية في طلعاته المتكررة في الاجواء اللبنانية .

لهذا بدا امام اسرائيل عدوها الاساسي مكشوفا تماما من اي غطاء . اللهم الا قدراته الذاتية التي كانت تعمل جاهدة ان تحطمها وتعوق نموها لعلمها بخطورتها الهائلة عليها مستقبلا . ولعلمها ايضا اعتماده الاساسي على هذه القدرة الذاتية ، فلم تفتر لحظة عن مهاجمة مواقع الفلسطينيين وحلفائهم في الجنوب اللبناني .

مارست اسرائيل ضغطا رهيبا على مواقع الفدائيين وتجمعات اللاجئين يتمثل في القصف المستمر والمتكرر من البحر والجو وانزال قوات من المظليين للقيام بعمليات خاطفة ضد المواقع الفلسطينية .

وكان القصد من هذه الضربات المتلاحقة هو استنزاف القوة الفلسطينية وعدم منحها اية فرصة للتجمع والتماسك . وكانت اسرائيل ترمي الى اثارة الذعر بين صفوف الفلسطينيين الـذين ظهروا في عيون اعدائهم في مأزق طويل مستمر منذ عام ١٩٧٨ . وحين وقعت المعاهدة لمواصلة طريقهم الذي تعترضه الصراعات العربية التي وبالضرورة هي منعكسة عليهم عسكريا واستراتيجيا خاصة في داخل الحركة الفدائية التاريخية «فتح» .

ومنذ ان اعلن عزرا وايزمن ، وزير الدفاع الصهيوني ، السياسة الوقائية . . والهجمات تتوالى وتتلاحق ضد القوات الفلسطينية التي وصلت في النهاية الى ان تقبل بمفردها فقط بعد ان تفرق حلفاؤها تحت ضغط وتمزق الوضع العربي نفسه . وانصرف لفراد اليسار اللبناني للتقاتل معا تبعا لولاءاتهم للسياسات العربية . وبقي الفلسطينيون وحدهم يواجهون اسرائيل التي كثفت في عام ١٩٨١ هجماتها وطلعات طيرانها بما يشبه الحرب الشاملة . فلم تعد تكتفي بهذه الهجمات التي كانت تقوم بها طوال السنوات الاربع التي تلت توقيع المعاهدة وانما يبدو انها قد اطمأنت على كل اوضاعها بعد المعاهدة وتفرغت تماما للفلسطينيين بنية الانتهاء تماما منهم ومن مشكلتهم المعلقة معها منذ عام ١٩٦٥ يوم انطلاق الثورة المنادية بالكفاح المسلح .

وبـدأ تكثيف الهجـوم بمحـاولة احتلال قلعة الشقيف وارنون بادخال لواء غولاني المدرب تدريبا جيدا على حرب العصابات والذي يعتبر من اقوى تشكيلات العدو ورغم انه مدعوم بالطائرات والمدفعية الا انه لم يحقق اي نجاح في هذه العملية، بل مني بالخسائر البشرية الكبيرة نظرا لشدة المقاومة البطولية التي ووجهه بها.

وفي العاشر من شهر يوليو عام ١٩٨١ قام الطيران الاسرائيلي بقصف جوي مكثف لمنطقة الجرمق ثم في يومين متتالين قصف منطقة الدامور والناعمة وبرج البراجنة والفاكهاني.

ورغم هذا لم ترتبك القيادة الفلسطينية وباشر المقاتلون مهماتهم القتالية بأقوى روح واعـظم عزيمـة. وقـد صرح عدد من قادة العـدو بأنهم ما كانـوا يتصـورون عنف الرد الفلسطيني. وما كانوا يتصورون ان يلاقوا مثل هذه المقاومة نظرا لتفوقهم الكبير بالاسلحة الحديثة وغطاء الطيران.

فلم يكونوا يصدقون ان يروا النار تشتعل في المستعمرات الاسرائيلية او ان يشاهدوا سكان سبع وثلاثين مستعمرة وهم يفرون منها الى المناطق الاخرى البعيدة او ان يدخل من بقي فيها الى الملاجىء والمخابىء تحت عنف القصف الفلسطيني. او ان يروا كل الفصائل الفلسطينية موحدة تحت قرار فلسطيني اعلى بالرد على اسرائيل! وكان هنالك ثالوث عسكري على رأس هذه القـدرة الفلسـطينية، ياسر عرفات ونائبه ابو جهاد ومدير العمليات سعد صايل، هذا العسكري الشهيد البطل ذو القدرة العسكرية الكبيرة. ذعرت اسرائيل من ظهور القوة الفلسطينية الموحدة المتماسكة عسكريا وعضويا بهذا القدر من الصلابة، وهذا ما جعلها تطلب وقف اطلاق النار في ٢٤ يوليو ١٩٨١ تطلب وقف اطلاق النار في الهجوم الذي بدأته هي دون ان تدري انها ستلقى مثل ما لقيت!.

وقام بالمهمة المبعوث الامريكي فيليب حبيب الذي كان قد قدم المنطقة منذ شهر مايو موفدا من الرئيس الامريكي الجديد للنظر في الازمة اللبنانية.

وقد سألت احد أقطاب الحرب في هذه الفترة عن احداثها العسكرية والاعمال التي قامت بها اسرائيل ثم طلبت وقف اطلاق النار. وكرجل عسكري ذكر لي معلوماته كالتالي: «في نيسان ١٩٨١ ضمت اسرائيل اجزاء من اراضي الجنوب اللبناني بحجة تشكيل مواقع دفاعية متقدمة. في ١٩ ابريل اعلن الارهابي بيغن ان من حق اسرائيل التوغل في جنوب لبنان في اي وقت ضد المنظمات الفلسطينية.

وفي ٢٠ نيسان قامت المدفعية الاسرائيلية بقصف مدينتي صيدا وصور وقام مقاتلونا بالرد وقصفوا المستعمرات الصهيونية في الجليل الاعلى بالصواريخ.

وفي اول مايو/ايار ١٩٨١ حذر القائد «ابو عمار» من حملات اسرائيلية جديدة ضد الفلسطينيين في جنوب لبنان. وفي ٣٠ ايار قام العدو بغارات جوية على مواقع قواتنا في الجنوب وفي ١٤ يوليو/تموز غارات جوية مكثفة على بيروت وعلى كافة المخيمات الفلسطينية في الجنوب وحتى بيروت. وفي ١٥ تموز رد مقاتلونا على الغارة الجوية بقصف عنيف لمنطقة الجليل الاعلى. وفي ١٧ يوليو/تموز حدثت غارات اسرائيلية مكثفة على بيروت تسببت في مقتل اكثر من ٢٠٠ شخصا معظمهم من المدنيين.

وفي ٢٠ تموز/يوليو اعتبر القائد العام منظمة التحرير في حالة حرب شاملة مع العدو الصهيوني. وفي ٢٤ طلب العدو وقف اطلاق النار عبر المبعوث الامريكي فيليب حبيب!»

وتوقف محدثي.. ووجدت نفسي ألهث خلف وقع كلماته وقلت: هذه يوميات حرب! ابتسم وقال: «فعلاً فقد وقعت بهذا التوقيت الذي سردته لك. ولك ان تتصوري قسوة ما كان يجري. ولكني اقول لك ان اسرائيل فوجئت بالفعل بما وجدت من مقاومة وعنف رد بدليل انها هي التي طلبت وقف اطلاق النار. ولك ان تتصوري ايضا انها بعد هذه الحرب بدأت تعيد حساباتها كاملة. وبدأت تغير من استراتيجيتها القتالية اذ بدأت بالقيام بعمليات تدريب مكثفة على الحرب الليلية وحرب العصابات وحتى تواجه التفوق الفلسطيني في هذا المجال كما انها زادت من عدد المناورات العسكرية الحية في المناطق الشمالية من فلسطين ومن الجنوب اللبناني».

وسألت «ياسر عرفات»: هل تباحثتم مع فيليب حبيب مباشرة عند وقف اطلاق النار؟ قال: «الادارة الامريكية تعرف تماما انه ما من بد من اشراك منظمة التحرير في اية مفاوضات من اجل السلام. ولكنها تلف وتدور حول ذلك. لقد ارسل لي الامين العام للامم المتحدة كورت فالدهايم رسالة يطلب فيها الموافقة على وقف اطلاق النار. وكان فيليب حبيب قد التقى بيغن ليباحثه في هذا الشأن ثم عاد ليسأل السعودية الوساطة لموافقتنا على وقف اطلاق النار. مع انه اصلا كان موجودا في المنطقة لبحث ازمة الصواريخ السورية التي نشبت في ابريل ١٩٨١ حين نقل السوريون بطاريات صواريخ سام ٦ الى البقاع في لبنان ـ ولكنه جاء ليرتب وقف اطلاق النار بعد تصاعد القتال بذلك الشكل الحاد. وكانت هذه المرة هي الثانية التي نقبل وقف اطلاق النار بناء على وساطة الامم المتحدة والتي تقف خلفها امريكا.

لقد رفضنا نحن وساطتها في ازمة الصواريخ السورية باعتبارها طرفا متقدما في الازمة بسبب دعمها الدائم لاسرائيل. ولكنها عن طريق خارجيتها اتصلت بالامين العام للامم المتحدة كورت فالدهايم لكي يبلغ جميع اطراف النزاع الحاجة الى الاعتدال وضبط النفس.

وطبعا جميع اطراف النزاع بما فيهم نحن. وكان هذا قبل المعارك في ١٩٨١ مباشرة. اذن بما اننا طرف وطرف مهم في النزاع فكيف لا نكون طرفا في الحل؟!».

وسرى وقف اطلاق النار بعد مشقة لالزام كل الاطراف الفلسطينية به. وان كان قد استمر لمدة عشرة شهور الا انه قد اخترق بكثرة، وربما كان هذا الانتهاك قد حدث بسبب الاختلاف على تفسير وقف اطلاق النار الذي رأت القوات الفلسطينية انه خاص بجنوب لبنان ورأت اسرائيل انه لابد ان يشمل اي مكان آخر يمكن أن تقع فيه اعتداءات فلسطينية عليها. لذلك كانت تصعد من خرقها للاتفاق ردا على أي حادث يقع في داخل الارض المحتلة او خارجها.

ولا احد ينسى ان هناك الجيش العميل فوق الشريط الحدودي والذي يتبع اسرائيل وتنضم اختراقاته اليها.

لكن الفرق الكبير ان خرق وقف اطلاق النار من قبل اسرائيل كان يأتي بطلعات الطيران واقتحام المياه الاقليمية ولا يقتصر فقط على حوادث اطلاق النار.

كانت اسرائيل ومنذ اجتياحها الجنوب وهي تفكر بشيء كبير. وحق لها ذلك بعد ان رأت الاجواء كلها مهيأة. وكانت قبل اشتباكها الاخير مع الفلسطينيين في يوليو ١٩٨١ وفي اثناء وجود مبعوث العناية الامريكية لبحث مشاكل المنطقة واثناء بحث أزمة الصواريخ السورية قد قامت بضربة وقائية هائلة متحدية كل قوى المنطقة حين ضربت المفاعل النووي العراقي في ٧ يونيو/حزيران عام ١٩٨١ .وكان العراق مشغولاً في حربه مع ايران فلم يستطع اعداد رد على هذا العدوان. وخشعت جميع القوى الأخرى تحت ثقل الضربة، وارتفعت شعبية بيغن ليعود الى الحكم بانتخابات عامة!.

كل هذه الحلقات ما كانت تغيب عن حس القائد «ياسر عرفات» الذي سبر غور نوايا اعدائه.. واصبح خبيرا بها.

كان يعرف ان النية مبيتة لما هو اكبر من ذلك. كان يعرف ان تكثيف القتال بهذا الشكل لابد وانه تمهيد لشيء كبير. وكان يعرف ان وقت وقف اطلاق النار ليس هو بوقت راحة يسترخي فيه او تسترخي قواته. كان يشتم رائحة الاستعدادات والتهيؤات التي يقوم بها العدو. ويعرف تماما انه في حالة حرب دائمة معه.

وأي فترة لهدنة او وقف اطلاق نار ما هي الا فترة استعداد لمعركة. يشهد على ذلك تاريخ اسرائيل البغيض.

ومن يمكن ان يكون اكثر من «ياسر عرفات» معرفة بتاريخ اسرائيل وحروبها وسياساتها؟.

ونـظر «عـرفـات» ليرى كل من حوله في حالة استعداد. قوات الكتائب تزيد من استعـدادها وتضاعف تدريباتها وتشمل في استنفارها حتى طلبة المدارس من سنة الرابعة عشر. وتحصن نفسها بالحصول على اسلحة حديثة بما فيها الدبابات والمدافع وراجمات الصواريخ.

وحتى الجيش اللبناني كان يزيد من قدراته وامكانياته.

كان «ابو عمار» يشتم رائحة الحرب في الهواء الذي يتنفسه! وبرغم انه يعيش متيقظا وفي حالة ترقب دائم.. الا انه في هذه الايام كان شيئا آخر! كان يسكنه هاجس خفي حرمه النوم.. وجعله في حالة استنفار دائم!.

## * الحصار.. بيروت..

## الخروج الأول.

قلت ان «ياسر عرفات» لم يعتبر فترة العشرة شهور التي توقف فيها اطلاق النار بين قواتـه الفلسـطينية وبين القوات الاسرائيلية فترة راحة تسترخي فيْها أعصابه المشدودة . . وكيف كان يمكن له والواقع متفجر من حوله؟! .

ولم يستطع ابدا حسه العسكري ان يستكين تحت مقولة وقف اطلاق النار . فقد أقنعه الاجتياح الاسرائيلي للجنوب في ١٩٧٨ . . وحجم المعارك في حرب يوليو ١٩٨١ ان اسرائيل تحضّر لمعركة كبيرة تخوض فيها معركة شاملة في اجتياح كامل للبنان بما فيها العاصمة بيروت! .

ورغم انه كان يعرف ان هذا الحس ليس من قدرات الجميع الا انه لم يخف عن احد انه يتوقع هجوما شاملا من الجيش الاسرائيلي . ولذلك كان في حالة استنفار كاملة .

وبدأ الاستعدادات وأصدر الاوامر للجميع بأن يستعدوا لخوض معركة شاملة كبرى . وما كان الجميع يصدقونه! .

ويقول لي هاني الحسن : «فعلا ما كانوا يصدقونه . كانوا يكتبون في المجلات ويقولون في الندوات ان «ابو عمار» يصعّد الامور ويقول ما لن يحدث فليس هناك هجوم اسرائيلي قادم . لان هناك تسوية سياسية . كانوا يظنون انه يحاول ان يخيف الناس ليمرر افكارا سياسية .

وحده وابو جهاد وابو الوليد من كانوا يعتقدون ان الهجوم الاسرائيلي الكبير قادم لا محالة . لذلك كان وقبل الحرب بثلاثة او اربعة شهور . . كان ينزل الى المدارس وبالحاح يأخذني معه من اجـل اقنـاع الـطلبـة في المـدارس الثـانـوية لكي يبدأوا في التدريب على القتال لان الاسرائيليين قادمون .

لقد كان يستيقظ في الصباح - على غير عادته - في حوالي السابعة او الثامنة ليذهب الى المدارس الثانوية للاولاد من سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة . كان يلغي المدارس لانه كان مقتنعا اقتناعا يقينا بأن الاسرائيليين قادمون . وكان ساعداه الاساسيين نائبه القائد ابو جهاد ومدير العمليات اللواء سعد صايل ابو الوليد بينما كل هؤلاء الآخرين يعتقدون ان هذا كله هراء! وانا حين اقول «عرفات» اعني معه تيارا بأكمله كان يعتقد بما يعتقد هو. بينما مثلا نايف حواتمة كان رأيه اننا حين قصفنا اسرائيل قبل عدة شهور طلبت وقف اطلاق النار وتراجعت فهي اذن في موقف ضعف فكيف ستقوم بهجوم شامل؟ وهذا ما اردته حين قلت لك ان القيادة بصيرة ويجب ان ترى الامور كلها بالبصيرة لا بالصبر. بالبصر وحده تستطيع جداتنا العجائز صنع قيادة . . يعني لو ان جدتي وجدتك جالستان هنا تستطيعان رؤية ما على الطاولة . لا تحتاجان لذلك لا شهادة دكتوراه في النقد ولا خبرة عشرين سنة نضال .

القيادة رؤية، لذلك يقول ليدل هارت امضيت حياتي افكر ماذا وراء الجبل! كقائد عسكري بينه وبين عدوه جبل فلابد ان يتخيل ما وراء الجبل. لخص حياته كلها بكلمة!.
القرار هو قدرة على التخيل، معلومات زائد تخيل لما وراء الجبل ليستطيع ان يضع خطة.

لقد كان «ياسر عرفات» ومعه اخواه ابو جهاد وابو الوليد بالاساس والبقية اقتنعت فيما بعد على يقين من وقوع الحرب الشاملة. كان يقف في مكان بالجبل ويقول هنا سأحارب شارون لذلك عندما وقع المحظور كنا نكبره اكثر واكثر. اما مثلا عندما يدعي احدهم وبعد الحرب ويقول كنت اعلم ان شارون سيأتي الى بيروت.. لا يكفي ان تحكي كأنك انت لست صاحب الموضوع.

كان يقين «ياسر عرفات»، يدفعه لتحرك ديناميكي كبير لاقامة الاستعدادات بما يفوق كل قدراته كانسان. فبينما رفع درجة الاستنفار الى اقصى درجة في كل المواقع.. الى القيام بدراسة دقيقة للساحل اللبناني وتوقع كافة الاحتمالات لعمليات الازالة البحرية ووضع الكمائن بالمناطق التي تخيل ان تكون مكانا لانزال القوات.

ومنذ بداية العام ١٩٨٢ وقد ارتفع عنده معدل القلق.. واستشعر قرب الخطر. قال لي من كانوا حوله في ذلك الوقت.. اصبح لا يعرف النوم الا بضع ساعات يختلسها فقط ليغمض فيها عينيه بعد يوم كامل بليله ونهاره او يومين كاملين!.

كان يؤكد ان المعركة ستكون في هذا العام. واصبح لا تفوته فرصة او مناسبة الا وينبه الى خطورة الوضع وفي كل اجتماعاته ولقاءاته كان يسوق تحذيراته لكل القيادات وعلى كل المستويات.

ويقول «ابو الطيب» في كتابه زلزال بيروت: «كان القائد العام يتوقع الهجوم الشامل من العدو. وكان يتوقع ان يبدأ العدو الهجوم بالتمهيد له بقصف شديد من الطيران والبحرية ثم يقوم بعملية انزال في مواقع عدلون والزهراني والجية والسعديات والدامور ليفصل بين قواتنا ويقطع خطوط الاتصال بينها.

وبناء على كل توقعاته هذه أعطى أوامره بتزويد كافة القوات بكل ما يلزمها من الاسلحة والذخيرة والتموين ووضع كميات احتياط لمدة شهرين عندها اضافة الى تزويد كل فصيل وقائده بالتعليمات الضرورية وحرية الحركة وتقدير الموقف حين يشن العدو هجومه. كان يتابع ادق التفصيلات فيما يتعلق باستعداداتنا. وكان يحرص دائما على تأمين كافة الاحتياجات بغية تنفيذ المهام بشكل جيد ودقيق وبنجاح تام. ويعمل جاهدا لتأمين ما يلزمنا او ما هو غير متوفر لدينا. وكان يظهر عليه الاهتمام البالغ ان وجد اية ملاحظة غريبة او جديدة وكان يصغي جيدا لكافة الامور التي تقوم بتبليغه اياها.. واذا وجد ان هناك أي

خلل قام شخصيا بالاشراف على تنفيذ المهمـة يساعده في ذلك القائد ابو جهاد والشهيد البطل ابو الوليد سعد صايل .

وكان هناك خمسة مدافع عيار ٥٧ ملم م/ط ولم تستخدم منذ فترة طويلة وذلك لعدم توفر مخازن لها . فأخذ يشرح لي كيف يمكن عمل مخازن لهذه المدافع على المخرطة . . ونجحنا في ذلـك . كذلك نجحنا في جعل المدافع متحركة بوضع موتور على شاسي المدفع ووضعه على سيارة ليتحرك بسهولة اكثر وكان كل هذا من اختراعه وكذلك بالنسبة للمدفع الـ ٣٧ م/ط بحمله على سيارة رغم ثقله بصنع تصفيح جيد على شاسي السيارة وينزلون فالون من شاسي السيارة بحيث تكون قاعدة المدفع محمولة على اربعة وحاكات زيتي على شاسي السيارة ينـزل على الارض اثنـاء الـرمـاية فيكـون ضغط الـرمـاية على الـرافعـة ثم على الفالون المثبت في الارض وبهذا لا تتحمل السيارة اي ضغط وكنا نظن ان هذا مستحيلا ولكننا عندما نفذنا تعليماته كانت النتيجة باهرة ! .

كان يشرف على كافة امور الاستعداد . . الخنادق التحصينات والكمائن . وطلب ان يجهز افراد الكمائن الليلية بالصدريات الواقية للرصاص وبالمناظير الليلية . وكم كان يهتم بالتحصينـات ففي كل موقـع كان يقوم بزيارته كان يتفقد التحصينات والخنادق وخنادق المواصلات والحفر الفردية . وامر ببناء الدشم في منطقة الرمل العالي فقد رأى فيها منطقة هامة . . ولكنها ضعيفة . فطريق الاوزاعي يجب السيطرة عليه اذا حاول العدو القيام بعملية انزال على مراحل . كما ان المطار منطقة مفتوحة يسهل تنفيذ اية عملية عسكرية عليه . ولان هذه المنطقة هي امتداد لمخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة . ويقول ابو الطيب . . والآن اتذكر اهمية هذه الدشم في المعركة التي خاضها مقاتلونا ضد العدو على محور المطار والاوزاعي .

كان «ياسر عرفات» يعتبر الهجمات الشرسة التي قامت بها اسرائيل على قرى الجنوب عام ١٩٨١ مقدمة للحرب الكاسحة على لبنان . ولانه لم تغب عن وعيه مقولة موشي ديان في يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ «لقد وصل جيل حرب ١٩٦٧ الى قناة السويس والى الاردن والى مرتفعات الجولان . الا ان هذا الجيل لم يصل الى نهاية حدود اسرائيل . سوف يكون هناك خطوط جديدة لوقف اطلاق النار غير الذي تم تثبيتها والتي سوف تتوسع عبر الاردن حتى تصـل الى لبنـان والى سوريا الوسطى ! ولم يغب عنه جنون الطموح في مقولة ارييل شارون في شهر ديسمبر ١٩٨١ وبعد حرب الجنوب العنيفة «خلال السنوات القادمة لا تمتد دائرة المصالح الاستراتيجية الاسرائيلية الى البلدان العربية المطلة على البحر الابيض المتوسط فحسب . . ولكن الى منطقة الشرق الاوسط بأسرها وينبغي ان تمتد هذه الدائرة الى ايران

وباكستان والى الخليج والى افريقيا والى تركيا. ولتحقيق هذا الهدف لابد من اعداد جيش كبير للغاية.

ولانه كان يدرك حجم المؤامرة لذلك كان يعلم ان الدور جاء على لبنان وان الهجوم القادم سيستهدف القضاء على القوة العسكرية الفلسطينية نهائيا خاصة بعد ارهاقها الطويل بالهجوم المتوالي على مواقعها في الجنوب وكان لابد ان يشمل الهجوم بيروت.

لذلك عاش ثالوث الصمود ابو عمار ـ ابو جهاد ـ ابو الوليد بين مقاتليهم باستعداداتهم وتحصيناتهم ورفع روحهم المعنوية. فقد كانوا يعرفون ان اسرائيل ستغزو لبنان للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وقوتها العسكرية وبنيتها التحتية وقاعدتها الجماهيرية في عملية إبادة كاملة لإنهاء وجود الشعب الفلسطيني.

وبعد معركة الخيام ومعركة مارس ١٩٧٨ ومعارك شقيف وارنون وحرب عام ١٩٨١ بالاضافة الى كل عمليات القصف اليومي لتجمعات الشعب الفلسطيني وقصف القرى والمدن اللبنانية اتضحت هذه النية.

وقام ابو عمار بتحركه واتصالاته بعدد من الدول العربية ودعا الى التعبئة العامة للشعب الفلسطيني وفتح باب التطوع.. وحاول الحصول على السلاح المتطور او الحديث واشرف بنفسه على كل الاستعدادات كما اسلفنا. وكان يسمي العملية القادمة عملية ـ الاكورديون ـ وان كان هذا الوصف او التشبيه يدهش الجميع الا ان «ابو عمار» كان يتوقع الخطة الموضوعة.. وتماماً كما جرى تنفيذها. فقد قال لي حين سألته: لماذا اختار بالذات تسمية الاكورديون للعملية المتوقعة؟. فقال: «عندما تريدين الضغط على اصابع الاكورديون.. الا تلجأين الى الضغط على الجناحين الخارجيين للجهاز؟. قلت: صحيح. قال: هذا ما كانوا يبغون الوصول اليه.. بحيث نصبح نحن داخل الاكورديون بينما يضغط الاسرائيليون من جهة ويضغط عملاؤهم من جهة اخرى ونحن محاصرون في الداخل في عملية حصار كاملة. سألته: وهل حدث ذلك بالفعل؟. قال: «للأسف حدث تماماً وكما توقعته» ويقول لي ابو الطيب: «لقد شرح القائد العام للعسكريين وعلى الخارطة احتمال الهجوم وفسّر عملية الاكورديون كما تصورها بأن الجيش الصهيوني سيقوم بهجوم شامل وبقوة تشمل كل الجيش الاسرائيلي وستبدأ عملية الضغط من الجنوب ومن ثم تقطيع الأوصال وعمليات انزال من منطقة خلدة باتجاه المطار يقوم على اثرها حلفاء اسرائيل بالهجوم على بيروت الغربية مستفيدين من اهتمام الجيش من الجنوب وتوزيع هذه القوات على اكثر من محور ليشكل بهذا شكل كماشة مطبقة على قواتنا».

وبدأت كل المؤشرات تشير الى حتمية وقوع الهجوم الاسرائيلي وارتفعت نغمة

التهديدات الاسرائيلية فتأكد يقين ثالوث الصمود ان المعركة ستصل الى بيروت لذلك اهتم ببيروت وتحصينها تماماً كما كان يهتم بالجنوب وضاعف اهتمامه في تحصين بيروت والساحل حتى منطقة الجسر الأولي شمال صيدا. وكانت كل التقارير التي تصل ابو عمار تظهر نيّة العدو بالالتفاف حول بيروت إلا انه في وسط كل هذا كان يرى نذر التآمر واضحة، استحالة استعمال طريق الجبل مثلاً لوقف القوات المتقدمة للالتفاف حول بيروت لأنه لا توجد مواقع للفلسطينيين في الجبل. فهناك كانت القوات السورية!. او مثلاً بعد ان توضع المدفعية المصوبة للبحر لتوقع عملية انزال بحري للوصول الى بيروت.. يتصل بعض المسؤولين اللبنانيين بالقيادة يطلبون اخلاء المدافع من المكان حتى لا تسبب ضرراً للسكان. او بشكل موجة تفجيرات لمستودعات الذخيرة قبل ثلاثة اشهر من المعركة. او التفجيرات التي حدثت للبنايات الشهيرة لخلق حالة من التوتر وفقدان الثقة والذعر بين الناس لاعطاء الفرصة للصراعات الداخلية وليطالبنا الناس باخراج مستودعات الذخيرة من بيروت وقد حدث ذلك بالفعل مما اضطر القيادة لاتخاذ قرار باخلاء المدينة من مستودعات السلاح. وهكذا في الوقت الذي كانت تتوالى فيه طلعات الطيران الاسرائيلي الاستطلاعية المكثفة.

وتجمعت نذر الغزو الذي سبق ان استشعر «ابو عمار» روائح الكارثة منذ الفشل الذريع لقمة فاس الاولى في اخريات ١٩٨١ والتي انتهت بفشل خطة «فهد» للسلام. وتغير الحكم في مصر بمقتل السادات. وعدم حدوث اي تغير في الموقف الرسمي المصري والاهتمام فقط بتنفيذ الانسحاب الاسرائيلي من سيناء، ثم تولى ارييل شارون وزارة الدفاع في الحكومة الجديدة وهو المعروف بتعصبه وتطرفه وكراهيته للعرب والذي يمارس سياسة القبضة الحديدية على الاراضي المحتلة.

ومؤامرة الحكومة الاسرائيلية للسيطرة على الضفة الغربية وغزة عبر الادارة المدنية ثم اعلان حكم القانون الاسرائيلي على الارض المحتلة في الجولان السوري. ثم الممارسات التعسفية في الاراضي المحتلة بمحاولته تطبيق الادارة المدنية واقصاء رؤساء البلديات واعلان الاضراب العام بما عرف في ذلك الوقت بالانتفاضة التي شملت الارض المحتلة كلها بأرضها المحتلة منذ ١٩٤٨ او التي احتلت في ١٩٦٧ تلك الاضطرابات التي جعلت الارض المحتلة تغلي والتي جعلت المسؤولين الاسرائيليين يصفونها بانها اهم معركة تخوضها اسرائيل سياسيا منذ انشائها في عام ١٩٤٨!.

كل هذا تجمع وامتدت آثاره في عام ١٩٨٢. على ان نذر الحرب بدأت بالفعل من تصريحات المسؤولين الصهاينة ومن تحركاتهم ونشاطاتهم الدبلوماسية.

ففي يناير / كانون الثاني عام ١٩٨٢ اعلن السفير الاسرائيلي في امريكا موشي أرينز

ان الاجتياح الاسرائيلي للبنان هو مسألة وقت! . وقدم وزير الدفاع الامريكي تقريزا اعدته ادارته في نفس المدة يتضمن معلومات عن الاهداف الواسعة للعملية الاسرائيلية المتوقعة . وصرح روفائيل ايتان في شهر ابريل من نفس العام للصحافة الاسرائيلية : بعد ٢٦ نيسان/ابريل سيكون ثمة تغيير في ذلك الوضع الذي استمر خمسة عشر عاما .

الا ان التصريح الخطير الذي افضى به مردخاي غور، رئيس الاركان السابق، حين قال هدف سياستنا في لبنان هو التصفية الشاملة لمنظمة التحرير الفلسطينية! وفي ٣ ابريل اغتيل السكرتير الثاني لسفارة اسرائيل في باريس . اعلن بعدها اسحاق شامير في الكلمة التي القاها في مناسبة دفنه ان اسرائيل ستضرب المخربين على رؤوسهم وفي مراكزهم وقواعدهم في اي مكان يمكن ان تصله يدنا .

وفي ١٤ ابريل اكدت الصحيفة البريطانية الديلي تلغراف وجريدة الاوبزيرفر ان اسرائيل قد حشدت في مناطق الحدود اللبنانية قوات من اربعين الف جندي لغزو لبنان وانها اتمت كليا الاستعدادات العسكرية لتوجيه ضربة للثورة الفلسطينية .

لكن في ٢١ ابريل نسف جندي اسرائيلي بأحد الالغام المزروعة في الاراضي اللبنانية . وقد اعتبرت الحكومة الاسرائيلية ان هذا الحدث هجوميا . . وخرقا لوقف اطلاق النار. لذلك قام الطيران الاسرائيلي بقصف بلدة الدامور التي تتواجد فيها القوات الفلسطينية . الا انه وحرصا على عدم تصعيد الامور بقيت القوات الفلسطينية ملتزمة بوقف اطلاق النار لانها تدرك قصد التحرش بها .

وبعد زيارة لوزير الحرب الاسرائيلي ارييل شارون الى واشنطن لوضع اللمسات العسكرية الاخيرة للاجتياح . . اعلن انه تحدث بشأن العملية وبحث كافة الاحتمالات للتدخل السوفياتي واعتبرت هذه الزيارة بمثابة ترسيخ للخطة الاسرائيلية حيث تم بحثها من جميع النواحي خاصة بعد القاء وزير الخارجية الامريكي الكسندر هيغ لخطابه امام مجلس العلاقات الخارجية الامريكية وقال فيه ان لبنان اليوم هو بؤرة الخطر حيث ان الظروف الحالية التي يمر بها قد تؤدي الى حرب لها نتائج بعيدة المدى . لكن في كتاب الحرب الاسرائيلية ـ اللبنانية يؤكد المؤلفان مباركة امريكا في عهد وزير الخارجية هيغ للغزو الاسرائيلي للبنان لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ومحاولة تنفيذ خطة لحظر النفوذ السياسي في المنطقة .

وفي ٥/١٥ عقدت الحكومة الاسرائيلية اجتماعا خطيرا وصف بأنه مجلس حرب . اعلن بعده رئيس الاركان الاسرائيلي ايتان انه اصدر اوامره بالفعل لنشر قوات عسكرية ضخمة عند الحدود الشمالية . وقال ان الوسيلة الوحيدة لاضعاف منظمة التحرير الفلسطينية

هو جعلها تدفع الثمن . . بامكانهم زرع لغم ولكنهم لا يعرفون ما اخطط للقيام به . . فقد اصل الى بيروت! .

وكشف رئيس الاركان ببساطة عن خطته في ٥/٣٠ حين قال لا يمكن ان نفاوض حسب شروطنا الا بعد ان نوجه اليهم ضربة قوية وبعد ذلك اما الا يعود هناك وجود للمخربين . . واما يضعفون فلا يشكلون خطرا على التجمعات في شمال اسرائيل .

وهكذا سقط النقاب عن وجه الغدر وبيتت النية تماما ولم يعد هناك الا التنفيذ .

ولم يكن حادث الاعتداء على السفير الاسرائيلي في لندن في ٣ يونيو ١٩٨٢ والذي نفت منظمة التحرير صلتها به هو السبب المباشر للغزو . ويوضح كتاب الحرب الاسرائيلية ـ اللبنانية كيف استغل شارون وبيغن محاولة الاعتداء على سفير اسرائيل في لندن ـ شلومو ارغوف في ٣ يونيو ١٩٨٢ امام الوزارة لضرورة الانتقام من منظمة التحرير الفلسطينية .

ورغم ان المخابرات قد اجهدت نفسها في البحث عن مرتكبي هذا الاعتداء وهي منظمة يرأسها ابو نضال الد اعداء «ياسر عرفات» . وبرغم ادانة «عرفات» نفسه لهذا الاعتداء على السفير الاسرائيلي فان النية المبيتة لبيغن وشارون قد اتخذت هذا الحادث ذريعة ليس فقط لضرب الفلسطينيين من خلال قصف لبضعة ايام كما يحدث عادة وانما لتدمير الوجود الفلسطيني كله! .

وكما هو واضح كانت الاسباب جاهزة . . ولم يكن هذا الحادث هو الدافع الاساسي لان تغير اسراب الطيران الاسرائيلي في اليوم التالي من طراز ف ـ ١٦ على مخيمات اللاجئين ومواقع واهداف في بيروت وعلى كل مواقع الفلسطينيين في الجنوب ليقع عدد كبير من الضحايا .

هجوم كاسح بالطائرات كما كان يتوقع القائد الفلسطيني تماما . وسقط وقف اطلاق النار مضرجا بالدماء فقد فتحت المدفعية الفلسطينية النار من الجنوب اللبناني على شمال اسرائيل .

وفي ٦/٦ بدأ الهجوم الكبير تحت اسم «سلامة الجليل» . . . والذي يقال ان خطته لاجتياح لبنان معدة منذ اكثر من سنة بين شارون وهيغ! واعلن ان عملية الجليل تقضي بالسيطرة على عمق جغرافي يصل الى حدود ٤٥ كيلومترا . ولكن طريقة الانزال التي طوقت فيها القوات الاسرائيلية ثلاث مدن رئيسية هي صور وصيدا والنبطية مع تطويق مواقع عديدة في الجنوب . وفصلها عن بعضها البعض كان يشير الى اكثر من ذلك بكثير . . واوضحه اندفاع القوات الاسرائيلية لمحاصرة مدينة صيدا من جهة مدخل بيروت حتى حدود منطقة صيدا من جهة الزهراني ـ كما جاء في كتاب زلزال بيروت .

وكان يمكن اعتبار الهجوم الاسرائيلي هجوما محدودا هدفه الجنوب اللبناني وقواعد الفدائيين في الجنوب ومحاولة ضرب مواقع المدفعية الفلسطينية التي تطال المستوطنات الاسرائيلية في الجليل وهو ما يلتقي تماما مع الاهداف المعلنة للهجوم الاسرائيلي. اما بعد منطقة الزهراني ـ وبعد محاولة حصار صيدا من جهة مدخل بيروت فان العملية الاسرائيلية تكون قد تجاوزت هدفها المعلن.

وحين يلتقي هذا التجاوز الميداني مع المعلومات المسبقة عن الهجوم الاسرائيلي الشامل فان المعلومات تكون قد تأكدت بتحركات ملموسة على الارض ولذلك كان الاستنتاج الفوري في غرفة العمليات بأن الهجوم الاسرائيلي هجوم كبير للغاية. وسيحاول ان يطال حتما مركز القوة الاساسية في بيروت ممثلا بمركز القيادة الفلسطينية.

وحين نقول ان المعركة قد قدمت «ياسر عرفات» بطلا مطلقا فلأنه كان القوة الروحية المحركة لها. علاوة على فاعليته الحربية الفعالة في المعركة. فقد كان ايضا قائدا ميدانيا شاملا بمعنى انه لم يغب ابدا عن القاعدة. فهو دائما مع الناس في المخيمات، في المستشفيات يواسي الجرحى والمصابين يشرف على توزيع الخبز والماء يتحدى المستحيل حين تقطع المياه او الكهرباء يشرف على حفر الارض للوصول الى الماء فيها.. او يأتي بمولدات الكهرباء ليعيد الحياة للمدينة المحاصرة. يعرف تماما انه لكي تصمد ـ يجب ان تمنح الناس مقومات الصمود.

هذا بالطبع الى جانب تنقله الدائم وتفقده لكل الوحدات الحربية واستعداداتها وعتادها وخنادقها ودشمها وتجهيزاتها. وبجانبه كان دائما ابو جهاد وسعد صايل. لقد قال لي احد المقاتلين: كنا نعجب من قدرته على التنقل!.. بل كنا نسأل باندهاش هل يمكن لشخص واحد ان يكون في كل مكان في نفس الوقت؟.

وفي الوقت نفسه كان القائد دائم الاجتماعات والمشورة. وحرص تماما على ان تكون القرارات بتمثيل الجميع وحتى يكون القرار جماعيا.

ولا ندعي ان «عرفات» كان يستطيع ان يفعل كل شيء بمفرده.. فلابد من ان القيادة وفي مثل هذه الظروف الحرجة كان لابد وان تعمل كفريق كاملاً متكاملاً. كل يعطي بأقصى طاقته. كثيرون اداروا معه المعركة سواء من الناحية السياسية او العسكرية او حتى النفسية للناس. ولا احد يستطيع ان يغفل عن دور ابو جهاد وابو اياد او الشهيد سعد صايل او هاني الحسن.

حتى هؤلاء من كانوا خارج الحصار، كانوا يشاركون بتحركهم، فقد قام القادة

ابو مازن /ابو اللطف/ ابو السعيد بعمل ديبلوماسي هام وكذلك ابو ماهر مع القوات في البقاع ولكن القرار الذي اتخذه جميع من هم في الخارج ان القيادة لمن هم في الحصار لمواجهة جميع الضغوط ولتقوية موقف المحاصرين ولكنه كان الروح المحرك لكل هذا، القطب الذي تدور حوله الاشياء كلها. ولولا وجوده ـ بشخصه ما كان يمكن لمعركة بيروت ان تكون بمثل ما كانت! .

ونصحه الناصحون ـ ومنذ البداية ـ وفي وقت اشتداد سعير المعارك ان يخرج. كان يرد: لو خرجت فلن يحارب احد. لذلك كان يجب على القيادة أن تبقى. لانها قيادة ملتصقة بالمقاتلين وبالناس لانها القيادة الشعبية الجماهيرية.

لقد كانت معركة بيروت شاهدا على قيمة زعامة «عرفات».

اشتعلت المعركة التاريخية التي سجلت «ياسر عرفات» بطلا مطلقا لمعركة بيروت بالفعل. فرغم التفوق المهول في العدة والعتاد فقد سطرت المقاومة الفلسطينية ملحمة البطولة والصمود حين اوقفت جيش الدفاع الاسرائيلي ممثلا بكل فرقه العاملة! . . اضافة الى ستين بالمئة من قوى احتياطه عاجزا على ابواب بيروت الغربية لا يستطيع اقتحام المدينة رغم اطباق الحصار الكامل عليها. وقبل ان نكتب شيئا عن المعركة نورد هذا الكلام الذي كتب في جريدة الايكونومست دليلا وبرهانا على ما نقوله. تقول الجريدة: كان شعور اسرائيل بالهزيمة خاصة وسط المدينة ناهيك عن الجيش شعورا ثقيلا. فقد حفلت الصحف الاسرائيلية بمقالات يومية تدين الحرب وتصف احساس الجنود بالعار واليأس. فقد كانت هذه اول هزيمة عسكرية كاملة تتلقاها اسرائيل. وبلغ عدد قتلى اسرائيل في هذه الحرب حتى شهر يونيو الماضي **٦٥٤** قتيلا. واذ اكان قد امكن تعويق منظمة التحرير الفلسطينية عسكريا نتيجة هذا الغزو الا ان اسرائيل قد فشلت في طرح زعيمها «ياسر عرفات» ارضا. بل على العكس كان بيغن هو الذي استقال من منصبه وليس «عرفات». والاسوأ من ذلك بالنسبة لاسرائيل ان منظمة التحرير قاتلت بشجاعة وكسبت احترام العالم الذي راح على العكس يصف القصف الاسرائيلي لبيروت بالارهاب.

وقدمت هيلنا كوبان في كتابها المنظمة تحت المجهر وصفا مختصرا للمعركة التاريخية. قالت: «اظهرت التكتيكات التي اتبعها الاسرائيليون في الحرب التي دفع اليها مئات الالوف من الجنود النظاميين والاحتياطيين خلال الاشهر التالية تنسيقا دقيقا بين العمليات الجوية والبحرية والبرية. وفي هذا الاجتياح خلافا للاجتياح الذي حدث عام **١٩٧٨** لم يقم الاسرائيليون بدفع جبهة كبيرة محمية وثابتة عبر البلاد، بل انهم استعملوا وحدات سريعة الحركة من الكوماندوز والدروع والمدفعية من فوق رؤوس المدافعين عن المنطقة من القوات

المشتركة وعلى جوانبهم مستخدمين كل تفوقهم الجوي والبحري ومن غير ان ينتظروا السيطرة الكاملة على كل نقطة في الجنوب تمكن الاسرائيليون من متابعة زحفهم والدخول في معارك جديدة الى الشمال سواء على طول الساحل او في جبال الشوف في الداخل. ولم يكملوا عمليات التمشيط في بعض المناطق من الجنوب الا بعد الاستيلاء على محاور المواصلات للسيطرة الارضية على بعض مخيمات اللاجئين المعزز دفاعها في الجنوب اكثر من اسبوع بعد قطع اتصالها مع بيروت قطعا كاملا.

وفي ١٤ يونيو / حزيران تمكنت الوحدات الاسرائيلية الزاحفة شمالا بمحاذاة المنحدرات الغربية لجبال الشوف من التلاقي مع الميليشيات المسيحية التي تسيطر عليها الكتائب والتي كانت متحالفة مع الاسرائيليين منذ عام ١٩٧٦.

وحوصر الفلسطينيون وحلفاؤهم داخل الاكورديون الذي بات ممكنا احكام ضغطه عليهم بشدة».

واذا كنا قد ذكرنا الاختلاف في الاجتياح الذي تم في عام ١٩٨٢ وذلك الذي وقع في ١٩٧٨.. فهذا يعني تغييراً في الاستراتيجية القتالية للجيش الاسرائيلي وفقا لطبيعة الخصم الذي يهاجمه. وهذا يعزز رأينا بأن اجتياح الجنوب في سنة ١٩٧٨ كان بمثابة جس النبض ولمعرفة قدرات وخصائص الخصم الذي لا تعرف الا بالالتحام في القتال.

واذا كانت القوات الاسرائيلية في هجومها الاول قد دفعت جبهة كبيرة ومحمية وثابتة.. وفوجئت من عدوها باعتماد حرب العصابات كالذوبان في مجموعات صغيرة تصل وراء الخطوط الاسرائيلية. فقد تعلمت الدرس واستخدموا هم وحدات سريعة الحركة مع الكوماندوز والدروع والمدفعية من فوق رؤوس المدافعين مستخدمين كل تفوقهم الجوي والبحري للتقدم على ثلاث محاور.

محور القاطع الغربي.. ومحور القاطع الاوسط والمحور الثالث هو محور القاطع الشرقي. وفي الوقت نفسه كانت قوات العدو وبوارجه وطيرانه الحربي تقوم بقصف كافة طرق الامداد والتموين.

ورغم كل هذا فقد قاتل الفلسطينيون قتالا بطوليا!.. خاضوا معركتهم لوحدهم الا من تحالفاتهم الوطنية داخل القيادة المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية..

وصمتت الدول العربية كلها صمتا مطبقا... وانسحبت القوات السورية.. قوات الردع العربية من جزين في الايام الاولى من المعركة!.

سألت «ابو عمار» الم تمد لكم الدول العربية يد المعاونة في هذه المعركة المصيرية؟ قال بأسف: «هل اقول لك اجابة على هذا السؤال، ان هناك حدث اجتماع لوزراء الدفاع

العرب في الكويت قبل بدء الهجوم بأيام حيث كان ظاهرا ان النيّة مبيتة للاجتياح. وكان السؤال المطروح آنذاك: هل نساعد الفلسطينيين امام الاسرائيليين ام لا؟.. وكان الجواب بالاجماع لا!!.. وهل اجيبك ان القوات السورية اشتركت في المعركة اربعة ايام فقط ثم انسحبت وتركتنا نقاتل بمفردنا مدة ٨٨ يوما وهي الحليف الاستراتيجي الاول لقوات الثورة الفلسطينية... وعدونا عدوها ومصيرنا واحدا... وهل اقول لك اننا كنا موعودين من احد الزعماء العرب بأن يقدم للثورة اسلحة حديثة وكان من هذه الاسلحة صواريخ فروغ بعيدة المدى.. واني بدأت بالفعل باجراء الترتيبات اللازمة لمفاجئة العدو بهذا السلاح الجديد بحيث تكون عملية نقل هذه الاسلحة الى الجنوب مخفية تماما وطلبت من مسؤول اللجنة العلمية ان يسرع بانجاز ناقلات على شكل مستشفيات متحركة لتوضع بداخلها الصواريخ. واصبح كل شيء معدا.. ولكن لم تصلنا الصواريخ وكنت ابرق يوميا لحث صاحب الوعد.. لكن دون فائدة، كنت دائما اردد.. ان علينا ان نقاتل «مثل جنود اسبرطة في الزمان الغابر» بمفردنا الى ان تلحق بنا امتنا العربية!».

ولا احد يدري تماما متى تلحق بهم امتهم العربية! فقد خاضوا معركتهم بمفردهم واستعصوا على طالبيهم وسجلوا بطولات نادرة واوقعوا في صفوف عدوهم خسائر وضحايا.

واسرائيل التي لم تعتد على الخسائر.. وتخوفها من هذه الخسائر هو الذي حال دون اقتحام بيروت. وقد سجلت آراء كثيرة واعترافات لجنود وقواد عن هول المقاومة التي يلقونها. ففي معارك خلدة التي تعتبر مفتاح بيروت من الجهة الجنوبية حاول الاسرائيليون احتلالها عدة مرات ولكنهم لم يستطيعوا نظرا لشدة المقاومة التي كانت. وظهر هذا في حديث نقلته الاذاعة الاسرائيلية الساعة الواحدة ظهرا في ١١ اغسطس/آب ١٩٨٢ من مستشفى عسكري لاستقبال جرحى الحرب من رقيب جريح في الجيش الاسرائيلي. وسمعه العالم وهو يقول: اعتقد انني خدعت وكذبوا عليّ. لقد طلبوا مني ان اشارك في هذه الحرب على اساس ان العمليات العسكرية التي سنقوم بتنفيذها سوف تكون محدودة وستقتصر على مناطق معينة في لبنان اقصد جنوب لبنان فقط وهو القطاع الذي تحدثوا عنه وقالوا انه يمتد حتى عمق ٤٥ كيلومترا. لكن لم يقل لي احد بأنني سأضطر للقتال عند مشارف بيروت. لقد دخلنا لبنان لكي نقتل الفلسطينيين وندمرهم لكننا قتلنا انفسنا!.

فمثلاً في جنوب لبنان وحتى اليوم الثامن للقتال.. كان عدد القتلى في جميع المناطق قد وصل الى ٤٩٠ قتيلا وثلاثة آلاف جريح. وفي اليوم الثامن لم تكن صيدا ولا حتى مخيم عين الحلوة وجزين قد سقطت. وما بين اليوم الثامن والرابع عشر، أي خلال اسبوع تقريبا فقدنا ما يزيد على ٣٠٠ قتيل والف جريح.

بعد ان سقطت صور بأيدينا صدرت الينا الاوامر بالتحرك شمالا . كانت صيدا ماتزال محاصرة والطائرات تقصفها بشدة. نحن لم نقاتل في صيدا فقد طلب الينا ان نتابع الى الدامور. اقول لك ان الكثيرين من الجنود كانوا مترددين في متابعة التقدم والاستمرار في هذه الحرب. وحينما تجاوزنا صيدا شمالا ادركنا بأننا خدعنا . . لقد قاموا بتوسيع الحرب وهم يعلمون بأننا تكلفنا خسائر باهظة. الدماء كانت تسيل في كل يوم وكل ليلة. الدامور كانت مدينة اموات . . كل من يقترب من هذه المدينة كان يدخل بلا عودة . . كان الرصاص هناك ينهمر علينا كالغبار والانفجارات تهزنا .

ويضيف الجندي الجريح : لم اشهد في حياتي قتالا كذلك الذي وقع في الدامور!» كذلك كان الحال في كل المعارك كما حدث في الدامور بشهادة هذا الجندي الذي هو من جنود العدو. وفي معركة الاوزاعي البطولية ايضا. لقد صمد الاوزاعي الذي هوجم من كل الجهات خلال ٨٣ يوما بفضل استخدام الحفر الفردية وعمل مدافع الرشاشات والمدافع المضادة للدبابات وزرع الالغام رغم هجمات الطيران المتواصلة.

ويحددون ان معركة بيروت قد بدأت من منطقة السفارات فبعد فشل غرض افقاد الصواب بالضربة الواحدة التي تعودتها اسرائيل وظهور القيادة قوية متماسكة لم يؤثر فيها هذا الاجتياح. اخذت القيادة الاسرائيلية قرارات بدخول بيروت. وهذا كان يبدو بعكس ما نشروه واذاعوه من انهم لم يكونوا يريدون دخول بيروت ـ وذلك بعد وقوفهم عاجزين امام مقاومتها الباسلة ـ والحقيقة الوحيدة ان الخسائر الكبيرة الموجعة التي كانت تلحق بقواتهم في كل مرة . . وعلى جميع محاور القتال ابتداء من الاوزاعي ـ المطار ـ حي السلم وحتى المتحف كانت تدفعهم للتراجع واعادة الحسابات التي سيتكلفونها بدخولهم بيروت.

وحين سقطت خلدة، بعد معركتها الخالدة . . وتم الاندفاع نحو الشويفات وبعبدا معقل الحكم والنفاذ الى داخل بيروت الشرقية ومعركة التلة الحمراء والوصول الى المتحف والميناء . . اكتمل الحصار حول بيروت. وهنا لابد ان نذكر كيف تمكنت وحدة فلسطينية مقاتلة من مباغتة قيادة العدو في الدامور اثناء اجتماعها والاجهاز عليها بمن فيهم مدير العمليات الاسرائيلي الجنرال آدم ومن معه من القيادات العليا الاسرائيلية ـ لقد كانت من اروع العمليات الفدائية التي تمت في هذه المواجهة العسكرية الشرسة. ودارت المعركة وجرى رد خمس هجمات مكثفة للعدو. واستمرت المعركة ثلاث ساعات كاملة وانسحب العدو بعيدا عن مثلث خلدة . . ثم تتابعت المعارك على مثلث خلدة الى طريق الاوزاعي وحاولت القوات التقدم نحو مدينة الملاهي ولكن الجحيم الذي صب على المنطقة بعد ذلك ادى الى استشهاد اثني عشر مقاتلا وجرح ثمانية عشر آخرين. ثم قام الطيران بقصف مركز

على شمال غرب خلدة وبـرج البراجنة وبرغم هذا تم التصدي للقوة المهاجمة ولكن تفوق سلاح الطيران هو الذي كان يسبب الخسارة للفلسطينيين.

وكانت محاولات اسرائيل لاقتحام بيروت متكررة وكانت معركة المطار من اهم المعارك التي دارت حول بيروت نظرا للسرية التي كانت على الفلسطينيين ان يتبعوها. اذ كان محظورا عليهم الدخول الى اي مرفأ حكومي في المطار فاضطرت القوات الفلسطينية الى الاحتماء بنفق يربط كل ابنية المطار تم اكتشافه.

وشُكل محور للمطار نظرا لاهميته الاستراتيجية. وكبر حجم المعركة. وكان الجيش اللبناني يشارك بمحاولته اعاقة حركة قوات المقاومة حيث كانت هنالك قوة منه في المطار ولم تقدم شيئا في هذه المعركة وكأن المعركة لا شأن له بها.

وفي كتاب زلزال بيروت عن معركة المطار: «في تاريخ ١٩٨٢/٧/٥ اجتمع شارون وفيليب حبيب في مقره بقصر بعبدا. وقد جاء هذا الاجتماع والمعركة حول المطار مشتعلة ومحتدمة. وكان الاثنان يراقبان المعركة من العضد المطل على بيروت وفي ظنهما ان المعركة التي بدأها الجيش الاسرائيلي امس لاحتلال المطار سينهيها في بضع ساعات يقوم بعدها شارون بتسليم المطار لسركيس كهدية من الاصدقاء والحلفاء الجدد لرئيس الجمهورية اللبنانية ووزير خارجيته فؤاد بطرس. وليبارك هذا المبعوث الامريكي فيليب حبيب!.

ولكن ثوارنا وابطالنا في القوات المشتركة احبطوا الهجوم الاسرائيلي بكل زخمه ودمروا له ثمان دبابات وخمس جرافات «لاندروفر». كما اسقطت المقاومة الارضية طائرة استطلاع اسرائيلية بدون طيار.

لقد كانت الاهمية غاية في الخطورة بالنسبة لسيطرة الجيش الاسرائيلي التامة على المطار. لكنه عندما شن هجومه على منطقة الاوزاعي والمطار لم يستطع فرض سيطرة كاملة على هذا القاطع فقد كانت لنا جيوب ومجموعات مازالت تقاوم في منطقة الاوزاعي والغازار ومحيط المطار وصدق الذين كانوا يشبهون الوضع بأسنان المنشار. فكان هناك التداخل بين المواقع الفلسطينية والمواقع الاسرائيلية. ويقول قائد هذا القاطع: كنا بالفعل محاصَرون (بفتح الصادر).. ومحاصِرين (بكسر الصاد)!.

ولا احد ينكر كيف كانت العمليات العسكرية خلف خطوط العدو التي تتقنها القوات الفدائية تماما.. كم كانت ترهق وتقلق هذا العدو الذي يتسم افراد جنده بالجبن. فقد كان الذعر يتملكهم وهم يرون عددا من ضباطهم وجنودهم يتساقطون قتلى وجرحى على ايدي هذه القوات الفدائية. وهذه العمليات خلف خطوط العدو تعتمد على عنصر المفاجأة والتكتيك السريع بما يربك افراد القوة الواقع عليها الهجوم. وقد اكدت هذه العمليات

مقدرة القوات الفلسطينية على ضرب تجمعات العدو اينما وجدت.

وعاشت بيروت اياما مجيدة في الحصار فلم يسقط موقع الا بعد مقاومة.. ولم تنته معركة للعدو دون خسائر. وكان اروع ما يوجد هو تلك الروح العالية التي يتمتع بها القائد ويمنحها للمقاتلين. وكانت معركة شارع المتحف معركة من المعارك الفلسطينية المضيئة والتي ثبت فيها الفلسطينيون واللبنانيون بشجاعة منقطعة النظير ويكفي ان نتذكر البلاغ العسكري الاسرائيلي بعدها عندما اعلن ان قواته العسكرية تقدمت عشرة امتار فقط لا غير.

بذلك صمدت بيروت للحصار. ووجه القائد رسالة الى الجماهير العربية ومن قلب الحصار بتاريخ ١٠/٧/١٩٨٢.. قال فيها: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين».. لليوم السابع والثلاثين والصمت العربي يلف المنطقة كأنما ذهبت الامة في سبات عميق بعيدا في متاهات الاحلام السعيدة. وكأنما الخدر اصابها، فهي لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم.. حكمة او جهالة او املاقا. او كأن العقم اصابها فهي لا ترغب في المزيد من الحياة.

ان من حق هذه الجماهير ان تتساءل اليوم وان تحاسب غدا وان تعاقب بعد غد. ونحن هنا في بيروت الابية التي ترفض الركوع وترفض الاستسلام ولكنها تقاتل كأروع ما يكون القتال وتجاهد كأشرف ما يكون الجهاد وتدفع الثمن وتقدم الاضاحي ليبقى الرأس عاليا مرفوعا فوق هامة الزمن وليبقى لهذه الامة شرفها وعزتها وكرامتها.

واحدث حصار بيروت هزة. صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية نشرت مقالات بقلم سلفي كيشيت يقول فيه: في ظل الحصار المفروض على بيروت فان السكان المدنيين هم رهائن لدى شارون وبيغن. والتاريخ الحديث يتذكر الحصار الذي فرض على ستالينغراد ولينينغراد.. وقد يكون الذي جرى في كمبوديا غير معروف.. ولكن الحصار المفروض على بيروت الغربية.. يثير الرعب!.

وكتب هذا في الصحافة الاسرائيلية! فرغم الصمود ورغم استحالة اقتحام بيروت الا انها كانت تئن تحت جحيم القصف حيث تنصب عليها القنابل والقذائف والحمم والصواريخ المختلفة الانواع من البر والبحر والجو ويظل القصف المجنون الجهنمي العشوائي الذي يحيلها الى جحيم مستعر من النيران والانفجارات وارض للخراب والدمار والموت. وبجانب كل هذا تقطع المياه والكهرباء وتمنع مواد التموين والغذاء والدواء والعلاج لتتفشى الامراض وتنتشر الاوبئة.

وبرغم كل هذا لم يستطع صناديد جيش الدفاع الاسرائيلي اقتحامها في حين ان

المغرورين كانوا ينتظرون ان لا يستغرق الأمر اكثر من ٤٨ ساعة واذا طال فليس هناك اكثر من خمسة ايام!.

كانت كل التقديرات تتردد عن مدى قدرة الفلسطينيين على صد الهجوم. وكم من الوقت يلزم لصد الجيش الاسرائيلي؟. ولقد انسحب العقيد ايلي جيفع من صفوف الجيش ـ ويقولون احتجاجا على استمرار الحرب ـ وتساءل الناس جميعا لماذا رفض اوامر اريبل شارون بالدخول الى بيروت الغربية؟!.

ولا احد يتصور ان العقيد الاسرائيلي قد خفق قلبه فجأة بالحنان عندما تصور الذعر في عيون الاطفال.. فقرر عدم دخول المدينة المحاصرة. فقد صادفه في طريقه منذ ان اجتاح الجنوب عيون مذعورة كثيرة. ولكنه كان يتقدم.

ولكن حين ادرك حجم المقاومة.. وان اقتحام المدينة سيكلفه حياة جنوده وحياته لا محالة... أحجم!.

والحقيقة ان حجم الخسارة المتوقع هو الذي جعل الجيش الاسرائيلي يحجم عن اقتحام بيروت. كان معدل القصف الذي ينصب على المدينة يبلغ احيانا قذيفة كل ١٥ ثانية! لذلك حق لـ «ابو عمار» ان يستشهد بالآية الكريمة: «والذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.. فزادهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون». ويقول عن هذه المعركة: «لقد برهنتم ان الانسان المؤمن هو الاساس وليس السلاح».

هذا الصمود هز القلوب.. جعل مراسل دافار في لندن شاؤول تصادقيا يكتب: ان «ياسر عرفات» موجود في مقر قيادته في بيروت وسلاحه في يده. وانه مستعد للقتال حتى آخر قطرة من دمه دون ان يستسلم!.

وكان الرأي العام ليس من السهل خداعه. فمن اقوال صحف العدو نفسه ظهر الشعور العام الذي ساد في اسرائيل وبين مواطنيها. فقد نشر في أحد الصحف: منظمة التحرير الفلسطينية هي التي اوقفت اسرائيل على مشارف بيروت وليس سرا ان اسرائيل خسرت الحرب اللبنانية عسكريا وسياسيا واخلاقيا. وتقول: الخسارة العسكرية مؤلمة بشكل خاص. فالجيش الاسرائيلي توقف على مشارف بيروت للسبب نفسه الذي بسببه تتوقف كل جيوش العالم في نقطة جغرافية معينة. ان الجيش الاسرائيلي لا يستطيع احتلال بيروت الغربية بدون تقديم عدد كبير جدا من الضحايا. ولولا الخوف من المعارك والضحايا وهو الخوف الذي تأكد في القتال من بيت الى بيت في المعسكرات الفلسطينية في صور وصيدا لكانت الحكومة الاسرائيلية قد قررت ومنذ فترة دخول بيروت.

وتكتب صحيفة اخرى: ليس فقط برقيات المعارضة هي التي اوقفت الجيش

الاسرائيلي على مشارف بيروت. منظمة التحرير الفلسطينية هي التي اوقفتنا على مشارف بيروت. فالجيش الاسرائيلي لا يستطيع دخول بيروت الغربية بسبب الحسابات العسكرية البحتة. يمكن الدخول الى هناك فقط بعد قصف المدينة وتدميرها ووقتها سيكون القتال عنيدا وكثير الضحايا. وفي الحرب لا توجد حالة تعادل.. ومن لا يربح يخسر. لم ننتصر على منظمة التحرير الفلسطينية.. لم ننتصر عليها عسكريا لذلك خسرنا المعركة، لو فر مقاتلو منظمة التحرير الى كل حدب وصوب كما اعتقدت اوساط حكومة اسرائيل عشية دخول بيروت الشرقية لكان الانتصار الى جانب اسرائيل. لكن مقاتلي منظمة التحرير بقوا داخل المدينة وحصنوا مواقعهم ويقاتلون.. وهذا شيء مؤلم.

ومن مستشفى هكرمل بحيفا، يقول الملازم اول مئير ترايئين من سلاح المدرعات.. لمراسل اذاعة الجيش الاسرائيلي، علمتنا معارك الاوزاعي ان الدخول الى بيروت سيكون رهيبا!.

وقد كتبت صحيفة عل همشمار في ١٩٨٣/٦/١٧ مقالا تحت عنوان: لماذا لم يقتحموا بيروت؟ فقد كشفت عن السبب الحقيقي الذي من اجله لم يدخلوا بيروت رغم انها حاولت تجاهله ظاهريا.. ولكن محتوى المقال دل عليه. فنقول ان الفشل الذي حال دون نجاح عملية الاقتحام يعود الى الارتباك داخل القيادة نتيجة الحالة النفسية للوحدات وخاصة لواء المظليين وضغوط قيادات الميدان التي يبدو انها لم تكن تؤيد العملية الامر الذي اوجد مشكلة في تجنيد القوات الكافية لانجاح الخطة.

وبهذا لم تشر الصحيفة الى المقاومة الشديدة للمقاومة الفلسطينية الا ان هذا لم يغب عن يقظة القارىء اذ ان اشارتها للحالة النفسية التي سادت بحيث تظهر كمشكلة تجنيد القوات الكافية للخطة تلفت النظر لمسبب هذه المشكلة وهو اليأس من تحقيق النصر على الفلسطينيين وهم يعلمون تماما انه لولا تفوقهم الكبير بالسلاح والطيران ما كان يمكن لهم ان يستولوا على اي موقع للفلسطينيين!.

هل نقول ان «ياسر عرفات» كان هدفا من اهداف الغزو الصهيوني للبنان!! اذا نظرنا في وقائع الحرب لوجدنا ذلك واضحا. فقد كتب مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الاسرائيلي الى ريغان يقول: في الحرب التي تهدف الى القضاء على زعيم المخربين في غربي بيروت اشعر كالذي يرسل جيشا لبرلين للقضاء على هتلر في خندقه!.

ونرى كيف اصبحت مهمة الطيران الاسرائيلي وكأنها البحث عن «عرفات» وتتبعه من مكان الى مكان. لقد كان القصف ينصب على العمارات السكانية لاحتمال ان يكون بأحدها. وايضا لاثارة الرعب بين الناس حتى يتخلصوا منه او يدلوا عليه. لقد كانت

هنالك محاولات اقتناصه واغتياله وهذه المرة ليس ببندقية قناصة ولكن كان احد واجبات طائرات العدو الاسرائيلي اقتناصه (القنص بالطائرات).

وكان شيئا مؤلما حين يظهر «ياسر عرفات» في مكان فيفر الناس منه خوفا من القصف او ينتشر خبر وجوده في مكان فيصاب الناس بالذعر ويخلون المكان خوفا من القصف ايضا. كان يتألم ويتعذب حين يرى الضحايا تتساقط من جراء قصف البنايات التي كان من المفروض ان يكون فيها. ولقد بكى ضحايا بناية الصنائع. فقد ماتوا بسببه كما يعتقد. ولذلك يحمّل القائد نفسه ذنب الضحايا.. ولا يشعر هؤلاء القتلة بأي لوم او تأنيب ضمير. وكانت اذاعة الكتائب تزيد من حالة البلبلة والقلق كأن تحذر الناس من وجوده او تعلن عن اماكن تواجده لتعطي المبرر لقصف البنايات حتى يثور الرأي العام عليه. في الوقت نفسه كان القائد يحاول ان يجنب الناس الويلات، كان لا ينام في البنايات. وكان كثيرا ما يتخير سيارة لينام فيها في مكان ناء. او ينام في البنايات المهدمة بعد القصف والتي لا يمكن لانسان ان يظن انه فيها.

كان رحيما بالناس حريصا على حياتهم، التي كان يتدبر في امرها رغم جنون المعارك من حوله.

وفي الايام الاخيرة من الحصار قام الطيران الاسرائيلي بأكثر من مائتين وخمسين طلعة بدون توقف.. لم تترك بناية قائمة الا وقصفها. كان شارون ينوي دك بيروت على رأس من فيها الى ان يخرج «ياسر عرفات» حاملا راية بيضاء! وكان شارون يعلم: ليس «ياسر عرفات» هو الذي يرفع الراية البيضاء.

لقد عاش ايامه المجيدة في بيروت وتحت الحصار كأشرف وأعز ما يعيش القادة المقاتلون. لقد كان صادقا في كل كلمة قالها ملهما في كل توقع توقعه.

والناس لا شك يقيمون ذلك ولا تغرهم الاضواء المسلطة او سلطة التأييد الذي يحاول غيره ان يسبغه على نفسه.

وقد ذكر جرونتييه في كتابه (اسرائيل سبب الحرب الكونية الثالثة) ان في ١٨ يونيو خصص مناحيم بيغن معظم خطابه امام الجمعية العامة للأمم المتحدة لتفسير التوراة.. بينما القوات الاسرائيلية ترتكب ابشع جرائم الابادة ضد المدنيين العزل!».

ورغم هذا كله.. ومن قلب الحصار كان «ياسر عرفات» يدير حركة هائلة من الاتصالات السياسية. فقد قلنا منذ البداية انه يعيش حياته بين الحرب والسياسة. ويمكن ان يكون وهو يضع تكتيكات المعركة الحربية، ان تكون هناك عملية دبلوماسية تدور برأسه يسارع بادارتها ايضا من خلال اتصالاته او بشخصه ان امكن او عن طريق مستشاريه.

فبينـما كان شارون يعمـل بكل قواه المسعورة لتقديم الحل العسكري ليسبق الحل السياسي، بل انه اراد فرض واقع استراتيجي على الارض قبل ان تبدأ خطوات اي حل سياسي. كان «ابـو عمار» يجري اتصـالاته الديبلوماسية بغاية السرعة وهو يتابع المعارك السرعة نفسها ايضا حتى يمنع عدوه من التقدم لاحراز نصر يفرض به سياسة الامر الواقع.

لقد كان دائم الاتصال بالملك فهد والرئيس بريجنيف والرئيس ميتران ويطلعهم على حقيقـة الموقف العسكري وخطورة الهجوم الاسرائيلي. وكما كان يدير اكبر واعظم معركة عسكرية في تاريخ الامة العربية الحديث كان ايضا يدير اعظم معركة سياسية انتزع بها الحل من بين انياب الوحوش المتحالفة ضده في لبنان.. فقد كان التحالف يحكم قبضته عليه.. ولكنه أفلت منه بأعجوبة لا يستطيع تحقيقها الا «ياسر عرفات» فقط.

فقـد كانت امـريكا تقف بكل ثقلها خلف اسرائيل في لبنان ممثلة بمبعوثها فيليب حبيب الذي كان دائم التواجد مع القادة الاسرائيليين يتابع معهم نتائج المعارك. وهناك ايضـا ذلـك الثالوث البشع بشير الجميل ـ الذي قال عنه انه اصبح دولة داخل الدولة ـ والرئيس العجيب سركيس الذي رفض مساعدة الاتحاد السوفياتي حين عرض عليه العون والمعونة قبل الغزو مباشرة ـ المدعوم من وزير خارجيته فؤاد بطرس.

كان ثقل «ياسر عرفات» السياسي في هذه الاثناء يوازي هؤلاء جميعا. بحيث ان بيغن صرخ عجبا حين رأى نجاحه الديبلوماسي قائلا: هل انا الذي احاصر بيروت ام «ياسر عرفات» يحاصر تل ابيب؟.

ويقول هاني الحسن: «اثنان بعد «ابو عمار» نستطيع ان نقول انهما ادارا المعارك. واحد اسمه فارس الفرسان سعد صايل.. والثاني البطل الصامت ابو جهاد. انا تحملت كثيراً في بيروت وانا اشترك في الصراع السياسي وانتقل من هنا الى هناك. كدت اموت مرت عدة.

لا ادعي انني صاحب المعارك ولكن شاركت في المعارك السياسية وهي حقيقة من غير تواضع ولولا العمل السياسي.. لم يكن القتال ليستمر ٨٨ يوما.

العمل السياسي جعل اسرائيل لا تستطع ان تقاتل باستمرار لمدة ١٥ يوما مثلا. يعني تقـاتـل يومـين ثلاثة.. وفي هذا الوقت يمكن ان نعمل تنازلات.. نحرك الرأي العام العالمي. نحرك الخليج نجبر العدوان يوقف الهجوم.. نقدر ان نخلي جرحى. ان نستعد.

وتقول هيلينا كوبان «على ان الاسرائيليين عندما اقتربوا من بيروت وجدوا فجأة ان تقدمهم بات اصعب. كما اتضح للقيادة العسكرية ان هجوما بهذا الحجم لابد ان يكون هدفه وصول الاسرائيليين الى بيروت. ولذلك لم يكن امام المجلس العسكري الاعلى لمنظمة التحرير الذي يضم قيادات كافة المنظمات الفدائية بالاضافة الى جيش التحرير الفلسطيني.

سوى وقت قصير لاعداد الدفاعات العسكرية عن المدنيين قبل ان يصلها الاسرائيليون! .

اما على الصعيد السياسي فقد استطاع زعماء الحركة الوطنية في بيروت ايضا حشد مؤيديهم بروح عالية ضد الاسرائيليين.

على ان الفقرة المهمة اكثر تلك التي تقول فيها هيلينا ان نجاح القوات المشتركة في الدفاع عن ضواحي بيروت اوضح للقيادة الاسرائيلية انها لا يمكن ان تأخذ المدينة الا بخسائر اسرائيلية فادحة في الارواح.

ولذلك كان الفلسطينيون والاسرائيليون على السواء مستعدين ولو بشكل متردد للدخول في المفاوضات الصعبة التي تلت حول مستقبل المدينة المحاصرة ومئات الالوف من سكانها.

ويتفق رأي هيلينا مع كل الآراء التي اوردناها من ان جيش الدفاع الاسرائيلي بكل فرقه الثمانية العاملة وستين بالمائة من قوات احتياطه قد احجم عن اقتحام المدينة خشية الخسائر من جراء المقاومة الصلبة التي لاقاها. لذلك اخذت على هلينا كوبان مؤلفة كتاب المنظمة تحت المجهر وهي الباحثة والمتخصصة في شؤون الشرق الاوسط ان تنحي باللائمة على الفلسطينيين بنوع من الادانة على النتيجة العسكرية لهذه المعركة الكاسحة.

والحقيقة ان المؤلفة تتخذ في كل كتابها موقف الحياد ان لم تكن في كثير من الاحيان تميل الى جانب الفلسطينيين بما يظهر ادراكها الكبير لكل مخططات العذاب التي تعرضوا لها. وتفصح كتابتها عن احترام وتقدير كبيرين للقيادة الفذة التي هي على رأس الحركة منذ ان كانت والى الآن بتلقيبها دائما بالقيادة التاريخية.

واظن ان الكاتبة قد سلكت هذا المسلك لتعاطفها ايضا. فقد كانت ترجو الا يؤخذ على الحركة اية مآخذ. ولاني المح احيانا في طيات كلماتها نوعا من التبرير! تقول بعد حديثها عن عملية الاكورديون. «وفي الاسابيع والاشهر التالية طرحت اسئلة كثيرة في صفوف الفلسطينيين حول ما حدث لدفاعات القوات المشتركة في جنوب لبنان. والجواب على ذلك معقد ومتشابك.

فقد رأينا كيف ان التركيز المستمر للردود الاسرائيلية الانتقامية في جنوب لبنان على مر السنين قد بدأ يصدّع ما كان جبهة تحالف صلبة للفدائيين الفلسطينيين مع السكان المحليين منذ اكثر من عشر سنوات على بداية عملياتهم في جنوب لبنان. كذلك فان الصراعات السياسية التي تسربت الى الحركة الوطنية اللبنانية في جميع المناطق الواقعة تحت سيطرتها بعد اغتيال كمال جنبلاط. .

وفي عام ١٩٧٧ كان لها تأثيرها على قوة الحركة الوطنية في الجنوب ومنيت الغالبية

العظمى من القرويين الشيعة بخسارة خاصة بعد اختفاء قائدها المباشر الامام موسى الصدر عام ١٩٧٨ .

وارتكب الفلسطينيون اخطاء عديدة ايضا اسهمت في اضعاف القوات المشتركة في جنوب لبنان . . ذلك ان زهو الفلسطينيين باحياء حركتهم الوطنية عبر السنين وخاصة اذا ما قورنت بالانقسامات والشكوك السائدة في الحركة الوطنية اللبنانية . وقد ادى احيانا الى ما يصفه بعض الفلسطينيين واللبنانيين ببدايات ـ الشوفينية الفلسطينية في تعامل بعض مستويات الحركة الفدائية مع مضيفيهم وحلفائهم اللبنانيين . ومع ان ايا من الحركة الفلسطينية على اي مستوى لم يخامره ابدا الشعور الذي رماهم به الكتائبيون باستمرار من انهم ينوون الاقامة الدائمة في لبنان الا ان قوة المؤسسات الاجتماعية والسياسية لمنظمة التحرير في لبنان كانت نقيضا بيّنا للمؤسسات الموازية التابعة للحركة الوطنية اللبنانية المتردية او التابعة للحكومة اللبنانية التي تعاني من ضعف مزمن .»

ولا ادري هل تسوق هيلينا كوبان هذا الكلام لوماً . . ام فخرا بالحركة الفلسطينية؟ فهي تسوق التهمة وتسوق التبرير في الوقت نفسه اذ انه يتضح في كلامها انه ليس ذنب الفلسطينيين ان كانت حركتهم قوية متماسكة! .

وتمضي المؤلفة لتقول : «لقد بدأ الرد الفلسطيني على الاجتياح الاسرائيلي الكبير عام ١٩٨٢ مشوشا من الناحية الاستراتيجية! . فقد سبق للهجمات البرية الاسرائيلية في يوليو ١٩٨١ والتي رافقت القصف الجوي ان جوبهت بوحدات من القوات المشتركة كانت ترد ردا فعالا باعتماد عمليات حرب العصابات كالذوبان في مجموعات صغيرة تصل وراء الخطوط الاسرائيلية . لكن خلال ايام من معارك ١٩٨٢ دفع الزحف الاسرائيلي السريع القوات المشتركة الى موقف غير مريح لوحدات فدائية من حيث الدفاع عن جبهة ثابتة اساسا حول محيط بيروت .

ولعل الفعالية التي اظهروها في ادارة الدفاع عن بيروت قد دلت على المسافة التي قطعوها بعيدا عن مبادىء حرب العصابات الاصلية . . لكن البعض في الحركة مازال يشعر بأن الطرق القديمة كانت افضل واجدى . وعلى مستوى آخر ايضا اعتبر كثيرون من الفلسطينيين فيما بعد ان انسحاب احد كبار قادتهم في الجنوب الحاج اسماعيل ـ القائد العسكري لمنطقة صيدا الذي كان فراره امام الهجوم الاسرائيلي المتقدم موضع تحقيق داخلي في «فتح» في وقت لاحق ـ قد ساعد على اسراع الاسرائيليين في الوصول الى بيروت»! .

وسواء كان هذا او ذاك صحيحا فقد قاتل الفلسطينيون قتالا شريفا على كل المستويات . وحين تقدمت القوات الاسرائيلية الى بيروت وجدت انها لا تستطيع التقدم .

وخضعت هي ايضا للحصار ثلاثة اشهر ـ فلو كانت تستطيع التقدم . . لكسرت الحصار واقتحمت المدينة في معركة ظافرة تسجل في التاريخ . ولكنها وقفت في اماكنها وكانت هي ايضا ترنو للتفاوض . لم يكن الفلسطينيون وحدهم ينتظرون المفاوضات . لقد فشل شارون ان يقدم الحل العسكري . وفشل ان يكسب شيئا على الارض اكثر من احكامه الحصار اللاانساني .

في هذا الوقت كانت اتصالات «ياسر عرفات» بالملك فهد (ملك السعودية) مستمرة والرئيس السوفياتي والرئيس الفرنسي وغيرهم . لقد كان مركز ثقل اساسي ورئيسي عالمي في تلك الحقبة لان الحل الوحيد الذي كان يراه شارون رغم انه لم ينتصر انتصارا حاسما . ولم يستطع دخول المدينة هو انسحاب المقاتلين بعد ان يلقوا السلاح وبلا اية شروط . وما كان لمقاتلين مثل الفلسطينيين ان يلقوا سلاحهم وهم مازالوا يقاتلون ويوقعون خسائر بالخصم . ولكنها عنجهية شارون وغروره بالقوة .

كان مبعوث العناية الامريكية ، حبيب ، قابعا في بيروت الشرقية ينتظر نقل وجهة النظر الفلسطينية اليه . والتي كانت تنقل اليه عن طريق رئيس الوزراء اللبناني ، شفيق الوزان ، نظرا لان الرئيس اللبناني سركيس شأنه شأن الصهاينة والامريكان لا يرغب في التحدث الى الفلسطينيين ! . . وبدل ان يدير ظهره للقوة الغازية التي توقع ببلده الدمار والخراب وتقتل من مواطنيه الابرياء . . ادار ظهره للفلسطينيين وكأنهم لا يقاتلون دفاعا عن عاصمة بلاده ، وكأنهم يقاتلون في بلد آخر .

لقد قال «ياسر عرفات» عن بيروت في احد رسائله من قلب الحصار . . «بيروت اول عاصمة لدولة عربية يدق ابوابها الغزاة الصهاينة . بيروت تقصف جوا وبرا وبحرا . . تنتهكها قوات الغزاة الصهاينة بمدرعاتها وآلياتها» .

وكأن بيروت كان رئيسها «عرفات» حين يتحدث عنها بهذا الشكل . لان بيروت هذه كان رئيسها اللبناني لا يعرف عنها شيئاً ! .

لقد انسحب «ياسر عرفات» رحمة بالمدينة من ان تهدم تماما على من فيها . لقد قال لي مرة وبألم كبير : «آه لو لم يطلب مني حلفائي الخروج من بيروت . لقد خرجت بناء على طلبهم رحمة بالناس . . بالمدنيين . . والا لكان تغير وجه التاريخ ! . وفي وسط احتدام المعركة السياسة ارادها في الحسن الذي كان يساهم بفعالية في ادارة الصراع السياسي كما اخبرنا من قبل ان يلعب ورقة يكسب بها نقطة في هذا الصراع الكبير اذ انه وضع امريكا بين خيارين . اما ان تتحدث امريكا الى منظمة التحرير او تتحمل مسؤولية تدمير بيروت التي يموتون دون الخروج منها بثمن معقول .

وعرضه هذا يطرح علينا مرة اخرى قضية الوجود او البقاء التي كنا قد ناقشناها. واذا كان بعض المسؤولين قد تنصلوا من هذا الطرح باعتباره تنازلا سافرا الا انه لقربي من طريقة تفكير هاني الحسن الذي هو انعكاس لتفكير «عرفات» اعرف ان ذلك قد حدث. فالرجلين دائما يريدان التقاط اية بادرة نجاح في الفراغ.

وازاء الموقف المتعسف من الجانب الاسرائيلي الذي كان يواجه كل شيء بالرفض كانت المفاوضات تتعثر بين الرفض والقبول. وقد رُفض مبدأ يساوي بين القوتين المتحاربتين في الانسحاب المتزامن او انسحاب القوة الفلسطينية الى اي منطقة اخرى في لبنان.

لقد عرض المشروع الفرنسي ـ المصري الذي كان مقدرا ان يحقق قدرا من النجاح على طريق الحل كما كان مقدرا له ان يعطي الفلسطينيين ـ لو تم ـ مكسبا هاما. اذ كان يتحدث عن حق تقرير المصير. وحق تقرير المصير ثمن يستحق التضحية بموقع هام كبيروت. ولكن امريكا لوحت باستخدام الفيتو ضده.. فاسكتته!.

لقد خاض قادة منظمة التحرير وقتاً عصيبا وهم يعرضون الحلول تلو الحلول وهم تحت القصف المتواصل وحمم الجحيم. لقد اراد قادة اسرائيل العسكريون الضغط بأقصى قوتهم لدفع عجلة المفاوضات لصالحهم او كما قلنا من قبل فرض سياسة الامر الواقع.

ورفض عرض الانسحاب الى سوريا. ورفض عرض بالانسحاب مع ترك مكتب منظمة التحرير عاملا في بيروت! الرفض دائما.. يشترك الحصار السياسي مع الحصار العسكري!.

وعندما اشتد الامر وبات الواقع ضربا من الجنون رمى «ياسر عرفات» بورقته الاخيرة على الطاولة في شكل طلب اخير ليس قابلا للمناقشة.. ولكنه حل نهائي. وهو المغادرة غير المشروطة وبالقوات مع سلاحها.. ولكن بتعهد واضح بحماية المدنيين المتبقيين في المدينة. وكان هذا اهوّن الامور عند القوى المفاوضة. وما كان «عرفات» يتصور ان تخل دول عظمى بالتزامها او بشرفها.

وصـــدر رسميا وثيقـة الاخـلاء التي تتضمن قواعـد التنفيذ والتي تستخـدم قوات الـطوارىء الـدولية للاشراف على العملية. هذه القـوة التي اشترك في تكوينها امريكيون وفـرنسيون وايطاليون. ووافق على هذا الـبروتـوكـول كل من الحكومة الامريكية والقيادة الفلسطينية والادارة اللبنانية باعتبارها الدولة التي تدور الحرب على ارضها.. وان كانت غائبة.

وفي مشهد لم يسبق له مثيل في التاريخ رست السفن امام الشواطىء اللبنانية لتحمل المقاتلين الى حيث لا يعلم احد. الى المجهول مرة اخرى.. في خروج ثالث للثورة المغدورة.

وكان يوم الرحيل يوما أليماً. . وكانت الاستعدادات التي جرت قبله واستعدادا له منهكة. . اذ لنا ان نتصور معنى رحيل الناس رحيلا نهائيا من فوق ارض انزرعوا فوقها اثنتي عشرة سنة! لنا ان نتصور عملية اقتلاع الناس من هذه التربة. . واجتثائهم من جذورهم!.

ولنا ان نتصور مدى حزن المقاتلين وهم يتركون كل شيء خلفهم حتى عائلاتهم وذويهم واطفالهم ليركبوا البحر. . الى المجهول. بيروت كانت الجرح الدفين في قلب كل مقاتل وهو يخطو على ارض الميناء باتجاه السفينة التي ستحمله.

وفي هذا المشهد الفريد خرج الرجال بزيهم العسكري رافعين سلاحهم ورافعين ايديهم بشارة النصر. ورقصوا على رصيف الميناء بالاسلحة رقصة الوداع تحية اخيرة لبيروت. . (كالطير يرقص مذبوحا من الألم). وخرج الشعب اللبناني كله يودع المقاتلين المدافعين عن بيروت ويلوح لهم. . ويبكي رحيلهم. . ويتمنى لهم السلامة.

لا احد يستطيع ان ينكر ما خلفته معركة بيروت من تغيرات. معركة بيروت كانت الترمومتر الحساس لنجاح السياسات الجديدة في المنطقة. هذه السياسات التي رمت الى تغيير خريطة الشرق الاوسط!.

فكل هؤلاء ارادوا ان يحققوا شيئا.

الامريكان. . الاسرائيليون. . اللبنانيون جميعهم. فالامريكان يريدون فرض مخططاتهم وانفرادهم بالحل والحصول على مكان التفرد كقوة حسم في المنطقة كلها.
والاسرائيليون يريدون ابعاد عدوهم والحصول على مزيد من الارض لاقامة حزام امني لتأمين شمال فلسطين المحتلة. وابقاء اصبع لهم في لبنان ليحركوا به الاحداث وفق مصلحتهم. وخلق حزام امني داخلي لتأمين وتقوية حزامها الاول على الشريط الحدودي.
يريدون اضعاف عدوهم وتفتت بنيته العسكرية والاجتماعية.
الطائفيون اللبنانيون يريدون الخلاص من المشكلة الفلسطينية التي كانوا ينظرون اليها على انها مشكلة المشاكل في بلدهم. ويدعون ان وجودها هو الذي ينمي خلافاتهم الطائفية البغيضة. وان كانت الايام قد بينت خطأهم اذ ان حربهم الاهلية استشرت بينهم بعد الخروج الفلسطيني والتفتت كل الفصائل الى بعضها البعض وحدث هذا التفتت السرطاني في غياب هذه القوة الاكبر التي كانت تعدل وجود بقية الطوائف.

لقد كان ميزاناً مختلاً وغير عادل بين القوى. . وبرغم ذلك حقق الفلسطينيون جملة من المكاسب. ونستطيع ان نقول ان «ياسر عرفات» فَقَدَ الارض والموقع فقدان المنتصر. . ورغم خروجه الا انه خرج منتصرا! فقد تحدى آلة الحرب الجهنمية رغم كل وحشيتها ومع ذلك كان الخروج خروج المنتصر!.

وفي يوم ما سيكتب التاريخ حقيقة معركة بيروت ويرويها . . وما دار فيها من بغي وشر . . ولكنه سيسطّر في صفحات من نور المقاومة الباسلة الشريفة والبطولات التي صنعت معجزة الصمود في بيروت . . وسيكتب اسم «ياسر عرفات» بطلا لأشرف معركة دارت على الارض العربية .

لقد صدر عن معركة بيروت وللعجب العديد من الكتب الاجنبية عن الاعلام الغربي كلها تذكر حقائق عن دور منظمة التحرير البطولي الذي لم تستطع اغفاله ابدا مهما كانت درجة تحيزها بينما بقي الاعلام العربي عاجزا عن اصدار مؤلف عن هذه المعركة الا فيما ندر. ولعل اهم الكتب العربية ، بل يكاد يكون متفردا هو كتاب زلزال بيروت للعقيد ابو الطيب ، قائد الفرقة ١٧ بحكم اشتراكه المباشر في هذه المعركة وفيما عدا ذلك لا نجد شيئا في المكتبة العربية . وبقي لنا ان نسمع الاحكام من افواه الاجانب! .

واشترك بعض المسؤولين الاسرائيليين صراحة في تقويم المعركة ، فمثلا صرح شارون في مجال تقويم الحرب لصحيفة «معاريف» في يوم ١٩٨٢/٦/١٧ ، قائلا ، الحرب كانت قاسية جدا . . ولقد دفعنا ثمنا باهظا في عملية سلامة الجليل! وقدرت بعض المصادر الغربية تكاليف الحرب الاسرائيلية في لبنان بمائة مليون دولار في اليوم . وجاء في تقرير وزير المالية المالية الصهيوني ، امام الكنيست يوم ٦/٢٦ ان نفقات عملية الجليل قد بلغت قرابة ٣٠ مليار شيكـل أي حوالي ملياري دولار! ولم يكن هذا التقدير نهائياً . وهكذا قوّم معركة بيروت الاعـداء والمراقبون الغربيون . بينما المراقبون العرب في سبات عميق . ومن ذكر شيئا عن المعركة نقله عن الغرب . ولم يدخل الاعلام العربي اتون المعركة كما الاعلام الغربي المتقدم! .

ونجد تحليلا متجردا في كتاب مثل كتاب الحرب الاسرائيلية ـ اللبنانية للكاتبين زئيف شيف ، ايهـود يعـاري ـ ISRAEL'S - LEBANON WAR ـ «لقـد مثـل الغزو غلطة مهلكة لاسرائيل . لقد اوجدت انقساما حادا بين الرفاق الاسرائيليين وبين اليهود المتدينين ، وسببت تشويها عظيما لصورة اسرائيل في العالم . وفشلت في تحطيم منظمة التحرير!

ويتحدث الكتاب عن هذه الحرب التي بدأت بغزو اسرائيلي محدود لم يكن مقررا له ان يتعدى ضربة في الجنوب والاستيلاء على نهر الليطاني الى اقامة اتصال رسمي مع حزب الكتائب بقيادة بشير الجميل . وكيف ان العكس هو الصحيح : المؤسسة العسكرية هي التي ورطت الادارة المدنية (الحكومة والكنيست) التي تتخذ قرارا مصيريا كقرار الحرب . ويتساءل الكتاب كيف ان شارون اثر على كل الاطراف السياسية والعسكرية في اسرائيل . فقد خدع الوزارة من خلال تصويره للغزو بأنه محدود وذلك اثناء الغزو خاصة غزو بيروت وحصارها

بتقديم المعلومات عن سير الغزو عن طريقه هو وليس عن طريق الاتصال بينه وبين هيئة الاركان والحكومة فقد احتكر شارون منذ البداية طرق الاتصال بين الحكومة الاسرائيلية وهيئة الاركان واصبح هو الموصل الوحيد لمختلف التقارير العسكرية عن سير الغزو للحكومة الاسرائيلية!.

ثم يصل الكتاب الى القاء اللوم ليس فقط على شارون وبيغن، بل ايضا على كل الاجهزة السياسية والعسكرية في اسرائيل لسماحها لشخص مثل شارون ان يلعب بها ويضع اسرائيل في محنة سياسية واقتصادية وعسكرية! وكتب المحلل العسكري لصحيفة هآرتس ـ زئيف شيف مقالا عن شيخوخة الجيش الاسرائيلي، وقال: ان هذه الظاهرة بدأت عقب حرب ١٩٧٣ وزادت بشكل علني في اعقاب حرب لبنان حيث ان الجيش خسر الهالة التي كانت تحيطه قبل هذه الحرب وان الجيش الاسرائيلي خسر احترامه في اعين الشعب الاسرائيلي في اعقاب حرب لبنان. ولم يعد يتمتع بنفس القيمة والشعبية التي كان يتمتع بها قبل الحرب.

وان كنا قد اوردنا بعض هذه الامثلة.. فعلى سبيل المثال لا الحصر. لقد كانت اصداء معركة بيروت وكل ملابسات الغزو هائلة في جميع انحاء العالم. واظهر من هو «ياسر عرفات» زعامة.. وقيادة وبطولة عسكرية..

كانت صفحة البحر هادئة.. والسفن تشق عباب الماء محمّلة بكنزها الثمين.. ابطال المقاومة الفلسطينية.

«ياسر عرفات» ينظر الى السطح الممتد بلا نهاية والى عمق الماء الضارب في الزرقة وفي داخله يصرخ السؤال: الى أين؟!.

ولعل السؤال نفسه كان يصرخ في قلب كل مقاتل على ظهر هذه السفن. لكن السؤال في قلبه هو كان أشد صراخا. بل كأنه النصل الحاد يتجول في احشائه. ولا اظن انه يتسنى لانسان مهما أوتي من موهبة دقة الوصف والتصوير ان يصور لنا حقيقة ما كان يجري بداخله! حتى ولا هو نفسه!.

اردت ان اسأله.. وخشيت احياء الجراح. ولكن كنت اريد ان اعرف لذلك تعمدت الا اسأله عن هذا الموقف في سياق أي حديث.. وانما تعمدت ان يكون سؤالي من بين الكلام العادي في اي جلسة يتاح لي فيها الحديث معه.

وتحينت الفرصة وسألته: كم اود ان اعرف عن تلك اللحظات التي كنت تركب فيها البحر تاركا خلفك بيروت ولبنان بكل ذكرياتها ومعاركها بحبها وغدرها.. قبولها ونكرانها. بماذا كنت تشعر.. كيف كنت تفكر؟. والعجيب ان الرئيس لم يجبني بالكلام.. بل نظر

للافق نظرة مع انفراجة لشفتيه وصوت تنهيدة لم تخرج من صدره! . . ولم يقل شيئا! . . ولكنه اجابني اصدق اجابة . . فعيناه قالتا كثيرا بين الألم والمرارة والحب والثأر واللوم والندم والراحة والتعب . . وانفراجة شفتيه كانت كأنها تكتم الصرخة التي تريد ان تخرج لتعلن للعالم كله قسوة الظلم وحدة المعاناة . . وتنهيدته التي لم تخرج كادت ان تحرق المكان . . وكأنها وهج الجراح التي تسكن قلبه! .

اجابته كانت أليمة وكافية . ولكنني كنت اكثر فضولا لأسبر نفس القائد العظيم في تلك اللحظة الفريدة التي ربما لم يسبق وان سجلت في التاريخ كله . ولكن حقيقة كنت أحنو على سؤالي لهذا الانسان الكبير الذي أكن له التقدير والاعجاب . . فقلت هامسة : هل كنت تشعر انك منتصر . . ام كانت هناك افكار حول الهزيمة؟ . هل فكرت بالغربة والضياع . . هل كنت تشعر بالضعف ام انك كنت تشعر بأنك ـ رغم كل شيء قوي؟ هل اقترب اليأس من قلبك . . هل سخطت على العالم الذي تنكر لك . . وعلى امتك التي تركتك وحيدا؟ ام على القدر الذي لم يكن عادلا ابدا في كل تخطيطاته لحياة شعبك؟ .

وصمت انتظر الاجابة . . . وكان الزعيم في اثناء القائي لسؤالي الطويل يعبث بسكين قطع الاوراق بين اصابعه وبعد ان انتهيت استمر لثواني يوالي حركة اصابعه ثم رمى بالسكين فوق سطح المكتب وقال : «كل هذا معا كان بداخلي . . كل هذا معا!!!» .

ولكن الاحداث لم تترك «ياسر عرفات» لنفسه طويلا . . وكيف وهو الذي ينسى نفسه تحت ثقل مسؤولياته الكبيرة . فعليه وحده يقوم كيان بأكمله . وحين نقول هذا لا ننتقص ابدا من قدر كل العاملين من اجل الثورة . ولكن على وجوده وحده فعلاً يقوم الكيان المعنوي الذي هو عماد الكيان المجسد للثورة .

فكما علمنا وعلى مدى سطور هذا الكتاب انه الروح المحرك والفعال والمشع للثورة الفلسطينية . لذلك ما كان يمكن ان تأخذه تأملاته من مسؤولياته ولا من الناس . ونحن نعرف طبيعته المتجددة غير المستكينة . لذلك فسرعان ما تقبل الواقع بكل متغيراته الجديدة لينفتح على مرحلة جديدة في حياة الثورة المغدورة واختار له ولقيادته مقرافي تونس نفس البلد الذي تستقر فيه جامعة الدول العربية منذ رحيلها عن القاهرة في عام ١٩٧٩ . البلد الكريم الذي عرض استضافته للقيادة الفلسطينية .

واطلق الرئيس الامريكي ريغان مشروعه في اليوم الثاني للخروج الفلسطيني من لبنان . وكأنه جاء ـ بصورة او باخرى ـ نتيجة للصمود الاسطوري لهؤلاء الذين يركبون البحر، حيث دعا الى انسحابات متعددة من الأرض العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧

ووافق على قيام كيان فلسطيني مرتبط بالاردن. ونادى بايقاف بناء المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة. وكان هذا اكبر دليل على ان امريكا لم تستهن بهؤلاء المقاتلين ولا بدفاعهم عن قضيتهم ولا عن كفاحهم المستمر في سبيلها. . رغم تحيزها المطلق لاسرائيل.

وقد اخذت القيادة الفلسطينية هذا المشروع بعين الاعتبار، ناقشته وفنّدته ولم ترفضه. واستندت بعض آمالهم الى ايجابياته او الى ما يمكن ان يؤخذ منه! وان كان البعض قد استند الى هذا في مهاجمة القيادة التي تنظر في مشروع ريغان!.

وفي ٧ سبتمبر ١٩٨٢ انعقد مؤتمر القمة العربي في مدينة فاس المغربية استئنافا لقمة فاس الاولى المعلقة. وشتان ما بين فاس الاولى. . وفاس الثانية!.

فاس الاولى، التي لم تعقد سوى جلسة واحدة فاشلة وعلقت بعدها القمة. ويومها قال «ياسر عرفات» مهموما: «سندفع نحن ثمن هذا التشرذم». وقد حدث كما رأينا ودفع الفلسطينيون كل حساباتهم قديما وحاضر. . وربما مستقبلا. ـ وفاس الثانية، حين خرج كل الزعماء والملوك العرب لاستقبال «عرفات» في مطار الدار البيضاء في المغرب حين قدومه لحضور قمة فاس.

لقد استقبلوا فيه البطل الذي صمد امام الغزو الاسرائيلي. وعقد مؤتمر القمة الذي تميز عن غيره من المؤتمرات لكونه مثّل اجماعاً عربياً من النادر حدوثه. وكان هذا المؤتمر على درجة من الاهمية حيث انه أيد بالاجماع حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. وكان هذا اكبر نصر ديبلوماسي لمنظمة التحرير يصدر في ظل اجماع عربي ويقدم للعالم اول مشروع عربي للسلام يحظى بالتأييد العام.

وكان هذا المشروع لخطة «فهد» السابق ذكرها. . وبعد تعديل النقطة السابعة التي كانت مثار للنزاع اذ كان التخوف ووفق التفسيرات المختلفة انها تتضمن الموافقة على صلح او اعتراف بالدولة الدخيلة. واصبحت: «يضمن مجلس الامن الدولي السلام بين جميع دول المنطقة بما في ذلك الدولة الفلسطينية المستقلة». ولكن بعد اسبوع واحد من هذا التأييد العربي الذي ادخل الفرح الى قلب «ياسر عرفات» اي في يوم ١٤ سبتمبر وقع حادث اغتيال بشير الجميل ـ الذي كان قد انتخب رئيسا للجمهورية اللبنانية في ٢٣ اغسطس/آب ١٩٨٢ ـ بمقر قيادته ببيروت الشرقية بعبوة ناسفة شديدة الانفجار وقتل معه كل المجتمعين وعددهم لا يقل عن اربعة وعشرين شخصا.

وفي يوم ١٥ سبتمبر وبعد مقتل الجميل بيوم واحد دخلت القوات الاسرائيلية الى بيروت الغربية بعد ان كانت قد ازالت حقول الالغام التي كانت مزروعة حول المخيمات الفلسطينية لحمايتها. وتزامن في نفس الوقت مع رحيل القوات الدولية التي كانت قد اشرفت

على عملية اخلاء المقاتلين من بيروت .

ولا احد يدري هل كان انسحاب القوات الدولية وقبل موعدها المقرر توطئة لاحتلال القوات الاسرائيلية لبيروت الغربية بعد ان عجزت عن دخولها في وجود المقاتلين الفلسطينيين ام ان ذلك حدث نتيجة للارتياح الذي حدث بعد نجاح عملية الاخلاء؟ .

وان كان هذا قد جرى نتيجة الفرح بنجاح عملية الاخلاء فما هو الهدف الذي دخلت من اجله القوات الاسرائيلية الى بيروت الغربية؟ .

هل كانت كل مهمتها ان تمهد الطريق لعصابات الشيطان لتجتاح المخيمات الفلسطينية فقط للاخذ بالثأر لدم بشير الجميل؟ . . ام ان الثأر الحقيقي للقوات الاسرائيلية هو الذي حرك هذه القوات لتنال من المدنيين العزّل بعد ان عجزت ان تنال من المقاتلين المسلحين . . وبعد وضوح عجزها للعالم كله عن ان تقهر المقاتل الفلسطيني باقتحام المدينة عليه؟ .

على اي الفروض فقد دبرت عملية المخيمات بأقذر تخطيط مشترك بين جيش الدفاع الاسرائيلي وميليشيات الكتائب بقيادة ايلي حبيقة وفادي افرام .

وجرت مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا بخسة وضعة بينما كان الجيش الاسرائيلي يضيء ارض الجريمة والطريق اليها امام القوات الآثمة ويقف في حالة تطويق للمخيمات وكأنه يحرسها! .

وقد قدم الصحفي الاسرائيلي ـ امنون كابليوك في كتابه «تحقيق في مجزرة» التي جرت تحت اسم عملية الرأس الحديدي . . وهو الاسم الذي اطلقه القتلة على العملية . وذكر فيه بالتفصيل كل الترتيبات والاتفاقات التي وضعت للعملية . واضيف الى الكتاب نص مقابلة اجرتها مجلة ديرشبيغل الالمانية مع احد العناصر الكتائبية التي شاركت في المجزرة حيث يكشف الحديث عن مشاركة اسرائيلية بلباس كتائبي وعن القصف الاسرائيلي للمخيمين! وأثار كتاب «تحقيق في مجزرة» جملة من الأحداث، من انتخاب بشير جميل الى اغتياله الى مجازر صبرا وشاتيلا . . وحين صدوره اثار عاصفة داخل الكيان الصهيوني نفسه وخارجه ايضا . . لما يحويه من معلومات دقيقة ومفصلة وبالارقام والاسماء التي تكشف دور الميليشيات الكتائبية ودور اسرائيل في تنفيذ المجزرة .

ونورد هنا فقرة من الكتاب تفضح كل شيء: «في جرائم القتل الغامضة يبحث المحققون عادة عن صاحب المصلحة في وقوع الجريمة . بداهة ان القاتل لا يقتل الا لهدف . وفي حالة اغتيال بشير جميل بدا لغز المستفيد طلسما! ثم لم تلبث الاحداث ان كشفت عن وجه الحقيقة . فقد حسم اغتيال بشير الجميل النقاش الدائر حول المعاهدة وأدى لوضع

جديد تماما. ولم يكد الخبر يبلغ ارييل شارون حتى قدر الاستفادة من الموقف. . ودخول بيروت الغربية.

وكان كل شيء معدا لذلك. . وفي مكتب الجنرال شارون تنبسط خريطة هيئة اركان سبق ان رسمت عليها العملية الكاملة للسيطرة على بيروت الغربية. وعلى هامش الخريطة الاعلى يمكن قراءة الاسم الشيفري للعملية ـ الرأس الحديدي ـ وفي يوم ١٤ سبتمبر، الساعة ١١ مساءً، وصل الجنرال ايتان الى مركز القيادة الاسرائيلية وفحص مع كبار الضباط عملية الرأس الحديدي. وفي الساعة الثالثة والنصف فجراً وقبل اختراق اسرائيل لبيروت الغربية وتنفيذ العملية، عقد اجتماع هام في مركز قيادة القوات اللبنانية اشتركت في الاجتماع ميليشيات اليمين المسيحي الموحد التي كان قد اسسها وقادها سابقا بشير الجميل واشترك في الاجتماع الجنرال ايتان. ونجم عن هذا الاجتماع دراسة تفاصيل اشتراك الميليشيات المسيحية في عملية السيطرة على بيروت الغربية وسيكشف ارييل شارون امام البرلمان الاسرائيلي ان مبدأ دخول الكتائب الى المخيمات الفلسطينية طرح واقر في هذا الاجتماع واعترف قائد كتائبي: «كنا ننتظر هذه اللحظات منذ سنوات!».

واستطرد بعد ذلك الكتاب في تفاصيل دقيقة لعملية الاختراق وعملية الترتيبات لدخول المخيمات. وما جرى في المخيمات يدين المؤامرة الآثمة منذ ان كانت فكرة في رؤوس القتلة الى ان اصبحت جريمة بشعة على ارض الواقع.

«وفي يوم ١٨ سبتمبر اكتفى ألكتائبيون من الدماء التي سفكوها فخرجوا من المخيمات مخلفين وراءهم جثث ثلاثة آلاف قتيل مثل بجثث معظمهم. وربع هذه العدد على الاقل من اللبنانيين الذين كانوا يعيشون مع الفلسطينيين. . قتلوا لهذا السبب فقط»!.

واحدثت مجازر صبرا وشاتيلا دوياً في العالم كله. وكان من نتائجها ان فقدت الحكومة الاسرائيلية مكـانتها. وأبعد السفاح شارون الذي بارك العملية قبل حدوثها حين خابره الجنرال ايتان قائلا: «سيدخل اصدقاؤنا الى المخيمات. . لقد نسقنا دخولهم». فرد شارون: تهانينا نوافق على عملية اصدقائنا!.

واشتد الدوي في اسرائيل نفسها. وكتبت صحيفة دافار الاسرائيلية تحت عنوان: عار بيروت. . اصبح صعبا ان يكون المرء اسرائيليا. . لن نغسل انفسنا من هذه الوصمة. لقد لطخنا الشعب الاسرائيلي كله».

وكتب الروائي الاسرائيلي اسحاق ازباد: «لن اغفر لكم ابدا انكم خربتم بلدا كنت احبه من خلال فجور هائل من الحماقة والموت. . ان ابي وامي اللذين فقدتهما في المحرقة قد قتلا للمرة الثانية في مخيمي صبرا وشاتيلا». وعندما قال وزير الداخلية الاسرائيلية، يوسف

بورغ، لتخفيف موجة الغضب: لقد قتل مسيحيون اناسا مسلمين. . فأين مسؤولية اليهود؟. رد عليه الروائي ازهار سميلانسكي بسخرية: لقد اطلقوا اسودا جائعة داخل الحلبة. . فقامت الاسود بالتهام الناس. . اذن الاسود هي المسؤولة؟.

ورغم هذا الاثر البالغ في اسرائيل نفسها، الا ان الكتائبيين كانوا اشد عتوا ودموية. . ففي لقاء تلفزيون أجراه التلفزيون الاسرائيلي مع احد الضباط الكتائبيين من مرافقي ايلي حبيقة. رد على سؤال المذيع: هل ساهمت بقتل النساء والاطفال في صبرا وشاتيلا؟. فقال الضابط بهدوء: اي قتل للنساء؟. . . يعملون قصة من لا شيء سأستمر لسنوات في قتل الفلسطينيين. انا شخصيا قتلت منهم ١٥ في المخيمات ولم انته بعد!. . اكرههم ولا اعتبر نفسي قاتلا. سنقتل الالوف منهم فيما بعد. . وسيموت آخرون من الجوع الى ان يرحلوا عن لبنان!. .

وعن الجلسة الاستثنائية التي دعا اليها الكنيست الاسرائيلي التي وقف فيها شيمون بيريز خطيبا يذكر كتاب كابليوك طرفا مما دار فيها. . اذ ان بيريز، رئيس حزب العمل، ولم يكن بعد قد رأس الوزارة - يقول: «لقد اصبحت الامة اليهودية امام ضميرها - لدينا الشعور انه بدا من خلال كتل الاسمنت التي غطت اجساد الاطفال والنساء والشيوخ انهيار اخلاقي. . وان الارض لتهتز تحت ارجلنا. . ان السيد بيغن يتباهى بأن حرب لبنان قد محت الصدمة النفسية التي سببتها حرب الغفران في **١٩٧٣**. يؤسفني ان اقول انه استبدلها بصدمة اخرى.

ووقف امنون روبنشتاين، رجل القانون وعضو حزب شينوي فقال: «عندما يذبح الاطفال امام اهلهم وبين اذرع امهاتهم. . وعندما تلقى اجسادهم الممزقة على الارض وتطؤها السيارات. . وعندما ترتكب الانتهاكات الشنيعة التي لا يمكن وصفها. وعندما يرصون الناس امام حافة الحفر ويضربونهم بالرصاص كما يفعل النازيون ثم يدفنونهم بالجرافات. . عندما يحدث هذا كله لا نجد مفرا من تشبيه افعال السيد بيغن بأفعال النازيين». وعندما قاطعه رئيس المجلس وذكره بأن الفترة المحددة له قد انتهت قال: «سيدي الرئيس امنحني ثانية واحدة لكل طفل مات في المخيمات. . واكمل. . اننا ننتمي الى شعب عرف الاضطهاد اكثر من اي شعب آخر في العالم. لقد عرفنا الاغتيالات والعنصرية والتعذيب وعلينا ان نكون ألد أعداء العنصرية».

وهنا صعد بيغن الى المنصة وسط توتر عظيم وقال: اسرائيل ليست مذنبة وجيش الدفاع الاسرائيلي ليس مذنبا. لقد وقعت مصيبة ولكن. . ما اكثر المصائب التي تقع!.

وصرخ طالب اسرائيلي بكلية الحقوق امام الكنيست: لقد حوّل «عرفات» شعبا

مطرودا ومنبوذا الى امة محترمة وذات شعبية . وحوّل بيغن امة محترمة وذات شعبية الى شعب مطرود ومنبوذ . لقد وحّد «عرفات» شعبه بينما قسم بيغن شعبه . وقد نجح «عرفات» بتحويل الهزيمة الى انتصار، بينما نجح بيغن في تحويل الانتصار الى هزيمة! .

والغريب ان المجزرة قد أُرتكبت تحت شعار انتقام الكتائب لمقتل قائد القوات اللبنانية الكتائبية الشاب الذي اصبح رئيسا للجمهورية واغتيل بعد ٢٢ يوما فقط من ولايته وحُمّل دمه على الفلسطينيين! ولو عدنا الى كلام كابليوك حين قال: «يبحث المحققون عادة عن صاحب المصلحة من وقوع الجريمة . . وفي حالة اغتيال بشير الجميل بدا لغز المستفيد طلسما . . ثم لم تلبث الاحداث ان كشفت عن وجه الحقيقة . فقد حسم اغتيال بشير الجميل النقاش الدائر حول المعاهدة» .

والسر كله يكمن في كلمة المعاهدة! فالقادة الدمويون للكيان الاسرائيلي كانوا يعتبرون بشير الجميل هو العدو اللدود للفلسطينيين . وبأنه في حالة مساعدته على الفوز بكرسي الرئاسة فسيعقد مباشرة اتفاقية سلام مع اسرائيل . وهذا بناء على وعوده المتكررة . وهذا ما جعل بيغن يهدىء من ثائرة الجماهير في تل ابيب يوم ١٧ يوليو عام ١٩٨٢ واعداً بأن اسرائيل ستوقع اتفاقية مع لبنان قبل نهاية العام . لان اسرائيل كانت تأمل بأن تضع بشير الجميل على رأس الدولة اللبنانية ليكون هو الرجل الذي يوقع معاهدة السلام .

وعندما فاز بشير الجميل بمنصب الرئاسة قال كل المراقبين ان بشير الجميل ما كان يمكن ان يصبح رئيسا لولا تواجد القوات والدبابات الاسرائيلية على ارض لبنان .

كان بشير الجميل، هو رجل اسرائيل في لبنان . . الذي أتى الى السلطة بالعون الصهيوني . ولكنه راوغ في فكرة توقيع المعاهدة! .

وبدأت تظهر لديه نغمة جديدة ان مثل هذه المعاهدة ستفصل بين لبنان وبين البلاد العربية! .

وتم اجتماع بين مناحيم بيغن وشارون واسحاق شامير . . طالب فيه بيغن الرئيس اللبناني بضرورة توقيع المعاهدة . فرد الرئيس اللبناني ان ابرام المعاهدة في هذا الوقت يعني ادخال عبوة ناسفة في قلب الشرق الاوسط . . ووقتها فقد ارييل شارون اعصابه وطالب الرئيس اللبناني البت في الامور بسرعة لانه رجل يحب تسوية المسائل بسرعة . وكان رد بشير الجميل ربما مفاجأة لمحادثيه حين قال: لا تنسوا انكم تتحدثون مع رئيس لبنان لا مع احد اتباع اسرائيل!! .

هنا . . . ربما وضع بشير الجميل داخل الدائرة الحمراء! الا ان تصريحه لمجلة تايمز الامريكية في يوم ١٣ سبتمبر بأن السلام مع اسرائيل سيأتي موعده عندما تسترد الحكومة

اللبنانية سلطتها ومسؤوليتها على كافة الاراضي اللبنانية احكم من حوله الدائرة الحمراء! . .
وفي اليوم التالي تفجر مقر حزب الكتائب بحي الاشرفية حيث كان الرئيس يجتمع كعادته كل ثلاثاء مع قيادات حزبه! .

وعثر على جثته بين اربع وعشرين جثة اخرى. وانتهت حياة الرئيس الذي اراد ان يخلع ثوب العمالة فمات بيد حلفائه الذين استنصر بهم على أغراب لجأوا الى بلده يبحثون عن المأوى وعن نقطة يتطلعون منها الى ارضهم السليبة . . اوينطلقون منها لاشعار الغاصب ان لهذه الارض اهلا واصحابا.

ومهما كان الامر، فقد وقعت مجزرة صبرا وشاتيلا تحت هذه الدعوى الخاطئة. ولكنها حركت الوضع بما جعل الولايات المتحدة تعيد القوة الدولية المتعددة الجنسيات الى بيروت الغربية مع التشديد على الجانب الاسرائيلي بالعودة الى الخطوط التي كانت له وقت الاتفاق بانسحاب القوات الفلسطينية والتي كانت باتفاق فيليب حبيب والحكومة اللبنانية.

الا ان الحكومة الامريكية قد فقدت مصداقيتها امام هؤلاء الذين خرجوا بناء على تعهداتها المكتوبة والتي اشتركت فيها الحكومة اللبنانية ايضا.

ان ضحايا مجازر صبرا وشاتيلا هم بمعنى من المعاني ايضا ضحايا العلاقة بين منظمة التحرير وامريكا لان القيادة الفلسطينية تركت في بيروت رعاياها برعاية الضمانات الامريكية. وعلى مستوى اوسع فقدت المنظمة الهيكلية الاجتماعية والسياسية التي بنتها في لبنان عبر السنين بكاملها من غير تعويض منتظر في المستقبل القريب.

الا ان التعويض الكبير جاء من داخل الارض المحتلة اذ ان الحركة الوطنية قد استمدت من كل ما جرى مدا كبيرا لتحويل الصراع على الارض الفلسطينية المحتلة نفسها وفي داخل اسرائيل! .

رغم ان شارون وبيغن وغيرهما من الاسرائيليين كانوا يأملون ان تؤدي عملية الغزو والمجازر التي جرت الى اخضاع الوطنيين بإثارة الذعر والخوف لما جرى لمنظمة التحرير في لبنان. وكان يكفيهم كسب قبول الفلسطينيين النظام السياسي الجديد الذي تبناه مناحيم ميلسون في الضفة الغربية وغزة. ولكن ميلسون نفسه استقال بعد انتهاء معركة بيروت واظهر انتقاده لسلوك شارون الاكثر تطرفا! .

واصبح كل من كان يتعاون مع اسرائيل في روابط القرى في الضفة الغربية وغزة بعيدين تماما عن ثقة السكان. وبهذا اصبح ما جرى لمنظمة التحرير في لبنان عنصر توحيد تحت راية المنظمة مناقضا تماما لكل التوقعات الاسرائيلية! .

وطوال اشتعال معركة بيروت تفجرت الارض المحتلة سواء في اراضي ١٩٤٨ او في

اراضي ١٩٦٧ بمشاركة شعبية كبيرة سواء في شكل اضرابات ومظاهرات الى جانب حوادث المقاومة الفردية والجماعية التي كانت تقع يوميا .

ولا يرجع هذا الى ان لهؤلاء المقيمين في الاراضي المحتلة اهلا في المخيمات الفلسطينية في لبنان . . وانما اولا واخيرا تضامنا مع منظمة التحرير في صراعها البطولي في لبنان .

لتنتهي معركة بيروت بكل آثارها مظهرة منظمة التحرير انها القوة الوحيدة التي مثلت النضال والبطولة في الوطن العربي كله ، محققة نصراً معنوياً هائلاً رغم خسارتها على الارض .

## * الانشقاق. . طرابلس. .

## الخروج الثاني.

لم يكن «ياسر عرفات» وهو على ظهر الباخرة التي حملته من بيروت الى المجهول يعرف متى ستعود الطلقات لتتسارع فوق رأسه من جديد؟!.

وقد خرج رغم الحصار بدون هزيمة عسكرية. وهذا ما كان يخفف عنه مأساة الخروج في حد ذاته. ولاشك ان السؤال المفزع الذي كان يتردد بداخله قد اخذ ينحسر شيئا فشيئا عندما لمس ارض الواقع. وعندما تعمد ان يبعد عن ذهنه وقلبه مأساة الخروج لتنفتح كل ملكاته على ذلك الواقع الجديد.

فقوات الثورة اصبحت مشتتة في البلاد العربية لتعيش الواقع النفسي العجيب الذي اعقب الخروج من بيروت. وهو يتعرض لنقد وهجوم لحادث الخروج نفسه الذي لم يكن امامه سواه!.

ثم ان نزوله في اثينا عاصمة بلاد اليونان قد اثار عليه سخط السوريين الذين كانوا يتوقعون ان يرحل اليهم بعد خروجه من بيروت ليكونوا هم الملاذ والملجأ ولكي يحكموا سيطرتهم على المقاومة الفلسطينية. ولكن «ابو عمار» فوت عليهم ذلك المكسب فالسوريون تركوه وحيدا في المحنة الكبرى. وكانت سوريا تستطيع ان تفتح جبهة مع الجيش الاسرائيلي فتخف الوطأة على المقاتلين الفلسطينيين.

وسألت «ابو عمار» عن هذه النقطة.. قلت لماذا فضلت اثينا لنزولك قبل أي بلد آخر؟.. قال: «اذاً أين كنت تريدينني ان انزل؟.. وتابع السؤال بآخر.. ولماذا اذهب الى دمشق وهي لم توجه دعوة وهي التي تخلت عني بعد اربعة ايام من المعركة؟.. لو كانت سوريا فتحت أي جبهة قتال كنا كسبنا المعركة. ما معنى ان يتخلى الحليف الاستراتيجي عن حليفه وقت الشدة؟!.

لقد كان لي مع حكومة اليونان الجديدة علاقة صداقة.. لذلك فكرت اول ما فكرت بالنزول في اليونان خاصة وانني لم اتلق أي دعوة لي من غيرها وأنا في بيروت، ان اثينا كانت اول عاصمة تدعوني اليها! ان ما تعرضنا له في لبنان وبالذات في معركة بيروت يدعم الحقيقة البيّنة اننا نقاتل بمفردنا.. الى ان تلحق بنا امتنا العربية. وتدعم ايضا مقولة ان الامة لا تريد ان تلحق بنا ولو كانت حقا تريد،، فان الفرصة الذهبية كانت متاحة حين كان الجيش الاسرائيلي كله وستين بالمائة من قوته الاحتياطية يحاصرني في بيروت. اذ ان اسرائيل نفسها كانت مكشوفة. وكان الطريق الى القدس ممهدا بحيث يستطيع ان يقتحمها اصغر جيش عربي!.

لماذا لم يتقدم احد للاغارة على تل ابيب وقصفها؟.. شيء من هذا كان سيربك اسرائيل تماما لان كل قواها كانت مركزة عندي في بيروت» قلت له: لكن هذا قلب عليك

السوريين مما جعلك تخسر واضعف المنظمة. قال: «لقد ارادوا ان يسرقوا منا نصر بيروت.. ثم سرقوا منا الاجماع العربي. لقد سرقوا منّا النصر مرتين! وكانت محنة لم يكن هناك بد من ان ندخل فيها. لقد وجدناها تحيط بنا فماذا نصنع؟.

اما الخسائر.. فقد تعودنا الا نقف كثيرا امام الخسائر.. وانما نتجاوزها ونمضي في الطريق.. والعبرة بالنتائج. فرغم كل ما جرى فمنظمة التحرير تعود الى واجهة الاحداث. ورغم كل ما جرى لم يطوها النسيان وانما طوى الذين خرجوا عليها. والثورة كما ترين عملاقة وباقية مهما كانت حدة المؤامرات».

ونظرت في وجه محدثي وانا اعجب!.. اي نوع من البشر هذا الانسان؟. هذا الرجل الذي يخطو فوق النار ضاربا بقبضته المستحيل، هذا الرجل الذي لا تهدأ ابدا الطلقات من فوق رأسه!.

بعد قمة فاس والنجاح الذي حصل عليه قائد منظمة التحرير كان لابد له ان يتقدم ويبسط يده ليجمع من حوله التأييد العربي الذي يحتاجه اكثر من اي وقت مضى. فقد جعله الخروج الكبير الثاني للثورة معلقا في الفراغ! فكيف كان يتسنى له ان يتحرك وهو في حالة انعدام الوزن؟. كان لابد له من التقارب او بالاحرى الاستناد الى القوة العربية او الى اية قوة عربية.

فقد ترك للأردن والسعودية مهمة التحري عن مشروع ريغان والنظر فيما يمكن الحصول عليه منه. وفي هذا استناد بلاشك للقوى العربية. وقد كانت قد تشكلت من قمة فاس لجنة سباعية للنظر في مشروع فاس للسلام وزيارة عواصم الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية في مجلس الامن الدولي لاطلاعهم على المشروع.

لكن سوريا كانت تخشى ان يكون «ياسر عرفات» يريد ان يقصيها عن المشاركة في اية فرصة للتسوية. واعتبرت سوريا ان عدم لجوئه اليها يعني انه يريد عزلها مثلا - مع انها لم تدعه عند الخروج - وفات سوريا للمرة الثانية انها بالضرورة الحليف الاول اللازم للمنظمة. وان المنظمة ومنذ قيامها لم يكن في ايديولوجيتها الانفصال عن أي بلد عربي اذ انها لا تستطيع ان تحيا الا بجانب البلاد العربية، فما بالك سوريا؟!.

وأدى موقف سوريا المتشدد والتلميح الدائم الى ان قيادة منظمة التحرير تسير في طريق الحلول الاستسلامية بقربها من الاردن ومن مصر ادى الى نهوض المنظمات الموالية لسوريا داخل منظمة التحرير واظهار التذمر والرفض للتقارب من الاردن خائفين على مكسب وحدانية التمثيل الشرعي للمنظمة. ومن التقارب مع مصر على ان تؤثر سياسة الكامب على سياسة المنظمة.

وكان هذا ضربا من الغباء او تعمد الغباء. فليس هناك احرص من «ياسر عرفات» على وحدانية التمثيل للمنظمة. . ولا اكثر منه رفضا لكامب ديفيد وتصفياتها. وكيف يمكن وقد خاض معركته في بيروت؟!

قلنا ان هذا كان نوعا من تعمد الغباء فقط للانحياز الى صف سوريا التي كانت قد اعلنت عداءها السافر لـ «ياسر عرفات» عازفة على نغمة التنازلات.

وكان لابد للمنظمة بعد هذا الموقف المتأرجح الذي وجدت نفسها فيه من ان تعقد مجلسها الوطني لاعادة تقويم الامور كلها بعد الخروج الكبير من بيروت. ولان هذه المرحلة كانت مرحلة جديدة تماما تحكمها متغيرات هائلة على كل المستويات.

وخلال الشهرين التاليين للخروج كرست القيادة كل جهدها لجمع المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السادسة عشر في الجزائر في تاريخ ١٥ من شهر فبراير ١٩٨٣. وقد كان اختيار الجزائر مكانا لانعقاد المجلس سبباً آخرا لاثارة غضب النظام السوري. ومعنى ان تغضب سوريا ان تثير حلفاءها داخل منظمة التحرير من المنظمات الموالية لها!.

واستندت سوريا في غضبها على حاكم ليبيا العقيد الغاضب دائما والذي لا يرضيه شيء ابدا!. . والذي كان قد اعلن غضبه وسخطه على الفلسطينيين بعد خروجهم من بيروت. فقد كان يطالب الفلسطينيين بالانتحار داخل بيروت، دون ان يمد لهم يد المساعدة أثناء الحصار، ما عدا المساعدات الكلامية.

كما ان العقيد لا يساعد الا حركات التحرر البعيدة عن النطاق العربي تماما. . والتي لا يمكن ان تمتد اليه منها يد الانتقام. . اما في منطقتنا العربية والتي تقف فيها اسرائيل في دور الخصم فانه لا يملك الا الوعيد والتهديد. . وانتحار الفلسطينيين.

واستطاع العقيد القذافي ان يجمع في بلاده خمس منظمات من داخل المنظمة ليعلنوا رفضهم لأي مشروع استسلامي للحل وبالذات خطة ريغان. وقد يفزع من يسمع عدد خمس منظمات. . ولكن هذه المنظمات الخمس مجتمعة كانت لا تعادل واحدا على خمسة من كيان «فتح»!.

وهذه المنظمات كانت. . الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية والقيادة العامة والصاعقة وجبهة النضال الشعبي الفلسطيني. وهذا ما يثبت جناية الانظمة العربية على منظمة التحرير وعلى وحدتها رغبة منها بالاستيلاء على القرار الفلسطيني.

وفي لقاء للجنة التنفيذية للمنظمة في عدن استطاع «ياسر عرفات» بما له من تأثير شخصي وقوة اقناع ان يستقطب جورج حبش ـ الشعبية؛ ونايف حواتمة ـ الديمقراطية؛ في الانضمام له لتدعيم الوحدة الوطنية التي يستلزمها الموقف الراهن. وبحضور الرئيس علي

ناصر محمد.

بدا ان «ياسر عرفات» قد كسب الجولة من جديد. وان كل الدعايات التي اطلقت ضده لم تؤثر في مكانته التي لا تستطيع ان تشكك فيها.

لقـد ثبت ان «ياسر عرفات» اصبح هدفا، فأكثر من نظام عربي يريد ازاحته لانه شكـل العقبة الصلدة بوجه تسليم القرار الفلسطيني المستقل ولذلك لا يوفر خصومه اية وسيلة ضده من التشكيك بمصداقيته الى التشكيك بنقائه الوطني، وحتى بوطنيته. ولا يوجد انسان على وجه الارض مهما بلغت درجة غبائه او عمالته ان يستطيع الشك في وطنية الرجل. وهل يوجد من هو أحرص منه على المصالح الفلسطينية؟.

ولكنها السياسة او بالاحرى اطماع السياسة هي التي تعمي الابصار والقلوب. وكانت دمشق قد التقطت احد افراد القيادة في «فتح» وعضو لجنتها المركزية لتجعله بوقا متحدثا بأهدافها. فأخذ يصدر البيانات التي تهاجم شخص «ياسر عرفات» متهما الخط الوطني الذي يتبعه.

وحين اتخذت اللجنة المركزية قرارا بتجميد - ابو صالح - يكون قد تم انشقاقه رسميا عن «فتح». وحاول حكام دمشق استعادة حبش ونايف حواتمة الى جانبهم لحجبهم عن اجتماع المجلس الوطني المزمع عقده في الجزائر وذلك لافشاله او اضعافه. ولكن دون جدوى! اذ كان الاتجـاه العـام يؤيد عقد المجلس للنظر في الشؤون الفلسطينية في ضوء المستجدات في الوضع الفلسطيني والوضع العربي ايضا. وخاصة بعد اتفاق عدن/الجزائر والذي اكد على ضرورة عقد المجلس الوطني.

•وعقد المجلس في موعده. . وفاق نجاحه كل حد متوقع اذ اضطرت المنظمات الثلاث التي كانت مازالت في الجانب الآخر - الصاعقة، القيادة العامة، جبهة النضال - الى المشاركة حتى لا تصبح بمنأى عن الاجماع والعمل الفلسطيني.

وحققت دورة المجلس الوطني السادسة عشر نجاحا «لفتح» ولقائدها «ياسر عرفات». . ووضعته من جديد باجماع كامل رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وقد قرأ لي هاني الحسن عن ذلك فقرة من مذكراته. . اقسم انها ورغم اسلوبها الادبي الراقي انزلت الفزع في قلبي. وسأنقلها هنا بالنص ثم سأشرح لماذا أدخلت الفزع الى قلبي!.

يقول: في حرب بيروت وجدت «ياسر عرفات» كجنرال عرف كيف يصطاد الفرصة الذهبية. وعندما ذهب الى المجلس الوطني في الدورة السادسة عشر وجدت ان ما استطاع ان يأخذه من المجلس هو ان يضمن كمية مناسبة من التصفيق. وشاهدت القاعة وهي تكاد

ان تفرغ من الطوفان البشري . . ووجدت القائد وكأنه استراح في يوم فوزه . . ولكنه ماذا سيفعل في اليوم التالي؟ .

اليوم نحن في مرحلة جديدة، فالاندفاع يبدو انه سيتقلص تدريجيا ولا يجوز ان يبقى الامر مختصرا على برامج توضع على الورق . . فقد ضاقت الحلبة كثيرا بعد بيروت ولم يعد هناك مجال لارضاء الوضع الدولي بالبلاغة اللفظية وحدها . فشعبنا يرغب بقطف الثمار . . ولا يرغب بالقتال فقط . وكأن دورة المجلس السادسة عشر بنظري كرنفال سياسي لثورة لم تعد تحتمل اي كرنفال عسكري»!! .

ورغم ان كلمات هاني الحسن قد ادخلت شعورا بالبرد الى قلبي وبرغم قسوتها المؤلمة الا انها كانت حقيقة . وكانت النذير بقدوم ايام عجاف على هذه الثورة التي تنصب عليها اللطمات من كل جانب .

وهناك المتربصون بها للانقضاض على اية ثغرة تلوح لهم . وكانت اصدق الكلمات ان الحلبة ضاقت كثيرا بعد بيروت . وهذه الكلمة الصادقة يعرفها ايضا اعداء «ياسر عرفات» .

فبعد بيروت التي خرج منها «ياسر عرفات» من قلب الحصار اصبح في حصار آخر . حصار ليس بالجند والعسكر ولكنه باغلاق الجبهات دونه . فالجبهات الاربع المواجهة اغلقت بالمتاريس .

الجبهة المصرية مكبلة بالمعاهدة والجبهة الاردنية مسترخية في سكون مريح منذ خروجه في سنة ١٩٧٠ . وليس له وجود في الاردن الا على استحياء ومن خلال الاتصالات الهادئة التي كانت تجري . والجبهة اللبنانية تركها تحت الاحتلال الاسرائيلي نفسه بسبب خروجه الاضطراري منها . والجبهة السورية ليست فقط مغلقة دونه . . ولكنها تناصبه العداء وتتبنى الانشقاق ضده .

وضيق الحلبة هذا أغرى اعداءه بالانقضاض . . ولم يعن وجوده في تونس انه نجح في النفاذ من الحصار . . وانما الحقيقة ان الحصار تبعه الى هناك .

«ياسر عرفات» كان يقيم في تونس وهو يشعر ان الخناق يضيق من حوله . يقيم في تونس ولا يستطيع ان يغفل عما يجري هناك في البقاع . ولكن ما حدث كان يجري بتخطيط مسبق وبنية مسبقة .

وقبل ان اسرد ما حدث هناك استفسار شخصي لا اجد له اجابة منطقية مقنعة . وانما كل ما اجده تلك المرارة الحارقة حين يقهرني السؤال : لماذا حدث ما حدث؟ .

وما سر تلك العداوة التي شهرتها سوريا على قيادة «عرفات» حتى تدبر وتناصر حركة انشقاق وتضطره ان يخوض حربا ليهلك فيها كثير من افراد الطرفين؟ . ثم تحاربه

لاضعافه . . وماذا يعود عليها من خفوت البندقية الفلسطينية التي تواجه اسرائيل؟ .

كيف تضرب سوريا من يقاتلون اسرائيل؟ . ولأي هدف؟ .

ولما كنت اكاد لا اصدق لجأت الى الرئيس نفسه لأسأله . ووجدت نفس المرارة عنده وهو يجيبني : «لقد رأينا في طرابلس أياما سوداء . المحنة الحقيقية كانت هناك! .

تصوري كنا محاصرين من البحر والبر. القوات الاسرائيلية من البحر تقصفنا والقوات السورية من البر تقصفنا . لتشترك قوات عربية وقوات اسرائيلية لاول مرة في التاريخ في ضرب الفلسطينيين! . . معنى هذا توافق في استراتيجية الفريقين . . وهذا شيء بشع لا شك سيسجله التاريخ بكل مرارة وبشاعة .

أحسست ان الحديث عن هذه الايام ثقيل على نفس القائد فلم ارد ان اثقل عليه بطلب تفصيلات . ولجأت الى الآخرين .

ولقد لخص هاني الحسن موقف المنشقين بكلمات بسيطة حين قال : «تجربتي المتواضعة بالانشقاق . . اكتشفت ان العمل الثوري يواجهه الناس كما التجارة! حين تنهار تجارة وتصاب بالخسائر . . هناك ثلاث انواع من البشر يتصرفون . احدهم رابط الجأش يعرف الخطأ ويبدأ من جديد ليبني نفسه . والثاني يقول ان هذا ليس عملي ويبدأ البحث عن عمل آخر . وثالث من فرط انهياره بالخسارة ينتحر! .

ولكن لماذا ينتحر؟ لانه لا يريد ان يذهب الى المحكمة لانه لو ذهب الى المحكمة لن يستطيع ان يصبح قاضيا فَيَمْثُلَ متهماً .

ما فعله ابو صالح وابو موسى وغيرهم لو نوقشت وقائع حرب لبنان بدقة وبوثائق كلهم متهمون! لذلك قفزوا على موضع القضاة لكي لا يضعهم احد في موضع الاتهام . المخطىء يجعل من نفسه قاضيا حتى لا يحاسب!» .

وأخذ العقيد «نصر يوسف» ليقطر حديثه مرارة وهو يحدثني عن الانشقاق . «مرحلة الانشقاق لا تنسى ولن تختفي من عمر الناس الذين عاصروها او اشتركوا فيها لانها مرحلة دامية ، مرحلة موجعة ، مرحلة قتال* اخوة السلاح لا منتصر ولا مهزوم . . الكل مهزوم . . كلها خسارة فيها هزيمة قضية ، فيها الغاء لشعب ، فيها تدمير لتضحيات شعب على مدى عشرات السنين .

الانشقاق لم يكن وليد اللحظة . الحركة الفلسطينية خاصة حركة «فتح» بالذات ليس لها الطابع الحزبي الضيق الذي يأخذ تياراً شعبياً عارماً . لان كل فئات الشعب لها مصلحة في تحرير الوطن . كثير من التكتلات الحزبية الفلسطينية والعربية كانت ترى ان هذه الحركة الشعبية خطر على هذه الحركات الحزبية . كلها كانت تناصبها العداء في المراحل الاولى .

كلهم ناصبوا العداء من الخارج وارسلوا الى الداخل . . . وهذا كله ليس وليد اللحظة .

وجدت عناصر فلسطينية مساعدة - فلا يوجد شعب كله مثالي - فهناك المنافقون الذين يقولون بألسنتهم ما لا تحمله قلوبهم . . استطاعوا ان يتسللوا الى داخل الحركة الفلسطينية . وكان هذا لا يغيب عن القادة ولكنه قانون المحبة المرفوع ابدا بيننا! .

ولكنهم لم يصونوه ولم يحترموه . ونحن كنا نشعر انه شيء متميز في حركتنا عن كل الحركات الاخرى . فمعظم حركات التحرر تقوم على البطش والارهاب الا حركتنا . فالتسامح والاخاء . . التجاوز عن المساوىء واطراء الحسنات اساسيات فيها . لكنهم وجدوا في الوضع السوري والليبي ما يدعم طموحاتهم التآمرية . الانظمة العربية نفسها كان يريحها التطرف الفلسطيني . وتزعجها الموضوعية والاعتدال! . والرفض دائما اسهل وكان يوافقها هذا تماما . اما ان تطرح لتأخذ فهذا كان يزعجها . كان يزعجها من قيادة «فتح» ومن «عرفات» بالذات انه كان اكبر من جيوبهم . يحس دائما انه اكبر منهم ويشعرهم بذلك . كان يرى انه ببندقيته وهم بدباباتهم . هو بدأ من الصفر لكنهم جميعا جاؤوا على شيء جاهز . هنا توقفت لاسأل محدثي : معنى هذا ان زعامة «عرفات» الشعبية كانت تضايق الآخرين؟ .

قال : طبعا . . «فعرفات» زعيم شعبي كوّن حركة وطنية . . ويبقى على رأسها بانتخاب حر . وهذا وضع متفرد . . هم يبقون في اماكنهم استنادا الى القوة .

قلت له : لقد قلت انا ان «عرفات» يبقى في مكانه ليس استنادا على قوة جهاز مخابراته ولكنه يبقى لانه يجب ان يبقى . قال : تماما وهنا الفرق . واستأنف حديثه قائلا : اقول ان الانشقاق استمرار . . ولكنهم كانوا ينتظرون الفرصة المواتية . واتيحت الفرصة بعد الخروج من بيروت لاكثر من عامل .

كنا نقف في بيروت وحدنا . . لم يكن بها مشاركة سورية . فكنا قادرين ان نحطم التآمر مثل ما حدث في ١٩٧٨ ، فقد دبر نفس التآمر ونفس الانقلاب وانتهى بسرعة لانه لم يأتهم دعم عربي رغم انهم جاؤوا بقوات وفكروا ان يستولوا على مواقع في الجنوب . كانوا في تواجدهم يعتمدون على قانون المحبة ويعتمدون على الديمقراطية .

كنا نستطيع سحقهم وبسهولة لكنهم استغلوا هذه الديمقراطية . هم افراد لم يكن لهم تشكيلات ولا ألوية ولا وحدات . استندوا في ذلك الوقت الى دعم عربي باسم القوى الرافضة . فجاؤوا بوحدات من هنا وهناك ووضعوها في الجنوب وكانوا يريدون ان يستولوا على الوضع . لكن كان وضع المنظمة قويا . ولم يكن في المنطقة من يعززهم عربيا فانتهوا بسرعة . ربما بليلة واحدة . . وفي الصباح كانوا منتهين وتم اعتقالهم بمجموعتهم .

لكن الوضع بعد الخروج من بيروت كان مختلفا . . وكانوا يعرفون ان جزءا كبيرا من القوات خرج بالتشرذم . وكانوا يحسون ان القوات المتواجدة في البقاع غير مسيطرة وحدها على الارض . ففيها مشاركة سورية يمكن الاحتماء بها . وكانوا يعرفون ايضا ان التشرذم الذي حدث في الخارج كان يمكن ان يؤدي الى تذمر . فكل حركة للقوات لا شك يتبعها كثير من التعب والاعياء . وبالتالي يتبعها شيء من التذمر . وهذا الشيء دائما وابدا معروف في كل حركة القوات والوحدات . معروف في كل الجيوش العالمية . . فما بالك بحركة اللجوء والنزوح .

من المؤكد ان يكون هناك شيء من التذمر امام ما حدث بعد الخروج من بيروت .

ولكن طبعا هذا ليس مبررا للانقلاب . لقد استغلوا مجمل هذه العوامل ليقوموا بحركتهم . والحركة سورية لا شك في ذلك ! .

واهم اسباب مرور حركتهم انهم قاموا بما قاموا به قبل ان تستعيد الثورة انفاسها وترتيب امورها اي وهي مازالت تلهث . واستغلوا فرصة وجود القيادة في الخارج وتواجدها في تونس . ومن هنا نفهم لماذا اغتيل الشهيد سعد صايل لانه كان القائد الميداني . . المتواجد على الارض في البقاع بعد الخروج من بيروت ـ وكان لابد من التخلص منه لسهولة العمل .

اعلنوا التمرد . . العصيان المسلح . . بجزء من كتيبة واستولوا على موقعين آخرين بجانبهم ووضعوا حواجز ورفعوا لنا مطالب ! في حين كانت القوات كلها تابعة للقيادة الشرعية . لكن القيادة كانت ترفض القتال الداخلي ولو ارادت لسحقتهم في ساعة . ولكن القيادة ليس من السهل عليها قتال الاخوة ، وهنا لم استطع الا التدخل . فلي شخصيا رأي مخالف في هذا الموقف . فاني اعتقد انه اذا شرع عليك احد القتال فلا بد من ان تقاتله . وفي هذه الحال ، لن يكون قتال اخوة ، انما هو اعتداء . . . ودفاع عن النفس . فكيف يترك الانسان مصير حركـة في يد جماعـة ستبذر الشقاق بين افرادها بحجة لا يصح ان يكون هناك قتال بين الاخوة ؛ قلت لمحدثي ربما كان هذا الموقف الذي يعرفونه مسبقا وهو ان القيادة لا يمكن ان تحاربهم هو ما اغراهم بعصيانها . . اذ انهم لا يتوقعون عقابا ولا ردعا حاسما قال : ليس تماما وانما رغم انهم اعلنوا التمرد الا انهم رفعوا مطالب كنا نرى فيها جانبا من الصحة . ولكنها لم تكن خالصة . . وانما كما يقال حق أُريد به باطلا

ونستأنف حديث نصر يوسف ليكمل . . «الاصلاح مطلب مرغوب ومن يستطيع ان يكون ضد الاصلاح؟ قالوا هناك اخطاء وممارسات خطأ . . وتوجهات خطأ . قلنا من يعمل يخطىء . هناك اخطاء ولكن ليس هناك خيانات وتقويم الخطأ لا يكون بالقتال ولا بالسلاح .

وعاد «ياسر عرفات» من تونس . وشكل لجنة عسكرية لحوارهم . . واعطى اللجنة صلاحيات مفتوحة بالحل معهم بما يريدون . ولم تستطع اللجنة العسكرية التوصل معهم الى أي اتفاق لانهم في الحقيقة لم يكونوا يريدون الاتفاق . او هكذا كانت الاوامر لهم . سألت : لماذا؟ قال : لانهم لا يملكون قرارهم . «ابو عمار» لا يريد ان يسأل عن دم فلسطيني يراق في حرب اهلية لذلك كان يعلم ان السوريين وراءهم . كان يريد ان يتفق مع السوريين لكنهم كانوا يرفضون . كان يقول انا جاهز لأي شيء مع السوريين ولكنهم كانوا ابدا يرفضون . رسموا سياسة معينة ويعززهم في ذلك الوقت الوضع الليبي . كانت هناك قوات ليبية في البقاع وضعت في صفهم وقوات فلسطينية من منظمات اخرى مثل الصاعقة وهي سورية وجبهة النضال والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة لها علاقات سورية ـ ليبية ايضا ووضعت تحت تصرفهم منذ اللحظات الاولى .

استمر حوارهم طويلا حتى ان احد اللجان طلبت من «ابو عمار» ان تنهي حوارها لانها لم تصل الى شيء جدي . لكنه اصر ان يستمروا في الحوار . كانوا يتصورون انه بمجرد ان يتم اعلان التمرد ستنضم لهم القوات نظرا للظروف ومن منطلقات عدة . مثلا من منطلق التذمر . . ومن ناحية حرص الناس على الاصلاح . والاهم طبعا هو الوضع السوري واثره في نفسية الناس . وليس كل الناس باستطاعتهم ان يقولوا لا ! . المقاتلون عندما يستشعرون تأييد سوريا لابد وان ينحازوا اليها . لان الناس لها عائلات واولاد ومصالح في سوريا ، لذلك كان يُظن انه من السهل الانضمام اليها .

وهنا تظهر اهمية الانتماء . . الانتماء الفلسطيني . لقد فوجئوا انه لم يأتيهم احد! اثنان من اللجنة المركزية من اصل ١٣ وست او سبع من المجلس الثوري من اكثر من سبعين! . لم تخرج معهم كتيبة واحدة . خرج معهم من هنا واحد ومن هناك خمسة ومن اخرى ثلاثة . . جمعوهم ثم سمح لهم بتجهيز من الجيش السوري . والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ووضع في تصرفهم جبهة النضال الشعبي والقوات الليبية المتواجدة على الارض وضعهم السوريون

لأن لهم علاقات سورية. الصاعقة هي الحزب الفلسطيني البعثي الذي ينتمي لسوريا. وهذه هي خطورة تبعية المنظمات للوضع العربي وانعكاسها على الوضع الفلسطيني.

هذا بالاضافة الى وجود الجيش السوري وتعزيزه لهم.

الشيء الثاني ان قواتنا والى وقت الانشقاق لم تكن قد عوضت ولا طلقة مما خسرته في حرب ١٩٨٢، اخذوا مستودعات السلاح في سوريا ومن بيروت حتى الجنوب تحت السيطرة الاسرائيلية، ومن بيروت حتى طرابلس تحت سيطرة الكتائب. ومن طرابلس حتى الحدود تحت السيطرة السورية، والحدود البرية الوحيدة هي الحدود السورية.

لم تكن لدى الوحدات ذخائر او تموين. هذه العوامل مجتمعة كان لابد ان تؤدي الى سهولة الاستسلام في نظر اطراف الانشقاق. فترة الحوار التي اعطاها «ابو عمار» ساعدت في بلورة فهم مشترك واحد لكل القوات تجاه الانشقاق. ساعدت في بدء تعويض ما خسرناه في الحرب من اسلحة ودخائر بالشراء من السوق السوداء من الشارع من المهربين!.. كنا نشتري بالألف طلقة. طبعا قوات.. لا ينفعها مثل هذا.. الف طلقة تنتهي في خمس دقائق.

ساعدنا - وهذا اهم ما في الامر ونحن نقاتل في هذه الحرب التي هي حرب الاخوة - ان من قاتل يعي تماما ويحس انه غير مسؤول عن هذه الحرب.. وانه دُفع اليها دفعا. انها دفاع عن النفس لا اكثر ولا اقل هذا شيء مهم في الصمود النفسي، لان الخدمة العسكرية عندنا ليست خدمة اجبارية.. كلها تطوع.. برغبة ذاتية.. فاذا لم احس بقناعة وصحة وعدالة الحرب التي اخوضها فلن استطيع خوضها.. فما بالك بقتال الاخوة؟.. فجأة نقف امام بعضنا بالسلاح؟.. حرب فيها خسائر ضخمة جدا لم يكن احد يتوقعها.. حرب مريرة وشرسة. وظهر الاسى على وجه محدثي وغص حلقه فلم استطع الا ان اطلب له كوبا من الماء.. رشف منه .. ووضعه وصمت قليلا فسألته: ألم ينهض احد لمساعدتكم.. اي رئيس او اي نظام عربي؟. قال: ما احد ساعدنا.. كنا لا نجد السلاح الا بالشراء من المهربين وتجار السوق السوداء.. كان الجميع صامتين.. ما كان هناك أي نظام يريد ان يستعدي سوريا من اجلنا. تركونا نموت. ربما كان للاوروبيين في طرابلس مواقف افضل من مواقف كل العرب!.

قلت: هل بدأ السوريون القتال؟. نعم.. ففي اثناء القتال والانشقاق او ما يسمى بالحرب الاهلية الفلسطينية اعطيت تعليمات لاحد قادة الألوية السورية اسمه محمد ابو حمدان - اعطيت له تعليمات بعمل فصل بيننا اثناء القتال الداخلي. وكان الفصل لصالح

الطرف الآخر لانهم كانوا في الموقف الاضعف. دخل احد مواقعنا بدبابة واستنفرنا نحاول منع دخوله على الموقع. فقال لنا: انا شارون!.. ولما هدأت الامور سألناه لماذا يضربنا ونحن عرب. قال لي اسمع لا تثقوا بعواطفنا القومية ابدا فنحن قتلنا حماة! فلا تصدق اننا سنرحمكم!.

وكان هذا اعترافا رسميا. فهذا قائد لواء. قلت له: ايشرفه ان يتشبه بشارون؟.. قال لقد كان صادقا فهو يعرف ان ما يفعلونه بنا لا يمكن ان يفعله الا شارون!.

على كل بعدما بدأ السوريون يجمعون امورهم ويثبتوا الامر الواقع بدأوا يستعدون للاستيلاء بالقوة ـ عندما لم تنجح الشعارات المطروحة.. والاغراءات والتهديدات بدأوا باستخدام السلاح للاستيلاء على القوات.

قلت: ولكن اسأل هل السوريون حاربوكم بالفعل؟.. قال: طبعا حاربونا.. حاربونا في مجدل عنجر. انا حكيت بصراحة على جهاز الارسال باشتراك الفوج السوري من الفرقة الثالثة السورية بقيادة العقيد علي حسن. قاتلنا بكل دباباته. وانا حكيت للعقيد محمد غانم مسؤول الاستخبارات العسكرية السورية في لبنان وقلت له ان هذا العقيد اشترك بفوجه كاملا. فوج دبابات.. فقال العقيد ان هذا اشترك في القتال على مسؤوليته بدون تعليمات.. قلت له: ما يعنيني انا ان الفوج السوري قاتلنا.. لكن بأمر ام بدون امر فيعنيك انت!.

فقلت له: متى كان اول قتال سوري؟.. قال «استطيع ان اعطيك التاريخ بدقة. كان في شهر حزيران **١٩٨٣** قبل معركة طرابلس.. يعني بعد الانشقاق بشهر او بشهر ونصف.

كان عندنا موقع على المصنع في الحدود اللبنانية ـ السورية وهاجم المنشقون كتيبة لنا هناك واستمر القتال من غروب الشمس حتى الثالثة صباحا ولم يحرز اي تقدم. ويومها تدخل الفوج السوري بقيادة العقيد علي حسن. وانا هنا اعطي اسماء. تدخل بكامل قواته لتدمير كتيبة لنا كانت في بلدة مجدل عنجر. وبرغم كل شيء استمرت المقاومة الى الثامنة صباحا ورغم كل العدد الهائل. وفي الصباح تم اعتقال معظم الكتيبة وتجريدها من سلاحها وارسالها الينا بدون سلاح. وتم في ذلك الوقت في موقع قائد لواء اليرموك!.

ثم بعد ذلك رأيت العقيد محمد غانم وكان معي بعض الزملاء وحكيت له بوضوح انكم اشتركتم في القتال.

وبعثت برقية لـ «ابو عمار»، في نفس الليلة كان عندنا اجتماع المجلس الثوري في دمشق ولم اذهب. بقيت لاننا كنا نتحسب انه نتيجة لانعقاد المجلس الثوري سيفتعلون

المشاكل وكان لابد من وجود مسؤول. . فبقيت كمسؤول للمنطقة ككل. وبعثت ببرقية بالمفتوح على الجهاز باشتراك الدبابات السورية في القتال. اتصلت بمجموعة غانم ودار بيني وبينه الحديث، وقلت بصراحة انتم لستم اصحاب حياد، لقد قاتلتونا. . قائد لواء سوري. . لواء دبابات مضافا اليه كتيبة ليبية مضافا اليه اعداد من المنشقين واعداد من القيادة العامة. كيف احارب جهات ما كنت آخذ منها موقف حذر ولا دفاعات لاني لم اضع في حسابي حرب لواء سوري. . وقد حكى العقيد بوضوح وقال رأيه ضد الاشتراك السوري. وقال ان الاشتراك السوري خاطيء. وان قيادتنا تأخذ نهجا خاطئا ولن تستطيع الحصول على ما تريد! ولك ان تعلمي ان هذا الرجل نُقل بعد هذا الحديث وانهى وضعه من المخابرات العسكرية بعد الحديث بشهر!

ثم جاءت بعد ذلك احداث دير زنون واشتركت فيها الوحدات السورية ومن مواقع السوريين وبتعزيز ودعم السوريين.

كان السوريون يعملون على عزل مواقعنا بالحواجز بحيث لا تستطيع امداده بأي شيء ثم يبدأ الهجوم عليه. قيادة عامة مع صاعقة مع جبهة نضال شعبي.

اعتقلت وبقيت عندهم شهرا. وحاورتهم هناك بوضوح. قلت لهم انتم خنتم. وعادة تكتشف الخيانة بعد جيل او جيلين. ولكنكم ستقرأون الخيانة وانتم احياء!.

قالوا: الاصلاح. قلت: الاصلاح عندكم بالقتال؟ الاصلاح هو تدمير الذات؟ لماذا لم تدخلوا داخل الأُطر المسؤولة للاصلاح. . وما هو تميزنا عن بقية عالمنا الثالث؟ عندنا اطر ديمقراطية. الفكر الانقلابي في حركتنا ليس له وجود وفي فكرنا العسكري ليس له وجود. الدولة الموجودة على أرضها بشعبها حين يتفشى فيها امر الانقلاب تدمر فما بالك بحركة تحررية؟.

وحاورنا السوريين في نفس المجال. . قلت لهم يا اخوان عندكم فساد مثل ما عندنا. لا ننكر الحاجة للاصلاح. . عندنا اخطاء لكن ليس عندنا خيانات واذا اخطأ السياسي عندنا فعلى قاعدة اجتهد فأخطأ وليس على قاعدة خان. عندكم فساد ورشاوى وتهريب وغيره. هل هذا مبرر لاحد قادة الفرق لكي يقول لكم اذا لم تصلحوا سأحاربكم؟. عندكم مجلس وزراء وعندكم قيادة قطرية وعندكم اطركم المسؤولة على الصواب والخطأ.

سألته بإعجاب: قلت هذا للسوريين؟ قال: «نعم حاورتهم حتى وانا في السجن. قلت: كيف اخذوك للسجن؟. قال ضاحكا: بعثوا ورائي للتعارف. . واخذوني على السجن! حاورتهم وانا في السجن ايضا. . قلت لهم ماذا تريدون؟. . انتم تتعاملون مع امين الجميل وقد وقع اتفاقية ١٧ ايار/مايو مع اليهود. والكتائب لهم مكتب في القدس.

«ابو عمار» لم يذهب للاسرائيليين. و«فتح» ليس لها مكتب في القدس!.

واستمرت الاحداث.. فسألته: كيف اشتعلت المواجهة في طرابلس بهذا الشكل ابعودة «ابو عمار»؟. قال: لا فبعودته او بدون عودته المواجهة حاصلة. قلت: هل حدثت معارك قبل وصول «ابو عمار». قال: طبعا.. حصلت في كفر زبد وشتورة. طرابلس كانت آخر المواجهات.

لكن هذه المواجهات استمرت من ايار ١٩٨٣ حتى شهر تشرين الاول ١٩٨٣ هذه الفترة كلها كانت مواجهات قبل طرابلس. طرابلس كانت المعركة الفاصلة.. سألته: كان «ابو عمار» خارج طرابلس؟. قال: كان في البداية موجودا، ثم خرج بعد ان تلقى دعوة من طرابلس لسوريا! وفي اليوم الثاني صدر قرار بإبعاده من دمشق. «ابو عمار» اكبر من جيوبهم.. لا يمكن ان يكون رجلا تابعا او رجل ظل. هم لا يقبلون التعامل مع شخص بهذه المواصفات يريدون الاشخاص القابلين للتبعية.. لان يكونوا ادوات صغيرة...

«ابو عمار» حجرة عثرة في وجه سيطرتهم على الورقة الفلسطينية ما في ذلك شك. تكوينه الشخصي لا يسمح له.. نفسيته، مكوناته، حياته، انتماؤه لا يسمح له. سألته: ما الذي أثارهم اكثر حتى ينهجوا معه هذا الموقف باخراجه من سوريا؟.. لا شيء اكثر من انه بنظرهم يتاح لهم الاستيلاء على القوات. كانوا يتوقعون حين حدث الانشقاق ان الناس كلها ستلجأ اليهم.. لكن الناس لم تفعل. وكانوا يفكرون ان هذا التمسك وعدم اللجوء اليهم لانه موجود، فطردوه حتى يستطيعوا السيطرة على القوات بعد ان تصبح بلا قيادة. طبعا ناس بدون قائد يسهل التهامها. ولكن هذا لم يحل المشكلة معهم. «فأبو عمار» وجوده دائم كما تعرفين. لقد كان على التليفون، على الجهاز.. اتصاله مستمر وهو في تونس.

كان يصدر التعليمات من تونس للناس في البقاع.. والتزموا بكل تعليماته.. كما هي الآن ملتزمة في بيروت ويصدر لها الاوامر من عمّان ـ وكان وقتها تدور معركة المخيمات في بيروت مع ميلشيات امل ـ كانوا يتوقعون ان ينهار الوضع في البقاع باخراجه وان القوات ستلجأ لهم، فلم يحدث. وبالعكس ازدادت القوات تماسكا وصلابة وشراسة والتزاما بالثورة وبالقيادة بعد طرده من دمشق.

بدأوا بعدها القتال في شتورة وقتال كفر زبد وكان فيها اصابات ضخمة جدا بدأ بعدها التدخل السوري بالقصف لانه كان واضحا تماما ان المنظمات لا تستطيع حسم الموقف ضد «فتح».

تدخل السوريين اعطاهم الفرصة وتدخلوا بطريقة تجعل منا مجموعة جزر ضعيفة لا

قوات واحدة متماسكة .

في هذه المرحلة عاد «ابو عمار» الى طرابلس كان يعلن انه لابد ان يعود في شهر آب/اغسطس . كانوا في هذه المرة يريدون ان يخرجوه من لبنان بحراساته فقط ولا تخرج معه قوات . لان الجسم الرئيسي للقوات كان في البقاع وفي شتورة وفي كفر زبد . في ذلك الوقت انتقلت القوات من كفر زبد الى شتورة بطريق التهريب وكونت قوة واحدة قوية فاضطروا امام هذا الواقع ان يؤجلوا معركة طرابلس لانهم كانوا يريدون فتح معركة طرابلس وابو عمار فيها وهو بعيد عن كل هذه القوات . . فلا يجد قوات فيخرج بحراساته فقط ليقولوا هذا «ابو عمار» ليس لديه احد . . ثم يفتحون المعركة مع الوحدات او مجموعة الجزر المتواجدة في ثلاث او اربع مناطق او يسرحوها . من يريد ان ينصرف فلينصرف . . ومن يريد ان يعارض فليتفضل في السجن .

رحيل القوات الى شتورة افسد المخطط . اضطروا ان يؤجلوا معركة طرابلس . . ويفتحوا معركة شتورة لان شتورة فيها قوات قوية وهي قريبة من الجبل والاسرائيليون انسحبوا من الجبل .

وكانت معركة الجبل قد بدأت كانوا يخشون ان تتسرب هذه القوات الى الجبل ثم الى بيروت ويفلت زمام الامور منهم في بيروت ـ مثل ما هو حادث اليوم ـ فاضطروا ان يؤجلوا معركة «ابو عمار» في طرابلس . . ويفتحوا معركة شتورة . وفجأة تحول الجيش السوري ـ ولا علاقة للانشقاق بهذا نهائيا ـ فرقة معززة . . ثلاث افواج . . ووحدات خاصة مدعومة . فوج مدفعية . . فرقة مدرعة وقطعوا الخط الدولي وحاصروا شتورة بأكملها وطلبوا منا الرحيل . . ان نترك المنطقة . كانوا يقصدون إبعادنا عن الجبل لانه كان على التماس مع بيروت وحتى لا نعود . كانوا يريدون ابعادنا نهائيا عن بيروت والمناطق التي انسحب عنها الاسرائيليون .

قلت بعجب : كأنهم يحموها لهم! قال : هذا بالطبع الى جانب انهم لا يستطيعون تحمل غضب اسرائيل اذا عدنا الى بيروت عن طريق سوريا . وايضا لانهم لا يريدوننا ان نحصل على اي نصر عسكري! .

سألته : وماذا فعلتم؟ . . قال : اخترنا الرحيل لان «ابوعمار» كان يتمتع برؤية واضحة ، فقد أوصل لنا مع احد اخواننا في الجبهة الديمقراطية ان المعركة الفاصلة ستكون في طرابلس . وعدم ارسال القوات الى البقاع . . ونحن ارسلنا على الجهاز ان النظام السوري طلب منا الخروج من شتورة فلم يمانع . وطلب منا السوريون ان نخرج بلا اسلحة ثقيلة ـ وكان هذا شرط اسرائيل للخروج من بيروت ـ وبعد اخد ورد بيننا وبينهم ومفاوضات سمحوا ، لان السوريين لم يكونوا يفكرون في خوض معركة في شتورة ومعركة في طرابلس .

كانـوا يريدون خوض معـركـة واحـدة لذلـك وافقـوا ان نخرج سلاحنا الثقيل حين رأوا اصرارنا. . يعني خرجنا بكل اسلحتنا. .

ورحلت القوات وكانت كل خطتهم ان هناك منطقة ليس بها سكان هي منطقة جباب الحمر يضعونا فيها شمال شرق لبنان ويحاصروننا فيها. ويستطيعون ان يخوضوا معركة بدون ضجيج لان ليس فيها احد وانما في مناطق الجرود الجبلية.

ولكن القوات استطاعت بجهود مجمل الكوادر مع جهود الاخوان في طرابلس الذين ارسلوا الى «ابو عمار» ان تتسلل من منطقة الحصار هذه وتخرج بكاملها الى طرابلس!.

وكان الجنون الذي لا يصدق ان تخرج كل هذه القوات الى طرابلس وتستطيع الوصول!.

كانـوا في ذلك الوقت يهيئون فعلا للمعركة الفاصلة في طرابلس ليخرج «عرفات» بدون قوات. لان قواته هناك محاصرة. ولكن تجميع القوات من منطقة كفر زبد الى منطقة شتورة فرض عليهم ان يؤجلوا معركة طرابلس ويرحلوها من شتورة حتى لا تتسرب الى بيروت.

مهمة تجميع القوات قمت بها انا مع عدد من اخواني القادة امثال معين وابو الفتح ومروان وسميح وغيرهم ولكنني اعتقلت ودارت المعركة في طرابلس ولا استطيع ان احكي لك عنها، فلم اكن موجودا. لانني كنت في الاعتقال السوري.

واذ توقف محدثي عن الحديث لاحظت آثار الاجهاد على وجهه. وكنت على ثقة من ان الاجهـاد لم يأت من طول الحـديث. . وانما جاء من احداث ومواقف مؤلمة تثقل على الذاكرة. ورغم ان محدثي رجل عسكري من الطراز الاول. . وقد قام بهذه المهمة الخطيرة البطولية وهي مهمة تجميع قوات الشرعية لتدافع عن الشرعية في ظروف صعبة قاسية، فانه مرهف الحس بشكل ملحوظ، هادىء القسمات، خفيض الصوت، بدا يتسق مع صفات فنـان او اديب وليس مع صفات المحارب. ولكن الاحداث كشفت لنا عن ذلك القلب الجسـور وعن صلابـة الحق وقوة الحجة التي تسكن نفس نصر يوسف مع كم من النقاء والصدق يبهر محدثه. ولم يسعني في نهاية الحديث الا ان اعرب عن اعجابي وعميق تقديري للقائد الذي خاض اصعب المواقف بيقينه ومبادئه.

وكـان عليّ ان اجـد احـد شهود معركة طرابلس ليكمل لي القصة المثيرة الدامية. وسألت، فإذا بكل الناس يقولون عليك بيوسف. بحثت عنه الى ان وجدته امامي بقامته الفارعة ووجهه الضاحك ـ وكنت قد عرّفت به في اول الكتاب ووصفته بأنه ذلك المحارب العتيد ـ قلت له: اريد ان اسمـع منك عن طرابلس ومعركة طرابلس. ولاول مرة اجد

الضحكة تختفي عن شفتيه وان كان انطلق في الكلام وكأنه يريد ان يسكب شيئاً من صدره ليسمعه العالم كله! . قال: وصلنا طرابلس مع ابو عمار يوم وقفة العيد من تونس. ولم يعرف الناس ان «ابو عمار» وصل الا في اليوم الثاني.

وفجأة قفز الى ذهني كاسترو وحديثه المؤجل. هذا الحديث الذي اردت ان يحكي فيه عن كيفية خروج «ابـو عمار»، من تونس ووصوله الى طرابلس في مثل تلك الظروف الحرجة. ورغم ان «ابو عمار» كان قد استدعى كاسترو امامي وقال له: اعطيها ما تريد. الا ان كاسـترو كما قلت سابقا ضنّ بالمعلومات وقال ربما اراد القائد تكرار خطته في الخروج والتخفي فكيف نكشفها؟ . . وقال انه سيسجل معلوماته على شريط ثم يسمعها للقائد واذا سمح بها اعطاها لي. وحين اخبرت القائد قال عنده حق سأسمع الشريط ثم اعطيه لك ان لم اجد فيه ما يضر. ومن يومها اختفى كاسترو من امامي. . وكأنه كان يتجنبني. وابتلع كلاهما الوعد! . وعندما بدأ «يوسف» حديثه وكنت اعرف انه كان الثالث في هذه المغامرة المثيرة التي جمعت «ابو عمار» وكاسترو ويوسف فقط حين خرج ثلاثتهم الى هذه المغامرة ـ اعرت سمعي للرائد يوسف وهو يقول: قلائل جدا من عرف ساعة الوصول. . حتى سائق السيارة لم يكن يعرف من الذي يركب معه ولا اين يتجه. ولكن حين نزلنا من السيارة وتحت لمبة الضوء تبين السائق ان من معه هو «ياسر عرفات» ترك سيارته وهجم عليه معانقاً! .

كنا عارفين المخطط وما كانوا ينوون عمله ـ لم يكن اي شيء قد بدأ بعد ـ السوريون فقط يقومون بتجميع قواتهم استعدادا للقيام بالضربة.

العذر الذي هو اقبح من ذنب ان يكون وجود «ابو عمار» هو الذي اشعل فتيل الحرب كما يدعون. هذا غير صحيح. والحقيقة ان السوريين كانوا يعدون المعركة و«ابو عمار» كقائد لا بد ان يتواجد بين قواته. ومما لا يسمح للسوريين ولا لغيرهم ان يدعي ان وجوده هو السبب. شيء طبيعي ان يكـون القائد بين جنوده. وكانت المعلومات تأتي اولا بأول عن الذي يجري من الجانب السوري باسم المنشقين الذين لم يكن معهم قوات ولكن القوات السورية هي التي كانت تقوم بالقتال كما حدث مع قواتنا في شتورة والبقاع وبعلبك وجباب الحمر.

وعنـدمـا بدأ السوريون في القصف المدفعي والصاروخي على قواتنا لم يكن حجم القـوات متكـافئا، الى ان بدأت مرحلة تضييق الحصار وسقوط مخيم نهر البارد والبداوي. لا استطيع ان اصف لك بشاعة دخول الجيش السوري مخيم البداوي وكأنه احتل جزءا من الجولان! .

كانت الفـرحة تبدو عليهم وكأنهم حرروا الجولان. كانت مواقعنا مواقع دفاعية لا

خطة هجوم لان الهجوم لم يكن هدفنا. كان هدفنا الدفاع عن انفسنا. وحين بدأوا الضرب ضيقوا النطاق على قواتنا في البقاع وحاصروها. ضربوا منطقة الشمال حيث نتحرك. وفي نفس الوقت قاموا بمحاصرة قواتنا في جباب الحمر محاصرة وتهديداً بالسحق ايضا فيها لو لم نستسلم. قلت له: في هذه الآونة هلل جورج شولتز وزير خارجية امريكا قائلا ها هي منظمة التحرير تدفن الآن في طرابلس!.

قال: تماما.. فكل الظواهر كانت تدل على هذا. وشولتز احد الشامتين المنتظرين لهذه النتيجة.

القوات طبعا، رفضت ان تستسلم. جزء من هذه القوات استطاع بعد مباحثات واتفاقيات الى التسلل والوصول الينا في طرابلس. الجزء الآخر اضطر تحت الضغط ان يسحب السوريون منهم السلاح ويرموهم في السجون. كان منهم العقيد نصر يوسف ومجموعة كبيرة من الضباط ممن القي القبض عليهم!.

تصوري ان المجموعات التي كانت تقع في الاسر لدينا نادرا ما كنت تجدين بينهم فلسطينيا!! تجدي سوريين وليبيين ومرتزقة! اقولها بصراحة واتحمل مسؤوليتها.. ثلاث ارباعهم جاؤوا وكأن هذا باب للارتزاق.. كأن من لا يجد عملا يعمل بالحرب!.

ووضع السوريون قيودا على جيش التحرير. تعليمات من السوريين ان اي وحدة تريد التعاون معنا والتمرد عليهم يطلقون عليها النار من الخلف وكثير منهم قتل بهذه الطريقة حين كانوا يرفضون القتال لانهم يعرفون انهم يقاتلون اهلهم. لذلك كانوا يضربون من الخلف من القوات السورية.

ومع ذلك كانوا يقولون ان القتال فلسطيني ـ فلسطيني!. وهذا كان اشد ما يؤلم. ولو كان هذا حقيقيا، ان القتال فلسطيني ـ فلسطيني لما دخلت سوريا معنا طرفا في وقف اطلاق النار! لان وقف اطلاق النار تم باتفاق سوري ـ فلسطيني وبحضور وزير الخارجية السعودي الامير سعود الفيصل في دمشق.

مَنْ وقّع معنا وقف اطلاق النار؟.. هي سوريا لا الفلسطينيين! اذن هي طرف في القتال والا ما معنى ان يوقّع عبد الحليم خدام اتفاق وقف اطلاق النار في طرابلس؟.

وهنا اريد ان اشير قبل استكمال حديث الرائد يوسف الى ان سوريا كانت تريد من هجومها على عرفات في طرابلس الحصول على مكسب جغرافي ايضا.. ارض تخضع لسيطرتها في طرابلس نفسها والتي كانت تحاول بسط نفوذها عليها منذ انشاء الحزب العربي الديمقراطي الموالي لسوريا في عام ١٩٧٢، وهو حزب طائفي علوي، ومنذ القتال الذي دار بين طرابلس وزغرتا عام ١٩٧٥، لم يشترك علي عيد، رئيس الحزب، الموالي لسوريا

بالـدفاع عن طرابلس. ومنذ دخول الردع السوري الى طرابلس ـ وبعد مصالحة فرنجية وكرامي ومقاومة ابناء المدينة للوجود السوري.

وبعد ان وجدت الاحزاب اليسارية نفسها وحيدة دون نصير بدأت في تحولها تجاه سوريا بصفتهـا القـوة الـرئيسية في لبنان، ثم انها حليف قوي للاتحاد السوفياتي. وازداد التحالف اليساري اللبناني مع سوريا تقدما عندما عقدت الحكومة اللبنانية اتفاق صلح مع اسرائيل. وعندما ضربت البوارج الحربية الامريكية بيروت والجبل في حين كانت دمشق ترسل السلاح للأطراف اليسارية خاصة بعد رحيل «عرفات» وقوات المنظمة عن بيروت كشرط من شروط اسرائيل في انسحابها من بيروت بعد اجتياح عام ١٩٨٢.

وفي الوقت نفسه بدأت سوريا تتهم عرفات بالخيانة وتدعو لمحاربته وامعنت هي في حربه حين طاردت قواته في البقاع بعدما احدثت هذا الشرخ الخطير في صفوف الفلسطينيين متبنية زعماء الانشقاق، ابو موسى وابو صالح وابو خالد العملة وقدري، كأقطاب حركة ضد «عرفات».

الا ان اهالي طرابلس كانوا مع «ابو عمار» اذ ان امير حركة التوحيد ـ وهي المعسكر الثـاني القـوي في طرابلس ـ الشيخ سعيد شعبان يقول ان حجم المؤامرة ضد «عرفات» وانصـاره وضـد طرابلس نفسهـا كبـير للغـاية. فالهـدف واضح وهو تدمير قوة المسلمين الفلسـطينيين واللبنـانيين على حد سواء. فوقف الى جانبه باصرار قبل ان يغادر طرابلس بطلب من الرئيس رشيد كرامي وبعض فعاليات المدينة بعد قتال ضار استمر ستة وتسعين يومـا بدأت يوم الجمعة ١٦/٩/١٩٨٣ وانتهت برحيل «عرفات» يوم الثلاثاء ٢٠ كانون الاول عام ١٩٨٣.

هذه هي طرابلس التي قاتلت فيها سوريا.. لاهداف خاصة بعيدة تماما عن وجود «عـرفـات» ولكنهـا استخـدمت فيهـا الحـرب مع الفلسـطينيين لتدعيم الوضع السياسي السوري. بعد انهاء الرقم الفلسطيني.

ونعود الى حديث الرائد يوسف، وهو يعلن ان سوريا كانت طرفا في وقف اطلاق النار لانها هي التي كانت تدير القتـال.. ويقول: «كان من اعجب الاشياء تصريحات بعض الرؤساء العرب. مثلا القذافي كان يقول اذا لم يخرج «عرفات» من طرابلس سأدمر المدينة! عبد الحليم خدام يطلع بتصريح عن لسان رئيسه ان طرابلس ليست اغلى من حماة ولا من حلب!... ما معنى هذا الكلام؟.

من قصف حماة وحلب بالطيران والمدفعية لن تعز عليه طرابلس بالفعل. العناصر الليبية التي كانت تصب علينـا الحمم كانـوا لا يعـرفون انهم قادمون للحرب مع «ياسر

عرفات» وانما ضد الاسرائيليين! ضباط وعسكريون المفروض انهم يعرفون على الخريطة اين فلسطين واين الاسرائيليين. . اشياء لا يقبلها العقل!».

وهنا سألته: هل كنتم في موقف حرج في القتال؟ . . قال: «اكيد كنا في موقف حرج لان القوى اكبر منا. ومع ذلك نقول ان بيروت كانت بالنسبة لما جرى في طرابلس ـ نزهة ـ لشراسة القتال وللعامل النفسي الذي دخل في الحرب وهو اننا نضرب بيد عربية. ليست هزيمة نفسية. . ولكنه تأثير نفسي! لم ننهزم نفسيا ولا عسكريا ولكن التأثير النفسي علينا كان لان هذه الحمم التي كانت تنزل علينا عربية كان بامكانها لو اشتركت معنا في بيروت ان نقضي على ثلاث اربـاع الجيش الاسرائيلي. هذا ما كان يؤثر علينا. قلت له فعلا فقد قال لي «ابو عمار» ان ما قصفت به في طرابلس. . اقصد ان حجم القذائف كان كافيا لانزال خسائر جسيمة بالجيش الاسرائيلي. . واني لاعجب اين كان كل هذا السلاح ونحن محاصرون في بيروت؟.

ويستأنف محدثي كلامه: كلام «ابو عمار» صحيح فتصوري وانا صاحب موقع اجده يضرب من الاسرائيليين بحرا ومن السوريين برا ماذا يكون شعوري؟ هل سوريا حليف لاسرائيل؟. ما كان مخبأ انكشف وجعلهم يضربون معا!.

انا في موقعي كنت اضرب من البحر ومن البر. كنت اتفادى الصواريخ الاسرائيلية من البحر. . اجد المدفعية السورية بوجهي وهذا ما لم يكن قابلا للتصديق. حتى القيادة نفسهـا كانت لا تصدق حين اعلمها اني اتفادى النيران الاسرائيلية من البحر ولاتلافاها اخرج لاواجه بمدفعية الجيش السوري. كانوا يقولون في الميدان هذا غير معقول!. . يعني كان هذا حلما ام حقيقة؟ كنت اتمنى لو اجد مساندة عربية او ازود بالسلاح او اي شيء. سألته بحرج الم يحدث اي شيء من هذا؟. . قال: أبدا كلها كانت امكانيات ذاتية!. . لا ننكر فضل من وقفوا معنا مثل الأخوة الجزائريين ولكن في مصيبة كهذه لو دفع الآخرون كل الامكانيات لكانت قليلة بالنسبة لنا. قطرة في بحر.

حكـاية الـدعم العـربي. . انـا كانسـان مقاتل لا انفصل عما يجري على الصعيد السياسي. مأسـاتي كفلسـطيني في التمزق العربي لولا هذا التمزق ما تلقيت انا كل هذه الضربات ابتداء بخروج مصر وانتهاء بحرب العراق وايران. اسرائيل لا تجرؤ على ضربي ولا احتلال عاصمة عربية. ولا ايران تجرؤ على التطاول على دولة عربية. ولو اعطوني كل شيء سأقول لا يكفي لانني لا اريد ان اقول انتم سبب مصيبتي كأنظمة عربية. لا الحق على الامريكان ولا الانجليز. . الحق علينا نحن اولا كأمة عربية. المصيبة التي كانت تجري كانت كبـيرة. المخيمات سقطت اثناء القتال! الشباب لم يترك جهدا الا قدمه لكن. . لو انسان

عسكري يدافع عن مخيم اهله في داخله . . ويضرب من جناح عربي فأنا احسبها الى متى؟ . . مادام الطرف الآخر مصر على تدمير المخيم بمن فيه من ناحية انسانية ممكن اخلى الموقع من داخل المخيم لارضي البشر لانهم لا يرحمون! .

النظام اتخذ قرارا بمسح الفلسطيني . . فانا لا اترك له الفرصة واطلع من المخيم . . طبعا خرجنا من المخيمات . فسألته بلهفة : هل كانت لكم مواقع اخرى؟ . . قال : لا كان انسحابنا من المخيمات كي لا تدمر ونرى نهايتها . . وانت تعرفين معنى مخيم . . لا هناك متاريس . . ولا هي مؤسسة لمواجهة قذائف لم تستخدمها سوريا ضد اسرائيل في الجولان واستخدمتها ضدنا نحن .

ومجموع ما القي على طرابلس وعلى مخيماتنا في الشمال . . اشهد بالله كعسكري اقول لك استطيع ان احرر به الجولان! . .

طرابلس كانت مأساة ، حوصرنا حصارا ليس فيه منفذ! ليبيا تهدد بتدمير المدينة لو لم نخرج . سوريا مصرة على الاستمرار في العمليات الحربية . ونحن ننظر لارواح الناس من طرابلس . تهمنا ارواح الناس . فتوصلوا للاتفاق بأن يخرج «ياسر عرفات» ومن معه .

وكانت الصدمة الكبرى للسوريين ان خرج «ياسر عرفات» ويخرج معه اربعة آلاف مقاتل! لقد ظنوه سيخرج وحيدا كزعيم عصابة يهرب بعد هجوم ومطاردة . هكذا كان تفكيرهم . . لكن خرج معه اربعة آلاف مقاتل رافعين رؤوسهم وسلاحهم . . وهذا لم يتوقعه السوريون ولا المتعاونون معهم . كان هذا الخروج ضربة لكل مخططاتهم . . حقيقة الرئيس السوري مرض . . ولا شماتة!» .

سألته : هل نقول اذن ان كل ما جرى في طرابلس ـ على بشاعته ـ كان نصرا سياسيا؟ . اجاب باندفاع : «والله كان اكبر من نصر سياسي . . لان الخروج كان بقرار . . القيادة كانت تريد انقاذ ارواح الناس . . والكل كان يعرف ان سوريا كان الطرف الاول . . ومع ذلك كنا نسمع اذاعات عربية كثير تقول كفاكم اقتتالا! ! وكأن الحرب كانت بيننا فقط كفلسطينيين .

انا شخصيا لم اواجه اي فلسطيني . . لم يقاتلني اي فلسطيني . . فانا في موقعي تم اسر مجموعة لا بأس بها . . كان من بينهم واحد فلسطيني فقط . هذا يدل على ان الانشقاق كان عملية وهمية استغلوا الرموز . عدد من الاسماء البلهاء استغلوهم وباعوا اسمهم واخذ السوريون اسماءهم واشتغلوا بها . . من ابو موسى ومن فلان او فلان؟ . . وما هو هذا السبب الذي جعلني اقول ان هذه المأساة كانت اضعاف مأساة بيروت؟ . . انا في بيروت تحت الحصار وتحت القصف كنت اتجول واذهب لشراء البيبسي واتفرج على الطائرة وهي

تقصف. كنا نؤمن القائد في مكان حتى يقدر ان يدير العمليات ويدير عمله وكنا سعداء. لم نكن نخاف من اي شيء. في طرابلس كنت خائفا من نفسي على نفسي!

كنـا في بيروت نمشي على البحـر نتفرج على الزوارق الاسرائيلية والامريكية وهي ترمي. لاني عارف من اقـاتـل.. كنت مستعـدا للمـوت وانا اضحك ومقتنع. لكن في طرابلس كنت خائفا. لا استطيع ان اصف شعوري! سألته: لكن القائد نفسه كيف كان تقبله للامر؟.

قال باعتزاز: «القائد كان ذابحهم بابتسامته.. كل قذيفة كانت تنزل كان يبتسم مثلما كان يصنع امام القوات الاسرائيلية في بيروت.. وحتى في طرابلس كان يستطيع ان يحافظ على ابتسامته وكانت اخطر سلاح! وكان النصر السياسي الذي سألتني عنه ان الشرعية لم تنته. يعني لو ضربنا في طرابلس او اي مكان آخر فلن تنتهي الشرعية الفلسطينية. النصر السياسي الكبير الذي حدث هو بقاء الشعب الفلسطيني ملتفا حول هذا الرمز.

حرب طرابلس كانت محاولة لضرب الرمز وليست القاعدة - اذا سقط الرمز..! انتهى كل شيء.

وبالعكس ففي ضربهم لهذا الرمز ألفوا بين قلوب الفلسطينيين! المخيمات في دمشق وما جرى فيها والقتلى الذين سقطوا فيها وهم يتظاهرون مع الشرعية والرمز اكبر دليل على النصر السياسي. لانكم تقاتلون الرمز الذي يلتف حوله كل الشعب فلا يمكن ان نقبل. ارادوا ان يخرج كمشرد.. خرج بجنـوده وكـأنهم كانوا في زهوة الانتصار رغم المأساة التي دارت.. ومنهم من كان يطلق النار ابتهاجا.. لانهم لم يتحطموا ولم ينكسروا.

خرجنا نتيجة اتفاق رعته السعودية التي تحركت كثيرا لانجاز الاتفاق وتحت حراسة بحرية من فرنسا وكذلك من مصر.

وكانت الضربة الثانية هي نزول «ابو عمار» في القاهرة. وانا كشاهد عيان ونحن على ظهر الباخرة «ابو عمار» كان يقول لا يعقل ان امر وكل ما استطيعه للذين ساعدوني ان ألوّح لهم بالتحية من بعيد. لو ارسل لي الرئيس المصري سأنزل. وكان القائد بذلك كأنه يستشير القوات! والذي سمعته من المقاتلين كلهم وكأنهم متفقون. يا «ابو عمار» اخذتنا لنحارب في طرابلس ولم نقل لك الى اين. فهل يعقل ان نقول لك الآن لماذا تذهب الى القاهرة؟. قالوا هذا وكأنهم متفقون!. قالوا كيف نسألك وانت تشتغل سياسة من اجل شعبك!!.

كل من استنكروا نزوله في القاهرة تسرعوا في اصدار حكمهم ولم يقدروا اهمية الزيارة.

«ابو عمار» لم يقم بزيارة القاهرة نتيجة ردة فعل. وانما نتيجة لدراسة مسبقة وكان يدري

.ما يفعـل. الذي تسرع هو الذي اعطى حكما على هذه الزيارة. . القائد لماذا لا يشتغل ويتحـرك. . لماذا يقيدوه؟ . هل حرّم علينـا نحن فقط ان نتكتك ونناور وينجح الآخرون؟ . كيف اكون مقتنعا بالقيادة واعطيها الولاء الكامل ثم اقول لها لماذا نفعل ذلك. . انهم يخافون من المشاركة في صنع التاريخ. انهم فقط يقرأون التاريخ! يخافون من الفشل. . اي انسان يخاف من الفشل لا يقدم شيئا لينجح.

على ان ابتسـامـة «ياسر عرفات» التي كان يواجه بها الامور لم تكن ابتسامة الرضا والسرور. فلقـد كان في محنـة حقيقية، ولكنهـا كانت ابتسامة الثقة والامل والحب لهؤلاء المحيطين به والذين تخطوا كل المسافات وكل الصعوبات حتى يكونوا حوله لنصرته في معركته الصعبة. لقد اراد السوريون وانصارهم من المنظمات الفلسطينية ان تكون هذه الحرب حرب اقتراع على وجود وضرورة ياسر عرفات.

وكان هذا هو المطب الذي سقط فيه دائما كل من يريد النيل من الحركة الفلسطينية بالهجوم على قيادة «عرفات»! وغرتهم القوة والمظاهر الكاذبة عن حقيقة مكانة الرجل من شعبه. فليس هو القائد الذي تقصيه المدافع والطلقات. فهو زعيم شعبي بكل ابعاد هذه المكانة. زعيم شعبي وليس حاكما محميا بالسلطة واجهزة المخابرات او العمالة. زعيم يأتيه المتـطوعون عن رغبة واختيار لا عبر سطوة القوانين العسكرية والامنية. لقد حكى لي احد المنـاضلين وهـو رامي الحجاوي هذه القصة التي تدل على التفاني والالتفاف حول القائد قائلا: كنت متزوجا منذ اسبوع واحد حين شعرت ان واجبي ان اكون بجانب القائد في طرابلس. وتركت عروسي وذهبت. وعندما رآني دهش فقد كان يعلم انني مازلت عريسا جديدا. وقال لي ما الذي أتى بك؟. فقلت له وكيف لا آتي. وان لم احضر الآن فمتى احضر؟.

كان هذا واحدا من بين آلاف يجمعهم ولاؤهم للقائد الذي اعطى كل شيء لشعبه وقضيته وكفاحه.

هؤلاء الذين انشقوا هم مستخدمون وضعفاء. لانهم فعلا لا يملكون سلطة على قرارهم انهم موجهـون. . ويكفي انهم داخـل الحركة الفلسطينية كانوا يعلنون انتماءاتهم وولاءاتهم لاجهزة استخبارات انظمة اخرى، وهذا وحده ما ينقص من شرف التزامهم اذ ان ولاءهم الاول والاخير كان يجب ان يكون خالصا لفلسطينيتهم. وكانت هذه النقطة - في رأيي - خطأ من الاخطاء التنظيمية منذ البداية! . اذ كيف يُسمح بدخول انتماءات لبعض الانظمة العربية الى قلب العمل الفلسطيني والذي هو ثوري بالدرجة الاولى ليكونوا عينا لمخابرات الاجهزة التي تسيرهم.

وقد اثبتت الايام خطأ مقولة «ابو عمار» . . دع الزهور تتفتح في بستان الثورة. لقد كانت بعض الزهور هي زهور الشر. وكان يجب الا يتفتح في بستان الثورة الا الزهور المروية بقطر الطهارة الثورية التي لا تدين ولا تعتنق الا الثورة.

يقول هاني الحسن . . «بعد تفحص طويل لبعضهم لا استطيع ان اقول عنهم خونة. حين ندرسهم يجب على الانسان ان يكون عادلا. التاريخ الطويل هذا يجعلني اعرف من يخون ومن لا يخون. شيء ما حدث: نفسي . . ذهني - حالة ذهنية جديدة سيطرت!!. وكما قلت لك ان من يطلبون للحساب عن معركة بيروت هم هؤلاء الذين كان رأيهم ان اسرائيل لن تهاجم! لقد كتب ابو صالح مجموعة مقالات - اظن انها كتبت له - بعنوان نحن وامريكا. قال فيها ان اسرائيل اصبحت عاجزة عن الهجوم على لبنان. وامريكا اصبحت في مأزق . . فيجب ان نبدأ الهجوم الكبير لنحتل شمال فلسطين!. كتب هذا قبل اربعة اسابيع من الهجوم!.

وكان رأي نايف حواتمة السياسي ايضا ان اسرائيل عاجزة عن الهجوم! وانا اعتبر هذا أميّة عسكرية وقادةالانشقاق فروا كما قلت لك الى موقع القضاة حتى لا يأخذهم احد الى قفص الاتهام مثل من قال: يا أبتِ فلنغير اسمنا ونصبح من الشرفاء . . فقال يا بني يجب اولا ان يموت كل الذين يعرفوننا!.

وصدق هاني الحسن فلم يضعهم الانشقاق ولا الحرب التي خاضوها مستندين فيها الى قوى معـادية في مكـان الشرفاء . . لأن الذين يعرفونهم . . لم يموتوا بعد! وانما دخلوا التاريخ من زاوية المذلة والعار. انما تكشّف للعالم ان البقاء للأصلح . وخرج «ياسر عرفات» يحيط به رجاله الشرفاء الصامدون امام الهزيمة والتآمر وتبعية القرار. ومرة اخرى جاءت السفن لتحمل الرجال المخلصين ليثبتوا انه لا يصح الا الصحيح وان لا احد يستطيع عزل ياسر عرفات الا الشعب الذي اختاره..

لقد كان الخروج الاول من بيروت رغم فقدان الارض والموقع نصرا منتزعا من قلب الحصار الشامل الذي فرض على منظمة التحرير اسرائيليا.

وقد كان الخروج الثاني من طرابلس رغم كل شراسة القتال الذي دار بين رفقاء الدم والسـلاح نصرا آخـر بانتصـار القيادة الشرعية ونجـاحـا لخطهـا السياسي وتـأكيدا على استمراريتها . . امام الحصار العربي.

وابتلع الاعداء حسرتهم على ما بذلوا دون نتيجة. وابتلع جورج شولتز فرحته قبل ان تتم بأن منظمة التحرير تدفن هناك في طرابلس.

وعادت منظمة التحرير بقائدها الشرعي لتشكل من جديد احد اهم اطراف الصراع

العربي - الاسرائيلي رغم كل ما حدث في لبنان .

لقد كان لبنان مرحلة . . مرحلة طويلة بطيبها وشرها وصراعاتها وحروبها وانتصاراتها وآلامها الموجعة .

واذا كانت مرحلة في عمـر المسيرة الفلسطينية فهي ايضا مرحلة كاملة وتجربة ثرية وصفحة فخار ناصعة في تاريخ قائدها العظيم . . «ياسر عرفات» .



مع القيادة المصرية في حرب عام ٧٣





المأساة كاملة!

الخوف في عيون الاطفال



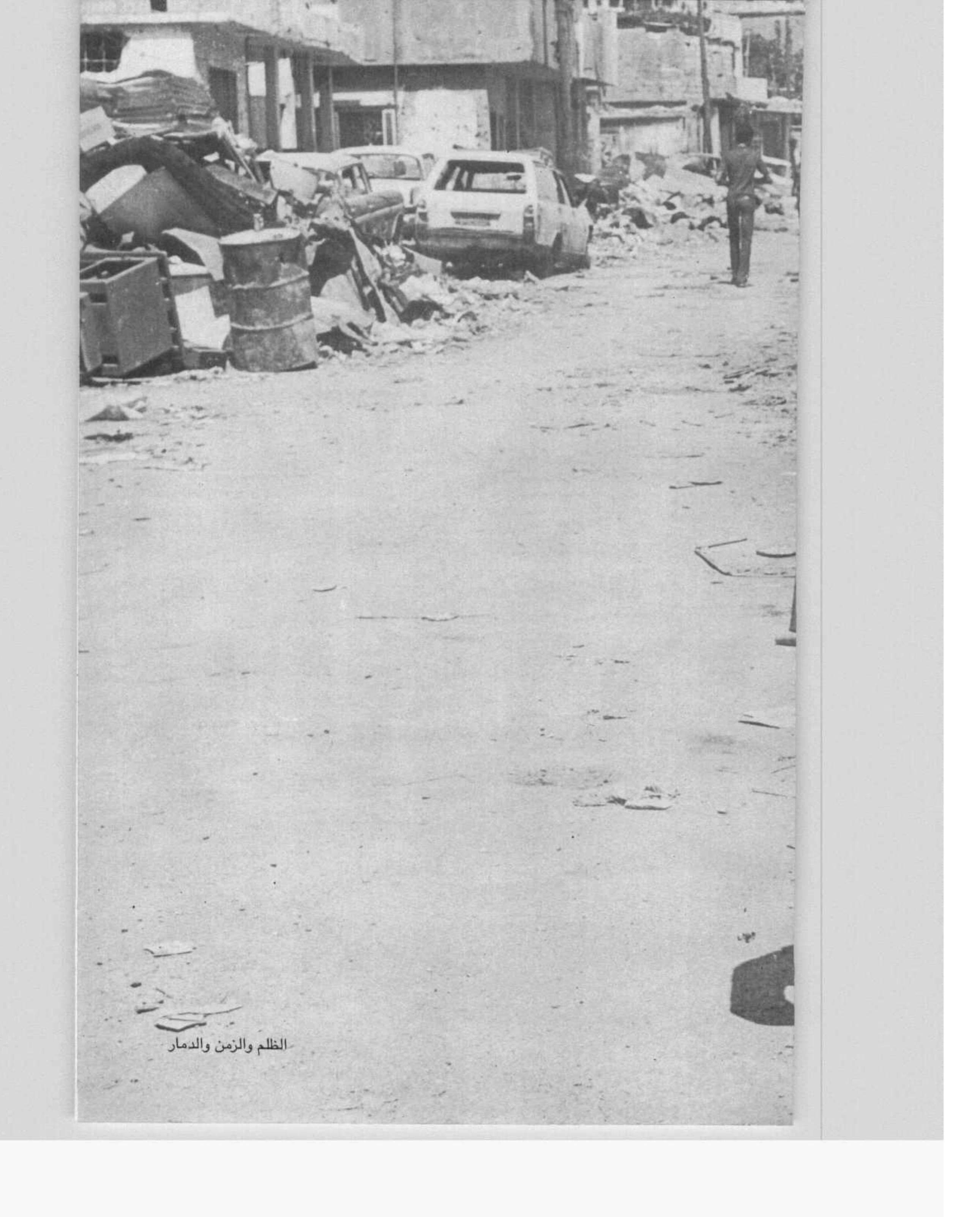


تبكي على الاطلال في تل الزعتر

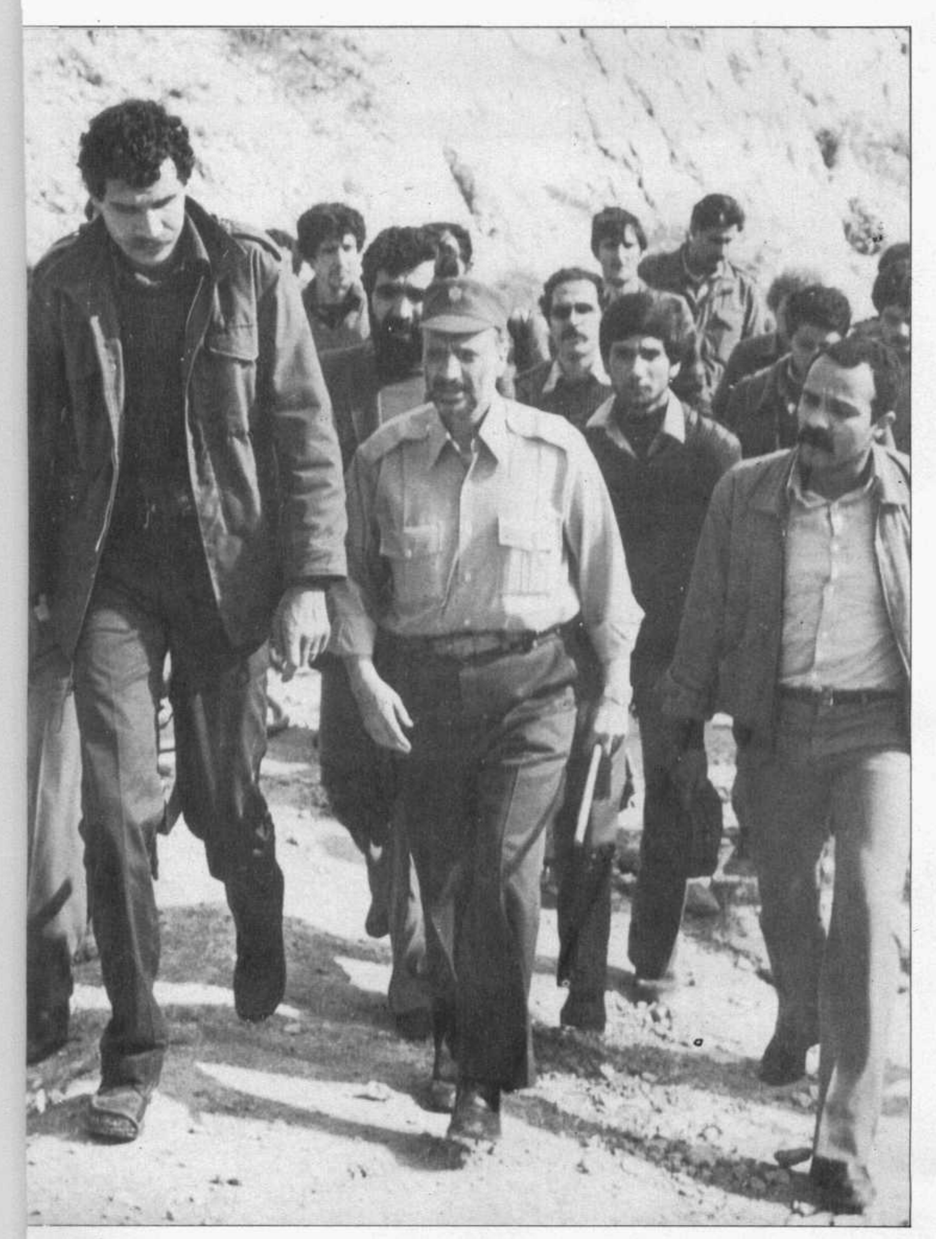


الكلب يتأمل وحشية الانسان

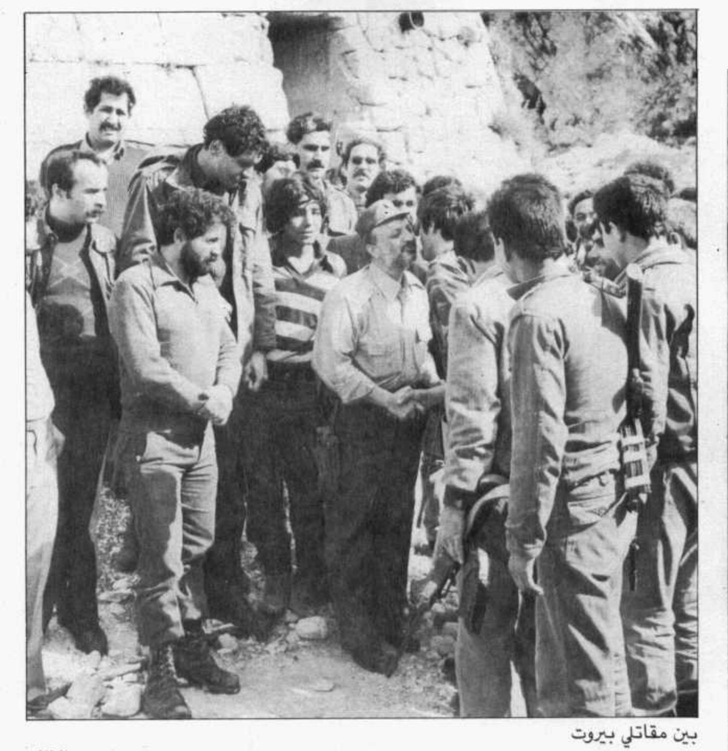




الظلم والزمن والدمار



على الخطوط الامامية في حرب لبنان



بين مقاتلي بيروت



تواضع الثائر







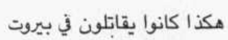
دائما في قلب الموقع ـ يراقب المواقع في بيروت



وفي اثناء الحصار.. علامة النصر

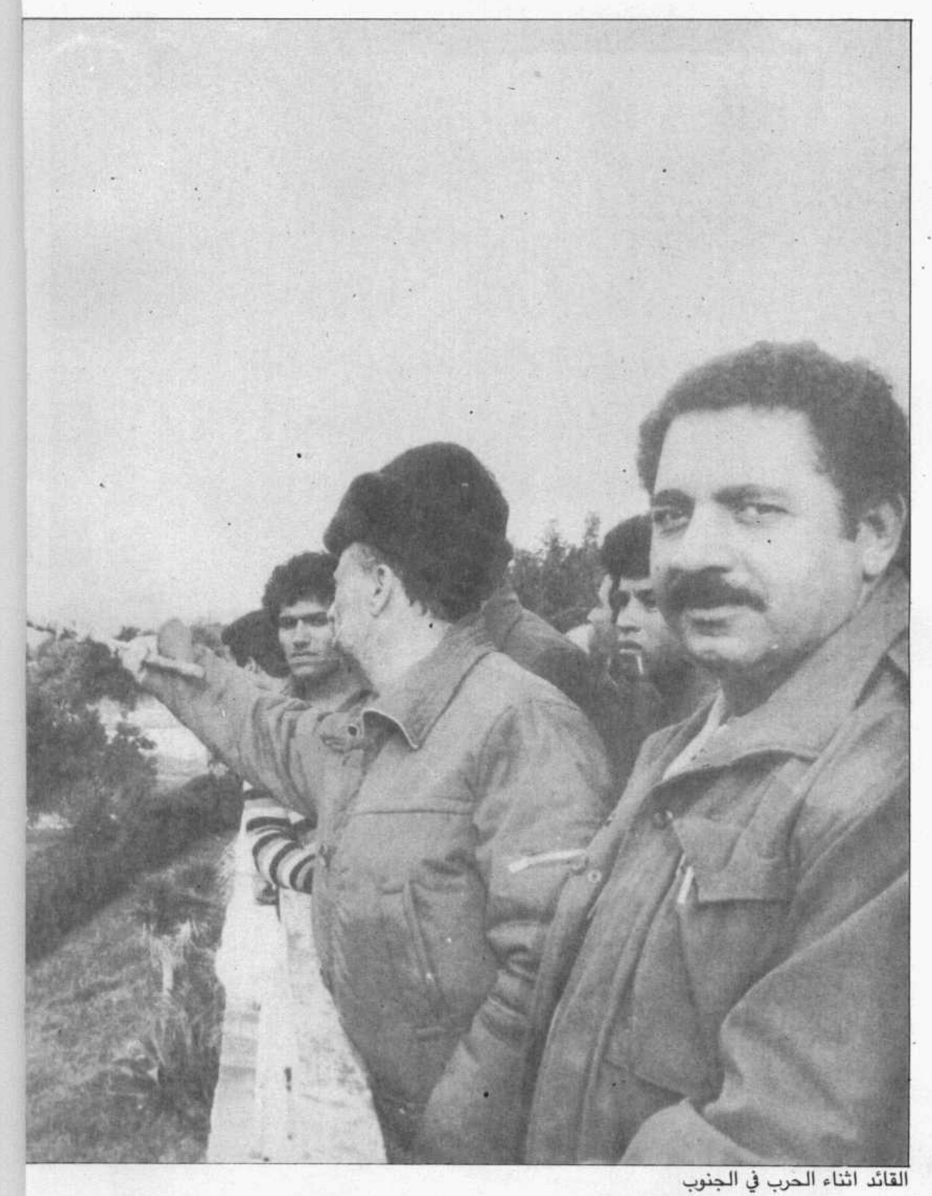


ابو عمار وابو الوليد اثناء حصار بيروت



هكذا كانوا يقاتلون في بيروت





القائد اثناء الحرب في الجنوب



دائما يتفقد المواقع



هو والبحر!

لا تكفي الدمعة ولا تكفي الصرخة





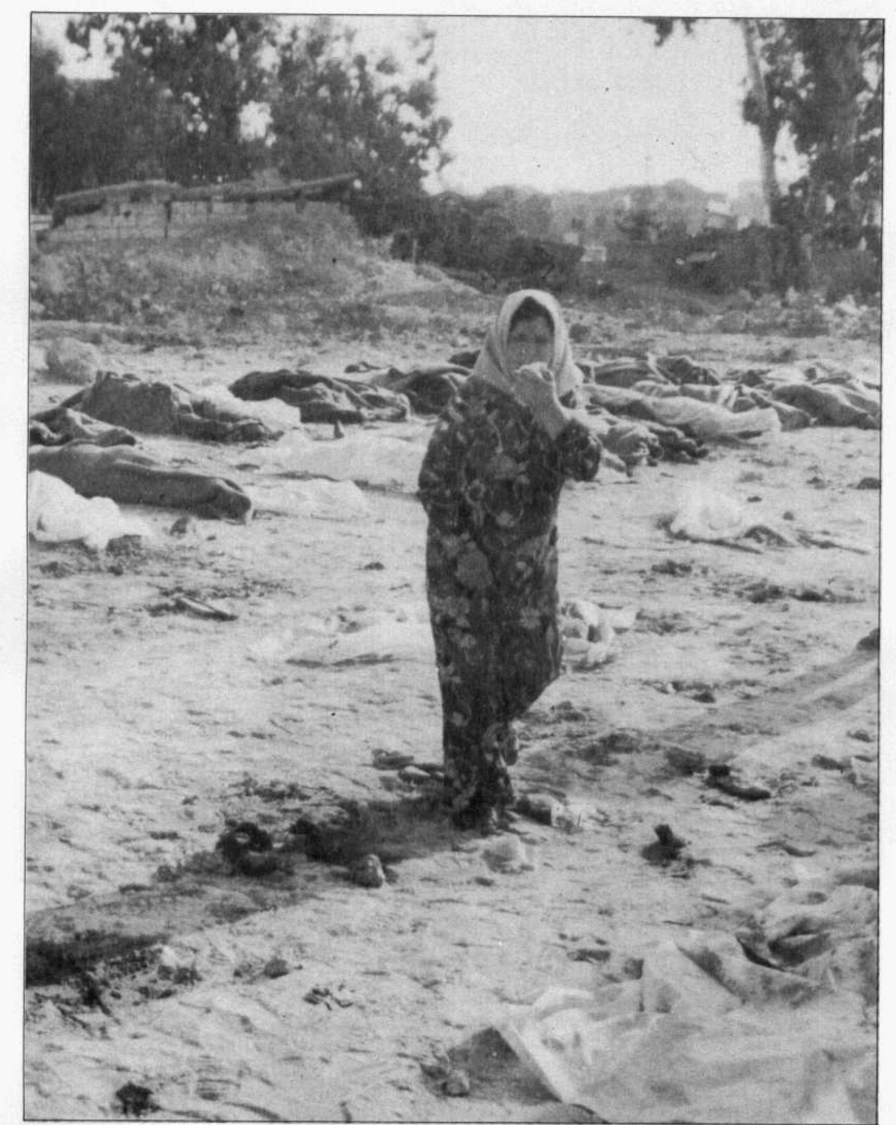
يرفعون البندقية.. وصورة القائد

ياسر عرفات يوم الخروج .. مقاتلين ومودعين

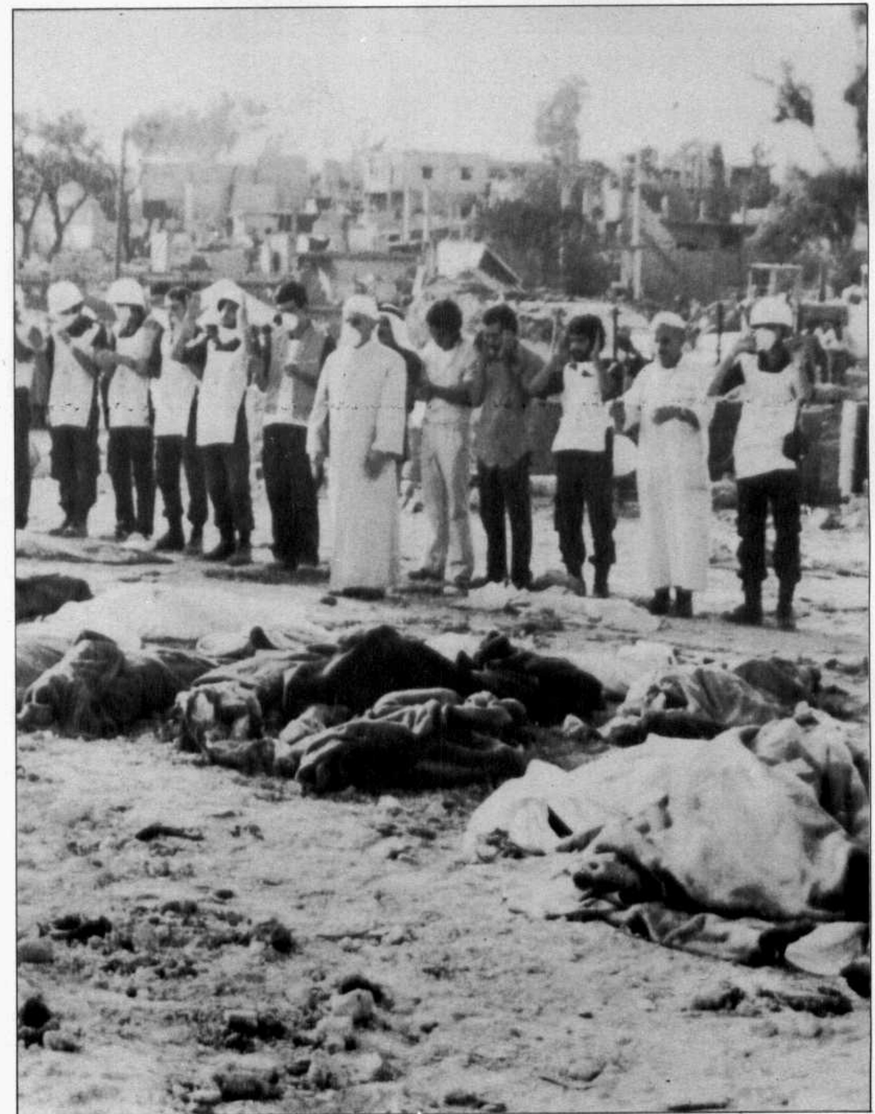


خروج المقاتلين من بيروت وهم يحملون صور القائد

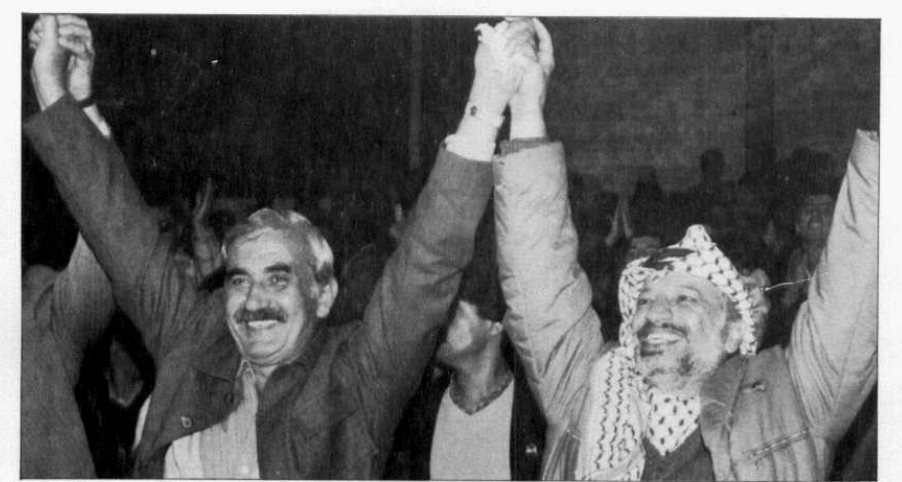




الهجمة في عصر المدنية . وهكذا ذبحوا في صبرا وشاتيلا



عندما يذبح الانسان كالاغنام


جورج حبش. المعارضة دائما


الخوف يهدأ عند ابتسامته.. احداث طرابلس



دائما على شبكة الاتصال



القائد الشعبي يطمئن الناس



يوالي اتصالاته بالعالم

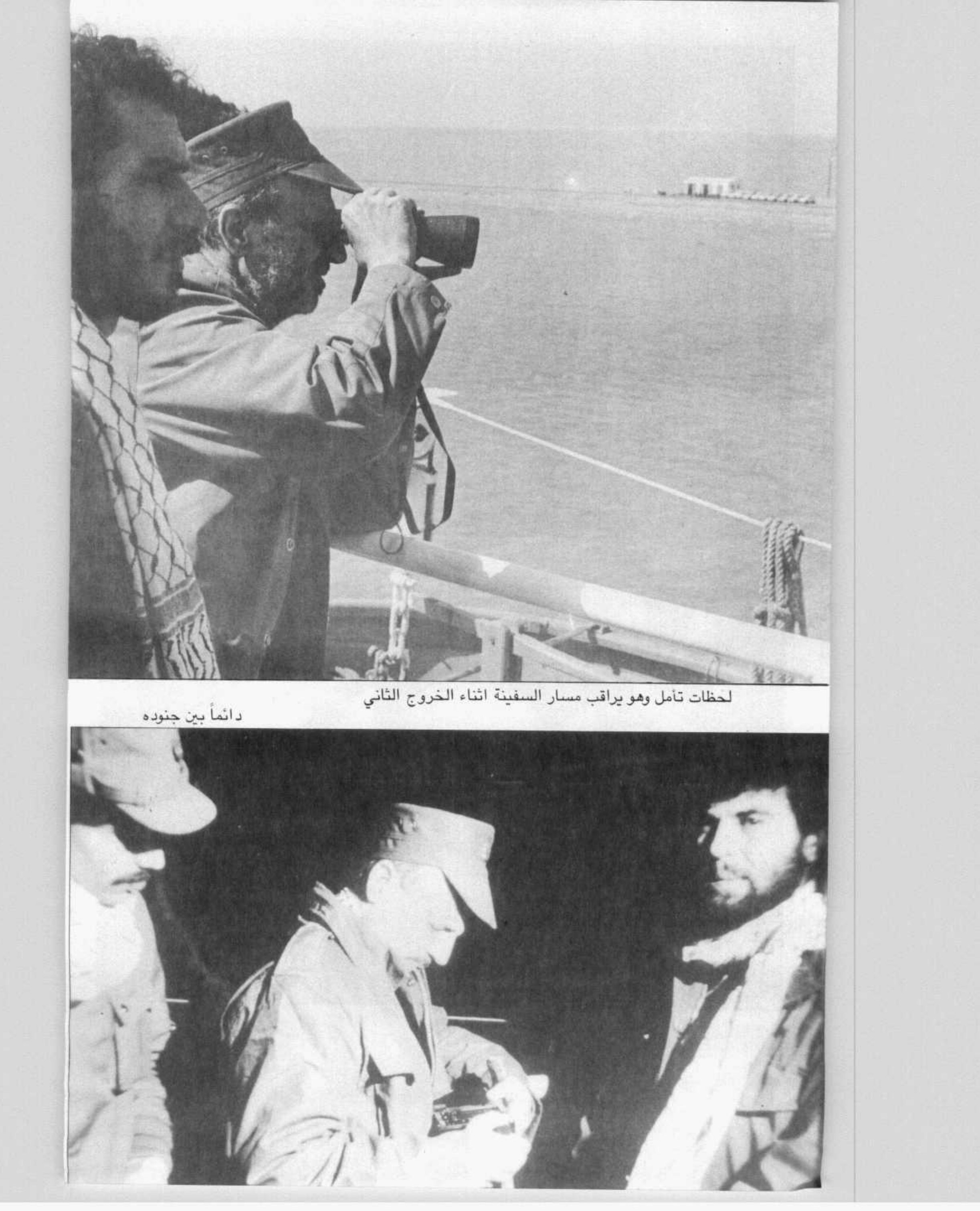
القائد مع الجرحى




القائد في ساعات الترقب اثناء المعارك

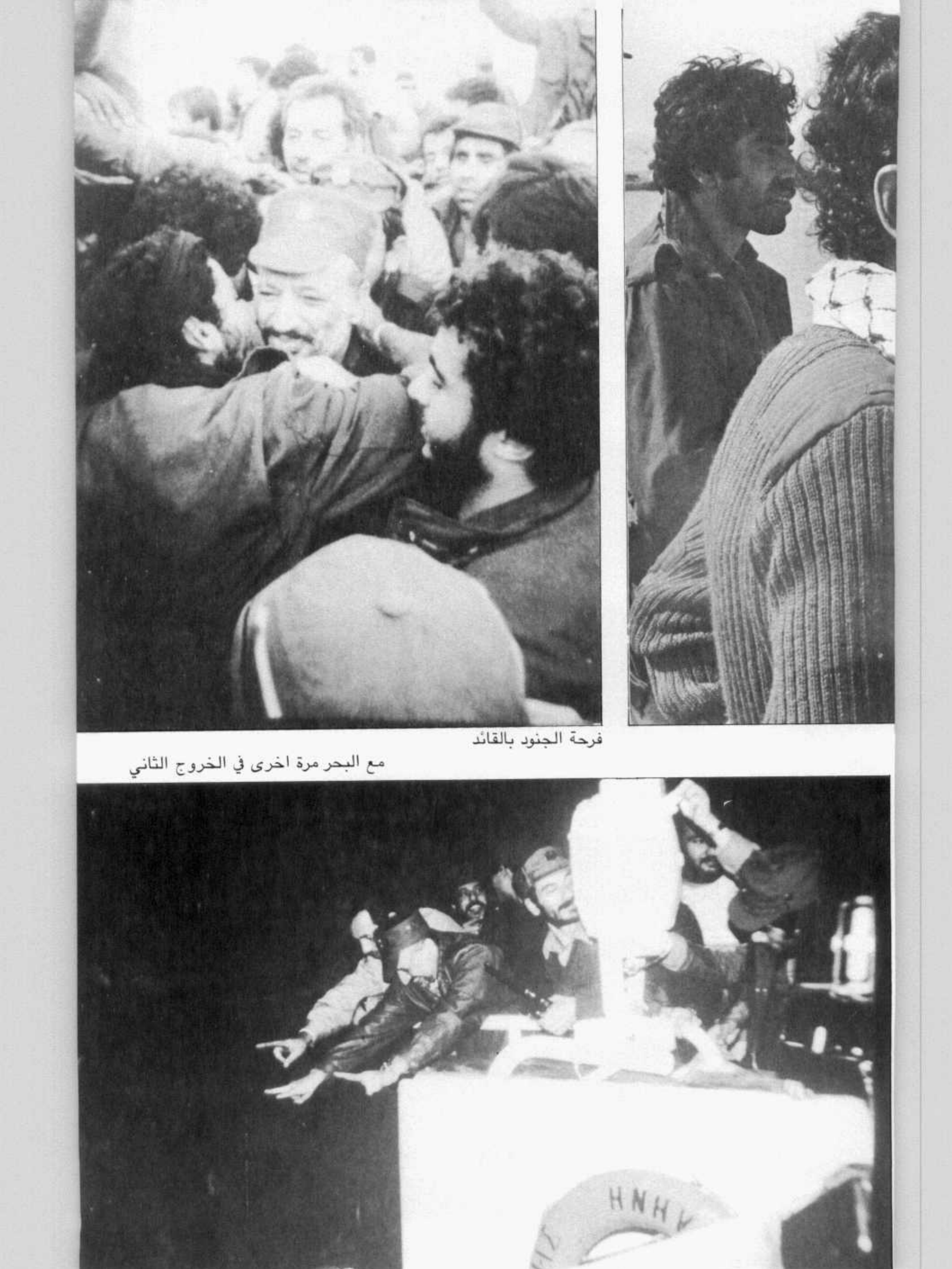
كل يريد ان يلمسه!





لحظات تأمل وهو يراقب مسار السفينة اثناء الخروج الثاني

دائماً بين جنوده



فرحة الجنود بالقائد

مع البحر مرة اخرى في الخروج الثاني



# الباب الرابع:

## ● السلام في مهب الريح

* عرفات والتغيرات
* ما بعد لبنـــان
* ياسر عرفات، اين انت من المتغيرات
* ميزان القوى
* السلام الى أين؟
* الخاتـمة..



## * عرفات والتغيرات

طالما تساءل العالم عن «ياسر عرفات»! . . ماذا يريد؟ . . وكيف يحاول تحقيق ما يريد؟ . . هل هو حقيقة يريد محو إسرائيل من الوجود . . وازالة وجودها من هذه البقعة من العالم . . ام انه يريد الحياة والتواجد مع قبوله بوجود هذا الكيان الذي اخترق جسد الامة العربية؟ . . وما هي الطريقة التي يحاول ان يسلكها لتحقيق أي من الرغبتين؟ . . هل هي البندقية التي اشهرها منذ اول يوم خرج فيه من بين جموع الشتات الفلسطيني معلنا الكفاح المسلح وسيلة وحيدة لاسترداد الارض والحق؟ . . ام طرق ابواب المحافل الدولية واللجوء الى التحكيم والمفاوضات وفكرة التسامح لمن انتزعوا الارض واجروا المذابح واشاعوا الرعب والفزع واخرجوا مليون لاجىء في اول يوم لاعلان دولتهم الكريهة! .

اي الرجال يكون «ياسر عرفات» . . واي الطرق سيسلك؟ .

منـذ ذلك اليوم الذي اعلن فيه الثورة لم يعرف عنه الا انه يرفع البندقية بيد ويرفع اليد الاخرى بشارة النصر! . . ولم يملك «عرفات» ابدا الا ذراعين اثنين . . واحدة تحمل البندقية والثانية تلوح بشارة النصر .

ولعله من البديهي ان «عرفات» حين حمل مدفعه الرشاش على كتفه ونزل الى ارضه المحتلة في اول دورية عسكرية . . لم يكن يدور بخلده ان باستطاعته ان يتغلب على اسرائيل او يخرجها بامكانياته الضعيفة من الارض . ولكنه قصد اول ما قصد الى لفت الانتباه . . وبـالدرجة الاولى لفت انتباه انظار الشعب الفلسطيني ان هناك حركة تنظيمية تأخذ على عاتقها الجهاد في سبيل استعادة الحقوق السليبة . وان تتجمع قلوب الفلسطينيين حول هذا الهدف الاكبر والعمل على تحقيقه عن طريق هذه الحركة الثورية الشعبية .

ولم يفكر احد من قبل من اصحاب الثورات بسنيّ النضال التي ربما تطول الى حد يقصر العمر عنه! ولكنهم يضعون دائما خطوة على طريق التحرير . . وهكذا انطلق «ياسر عرفات» .

واذا كان ومنذ اللحظة الاولى قد اعلن شعار الكفاح المسلح . . الا انه لم يعلن ابدا رفضـه لاية وسيلة اخرى يمكن ان تؤدي به الى نفس الهدف . ومنذ ان كانت الانطلاقة الاولى في عام ١٩٦٥ والحرب معلنة على «ياسر عرفات» وثورته! . . لم ينتظر احد ليرى هل الرجل ورفاقه بعددهم المحدود وامكانياتهم البسيطة يشكلون خطرا حقيقيا على كل هذه الانظمة طويلة الامد في الحكم والاستقرار بهذه الدرجة المزعجة التي جعلت الجميع يتوجس ريبـة وخشية من هذا الكـائن الـوليد الـذي ولد تحت اسم فتح اولا ثم منظمة التحرير الفلسطينية ثانيا! . . وظل طوال هذه السنوات تحوطه الشكوك والريب . ولم يرحب اي بلد عربي ابدا بسهولة وجود الفلسطيني على ارضه . ومن قبله . . قبله مضطرا واقام حوله

المتاريس والسدود منعا لنفاذه الى داخل الدولة.

وتنقل «ياسر عرفات» برجاله من سجن الى سجن ومن واد الى واد ومن جبل الى جبل. وكان دائما يسكن بهم على الحدود في أبعد نقطة عن السلطة واقرب نقطة يمكن ان تتيح له مواجهة عدوه في كل مراحل الصراع المريرة التي سردناها بين فصول هذا الكتابا.

وازاء هذه الحرب المعلنة عليه دائما.. لم يستطع الرجل الا ان يعمل بندقيته ليس فقط على الحدود الاسرائيلية، بل في كثير من الاحيان دفاعا مشروعا عن النفس!.

لقد سلم اطفال المخيمات سلاحا ودربهم عليه فقط ليردوا عن انفسهم الاعتداء ايا كان نوعه اسرائيليا او عربيا. فقد اثبتت الاحداث ان لا فرق كبير بين الاثنين! بل ان الكتائب اللبنانية رفعت في وقت من اوقات الصراع في لبنان شعار اقتل فلسطينيا تدخل الجنة!. وجاءت من ورائها حركة «امل» - وهكذا ادى تكاثر الاعداء حوله الى ان تظل يده دائما وابدا فوق زناد مسدسه.

ولكن «عرفات» لم يقصر تحركه على هذا الوضع العجيب الذي وجد نفسه وثورته ورجاله فيه. بل انه استند اكثر ماستند على روح الامة العربية الاصيلة التي ينتمي اليها.. وان كانت اغلب الانظمة العربية قد ضربته بما يفوق كل الضربات الاسرائيلية الا انه لم ينفصل ابدا عن جذوره العربية وظل يعلن ويكرر انه يقاتل بمفرده في انتظار ان تلحق به امته العربية.

لقد سقط من الفلسطينيين شهداء على الارض العربية وباليد العربية اكثر مما سقط بيد العدو الصهيوني!. واحتسبت الثورة الفلسطينية شهداءها قربانا للسلام العربي الفلسطيني!.

ولان «ياسر عرفات» يتمنى ان يحقق اولا سلاما عربيا فلسطينيا وبعدها يتفرغ للصراع العربي - الاسرائيلي! فمواقف العرب وتفاعلهم مع القضية يؤثر بطريقة او باخرى على صعود او هبوط ردود الفعل الاسرائيلية! لكن لو اقتنعنا اولا ان اسرائيل لا تريد سلاما.. فربما استطعنا ان ندرك حجم المعاناة التي تكبّدها هذا الانسان الذي يحرث البحر! انه ينشد شيئا لا يريده عدوه. فاسرائيل قد تفكر او تحاول ان تهادن اية دولة عربية لانها يفصلها عنها حدود وفواصل تكفل اسرائيل حمايتها بقوة السلاح. ولكن مع الفلسطينيين الامر مختلف.. فهم منتشرون في طول الارض المحتلة وعرضها وهم يدينون بالولاء لمنظمة التحرير التي تجمعهم جميعا حول هدف واحد. هؤلاء من لا تريد اسرائيل ان تقيم معهم سلاما. فهم يطالبون بأرض ويطالبون بدولة يعتبرونها حقهم الطبيعي والمشروع .لذلك تعلن اسرائيل دائما عدم اعترافها بهم.. ولا بمنظمة التحرير ولا بقائد الشعب الفلسطيني الذي تجعل من تواجد

صورته في الارض المحتلة جريمة يعاقب عليها القانون! .

وفي مجال تثبيت عدم الاعتراف هذا تقوم اسرائيل بأقوى ضغط ديبلوماسي سياسي لانهاء دور المنظمة من حساب القوى التي تعد في المنطقة . هذا بالطبع الى جانب الانهاء العسكري الذي تحاول دائما وابدا القيام به منذ ان انشئت دولة اسرائيل . . والى الآن .

فمنذ ان انشىء هذا الكيان وهو يتخذ الطابع العدواني على العرب المحيطين . ورغم ان بعض البلاد العربية لا تشركها حدود مع اسرائيل . . الا ان هذه الدول لم تنج من اطماع الحلم الصهيوني الذي يقول من النيل الى الفرات! . . وهو الحلم الذي يؤكده كل قادتها . واكده بيغن اكثر من مرة ستقوم اسرائيل الكبرى كاملة غير منقوصة! .

لذلك تكرس اسرائيل كل جهودها لان يبقى هذا العالم العربي ضعيفا متناحرا متنابذا تنغلق فيه كل دولة على نفسها لانها تعلم ان قوة العرب قوة للقضية . . الرأي الذي اعلنه «ياسر عرفات» مرارا . ويوم قال في قمة فاس الاولى : سندفع نحن ثمن هذا التشرذم العربي كله . . كان محقا فقد دفعوا وحدهم الثمن مضاعفا! .

لذلك فان اصبع اسرائيل يندس في شؤون العالم العربي . وهي ترقب . . فطالما ان جاراتها هادئات طيبات تسكت عنهن . . ولكن حين تبرز منهن قوة او يتصاعد صوت . . فوسائل ردعها حاضرة! .

لقد شنت حربا خاطفة على مصر حققت لها نصرا ساحقا في ساعات قليلة . وكانت تهدف الى ضرب قوة «عبد الناصر» الصاعدة المتنامية . وقد حققت بضربتها هذه اكثر مما كانت تأمل . فربما لم يدر بخلدها انها ستنتصر دون ان تلقى اية مقاومة كما حدث! . . مما اتاح لها ان تكسر مصر وتستولي على بقية الارض الفلسطينية لتعلن هيمنتها على مجمل التراب الفلسطيني . . . وتحتل الجولان! .

وحين قامت حرب **١٩٧٣** وحققت بها مصر نصرا . . أُجريت المخططات لفصل مصر عن بقية العالم العربي، اضعافا لمصر والعرب جميعا .

وان كان كل المراقبين قد حللوا الموقف بأن حرب **١٩٧٣** كان قد خطط لها بما يسمح بالانتصار في معركة محدودة حتى يتسنى للسادات ان يطرح فكرة المفاوضات والحل السلمي بعد دخوله الحرب وحصوله على النصر . وسواء كان هذا بتخطيط مسبق ام لا . . فقد أدى الى نفس النتيجة التي كان مطلوبا منه ان يصل اليها! .

وعقد السادات معاهدة الصلح المنفرد ووقع اتفاقيات كامب ديفيد وعصفت الريح بالمنطقة كلها . واصبحت اسرائيل بالفعل أقوى دول المنطقة بعد ان حيدت مصر او اخرجتها من الصراع . وبعد ان ضربت المفاعل النووي العراقي لتخرج العراق من عصر الذرة الذي

كان يريد ان يدخله . . وتقف اسرائيل فوق انقاض الجميع .

كل هذا اتاح لها فرصة الاستفراد بالعدو الحقيقي الذي طالما ازعج قرى المستوطنات الاسرائيلية هناك في جنوب لبنان . فقامت بغزو لبنان واجتياح الجنوب وحصار بيروت . . ثم اخراج الفلسطينيين من بيروت في سفن تمخر بهم عباب البحر! .

وتقف اسرائيل بعد ذلك لتعلن انها تريد السلام . . وتعلن استعدادها للتفاوض مع اي طرف عربي . ولا ترفض الا منظمة التحرير وحدها . والواضح ان اسرائيل لا تريد الا اقتناص اي طرف عربي آخر تجري معه صلحا منفردا لتزيد من تفتت الجبهة العربية وضياع كل الآمال الفلسطينية .

واذا كان تحرك اسرائيل على الساحة العربية يبدو مشبوها فانه على الساحة الدولية يجد الدعم والتأييد! وكل الذي يجعل تحركها على الساحة العربية بهذا المستوى هو الخوف وحده من تهمة الخروج عن الصف العربي . وهناك كثيرون لا يملكون جرأة السادات ولا خبثه السياسي الذي مكّنه ان يعلن عن دخوله في صلح منفرد مع اسرائيل . ويوم ان ذهب السادات لزيارة القدس كان يعلم جيدا اية عاصفة سيقابل بها من العرب ولكنه كان قد حزم امره واستند على الوسادة الامريكية المريحة وضلل الرأي العام . . .الذي، ان لم يكن قد أيدّ خطوته، فأنه لم يستطع ان يفعل شيئا ملموسا . . لقد وعد بالرخاء والنعيم الذي لن يتحقق الا بالصلح مع اسرائيل لتحويل كل ميزانية الحرب لقوت الشعب .

وصدقه الشعب المصري الذي طالت به المعاناةوالضنك لدرجة انه رأى ان لا بأس من مصالحة اسرائيل فالرئيس وعد بالرخاء وانتهاء المعاناة! .

وكلمة السلام جميلة . . ولا يستطيع احدان يرفضها . وقد دخل السادات من بوابة السلام المزدانة بالزهور للحصول على الرضا عن خطوته مذكرا بكل الحروب التي خاضتها مصر وبالويلات التي عادت عليها من الحروب وبالشهداء الذين خرجوا من كل بيت .

والغريب ان بعض العرب يقومون بما قام به السادات ولكن في الخفاء! وهذا هو ما يضر بهذه الامة اكثر من أي شيء آخر . فهناك اتفاقات سرية عقدت وهناك مفاوضات جرت . . وكان الثمن دائما هم الفلسطينيون! لقد دار كل ذلك من حولهم وهم في قلب العالم العربي . . فلا عجب ان يكون نفوذ اسرائيل على الساحة الدولية اكبر واعظم خاصة وهي تحالف اكبر واقوى واغنى دولة في العالم .

وقد وقفت امريكا منذ اللحظة الاولى مع اسرائيل . . ولا احد ينكر الضغوط الجبارة التي بذلتها الولايات المتحدة من اجل تمرير قرار التقسيم من بين عيون مندوبي العالم كله عندما كفلت له الاغلبية بصوت واحد! .

وقـد حظت الحركة الصهيونية منذ بدايتها بتفهم وتأييد ساسة الغرب جميعا الى ان اصدر بلفور وعده المشؤوم فتضافرت كل القوى لانجاحه!.

وان كانت بعض الدول الاوروبية قد تباعدت بعض الشيء عن هذا الكيان السرطاني الذي ولد ولادة غير شرعية فلأن امريكا كانت دائما هناك بكل طاقاتها وامداداتها المعنوية والمادية والعسكرية من حول هذا الكيان. واعتمد هذا الكيان على ما لليهود الامريكيين من ثقل اقتصادي لاستغلال نفوذهم بالالتفاف حول امكانيات الولايات المتحدة المهولة لتكون كلها مسخرة لمصلحتهم.

ونجحت اسرائيل في ان يمنع عنها النفوذ الامريكي دائما اية ادانة او اي انذار او حتى اي لوم يصدر او يوجه لها من مجلس الامن او هيئة الامم حتى اشتهر الفيتو الامريكي بأنه الدرع الواقي الدائم الذي يحمي جسد اسرائيل!.

واغرقت اسرائيل الساحة الدولية بدعوى الاضطهاد الذي لاقاه اليهود على ايدي النـازيين. واستلبت بعقـدة الاضطهاد هذه اموال المانيا كتعويض عن المحنة التي عاشها اليهـود على يد هتلر. وانسـاقت الدعايات الصهيونية خلف هذه الاسطورة حتى اغرقت اوروبا كلها بهذا الاحساس لتتكون نظرة عطف دائمة تجاه اليهود الذين يناضلون لايجاد مكان لهم تحت الشمس!.

ورغم ان الدعاية الصهيونية قد سيطرت على العقول طويلا بأن لليهود حقا يجب ان يحصلوا بموجبه على وطن يجمعهم.. فقد استغلت بعض الدعايات العربية الساذجة لتأكيد هذه الفكرة. لقد حاول الصهاينة دائما تصوير العرب أقوياء بحيث يهدد وجودهم الضئيل في وسط هذه القوة العربية الهائلة المحيطة!. واعتمدت الدعايات على اقوال بعض المتهورين الذين لا يملكون الا الكلام ـ من ان اسرائيل يجب ان تلقى في البحر او ان تُمحى من على ظهر الوجود.

وقد اكسبت هذه الدعايات المغرضة وجهة النظر الصهيونية مزيدا من التأييد انطلاقا من مبدأ حقوق الانسان في العيش والحرية. ساعد على ذلك حالة من الخمود والركود في الاعلام العربي ادت الى عدم النفاذ الى الرأي العام العالمي الذي استطاع اليهود اكتساب عطفه وتأييده!.

ولكن اسرائيل خسرت كثيرا من التـأييد الدولي حين تكشفت مطامعها التوسعية ومواقفها العدوانية.. وتكرر عدوانها على جيرانها. واطّلع العالم على نواياها التوسعية وعلى عدم اقتصارها على حدود معينة تقبع راضية خلفها كأي دولة اخرى.

وقد خسرت اسرائيل كثيرا من الرأي العام العالمي بعد حرب ١٩٦٧ وقطعت دول

كثيرة علاقاتها معها الى ان يتم نزوحها عن الاراضي التي احتلتها بعد هذه الحرب. وصدر القرار الشهير (٢٤٢). . يقضي بأن تنسحب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها بعد الحرب وان يعترف بحق وجودها خلف حدودها التي كانت لها قبل الحرب.

وبرغم قبول الدول العربية المعنية بالامر بهذا القرار الا انه لم يجر تنفيذه ولم تنسحب اسرائيل عن الاراضي العربية، بل اعلنت رسميا ضمها اليها. . واعلنت القدس عاصمة لها رغم معارضة كثير من دول العالم. وانشأت كثيرا من المستعمرات على الاراضي المحتلة.

ومع ذلك، فان هذا القرار يقف عقبة سوداء في طريق الجهود التي تبذل حاليا لاحلال السلام! . وظل نقطة خلاف من حيث الضغوط التي تجري على منظمة التحرير الفلسطينية التي رفضت الاعتراف به لانه لا يحقق امانيها الوطنية ولا يتعلق من بعيداً او قريباً بالقضية الفلسطينية ولانه بتجاهلهم تماما وحصر كل افراد الشعب الفلسطيني تحت تسمية لاجئين! .

وأدى تعاطف وتأييد الولايات المتحدة اللامحدود تجاه اسرائيل الى خلق حالة من الشعور بالتفوق والغطرسة. اذ ان اسرائيل أصبحت تفعل ما تريد ان تفعله دون الخشية حتى من توجيه اللوم اليها. ولانها ايضا وبالمد والعون الامريكي تتفوق عدة وعتادا فضمنت التفوق العسكري. واصبحت هي القوة المسيطرة عسكريا على المنطقة كلها. وانكمشت جاراتها العربية خلف حدودهن تلهث كل منهن خلف اي صفقة سلاح تلوّح بها اية دولة من الدول الغربية وتحتج من اجل ذلك عليها او تمنعها المجالس النيابية داخل هذه الدول لانه يخشى ان تستخدمها الدولة العربية ضد اسرائيل او لان هذه الدولة العربية لا تبدي تفهما للسلام من وجهة النظر الامريكية ـ الصهيونية! .

ويعلم الله ان كان العرب يفكرون باستخدام السلاح ضد اسرائيل ام لا لكنهم يكدسون السلاح لعل مجرد السمعة بأنهم يمتلكونه تدرأ عنهم شر اسرائيل! والمعروف جدا ان السلاح لا يضرب من تلقاء ذاته. . فأي خطر اذن يكون على اسرائيل مادامت ليس هناك ايدي تستعمل هذا السلاح! .

## ❋ ما بعد لبنـــان

اذا قلنا ان هذه هي الملابسات والظروف التي تحكم الصراع العربي - الاسرائيلي. فلابد ان يقفز الى اذهاننا السؤال الاول الذي طرحناه في البداية. وهو تساؤل العالم عن «ياسر عرفات» ماذا يريد.. وكيف يحاول تحقيق ما يريد؟.

ولعل هذا التساؤل المطروح من العالم كله يجعلنا نحدد اكثر السؤال حول «عرفات»... اين كان «عرفات» من كل هذا؟ رأيناه يخرج من بيروت ليزجَّ بعد قليل في معركة طرابلس. ثم يخرج من طرابلس ومن لبنان كلها ليستقر في الهواء حيث تعصف من حوله الريح بشدة لتضعه على مفترق الطرق من جديد. فقد ضاعت مكاسب عديدة من يد الثورة الفلسطينية ناضل «عرفات» سنوات وسنوات في محاولة الحصول عليها. وقد حاول ان يطبق بأسنانه عليها.. ويغرس فيها اظافره تشبثاً.. ولكن الضغط كان اكبر وأقوى!.

اذن بدأت بعد لبنان مرحلة جديدة ومختلفة عن كل ما سبقها. فلم يحدث من قبل ابدا ان ابتعدت الثورة عن حدود ارضها السليبة.

وحتى الخروج الدامي من الاردن بجسد الثورة الجريح كان يتسم ببعض الامل في وجود جبهات عربية لتقبل هذا الكيان بغض النظر عن كل القيود والشكوك التي كانت توضع حوله. ولكن كانت كل الجبهات العربية مازالت مفتوحة. فقد كانت هناك مصر بكل فاعليتها على الساحة العربية واحتضانها للثورة الفلسطينية. وكان هناك لبنان بكل تعاطف جماهيره مع الثورة الفلسطينية.

وان كان البقاء في لبنان قد كلفه معارك ومعارك مع السلطة اللبنانية نفسها الا انه كان يجد العوض كل العوض في ذلك التلاحم الشعبي بين المقاومة وجماهير الشعب اللبناني.

اذن الخروج من الاردن ورغم كل مظاهره المأساوية الا انه كان افضل من ذلك الخروج من لبنان!.

الخروج من لبنان كان الى الفراغ! حقيقة كان الى الفراغ. فكل الجبهات اصبحت موصدة في وجه هذه القوة المقاتلة. فقد ضاعت الجبهة الاردنية منذ الخروج في عام ١٩٧٠. بل ان الهدوء الذي غمر الجبهة الاردنية طوال كل هذه السنوات لم تتمتع به جبهة اخرى. وكان هناك استحالة ان تعود تلك القوة المقاتلة لتحرك هذه الجبهة وتقلق السلطة مرة اخرى!. أوصدت الجبهة المصرية بمعاهدة سلام أمن بها العدو الاسرائيلي على نفسه تماما بعد ان فصلته عن منطقة منزوعة السلاح. واقفلت مصر ابوابها في وجه هؤلاء الخارجين من لبنان فالمعاهدة تكبلها وتمنعها حتى من استضافتهم على اراضيها!.

وأُقفلت الجبهة السورية تماما وكذلك الحدود السورية بعد ان احتضنت دمشق رؤوس الانشقاق وسمحت لهم بالبقاء فوق اراضيها لتستخدمهم في التغطية، فباعوا كل شيء في

سبيل الحصول على المسكن والمأوى. فلاشك ان مرحلة الخروج من لبنان اوجدت نوعا من التشتت جديدا وقاسيا في نفس الوقت. . وكان الاستقرار في سوريا حلما لكل من تضطره الظروف لمغادرة لبنان. . فباعوا كل شيء امام هذا الاستقرار والخوف من الضياع. وهناك قول منتشر بين الفلسطينيين عن المنشقين. . يقولون عنهم لقد باعوا الثورة مقابل غرفة نوم! .

واذا كان المنشقون قد وجدوا غرفة نوم يهدأون بداخلها. . فان «عرفات» ما كان يفكر بغرفة نوم، وانما كان يفكر بعودة اصبحت الآن ضرورية وملحة! .

لقد كانت العودة منذ النكبة ضرورية وملحة. . ولكنها لم تكن يوما كما هي عليه الآن. فمنذ النكبة كانت هناك كل البلدان العربية مفتوحة. . حقيقة لم تكن البديل. . ولكنها كانت المكان المؤقت. اما الآن وقد أغلق كل مكان مؤقت وعبثت الثورة الفلسطينية في سفن تمخر بها عباب البحر دون ان تعلن جهة معينة رغبتها في استضافتها. . . هؤلاء الملاحون الذين طالت بهم الرحلة وادت بهم في النهاية الى التفرق بين عدد من البلدان ليحيوا حياة الشتات من جديد! .

واستقر «عرفات» نفسه بقيادته في أقصى الغرب من الارض العربية هناك في تونس.

لقد اصبحت العودة ضرورية حقا وملحة. وكان على «عرفات» ان ينظر الى هذه العودة كأمل وحيد لهؤلاء المكافحين.

ولكن. . كان عليه اولا وقبل ان يرنو الى هذا الامل الوحيد المتبقي ان يتجدد. . ان ينفض عنه كل تراكم العذاب. ان ينهض من جديد. . الا يسمح لكاهله ان ينوء تحت ثقل كل هذه الضربات والخسائر. ان يعيد الالتحام بينه وبين هذه الجماهير العربية التي تعودت ان تنظر اليه كأمل وحيد في مواجهة عدوها الذي يخشاه كل من يجانبه. هذه الجماهير التي عز عليها ان يتأى شخص «عرفات» بعيدا عن موقعه الذي تعودوا ان يعرفوه فيه.

ولم تكن المهمة سهلة ولا هينة، انما تتطلب قدرات اكثر بكثير من قدرات البشر. انها تتطلب ارادة القادة، تلك الارادة التي قلنا انها من مميزات «عرفات» القيادية. ولا احد يدري اي جهد واي تصميم واي معاناة تخطاهما «عرفات» ليقفز مرة اخرى الى الواجهة. . والى قلب الاحداث! .

لم يعط الزمن فرصة لكي يطويه او ينسج حوله خيطا واحدا من خيوط النسيان! وانما استبق الزمن وتحدى اليأس وانتصب فوق الجراح وجمع له مركبة من الاثير عادت به الى عيون الجميع. . وان لم يفعل ذلك ما كان هو «ياسر عرفات».

كان يتحتم عليه ان يحاول فتح طريق جديدة ربما تحمله الى نقطة فوق التراب

الفلسطيني يهدأ فوقها بعد طول ومرارة الكفاح.

لقد حمل «ياسر عرفات» السلاح سنوات طويلة.. واستعمله في ظروف مختلفة. ولكنه كان يفاجأ دائما باليد التي تمتد لاسكات البندقية الفلسطينية. وقد يكون هذا الاسكات بسرقة النصر الذي حققته هذه البندقية!.. كما حدث بعد بيروت. لذلك فقد رأى انه ليس بوسعه الاعتماد فقط على قوة ساعده.. واصلا لم يسمح له ابدا الاعتماد على قوة ساعده. فدائما كان تحت الضغوط التي تحاول ان تضعف ساعده ولا تقويه!.

وقادته ديناميكيته المتفجرة الى ان يمد جسورا للعمل الديبلوماسي الذي يتيح له الحركة بشكل اكبر.. فقد خبر بنفسه انه من غير المسموح له ان ينتصر انتصارا عسكريا بعد انتصار بيروت!.. وللأسف لم يكن هذا المنع من عدوه وانما كان من بعض الانظمة العربية التي لم تحتمل ان ينجح «ياسر عرفات» بمقاتليه فيما عجزت عنه جيوشهم التي خاضت حربا مع اسرائيل!. فحين حجبت بعض هذه الدول العربية وعودها ودعمها وسلاحها عن «عرفات» حين كان في الحصار.. ظهر انه من غير المسموح له ان ينتصر انتصارا حاسما على اسرائيل! وفي بعض الدول ترسانات سلاح لا احد يدري لأي غرض تختزن مثل هذه الكميات من الاسلحة.. واذا لم تخرج اثناء حصار بيروت فمتى كانت ستخرج هذه الاسلحة؟!.

والعجيب العجيب حقا ان نسمع بعد الخروج من بيروت اصواتا ترتفع لتقول.. ما كان يجب ان يخرج الفلسطينيون من بيروت انما كان يجب عليهم ان ينتحروا هناك دون الخروج؟.

«ياسر عرفات» يعي هذه الحقيقة جيدا. انه يحارب بمفرده. وهو الوحيد الذي يقول بحرب طويلة للتحرير ولكن كل اخوانه لا يعترفون بهذه الحرب الطويلة لانها ارهقتهم!.

لقد استمرت حرب ١٩٧٣ ستة عشر يوما وبعدها بُسط طريق المفاوضات الطويل الذي ادى الى كامب ديفيد في النهاية،لذلك فهو يعرف ان حربه الطويلة ستكون من صنعه فقط.. وفي نفس الوقت لن يُسمح بها!.. لان الحرب الطويلة تتطلب السلاح والمعدات وقد ابتلعت الدول العربية كل وعودها واكتفت بدور المتفرج الذي يمتنع حتى عن التأييد!.

وهكذا أيقن «ياسر عرفات» انهم سيسدون عليه دائما طريق الحرب والنجاح وتلفت حوله فلم يجد جبهة واحدة يستطيع ان يتقدم منها فقد اغلقت كل الحدود.. وضاقت الحلقة بشكل لم يسبق له مثيل. وكان عليه اولا وقبل كل شيء ان يخوض معركته لاثبات الوجود التي لابد وان تحمله الى ركوب الصعب بعد ذلك. فكان عليه الرد على هؤلاء الذين حاولوا التشكيك بمصداقيته ويثبت نفسه رئيسا منتخبا انتخابا حرا ديمقراطيا من جديد للجنة

التنفيذية لمنظمة التحرير وحتى يبدأ التحرك مستندا على شرعية مجددة تثبيتا لكل دعائم العمل الفلسطيني .

وقد تابعنا بجانب «ياسر عرفات» معركة المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السابعة عشر والتي احتضنتها عمان عاصمة الاردن . وكنا شهودا على شدة المعركة وعلى قوة صمود الرجل وعلى التأثير الشعبي الجماهيري اللامحدود الذي يمتلكه على جماهير الشعب الفلسطيني . لقد كان نجاحه في هذا المجلس بالذات اكبر تحد لكل من حاولوا او يحاولون التشكيك بزعامة «ياسر عرفات» .

وباحتضان عمان لدورة المجلس الوطني ظهرت بشائر تقارب جديد بين الاردن ومنظمة التحرير . تلقفها «عرفات» بكل ما عُرف عنه من قدرة على الالتقاط والتوقع . فقد كانت طوق نجاه وقفزة موفقة تأتي به من اقصى الغرب الى قلب التواجد المكثف للشعب الفلسطيني .

وكان خطاب الملك حسين في المجلس الوطني الفلسطيني خطة عمل مشتركة تسير بالاردن والمنظمة بتنسيق مشترك في سبيل الحل والتسوية .

وقد قوبل «عرفات» بحملة قاسية ايضا للحصول على موافقة لجنته التنفيذية واللجنة المركزية لحركة «فتح» على هذا التنسيق بعد ان كان قد وقع اتفاق عمان الشهير في «فبراير» عام ١٩٨٥ . واعتبرته سوريا والمنتمون اليها حلا انهزاميا استسلاميا وطالبوا باسقاط «عرفات» لانه يسير على نهج كامب ديفيد .!

وتمسك «عرفات» باتفاقه طارقا كل الطرق لذلك من محاورةونقاش وشرح وتفصيل . . الى ان استطاع ان يقرّه وتهدأ من حوله النفوس . وبمرور الوقت ظهر ان هذا الاتفاق كان خطوة موفقة على طريق الحل الذي ربما وضع منظمة التحرير على طاولة المفاوضات مع امريكا واسرائيل بمساواة كل الاطراف واذكر اني سألت «ياسر عرفات» عن حقيقة هذا الاتفاق الذي اثار كل هذه الضجة . فقال ببساطته المعهودة : «انه التحرك الديناميكي لمقررات فاس التي وافقت عليها كل الدول العربي . انه يتيح لنا حرية الحركة في انشاء الدولة الفلسطينية التي تدخل في اتحاد كونفدرالي مع الاردن .

قلت : لماذا اذن يرفضون؟ . . قال : لانهم يحبون الظهور بمظهر المتشدد . ويتصورون ان الرفض يسبغ عليهم هذا المظهر . الرفض عندهم وسيلة . وهل يعقل ان أفرّط انا بأي مطلب ثابت من مطالبنا الاساسية؟ . . وعلى كل ستثبت لهم الايام صحة وجهة نظري .

وأثبتت الايام صحة وجهة نظر «عرفات» حين تنبه الجميع فاذا بهم لا يملكون الا هذا الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني الذي اعطى للمنظمة ظهورا حقيقيا على الساحة السياسية

بعد غياب كان لابد ان يكون مفروضا بعد الخروج من لبنان .

وكانت معركة الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني هي ثاني معارك اثبات الوجود بعد الخروج من لبنان الذي كان يفرض على منظمة التحرير ان تضرب في التيه وتضل في دروب العزل . . فاذا بها تثبت نفسها شرعيا وسياسيا على الساحة كأهم اطراف النزاع ! .

ولم يكن بالطبع الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني هو اول تحرك باتجاه السلام . ولكنه كان اوضح تحرك في المرحلة الاخيرة . . مرحلة ما بعد لبنان وهو الوقت الذي يعلو فيه صوت المنادين بالسلام اكثر من اي وقت آخر .

وقد كان «ياسر عرفات» ، ينادي منذ زمن بالسلام الذي سيعم المنطقة لو تمكن شعبه من نيل حقوقه وأرضه وخلص من معاناة الاستعمار . . ولكنه كان . . صوتا في واد ! .

لم يلتفت له احد . . وضاع صوت المنادي بالسلام في غمار الحرب المعلنة عليه من جميع الاطراف . وما كان ليستطيع ان يتفرغ لمباحثات سلام او مفاوضات بينما تضربه الطائرات وتقذفه الصواريخ ! .

اما في هذه المرحلة الاخيرة فقد هدأت الحرب المعلنة بعض الشيء بعد ان تحالفت كل قوى الشر لتسحب من تحت اقدامه الارض والموقع . وأُعلنت عليه الحصار السياسي بعد فشل الحصار العسكري .

# * ياسر عرفات،

# اين انت من المتغيرات

كان لابـد لنـا ان نسمعه يتحدث عن السلام الذي يتحدث عنه الجميع في هذه المرحلة. ولانه الرجل الوحيد الذي يرى خصومه انه العقبة الوحيدة في سبيل اقامة سلام عادل وشامل في المنطقة! والسلام العادل في نظرهم هو الذي يسقط منظمة التحرير من المعادلة حتى لا يكون للفلسطينيين من يمثلهم او يتحدث عنهم.

وحينها خرجت منظمة التحرير من بيروت تحت كل الضربات التي وجهت اليها.. حاصرتها المؤامرات فيها قلنا عنه الحصار السياسي. و«عرفات» لا يستسلم تحت اي حصار ـ فله القدرة على النفاذ من اي سياج مضروب من حوله لشل حركته. لذلك كان لابد لنا من ان نجلس اليه طويلا ونسمع منه كثيرا عن السلام وتلك المرحلة الحرجة التي تمر بها منطقة الشرق الاوسط كلها. والمرحلة الاحرج التي تمر بها منظمة التحرير نفسها.

قلت له: اريد ان نتحدث معا عن السلام.. والكل لا يتحدث الآن الا عن السلام ومحاولة احلاله.

قال: «هات اسئلتك». قلت.. بدون اسئلة اريد ان اسمع منك عن كل شيء. لتتكلم بطبيعتك وبعد ذلك تأتي مرحلة الاسئلة. هناك استفسارات كثيرة اريدها على مدى هذا الباب لا يمكن ان احصرها في صورة اسئلة ولكن اريد ان اعرف توجهاتك منذ البداية عنـدما قمت بانطلاقتك الثورية.. ما الذي كان يدور بذهنك وتصوراتك بشأن الحرب والسلام. وما هي المتغيرات التي كانت توجهك نحو كل منهما اكثر من الآخر.. وما هي تطلعاتك ونظرتك لما سيأتي او ستنتهي اليه؟. فقال ضاحكاً، «كل هذا وتقولين انك لن تضعي اسئلة؟».

فقلت: لا يسـع الانسان حين تتاح له الفرصة ان يستمع اليك الا ان يجمع كل الاسئلة التي يمكن ان تخطر على بال ليسمع عنها منك.

ولكن الرأي الذي لم يسمعه «ابو عمار» مني هو ما قلته لنفسي تكملة لهذا الكلام وهو: لانك القطب الاهم في كل دوائر الصراع ولانك بشخصك تحيرّ العالم اجمع ويقف مبهوتا امام ظاهرة اسمها «ياسر عرفات».. لا يدركون تماما سرها الخفي الذي يمكنها من البقاء والاستمرار طوال هذه المدة وبنفس القدر من التألق والبريق!.

جمعتني واياه رحلة داخل الطائرة الى رومانيا.. وعلى مدى ساعات طويلة اردت ان استغلها للتحدث معه.

ولكنني علمت انه يفضل النوم في الطائرة خلال ساعات الطيران الطويلة حتى يتمكن من البقاء على قدر من النشاط النفسي والجسدي فور وصوله.

ولكن هذه الطائرة كانت ذات صوت مزعج بطريقة عجيبة. ولم يحدث ان رافقته من

قبل في مثل هذا النوع من الطائرات. ويبدو انها كانت من طراز الاليوشن القديم الذي يصدر وحده مثل هذا الصوت. وقد مرت بنا ساعات طويلة في انتظار الاقلاع نظرا لتوقفنا في مطار بغداد الذي لم يستطع اعطاء امر المرور المباشر نظرا لظروف الحرب. وكنا قادمين من عمان بعد ان مكثنا حوالي ساعة رابضين في مطارها انتظارا للاذن من بغداد للمرور في مجالها الجوي. وحين تعذر الحصول على هذا الاذن طار بنا قائد الطائرة بعد ان جاء ليخبر الرئيس بأنه سيطير ويهبط في مطار بغداد في انتظار الاذن. وحدث ان بقينا في مطار بغداد اكثر من ثلاث ساعات في الانتظار بينما كان يحاول الرئيس بنفسه اجراء الاتصالات مع المسؤولين حتى جاء الوعد المنتظر بالمرور فكان من الطبيعي ان يلتمس بعض الوقت للراحة.

والحقيقة اننا كنا جميعا على درجة من الارهاق لا تسمح لأي منّا بالتحدث او السماع.

وقبل ان يأوى الى النوم قال لي اظن رحلة العودة ستكون أنسب لمثل ما تريدون.
فقلت اظن ذلك بالفعل.

ودخل «عرفات» لينام.. ورفعوا درجة حرارة الطائرة استجابة لعاداته في النوم اثناء السفر في اية رحلة. وغمرتنا جميعا السخونة الشديد واصبحنا نغظ في العرق كالبيض المسلوق بينما يسترخي هو في ساعات النوم الدافئة على نغمات زئير الطائرة المزعج!. وكانت ساعات عذاب بالنسبة لي.. وقد حسدت الجميع من حولي اذ سقطوا جميعا في النوم وبقيت وحدي في جحيم الحرارة والصوت الى ان فقدت الوعي لمدة ساعة واحدة كانت الساعة الاخيرة للرحلة بعد ان انصهرت اجزائي من الحرارة وتحطم رأسي من وقع الصوت. وفتحت عيني لأجده امامي نشطا لامعا يقول صباح الخير هل نمت جيدا؟ ولم استطع الا ان اهز رأسي موافقة بما يفهم منه انني فعلا قد نمت جيدا!.

ولكنه في رحلة العودة.. دخل لينام بعد ان وعدني بانتصاف زمن الرحلة مع النوم.. واستعديت انا لساعات العذاب الساخنة مرة اخرى. ولكنه عاد بعد قليل ليقول.. لم استطع النوم من صوت الطائرة!. وكأنه قد نسي انه قد نام طويلا في الرحلة الاولى مستمتعا بهذا الصوت نفسه. ويبدو انه لم يستطع النوم لاننا كنا مازلنا في الصباح بعد انقضاء ساعات الليل التي ربما يكون قد نام جيدا خلال بعضها.

جلس بجاني وقال: «فلنتحدث كما شئت».

قلت له كثيرون لا يتصورون انك داعية سلام. ويتصورون ايضا انك لا تختار الا الحرب والعنف.. وانك تريد ان تمحو اسرائيل من الوجود او تلقيها في البحر كما كان يقول صناديد العرب فأين انت من كل هذا؟.

قال مبتسما بمرارة: ربما لكل هذه الادعاءات التي سقتها «عندما نبحث عن السلام وننادي به . . فليس هذا جديدا علينا كثورة فلسطينية وكشعب فلسطيني فنحن لا نقاتل من اجل القتال ولسنا مرتزقة ولا باحثين عن الحروب . ولكننا حملنا السلاح لمواجهة الظلم والاضطهاد والاحتلال الذي واجه شعبنا والاعتداء الذي حدث على ارضنا ومقدساتنا والعالم كله يعلم ذلك . وكان معظمهم شهودا على المأساة .

ووافق اصحاب القدرة على ان تنزرع هذه الدولة شوكة في قلب فلسطين مانحين لها هذا الحق بقرار تقسيم .

ووافقوا ايضا حين رأوها تكتسح حدود التقسيم وتجري المذابح وتستولي على الارض الفلسطينية وتقتلع الناس من فوق ارضهم . لذلك كان حمل السلاح وقد قمنا بثورتنا من اجـل ان نجد لشعبنا مكانا تحت الشمس . . مكانا يعيش فيه شعبنا ويعيش فيه اطفالنا بحرية وكرامة . . مكانا يستطيع ان يمارس فيه شيئا من حريته وسيادته وكرامته .

وليس من قبيل الصدف انني قلت في اول خطاب توجهت به الى العالم في عام **١٩٧٤** من فوق المنبر العالمي في الامم المتحدة لقد جئت اليكم بغصن الزيتون في يد . . اشارة الى هدفنا . . اشارة الى رسالتنا للسلام في ارض السلام في فلسطين . قلت غصن الزيتون في يد والبندقية في اليد الاخرى لتحمي غصن الزيتون ولكي ندافع عن غصن الزيتون ولكي نثبت السلام في ارض السلام . وعلى هذا الاساس كانت حركتنا . . وكان نضالنا . كان من اجـل اقرار السلام في العالم . ونحن في هذا لسنا مجردين وانما ننطلق من تقاليدنا العربية الاسـلامية . فديننا هو دين السلام ـ وانا كمسلم ومؤمن أدين بهذا ـ وتحية الاسلام هي السلام . . السلام عليكم .

وعندما حملنا البندقية حملناها لاننا شعب وجه بأخطر مؤامرة في تاريخ الشعوب . مؤامرة انتزاع شعب من ارضه واحلال آخر محله ! . . هذه المؤامرة الصهيونية الامبريالية التي تزعمتها وحمتها اولا الامبريالية الاوروبية ثم حمتها بعدها وللآن الامبريالية الامريكية . »

كان يتكلم ويتضح الالم على وجهه فأردت ان ان اخفف من وقع الاحساس بالظلم وقلت له : لماذا تظن «ابو عمار» ان الامبريالية الاوروبية وقفت خلف فكرة هذه الدولة . . ولماذا ارادت لها ان تقوم وفي هذه البقعة بالذات ؟ .

قال بانفعال : «الهدف واضح وهو عدم السماح لظهور قوى اخرى في العالم . وحين رأوا هذه المنطقة تملك كل المقومات التي يمكن ان تجعلها تتجمع تحت اسم واحد وبهدف واحد . ارادوا ان يزرعوا فيها القلاقل حتى تبقى ابدا تحت سيطرتهم وحقلا لنفوذهم وكان ذلك عن طريق تلك الحربة التي غرسوها في المنطقة فجعلوا هذه الدولة على رأسها .

ولو استرجعنا بدايات هذا التفكير لوجدناه عند نابليون! نعم كان نابليون اول من فكر من اوروبا بانشاء هذا الكيان الصهيوني في بلادنا. نابليون بونابرت هذا القائد الشغوف بالشرق والذي اراد التغلب على اوروبا كلها وبالذات خصمه اللدود بريطانيا عن طريق الاستحواذ على الشرق وضرب المصالح الانجليزية خاصة والاوروبية عامة به. فحين وقف هذا القائد الطموح عاجزا امام عكا وهزمته اسوارها. . حين تحطمت احلامه بالاستحواذ على هذا الفردوس هناك امام اسوار عكا المستعصية فكر نابليون انه لابد من زرع كيان دخيل على هذه المنطقة من العالم حتى يكسر ذلك الامتداد الكبير لوطن يتكلم كله لغة واحدة ويدين بديانة واحدة. كان نابليون اول من فكر في زرع هذا الكيان الدخيل حتى يفصل بين جناحي الجسم العربي. . الجسم العربي في آسيا والجسم العربي في افريقيا. وكان هذا عقابا لشموخ عكا بأسوارها امام نابليون.

ثم جاءت الامبريالية الالمانية التي كانت حليفة في وقت من الاوقات مع السلطنة والخلافة العثمانية. وحاولت ان تساعد في خلق هذا الكيان رغم تقربها من السلطنة.

وحين بدأت هذه الحليفة الثانية اي الامبريالية الالمانية في الضعف والتراجع انتقلت الحركة الصهيونية الى طلب الحليف القوي ووجدته في سيد غربي جديد هو بريطانيا. . وكان ما كان. وبعد ظهور الامبريالية الغربية الجديدة بقيادة بريطانيا وفرنسا.

كان اول شيء فعلته بريطانيا باعتبارها الموجه الجديد لهذه البذرة الصهيونية هو اعلانها وعد بلفور لانشاء الوطن اليهودي في جسم هذه الامة العربية وفي فلسطين بالذات!.

وكما ترين فالفكرة الصهيونية ما كان يمكن لها ان تعيش الا باستنادها على قوى كبيرة تدعم وجودها. . فهي كما قلنا بدأت بفكرة تبناها نابليون ثم حاولت ان تعيش وتنمو من خلال الامبريالية الالمانية، ثم انتقلت الى السيد البريطاني الجديد الذي ساد في ذلك الوقت.

ثم بعد ذلك انتقلت الى سيدها الجديد وهو الامبريالية الامريكية!. وليس من قبيل الصدف ان اول مستعمرة انشئت في بلادنا كانت بتفكير ودعم وبأموال امريكية!. اذن هذه الفكرة التي نشأت في بلادي عبر هذه الفترات المتعاقبة يجب ان نضعها في اذهاننا لانها جزء لا يتجزأ من هذه الحرب المعلنة علينا كأمة عربية تمثل فيها الحركة الصهيونية اولا ثم الدولة الاسرائيلية بعد ذلك رأس الرمح لهذه الاطماع الامبريالية الغربية الامريكية والتي تتمثل الآن بالسيد الاساسي لها والجديد وهو السيد الامريكي.»

وللمرة الثانية اردت ان اقطع عليه اندفاع الكلمات المؤلمة لأمنحه وقتا لالتقاط الانفاس وقلت. . تقصد انها دولة عميلة؟ قال باندفاع اكثر: «طبعا دولة عميلة بلا شك. . والا ما

قولك او وصفك لدولة تتضافر مثل هذه القوى على انشائها وانمائها واستمرارها ان لم يكن هناك مصالح محتمة لهذه الدول . . والا لماذا تتكلف مثل هذا الجهد؟ . . ونحن حين نقول هذا الكلام فلأنها دولة اصطناعية تشكل في جسم امتنا العربية رأس جسر لهذه الامبريالية العالمية .

وهذا من سوء حظنا أو من حسن حظنا نحن الفلسطينيين ان هذه الغزوة الجديدة الغـزوة الأوروبية الامـريكية الجديدة في بلادنا التي هي امتداد للغزوة الصليبية ـ وكلمة الصليبية هنا هي تعبير او لفظ استخدمته اوروبا . اما اجدادنا نحن فقد استخدموا كلمة حرب الفرنّجة وليس «حرب الصليبيين» ـ ولو سألنا لماذا؟ . . لقلنا لأن المسيحيين في بلادنا قاتلوا هذه الغزوة وقالوا انها غزوات للفرنجة اعتبروها غزوات دخيلة ولو انها حملت في لحظة من اللحظات شعار الصليب مستترة خلفه تماما كما تحمل هذه الغزوة شعار نجمة داوود . . وهي أبعد ما تكون عن اليهودية . ولذلك فكثير من اليهود العقلاء والمتفهمين لطبيعة هذه الغزوة يرفضون هذا الفكر الصهيوني الذي هو فكر استعماري وهو فكر يعتبر امتداداً لهذه الامبريالية التي تغرس اظافرها الآن ليس فقط ، في الجسم الفلسطيني ولا في الجسم العربي ولكن في منطقة الشرق الاوسط بل في آسيا وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ! .

من هنا نحن نقول حين اطلقنا الشعار الذي قلت فيه : ان هذه الثورة الفلسطينية هي ثورة فلسطينية الوجه عربية القلب عالمية الامتدادات والجسور والابعاد . كنت أعني بهذه المقولة كل هذا الشرح الذي قلته او ملخصا بها كل ما قلت .

اذن عندما حملنا السلاح لم نحمله حبا في الحرب ولكننا حملناه لاننا نريد ان نعيد السلام الحقيقي الى ارض السلام ارض الانبياء والرسل وارض الرسالات مهد المسيح عليه السلام ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام» .

ولم استطع ان اكتم السؤال : ربما لذلك يعتبر اليهود ان لهم حقا في هذه الارض التي كانت ارض الرسالات السماوية شأنهم شأن الديانات الاخرى؟ .

قال بحماس شديد : «عندما انطلقت ثورتنا قلنا إننا نريد ان ننشيء دولة ديمقراطية يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود كما كنا نعيش عبر السنوات الطويلة الماضية . نحن نريد ان نتعايش مع الجميع والا تقوم الدولة على اساس عرقي بهذا الشكل . وطبعا هذه الفكـرة تنقض نقضـا اسـاسيا الفكرة الصهيونية في خلق عداء يهودي مجسم بعقيدة وتضرب هذا الفكر الصهيوني من اساسه . ولذلك حوربت الفكرة التي اطلقناها عام **١٩٦٩** والتي قلنا فيها هدفنا إنشاء الدولة الفلسطينية الديمقراطية التي تتعايش فيها كل هذه الاديان التي هي سمة الحضارة في هذه المنطقة . سمة الحضارة الاسلامية . . . فالاسلام تعايش مع

المسيحية وتعايش مع اليهودية. ومن لم يؤمن في الاسلام بعيسى فهو ليس مسلما.. ومن لم يؤمن بموسى فهو ليس مسلما».

وهنا يتدخل «هاني الحسن» في الحديث وكان يحضرنا.. احب ان اضيف ملحوظة صغيرة هنا.. ولكنها مهمة جداً. وهي متى أول مرة أُعلنت فيها الدولة الديمقراطية كحل او كمطلب. التوقيت هنا مهم جدا. لان هذا المطلب جاء مباشرة بعد انتصار معركة الكرامة. بعد هذا النصر طرحنا مطلب الدولة الديمقراطية وليس بعد هزيمة. اذن هو السلام المنتصر. نطلب السلام ونحن منتصرون!.

اضاف «ابو عمار».. «وفي وقت كان كل الناس يتكلمون عن الثأر بسبب هزيمة ٦٧ ونحن الذين اعطينا الأمة العربية اول انتصار، بعد هزيمة ٦٧. فأضاف «هاني الحسن» اول انتصار..واول حل انساني للقضية هذه نقطة مهمة كثيرا واساسية».

سألت: أتعتبر مناداتك بهذه الدولة الديمقراطية اول خطوة من خطوات السلام الذي طرحته؟.

قال: «نعم.. والا ماذا تسمينها؟. لقد رفعنا شعار الدولة الديمقراطية هذه عام ٦٩، وكنا مازلنا حديثي العهد من انطلاقة الثورة.. وهذا يدل تماما على اننا لم نكن دعاة حرب.. وانما نحن دائما دعاة سلام. فمعنى وجود هذه الدولة الديمقراطية ان يعم السلام على الجميع ويعيش الجميع تحت ظل دولة واحدة وانا اعتبر ان هذه الفكرة كانت أكبر مشروع سلام أسقطه اعداء السلام الذين يصرّون على ان تقوم دولة عنصرية عرقية تضطهد المختلفين عنها.

ولو لاحظت ان وعد بلفور لم يشر الى عرب فلسطين الا تحت تسمية الاقليات الدينية الاخرى!.. معنى ذلك ان اساس الدولة نفسه عقائدي عنصري بحيث جرى التقسيم على هذا الاساس والا لماذا لم يذكر الوعد مثلا عرب فلسطين باسم الوطنيين الاصليين او سكان البلاد الاصليين؟.. لماذا حددهم فقط بتسمية الاقليات الدينية الاخرى رغم انهم كانوا ليسوا أقلية بل كانوا هم الاغلبية.. وارجعي الى كل الاحصائيات ذلك لان الاساس الذي قامت عليه الدولة الصهيونية عرقي عنصري».

قلت له بأسى: وهذا فرق بين الدولة التي قامت.. والدولة التي كنتم تدعون إليها انتم.

قال: «نعم.. فبالله عليك اي الاثنتين تكون دعوة للحرب وايهما تكون دعوة للسلام؟!».

قد اكون اطلت.. ولكن اردت بهذا ان اعطي الابعاد الحقيقية والجذور الحقيقية

لفكر الثورة الفلسطينية والذي قلنا فيه بالدولة الديمقراطية. ولماذا حاربت امريكا.. وحارب الغرب وحاربت الصهيونية هذا الفكر في الوقت الذي آمن به بعض اليهود!.

وبعض اليهود الذين يتواجدون الآن في السجون في الوقت الذي تخف فيه هذه المطالبة بالدولة الديمقراطية الفلسطينية يرفضون!. حقيقة انهم مجموعات قليلة داخل الثورة الفلسطينية ولكنهم تعبير عن هذا النهج.

والكل يعلم ان الصهيونية حركة سياسية عنصرية. بعض المفكرين اليهود امثال جارودي وبعض الطوائف اليهودية مثل ناتوري كارتا التي تقول ان هذه الحركة الصهيونية هي التي افسدت اليهودية! وافسدت تراث اليهود كدين لاننا لا نستطيع ان نقول ان اليهودية تستطيع ان تخُرج شعبا.. واذا كانت اليهودية قد نشأت في بلادنا عند بعض القبائل السامية.. فاليهودية التي نشأت في دولة الخزر نشأت بعيدا عن السامية. فالخزر ليسوا بساميين! ولذلك من يقول انهم شعب واحد بسلالة واحدة غير صادق، وليس صحيحا... ولكنهم ديانة وهذا شيء مهم جدا للمفهوم الذي يحاول ان يشوه الحقائق.

ولا يعتبر هذا الكلام خروجا عن موضوعنا الاساسي... ولكن اردت ان اعطي هذا الشرح للوضع كله.

لماذا حملنا السلاح؟ واجابة على هذا التساؤل أقول من اجل ان نقيم السلام وليس من اجل الحرب. وفي الوقت الذي يتمكن فيه شعبنا ان يستعيد ارضه ويعيش حرا سيدا في هذه الارض دون تمييز في اللون او العرق او الدين نكون قد حققنا جزءا من هذه الرسالة التي حملنا من اجلها السلاح».

قلت: ولكن هل يمكن لهذه الرسالة التي حملتم من اجلها السلاح ان تتحقق في الوقت الحالي؟.

— «نحن نعرف ان الظروف الموضوعية والظروف المحلية والظروف الاقليمية والظروف الدولية تتجمع الآن ويجب ان نتعايش مع هذه الظروف.. ونحن مع تيار التاريخ ولذلك سننجح اما الآخرون فهم ضد التيار.. ضد تيار التاريخ. وحتمية التاريخ تقول اننا سننتصر.. وحتمية التاريخ تقول انهم سينهزمون طال الوقت أم قصر لأن المعركة ليست معركة يوم وليست معركة واحدة.. انما هي معركة حضارية بيننا وبينهم وانا واثق بالنصر وهم يعرفون هذا ولذلك بالرغم من كل عنفوان السلطة وغطرسة القوة التي يتمتعون بها من خلال الدعم اللا محدود الذي يعطى لهم من امريكا ومن خلال هذه الحماية الامريكية المسدلة عليهم علنا وبوقاحة الا انهم في داخلهم يعرفون ان القضية مع الفلسطينيين. والمهم هو الرأي الفلسطيني.. لماذا؟.. لأن هناك عقدة ذنب يعرفون انهم سرقوا البيت وسرقوا

الارض منّا ونحن اصحاب الحق. ولذلك فانا لست منزعجا على المدى الاستراتيجي ولست خائفا على المدى التاريخي رغم كل الصعوبات»!.

قلت: لماذا اذن كل هذا الفشل في إقامة دولة فلسطينية صغيرة على أي جزء من التراب الفلسطيني؟.

قال بأسى شديد: «هذا السؤال ليس بسيطا لانه يمثل سوء الواقع الذي نحياه. وللاجابة عليه يجب ان يمر امام عيوننا شريط الفواجع المؤلمة التي حالت بيننا وبين ذلك.. واريد ان اقول هنا شيئا للتاريخ انه كان من المتاح لنا ان نقيم دولتنا الفلسطينية على اي جزء من التراب الفلسطيني كما قرر مجلسنا الوطني في دورته الثانية عشرة سنة ١٩٧٤ في القاهرة عندما قال بإقامة الدولة الفلسطينية على اي جزء من التراب الفلسطيني يتم تحريره او الانسحاب الاسرائيلي منه.

لقد كانت الفرصة مواتية لذلك لو خلصت النوايا حقيقة.. ونحن لا نعمل بمفردنا ولكن تجمعنا هذه الشبكة من الروابط بعالمنا العربي. ولكننا فوجئنا جميعا بشيء غريب فبعد ان اتفق ان نذهب جميعا كعرب الى مؤتمر جنيف اي الاردن وسوريا ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية.. واتفق ان نذهب جميعا في موقف عربي مشترك موحد تشترك فيه منظمة التحرير الفلسطينية... وصدر البيان السوفياتي الامريكي في اكتوبر سنة ١٩٧٧ الذي اعترفت فيه امريكا لاول مرة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وانه يجب ان يكون هنالك ممثلون عن الشعب الفلسطيني.. فاذا بنا نفاجأ بذهاب السادات الى القدس ونحن نحضرّ لجنيف نحن واصدقاؤنا في العالم!. وهنا انحسر الحلم الفلسطيني بذهاب السادات الى القدس»!.

فقلت.. اعرف تماما قسوة مفاجأة هذه الزيارة على العالم العربي كله.. ولكن اريد ان اعرف وقعها عليك انت شخصيا. قال: «لقد تابعت ذهاب السادات الى القدس بنظرتين.. نظرة عاطفية حزينة. فقد كان السادات صديقي وانا اعرفه من قبل ان تقوم الثورة في يوليو. ثم بعد ان قامت الثورة، ولي صداقات كما تعرفين ليس مع السادات فقط ولكن مع كل اعضاء مجلس قيادة الثورة او معظمهم كي اكون دقيقا.

تابعته بهذا النهج العاطفي لهذه العلاقة التي تربطني به. وبنظرة عاطفية حزينة وانا اراه يذهب الى هناك ويرفع يده بتحية العلم الاسرائيلي!.

ثم بنظرة اخرى سياسية حاولت ان اكون متجردا فيها حين ارسل لنا السادات وقال انا مستعد ان اتكلم عن الدولة الفلسطينية ثم عندما تكلم في الكنيست الاسرائيلي لم يذكر كلمة الدولة الفلسطينية وبعد ذلك قال لي بعض المصريين الذين كانوا هناك إن ديّان اقنعه ان يشطب كلمة الدولة الفلسطينية.. واقتنع!!. وعرفت وقتها انها بداية انكسار الحلم

الفلسطيني في ذلك الحين! .»

وهنا لا بد لنا من وقفة للتعليق على كلام الرجل خاصة في هذه النقطة الخطيرة. معنى هذا الكلام ان الرجل لا يقف متعنتا امام فكرة انه الوحيد صاحب الامر. ولكنه مستعد للحوار والنظر في اية مبادرة تعيد اليه ارضه التي يقيم عليها الدولة الفلسطينية.

لقد كانت زيارة السادات للقدس طعنة لقلوب العرب جميعا ولكن هذا الرجل استطاع ان يعلو على كل جراحه ويتجرد من كل العاطفيات ويرقب بحذر خطوات السادات في القدس.

لو كان السادات تكلم عن الدولة الفلسطينية واتى لـ «ياسر عرفات» بمفاتيح ابوابها ما كان ليرفضها لانها اتت عن طريق يراه العرب غير مشروع! .

كل ما يرجوه «عرفات» هو تمرير هذا الحلم المستعصي عن طريق اية نافذة يفتحها السادات أو غيره. وهذا معنى التجرد ومعنى الموضوعية. ان القائد لا يتبع الاندفاع الحماسي للجماهير الغاضبة بدون الوعي السياسي. والوعي السياسي بهذه الدرجة من التجرد والموضوعية لا يتوفر للكثيرين.. انما هم القادة الملهمون فقط من يتمتعون بهذا الحس الدقيق. ولو صدق السادات في وعده لكان «عرفات» اول المؤيدين لخطوته التي رآها الجميع جنونا مطبقا.

ولكن السادات تنصل من وعوده ورأى ان ينعزل بنفسه عن الجميع وينفرد بالصلح مع خصومه الماكرين ليحصل هو على ارضه الاسيرة منذ عام ٦٧. تلك الارض التي صدر بشأنها القرار الشهير **٢٤٢** الذي ينص على انسحاب اسرائيل عن الاراضي العربية التي سقطت بعد حرب ٦٧ والذي قبلته الدول العربية المعنية بالامر.. ولم تنفذه اسرائيل. وكلفت مصر لكي تفوز بهذه الارض تلك الخطوة العجيبة بزيارة السادات ثم أجراء المباحثات التي انتهت باقرار معاهدة كامب ديفيد التي تمنح ارض سيناء لمصر منطقة عزلاء منزوعة السلاح.. وتعزل مصر نهائيا عن العرب وعن ساحة الصراع وتطلق اللعنة بعد ذلك على كل المنطقة كأثر قاتل لهذه المعاهدة.

كل هذا يجعلنا نعترف ان «ياسر عرفات» حقيقة لم يرفع السلاح حبا في الحرب ولكن بحثا شريفا عن الحق. وكلما اقترب الحلم ظهر من يدّوسه تحت الاقدام.. ويغرس السلاح مرة اخرى في جسده المسجى على الارض.

ماذا كان «ياسر عرفات» يستطيع ان يفعل بعد ان انتظر تمرير الحلم ولو حتى من خلال زيارة السادات؟! .

قلت لمحدثي . . هل نستطيع ان نقول ان ما بعد زيارة السادات هي بداية مرحلة التراجع وبداية مرحلة الضربات الموجعة التي انهالت على منظمة التحرير؟ . . هل نستطيع ان نقول ان مؤتمر جنيف كان البداية الصحيحة لارساء خطوات السلام الحقيقي الذي تبدد بزيارة السادات الى القدس وابتلاعه للوعد بالتحدث عن الدولة الفلسطينية المأمولة .

قال : «بدون شك ان هذه المرحلة كانت من أكثف المراحل ظلمة . وبايدينا نحن العرب . فبعد ان تصاعد النجاح العربي بعد الهزيمة الموجعة بانتصارنا في معركة الكرامة التي كانت اكبر عزاء لهذه الامة العربية الجريحة . . وبعد استعادة قوانا بعد خروجنا المأساوي من الاردن وانتصاب جسد الثورة العملاقة في لبنان وامتداد اليد الفلسطينية لتطال المستعمرات الاسرائيلية بالقصف وتصيب أمن اسرائيل بالعمل الفدائي المستمر عبر الحدود اللبنانية وفي الداخل . وتبلور كل هذا الانتصار في حرب ٧٣ التي كانت اول حرب يشترك فيها العرب معـا . ولـو تساءلنا من الذي حارب لقلنا ان حرب ٧٣ كانت اول حرب فعلية يقوم بها المصريون والسـوريون والفلسطينيون وبقية الدول العربية كانت مساندة اي اشتركت في الحرب بالمساندة وهذا دور مهم .

بكـل اسف اقـول، وهذه هي الوقائع، ان حاكم سوريا حاول ان يطمس الدور الفلسطيني ولكنه لم ينجح . وتقرر في مؤتمر القمة في الجزائر ومؤتمر القمة في الرباط ان منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني لاول مرة وذلك بسبب اننا كنا احد الشركاء الثلاث الذين قاتلوا في الحرب لقد قاتلت قواتنا على الجبهات الاربع . الجبهة المصرية بقوات عين جالوت وقوات «فتح» وعلى الجبهة السورية بقوات حطين وقوات اليرموك وهي احدى قوات «فتح» وعلى الجبهة اللبنانية التي قال هيرتسوغ مندوب اسرائيل في الامم المتحدة في ذلك الحين ورئيس الدولة الحالي . . . انهم فتحوا لنا جبهة ثالثة وان كانت جبهة صغيرة . والجبهة الرابعة هي ما كانت خلف خطوط العدو وقد اعترفت لنا هذه الأمة بذلك . ومن اجل هذا دعونا الى جنيف ولذلك قالوا لا بد من اشتراك الفلسطينيين في جنيف لاننا اثبتنا وجودنا بدمائنا . لذلك انا اقول انكسر الحلم الفلسطيني في ذلك الحين بذهاب السادات الى القدس . وانحسرت الرؤى الفلسطينية عن الارض الفلسطينية وحال بيننـا وبين ان نرى الارض الفلسطينية تلك الضربة الموجعة بخروج مصر بثقلها . مصر الحضـارة والتـاريخ والقوة العسكرية والقوى البشرية والقوى الثقافية من حلبة الصراع . وفقدنا بذلك احد اقوى الحلقات التي نستند عليها .

طبعا كان المقصود هو جرّ مصر بعيدا عن هذا الموضوع . فلا انسى ابدا انني كنت

قد وصلت مع الرئيس السادات الى حد تسمية اعضاء الوفد الفلسطيني في الوفد المشترك! . . ولك ان تتصوري مدى الألم الذي اصابنا بعد انحسار هذا الامل الذي كان وشيك الحدوث!».

قلت مخففة من ثقل الاحداث، لا شك ان الفترة التي تلت ذلك تميزت بكثير من التشتت والاضطراب نتيجة هذا الخلل العضوي الذي حدث في جسد الامة العربية.

قال. . «اجل كنا نشعر جميعا بان هناك خللا عضويا حدث. لقد كان الوضع غريبا وعجيبا. . وتشكلت جبهة الصمود والتصدي. . وانعقدت اول قمة عربية بدون مصر في بغداد وقررت ارسال الوفد العربي الى السادات ليعرض عليه خمسة مليار دولار سنويا لمدة عشر سنوات. . . ولكن السادات لم يقبل واستمر في منهجه! . . ربما يقول بعض الناس ان مصر استرجعت سيناء ولكن لي سؤالا وهو هل القدس بالنسبة للمصريين او للمواطن المصري أهم من سيناء ام سيناء اهم من القدس؟. اقصد بالنسبة للمواطن المصري المسلم والقبطي. ولنسأل اي مواطن ايهما اهم عندك. . وايهما احب اليك؟. . سيناء بكل كبرها ومساحتها الشاسعة. . . ام القدس اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين مهد المسيح ومسرى النبي؟. وسيقول اي مصري بسيط. . القدس.

ولكننا استطعنا بعد ذلك ان ننهض من كبوتنا لانها كانت ضربة، ولكننا استعدنا تماسكنا وبدأنا من خلال التواجد الجديد والرؤى الجديدة خاصة بعد ان حدث تقارب سوري عراقي من خلال الميثاق القومي بينهما. ثم حدوث الثورة الايرانية في ٧٩ التي كانت حليفة في ذلك الحين. ومنذ اللحظة الاولى لقيامها للثورة الفلسطينية. ولا يستطيع اي مسؤول في الثورة الايرانية ان ينكر او يتنكر للمجهود الفلسطيني والجهد الفلسطيني وللمساعدة الفلسطينية لهذه الثورة الايرانية.

لقد وقفت يوما في ايران لاقول امام حشد من مليون ونصف مليون شخص، وبعد قيام الثورة بأيام ـ فبراير ٧٩ ـ وامام حماس الجماهير الجنوني كنت أقول: ان عمقي الاستراتيجي قد وصل من صور. . وحتى خراسان. يعني من لبنان ثم سوريا ثم العراق من خلال التحالف العراقي السوري ثم. . ايران! ولكن المأساة. . . حقيقي مأساة. وهنا غص محدثي العظيم. . واحنيت رأسي احتراما للحظة ألم عميقة. . ثم رفعتها حين استأنف حديثه ـ مأساة ان يتضاءل هذا العمق الاستراتيجي في عام ٨٢ الى تسعة كيلو مترات مربعة! . . في حصار بيروت! .

اين العمق الاستراتيجي؟ . . القى بهذا السؤال وهو يحدق بنظرة تساؤل قاسية. . وصمت لحظات لم اقو ان انطق حرفا وانما كتمت انفاسي انتظارا لكلامه. . واذا به يقول:

«هنـا اريد ان اقـول شيئـا ان ما حدث من النـظام السوري الذي قلنا عنه انه الحليف الاسـتراتيجي. ذلـك الحليف الذي تركنا نحارب ٨٨ يوما بمفردنا!!. بغض النظر عن الاسبـاب والموجبات لذلك.. ولكن المفاجأة اننا خرجنا من هذه المعركة او هذه الملحمة منتصرين! خرجنا رافعين بنادقنا. وانا اخرج من بيروت كنت ارنو بعيني الى القدس!.

لقد كان صمودنا في بيروت وخروجنا ونحن رافعي الهامة والسلاح هزة في الوجدان العربي كله.

واجتمعت القمة العربية في فاس.. ووجهت لي الدعوة وانا كنت موجودا في اثينا. وذهبنا الى فاس. ولاول مرة يصدر عن اجماع عربي من كل العرب مقررات لاقامة سلام في المنطقة وإقامة الدولة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير.. وعاصمتها القدس».

وازاء الفرحة التي كانت ترتسم على وجه محدثي .. لم يسعني الا ان اقول.. لقد كان شيئا رائعا ان يجمع العرب على مثل هذا الشيء وما كان هذا الا لموقعكم البطولي والتـاريخي الذي سجلته لكم ارض بيروت. فقال.. بعد ان توارت الفرحة عن نظرات عينيه: «نعم ولكن سرعان ما حدثت الضربة الثانية وكانت الاولى من السادات في سنة ٧٧ والثانية من الاسد في سنة ٨٣ باسم الانشقاق والتمرد بحصار طرابلس في محاولة لتشويه صورة الفارس المنتصر هكذا في بيروت عبر تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي.

ودخلنـا محنة جديدة لم نخرج منها الا في عام ٨٥. سنوات ٨٣ و٨٤ و٨٥ سنوات عجـاف سنـوات الجمر، وابتعد الحلم الفلسطيني مرة اخرى. وبدل ان نتابع هذا النصر العسكـري الـذي حققنـاه لأمتنا العربية ونحن أصغر قوة عسكرية فيها.. لاول مرة في الصراع العـربي الاسرائيلي.. وبدل ان نستفيد من هذا الاجماع العربي الذي حدث في فاس.. اذا بالطعنة توجه لهذا الفارس الذي خرج منتصرا رغم انه كان ينزف دما!.

ثم اذا بهم يلاحقوه بطعنة اخرى كانوا يظنون انها ستجهز عليه.. لذلك ابتعد مرة اخرى وانكسر مرة اخرى الحلم الفلسطيني.. وغامت مرة اخرى الرؤى الفلسطينية للارض الفلسطينية!.

في خلال خمس سنوات ضاع كل شيء. سنة ٧٧ كانت الضربة الاولى بالذهاب الى القدس وما سببه السادات بازاحته لهذا الحائط الاستنادي المصري القوي الذي كنا نستند اليه.

ثم جاء الاسد ليسحب من تحت اقدامنا نصر بيروت واجماع فاس». قلت.. اذن هي خسارة النصر الحربي والسياسي معا!.

قال: «نعم الاثنين معا! انا حين خرجت من بيروت قلت ان هناك اعصارا.. هناك

بركان. كثيرون لم يصدقوا ما أقول او لم يدركوا معنى ما اقول. الان وبعدما حدث في المنطقة كلها ـ لو سألنا ماذا حدث؟ . . نجد مصر قد خرجت من حلبة الصراع. وانشغل العراق في حربه مع ايران واستُفرد بنا! . . فكان حصار بيروت وتخلي الاسد. هذه مفاهيمي عن التغيرات الخطيرة التي حدثت في المنطقة ولذلك انا اقول ان هذا الاعصار الذي حدث مازال مستمرا يعمل عمله في المنطقة كلها.

ولكن الآن استطيع ان اقول لقد مرّ بنا الاعصار ونحصي خسائرنا منه. خسائرنا السياسية والعسكرية والمادية والديبلوماسية. ولكن الاعصار لم يغادر المنطقة ومازال يواصل عصفه بها. ولذلك سوف يحدث تغيرات. لا بد من حدوث تغيرات لان للدم الفلسطيني حرمة. . وحرمة مقدسة لانه ليس دما فلسطينيا فقط. هو دم فلسطيني اسما وعربي فعلا. هذا الدم الذي استبيح له حرمة. هذا من وجهة النظر العاطفية الرومانطيقية. ولكن من وجهة النظر السياسية فانه لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه. ولذلك ديالكتيكيا ما حدث في بيروت وما حدث في لبنان كله ضد الثورة الفلسطينية سيكون له ردود فعل في كل المنطقة عربيا وفي منطقة الشرق الاوسط وفي العالم اجمع لان المؤامرة ليست مؤامرة محلية. هي مؤامرة اسرائيلية امريكية وفي بعض وجوهها اوروبية. . وفي بعض وجوهها الاخرى. . عربية!.

وهنا لا بد ان نضع هذه النقطة! انه منطقيا ان يكون هذا هو رد الفعل او ما اسميته بالاعصار او البركان الذي مازال يعمل في المنطقة».

قلت له مستفسرة . . ولكن . . ماذا بعد يا «ابو عمار»؟. قال: «الآن استطعنا ان نثبت وجودنا. لا تنسي ان كثيرا من القوى تعاملت معنا ونحن نصارع الموت ونتشبث بالحياة في وسط دوامة الاعصار. كثيرون اعدوا قصائد الرثاء وعبارات التعزية. وانهار كثيرون. . ولكن. . . قليلون هم الذين ذرفوا الدموع الحقيقية. وظنوا ان هذه فرصة يستطيعون فيها ان يملوا على الثورة الفلسطينية شروطهم. . ولكن بين الواقع وبين الحقيقة، لم يكونوا يعرفون ان هذه الثورة وُجدت لتبقى كما قال فيها «جمال عبد الناصر» واضفت انا على عبارته ـ ولتنتصر.

كانت ارادة البقاء والتفاعل الثوري فيها أقوى من كل المؤامرات والمتآمرين ولذلك انا أعتبر عام ٨٥ عام التغير والانعطاف الثوري. . لماذا؟ لان هذا العام ٨٥ هو العام الذي ظن فيه اعداؤنا والمتآمرون انها سنة الاجهاز على الثورة الفلسطينية. لقد شهد عام ٨٥ صمودا في داخل مخيماتنا من صيدا الى بيروت ورغم ان القيادة خرجت من بيروت. . كانت هذه المعجزة اذ كيف صمدت هذه الثورة؟ وحافظت على نصف مليون فلسطيني وعلى بقائهم

في بيروت؟! الا ان المؤامرة ليست فقط في السيطرة على المخيمات وتجريدها من سلاحها. المؤامرة هي تهجير نصف مليون فلسطيني من لبنان لخلق مشكلة بل كارثة لاجئين جدد وتنتهي العملية السياسية والعملية الثورية ويصبح همنا فقط ايجاد المأوى لنصف مليون فلسطيني!.

والمعجزة الثانية هي هذا التماسك من شعبنا داخل وخارج الارض المحتلة حول منظمة التحرير الفلسطينية. وجميع المحاولات التي قام بها رسل امريكا ومبعوثوا امريكا كذلك، ومبعوثوا بريطانيا والقيادات الاسرائيلية وبعض العرب باءت بالفشل في ان توجد ثغرة بين فلسطينيي الداخل وفلسطينيي الخارج.

ثم جاء الاعجاز الحقيقي بهذه العمليات العسكرية التي شهدت بها الارض المحتلة اروع عمليات في هذا العام ضد هذا العدو الاسرائيلي داخل الارض المحتلة وكثافة العمليات التي لم يشهدها العدو منذ اثنتي عشرة سنة. والتي وصلت الى ٨٦٣ عملية في سنة ١٩٨٥.

ووجدت نفسي أسأل مستفسرة، هل تعتقد ان تكثيف العمليات داخل الارض المحتلة بهذا الشكل يخدم او يساعد عملية السلام؟ قال منفعلا: «طبعا لاني اعتقد ان السلام يؤخذ ولا يُعطى. لا احد يهب السلام.. ولا احد يهب الحياة. هذه الاشياء تؤخذ ولا تُعطى. تُفرض ولا تُمنح. بمعنى ان هذا العدو لن يمنحنا سلاما لسواد عيوننا ولا لان العدالة تقتضي ذلك. ولكن.. لاننا رجعنا مرة اخرى الى ان نكون الرقم الصعب والاساسي في معادلة الشرق الاوسط. طبعا لان هذا الصمود الذي حدث عام ٨٥.. الصمود العسكري والصمود السياسي والصمود الجماهيري امام كل هذا وتغلبنا على مؤامرة الانشقاق وتغلبنا على التمرد وتغلبنا على محاولة ضرب الشرعية الفلسطينية وعقدنا المجلس الوطني الفلسطيني حيث اضطروا للتعامل معنا كحقيقة اساسية مرة اخرى بعد ان فشلت كل محاولات التصفية العسكرية التي حاولوا ان يقوموا بها عام ٨٢ وفشل محاولات الانشقاق والتمرد التي دبروها عام ٨٣. وفشل الحصار المزدوج العربي الاسرائيلي في طرابلس. وفشلت محاولة الهيمنة على القرار الوطني الفلسطيني المستقل. واستطعنا ان نحفظ الشرعية الفلسطينية في عام ٨٤ والقرار الوطني الفلسطيني المستقل ثم اثبتنا وجودنا العسكري في ساحات مخيماتنا في لبنان في بيروت والجنوب اللبناني.. وفي التواجد داخل ارضنا المحتلة».
سألت.. هل نسيت ان تذكر الاتفاق الاردني الفلسطيني كأحد المكاسب التي عددتها؟.

قال: «لا لم انس.. ولهذا قلت القرار الوطني الفلسطيني المستقل الذي ادى في احد مراحله الى وجود الاتفاق المشترك. وكانوا يراهنون انه لن يمر عام ٨٥ وهناك رقم فلسطيني،

ومرت سنة ٨٥ وعاد الرقم الفلسطيني ليس فقط على قيد الحياة ولكن ليعود مرة اخرى الرقم الصعب والاساسي في معادلة الشرق الاوسط. اذن بالرغم من كل ما حدث تنامى معترك المواجهة. لن اتكلم عن المعاناة المالية والحصار المالي والحصار الاعلامي ومحاولة تشويه الثورة الفلسطينية ومحاولة تسمية هذه المقاومة التي حدثت في مواجهة العدو الاسرائيلي في لبنان انها مقاومة وطنية لبنانية لا دخل للفلسطينيين فيها! ثم بعد ذلك حين حدثت حرب وقالوا هذه تقوم بها أمل او مقاومة لبنانية فقط. وطبعا هذا ليس حبا في اللبنانية ولكن... كرهاً في «على» اي المقاومة الفلسطينية.

ولما حدثت معركة المخيمات وانكشف الاتفاق السري بين أمل وبين العدو باقامة الحزام الامني الثاني لحماية الحدود الاسرائيلية عبر الاتفاق الذي حدث بين ماكفرلين والاسد الذي سميته انا كامب مورفي والذي يقرر عدم عودة المقاتلين الفلسطينيين اي مقاتلوا منظمة التحرير الى الجنوب اللبناني وضمان أمن الحدود الشمالية الاسرائيلية بحزامين أمن! حزام يتبعهم وهو حزام أمن لحد.. وحزام أمن يتبع السوريين وهو حزام أمل الذي يقوده في الجنوب داوود داوود!.

أقول هذا الكلام لانه قد انكشف من خلال كل هذا انه ليس هم هؤلاء من كانوا يقاتلون اسرائيل وانما الفلسطينيون وحلفاؤهم من القوى الوطنية والاسلامية اللبنانية. وكما يقال من الممكن ان تخدع بعض الناس كل الوقت.. وكل الناس بعض الوقت ولكن لا يمكن ان نخدع كل الناس كل الوقت».

قلت اسفه من طول هذا الحديث وثقل عبأه على نفس ابو عمار .. ولكن الآن.. ما هو الموقف الآن.. واين انتم من قوى الشر المتربص بكم. اخشى ان يكون لكل ما جرى اثر على قواكم. فانتم لستم قوى فوق العادة او Super Power !. قال: «نحن دائما في المعركة. فبعد ما انكشفت كل هذه الاشياء نجد انفسنا من جديد في معركة عنيفة. بعدها انهزمت المؤامرة. تصفية عسكرية تصفية سياسية.. تصفية جسدية تمثلت بالاغتيالات وكانت قمتها غارة تونس ثم الآن مرة اخرى يحاولون ان يشطبونا من المعادلة خاصة بعد ان اجتمع الجباران في جنيف وبدأت ملامح امكانية حل مرة اخرى في الشرق الاوسط عبر مؤتمر دولي.

وها نحن ندخل معركة جديدة بجانب معاركنا الاخرى لا تقل ضراوة عن معاركنا السابقة. هذه المعركة السياسية التي نخوضها من اجل إقرار سلام عادل ودائم وشامل يأخذ في اعتباراته الاساسية الحقوق الثابتة الغير قابلة للتصرف للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في تقرير المصير وانشاء دولته المستقلة.. ثم إقامة اتحاد كونفدرالي فلسطيني اردني.

هذه هي الـرؤى التي نراهـا. والمعركة طويلة.. والمعركة سجال.. ونحن ندخل معـركتنـا السياسية بالقدر الذي ندخل فيه معاركنا العسكرية.. بالقدر الذي ندخل به معاركنا الدبلوماسية بنفس الشجاعة ونفس الارادة وبنفس القوة وبنفس التصميم وبنفس الامل بالنصر».

وبدا الارهاق على ملامح محدثي الكبير نظرا لطول الحديث فقلت له هذا يكفيني الآن.. ولي معك احاديث طويلة اخرى لنفرغ من بابنا هذا الذي وضعنا له اسم «السلام في مهب الريح».

ابتسامة اضاءت وجهه وقال: «حقيقة هو في مهب الريح، ولكن الريح قوية وشديدة جدا.. والشاطر هو الذي يعرف كيف يمرر العاصفة من حوله. ولكن تأكدي سيأتي اليوم الذي ستهدأ فيه الريح من حولنا.. ويبقى النسيم فقط»!.

فقلت ضاحكة انا الاخرى.. وفي انتظار هذا اليوم يا سيدي اريد ان اسمع منك عن ايام العاصفة الباقية. فما زلنا في ايام اشتداد الريح واريد ان اسمع منك عنها.

فقال: «ما دمت تصرين ان تبقينا في وسط الرياح فسأخبرك بما تريدين في مرات قادمة».

قلت بعد ان تنبهت مرة اخرى الى صوت الطائرة المزعج ـ اتمنى ان نكون في مكان آخر اكثر هدوءا من هذا. فضحك وقال: «كيف يكون اكثر هدوءا ونحن سنكون دائما في مهب الريح؟ «للريح ايضا صوت مزعج»!.

وتركت رئيس منظمة التحرير وانا افكر بحديثه هذا الذي استولى عليّ وجعلني اغفل تماما عن صوت الطائرة الشديد الازعاج والذي عاد يصم مسمعي بمجرد الانتهاء من الحديث! وسألت نفسي هل اقبل ان اجري الحديث معه تحت اي ظروف؟.. وللعجب وجدت نفسي اتمنى الحديث معه ولو كان ليس فقط في مهب الريح.. ولكن حتى لو كان تحت القصف!.

## * ميزان القوى

قلت «لياسر عرفات» :انت الفارس على مدى هذا الفصل من الكتاب . فضحك كثيرا وقال : «وهل هناك فارس غيري في الفصول الاخرى؟ واعجبتني ملاحظته الذكية وقلت : «لا ولكن هنا أنت الفارس الوحيد الذي احتاجه في كل كلمة . فقال : ليت الوقت يمهلنا . . فأنت الكاتبة ولست انا .

وقبل ان نسمع الرئيس لا بد لنا من ان نقول شيئا عن حقيقة الوضع العام في ذلك الوقت . ذلك الوضع الذي يتراوح بين اللاسلم واللاحرب . وهذه الحالة بالذات التي لا تستقر فيها الامور والتي لا تستقر فيها الاوضاع . هذه المرحلة المرهقة التي تتدعي فيها كل الاطراف حرصها على السلام ثم تقوم احدى الجهات بعمل يخنق كل محاولة لاقرار السلام! .

ذلك الوقت الذي تقف فيه القوى متشددة متعنتة تريد ان تمحي منظمة التحرير من ميزان القوى وحتى يخضع هذا الميزان تماما للسيطرة الامريكية الاسرائيلية ، فالمعروف ان اسرائيل بعد اخراجها مصر من جملة الصراع بمعاهدة صلح . وبعد ضربها للمفاعل النووي العراقي وبعد اخراجها منظمة التحرير من لبنان تظهر كأقوى دول المنطقة بالفعل . ولم يعد هناك ما يخيفها من اي دولة في المنطقة . فمصر اصبحت مسالمة والعراق مشغول بالحرب مع ايران . . وما بقي من دول المنطقة لا يماثل جيش الدفاع الاسرائيلي في شيء! .

عطلت قدرات الجيش السوري بقرارات من النظام في مواجهة العدو وزج به في معارك ضد الثورة الفلسطينية! .

ثم في حالة الانسحاب ، في اثناء الغزو الكبير على بيروت عام ٨٢ . . خرج من المعركة بعد اربعة ايام مؤثرا السلامة تاركا الحليف الاستراتيجي الفلسطيني وحده تحت النيران الاسرائيلية وعندما سألت «ابو عمار» عن حقيقة هذا التحالف الاستراتيجي واين ذهب قال : «قبل غزو لبنان كنا قد اتفقنا مع الرئيس حافظ الاسد على التحالف الاستراتيجي بيننا خاصة واننا كنا (سوريا وم . ت . ف . العضوان اللذان قامت على تحالفهما جبهة الصمود التصدي . ولكن هذا تبخر اثناء الغزو . . بل انه في مرحلة من المراحل انقلب عدائيا! .

الحليف الاستراتيجي لم يحدثني الا مرة واحدة اثناء الحصار ، في ثاني يوم من الغزو . واثناء اشتداد المعارك وقبل احكام الحصار حولنا في بيروت اتصلت انا به لاسمع وجهة نظره فيما يجري . فقال لي : شدوا حيلكم المسألة بسيطة . ثم لم نسمع منه شيئا . . رغم انه كانت له بعض القوات موجودة في لبنان والمفروض انني ـ بحكم هذا التحالف ـ اكون مسؤولا عنها . وتكون تحت تصرفي! .

وكل ما سمعناه بعد ذلك انه خاطب قائد القوة السورية المحاصرة في بيروت العميد محمد حلال وهي اقل من لواء قائلا نحن لا نقاتل من اجل عمر! . وطبعا عمر هنا يعني نحن الفلسطينيين! . وليته اقتصر على ذلك، ولكنه تحول الى ناحية عدوانية حين صادر الاسلحة والمعدات الطبية المرسلة الينا من الدول الصديقة سواء العربية او الاوروبية . . كل هذا حدث والمفروض اننا حلفاء؟!» .

وحتى بعد خروج منظمة التحرير من بيروت فان مواقف النظام السوري لم تكن تخيف اسرائيل في شيء. فقد اشتبك النظام السوري مع الفلسطينيين في حرب طرابلس اكمالا لهدف اسرائيل من غزو بيروت وهو القضاء على قوة منظمة التحرير وربما نهائيا بانهاء سلطة رئيسها - وهو ما عجزت عنه اسرائيل - وبعد هذا زاد انغماس الجيش السوري في لبنان. وتشير كل التقارير الاستراتيجية حسب مراجعتي ان اسرائيل لا تخاف من سوريا وهي القوة التي يعتبرها جميع العرب أقوى دول المواجهة . . وكما تحاول هي ان تظهر نفسها! . وبالطبع بقية الدول العربية لا تشكل بالنسبة لاسرائيل اي عائق عن تنفيذ ما تريد سواء في الارض المحتلة او في اي مكان آخر. لقد انفردت اسرائيل بالوضع كأقوى قوى المنطقة ومارست سياسة القبضة الحديدية في الاراضي المحتلة معتمدة على شعور الاحباط الذي كان من المفروض ان يكون قد أصاب أهل الارض المحتلة بعد ما حدث لقوات المنظمة في بيروت. وحاولت اسرائيل ان تمارس ايضا سياسة القبضة الحديدية على منظمة التحرير نفسها باحكام الحصار السياسي حولها. بعد ان اقامت الحصار العسكري حول قواتها لانهاء القوة العسكرية لها.

ارادت اسرائيل ان تضغط بكل ثقلها السياسي مستندة الى ثقل حليفتها الاولى امريكا - لان هي بمفردها لا تملك اي ثقل سياسي - لتحكم النطاق حول منظمة التحرير. . وكانت اسرائيل قد انتزعت في عام ٧٥ التزاما من هنري كيسنجر بان الولايات المتحدة لن تتعامل بأي شكل مع المنظمة ما لم تقبل قرار ٢٤٢ وتعترف بحق اسرائيل في الوجود.

على هذه الارضية راحت اسرائيل وامريكا تضغطان رغبة منهما في شل قدرة المنظمة على الحركة الديبلوماسية.

وكأن اسرائيل تملك القيد للولايات المتحدة نفسها . . ازدادت تشددا! . . فهي ترى ان المكان الوحيد الذي ستقابل فيه المنظمة هو ميدان المعركة . . كما يقول دائما اسحاق رابين نائب رئيس حزب العمل ووزير الدفاع.

وحين قابلت اسرائيل المنظمة في ميدان المعركة لم تستطع ان تحقق شيئا - اي مكاسب ذات نتائج مؤثرة على المستوى الاستراتيجي! .

وحين سألت «ياسر عرفات» عن امكانية نجاح تحركه السياسي بعد الخروج من بيروت قال: «اهم شيء حققناه هو الموقف الفلسطيني الواحد الذي وجد في داخل وخارج الارض المحتلة حول منظمة التحرير الفلسطينية». وقلت له بتساؤل: «رغم الانشقاق؟ قال: «رغم الانشقاق. بل لقد اثبت الانشقاق لمن يقف ورائه. ان كل المحاولات التي تحاول تغيير هذا الموقف قد سقطت! فالجماهير الفلسطينية تعرف قيمة وجود وبقاء منظمة التحرير. لقد كان غزو لبنان بهدف ضرب البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية جماهيريا ثم تصفية وجودها العسكري وخنق وجودها السياسي تمهيدا لتصفية القضية الفلسطينية كلها لتخرج منظمة التحرير من معادلة الشرق الاوسط. وحين تخرج منظمة التحرير من المعادلة.. يرفع اسم الفلسطينيين من الخريطة السياسية للمنطقة. ولا يعود هناك رقم فلسطيني في المعادلة. ولكن كما ترين فشل هذا المخطط ـ بكل ما تحملناه من تضحيات وبذل. وها نحن نعود رقما صعبا وضروريا في معادلة الشرق الاوسط من جديد».

وبذلك ادركت اسرائيل انها ارتكبت الخطأ القاتل حين جعلت «عرفات» يخرج من بيروت!.. اتفق قادتها انه كان يجب القضاء عليه بأي شكل ولا يترك ليخرج سالما. ولا احد ينسى كيف سخّرت طائراتها في آخر ايام الغزو لتتبعه من مكان لمكان للقضاء عليه. ولكنه حين خرج وبدأ يستعيد القدرة على تحركه ادرك الاسرائيليون بالفعل انهم قد خسروا المعركة وقالوا ما كان يجب ان يخرج حيًا. لذلك تبعوه الى طرابلس وشاركوا السوريين في حصاره من البحر وضربه.. ولكن ما من فائدة!.

وقد رأينا «عرفات» خرج من طرابلس رافع الرأس وحوله اربعة آلاف مقاتل رافعوا السلاح. وكان هذا إيذانا بظهور منظمة التحرير مرة اخرى بين قوى المنطقة حيث انها لم تسقط في بيروت.. ولم تدفن في طرابلس كما توقع الاسرائيليون وكما توقع الامريكان.

وقلت له: لقد ظن الامريكان انك ستنتهي في طرابلس. قال: «نعم.. بل قولي انهم ظنوا اني كان يجب ان انتهي في بيروت. لقد شرعوا علينا غزو بيروت بخطة موضوعة بدقة بين الارهابي مجرم الحرب شارون والكسندر هيج وزير خارجية امريكا. ولكننا خرجنا واستطعنا ان نعيد بناء هيكليات المنظمة وبنيتها التحتية رغم شراسة الغزو والحصار. وحين خرجنا بدون مذبحة عاجلونا بما سموه انشقاقا في «فتح» وتمرد داخل المنظمة. ورغم ان هذا لم يكن اول محاولة لخلق الانشقاقات الا انه هذه المرة كان مدعوما بكل الظروف المناسبة للاستغلال خاصة بعد الخروج من بيروت. وتوج هذا المخطط بالحصار المزدوج العربي الاسرائيلي حولنا في طرابلس. كل هذا للقضاء على القوة السياسية للمنظمة».

قلنا ان بعد الخروج من طرابلس كان على «عرفات» ان يتجدد وان يثبت شرعيته من

خلال اجماع فلسطيني يؤكد بقاءه ووجوده على رأس الثورة الفلسطينية . وكانت هذه المرحلة هامة وحاسمة جدا لانها مرحلة إثبات الوجود الشخصي والقيادي والسياسي لـ «ياسر عرفات» بعد ان نازعه المنشقون وحلفاؤهم على كل هذا! .

وعقد المجلس الوطني الفلسطيني في **٢٢** نوفمبر **١٩٨٤** . **وقد لاقى المجلس الوطني** نجاحا اذهل الجميع . ورأى الاسرائيليون على شاشات تلفزيونهم نجاح **«ياسر عرفات» وهم** مشدوهين . ولقد اعترف المعلقون جميعهم وفي مختلف انحاء العالم بهذا النجاح وبروعة هذه الديمقراطية الفلسطينية وقوتها . وعلى سبيل المثال كتبت صحيفة هيرالد تريبيون تحت عنوان : انتصار «عرفات» واستنادا الى حقيقة ان «ياسر عرفات» استطاع ان يعقد هذا الاجتماع وهو الشخص الذي اضطلع بمنصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والشخصية العربية التي استطاعت ان تحافظ على وجودها القيادي في تاريخ السياسة العربية فقد تمكن «عرفات» ايضا من التغلب على خصومه في المنظمة نفسها . وبعد تقديم استقالته تم العدول عنها مؤخرا وسط التأييد العاصف من المندوبين . يبدو ان «عرفات» قد اكد استمراره في اسلوبه القيادي المتميز رغم الانتقادات التي يوجهها له حتى بعض اعوانه» .

وبخروج «عرفات» منتصرا من معركة المجلس الوطني ورئيسا شرعيا منتخبا من جديد كان هذا ايذانا بتثبيت اقدام منظمة التحرير تحت قيادته مرة اخرى على ارض الواقع . كان ايذاناً بأنها موجودة ولم تتناثر الى فلول مشتتة . وكان هذا اول زعزعة لميزان القوى التي ارادت اسرائيل ان تتفرد به .

وقد أجريت وقتها حديثا مع رئيس منظمة التحرير نشر في الصحف السعودية اقتطف منه بعض الفقرات المتعلقة بالقيمة الحقيقية لاعادة انتخاب «عرفات» وعودته بالمنظمة الى واجهة الاحداث .

سألته : رغم الظروف الصعبة التي مرت بها منظمة التحرير فمن المعروف انك رجل متفائل . . فما سر هذا التفاؤل؟ قال : «استمد تفاؤلي من وضوح الحق وعدالة القضية وروح شعبنا الذي يعيش في الارض المحتلة . اتذكرين حين قلت لك في سبتمبر الماضي ان المجلس الوطني سيجتمع رغم تعذر الرؤية وقتها . وقلت لك حين كنا لا نجد مكانا لهذا الاجتماع اننا لو ادى الامر سنذهب الى احدى الدول الاوروبية او الافريقية وسنجتمع حتى ولو ذهبنا الى عرض البحر في سفينة ترفع علم الامم المتحدة هذا لو ضاقت الارض العربية بنا . فما بالك وقد اجتمعنا في عمّان وعلى بعد كيلومترات من ترابنا المقدس؟! .

اعرفت من اين يأتيني التفاؤل؟ . لقد قلت قبل غزو لبنان انني اشعر اننا مقبلون على الدخول في نفق مظلم وقد كان . والآن كما سمعت فقد اعلنتها في المجلس الوطني انني ومن

هذا النفق المظلم ارى في آخره انوار القدس واسمع صوت المآذن. لقد كان اجتماعنا دليلا على سلامة الارض التي نقف عليها. وسألته: هل نعتبر انعقاد المجلس الوطني في عمان انتصارا شخصيا ام قوميا ام عربيا ام سياسيا؟.. قال مرتاحا: «فلنقل انه كل هذا، فهو تحقيق لاهم اهدافنا وهو انتصار الشرعية الفلسطينية واستقلالية القرار وتأكيد على حيوية الثورة واستمراريتها.. فقد اجتمعنا وتحقق لنا كياننا الشرعي رغم كل المعوقات. استقلال القـرار الفلسـطيني كان من اهم المكاسب.. وقد رأيتم جميعا كيف ان «فتح» لم تستغل الفرصة وكيف تركنا الابواب المفتوحة لمن فاتتهم الفرصة ليلتحقوا بركب الثورة والمنظمة.

فسألته: لكن ما هي برأيك اهم المكاسب؟ قال: «ربما كان اهم شيء استطعنا صنعه هو كسر الركود العربي. فالعالم العربي تحرك وايدت معظم دوله مؤتمرنا الوطني واكدت على شرعيته وعلى ان المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وقد كان لمبادرة الملك حسين اكبر الاثر رغم خلافنا معه اذ انه رغم موافقته على القرار **٢٤٢** ورفضنا له نادى بمؤتمر دولي للسلام تحضره منظمة التحرير كأحد اهم اطراف النزاع المعنية. ثم هذا التحرك تجاه مصر التي بدأت تحركا اصيلا يهدف الى اشراك المنظمة في اي مفاوضات تجري للسلام. ومندوب مصر لدى الامم المتحدة يعلن ان حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير حق مقدس وثابت ولا يمكن لاحد ان ينتزعه منه.

هذا التحرك يؤكد على حيوية القضية وبأنها حقيقة لا يستطيع احد ان يتجاهلها. وقد عدنا بها الى واجهة قوى المنطقة.

ولا يفوتنا ان هذا التحرك الفلسطيني يؤدي الى التحرك العربي الذي يؤدي بالضرورة الى تحرك عالمي والتأييد العالمي للقضية يتصاعد ونحن خلفه بكل قوانا. كل هذه الحركة كانت نتيجة لهذه الرؤيا الاستراتيجية السلمية للاحداث».

وحين سألته هل سيتوارى مبدأ الكفاح المسلح في ظل اجراءات السلام التي ستطرح قريبا؟.. قال: «الكفاح المسلح هو خيارنا الاول... وقد نصت قرارات المجلس الوطني صراحة على ان اولويات العمل الفلسطيني ستكون تصعيد الكفاح المسلح داخل الارض المحتلة وقد اتخذ المجلس قرارات واضحة بالاجماع بأهمية الكفاح المسلح وتطويره وتصعيده. لا احـد يستطيع ان يقول بسقوط البندقية من حساباتنا. والكفاح المسلح هو خيار الامة العربية كلها وعلى الدول العربية تبعاً لذلك فتح الحدود لتمكين دوره.. وهذا دور هام في معركة التحرير. ونحن منظمة تحرير قبل اي شيء وحركة ثورية ترفع شعار ثورة حتى النصر. اما اذا كانت الامور ستكون جدية في الحلول والاعتراف حقيقيا بحقوق الشعب الفلسطيني فنحن نتعامل مع جميع المعطيات ونحن رفعنا البندقية من اجل تحقيق اهدافنا السياسية».

قلت: اذن لماذا رفضتم قرار **٢٤٢** او حتى تعديله؟ . . قال: قرار **٢٤٢** يتغافل عن كيان شعب بأكمله ويحول الامر كله الى مشكلة لاجئين. الشعب الفلسطيني اكبر من ان يتحول الى شعب او جموع من اللاجئين. الشعب الفلسطيني حقيقة كبيرة تواجه العالم بوجودها في داخل الارض المحتلة وخارجها. ولم يستطع احد طمس معالم هذا الشعب. الشعب داخل الوطن المحتل لم يستسلم ابدا وهو مشارك في كل مراحل النضال رغم كل الظروف التي يعيش فيها. قوة الترابط بيننا وبين جماهير الشعب الذي يعيش فوق الارض تمدنا بدفعات الى الامام تعطينا الدفع النفسي والوجودي».

هذا ما حققه «ياسر عرفات» من انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني. وهو كما رأينا محاولة ناجحة للافلات من مخطط الحصار والتصفية. ووسيلة ناجحة عادت بالمنظمة الى مكانة قوية حيث اسقطت مقولة عدم الشرعية التي رفعها المنشقون وساندتهم فيها سوريا.

والحق «ياسر عرفات» هذا النجاح بتحركه مع ملك الاردن الى المضي في الطريق بتوقيع اتفاق عمان في «فبراير **١٩٨٥**» والذي اشتهر وعرف باسم اتفاق الحسين ـ عرفات. وقد ثار حول هذا الاتفاق ما ثار من نقاش واعتراض. وعرفنا كيف ان «عرفات» تقدم على طريق الشوك حتى يقر هذا الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني. واكثر المعترضين عليه كانوا يرون فيه تطبيقا لخطة ريغان التي اعلنها عام **١٩٨٢** صبيحة الخروج للقوات الفلسطينية من بيروت. وبالذات لان خطة ريغان قد استبعدت اقامة دولة فلسطينية مستقلة ودعت الى كيان فلسطيني مرتبط بالاردن. ومن هنا كان التخوف والمعارضة برغم ان «عرفات» كان يؤكد ان الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني هو انبثاق من قرارات قمة فاس فيما عرف بمشروع السلام العربي. وعندما سألته عن الاتفاق، قال: «فعلا كان الهدف هو اعطاء ميكانيكية حية لقرارات قمة فاس الثانية وخاصة مشروع السلام العربي». . فسألته ألم يكن الجميع موافقين على قرارات فاس؟ قال: «نعم». . قلت: اذن على ماذا كان الاعتراض؟ . . قال: «لا ادري. . دائما الاعتراض من اجل الاعتراض. وعلى كل، امامك الاوراق اقرئي بنود الاتفاق. . وبنود فاس لنقارن بينهما». قلت يتضمن مشروع السلام العربي البنود التالية: انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي التي احتلتها عام **١٩٦٧** بما فيها القدس العربية. ازالة المستعمرات التي اقامتها اسرائيل بعد عام **١٩٦٧** في الاراضي العربية. ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الاديان بالاماكن المقدسة. تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد وتعويض من لا يرغب في العودة. تخضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت اشراف الامم المتحدة لمدة لا تزيد عن بضعة اشهر.

قيام الـدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس. يضع مجلس الامن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة. يقوم مجلس الامن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادىء.

قال: اقرئي اذن نصوص الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني. فقرأت: انطلاقا من روح قرارات مؤتمر فاس المتفق عليها عربيا. وقرارات الامم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية وتمشياً مع الشرعية الدولية وانطلاقا من الفهم المشترك لبناء علاقة مميزة بين الشعب الاردني والفلسطيني اتفقت الحكومة الاردنية ومنظمة التحرير على السير معا نحو تحقيق تسوية سلمية عادلة لقضية الشرق الاوسط. ولانهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية المحتلة بما فيها القدس وفق الاسس والمبادىء التالية: ١ ـ الارض مقابل السلام كما ورد في قرارات الامم المتحدة بما فيها قرارات مجلس الامن. ٢ ـ حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني حيث يمارس الفلسطينيون حقهم الثابت في تقرير المصير عندما يتمكن الاردنيون والفلسطينيون من تحقيق ذلك ضمن اطار الاتحاد الكونفدرالي العربي المنوي انشاؤه بين دولة الاردن وفلسطين. ٣ ـ حل مشكلة الـلاجئين الفلسـطينيين حسب قرارات الامم المتحـدة. ٤ ـ حل القضية الفلسطينية من جميع جوانبها. ٥ ـ على هذا الاساس تجري مفاوضات السلام في ظل مؤتمر دولي تحضره الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن الدولي وسائر اطراف النزاع بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ضمن وفد اردني ـ فلسطيني مشترك.

وعندما فرغت من القراءة قال: «هل وجدت اختلافا جوهريا»؟. قلت: لا ولكن فهمت ضمنا انكم تقبلون بقرارات مجلس الامن. فلماذا كل هذا الاشكال القائم حول القرار ٢٤٢ و٣٣٨؟. قال: «لان الجانب الآخر لا يتمسك الا بهذين القرارين ويترك عن عمد كل القرارات الاخرى وفيها ما يعطيني حقوقي. ولك ان تعلمي اننا عندما وقعنا هذا الاتفاق انما اقمناه على شيئين.. انطلاقا من قرارات قمة فاس.. وانطلاقا من قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية».

قلت: الا يعد الشق الثاني هو اعتراف ضمني بالقرار ٢٤٢؟.

قال بانفعال: «يجب ان يكون واضحا اننا دائما نقول اننا ننطلق من خلال الشرعية الدولية.. ولذلك مجلسنا الوطني قال بالموافقة على جميع القرارات التي اصدرتها الامم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية.. واكرر جميع القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية. القرار ٢٤٢، ٣٣٨ قراران صدرا بشأن اسرائيل والدول العربية على إثر حرب قامت مع الدول العربية واسرائيل أي أن هذه القرارات حدثت بدون الاشتراك الفلسطيني. اعلنا كأطراف

في الحرب وهم يريدون ان نتحمل مسؤولية عنها. ومع ذلك نحن ندقق هنا ونقول جميع القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية ـ جميع القرارات بينما الامريكيون والاسرائيليون لا يريدون الا التزامنا بقرارين فقط! مع ان هناك قرارات تعطينا حقوقنا.. ولذلك اقول جميع القـرارات وهذا فارق جوهري واساسي.. نحن نريد جميع القرارات وهم يريدون فرض قرارين فقط.. وهذا ظلم». فقلت له: اذا كان هذا هو الشرط الاساسي.. الا تستطيعون ولو من خلال هذين القرارين تحقيق اية مكاسب؟.. قال: «نحن نسأل هل تؤخذ الشرعية الدولية جزئيا ام ككل؟.. الشرعية الدولية تؤخذ كلا وليس جزءا. حين نقول نعم لقرارات الامم المتحدة جميعا المتعلقة بالقضية الفلسطينية فاننا نعني انه لا يجوز ان يعاملونا بالقرارات جزءا وليس كلا».

وحقيقة كان التواجد الفلسطيني في الاردن من جديد بمثابة تجدد للشريان الحيوي للمنظمة. وهو الذي يعود بها الى قلب المد الجماهيري الهائل المتواجد بالاردن. والذي يصل ما انقطع بالخروج من لبنان بالتواصل مع الجماهير الفلسطينية.

وسمح الحكم في الاردن بحرية الحركة وظهور للوجود نفسه. وكماكانت هذه فرصة النجـاة للمنظمة ايضا.. الا انها كانت انقاذا للاردن نفسه! فكما ان المنظمة وجدت في انفتاح الاردن امامها بساطا ممدوداً لتثبيت اقدامها فوق الارض من جديد في وقت كانت فيه بحاجة الى تثبيت الاقدام. فان الاردن كان بحاجة وبحاجة ماسة الى المنظمة للافلات من مقولة الوطن البديل الذي ترى فيه القوى المعادية حلا مهيئا للمشكلة الفلسطينية. ولم يكن امامه الا الاستناد الى الفلسطينيين انفسهم حتى يرفعوا هم هذا الحل السلبي. وكان ان اصبـح ضروريا ان يتعـاون الاثنـان لخروج هذا الاتفاق الذي اصبح طريقا للتحرك الاستراتيجي بينهما. وعادت المنظمة في ظل هذا التنسيق طرفا قويا في المعادلة من جديد. ولكن الاحـداث اثبتت بعـد ذلـك ان العدو لا يمكن ان يدع المنظمة لتستفيد من هذه الارضية الجديدة ولذلك كان الجهد الامريكي والجهد الاسرائيلي والجهد السوري لانتزاع هذه الارضية من تحت اقدام الفلسطينيين بالضغط على الاردن لسحب البساط والحقيقة ان جهـود «ياسر عرفـات» لم تقتصر على اقـرار الاتفـاق بين صفوف منظمة التحرير فقط او بالاحرى بين متشددي القيادة الفلسطينية.. وانما سعى ليجلب له ايضا غطاء عربيا فـ «ابو عمار» يطمئن دائما لو حصل على شرعية عربية لأي خطة او تحرك لمنظمة التحرير. لذلك قام بعديد من جولاته بين عواصم الدول العربية ليضمن لاتفاقه الدعم والتأييد. وقد يكون حصل على اول تأييد من مؤتمر القمة الطارىء الذي عقد بالدار البيضاء. في ١٧ اغسطس ١٩٨٥. وجد دعما وموافقة ضمنية على شرعيته للتحرك.. بعد ان عدّل ملك المغرب الحسن

الثاني من اسباب دعوة القمة والتي كانت لبحث حرب المخيمات الاولى التي وقعت في رمضان ١٩٨٥ والقضية الفلسطينية. حيث ان عندما ثارت الاعتراضات على ذلك عجل الملك من الدعوة وجعلها من بندها الاول تقوم على بحث تنقية الاجواء العربية.. مع النظر في الاوضاع الفلسطينية. التي يمثل استراتيجيتها اتفاق عمان. ومع ذلك ثارت اعتراضات ايضا.. وقاطعتها سوريا ـ وان كانت بعد ذلك ـ المستفيدة الاولى من نتائج القمة.

ولكن قبل ان نتطرق الى بقية التغيرات في ميزان القوى ومحاولة اقصاء المنظمة او انهاء دورها من بين اطراف النزاع لابد لنا ان نستعرض تغير ميزان القوى في تلك الحرب الطاحنة التي تفجرت بشكل مؤسف بعد خروج المقاومة الفلسطينية لبنان. وصعود وهبوط القوى مرتبط بشكل او بآخر ايضا بمنظمة التحرير!

فاسرائيل لها يد في لبنان وسوريا لها يد في لبنان.. والاثنتان لهما علاقة كبيرة بوضع منظمة التحرير! ومنهما الاثنين ضربت المنظمة عسكريا وسياسيا. وكما كانت اسرائيل تكرس كل جهودها لانهاء دور «عرفات» القيادي فان سوريا ايضا تكرس كل جهدها لانهاء اسطورة «عرفات» ككل! والمعروف ان الغزو الاسرائيلي للبنان بدأ باعلان تأمين ٤٠ كيلومترا في منطقة الجليل كوسيلة للقضاء على الوجود الفلسطيني في جنوب لبنان وكتأمين لساكني المستعمرات الاسرائيلية.. لكن النية المبيتة تغلبت على كل الفروض. وبدأ الهجوم الكبير بقصف جوي مركز لتجمعات الفلسطينيين ثم الاستيلاء على صيدا وقرية الدامور. ثم امتد الهجوم الكاسح الى غزو ومحاصرة بيروت!.

وكان خروج الفلسطينيين يمثل نهاية الغزو وبداية التورط الحقيقي للجيش الاسرائيلي في لبنان وللحكومة السياسية في اسرائيل. وهذا ما اكتشفته القيادة الاسرائيلية متأخرة حيث جوبهت القوات الاسرائيلية بهذه المقاومة اللبنانية ـ الفلسطينية التي تركتها خلفها القيادة الفلسطينية بعد خروجها من بيروت في ارض الجنوب ومعها هذه الكميات الكبيرة من الاسلحة والخبرة العسكرية والتدريب الجيد وتشابكت القدم الاسرائيلية في اوحال المستنقع اللبناني. وخسرت اسرائيل بموت بشير الجميل اكبر حلفائها. وبرغم انها كانت لا تثق كثيرا بخليفته امين الجميل الذي انتخبه البرلمان اللبناني باغلبية ٧٠ صوتا بما في ذلك اعضاء البرلمان المسلمون الذين قاطعوا انتخاب بشير الجميل من قبل.

الا انها لم تستطع ان تفعل شيئا له ازاء تأييد امريكا نفسها له ويورد كتاب ـ الحرب الاسرائيلية ـ اللبنانية عن هذه الفترة ان الادارة الامريكية اقترحت مجموعة من البروتوكولات السرية لحل ازمة لبنان. وقد وافق البرلمان اللبناني على هذا الاتفاق السري المسمى باتفاق ١٧ ايار/مايو الذي يهدف الى اخراج القوات السورية من لبنان وعقد معاهدة صداقة بين

اسرائيل ولبنان. ونشر قوات الجيش اللبناني في المواقع التي يتركها الجيش الاسرائيلي.

ولكن هذا الاتفاق مات قبل ان يجف مداد الحبر الذي كتب به. وقد فشل هذا الاتفاق السري كما يرى المؤلفان نتيجة وقوف سوريا ضده. واهتز موقف امين الجميل.. ومارست سوريا ضغطا جديدا على الرئيس اللبناني الذي اضطر الى الغائه رسميا بعد تسعة شهور. وقد تركز الدرس في تحالف الدروز مع القوات السورية.. وهكذا بدأ الموقف يتغير بتحالف الدروز والشيعة والقوات السورية ضد الكتائب.. وامين الجميل.

كل هذا كان لتغيير ميزان القوى في لبنان خاصة بعد غياب القوى المحاربة الكبيرة بخروج الفلسطينيين. ويظهر الكتاب التغيرات التي حدثت اولا بتعاون الدروز مع القوات السورية والاسرائيليين على السواء. وقد كان هذا الوضع الجديد ورغبة من سوريا في تحجيم امين جميل لقبوله بالضغط الامريكي - الاسرائيلي.. وقبوله لاتفاق ايار/مايو.

ومن هنا تحالفت سوريا مع الدروز لتنفيذ هذا الدرس. وتعاون الدروز مع اسرائيل للحصول على الاسلحة الثقيلة منها. واستولوا على جبل الشوف بعد انسحاب القوات الاسرائيلية في آب/اغسطس **١٩٨٣** نظير حماية اسرائيل من هجمات الفلسطينيين!.

وبالفعل لم يستطع الجيش اللبناني ملء الفراغ الذي تركه انسحاب قوات اسرائيل من جبل الشوف!.

وفي تلك الفترة قامت المعركة الفاصلة بين الموارنة وكل من الدروز والشيعة. وكانت خسائر الموارنة في هذه المعركة شديدة حوالي **١٠٠٠** قتيل و**٥٠.٠٠٠** مشرد.. ومحاصرة قرية دير القمر من قبل الدروز واجلاء الموارنة عن حوالي **٦٠** قرية.

وهكذا تغيرت موازين القوى في لبنان بظهور قوى الدروز والشيعة التي قامت هي الاخرى وبتأييد سوريا بمناوشات قوات البحرية الامريكية وقتل حوالي **١٤١** من رجال البحرية الامريكية.. احداث تدمير السفارة الامريكية في بيروت. الا ان هذا التغيير الكبير في ميزان القوى في لبنان كان لابد ان يمس الفلسطينيين في مخيماتهم.. وهو الذي حدث اصلا من اجل الفلسطينيين!.

وسألت ابو عمار قائلة: سمعناك تتحدث كثيراً عن المخيمات وعن المخططات التي تحاك في لبنان للقضاء على الوجود الفلسطيني. فقال: «لقد قلت لك ان التغيرات كانت تجري على ارض لبنان تمهيدا لتنفيذ اهم بنود المؤامرة الكبرى المعدة للمنطقة كلها لاضعافها والهائها. والهدف الاول هو ضرب القوة الفلسطينية ثم العمل على اقامة الكانتونات الطائفية. والفرز الطائفي السكاني لا ينتج في اي مكان الا الضعف والتهاوي.

لقد حاربت في لبنان وصمدت ٨٨ يوما كما يعرف العالم كله . . وايضا يعرف العالم كله ان هذه كانت اطول حرب عربية ـ اسرائيلية في تاريخ الصراع كله . ولم ينته كل شيء بخروجنا من بيروت . . وانما قامت حرب استنزاف بعد الخروج مباشرة . . وهي ايضا اطول حرب استنزاف! .

وقد حاول الجميع ايهام الناس بأن الذين يقومون بالمقاومة في الجنوب اللبناني هم فقط لبنانيون . وسميت جميع العمليات تحت اسم المقاومة اللبنانية وهذا خطأ كبير. فالذي يقوم بحرب الاستنزاف هذه هي القوات المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية . .

وحين حدثت معركة صيدا وبيروت وحرب المخيمات كشفت الحقيقة . وظهر من هم الذين يضربون اسرائيل . . ومن هم الذين يساعدون اسرائيل» . سألته : هل كنتم انتم من تقومون بالعمليات من الجنوب اللبناني؟ .

قال : «نحن وحلفاؤنا من القوى الاسلامية اللبنانية . وحين اقول الاسلامية . . ابعد بها عن اي اعتبار طائفي . . وانما هم الوطنيون اللبنانيون . واقولها صراحة لولا وجود الفلسطينيين في جنوب لبنان ما كان هناك شيء من المقاومة . ولقد اعترف الاسرائيليون انفسهم بأن الجبهة العسكرية الرئيسية في جنوب لبنان هي منظمة التحرير الفلسطينية» .

قلت : معنى هذا ان وجودكم في لبنان لم ينته؟ . . قال : «لا يمكن ان ينتهي لقد حاولت اسرائيل ان تنهيه . . وفشلت . والآن تقوم امل الشيعية لاتمام عملية بدائل تمت على حساب الفلسطينيين . ولا احد ينسى معركة صيدا بعد الانسحاب الاسرائيلي والذي خاضته القوات المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية لمدة ٤٢ يوما والتي افشلت نتيجتها المخطط الاسرائيلي الذي كان يهدف الى احلال قوات لحد وقوات جعجع محل القوات الاسرائيلية المنسحبة . ان هذه القوات المشتركة استطاعت ان تفشل المخطط وتبعد قوات لحد وجعجع الى بلدة كفر فالوس . لابد ان نتساءل لماذا سلمت اسرائيل منطقة صور والنبطية الى قوات امل الشيعية عند انسحابها الى منطقة الشريط الحدودي؟ ولم تسلمها الى الجيش اللبناني على اي شيء كان التسليم والاستسلام؟ على اي ثمن؟ . لقد كان الثمن الفلسطينيين . لقد تعهدت امل ان تكون الحزام الامني الثاني! .

اتذكرين محادثات الناقورة؟ . . لقد اعلنوا فشلها . لقد فشلت المحادثات العلنية . . وما كان يدور في العلن . . بينما نجحت الاتفاقات السرية! حتى اتفاق ١٧ ايار الذي اسقطوه . لقد سقط علنا ايضا بينما طُبقت بنوده على الارض! وماذا كانت تريد اسرائيل غير حزامين امن ثمنا لانسحابها من الجنوب من اجل تأمين حدودها الشمالية؟ . وقامت المنطقتان . . واحدة تسيطر عليها قوات العميل انطوان لحد . . والثانية تسيطر عليها قوات

امل وتخضع للنفود السوري! .

لقد تعهدت امل بحماية حدود اسرائيل . وتعهدت الا تطلق طلقة من الجنوب تجاه اسرائيل . لذلك عملت بكل جهدها لتنفيذ الاتفاق فكان لابد لها ان تضرب المخيمات . وهذا ايضا ما اتفق عليه بين الرئيس الاسد وريتشارد مورفي . اتذكرين تسميتي لهذا اللقاء بكامب مورفي؟ . اجل لقد كان اخطر من كامب دافيد! لان الشرط كان عدم عودة مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية الى الجنوب اللبناني . وضمان امن الحدود الشمالية لاسرائيل من العمليات الفدائية الفلسطينية او من حلفاء الفلسطينيين»! .

قلت : لذلك تقوم امل بضرب المخيمات؟ . قال : «طبعا . . حرب المخيمات جزء من المخطط الذي يقضي بضرب الوجود الفلسطيني واقامة كانتونات طائفية! لقد كان الوجود الفلسطيني عقبة في تنفيذ التقسيم الطائفي . لذلك يريدون القضاء عليه تماما . . والمرسوم هو السيطرة على المخيمات ثم العمل على تهجير سكانها الى الاردن لتحقيق مقولة شارون التي اطلقها مع بدايات الغزو بتهجير الفلسطينيين الى الاردن لاقامة الوطن البديل . وفات الجميع ان لا وطن للفلسطينيين غير فلسطين! . لذلك تقاتل المخيمات بمثل هذا الصمود والتحدي . . ولتحسب مجزرة صبرا وشاتيلا الثانية على ذمة نبيه بري وسوريا وكذلك تم الحال في المجزرة الثالثة لصبرا وشاتيلا وبرج البراجنة»قلت له : كل هذا جرى لاخراجكم من المعادلة؟ . قال : «نعم . . لكن لم يجد كل ما حدث . ولم تسفر حرب المخيمات عن نهاية الوجود الفلسطيني في لبنان وتصاعدت عمليات المقاومة من الجنوب وفي داخل الارض المحتلة وارسينا شرعيتنا بالمجلس الوطني الفلسطيني . وتقدمنا في تحركنا الديبلوماسي . تبينت خطوات النجاح بالسير في الطريق الصحيح .

كان النجاح السياسي لتحركنا مزعجا جدا لاسرائيل وحلفائها . وأصبحوا في وضع حرج امام العالم! .

واسرائيل لا تريد السلام ولا الحل وتريد فقط سلاما تفرضه هي . وقد فعلت ما فعلت بالغزو على لبنان لتفرض شروطها .

اما مشكلة التمثيل الفلسطيني مشكلة من اختراع اسرائيل . . وصنعت في امريكا . لقد حاول ريتشارد مورفي المبعوث الامريكي ان يجد من يحاوره في داخل الارض المحتلة ويكون ممن ليس له صلة بمنظمة التحرير . . فكما تعرفين هناك فيتو كسنجري الا تحاور امريكا منظمة التحرير او تتصل بها .

واجتمع مورفي مع شخصيات الضفة والقطاع وسمعهم . . سمع منهم جميعا شيئا واحدا . انهم لا يتحدثون الا بلغة منظمة التحرير ولا يتصرفون الا من خلالها باعتبارها

الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني.

وكل ما جرى من اشكالية التمثيل الفلسطيني مضيعة للوقت. فأمريكا خاطبتني في مناسبات متعددة. ولكنه الضغط الصهيوني جعل امريكا تتراجع عن موقفها وجعل من الحضور الفلسطيني مشكلة المشاكل. وفي اثناء كل هذا الشد والجذب طلعت علينا رئيسة الوزراء البريطانية لتدلي بدلوها في هذه المحاولة ضد م.ت.ف واصطدمت بالواقع حيث وجدت في زيارتها الاخيرة لارضنا المحتلة شعبنا كتلة واحدة مع م.ت.ف فلقد ظهرت المكانة الكبيرة التي تمثلها منظمة التحرير وظهر انها الطرف الاهم في كل ما يدور على ساحة المنطقة ولا يمكن تجاوزها او القفز عليها».

وكان هذا تغيرا في ميزان القوى معاكسا لكل المخططات الموضوعة. فلم يكن من قوى الغدر الا ان تلجأ الى الغدر. . وقامت اسرائيل بغارتها الهمجية على مقر منظمة التحرير في تونس من ١ اكتوبر ١٩٨٥. وكانت منظمة التحرير قد تقدمت في خطواتها الديبلوماسية مما كفل لها ان تعود بالفعل كطرف قوي في المعادلة. وخفتت الاصوات التي كانت تشكك بمصداقية المنظمة وتضاءلت الى ان خفتت تماما. حتى ذلك الفيتو الذي كان قد وضع على شخص عرفات اصبح اضحوكة بعد ان تكشفت ان ارادة الشعب الفلسطيني لا تصنع هناك على موائد الخيانات ولا في ظل التحالفات المشبوهة. وانما هي حقيقة تتبع من ارادة الشعب. وظهر جليا ان كفة الميزان التي تقف فيها المنظمة هي الثقل الحقيقي عند التقييم. وعندما ظهر هذا النجاح واتضح للعالم اجمع صواب التحرك الديبلوماسي السياسي للمنظمة اسقط في يد اسرائيل. . ولانها لا تريد حقيقة سلاما في المنطقة كما تدعي.

لقد لجأت الى ضربتها الغادرة بضرب مقر منظمة التحرير بتونس املا في اغتيال السلام بالقضاء على رئيس منظمة التحرير الذي يتقدم بنجاح نحو تحقيق توازن بين اطراف المعادلة والذي احرز لمنظمته ـ التي كان من المفروض ان تهوى تحت الضربات المتلاحقة. فاذا بها تعود الى واجهة الاحداث وتصبح وحدها المؤثر الفعال في تقدم مسيرة السلام. وكان التراجع العلني يبدو مخجلا خاصة من كبرى دول العالم. امريكا التي اعطت ضوءها الاخضر لربيبتها لتنفيذ الضربة القاضية التي ظنوها القاضية على الرأس المفكر لكل هذه الخطوات الناجحة.

وقلت لـ «ياسر عرفات»: كيف قومت انت عمليا الغارة الاسرائيلية على مقرك بحمام الشط في تونس؟. قال: «قبل ان اتكلم عن الغارة لابد ان اتحدث عن المراوغات الامريكية والتي ظهرت انها تعمل من وجهة النظر الصهيونية فقط. واذا تتبعنا التكتيك الامريكي لعرفنا معنى هذا الكلام. انظري كيف كان الترتيب الامريكي. الترتيب الامريكي كان مع

الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني المشترك، ثم على اعتقاد من امريكا اننا كفلسطينيين لن نوقع الاتفاق! .

ثم عندما حصل اتفاق على لقاء اردني ـ فلسطيني مشترك مع المبعوث الامريكي وضعوا شروطا انهم لا يريدون ان يقابلوا اعضاء في اللجنة التنفيذية . وانهم يقابلون اعضاء من المجلس الوطني الفلسطيني . ثم ذهب مورفي الى الارض المحتلة محاولة منه ان يجد من الشخصيات الفلسطينية من يقبل بالتعامل معهم ضمن خطة في محاولة للالتفاف على منظمة التحرير الفلسطينية . فقابل ٤٤ شخصية . والذين قدموا له البيان المكتوب الموقع عليه منهم ان اي شيء سياسي يخص الشعب الفلسطيني يجب ان يتم مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب. فوجىء مورفي . وقام بجولة في البلاد العربية ثم رجع مرة اخرى وطلب لقاء «١١» شخصية فلسطينية جديدة يمكن ان تكون اقل تصلبا او مرنة معه اكثر من الشخصيات السابقة . فكان موقف الشخصيات الجديدة بنفس الصلابة ونفس الوضوح مثل المجموعة الاولى التي قابلها! .

وعندما ذهب الى الولايات المتحدة الامريكية قال : لقد فشلت في القفز على منظمة التحرير الفلسطينية فلسطينيا وعربيا! وبعد ذلك بدأوا يضعون الشروط على اللقاء بعد ان فوجئوا بأننا وافقنا كقيادة فلسطينية على ان يلتقي المبعوث الامريكي مع وفد فلسطيني ـ اردني مشترك من اعضاء المجلس الوطني الفلسطيني . وقدمنا عددا من الاسماء ووافق على الاسماء . . ووافق على اربعة اسماء من المجموع . اثنين من الارض المحتلة واثنين من خارج الارض المحتلة من القائمة التي قدمناها . واذا بها امريكا تتراجع مرة اخرى وتقول دعونا نرى اذا كان سيعقد مؤتمر قمة او لا يعقد . وعندما اعلن عن موعد انعقاد مؤتمر القمة في الدار البيضاء . . قالوا ـ وقد كان المفروض ان يحدث اللقاء قبل مؤتمر القمة ـ قالوا دعونا نرى نتائج مؤتمر القمة . في ظنهم ان المؤتمر لن ينجح . وعندما نجح المؤتمر ووضعوا في الزاوية تراجعوا تراجعا كاملا وقالوا لا لقاء مشترك مع منظمة التحرير الفلسطينية او ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية الا تحت الشروط التالية : الاعتراف بقراري ٢٤٢ و٣٣٨ . والاعتراف بحق اسرائيل في الوجود ضمن حدود آمنة معترف بها! .

طبعا نحن رفضنا هذا الكلام . وانا هنا اقول شيئا هاما جدا الموقف الامريكي الرسمي في التعامل مع كل المفاوضات الدائرة في العالم . . بينهم وبين القوة العظمى الاخرى الاتحاد السوفياتي . . لا شروط مسبقة . في امريكا اللاتينية لا شروط مسبقة . في جنوب شرق آسيا لا شروط مسبقة . في امريكا الوسطى لا شروط مسبقة . فقط يصرون على وضع شروط مسبقة مع الفلسطينيين، مما يعني ان هذا الموقف الامريكي هو موقف متحيز لا يرى في

سياسة الشرق الاوسط الا وجهة النظر الاسرائيلية. ثم تتابعت الاحداث بعد ذلك الى الغارة الاسرائيلية ـ الامريكية على حمام الشط في تونس.

الغارة لم تكن غارة اسرائيلية فقط. . انما كانت غارة اسرائيلية ـ امريكية على حمام الشط. وانا اقول انها ليست عملية عسكرية. . انما هي كمين عسكري لاغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية احد طرفي الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني. عملية اغتيال لرئيس اللجنة التنفيذية احد الموقعين على الاتفاق. . وبالتالي هو اغتيال الاتفاق. اغتيال امريكي ليس هذا فقط. ولكن اريد ان اشير الى انه باشتراكها ليس فقط بالموافقة ـ فالموافقة الامريكية اعطيت للحكومة الاسرائيلية وكشفتها الاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية في الساعة الثامنة والنصف يوم ١٠/٤. يعني بعد الغارة بثلاثة ايام، لقد اميط اللثام عن ان الحكومة الاسرائيلية قد ابلغت الحكومة الامريكية بعزمها على القيام بغارة ضد مقر منظمة التحرير في تونس يوم السبت الماضي يعني يوم ٢٨. . معنى ذلك انهم ابلغوهم على الاقل يوم الجمعة، يعني قبل حدوث الغارة على الاقل بخمسة ايام. هذا من جهة العلم. .

وهذا طبعا، اعتراف من اسرائيل بجهة العلم. فسألته: هل تعني ان هناك تورطا امريكيا؟. قال: «طبعا لان علاوة على العلم المسبق فهناك شيء اخطر لان امريكا قدمت مساعدات! اولا صور بالقمر الامريكي للمقر. . وهو كما تعرفين ليس مقرا، بل هو بيتي الخاص. جزء منه كما رأيت بيتي وجزء منه مكتبي. المساعدة الثانية تقديم معلومات عن تحركي في المنطقة العربية وموعد وصولي. تقديم المعونة للطائرات الاسرائيلية من خلال المرضعات! (والمرضعات تعبير عسكري ويعني تغذية الطائرات في الجو بالوقود) ـ التي تحركت من احدى القواعد الامريكية في البحر الابيض المتوسط.

ايضا المساعدة التي قدمتها امريكا عبر طائرة متخصصة في الحرب الالكترونية اعلن عن وجودها الاسطول الايطالي في المنطقة ما بين ايطاليا وبين تونس ساعة الغارة. واعلن الاسطول الايطالي ان هناك اتصالات لاسلكية تمت بين هذه الطائرات المغيرة وبين وحدات من وحدات بحرية موجودة في البحر الابيض المتوسط وطبعا هذه الوحدات امريكية.

ثم ما حدث من تشويش على الرادارات في المنطقة كلها. ثم بيان المتحدث الرسمي الامريكي الذي جاء بعد الغارة بربع ساعة ـ ١٥ دقيقة فقط بحيث اتضح انه لا يمكن الاعلان بعد هذه المدة الا ان يكون الاعلان معدا سلفا. . قبل الغارة. لان الاعلان يحتاج على الاقل لمدة ساعتين حتى يفهم اولا من السفير الموجود في تونس ماذا حدث ويرسل التقرير الى وزارة الخارجية الامريكية من السفارة الامريكية بتونس. وبعد ذلك يرسل الى البيت الابيض الامريكي. ثم يتخذ البيت الابيض قرارا مع او ضد وهذا يحتاج على الاقل

الى ساعتين. ومعنى اعلان البيت الابيض السريع ان الاعلان كان معدا قبل الغارة.

هذه هي حدود التواطؤ الامريكي. ومعنى ان اقول تواطؤا امريكيا لا يعني في الغارة فقط.. ولكن انا اعني في صراع الشرق الاوسط.

سألته بفضول: هل تقصد ان امريكا صنعت من نفسها طرفا في الصراع؟.

قال: هذا واضح جدا. لماذا اصر على ان اقول انها طرف؟. اولا الغارة الاسرائيلية واشتراكها بها وعلمها المسبق بها وتغطيتها اعلاميا والتناقض الذي حدث بين البيت الابيض ووزارة الخارجية.

قلت له: اذا كانت امريكا قد دخلت بثقلها بهذا الشكل.. فهذا يعني خلطا في ميزان القوى في المنطقة! قال: «طبعا، فأمريكا تريد ان تجعل من نفسها طرفا في الصراع. انها تحاول بأية وسيلة دفع ميزان القوى ليميل ناحية ربيبتها.. ويزعجها جدا ان تظهر المنظمة او اية قوة عربية لتعدل هذا الميزان. وهناك نقطة هامة وهي ان الرئيس الامريكي ريغان يدفع الحكومة الامريكية والشعب الامريكي الى الاشتراك مباشرة في الصراع في الشرق الاوسط، يخطيء نفس الخطأ الذي فعله الرئيس جونسون عندما دفع الحكومة الامريكية والشعب الامريكي للاشتراك والتورط في الصراع في فيتنام! نقول هذا الكلام لتكون الاشياء واضحة.

قلت له: «ابو عمار» هذا اتهام لامريكا!.. قال: «اتهام، انها على ثوابت ظاهرة، ايستطيع احد ان ينكر تورط امريكا في الصراع؟!».

وأحدثت الضربة الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير في تونس دويا عالميا. وتعالت اصوات الادانة لاسرائيل مما جعل الادارة الامريكية تتراجع بعد ان كانت قد اعطت تأييدها المطلق منذ اللحظة الاولى بأن اسرائيل قد ضربت الهدف الصحيح!. ولكن العناية الالهية التي ارادت ان تنقذ «عرفات» من موت محقق بمصادفة بسيطة قال عنها هو نفسه لي.. «مجرد حدس هو الذي جعلني اخرج من حمام الشط في هذا الصباح للرياضة. وكان مفروضا ان ابيت ليلتي هذه في مقري هناك. وبالفعل وانا في طريقي سمعت صوت الانفجارات».

العناية الالهية هي التي تدخلت لتحول مساره ليحفظه الله لهذا الشعب المطحون. ان الرجل الذي قصدته الطائرات الاسرائيلية في اقصى الغرب من الارض العربية كان هو الهدف الثمين الذي قطعت من اجله الطائرات الاسرائيلية آلاف الاميال لانه هو العقبة الكأداء في سبيل الحفاظ على القرار الفلسطيني المستقل. وهو الروح النابض للقضية. ووجوده وحده يؤثر في ميزان القوى وبشكل كبير بما يتجاوز كل العقبات التي تقوم في

مواجهته .

ولم تكن اسرائيل وامريكا يتوقعان ذلك الصدى الكبير للحدث . . اذ انهما كانا يتصوران انه يكفي ان يكرها منظمة التحرير ويعملان على ازالة وجودها القوي ليوافقهما العالم على ذلك . فكان لابد من عمل اي شيء لايقاف اثر هذا الحادث المدان وتشويه وجه المنظمة ودمغها بدامغ الارهاب الذي يدينه العالم كله . فكان ان ضُخّم حادث خطف السفينة الايطالية اكيلو لورو باخرة الركاب السياحية . ويكون الخاطفون منتمون لجبهة التحرير الفلسطينية احدى منظمات منظمة التحرير الفلسطينية . . في محاولة لدمغ منظمة التحرير بالارهاب ! .

واضفى حادث خطف السفينة جوا من التوتر على عديد من دول العالم . في مصر وايطاليا واسرائيل وامريكا ومنظمة التحرير الفلسطينية التي ادانت منذ اللحظة الاولى هذا الحدث . وما كان يعقل ان تكون متورطة به او تكون قد فكرت به وهي مازالت لم ينقشع بعد غبار الغارة من سمائها ! .

وتدخلت لانهائه عن طريق ابو العباس الذي ينتمي الخاطفون الى منظمته . ولولا الجهود التي قامت بها منظمة التحرير مع السلطات المصرية ما كان يمكن لهذه العملية ان تنتهي بسلام .

واتجهت السفينة الى الشواطىء المصرية بعد عودتها من طرطوس، الميناء السوري لينهي الفدائيون الاربعة عملية الاختطاف ويسلمون انفسهم للسلطات المصرية . ورأت السلطات المصرية بعد الاتصالات ان ترسل هؤلاء الاربعة الى تونس لتسليمهم الى منظمة التحرير تمهيدا لمحاكمتهم بعد موافقة امريكا على ذلك . لان التهمة كانت قد زادت تعقيدا باعلان موت راكب امريكي مقعد وجد ميتا في غرفته اثناء تفتيش السفينة بعد مغادرة الخاطفين . مع انه كان قد اجري تحقيق بواسطة السلطات المصرية وتم سؤال القبطان وكل افراد الطاقم عن خسائر في الارواح او اي مظاهر نتيجة لاعمال عنف . وكان النفي هو الاجابة .

وكذلك حين سأل ابو العباس مسؤول جبهة تحرير فلسطين افراد الكوماندوز عما اذا كانوا قد قاموا بأي اعتداء . فقالوا انهم لم يحدثوا اية خسائر، بل ان الركاب انفسهم قد اشادوا بطريقة تعامل افراد الكوماندوز اثناء العملية .

ورأى ابو العباس ان يصحب رجاله في الطائرة للذهاب الى تونس ليكون هو ورجاله بامرة رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . واستقل طائرة مصرية مدنية وبرفقتهم هو ورجاله ضباط امن مصريين . مع انه ـ وكما يقول ـ لم يشك في ان الطائرة

معرضة لحادث خطف او اسقاط. وكان هاني الحسن متواجدا في القاهرة اصلا في هذا الوقت وتـدخـل في المحـادثـات التي تمت بشـأن التسوية للازمة. وقد طلبوا منه ان يرافق افراد الكوماندوز في الطائرة الى تونس. ولكنه رفض ـ فكما قال لي ـ لقد رفضت تماما لاني كنت على يقين ان الطائرة كان لابد ان تختطف!.

وأدى تطور الاحداث السريع الى ان تختنق الاجواء العالمية بهذا التوتر الذي صعّدته امريكا باعتراضها الطائرة المصرية. طائرة الركاب المدنية التي كانت تقل الكوماندوز الاربعة و«ابو العباس».. والوفد المصري!.

كثيرة هي الاقاويل التي قيلت حول هذا الموضوع. وكان موضوع الساعة فقد ظهرت فيه امريكا بمظهر الفتوة الذي يستعرض عضلاته بين حشد من المشاهدين. كانت مهزلة اليمة ان تقوم طائرات حربية امريكية من احدث طراز باعتراض طائرة مدنية صغيرة من دولة صديقة ـ كما تدعي ـ وبموافقة الحكومة الامريكية على تسليم الكوماندوز لمحاكمتهم.

على ان ـ ابـو العباس ـ استطاع ان يفلت من قبضة الحكومة الامريكية بمساعدة الحكومة الايطالية نفسها مما خلق ازمة بين الحكومتين الامريكية والايطالية والتي بدت نذرها منذ قامت الطائرات الامريكية بتحويل الطائرة المصرية واجبارها على الهبوط في ايطاليا. وبعد مرور وقت على هذه الحادثة قدر لي ان التقي ـ ابو العباس ـ لاجري معه حديثا مطولا عن حقيقة ما حدث. فقال: يمكن اختصار المسألة بدقة ان كل ما جرى له اطاره السياسي. بمعنى الاتهام والمحاكمة والمطاردة كلها عناوين لموقف سياسي. معاد لا اكثر ولا اقل. اما من الناحية القانونية الاجرائية فلو افترضنا ان عملية خطف الباخرة قد تمت فعلا من قبل مقاتلي الجبهة وبقرار من قيادتها فهل يريد القانون محاكمة رئيس دولة اذا قامت وحدات قوات تابعة له بعمل ما؟ وفي نفس الاطار هل يمكن قانونيا محاكمة ريغان على عملية القرصنة الجوية التي قامت بها وحدات من الجيش الامريكي؟. هل يمكن محاكمة اي مسؤول عن مهمات محددة قامت بها بعض القوات التابعة له؟. الموضوع كله ان هناك محاولة امريكية للاسـاءة الى منـظمـة التحـرير الفلسـطينية والاساءة الى الشعب الفلسطيني وقادة الثورة الفلسطينية واتهامهم بالارهاب لمحاولة التقليل من اهمية نضال الشعب الفلسطيني بغض النظر عن التفاصيل التي حدثت.. نحن نشعر ان كل ما حدث لابد من محاكمته سياسيا وليس قانونيا. في الاطار القانوني اضطهاد الشعب الفلسطيني وتشريده وقتله ضد القانون وضد حقوق الانسان. كل ما تفعله امريكا يتناقض مع حقوق الانسان سواء كان حقه في العيش على ارضه او حقه في تقرير المصير او حقه في الدفاع عن اراضيه. بينما كل ما نخوض فيه من نضال في المعنى القانوني.. قانوني ايضا. وكافة الشرائع الدنيوية تعطي حقاً للانسان

بالنضـال لتحـرير الـوطن من الاستعمار. نحن نناضل في سبيل الحرية ونواجه الارهاب الامريكي والصهيوني بأبشع صوره وبإعتبار هذه المواجهة ايضا جزءا من النضال.
سألته: ترى ماذا كنت تفعل في مصر وقت الاحداث؟ . قال تواجدي في مصر كان بالصدفة. كنت متجها الى تونس بطريق الترانزيت عندما ابلغت بوقوع الحادث. وتلقيت خبرا من القائد العام بطلب التدخل وبذل الجهد من اجل ايجاد صيغة سلمية للحادث.
قلت: الذي جعل الاتهام يتجه لك ان فريق الكوماندوز من بين افراد التنظيم الذي تشرف عليه.

فقال: لو لم اتدخل انا شخصيا لحدثت مشاكل كثيرة. والحقيقة انا مبلغ بالعملية ولكنهـا لم تكن على هذا الاسـاس. وهنـا المفـارقـة. . نحن اعطينا موافقتنا على العملية العسكرية عندما طرحتها القيادة العسكرية وهي عملية تتلخص بالقيام بعمل عسكري كبير في ميناء اسدود. حدث وان كُشف المقاتلون على ظهر الباخرة. المقاتلون استخدموا الباخرة فقط للوصول الى ميناء اسدود كما يستخدم اي انسان منا وسيلة مواصلات. وكان اسلم وسائل المواصلات في هذا الوقت هو الاستفادة من رحلة سياحية الى ميناء اسدود. ثم ينطلق الـرفـاق للقيام بعملهم العسكـري. لكن تم انكشافهم في الساعات الاخيرة للرحلة مما اضطرهم للسيطرة على السفينة لكي لا يعتقلوا فقط! العملية من حيث الاجراءات التي تمت من اجـل الاستيلاء على البـاخـرة لم يكن عندي بها علم. ولا اقرها اساسا فانا لا اؤمن بعمليات الخطف. والتطورات هي التي فرضت على المقاتلين السيطرة على الباخرة. وهذا كان واضحا من طبيعة سلوك المجموعة اثناء احتجاز الباخرة. كلام ركاب الباخرة والكابتن والطاقم اثنى وللغاية بروح المقاتلين. واستجابة المقاتلين للنداء بتوجيه الباخرة الى بور سعيد ومغادرتها. لقد غادروها بلا شروط الههم الا شرط واحد وهو تأمين سلامتهم. ثلاثة ايام مستمرة لم يبد على المقاتلين ما يوحي ان هدفهم الاساسي هو الاستيلاء على الباخرة.

ولما سألته عن حكاية الراكب الامريكي. قال بحرارة: لم يكن هناك اي اعتداء على الركاب ولم يقتلوا الراكب الامريكي والتحقيق حتى الآن رغم الضغوط التي تتم على المقاتلين ليس فيها ما يثبت انهم قتلوه. اما ان يكون الراكب قد قُتل او مات فهذه مسألة اخرى. وتقديري ان الراكب الامريكي مات في الباخرة التي تحوي ١٢٠٠ غرفة وفيها مئات الركاب والمقاتلين وعددهم اربعة. .اذن هو عمل عسكري غير عادي ان يتمكن اربعة من الشباب السيطرة على الباخرة! العدد لا يتيح لهم فرصة تفتيش الباخرة وتدقيق موجوداتها. وهذا رجل مقعد قد يكون منسيا في غرفته. طبعا مقعد ومريض وخلال ثلاثة ايام من الاهمال لم ينتبه اليه احد ممكن ان يموت. وبعد ان غادر المقاتلون الباخرة اكتشفت جثته في غرفته وهذا

الذي يؤكده الكابتن الايطالي. لم يخبر ان عنده قتيلا الا بعد خمس ساعات من مغادرتهم للباخرة. بمعنى انه اثناء عملية تفتيش الباخرة من قبل الكابتن والركاب وجدوا هذا القتيل. وتمت بتقديري عملية امنية امريكية بدفعه على المياه السورية او تم تنسيق امني بينهم وبين سوريا لان سوريا لها هدف اساسي منسجم مع الهدف الامريكي في محاربة منظمة التحرير الفلسـطينية وتشويه صورة مقاتليها. ولو كان المقاتلون هدفهم قتل الركاب فلماذا يقتلون امـريكيا مقعـدا؟. . هناك عشرات الامريكان على ظهر الباخرة فلماذا يكون هذا المقعد بالتحديد؟. يمكن ان تكون عملية القتل لمن يزعجهم او يشكل خطرا عليهم!. . على كل حال امر العملية اساسا لا يحمل عملية خطف. والمقاتلون انفسهم اصلا ليسوا لعمليات الخطف. هم مجموعة انتحارية كانت ذاهبة الى اسدود للقيام بعمل عسكري ضد اسرائيل حتى الشهادة. لكن القدر هو الذي ساقهم لهذا. وهذا ما جعلني اتدخل خوفا من تطورات غير محسوبة. خفت ان تفلت اعصاب المقاتلين بعد كل هذا التوتر وتحدث تطورات تؤدي الى مجزرة يقتل فيها مئات الناس.

كتبت هذا بالتفصيل لاروي كيف شرح ابو العباس لي العملية التي حيرّت العالم وهل كانت عملية ارهابية ام ما قوبلت به كان هو العمل الارهابي؟.

ووفقا لكلام ـ ابو العباس ـ تكون العملية ـ والتي قلبت الاوضاع واضاعت اثر الغارة الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير والذي كان مشمولا بالعطف والتأييد ـ تكون عملية فدائية للقيام بعمـل بطولي في الارض المحتلة. . وهـو الكفـاح المشرع من كل القوانين الدولية. ولكن القدر اراد ان يفقد منظمة التحرير موجة التأييد والعطف التي ترددت لها في جنبات العالم.

الا اننا لا نستطيع ان نغفل موقف ايطاليا الرسمي حين وقف رئيس الوزراء كراكسي ـ الذي اضطر الى تقديم استقالته ـ بجانب منظمة التحرير ولم يدمغها بالارهاب. بل انه ابى تسليم ـ ابو العباس ـ الى امريكا لانه يرى الرجل بريئا من تهمة الاختطاف وان دوره كان يقتصر على عمل وساطة. ورأى في تسليمه نوعا من الخضوع للنفوذ الامريكي.

وواجهته المعارضة من جانب الجناح المعارض الذي كان مؤيدا دائما لسياسة اسرائيل فانسحب من الحكومة لتحدث الفجوة القاصمة في بنيتها وليضطر كراكسي للاستقالة. . ولكنه وكما كتبت عنه مقالا في ذلك الوقت. . سقط منتصرا. . ولكن كراكسي عاد مرة اخرى حين اسند اليه تشكيل الحكومة من جديد عاد شامخا اكثر من أي وقت حين وقف في البرلمان ليعلن تأييده لحق المنظمة في الكفاح المسلح المشروع. وكان موقف حق من رئيس الحكومة الايطالي الذي فاق بعض المواقف العربية بكثير.

وارادت بريطانيا ان تظهر بمظهر الاستقلال في القرار وتنفيذ وعدها والذي كانت قد قطعته لمقابلة وفد اردني ـ فلسطيني مشترك بعد ان سمت رئيسة الوزراء بنفسها العضوين الفلسطينيين. وما كان احد يتصور ان تنكث الرئيسة البريطانية بوعدها. اذ كانت هذه المقابلة منتظرة لتخطي عقبة السماح للفلسطينيين بالاشتراك المباشر في المباحثات. ورغم المناخ الدولي المتوتر فقد حان اليوم للقاء المنتظر. . واذا ببريطانيا لا تكون افضل من امريكا. واذا بالخارجية البريطانية تضع الشروط المفاجأة حتى يتم اللقاء. . مع ان الوعد كان على غير شروط. لكن السياسة مصالح. . ومصلحة بريطانيا دائما ان تكون في ذيل امريكا. . وامريكا غاضبة!.

لقد تحركت عواطف مسز تاتشر وسط المخيمات للاجئين الفلسطينيين وانفعلت لدرجة التهور حين ابدت موافقتها بمقابلة عضوين من منظمة التحرير. ولكن حين رأت كيف رفعت امريكا العصا في وجه العالم بكل هذا التحدي هدأ انفعالها وبردت عواطفها وخافت ان يفلت منها ذيل واشنطن. . والسياسة لا قلب لها فما كان منها الا ان جمّدت عواطفها وتناست ما رأته في مخيمات اللاجئين وسحبت ابتسامتها العريضة في وجه الحكام العرب الذين لقيتهم واتفقت معهم على مصالح متبادلة. ويقول «ابو عمار» هنا: «الى ان تأخذ الوقت للتوقيع على صفقة التورنادو. وبعدها تتنكر لوعودها التي اثارت دهشة في وقتها. . والكل يعرف بريطانيا!».

وكشر الاسد البريطاني عن انيابه في وجه مسز تاتشر وسحبت موافقتها بكل برود الديبلوماسية الانجليزية وكأنها تؤكد بكل بساطة ان الدنيا مصالح متراجعة عن خطوتها المتقدمة التي كانت قد اقدمت عليها بدعوة اثنين من منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في الحوار بشأن السلام ملحقة بذلك خيبة كبيرة بالامل الذي انبثق من ضمير العالم الحر بتحقيق خطوة ايجابية نحو الحل.

وسألت «ياسر عرفات» عن فشل هذا الاجتماع والذي كان فشله ضربة معوقة للمحاولة وبداية لازورار الجانب الاردني عن نصفه الآخر في الاتفاق. وقلت له: ما دمتم كنتم قد اتفقتم على خطة عمل مشتركة وذهبتم الى لندن باسم الوفد الاردني ـ الفلسطيني المشترك. . فلماذا تقدم الجانب الاردني ولم ينسحب هو الآخر؟.

قال: «ذهب الطرف الاردني الى وزارة الخارجية البريطانية ليعرض على جيفري هاو الصيغة التي اتفق عليها. اي البيان الاردني ـ الفلسطيني المشترك. . اي صيغة مشتركة لاذاعتها. بدلا من الصيغة التي كانت قد قدمتها وزارة الخارجية البريطانية. وعندما ذهبوا فوجئوا بالبيان الذي اصدرته وزارة الخارجية البريطانية بتمسكها بشروطها التي عرضتها

وبالغاء اللقاء».

سألت: الغاء اللقاء حين رفض الفلسطينيون؟ . . قال: «لا ليس لان الفلسطينيين رفضوا، لكن حين رفضنا الشروط المسبقة. وانما عرضنا بيانا آخر رفضته بريطانيا». فسألته: هل لم يتم اذن مقابلة بين وزير الخارجية البريطانية وبين الجانب الاردني؟ . . قال: «حصل اللقاء. ذهبوا يعرضون البيان على وزير الخارجية ففوجئوا ان وزارة الخارجية قد اصدرت بيانها! هذا الكلام كان في الساعة التاسعة بينما لقاء الوفد المشترك كان الساعة الحادية عشرة»!.

قلت: لكن هذا الموقف انعكس بالغضب على رفاقكم الاردنيين وبدأ الكلام عن تنسيق جديد بينكم وبين الاردن والمفروض انه كان هناك تنسيق. قال: «لا ليس تنسيقا جديدا. وهذه نقطة مهمة يجب ان تكون معروفة. الموقف كان بيننا وبين الاردنيين هو اعادة تقييم ـ في ذلك الوقت ـ لماذا؟ . . للمسيرة السابقة المشتركة ووضع خطة للخطوات الجديدة على ضوء التطورات التي حدثت سواء بالنسبة للموقف البريطاني المتراجع او بالنسبة للوفد الامريكي الجديد الذي كان في البداية مع الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني المشترك. . ثم وضع شروطا للقاء»!.

والغريب ان جميع هذه الخطوات تمت وكأنها كانت بترتيب مسبق! فليس من قبيل المصادفة ان تجرى مثل هذه الخطوات المتراجعة التي تجذب منظمة التحرير وبقوة الى الخلف وتناضل المنظمة متشبثة بمكانها تقاوم هذا الموج المتلاطم الذي يحاول ان يقذف بها بعيدا. ورأينا كيف بعد ان كادت ان تتمكن من اللقاء مع امريكا على طاولة المحادثات كيف اشتدت المؤامرات من حولها!.

وعندما عقد مؤتمر القمة في الدار البيضاء وكان من نتائجه تنقية الاجواء العربية والتي وافق «عرفات» ضمن الحاضرين على قراراتها. وكانت لجنة التنقية تكونت لتقرّب بين الاردن وسوريا. . ثم بين سوريا والعراق. وبينما بدأت لجنة الاردن وسوريا تعثرت الجهود بين سوريا والعراق بسبب ان سوريا ليست متلهفة على اللقاء مع العراق اذ تقف بينه وبينها خصومات بلغت حد العداء السافر بمساعدة ايران ضد العراق من حربه! . . مسقطة بذلك اهم بنود الدفاع المشترك والذي يقول ان اي اعتداء على دولة عربية. . اعتداء على جميع الدول العربية. حتى عندما اتيحت الفرصة لوقف هذه الحرب المدمرة حين بدأت الغزوة الشهيرة على لبنان. لذلك ندرك كم كانت سوريا حريصة على التقاط شريك «ياسر عرفات» في التحرك الاستراتيجي ليجد «عرفات» نفسه وحيدا. والحق ان هذا الحليف كان مهيئا تماما. . فهو منذ ان ضربت اسرائيل مقر المنظمة في تونس وهو يعيد التفكير فيما لو كانت

الضربة موجهة له هو.. وهو اقرب هدف للاسرائيليين خاصة وهو الحليف الاول للفلسطينيين!.

واخذت الفرصة تأتيه مؤاتية ليعلن ابتعاده مؤثرا السلامة. واصبح الموقع كما وصفه هاني الحسن: إنج سعد فقد هلك سعيد! وهكذا بدأ الاردن يدير ظهره شيئا فشيئا! وأقبل بترحاب كبير على الخصم السوري الذي بلغت معه الخصومة الى حد المواجهة المسلحة. ويبدو ان شرط الصفاء الوحيد الذي وضعته امريكا وسوريا كان ذبح «عرفات»!. وحاول رئيس المنظمة الا يكون متشائما.. وقد كان كل المعلقين والمحللين يقولون ذلك في الوقت الذي كان هو وحده يقول: «انه سعيد بهذا التقارب لانه طريق لجمع الكلمة»!.

وكنت اسمع منه ذلك ولا اصدق! واعرف انه في قرارة نفسه يتحسب من هذا التقارب لانه يعرف طبيعة سوريا.. ومنذ زمن! ومنذ ان كان الرئيس السوري وزيرا للدفاع. هو يعرف.. ونحن نعرف! ولكننا لا نريد ان ننبش في الجرح العربي!.

وبقي «ياسر عرفات» وحده.. ومن جانب واحد يعلن ارتياحه للتقارب الاردني - السوري. لقد قال لي حين سألته: لقد قلت في تصريح اخير لك انك تدعو سوريا للانضمام الى الاتفاق الاردني - الفلسطيني، فهل من الممكن ان تفتح المصالحة الاردنية - السورية الطريق الى هذا؟.

اجاب: «يجب ان اقول ان المصالحة الاردنية - السورية هي بناء على قرار صدر عن قمة الدار البيضاء. وبعد ذلك قابلت سوريا لجنة تنقية الاجواء المنبثقة عن القمة. ونحن مشاركون في القرارات ووافقنا على لجنة تنقية الاجواء. ذلك وجهت دعوة للرئيس السوري لتنضم سوريا الى الاتفاق الاردني - الفلسطيني ليصبح الاتفاق الاردني - الفلسطيني - السوري! وعندما ندعو سوريا او اية دولة عربية للانضمام فلأننا قلنا ان هذا الاتفاق ليس محورا ولذلك عندما ندعو ننطلق من مفهومنا ان هذا اتفاق عربي او في ظل جماعية عربية».

ولا أدري لماذا لم اقتنع بكلام الرئيس.. فلا أظن انه غاب عن حصافته ما يراه كل الناس!.. كان الجميع يرون غير ما يراه. ولا اظن الان هذا الذي قاله «من قبيل الديبلوماسية فقط». فهو يعلم ان سوريا ما قبلت تنقية الاجواء بينها وبين الاردن الا لتضرب الاتفاق الاردني - الفلسطيني. اذ كان اصغر صغار المنشقين من الملتجئين الى سوريا لا يرفعون الا شعار اسقاط الاتفاق الاردني - الفلسطيني.. فما بالك بالرأس نفسه؟.

والحقيقة فقد اربكني الرئيس من هذا الموقف المتناقض الذي يضطر ان يقفه ليرضي جميع الاطراف!. ولكني التمس له العذر ايضا.. فربما كان حسن الظن جدا..

وحسن الظن جدا بشريكه في الاتفاق. . بحيث يتصور انه يصبغ على الاتفاق صبغة القداسة بحيث لن ينقضه ابدا! . ولكن لا ارجح هذا ولا ذاك. فانا اعرف «ياسر عرفات» جيدا. ولا اظن ان هناك مَنْ هو اقوى منه بالنظر الثاقب للامور. وتقديري ـ الخاص ـ انه كان يعرف ما سيسفر عنه هذا التقارب. وعلى قدر الديبلوماسية التي ينتهجها رئيس منظمة التحرير على قدر فجاجة الديبلوماسية السورية في هذه النقطة. فحين يقف وزير الخارجية السوري ليعلن موت اتفاق عمان ودفنه. . غير عابىء بالحرج الذي سببه لملك الاردن نفسه بهذا الاعلان. . فالمعروف ان الاتفاق عرف باسم اتفاق الحسين ـ عرفات . . فلا يستطيع احد ان يسقطه غير الطرفين معا او احد الطرفين باعلان ذلك. لقد اعلن الوزير السوري موت اتفاق عمان دون ان يكذب الاردن خبر الوفاة! . وبقي «ياسر عرفات» في كل مناسبة يعلن تمسكه باتفاق عمان الى آخر مدى. والملك نفسه لم يعلن اسقاطه. . فكيف يتسنى للوزير الذي هو وزير خارجية بلد ثالث اعلان موت الاتفاق؟! .

لقد كان هذا الاعلان دفعة اخرى في محاولة تغيير نظام قوى المنطقة بحيث تتوارى المنظمة عن ظهورها القوي بين دول المنطقة بإفقادها نقطة الدفء التي شملتها بعد الخروج المقدور من لبنان. وظن الجميع ان ميزان القوى قد مال عن المنظمة كثيرا. وان عزلة ستحيط بها ايذانا لتجميد دورها. ولكن تصاعد العمل المسلح داخل الارض المحتلة بقي اكبر دليل على قوة المنظمة. كذلك كسبت نقطة في لبنان بتماسك المخيمات وعودة المقاتلين اليها. وبالذات مقاتلو «فتح» الذين تعود المراقبون بتلقيبهم باسم انصار «عرفات». . وسقوط قذائف الكاتيوشا على المستعمرات الاسرائيلية.

وكان «ياسر عرفات» اكبر بكثير من محاولات الحجب او العزل. ورأيناه في جولاته المتواصلة التي امتدت الى عمق القارة الافريقية وكل البلاد العربية. ولم يكن عبثا ان خرج لتحيته نصف مليون انسان في بلد واحد كالسودان. ورأيناه يطوف بالبلاد العربية في رحلة تنشيط للعلاقات وللمكانة واجلاء للظهور. فيرتفع التأييد حوله في كل مكان يزوره في بغداد وصنعاء والامارات والسعودية والسودان الذي حظي فيه كما قلنا باستقبال يقال ان السودان لم يشهد مثله الا عندما استقبل «عبد الناصر» بعد هزيمة **١٩٦٧** والذي كان بالنسبة له دعما نفسيا كان يحتاجه.

ورغبة منه في حلحلة الوضع الدولي والخروج عن هذه الحجة التي رفعها الصديق والعدو. . دعوى الارهاب زار «عرفات» مصر في **٢١** نوفمبر **١٩٨٥**. . وشجب الارهاب فيما عرف باعلان القاهرة في **٢٤** من الشهر نفسه في ختام الزيارة. ومن مقر الرئاسة في مصر وبحضور الرئيس المصري. ادان «عرفات» الارهاب تعبيرا عن حسن نيته ورفضه للارهاب

لان الفلسطينيين حسب تعبيره هم ضحايا الارهاب.

وعلى كل لم يجده هذا الاعلان كثيرا.. وقالت اسرائيل ان ادانته للارهاب يجب ان تشمل الارض المحتلة ايضا لتتوقف فيها العمليات تماما!.. وقالت امريكا انها لا تصدقه!!.

ولم يبتهج كثيرا بهذا الاعلان صديقه وشريكه ملك الاردن، بل ظل على ازوراره وتأففه. وحاول «عرفات» ان يوصل ما انقطع ـ وفي وسط التقارب السوري وفي غمار الزيارات المتبادلة قطع رحلته وهبط عمان! وكأنه يريد أن يؤكد للجميع ان الامر مازال بيده. مع انه كان واضحا جدا انه يعمل بمفرده.. بينما تحوّل شريكه لمهمة ابلاغ وجهة النظر الامريكية فقط. ومع ذلك استمر في مباحثاته ومشاوراته مع الاردن للتوصل الى صيغة مقبولة لاشتراك المنظمة في المفاوضات المنتظرة. وقدمت المنظمة كل ما استطاعت من تنازلات بحيث تبقى الثوابت في مكانها المحفوظ. وابدت استعدادها بالاعتراف بالقرار ٢٤٢ اذا حصلت على ضمانات للاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

وقدم «عرفات» ثلاث صيغ لهذا الاعتراف المتبادل ولكنه ووجه بالرفض! ان امريكا هي التي ترفض دائما وهي التي تتراجع دائما. وبلغ من سطوتها انها لا تخجل من اعلان رفضها الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني مغفلة بذلك بندا من بنود ميثاق الامم المتحدة.

وكان المنتظر ان يكون هناك موقف عربي امام الولايات المتحدة اذ انه لا يجوز وهي احد اعظم قوتين في العالم ان تقف متعنتة امام شعب لا يطلب اكثر من حقه في الحياة. ولكن العرب مشغولون بأنفسهم وبخلافاتهم.

وكان المفروض ان يأخذ الاردن وهو الشريك الوحيد في التحرك الجانب الفلسطيني امام التنكر الامريكي. وحتى يكون الموقف الموحد اقوى بكثير في الضغط على الطرف المتشدد.

ترى هل يوافق الاردن على عدم الاقرار بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني؟ وهذه هي النقطة المختلف عليها!.

ولكن الاردن كان قد مل العملية كلها وطبقا للضغوط الامريكية وهو في وسط كل هذه المتغيرات الجديدة. فاذا به يفاجىء العالم كله باعلان وقف التنسيق مع منظمة التحرير ويطالب بزعامة جديدة بديلة للزعامة الحالية للسير بجانبه في مسيرة السلام!! ووقع الاردن في نفس الخطأ التاريخي! واغمض عينيه عن كل المحاولات الفاشلة التي استهدفت القيادة.. قيادة «عرفات» بالذات.

وقد ظن في وسط هذه الظروف القائمة والتي تحيط بالمنظمة ان الفرصة ربما اصبحت مؤاتية للتخلص من هذا الزعيم الذي استعصى على كل طالبيه لان الجماهير تحميه.. وطبيعته القيادية تمنحه النجاح. وأدى هذا الاعلان العجيب الى حدوث بلبلة وخلط جميع الاوراق.. وظن الشامتون بالمنظمة ان هذا هو وقت الخلاص منها ومن رئيسها. وان ملك الاردن بوقف التنسيق قد قلب الطاولة على رأس الجميع بما لا يتيح النهوض مرة اخرى!.

وتخوف اصحاب النوايا الحسنة من حدوث انشقاق آخر في الصف الفلسطيني نتيجة المناداة بزعامات جديدة. وربما انتشى كل مغرور متصورا ان الزعامة لا تكلفه اكثر من قفزة واحدة في الهواء ليمتطيها.. بينما اشفق كل عاقل مدرك قيمة الزعامة وعالم بمشقة الطريق الموصّل اليها.

وقصرت قاماتهم ان تنال هذه المكانة العالية. فالزعامة تصنعها تضحيات ومحن وصلابة وحب جماهيري وانتماء حقيقي وقدرة على العطاء. و«ياسر عرفات» كل هذا.. واكثر. «ياسر عرفات» يعرفه شعبه ولن يصدق فيه كلمة مما يقال عنه. فهو يعرف جيدا انه يتحرك لصالح القضية لا ضدها. مهما تقوّل عليه الشركاء!.

ولم تستطع السلطة بعد وقف التنسيق ورغم كل مظاهر التأييد التي اجريت وادعتها ان تحصل حقيقة على التأييد ضد شخص رئيس المنظمة وضد زعامته او اسقاط المنظمة من الحسبان. لقد كان وقف التنسيق بين المنظمة والاردن خطوة تراجعية كبيرة أيدت ادعاءات اسرائيل من ان المنظمة تمثل عقبة في طريق السلام. وحاولت ان تظهر ان المنظمة هي التي ترفض تطبيق القرارات الصادرة من الامم المتحدة.. وكان الموقف الاردني تأكيدا على هذا رغم ان المفاوضات كانت دائرة للتوصل الى صيغة لتقبل بها الولايات المتحدة.

وكان رئيس المنظمة يوالي مباحثاته لاعداد الصيغة التي تقبل بها الولايات المتحدة. ولكن وقوف الولايات المتحدة بتصلب امام اشتراط قبول المنظمة المسبق بالقرار وحق اسرائيل في الوجود وضمن حدود آمنة معترف بها.. وعلى اعلان المنظمة عن وقف الكفاح المسلح مقابل موافقة الولايات المتحدة على قبول اشتراك المنظمة في المؤتمر الدولي ضمن وفد مشترك. ورفضها الدائم للاعتراف بالمنظمة ورفض الاعتراف بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما فيها حق تقرير المصير.. هو الذي أزّم الامور.

رغم ان المنظمة لم تعلن رفضها البات للقرارين الشهيرين ٢٤٢ و٣٣٨ ولكنها ابلغت الملك انها ستعترف اذا لقيت الضمانات من الولايات المتحدة. وقال لي «ياسر عرفات»: «ان الملك حسين ذكر ذلك بنفسه عند زيارته لواشنطن في الزيارة الاولى في شهر مايو ١٩٨٥ ومن خطابه في الروز جاردن ان المنظمة مستعدة للاعتراف بجميع القرارات للامم المتحدة بما فيها

القرارين. بل - وفي آخر جلسات المباحثات وقبل اعلان وقف التنسيق طلب الملك أن اؤكد له على ما اعلنه في واشنطن سنة ١٩٨٥ وكنا نجري الاعداد لصيغ ثلاثة لتقبل امريكا بأي منها. . وتركت الملك وانا مطمئن. بعد ان تم الاتفاق بيننا على تأكيد هذه الصيغة - وفي نفس الوقت قدم الدكتور حسن الزيات الذي ابتهج حين عرف بالامور ووضع هو الصيغة الثالثة بنفسه ووافقت عليها انا ولم يبق الا موافقة الملك. ثم فوجئنا بما حدث».

اي ان خطوة الاردن التراجعية قد نسفت هذا التقدم الذي كان يسير نحو الحل. وانحازت الى الجانب الامريكي. وقد كان خطاب الملك شديد اللهجة حين اتهم القيادة الفلسطينية بعدم المصداقية والمحافظة على العهود! الا انه شرح شرحا تفصيليا كل الخطوات التي تمت مظهرا مدى حرصه للوصول مع رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الى حد يوافق عليه. الا انه من الواضح ان اكثر ما ازعج الملك هو وقف صفقة الاسلحة الحديثة التي كان يأمل بالحصول عليها من امريكا. وربما ايضا، بل انه من المؤكد ان تكون امريكا لجأت الى هذا للضغط على الاردن ليترك شركاءه وينفرد هو بالحل كما اورد في نص الخطاب في فقرة تقول: في مساء ١٩٨٦/١/٢٥ تلقينا من الادارة الامريكية اقتراحا يقول بأن الولايات المتحدة ترى انه مادامت منظمة التحرير غير قادرة الآن على اتخاذ قرار بقبول ٢٤٢ فبامكانها الانتظار الى الوقت الذي تراه مناسبا. . والى حين ذلك ترى الولايات المتحدة ان تمضي في عملية السلام بمشاركة فلسطينيين من الارض المحتلة وستبقى الفرصة متاحة امام منظمة التحرير للمشاركة في المؤتمر الدولي في اللحظة التي توافق فيها على قرار ٢٤٢. ويستمر الخطاب - واجبنا الولايات المتحدة على اقتراحها هذا بالرفض وقلنا لها ان هذا الاقتراح هذه المرة لا يعني المنظمة فقط، بل يعنينا نحن ايضا حيث موقفنا الثابت هو عدم الانفراد بالحل.

وفي ١٩٨٦/١/٣١، تلقيت من الرئيس الامريكي رسالة يعتذر فيها عن عدم تمكنه من مواصلة السعي مع الكونغرس الامريكي للموافقة على بيع اسلحة امريكية حديثة للاردن وهي الصفقة التي كنا نسعى للحصول عليها منذ عام ١٩٧٩. في وجه معارضة اسرائيلية صهيونية شرسة وفي ظل تعهد الرئيس الامريكي بتلبية طلباتنا. وفي مساء اليوم نفسه، قام وزير البلاط بابلاغ السيد «ياسر عرفات» مضمون الاقتراح الامريكي الاخير حول المضي في عملية السلام بدون المنظمة الى ان تقبل بالشروط. . ورفضنا القاطع لهذا الاقتراح ورسالة الرئيس ريغان بالاعتذار من عدم تمكنه من تلبية طلبنا من الاسلحة!

وفي ١٩٨٦/٢/٥، قدم الجانب الامريكي صيغة جديدة تتضمن موافقة الولايات المتحدة على عقد المؤتمر الدولي على اساس قرار ٢٤٢ وتأمين الحقوق المشروعة للشعب

الفلسطيني. واجتمعنا مع السيد «ياسر عرفات» وسلمناه الصيغة الامريكية الجديدة فوعد بدراستها وقدم لنا بالمقابل ثلاث صيغ بعبارات مختلفة ولكن بمضمون واحد يؤكد موقف المنظمة الذي سمعناه منهم عند بداية لقاءاتنا في هذه الجولة. وفي ١٩٨٦/٢/٦، اجتمع السيد «ياسر عرفات» مع رئيس وزرائنا وأبلغه انه على الرغم من تطور الموقف الامريكي الا ان الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني لا يغطي حق تقرير المصير الذي تصر المنظمة على قبول امريكا المسبق به.

وفي ١٩٨٦/٢/٧، غادر السيد «ياسر عرفات» عمان مصرا على موقفه ومتمسكا بالاسباب التي تدعوه الى عدم موافقة منظمة التحرير على قرار ٢٤٢ تلك الموافقة التي كان سينجم عنها فورا فتح باب الحوار الامريكي ـ الفلسطيني والتي كنا على اساسها سنواصل العمل باتجاه عقد المؤتمر الدولي للسلام وبناء عليه ستوجه الدعوة لمنظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في المؤتمر ممثلة عن الشعب الفلسطيني.» وهذا المذكور في خطاب الملك ربما يضفي مظهر المتشدد على رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير باعتبار ان موقفه المتشدد امام القرار ٢٤٢ لم يجعله يلحق بركب المؤتمر الدولي. ورغم ان الكل يعرف انه ليس من المعقول ان تتاح الفرصة امام «ياسر عرفات».. ثم يلقيها ببساطة خلف ظهره.. ولابد كان في رفضه ما يعرفه هو من عدم التوافق مع مصلحة شعبه.. الا اننا نستطيع ايضا ان ننظر في رد منظمة التحرير الفلسطينية على خطاب الملك لنرى هل كان حقيقة رفض «عرفات» هو العقبة الوحيدة التي حالت دون انعقاد مؤتمر السلام؟.. وهل حقيقة ان الموقف الفلسطيني كان جامدا بحيث لم يستطيع تجاوز هذه العقبة التي رصدوها له في الطريق؟. ام ان «عرفات» كان مضطرا لهذا الموقف حتى لا تضيع منه ورقته الاخيرة ليجد خصمه جانياً المكاسب من دونه؟.

هل يا ترى ان «عرفات» بكل ما عرف عنه من لهفة للامساك بأية فرصة تمنحه وشعبه اي نقطة تقدم قد فاتته الفرصة المتاحة التي يتكلم عنها خطاب الملك؟. واذا قرأنا رد المنظمة على خطاب الملك استطعنا ان نضع النقاط على الحروف.

يقول الرد: تبدي منظمة التحرير الفلسطينية اسفها البالغ لان كلمة الملك حسين التي ركزت في توجيه اللوم عل المنظمة حملت بالمقابل تبرئة للموقف الامريكي. فبدل ان يوجه اللوم للموقف الامريكي على افشاله للتحرك فقد تم تحميل منظمة التحرير الفلسطينية، وهو تكرار للموقف الذي أُعلن من قبل فيما يتعلق بزيارة الوفد المشترك لبريطانيا.

وفي الحقيقة لا ترى منظمة التحرير الفلسطينية أي داع للدفاع عن نفسها في هذا

المجال الا انه من المفيد في هذا الصدد ان يشار الى ما وضحه الخطاب عن فشل كل المشاركات والمبادرات التي سار فيها الاردن سابقا ولم تكن المنظمة طرفا فيها ابتداء من قبول الاردن للقرار ٢٤٢ في شهر نوفمبر ١٩٦٧ الى مبادرة روجرز الى مؤتمر جنيف وفصل القوات الى مشروع ريغان . . ففي جميع هذه الحالات وغيرها كان سبب الفشل هو انعدام المصداقية الامريكية وانحياز واشنطن الدائم الى جانب العدو الصهيوني .

ان ما اثير حول المنهج والمصداقية لمنظمة التحرير الفلسطينية بالادعاء بموافقتها على القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ في اغسطس ١٩٨٥ يقتضي الاشارة الى قرارات القمة العربية الاستثنائية في الدار البيضاء التي انعقدت في نفس الفترة. فقد اكدت على ضرورة الالتزام بقرارات قمة فاس واعتبارها اساس التحرك العربي الفلسطيني الاردني المشترك . كما اكدت على الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني . وهذا ما يتناقض مع الادعاء الذي يختلف جذريا عن القرارات التي التزمنا بها جميعا في الدار البيضاء والتي اشارت للجهود الاردنية - الفلسطينية التي تمت عبر الاتفاق الاردني - الفلسطيني الموقع في ١٩٨٥/٢/١١، وعلى اساس ان يكون هذا التحرك على ارضية قرارات قمة فاس وهو اطار السعي لعقد مؤتمر دولي فعال بمشاركة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية وبقية الدول الدائمة العضوية في مجلس الامن مع الاطراف المعنية بالصراع في المنطقة بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية من اجل الوصول الى حل عادل ودائم وشامل للنزاع في الشرق الاوسط وللقضية الفلسطينية .

وكان من المفروض حسب الاتفاق في هذه الفترة بعد مؤتمر الدار البيضاء ان يتم لقاء وفد اردني - فلسطيني مشترك مع مورفي . . وتم الاتفاق مع الحكومة الاردنية على وضع برنامج متكامل يتضمن الاعتراف الامريكي بالمنظمة وبحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية المشروعة بما في ذلك حقه في تقرير المصير والضمانات السياسية الاخرى للمنظمة . ولعقد المؤتمر الدولي في مقابل قبول المنظمة بالقرارات الدولية بما فيها ٢٤٢ و٣٣٨ الا انه وكما هو معروف للجميع فان لقاء الوفد المشترك مع مورفي لم يتم لان الولايات المتحدة الامريكية قد تراجعت عن وعودها للاردن . فكيف نطالب منظمة التحرير الفلسطينية وحدها بالاعتراف بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ . بينما تمتنع الولايات المتحدة الامريكية عن الاعتراف بالمقابل بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره او بتقديم كافة الضمانات السياسية للمنظمة ، وهي التي كانت محور المباحثات مع الاردن حول ترتيب لقاء الوفد المشترك مع المبعوث الامريكي .

فكيف تحمل المنظمة مسؤولية التراجع وهي التي ما قبلت ابدا بالقرار ٢٤٢ دون اقترانه بقرارات الامم المتحدة كلها وبحق تقرير المصير ابتداء بما اتفق عليه مع الاردن في

١١ شباط/فبراير وانتهاء بموقفها الراهن والثابت من هذه القضية .

ان مسؤولية الفشل تقع دون شك على تراجع الولايات المتحدة الامريكية ومصداقية امريكا التي كانت دائما موضع الشك .

وقد يبدو كل من التبريرين معقولا بالنسبة لاصحابه . وهنا تبرز القوى الاخرى التي تريد ان تتحكم بمصير هذه المنطقة وتريد ان تتلاعب بقواها بما يكفل مصالحها هي . وعلى كل حال فان كل هذا الاخذ والرد يوضح شيئا هاما وحقيقيا في الموضوع كله وهو ان منظمة التحرير الفلسطينية طرف من اهم اطراف النزاع . وان لا احد يستطيع ان يتخطاها او يتجاوزها بما في ذلك القوى العظمى . ولو كانت منظمة التحرير ليست بهذه المكانة لتجاوزها الجميع وساروا في محادثاتهم وترتيباتهم كما يرون . لقد مضى الزمن الذي كان يتقرر فيه مصير قضايا بين الرؤوس الاجنبية . . وما على الشعوب الا التنفيذ .

فمنذ ظهور منظمة التحرير اصبح للشعب الفلسطيني ممثلون ينوبون عنه ، وبالمكانة الكبيرة التي احتلتها في العالم استطاعت ان تفرض قضية الشعب الفلسطيني امام انظار العالم .

وحين خاضت منظمة التحرير معاركها العسكرية اثبتت بما لا يقبل مجالا للشك انها وحدها في بؤرة الاهتمام . وهي وحدها طرف النزاع الذي لا يستطيع احد ان يتغافل عنه .

ورغم كل هذا التراجع . . الا انه تراجع من قبل القوى المضادة . ولا يقابله بالتالي تراجع مكانة المنظمة بل يدل على مدى تمسك هذه القيادة الفلسطينية بثوابتها الوطنية التي اقرتها مجالسها الوطنية . وهذا يدل على ان عملية اسقاط المنظمة من ميزان القوى لم يتحقق ، بل ازداد تمسك شعبها بها . وكل قوى المنطقة لا يعادل وجودها قوة المنظمة الوجودية ! وخاصة التفاف شعبها حولها .

وقد ظن المراقبون ان ضربة وقف التنسيق بين الاردن والمنظمة وقالوا ان هذه ضربة للمنظمة التي تعودت على تلقي الضربات والنفاذ منها . وقالوا ان هذه ضربة في الصميم لانها فيتو جديد على تحرك المنظمة السياسي وربما عزل لقائدها عن النجاح السياسي الذي كان يمضي فيه قدما . وخاصة ان المناداة هذه المرة كانت بخلق زعامات جديدة لتواصل تحرك السلام . وتخوف الناس من ان هذه المقولة ربما تشق الصف الفلسطيني او تخلق البلبلة في نفوس الشعب الذي طالت به المعاناة فيشك في امر زعامته ! .

وكانوا لا يتصورون ابدا ان تمر هذه الضربة دون ان تزعزع مكانة رئيس منظمة التحرير . . بل المنظمة نفسها . فكلمة السلام والحل الذي سبق ان لوّح به الرئيس السادات فكسب الرأي العام في بلده هي نفس الكلمة التي اظهر بيان الاردن ان رئيس المنظمة يقف

عقبة في سبيلها. وقد كان الاعتماد كله على ما تفعله هذه الكلمات في نفوس شعب لم يعرف الا الظلم والاضطهاد والتشريد منذ عام ١٩٤٨.

ولكن كما قلنا سابقا فان الرهان على مكانة «ياسر عرفات» القيادية دائما هو الرهان الخاسر. بل ان القوة التي حدثت لتكريس الاجماع حول «عرفات» وقيادة المنظمة للشعب الفلسطيني هزت هذه المقولة التي نادت بالزعامات الجديدة بعنف بحيث تدارك اصحاب الامر الموقف وتجنبوا الغلطة التاريخية وتصديق ما يجري حولهم من مظاهر التأييد المصطنع. لذلك سرعان ما تراجعوا واعلنوا تمسكهم بقرارات فاس التي تعلن المنظمة ممثلا شرعيا ووحيدا عن الشعب الفلسطيني بعد ان كانوا قد طالبوا بمراجعة هذه القرارات! بل اكثر من هذا انهم وضحوا الموقف حين قالوا ان طلب زعامات جديدة هو نوع من الاجتهاد الذى يحمل الخطأ والصواب!.

ولكن الرد الشعبي الحقيقي على كل ما كان ظهر بوضوح في جنازة ظافر المصري رئيس بلدية نابلس الذي اغتيل في الارض المحتلة.

وكانت جنازة المصري بمثابة استفتاء شعبي علني على مكانة المنظمة ورئيسها!. اذ ان ما رفع في هذه المظاهرة التي وصفت بأنها اضخم مظاهرة شهدتها الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ـ هو صورة «عرفات» وحده. وكل الشعارات والهتافات كانت تأييداً له ولمنظمة التحرير. اعلنت هذه الجنازة وسط ذهول الاسرائيليين انفسهم ان لا بديل عن منظمة التحرير. وان تصور خلق زعامات بديلة ضرب من الوهم. وقد كان ثبت للجميع هذا في كل المحاولات التي قام بها رسل امريكا وضيوف اسرائيل في كل محاولاتهم المتكررة لايجاد بديل من بين زعماء الداخل للقبول بالحلول محل المنظمة.

وأيقن الجميع ان الفلسطينيين لا يتراجعون عن ثوابتهم التي جاءت جنازة المصري لتكون اعلانا عالميا على ذلك.

وقد سمعت من «ابو عمار» تعليقا على ذلك اثناء دعوة على العشاء لقد قال: «ان ظافر المصري خدم القضية حيا وشهيدا».

والحقيقة ان ضربة وقف التنسيق مع منظمة التحرير من قبل الاردن لم تصب المنظمة بالشلل كما كان متوقعا او مفروضا.. ولم تخلق من «عرفات» سياسيا معزولا.

واذكر ان مثل هذا الموقف كان موجودا بعد قتال طرابلس حين نشرت احدى الصحف المعادية لعرفات صورة كبيرة وكتبت تحتها ـ المنبوذ!.

ولم تمض شهور حتى كان هذا ـ المنبوذ ـ كما ادعوا يملأ الدنيا ضجة وحيوية.. ويعقد مجلسه الوطني ويفوز بالاجماع رئيسا مجددا!.

وفي هذه المرة ايضا حين ظنه الجميع سيصبح سياسيا معزولا . . فاذا به يكسر سياج الجمود من حوله . وخرج زائراً الى تركيا وكان الاستقبال الرسمي الذي اجري له في انقرة اكبر رد على مقولة عزلته الوهمية . واستطاع «عرفات» من وسط هذا التأييد في تركيا ان يعلن في مؤتمره الصحفي ادانته للولايات المتحدة بعرقلة محادثات عمان لانها لا تعترف بحق تقرير المصير . وكان «عرفات» في هذا اكبر بكثير من كل التهم التي تناولته في بيان وقف التنسيق . ويعتبر ما جرى في تركيا من استقبال رسمي مؤشرا لمدى نجاح المنظمة في كسب الرأي الدولي باتجاهها! وخاصة في دولة هامة كتركيا القريبة من امريكا .

وفي متابعة لاجتذاب الموقف الدولي ذهب «عرفات» الى بلغراد لاجراء محادثات ناجحة مع المسؤولين اليوغسلاف طالب فيها الطرفان دول عدم الانحياز تحمل مسؤوليتها بهذا الشأن وتوجهاتها لتأكيد الحقوق الوطنية المشروعة وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني كأساس لتسوية سياسية من خلال المؤتمر الدولي .

ثم تابع «عرفات» تحركه باتجاه الدول العربية بدءا بدول الخليج . . ثم مصر . ثم كانت رحلتي افريقيا الهامتين اللتان تمتا لـ ١٦ دولة في غرب افريقيا واظهرت هذا التأييد الرسمي والشعب للقارة الافريقية لمنظمة التحريرولرئيسها«عرفات»وما تركته من اصداء ونتائج هامة . وبعد فنحن حين نتحدث عن ميزان القوى . . ونراه في صعوده وهبوطه وتذبذبه غير الثابت . . فعيوننا نستطيع ان تميز موقع منظمة التحرير لنجد فعلا انها تقع في مكان متميزا! . . فهي ابدا سواء في صعودها او هبوطها وتذبذبها بين هذا وذلك ـ هي مربط القدس! .

وهذا يظهر من استهدافها الدائم بضربات التصفية والالغاء . ولكنها بحق هي التي تمسك ميزان القوى ان يميل! .

وبعد خروجها من كل هذه الازمات تبقى وحدها صاحبة الحق في اجراء اي مفاوضات او مباحثات . والسلام في المنطقة كلها لا يمكن الا ان يكون باشتراكها . . وانها الرقم الصعب الحقيقي الذي تنعكس عليه كل المحاولات لعزلها او التخلص منها . وان كل اتفاق لابد وان يمر من امام عيونها لا من خلف ظهرها . وان ظهورها بهذا الشكل الواضح قد سبب للكثيرين من اعدائها خيبة امل واحباطا باعتراف جميع المراقبين الغربيين .

ولو حسبنا موقعها جيدا في وسط القوى الآن في الشرق الاوسط لوجدناها اثبتت بما لا يرقى اليه الشك انها فعلا الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني وان لا بديل ابدا عن وجود المنظمة . . وبقيادة «عرفات»! .

وقد استطاعت ان تواجه اعداءها ومن يقف معهم المنشقين بعد ان اصبحوا هم

المعزولين واصبحوا ورقة خاسرة في يد من استخدموهم .

وقد اكدت المنظمة وجودها الفعال عندما صعّدت من عملياتها المسلحة في الارض المحتلة . وانها عززت وجودها في لبنان بعودة مقاتليها بشكل مكثف الى لبنان للقيام بهجماتهم على العدو الاسرائيلي الامر الذي يؤكد خسارة اسرائيل الفادحة من غزوها لبنان وفي حرب الاستنزاف للمقاومة ضدها في الجنوب اذ ان السؤال الآن . . لماذا قامت اسرائيل بغزوتها وتكلفت مثل ما تكلفت من خسائر مادامت النتيجة واحدة! هي عدم تمكنها من القضاء على م . ت . ف بل انها الرقم الصعب كانت ولازالت رغم كل الظروف في المواجهات الساخنة والصعبة والاوقات الحرجة .

وهكذا تعود منظمة التحرير الى واجهة الاحداث . وحين نقول انها تعدل ميزان القوى في المنطقة فلسنا مبالغين وانما هي كلمة لاحقاق الحق . وقد دعمناها بكل الوقائع والاحداث .

وليس كل هذا من فراغ ولكن لأن المنظمة موجودة . . وبكل ثقلها . . ومصداقيتها ونجاحها السياسي والعسكري على رأس قوى المنطقة! .

# * السلام الى أين؟

حين تحدثنا عن ميزان القوى بهذا التفصيل وانتهينا فيه الى ان منظمة التحرير الفلسطينية تقف على رأس قوى المنطقة . . لم يكن بوسعنا ان نقول ذلك لاننا نغفل بقية قوى المنطقة . . وخاصة اطراف النزاع .

وقد عرضنا التحركات لهذه القوى وتحركات القوى العليا والتي تحرك وتهيمن على قوى المنطقة كلها . كل هذا لنعرف الى اين تتجه محاولات السلام وهل يمكن ان يكون هناك سلام في ضوء ما شرحناه من التعديل والتبديل والتغيير والاحلال في قوى المنطقة .

وهل السياسات والتوجهات التي تتبعها قوى المنطقة يمكن ان تسير بها في طريق السلام .

وقد يبدو التشاؤم في الافق حين ننظر الى اهم قوى المنطقة . . او نقولها بصراحة - اقواها - هي اسرائيل في هذا الموقف الطامع الى الارض العربية كلها . ان اسرائيل هي المشكلة . فهي المعتدية وهي المسيطرة على الارض بالقوة . . وهي اكبر قوة عسكرية في المنطقة او هكذا تبدو . وهي التي لا تريد الاعتراف بحقوق الشعب الذي سلبته ارضه . . وهي التي تبني المستوطنات وتضم الاراضي الى المناطق الخاضعة لها . وهي التي تقوم بالعدوان على الدول العربية دائما . . . وعلى هذا فهي لا تريد السلام ! .

انها تموت في ظل السلام ! ان القوة فقط هي التي تحقق لها مكاسب وهناك الدعم الدائم لقوتها . . فهي ليست مجبورة لتقدم تنازلات : . وتصريحات ساستها وقادتها الدائمة تشير الى ذلك . فقبل انشائها . . ولليوم وكلهم يتفوهون بالآمال ! .

منذ ان كان تيودور هرتزل وحاييم وايزمان يستميتان في بذل الجهود لبيع المشروع الصهيوني . ومنذ عام ١٨٨٤ حين بدأت الحملات الصهيونية في اوروبا وامريكا لحمل اليهود على الهجرة الى فلسطين . وحين نشر تيودور هرتزل كتابه الدولة اليهودية . وقد جاء في مذكرات هرتزل : «عندما تقوم باحتلال الاوض فانه يجب علينا نزع الملكيات الخاصة بطريقة متأنية في الاراضي التي تقع تحت احتلالنا ثم نقوم بعد ذلك بتهجير السكان الذين لا يملكون شيئا الى خارج الحدود مع اقتراح منحهم اعمالا في البلدان التي يمرون بها ومنعهم من مزاولة اي نشاط مهني داخل بلدنا ! .

وقد اطلق الاسرائيليون على حرب نزع الممتلكات الفلسطينية وطرد الفلسطينيين من ديارهم اسم حرب الاستقلال ! .

وقد قال مناحيم بيغن في ١٢ اكتوبر ١٩٥٦ عن عدوان اسرائيل التوسعي . . انني من كبار انصار الحروب الوقائية ضد البلدان العربية دون ادنى تردد . وبهذه الطريقة نحدد اهدافنا المتمثلة في تدمير قوة العرب وتوسيع رقعة بلادنا . . وجميع الاحزاب السياسية

الاسرائيلية متفقة على ضم الاراضي العربية المحتلة مع اختلاف الاساليب. وقد تم انشاء ٩١ مستوطنة يهودية في الضفة الغربية حتى عام ١٩٨١. وتطلق اسرائيل على الضفة الغربية اسم يهودا والسامرا. وعلى الفلسطينيين عرب اسرائيل الكبرى!.

وخلال زيارة الرئيس الامريكي كارتر لاسرائيل سأل ارييل شارون، وزير الدفاع الاسبق، عما اذا كان ينوي فعلا توطين مليون يهودي بالضفة الغربية فأجاب: ربما مليون يهودي او مليونين!.. وتشير بعض المصادر الى ان حوالي ٢٥٠ الف يهودي سيهاجرون الى الاراضي المحتلة بين عامي ١٩٨٢، ١٩٨٧!. وقال اريل شارون في يونيو ١٩٨٢ ان اسرائيل غزت لبنان من اجل سحق وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية تدميرا كاملا وبصفة نهائية! وقال موشي ديان يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧: لقد وصل جيل حرب عام ١٩٦٧ الى قناة السويس والى الاردن والى مرتفعات الجولان.. الا ان هذا الجيل لم يصل الى نهاية حدود اسرائيل.. سوف تكون هناك خطوط جديدة لوقف اطلاق النار غير التي تم تثبيتها والتي سوف تتوسع عبر الاردن حتى تصل الى لبنان والى سوريا الوسطى!.

ويقول مناحيم بيغن سوف تقوم اسرائيل الكبرى كاملة غير منقوصة! وتؤكد تصريحات حكام اسرائيل وممارسات الكيان الصهيوني بانه قد تم وضع خطة مدروسة بعناية للتكيف مع الظروف دون التخلي بأي حال من الاحوال عن تحقيق الهدف النهائي والذي يكمن في انشاء اسرائيل الكبرى لتوطين ١٣ مليون من اليهود المبعثرين في جميع انحاء العالم.

وقد اعلن اريل شارون في شهر ديسمبر ١٩٨١: خلال السنوات القادمة لا تمتد دائرة المصالح الاستراتيجية الاسرائيلية الى البلدان العربية المطلة على البحر الابيض المتوسط فحسب ولكن الى منطقة الشرق الاوسط بأسرها وينبغي ان تمتد هذه الدائرة الى ايران وباكستان والى الخليج والى افريقيا والى تركيا. ولتحقيق هذا الهدف لابد من اعداد جيش كبير للغاية!!.

تثبت هذه الاقوال ان الطموح الاسرائيلي سيقف دائما حائلا بين هذه المنطقة وبين بلوغها السلام! وان اسرائيل غير جادة في اي مساع للسلام لانها لا تريده اصلا.

وفي وسط كل النشاطات التي كانت مبذولة من اجله صرح شارون ان اسرائيل لا يمكن ان تتخلى عن اي ارض من الاراضي التي وقعت تحت سيطرتها بعد عام ١٩٦٧ حتى ولو اتى ملوك الدول العربية كلهم الى اسرائيل!.

ويعتبر معظم ساسة اسرائيل ان معاهدة كامب ديفيد خسارة لاسرائيل. وان انسحابهم من سيناء ما كان يجب ان يتم ابدا وفقا لشروط المعاهدة. وانهم لم يحققوا شيئا من سلامهم مع مصر اذ انهم كانوا يتصورون ان يفتح لهم الشعب المصري ذراعيه!.

ووجدوا ان الحاجز النفسي لم يسقط بينهم وبين المصريين لمجرد توقيع المعاهدة. وان المصريين اسقطوا وهم التطبيع الذي لوّح لهم به صاحب كامب ديفيد! وان كل ما كسبوه هو تعامل الجانب الرسمي المصري معهم.. وبحذر!.

فلا فائدة اذن من معاهدات السلام وانما هي الحرب التي تحقق لهم اهدافهم! ويتمثل هذا الرأي في اصرارهم على عدم التعامل مع منظمة التحرير ويرون ان مكان لقائهم الوحيد بها لا يكون الا في ساحة المعركة وكما صرحوا بذلك اكثر من مرة وعلى لسان اكثر من مسؤول منهم. وهذا يدل على ان السلام بعيد عن تفكيرهم اذ كيف يقوم ان لم يتم الاستسلام بينهم وبين الخصم الذي يحاربوه؟.

ولقد حاول رئيس الوزراء السابق، بيغن، ورئيس تكتل الليكود، ان يخدع العالم بأنه داعية سلام. فوقف في ١٨ يونيو **١٩٨٢** يخطب امام الجمعية العامة للامم المتحدة مخصصا معظم خطابه لتفسير التوراة بينما كانت القوات الاسرائيلية ترتكب ابشع جرائم الابادة ضد المدنيين العزل..

ورغم ان احاد هام قد كتب في كتابه اليهودية ونيتشه «سوف تقوم دولتنا اليهودية بتطبيق قانون اخلاقي في جميع المجالات يفوق الشرائع الاخلاقية الاخرى.. الا ان هذا القانون الاخلاقي المتفوق لم يطبق البتة في اسرائيل. بل ان عكس هذا تماما هو ما تم ممارسته وتنفيذه.

وهكذا نرى ان مكونات الدولة نفسها ليست هي المكونات التي ارسيت بحيث تعيش في سلام. لانها ليست دولة طبيعية مثل كل الدول. ولكنها مؤسسة عسكرية تقوم على مذهب القوة التي تتيح لها التوسع. يقول برنارد جرونتييه: ان مفهوم ارض اسرائيل.. واسرائيل الكبرى يثير المخاوف والقلق كما كانت الحال لدى اعلان النازيين عن المانيا الكبرى.

فاسرائيل تعد البلد الوحيد في العالم الذي لم تعين حدوده. ان اسرائيل الكبرى التي تحلم الصهيونية باقامتها بواسطة الارهاب والاعمال العسكرية تشكل خطرا كبيرا على السلام العالمي.»

وايضا لان البنية الداخلية للمجتمع الاسرائيلي قد تكيفت مع ظروف الحرب واصبحت لا تجد شعورا بالامان.. الا في ظل القوة.

وازادت تبعا لتوجهات القيادات السياسية روح الكراهية للعرب والنظر اليهم بروح عدائية.. بل ان التضليل يبلغ الى الاستناد الى نصوص التوراة المحرفة لارتكاب جميع الجرائم والاعمال الارهابية. ومنذ عام **١٩٧٤** ظهرت اعداد كبيرة من الاحزاب الدينية

المتطرفة على الساحة السياسية في اسرائيل حيث فرضت وجودها على الاحزاب الاخرى مطالبة بطرد العرب من فلسطين المحتلة. بل ان احد كبار المتعصبين مثل الحاخام كاهانا استطاع ان يجمع حوله كثير من المتعصبين العنصريين الذي اخذ يطوف بهم شوارع تل ابيب يهتفون له كاهانا ملك اسرائيل. وكاهانا هذا لم يلقبوه ملكا لاسرائيل الا لتعصبه اللانهائي وكراهيته التامة للعرب. فهو الذي ينادي دائما بأن المشكلة ستحل بطرد العرب من ارض اسرائيل.

واستطاع هذا العنصري البغيض ان يحصل على شعبية متزايدة. يقول انه في اي انتخابات سيحصل على ١٥ مقعدا لينافس الاحزاب الاخرى!. ويقول: لو اني اصبحت رئيس الوزراء لفرّ العرب من اسرائيل خوفا!. بل ان كل من يحاول الوصول الى السلطة او البقاء فيها يزايد في التشدد والقمع ليكون هو الاكثر حرصا على مصالح اسرائيل.

وان كان رئيس وزرائها شيمعون بيريز قد حاول ان يلبس ثوب حمامة السلام التي تحاول ان ترفرف على المنطقة فيمثل دور داعية للسلام. الا انه مكشوف. ولا يتقن دوره ابدا.. فهو ليس الوجه الملائم لتمثيل هذا الدور. ولكنه كان من الحصافة والمكر والخبث السياسي بحيث تحسس الاوضاع في العالم العربي الداخلية.. ورأى ان الوقت مناسبا!.

وعرض مشاريع مزيفة للسلام تهدف جميعها لضرب ذلك التناسق والعمل المشترك الذي كان بين الاردن ومنظمة التحرير. واستهدف بيريز الاردن بالذات. لانه الشريك الذي سار مع الفلسطينيين. وتظاهر بأقصى مرونة واكثر تعقلا لاقتناص ملك الاردن ليسير معه في مباحثات سلام!.

واختار بيريز وقت ما بعد الغارة. هذا الوقت الذي عصفت المخاوف والشكوك بكل شيء واضفت فيه حادثة اختطاف السفينة الايطالية وحادث اعتراض الطائرة المصرية وتدخل العامل السوري رياحا باردة على المنظمة. وتأرجح مكانها في ميزان القوى.

اختار بيريز هذا الوقت بالذات لينادي ملك الاردن لانهاء حالة الحرب وكانت عروضه سخية ولا تتقيد بأي شرط!.

وشن لذلك حملة مسعورة لاسقاط منظمة التحرير من بين اطراف معادلة الشرق الاوسط. ولكن حملته هذه اظهرت المعادلة اكثر وضوحا وبروزا بحيث تنتهي الى شكلها الاساسي الذي تقف فيه اسرائيل في طرف وفي مقابلها منظمة التحرير في الطرف الآخر وعلى قدم المساواة.

واستتر بيريز من عروضه خلف ستار المؤتمر الدولي ليمرر خططه. وانصبت محاولات بيريز في هذا الوقت بالذات الذي توترت العلاقة فيه بين المنظمة والاردن في سلسلة

الاحداث التي احاطت بالمنظمة في شبه مؤامرة محكمة الاطراف ولكنه رد خائبا حين ظهرت نواياه كصائد فاشل لا يحسن الصيد الا في الماء العكر للاستحواذ على اية فرصة تسمح بنفاذه داخل الكيان العربي،مهما كانت الخلافات العربية فلن تؤدي ابدا الى صداقته حتى وان اهتز ميزان العمل بين الاردن والمنظمة .

اذن لا امل في هذا الكيان العدواني الاستيطاني في اخذ طريق الجدية في البحث عن السلام . وكيف والنظرية الصهيونية تقول : مد يدك بالسلام وفكر في التوسع . . والحلم الصهيوني مقسم الى مراحل . اولا الاستيلاء على اية بقعة من ارض فلسطين . ثم بعدها تحقيق مشروع اسرائيل الكبرى . . ثم العمل على غزو العالم اقتصاديا والسيطرة عليه ! .

وكيف وطموح الحلم الصهيوني لا يستطيع ان يستقر خلف حدود جامدة؟ انه يريد ان يتمدد بمضمونه السرطاني فوق الارض العربية بما يريد من مناطق . ولا احد ينسى تصريح اسحاق شامير وهو يقول : ان اراضي الضفة الغربية وغزة لا تكفينا في عصر التطور النووي هذا ! .

فعلى كل من يبحث عن حل ان لا يضحي بكل شيء في سبيل الوصول الى سلام وهمي مع اسرائيل . فمن الواضح ان اسرائيل لا تتخلى ابدا عن ان تكون الطرف الاكثر ربحا - وقد ربحت كثيرا بمعاهدة كامب ديفيد رغم ارجاع سيناء . وربحت اكثر حين اتاحت لها هذه المعاهدة اضعاف عدوها الاساسي وهذا كان اهم بكثير . وهذا بالطبع سيكون شأنها في اي اتفاق فلابد ان تكون هي الرابحة . وماذا يجبرها على الخسارة وهي صاحبة اليد الطولى في المنطقة والتي ترفع عصا التأديب تهوي بها فوق هامة من تريد وقد ثبت انها لا تخشى احدا . فقبل وبعد ضربتها على تونس قالت انها ستضرب اي مكان يتواجد به الفلسطينيون وهي قادرة منذ ان قوضت طائراتها المفاعل النووي العراقي . . ولم يبد العرب اكثر من الشجب وهي تعرف كيف تعالج امورها ولن يكلفها الأمر اكثر من ضربة طيران يستنكرها العرب . . وتفوز هي بما تريد ! لذلك كان يجب ان يعي الجميع ان اسرائيل لن تقدم شيئا ليس مدفوع الثمن . . وبمضاعفة ! .

هذه هي اسرائيل التي من المفروض ان تكون طرفا في اتفاق سلام . وبالطبع نحن لم نقدم من تاريخ اسرائيل الدموي الا شذرات قليلة . فلو اردنا ان نسجل كل ما يبعد بها عن اي وضع سلام لكتبنا في هذا مؤلفات كاملة . فتاريخها الاسود الممتد منذ وقت اعلان قيامها كدولة في ١٤ مايو ١٩٤٨ لا يحمل اي معطيات في التعايش بسلام، بل الحروب والتوسع .

اذا نظرنا الى سوريا الدولة العربية المسلمة وقيمنا مواقفها تجاه القضية الرئيسية بالنسبة

للعرب والمنطقة كلها نجدها تتراوح بين الاقبال والادبار. ونجد انها تتخذ لنفسها خطا منفصلا عن بقية اشقائها العرب. احيانا تشارك في اجماع لا تقوى ان تبقى بعيدة عنه. وكثيرا لا تشارك. وترضى ان تقف وحيدة منذ حرب ١٩٧٣ وبعد ان قبلت فك الاشتباك الاول. عادت ترفض كل الخطوات التي تمت بعد ذلك الى ان دمغت مصر بالخيانة لتوقيع معاهدة الصلح!.

وكان يظهر ان سوريا تمضي في خطها القومي الوطني الا ان تباين مواقفها مع الفلسطينيين قد جعل المراقب لا يعرف تماما خطة سوريا تجاه مشاكل المنطقة. وخاصة ان سوريا كانت في ازمة ١٩٧٠، ١٩٧١ التي تعرض لها الفلسطينيون في الاردن. كانت اكبر المناصرين لهم. وبلغ الحد الى درجة المواجهة العسكرية مع القوات الاردنية!. وان كانت الدبابات السورية تراجعت وقتها في ساعة الحسم وبأوامر من الفريق حافظ الاسد، وزير الدفاع السوري آنذاك، الا انه بقي طيب النوايا محسوبا نظرا لاعتبارات كثيرة، ربما كانت تحول بالفعل بينها وبين التدخل!. ولكنها بعد ذلك وفي مواقفها تجاه الفلسطينيين في لبنان كانت كأنها تريد ان تحطم هذه القوة بأي شكل من الاشكال. بل بالفعل اشتركت في ضربها وتحطيمها. فماذا نفسر هذا وتحت اي بند نسجله.

والمتتبع لكتاب القائد ـ ابو إياد ـ فلسطيني بلا هوية خاصة عن احداث لبنان سيتولاه العجب من المواقف السورية. فقد اورد ابو اياد بالتاريخ وبالساعة وبنص المحادثات التي دارت بينهم وبين الرئيس السوري ما يضع الانسان في الحيرة! لان السياسة السورية انغمست بعنف في الداخل اللبناني حيث اصبحت المواقف محرجة بحيث ان العلاقات كلها والاطراف كلها متشابكة.. برغم انها حاولت في البداية ان تتدخل لوضع حد للمعارك في لبنان!.

ولكنها سقطت في الخطأ حين بدأت تحابي بعض الجهات ضد جهات اخرى. وكما يقول ابو اياد، فإن الرئيس الاسد، كان يحاول ان يتخذ موقفا محايدا بين المعسكرين. فمع تقديمه مساعدة متعددة الاشكال وخاصة من الناحية العسكرية للمقاومة والحركة الوطنية.. الا انه وجه الدعوة لبيار الجميل في ١ كانون الاول ديمسبر ١٩٧٥ لزيارة دمشق حيث استقبل استقبال رؤساء الدول، الامر الذي اثار غضب كمال جنبلاط.

واستاء زعيم اليسار اللبناني اكثر حين قدم سليمان فرنجية خطة تسوية نالت موافقة الرئيس السوري.

وكان انشقاق احمد الخطيب عن الجيش اللبناني وانضمامه الى الحركة الوطنية ما عقد الوضع اكثر. اذ اتفق اليمين المسيحي والسوريون على ان الفلسطينيين هم من دبروا حركة

احمد الخطيب!.

ثم جاء انقلاب عزيز الاحدب ليحدث اول صدع حقيقي في العلاقات بين سوريا والمقاومة. وبعدها تمت القطيعة بين سوريا واليسار اللبناني بزعامة كمال جنبلاط. وحين ذهب وفد منظمة التحرير لمصالحة سوريا مع اليسار اللبناني تبين ان الرئيس السوري لا يغفر للمقاومة ضلوعها في حركة الاحدب ولا مواصلة المعارك في الجبل المسيحي، بل اتهمهم باقامة علاقات مشبوهة مع الرئيس السادات!.

ولم يتبدد شك الرئيس السوري ابدا في الفلسطينيين وخاصة في معركة الرئاسة اللبنانية بين سركيس الذي يؤيده اليمين المسيحي وسوريا وريمون اده الذي يتمتع باحترام كبير وحب بالغ داخل الاكثرية الصامتة وبين المسلمين والمسيحيين والمحافظين والتقدميين.

ويقول ابو إياد: لكن انتخاب سركيس لم يحل المشكلات القائمة، بل انها على العكس زادت تفاقما، كما ان الهزائم التي لحقت بالميليشيات المارونية كانت تقلق السوريين الى اقصى حد.

وبطبيعة الحال وقبل هذا التدخل الاخير ارسل الرئيس السوري جيشه الى لبنان لاعادة النظام اليه كما قال. وبعد ذلك ابتدأ ستة آلاف جندي سوري ليصل عددهم بعد ذلك الى ٣٠,٠٠٠ مدعومين بمئات الدبابات والمدافع الثقيلة باجتياز الحدود اللبنانية. وايضا دبرت محاولة انقلاب من قبل منظمة الصاعقة التابعة لسوريا ضد حركة المقاومة!.

ودبرت مذبحة تل الزعتر بعد المبادرة السورية هذه. ويقول ابو إياد وفي ادانة كاملة ـ الدول العربية لم تكن تخشى شيئا خشيتها لانتصار القوات الفلسطينية التقدمية لانهم كانوا مكرهين ـ برغم كل شيء نتيجة للرأي العام عندهم على دعمنا من طرف السنتهم. واحيانا على دفع معونات سخية لنا.. فانهم كانوا يمولون المشروع السوري في لبنان في آن معاً بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي!.. ويقول الا ان موسكو لعظيم اسفنا لم تتخذ اي اجراء لكسر الحصار الذي فرضته علينا اسرائيل. والانفصاليون وسوريا في البحر والبر.

وبهذا تكون سوريا شاركت اسرائيل بضرب المقاومة الفلسطينية، وكانت القوات الفلسطينية تتلافى مواجهة مع سوريا لانها اذا كانت تستطيع الصمود امام الميليشيات المسيحية الى ما لانهاية فان اية مقاومة للجيش السوري الذي يتمتع بمدفعية ثقيلة ودبابات وصواريخ ارض ـ ارض سيكون عملاً عسكرياً صعباً.

والسؤال: لماذا زجت سوريا بقواتها في لبنان لتضرب المقاومة الفلسطينية وتخسّرها مواقع وتحكم عليها بالتراجع؟.

لماذا شنت عليهم هذا الهجوم في جنوب لبنان ولم ينقذ الأمر إلا قمة الرياض

المصغرة؟.

واورد ابو اياد سؤالا صاعقا سأله للرئيس السوري في اثناء مناقشة طويلة بعد الغزوة السورية على الفلسطينيين في جنوب لبنان اذ سأله: اسمحوا لي ان اطرح عليكم سؤالاً ايها السيد الرئيس.. كيف حدث واخلى الامريكيون بينكم وبين ما تريدون في لبنان في حين ان تحذيرا بسيطا من واشنطن في ايلول/سبتمبر عام ١٩٧٠ اجبركم على سحب قواتكم من الاردن؟. بعد ثلاثة ايام من دخولها اليه؟.

وانتهت هذه المناقشة بأن قرر الرئيس السوري ألا يولي اعتبارا بعد ذلك الا للقضية الفلسطينية وليس لمسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية الذين يزعمون انهم يدافعون عن هذه القضية.. لانه يطرح على نفسه الاسئلة بصدد جديتهم وطاقتهم على قيادة الحركة الفلسطينية.. وانه قلق على مستقبل القضية الفلسطينية لان قادتها ليسوا على مستوى المسؤولية؟!.

وهكذا، فان الرئيس السوري ويا للعجب اظهر خوفه على القضية من قادتها اصحاب القضية!. وهذا ما جعله يضرب المقاومة ويكسرها في لبنان!! ولم تتغير المواقف السورية بعد ذلك اذ ان الجيش السوري لم يحرك ساكنا كما رأينا حين اجتاح الاسرائيليون الجنوب اللبناني. وانسحب وقت الغزوة الكبرى من المعركة بعد اربعة ايام.. تاركا الفلسطينيين وحدهم في مواجهة عدوهم وعدوه وعدو الامة العربية كلها. ولم يكتف بذلك وانما تابعهم بعد خروجهم من بيروت الى طرابلس حيث دبر لهم مصيبة الانشقاق وقاتلهم تحت هذا الاسم في اقسى واشرس معركة في طرابلس. كل هذا كان حصرا على القضية الفلسطينية في محاولة لتنطوي حركة المقاومة العملاقة تحت ابط الجناح السوري! وكم حاول النظام السوري ان يفشل المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في عمان لتأكيد الشرعية الفلسطينية وابراز القيادات التي في كنفه دون جدوى.

وكان الحل السوري في لبنان يقتضي ان يزول الوجود الفلسطيني فيه نهائيا وتركت سوريا لميليشيات الشيعة الممثلة في حركة امل مهمة القضاء على هذا الوجود ايفاء بالتعهدات لامريكا وحليفها اسرائيل الا يعود يزعجها مزعج من الجنوب اللبناني - وهو اتفاق فاق سوءات كامب ديفيد بكثير - فقامت مجازر المخيمات تنفيذا لمخطط الغاء الوجود الفلسطيني!.

وحينما اجتمع العرب في قمة طارئة في الدار البيضاء قاطعتها سوريا لانها لم تكن ترى داعيا لانعقاد مثل هذه القمة في ذلك الوقت رغم انها كانت المستفيد الوحيد من نتائجها. حيث انبثقت عنها لجنة تنقية الاجواء فحدث التقارب الاردني - السوري لتكون منظمة

التحرير هي ثمن هذا التقارب! ولتخطف الحليف الاول في التحرك الاستراتيجي العربي الوحيد الذي بدأ يؤتي ثماره. ولتطلب ان يكون «عرفات» هو ثمن هذا التقارب - رغم كل الردود الديبلوماسية التي اوردها «عرفات» لي عن هذه النقطة. . تمريراً للفيتو الذي وضعته على رئيس منظمة التحرير.

اذا كانت هذه هي مواقف سوريا من القضية الرئيسية. . فكيف تساعد سوريا على مساعي السلام؟. وقد يقول قائل ان مواقفها ليست من القضية ولكنها من القيادة فقط. ولكن الشرع والعرف يقضي ايضا حين يختار اي قوم قيادتهم الا تتدخل القوى الاخرى لانها لا تريد هذه القيادة. والقيادة الفلسطينية موجودة بتفويض شرعي، فليس من حق اي احد ان ينقضه.

وقد يكون السلام ليس قصرا على القضية الفلسطينية او ما يتعلق بالفلسطينيين من علاقات واوضاع. ولكن لا احد يستطيع ان يقول غير ان القضية الفلسطينية بكل ما يتعلق بها من اوضاع القوات المقاومة والقيادة الفلسطينية ومعاناة الناس في المخيمات والارض المحتلة هي القضية الساخنة والمركزية في المنطقة بحيث تشابك عديد من الاطراف بها واختلاط كثير من التوجهات والميول والرغبات والتكتلات الناتجة عنها.

وسوريا من بين دول المواجهة. وصاحبة اليد الطولى في لبنان والمترددة بين الشرق والغرب سياسيا. فبينما تتدخل في لبنان لارساء مخططات امريكا تستجيب لرغبات موسكو وتنفذ سياساتها بتقديم ميناء طرطوس لسفنها الحربية الا ان سوريا تقلب كل الموازين حين تقف وحدها في صف ايران في الحرب العراقية - الايرانية. ولا نغفل ليبيا التي تقف نفس موقف سوريا ولكن ليبيا موضوع آخر اذ ان الكل تعود على مواقف العقيد في علاقاته وتوجهاته ومزاجيته - اما سوريا فهي القوة العربية المنظورة كدولة مواجهة، ربما تبدو وحدها القادرة عن ان تخوض حربا ضد اسرائيل بعد خروج مصر وانشغال العراق بحربه وخروج الفلسطينيين من لبنان.

فحين تقف هذه الدولة الى جانب ايران وضد العراق تسديداً لحسابات قديمة وخلافات عراقية - سورية قديمة. تكون قد أخلّت بميزان القوى العربي الذي يدعم العراق. ولان العراق كان القوة العسكرية التي يمكن ان تؤثر في ميزان القوى اذا دخلت بثقلها ضد اسرائيل. فان هذا الموقف يتعلق باقرار السلام في المنطقة لان غياب العراق عن الساحة العربية بثقله العسكري بهذا الشكل من اهم عناصر القوة لاسرائيل. . التي كثيرا ما صرح قادتها بأنهم لا يقلقون حقيقة الا حين يسمعون ان العراق قد اوقف الحرب ضد ايران!.

وتعمل اسرائيل جاهدة وبكل قوتها لاستمرار هذه الحرب وهي تساعد ايران وتمدها بالاسلحة والعتاد العسكري! فحين تساعد سوريا ايران بنفس الطريقة تكون قد اتفقت استراتيجيا مع الهدف الذي ترمي اليه اسرائيل. وهذا بلاشك يؤثر على مساعيَ السلام لانه يعبث بميزان القوى في المنطقة حين يضيف لاسرائيل عناصر قوة وهي التي قامت وتبقى استنادا الى القوة. وقد رأينا موقف الرئيس السوري حين اوقفت العراق وايران الحرب حين بدأ الغزو الصهيوني على لبنان في ١٩٨٢. وكان هذا بحد ذاته بشيرا بتغيير النتائج لو ان كان هناك اية مساعدة عسكرية للفلسطينيين. اذ ان اسرائيل حين قامت بغزوتها انتهزت الجو المهيأ بخروج مصر وانشغال العراق وضمان عداء الرئيس السوري للفلسطينيين وموافقته على ايقاف الحرب بعد ٤ ايام من المعركة. ولكن الرئيس السوري فضّل الانتقام من الرئيس العراقي - صدام حسين - عن الموقف العربي القومي الذي يتطلبه الواقع!.

ولاشك ان هذا أثر تأثيرا كبيرا في مسار الحرب الاسرائيلية - الفلسطينية التي دارت على ارض لبنان. ومن هنا نقول ان المسار السوري في اتجاه معاكس دائما يقلل من فرص السلام في المنطقة. ومن فرص الحرب ضد اسرائيل.

وكنت قد سألت ابو عمار عن ذلك الموقف العدائي الذي يقفه الرئيس السوري من القيادة الفلسطينية. فأجاب بمرارة: «الموقف العدائي قديم وقبل ان يتولى الرئيس الاسد السلطة ومنذ ان كان وزير للدفاع! وقد اصدر امرا عسكريا حين كان وزير للدفاع من عدة نقاط الهدف منه تقييد حركة المقاومة في سوريا. اي انه فرض قيودا على تحركنا واكبرها عدم السماح للفدائيين بالعمل من الجولان واقلها منع حتى اي ورقة اعلان ملصقة على جدران الشوارع في العاصمة السورية! وفي احداث ايلول في الاردن تدخل - وهو وزير دفاع - ومنع استمرار القوات السورية من التقدم في الاردن لنجدتنا. وحين استولى على السلطة بعد انقلاب عسكري - وكانت سوريا كما نعرف مسرحا لانقلابات عسكرية متعددة.. قبض على نور الدين الاتاسي وصلاح جديد واودعهما السجن لانهما كانا قد قررا ارسال القوات السورية للتدخل في الاردن لصالحنا في المعركة الدائرة. وضربنا بجيشه في لبنان في عام ١٩٧٦ وقبلها حدثت اشتباكات كان يضربنا فيها عسكريا.. لكن الاشتراك بالجيش النظامي الكامل كان في ١٩٧٦.. تم بالرغم من التحالف الاستراتيجي بيننا.. تركني وحدي اواجه الغزو الصهيوني ولم يتحدث معي الا مرة واحدة كما اخبرتك وكنت انا الذي اتصلت به! بل لقد صادرت سوريا كل المساعدات العسكرية والتموينية وحتى المعونة الطبية التي كانت ترسل لنا حتى يتم الحصار الحقيقي.

وحتى عندما خرجت من بيروت وهو الموقف الذي اخذوه عليّ حيث انني لم اتوجه الى

دمشق وكان ذلك لان دمشق لم تدعوني. وقد فكرت بالذهاب دون دعوة لكني تبينت ان سوريا ابدت استعدادها فقط لاستقبال منظمة الصاعقة. ثم علمت ان سوريا اتصلت بكل القيادات الاخرى تدعوها الى دمشق فيما عداي.. وانا على رأس حركة «فتح» ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تضم كل التنظيمات والقيادات الاخرى!.

ثم اجبرتنا في طرابلس على خوض معركة ضد انفسنا.. لقد اكملت سوريا ما عجزت عنه اسرائيل! وهي مستمرة.. ولك ان تعلمي ان المحاولة السورية او الهدف السوري من التقارب مع الاردن هو عمل شرخ في العلاقة الاردنية ـ الفلسطينية وفي العلاقة الاردنية ـ المصرية وفي العلاقة الاردنية ـ العراقية.. وهذا هو الهدف السوري! وقد نجحت نجاحا جزئيا في هذا.

قلت: يعني سوريا بهذا تقوم بدور المفرّق؟!. ولكنه استمر.. «نحن انطلقنا ومازلنا ننطلق من مبدأ المصالحة.. ونحن مستعدون ان نفتح صفحة جديدة بيننا وبين سوريا مبنية على اسس الاحترام المتبادل ومبنية على اساس القرار الوطني الفلسطيني المستقل ومبنية على اساس ان م.ت.ف هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ومبنية على اساس مجابهة الغول الطائفي والفرز السكاني في لبنان لاننا نحن مع وحدة لبنان ارضا وشعبا».

ولما سألته: برأيك ما سبب كل هذا العداء؟.. قال: يُسأل في ذلك الرئيس حافظ الاسد»! هذا ما يجعلنا نقول ان الموقف السوري يقوض كل فرص السلام. لان سوريا تريد السلام ولا شك.. ولكن لا تريد صوتا لاحد غيرها في المنطقة! فلا يصح ان يتفق ملك الاردن مع المنظمة للتحرك. وكل تحرك لا يبدأ من عندها فهو خيانة وانهزامية وقد سمعت رئيس منظمة التحرير وهو يقول بعجب: «عندما اتفق انا مع الملك حسين فهي خيانة. وحينما يتفق الرئيس السوري معه فهذا هو الصواب، كيف هذا؟»، ولا احد بالطبع يمنع سوريا من البدء او الحركة او الحرب او حتى الاتفاقات السرية.. ولكنها تقف صامتة ومدعية انها الوحيدة التي تملك مفاتيح السلام!.

الا ان موقفها الاخير يعتبر اول حركة من نوعها حين اعلن رئيسها ان سوريا تسعى لاقامة توازن استراتيجي بينها وبين اسرائيل. وانها ستكون القوة العسكرية المساوية في المنطقة للقوة الاسرائيلية. وقامت بالفعل بنشر شبكة الصواريخ على طول جبهة المواجهة في البقاع مما ازعج اسرائيل كثيرا وجعلها تحتج لان هذه الصواريخ تعوق حركة الطيران الاسرائيلي في اجواء لبنان.

وتدعي سوريا انها سترفع كفاءتها العسكرية وتكمل كل معدات الحرب بحيث لم يعد هناك.. وحسب التصريحات اي فرق كبير بين ما تملكه اسرائيل وما تملكه سوريا.. الا اننا

نقول ان السلاح لا يشترك في القتال وحده. اذ لابد من ايادٍ لتستعمل هذا السلاح. ولابد من قرار ليدفع الايدي لتمسك بهذا السلاح. ولقد قاتل الفلسطينيون اسرائيل وهم لا يملكون شيئا من السلاح بالقياس الى القوة الاسرائيلية. ولكن كان هناك قرار بالقتال. وهنا يكون القرار اهم من السلاح نفسه!.

على اننا وكما قلنا نرى لينا طفيفا في الموقف السوري حين تبين تراخي القبضة السورية على لبنان بفعل وقوف الشرعية اللبنانية ضد الاتفاق الثلاثي بدمشق الذي اقرته فاعليات لبنان الثلاث: الكتائب بقيادة ايلي حبيقة، والدروز بقيادة وليد جنبلاط، و«امل» الشيعية بقيادة نبيه بري.

وعندما انشق الصف المسيحي للمرة الثانية بسبب هذا الاتفاق وأُقصي ايلي حبيقة واعترض الرئيس امين الجميل على الاتفاق الثلاث.. تراخت القبضة السورية بعض الشيء عن لبنان.

ولكن يبدو انه مازال في نفس الرئيس السوري الكثير بالنسبة لـ «ياسر عرفات» ربما لانه لم يستسلم للمقاطعة السورية؟. وربما لان شعبيته وزعامته تغطي دائما على كل وسائل الاعتراض والفيتو مهما بلغت من القوة؟.

فقد سمعت الرئيس الاسد وسمعت رأيه مذاعا في اثناء زيارته لبراغ الاخيرة في شهر مايو ١٩٨٦ حين سأله مراسل اذاعة مونت كارلو متى سيعود التعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية؟ فقال: عندما يعود «عرفات» لحمل البندقية سأعود الى التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية! وشهقت من عجبي.. ولكني لن اسأل الرئيس الاسد السؤال الذي اطار رأسي حين سمعت اجابته هذه.. وهو: متى ترك «ياسر عرفات» بندقيته؟.. لان في صفحات هذا الكتاب اجابة وافية عنه!.

ومع ذلك فان التفاؤل لا يطغى على احد بمجرد ان نتابع الموقف السوري حيال العراق.. ولم تجده لجنة تنقية الاجواء شيئا. لان اجواء الاردن وتنقيتها كانت اهم بالنسبة لسوريا.

الا ان الموقف المتوتر بين سوريا واسرائيل والذي تشهده المنطقة ربما غير كل الحسابات وخلط كل الاوراق لو ان المواجهة تمت بين سوريا واسرائيل. او حتى نشبت معركة جزئية. فسوريا لم تدخل في حرب مع اسرائيل من قبل.. وتستثني معارك **١٩٧٣** اذ ان سوريا طلبت وقف اطلاق النار بعد ايام حسبما اذاع السادات وكانت القوات الاسرائيلية هي المتفوقة حيث احتلت اكثر من الجولان. وقد رأيت بعيني آثار الخراب والدمار على الجبهة السورية بعد حرب **١٩٧٣** بما يظهر التفوق الاسرائيلي في المعركة بعكس الجانب المصري الذي قامت

فيه مصر بالهجوم على خط بارليف وعبرت قناة السويس وكانت هي صاحبة الضربة الاولى هذه المرة. وسوريا تعرف قبل غيرها الفعالية الفلسطينية في اي حرب ضد اسرائيل. ويراودني امل خاص ـ وهذا تحليل خاص ايضا ـ ان سوريا ممكن ان تسمح للفلسطينين بالعودة الى الجنوب اللبناني حتى اذا ما اشتعلت الحرب بينها وبين اسرائيل.. فتح الفلسطينيون جبهة ضد اسرائيل من شمالها!

اقول هذا وهو رأي شخصي مع افتراض الرغبة السورية العربية في النيل من اسرائيل! ولا استبعد ان يكون قد طاف برأس الرئيس الاسد كما طاف برأسي وانا البعيدة عن اية فاعلية.. ولكنه هو الحلم ان تفتح اكثر من جبهة على اسرائيل في معركة. ومن يدري فلعل هاجسي حقيقة يفكر فيها القادة العسكريون!.

واذا نظرنا الى الاردن وجدنا به اطول جبهة مواجهة مع العدو الصهيوني. والجبهة التي نعمت بالهدوء طويلا لغياب الفلسطينيين حوالي خمسة عشر عاما لم يعكر صفوها شيء! الاردن وهو الشريك القدري والحتمي للفلسطينيين في كل شيء. ولا يكفي وصفه بالحليف الاستراتيجي لانه مختلف عن ذلك بكثير. انها علاقة عضوية بين فلسطين والاردن. لذلك طالما راودت حكام الاردن رغبة ضم الضفتين تحت الحكم الهاشمي.

ومنذ البداية لم ينظر الاردن بعين الارتياح لانشاء جبهة رسمية تأخذ على عاتقها التحدث باسم الفلسطينيين اذ كان من الطبيعي في نظرهم ان يتحدثوا هم عن ذلك الشعب المتداخل جغرافيا وبشريا بشعبهم حول نهر الاردن.

ولن نتطرق للمحاولات الأولى لانشاء منظمة التحرير ولا اعتراضات الاردن على ذلك، فهذا تاريخ معروف وموثّق.

وقد انتزعت منظمة التحرير بصمة وجودها بشق الانفس الى ان اصبحت حقيقة واقعة.

ولقد مضى زمن طويل منذ ان وقف الملك حسين يجأر بصرخته المدوية: كلنا فدائيون.. بعد معركة الكرامة في عام ١٩٦٨. وهي المعركة التي صمدت فيها المقاومة الفلسطينية في ارض الكرامة بالاردن صمودا بطوليا لم يسع القوات الاسرائيلية الغازية الا الانسحاب بقتلاها وجرحاها بعد معركة دامت خمس عشرة ساعة. لقد مرّ زمن طويل منذ ذلك اليوم حافل بأنواع قاسية من الصراع.. كانت تتجّمع فيه سحب الشك في ان المقاومة تعمل على تسلم السلطة في البلاد وبتشجيع العراق وسوريا!.

وكانت القيادة الفلسطينية هي التي ترفض هذه المحاولات حرصا منها على الايديولوجية المعلنة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد عربي. والتاريخ وحده

سيحكم هل كان هذا خطأ ام صوابا؟!.

ولم تمنع هذه الصرخة المدوية التي اطلقها الملك عام ١٩٦٨ ـ لم تمنعه من ان يذبح الفدائيين الفلسطينيين انفسهم في سبتمبر ١٩٧٠ . وداسهم بالدبابات وشتت قواتهم ودمرهم في اعظم كارثة نزلت بالمقاومة الفلسطينية عام ١٩٧٠ و١٩٧١ واسترخت الاردن في ظل الامان الذي كفله لها الاطاحة بالقوة الفلسطينية المقاتلة. وكأن جارتها اللدود اسرائيل قد كفت يد اعتدائها عنها اعترافا بهذا الانهيار الذي اوقعته نيابة عنها الاردن بقوات الثورة الفلسطينية! وحتى في عام ١٩٧٣ وفي اثناء الحرب رفض الملك ان يسمح للفلسطينيين بالمشاركة في الحرب التي قامت ضد العدو المشترك من خلال بوابته! ولا احد يدري اهو خوف من اسرائيل.. ام كراهية للفلسطينيين حتى ولو كان بوسعهم ضرب العدو؟!.

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٣ حين اجتمع مؤتمر القمة في الجزائر واعترف لاول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وبقي هذا القرار سرا لامتناع دولة واحدة عربية عن التصديق على هذا القرار الذي تبنته القمة. وكانت هذه الدولة هي الاردن!.

ولكن في قمة الرباط التي عقدت في ١٩٧٤ تم الاعتراف العلني والنهائي بمنظمة التحرير بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني.. لم يكن في وسع الاردن الا ان يوافق. لقد كان دائما هناك جانب التوجس من جانب الملك حسين تجاه منظمة التحرير وبالذات قائدها صاحب النفوذ القوي.

وعندما خرجت منظمة التحرير من لبنان كان الاردن يعاني من العزلة والوحدة خاصة وسوريا تنظر اليه دائما بالعين الحمراء. ودائما ضد خطه السياسي. وخاصة لنظر الجميع اليه الى انه لقمة سائغة في فم الاسد الاسرائيلي. وتتجمع حوله اطماع الصهيونية بدعم امريكا ان يكون وطنا بديلا للفلسطينيين ولانهاء المشكلة.

كان الاردن يريد حليفا يستند اليه لدفع فرية الوطن البديل التي ستهز كيانه المستقل. فالتقط الفلسطينيين الذين كانوا هم ايضا يبحثون عن سند يركنون اليه. وقد تعثرت المحادثات بينهما فترة.. ولكن حين قدم الملك مبادرته لاحتضان المجلس الوطني انفتح الفلسطينيون على الاردن عوضا عن المكان الذي فقدوه وللاحياء الذي ستلاقيه الثورة بين جماهيرها.

وافتتح ملك الاردن المجلس الوطني بحماس شديد. ولعل العيب الكبير في الامور السياسية هو الحماس الزائد في اي من الامور. فكما كان الحماس كبيرا لبداية التعاون.. كان الحماس كبيرا لانهاء التعاون!.

واسفر الحماس الاول عن اتفاف عمان او اتفاق الحسين ـ عرفات الذي تفاءل به كثيرون. وظهر وكأنه اول خطوات الحل الحقيقي.. ومضى بالفعل في طريق التقدم. الامر الذي اقلق اسرائيل لئلا يحصل عدوها الرئيسي على اية مكاسب. فبدأت تهدد جارتها الهادئة التي نعمت بالسلام معها مدة خمسة عشر عاما. وبدأت تلوح بالقوة وبأنها ستضرب قواعد الفلسطينيين في الاردن. وتنافس وزراء ومسؤولي الصهاينة في الاشادة بفائدة مثل هذه الضربة. ويبدو ان الاردن كان يظهر عدم المبالاة في الوقت الذي كان داخليا قلقا ومتحسبا لهذه التهديدات. الى ان ضربت اسرائيل مقر المنظمة في تونس. هنا بلغ القلق مداه بالاردن وخاصة بما تبع ذلك من ازمة السفينة وخطف الطائرة.. وفشل اجتماع لندن. واستخدمت امريكا واسرائيل سياسة الترهيب والترغيب مع الاردن ومع الملك حسين بالذات. ورغم ان قمة الدار البيضاء الطارئة قد اعطت الاشارة للتقدم بهذا الاتفاق على طريق قرارات قمة فاس الا ان لجنة تنقية الاجواء المنبثقة منها اجهزت بتنقيتها الاجواء بين الاردن وسوريا على كل ما بقي في نفس الملك من مشاعر الود الحديث الذي جاء مع الخوف من مقولة الوطن البديل. وكانت هذه المقولة قد سقطت تقريبا بتوقيع اتفاق مع اصحاب الشأن انفسهم. وامسك الاردن بالقرار **٢٤٢** بكلتا يديه حتى جعل الفلسطينيين يتعثرون عليه ليقيمه حجر عثرة في وجه المباحثات تنفيذا للارادة الامريكية. والشيء الوحيد الذي يؤخذ على الاردن انه انحاز لوجهة النظر الامريكية ولم يحاول ان يشكل مع شريكه جبهة ضاغطة لتجاوز هذه العقبة!.

ولكنه اخذ يجاهد صراحة بالمطالبة بالاعتراف بالقرارين **٢٤٢ ـ ٣٣٨** ويجعل منهما الشرط الاساسي للاستمرار في التنسيق المشترك بينهما.

ووجهة النظر الاسرائيلية والامريكية تحتم ذلك ايضا. واصبح مطلوباً من «ابو عمار» ان يسلم آخر اوراقه الرابحة نزولا على رغبة مطالبيه. والرجل ليس من طبيعته الاستسلام. لقد خاض الحروب والاهوال من اجل الاحتفاظ بقراره النابع من ارادة شعبه. وكان ينتظر وينتظر معه كل الشرفاء ان يتبنى الجميع وجهة نظره في مقابل وجهة نظر امريكا. الى ان فاجأ الملك العالم كله بوقف التنسيق بينه وبين منظمة التحرير الفلسطينية وفوجئنا جميعا بمن يطعن من وجهة نظره ويطعن في مصداقية رئيس المنظمة! ويطلب زعامات جديدة!.

وبهذا يكون الاردن قد تبنى وجهة نظر امريكا واسرائيل من خلفها. واصبح السؤال يرتفع من افواه الجميع: اهي المشكلة مشكلة الاردن ام فلسطين؟. ومن هو المفروض ان يتلهف على الحل؟.. ومن الذي يريد انقاذ الناس من الاحتلال؟.. ولماذا الانحياز للأقوى؟. لماذا الانحياز لمن ينكرون حق تقرير مصير الشعوب؟. كيف نقول عن امريكا

انها فعلت كل ما يمكن لها ان تفعله؟ . . امريكا الدولة العظمى الغنية المؤثرة في سياسة العالم فعلت ما يمكن لها ان تفعله و«ياسر عرفات» قائد الشعب المعذب، المشتت، المشرد الذي يعيش حياة اللجوء والحاجة ويحيا على برميل بارود متفجر هو الذي لم يفعل ما يستطيع فعله!!.

ولا احد يدري ما الذي كان مطلوبا منه . . ان يسلم . . ان يتنازل عن حقوق شعبه الشرعية والطبيعية في العيش والحياة وان يعترف باعدائه وهم لا يعترفون به ولا بشعبه؟ . . وحوله اعداؤه الذين ينكرون حق الحياة لخمسة مليون فلسطيني على وجه الارض؟!.

والواضح ان ملك الاردن قد أزّم الموقف اكثر من اي وقت مضى بالنسبة لمحاولات السلام مما جعل الجميع يتساءل الى اين سيتجه الاردن؟ . . . خاصة وانه يعرف جيدا وربما اكثر من غيره ان لا غنى عن التعاون مع منظمة التحرير. لقد قام بعد وقف التنسيق بعديد من اللقاءات والاجتماعات مع زعامات وقيادات من داخل الارض المحتلة بما كان يقال عنه وفود التأييد. ورغم كل هذا التأييد وكل هذه الاجتماعات الا ان الملك ازداد اقتناعا بضرورة منظمة التحرير لان آخر سهم في جعبته قد طاش ايضا ولم يستطع ان يقلل من وجود «عرفات» ومكانته ولا من وجود المنظمة ومكانتها. ولعل مشاهد جنازة ظافر المصري على شاشات التلفزيون الاردني وفي افلام الفيديو قد اكدت قناعة الملك بمدى التفاف الناس حول قيادة «ياسر عرفات» والمنظمة!.

ولا احد يستطيع ان يتكهن باتجاه الاردن حاليا. فهو حائر بين صداقته المتجددة مع سوريا وبين التقارب الحميم مع مصر. والعلاقة الاخوية مع العراق. . على كل ما يمثله ذلك من تناقض!. وتقوم مصر بدور كبير في اقناع الملك الحكيم باستئناف التنسيق مع قيادة منظمة التحرير، ففي هذا الانقاذ الوحيد للاثنين معا. الا ان الملك مازال غاضبا من قيادة المنظمة التي ارهقته في خلال عام من توقيع الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني. . لانها لم تتبع الخطوات الامريكية التي كانت بداية ستقود الى انعقاد المؤتمر الدولي الذي سوف تحضره المنظمة جنبا الى جنب مع بقية الاطراف. واخيرا قطع الملك شعرة معاوية بطرده لابو جهاد، نائب ياسر عرفات من عمان واغلاق **٢٥** مكتبا للمنظمة في عملية اعلان صريحة ضد المنظمة وقيادتها.

ان السياسة والكل يدري تتطلب النفس الطويل . . وتتطلب التأمل الهادىء . . وتتطلب البعد عن الانفعال وتتطلب احيانا الجسارة لا الاندفاع واخطر شيء عليها هو الحماس الزائد! الم نقل منذ البداية ان الحماس الزائد دائما خطر!.

الا ان هناك شيئا ما يدور في نفس الملك الحكيم . . شيء ما اتفق ان يسمى ـ الطبخة

ـ والمؤشرات كلها تشير على اتصالات خفية بين الكيان الصهيوني وملك الاردن. الذي كان قد اعلن في المجلس الوطني الفلسطيني امام كل وسائل الاعلام المفتوحة ان يفعل اي شيء الا الانخراط في صلح منفرد!.

وان كانت الدلائل تشير الآن الى غير ذلك. فهذه ـ الطبخة ـ التي يشير اليها المراقبون سيكون الاردن اهم مكوناتها وتشترك فيها بعض الاطراف العربية وتقوم القوة العظمى بانضاجها!.

وهذه الطبخة تطهى بعيدا عن انف منظمة التحرير. بل بتعمد ان لا تنال المنظمة منها شيئا. هذا هو المفروض. لكن الواقع لن يكون بمثل ما توقعوا. ولعل مسز تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية، التي قامت اخيرا بزيارة اسرائيل في اول زيارة رسمية منذ انشاء الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨، وهي تحاول القيام بدور توزيع الادوار ـ خير من تعرف ذلك حين قدمت اليها مذكرة من قيادات للشعب الفلسطيني بالداخل من ثمان نقاط تنص اربع نقاط منها بالالتفاف حول منظمة التحرير وبقيادتها.

ولعل ملك الاردن يعلم اكثر من غيره ان اي تسوية تتعمد استبعاد المنظمة مستحيلة، بل وخطيرة في نفس الوقت. ولا يغيب عن فطنته امكانية اندلاع البركان الذي يمكن ان يزلزل المنطقة كلها. وينظر الجميع بحذر الى ما يمكن ان تسفر عنه خطواته القادمة مع العواصم الاوروبية واتصالاته مع الادارة الأميركية حامية حمى اسرائيل وزيارات المسؤولين الاميركان للمنطقة. اذ ربما تكون بداية الانفجار. وفي الاحتمال البعيد.. المستحيل جداً ان تكون فاتحة خير وسلام!!.

اما اذا نظرنا الى مصر الدولة الأكبر والأهم في منطقة الصراع.. وجدناها وبعد الحرب قد سارت في سلسلة من المفاوضات ادت بها الى معاهدة الصلح وأدت بها الى القطيعة مع شقيقاتها العربيات. وادت بها الى الخروج من حلبة الصراع. وان كان رئيسها السابق انور السادات قد وعد بأن تكون حرب اكتوبر آخر الحروب بين العرب واسرائيل. فقد سقطت مقولته هذه تحت اقدام الصهاينة حين غزوا لبنان. واثبتت معاهدة الصلح انها كانت لصالح اسرائيل بآثارها حين حيّدت القوة العربية الكبرى. وحين اتاحت الفرصة للاستفراد بالفلسطينيين وحين ساعدت على اشعال الفتنة في لبنان.

وانهت رصاصات المنصة مرحلة من مراحل التاريخ المصري. وكان عهد الرئيس مبارك الذي يجاهر بانه ليس من محترفي السياسة!.. عصراً مخالفاً. وان كان لا يستطيع بحكم كل ظروف مصر وواقعها الاقتصادي والحياتي ان ينفلت من معاهدة الصلح لينخرط في حرب مع اسرائيل. فاسرائيل بطبيعة الحال لا تقبل ان يخرق احدها تعهداً او معاهدة.

وان كان الرئيس المصري قد سحب سفيره من اسرائيل مع البدء في غزو لبنان، فقد كان هذا اقصى ما يستطيع ان يفعله في ظل معاهدة تكبله. ولكن قد تكون كلمة حق ان نقولها ان مصر وفي كل مراحل معايشتها للقضية الفلسطينية لم تسيء لمنظمة التحرير ولم تقم او تشارك في أي عمل ضد الفلسطينيين الا ان معاهدة كمب ديفيد كانت طعنة غادرة في ظهر الشعب الفلسطيني.

وقد كنت في مرة احضر اجتماعا لكوادر «فتح» في عمان، وكان «ياسر عرفات» يتحدث وقال في غمرة استعراضه بما لحق بالفلسطينيين من عذاب: وهنالك كثير من العرب شاركوا في ذبح الشعب الفلسطيني ولا ادري كيف نطقت بصوت عال وفي وسط الاجتماع: الا مصر. وساعتها ضحك ابو عمار وقال: «طبعا مصر لم تضربنا ابدا.. واحب ان اقول ان الدكتورة مصرية». وحقيقة لم اقل هذا لاني مصرية فقط ولكن لانه حقيقة.

فالشعب المصري دائم الحنو على الفلسطينيين. ولم يسيء اي حكم الى الفلسطينيين في مصر بأكثر من اجراءات بسيطة كغلق مكاتب او ايقاف اذاعة وكان هذا حين يعترض الفلسطينيون على الحكم وتوجهاته فقط. ولكن لم يحدث للفلسطينيين ابدا على ارض مصر اي نوع من انواع القهر او القتل.

ورغم تكبيل مصر بالمعاهدة الا ان الحكم بها استقبل «ياسر عرفات» في قلب القاهرة. وقد حرص طوال مسلسل العذاب الذي مر بالفلسطينيين منذ غزو لبنان ان يمد لهم يد المساعدة. وكان شريكا في تأمين «ياسر عرفات» ورجاله اثناء خروجهم من طرابلس. ويكفي ان الحكومة المصرية قد جمدت الشق الفلسطيني في معاهدة كامب ديفيد وحتى لا تتخذ اي خطوة بمفردها في تقرير حق الفلسطينيين.

وليس معنى ان مصر طرف في معاهدة سلام اسرائيلية مصرية انها قد استرخت بحيث انه لم يعد لها دور في المنطقة. ولانها تعرف انها قوة وثقل، فهي تحاول ان تأخذ مكانها.

وان كانت الدولة العربية مازالت مستمرة في مقاطعتها الا ان الصلة الحقيقية غير مقطوعة. واغلبهم يتمنى ان تعود مصر لتحتل مكانها. والبلاد العربية تعرف وتفخر بالموقف الشعبي المصري الذي يقاطع المعاهدة واصحاب المعاهدة ويسقط مقولة التطبيع ويزيد من ارتفاع الحاجز النفسي الذي تصور السادات انه سينسفه بمجرد توقيع المعاهدة.

وقد تبدو بعض الاخطاء في السياسة المصرية من وجهة النظر المعادية للمعاهدة ولكن للسياسة احكام. وللاوضاع الدبلوماسية ضوابط. ويكفي رغم كل شيء ان السفير الاسرائيلي مجمد في القاهرة لم يزره احد ولا يدعوه احد.

وحين استقبل الرئيس المصري «ياسر عرفات» كان هذا اعلانا صريحا ان مصر هي

مصر ولا يغير منها الف معاهدة. وتحركت السياسة المصرية دائما في سبيل ارساء تسوية ونادت دائما بالمؤتمر الدولي الذي لابد وان تحضره منظمة التحرير الفلسطينية.

وهنا يجدر بنا ان نقول باخلاص ان مصر في ظل المعاهدة تقف مواقف ايجابية من منظمة التحرير اكثر من دول غيرها تدعي خيانة مصر ولا ترتبط هي بمعاهدات.. ومع ذلك تحارب الفلسطينيين وتقتلهم وتضعفهم وتقسمهم!.

ومن خلال مباحثات اقنعت مصر «ياسر عرفات» باعلان ادانة الارهاب حتى تخف الحملة المسعورة التي يشنها عليه اعداؤه بادعاء الارهاب وحتى يكتمل للمنظمة الشكل السياسي لتتمكن من المشاركة في مؤتمر دولي للسلام.

وان كانت مصر لم تقل شيئا عن الكفاح المسلح او لم تستثنيه، فقد تركت «عرفات» وهو المسؤول عنه يستثنيه ويعلن من فوق ارضها تمسكه بالكفاح المسلح. ولم تتكلم عنه مراعاة لظروف معاهدة الصلح.

والرئيس المصري يتكلم دائما وفي كل المحافل عن ضرورة اشتراك منظمة التحرير في اية مفاوضات سلام. ويأخذ على عاتقه مهمة التوفيق بين الاردن ومنظمة التحرير. ليعود التنسيق بينهما للتقدم في طريق الحل.

ولا يستطيع احد ان يقول ان مصر ليست مؤثرة في مسار السلام بخروجها من حلبة الصراع. فالحقيقة ان حلبة الصراع مازالت كما هي. ومعاهدة الصلح الاسرائيلية ـ المصرية ما هي الا هدنة مؤقتة. وهكذا صرح بعض قادة اسرائيل ومعظمهم يعتبرها خسارة لاسرائيل ويعتبر ان مصر خدعتهم!. واسرائيل نفسها لا ترتاح كثيرا الى مصالحة احد.. فهي دولة عدوانية وانما ارادت صلحا مع مصر لتأمين حياد القوة الكبرى الى ان تستطيع هي تحقيق مكاسب. والا ما كان وزير دفاعها، يقول اخيرا ان الضربة الاسرائيلية القادمة ستشمل سوريا والاردن ومصر ايضا!!.

ان مصر مازالت في دائرة المدافع الاسرائيلية وان سكتت عنها فذلك الى حين! ولذلك فمصر ايضا لازمة في عملية السلام. وما كان احد ليتصور انها خارج اللعبة بمجرد توقيع معاهدة. و«ياسر عرفات» الذي تعلم وعاش في مصر وتعلق قلبه بعبد الناصر وبقية القيادات.. وتطوع في القناة يقاتل الانجليز وتعلق بشعب مصر وتراب مصر. ولا يلبث ان يعلن بكل وضوح: انا مصري الهوى... يعرف قيمة مصر وثقلها الدولي والعربي ويأمل ان تأخذ مصر بيده لتدعمه. والاتصالات والمشاورات بالحكم المصري مستمرة ودائمة، فهو يعرف ان مصر يمكن ان تكون مظلة له يركن اليها في خطواته الرئيسية الجريئة التي ستحتم عليه الظروف ان يخطوها.

ولعل كل ما قلنا لا يعطينا جوابا عن سؤالنا الكبير: السلام الى اين؟ وقال لي «ياسر عرفات»: «قبل ان تجيبي على هذا السؤال يجب ان نفند عناصر السلام. يجب ان نعترف ان السلام لن يتحقق الا اذا صنعناه نحن.

وكما يقال حل القضية الفلسطينية بيد العرب. ولو كان العرب كلمة واحدة ما جرؤ احد على ان يمتهنها بهذا الشكل. وما كانت القدس قد سقطت من بين ايدي مليار مسلم!.

ولكن في واقعنا العربي الآن عوائق ولن نخرج من هذا النفق المظلم الا بازالتها». سألته: ما هي هذه العوائق؟. قال: «اولا ايقاف الحرب العراقية - الايرانية.. ولم اوفر جهدا لمحاولة ذلك فقد حرمت هذه الحرب العرب من درع واق لهم. لقد رأيت القدس بعيني يوم اعلن العراق عن وقف القتال في بداية الغزو الاسرائيلي عام **١٩٨٢** خاصة وان ايران وافقت لاول مرة. ولكن للاسف جنون الحرب عصف بكل شيء بعد اصرار ايران على الاستمرار بها.

واهم الاشياء بعد ايقاف الحرب في الخليج هو عودة مصر الى الامة العربية. مصر اهم عضو في جسد الامة العربية. ولا يمكن ان ينسى احد دورها الكبير وتاريخها النضالي. ولابد ان ننظر بعين الجد الى المستجدات التي طرأت على السياسة المصرية في عهد الرئيس مبارك. ولا يجب ان نغفل الموقف الشعبي الذي اسقط التطبيع وادار ظهره للاسرائيليين. ولا يمكن ان ننفذ نحن الهدف الاكبر من كامب ديفيد وهو عزل مصر عن العرب. اذا فعلنا نكون نحن تسببنا في ضرر الامة اكثر من كامب ديفيد نفسه. لابد ان تعود مصر. وقد بذلنا كل الجهود حتى عادت مصر الى منظمة المؤتمر الاسلامي. وسنبذل قصارى الجهد لتعود ايضا الى مكانها الطبيعي في قلب الامة العربية.

مصر حضارة السبعة آلاف سنة، ومصر القوة البشرية والحضارية والقوة العسكرية ايضا. مصر عربية يجب ان تعود لنا.. ونعود لها.

وايضا لابد من احباط المخطط الطائفي لتقسيم لبنان الذي يهدد المنطقة كلها بخطر البلقنة. لانه خطر لا يقف فقط عند حدود لبنان وانما سيستشري بين بقية الدول العربية. وهذا التصدي يقع على عاتق القوى العربية الوطنية كلها. وعلى كل القوى ان توحد جهودها لافشال المخطط الطائفي في لبنان وحماية المنطقة من خطر البلقنة الذي يعتبر واحدا من الاهداف الرئيسية الامريكية - وكان من صنع كيسنجر - منذ تفجير الحرب الاهلية في لبنان عام **١٩٧٥**.

وبما ان التنافر لا يقع في دول المشرق فقط فيجب علينا الا نغفل عن دول المغرب

العربي. فتوحيد موقف دول المغرب العربي يزيد من ثقل الموقف العربي العام. فالمغرب العربي لا ينفصل عن المشرق العربي والخطر الصهيوني المزروع في المشرق يتضاءل لو جاء الدعم ايضا من مغربنا العربي.

ولن تستطيع دول المغرب ان تدعمنا الا اذا زالت خلافاتها. وهذا لا يجعلنا ننكر الجزائر او تونس او المغرب مناصرتها للثورة الفلسطينية ولكن لو تلاشت الخلافات ونتج دور واحد لدول المغرب لكان اكبر سند لدول المشرق العربي. ويجب ايضا على الدول المشرقية ان تسهم في حل خلافات المغرب العربي ليقوم تضامن عربي شامل في المشرق مع المغرب العربي.

اما على الصعيد الفلسطيني فيجب ان تقر جميع الدول العربية بمبدأ عدم التدخل في شؤون الثورة الفلسطينية ليكون لنا القرار الوطني المستقر في اطار الالتزام القومي. وعلى الكل ان يتأكد ان القرار الوطني المستقل في اطار الالتزام القومي مرتبط بالبعد القومي لاننا جميعا شركاء في مسيرة تحرير فلسطين الذي تشترك فيه منظمة التحرير والشعب الفلسطيني مع غيره من شعوب الامة العربية. فالخطر الصهيوني لا يقتصر على فلسطين وحدها وله اطماع في العالم العربي لذلك فنحن حريصون لتحقيق وحدة فلسطينية وطنية كاملة ومستقلة الارادة والقرار. ويأتي بعد ذلك قدرتنا على التوائم بين خيارنا العسكري بالكفاح المسلح والنضال السياسي. واذا كان الكفاح المسلح وسيلتنا للتحرير فان التحرك السياسي وسيلة متممة لنيل حقوقنا التي نقاتل من اجلها.

وكل نجاح تحصل عليه سياسيا لن يكون الا بالضغط العسكري على اسرائيل من خلال تصعيد الكفاح المسلح من داخل الارض المحتلة. ونحن نهدف من تحركنا السياسي ايضا الى كسب الرأي العام العالمي. وكما نعرف فالبندقية التي لا يصاحبها موقف سياسي تصبح بندقية قاطعة طريق. ونحن مناضلون عن حق.. نقاتل دونه سياسيا وعسكريا.

وليس لنا ان ننسى في عداد التخلص من آفات عالمنا العربي او ازالة معوقاته ان نتحدث عن علاقتنا بسوريا. فسوريا بشعبها وقوتها حليف لا غنى عنه. لذلك نحاول تصحيح العلاقة معها. ويجب ان تستمر العلاقة معها ـ ولكن مع كل حرصنا على هذه العلاقة فاننا نريدها سليمة وليست عرضة لأي هزات.. وهذا التدخل في الشروط الفلسطينية وهي الشروط التي قلنا بها حين سألونا عن لجنة تنقية الاجواء المنبثقة عن قمة الدار البيضاء في اغسطس ١٩٨٥ بيننا وبين سوريا. وقد اكد مجلسنا الوطني في دورته الـ ١٧ في عمان بضرورة تجاوز ما اصاب العلاقات الفلسطينية ـ السورية من توتر.. لترسي العلاقة على اسس واضحة وسليمة تضمن حرية العمل والقرار الوطني في اطار الالتزام

القومي بعيدا عن التدخل في الشؤون الداخلية لاي من الطرفين».

وسكت رئيس منظمة التحرير.. فسألته: هل تظن ان هذا كله يمكن ان يتحقق؟ قال: «ولما لا»؟. قلت: سيكون هذا هو الحلم العربي. قال: «وما المانع ان نحقق الحلم العربي؟!.. سنناضل من اجل تحقيق الحلم.. فالاستسلام للمحن ليس من طبعنا. ولابد ان نجتاز محنة العالم العربي. ولقد قلت قبل الحرب في لبنان.. قبل الغزوة الصهيونية على بيروت ـ قلت نحن نمر في نفق مظلم ولكن قلت ايضا انني ارى القدس في نهاية النفق المظلم».

فسألته بلهفة: أما زلت تراها؟.

قال: «نعم.. فلابد ان يكون لنا موعد في القدس».

بعد هذا الحديث اخذتني الحيرة.. اذ انني لا ادري من اين لهذا الرجل كل هذا التفاؤل؟.. ومن اين له كل هذا اليقين؟.. ولكن لابد وان يكون هكذا والا ما استطاع ان يرفع بندقية ليطلق طلقة!.

على ان «عرفات» وان بدا متفائلا فليس معنى ذلك ان يغفل لحظة واحدة عما يدبره اعداؤه. وهو يعلم تماما شراسة الصراع الدائر خاصة وان اعداءه لا يضربونه وحده فقط وانما يتحركون في كل مجال ليفقدوه عونا او تأييدا!. والواضح ان حملة التهديدات التي كانت قد وجهت ضد الاردن ورافق ذلك حملة ديبلوماسية واعلامية واتصالات مع الدول الغربية توضح وتشرح ان تصاعد العمليات الارهابية ـ كما يسمونها ـ في الداخل التي يقوم بها الفدائيون ضد القوات الاسرائيلية وضد المستوطنين اليهود يعود الى هذا التفاهم الكبير بين الاردن والمنظمة وان اعادة فتح مكاتب منظمة التحرير في عمان يسهل حركة الاتصال بين القيادة والداخل مما ينتج عنه تنظيم لهذه العمليات الفدائية. وقد لاحظ المراقبون من خلال تلك الحملات العنيفة ان الهدف كله هو ضرب التفاهم الاردني ـ الفلسطيني الذي أثمر الاتفاق بين الجانبين عن فكرة الوفد المشترك التي اقلقت اسرائيل لامكان لقاء مع الولايات المتحدة بالفلسطينيين وتقصد ايضا من هذا كله الى جذب انتباه الملك الى الخلاص من شريكه الذي سيتسبب له في متاعب عديدة وان يباشر مساعي السلام المزيف منفردا ومباشرة مع اسرائيل شرط التخلي عن منظمة التحرير وقيادتها. ولا تفتأ اسرائيل ان تذكر بأن الجبهة الاردنية ـ الاسرائيلية قد نعمت بالهدوء طوال خمسة عشر عاما فلماذا العودة الى المتاعب؟.

واسرائيل كانت تعلم ان اية ضربة للاردن ستفتح باب الصراع بين الاردنيين والفلسطينيين و«دليلهم في ذلك التجربة اللبنانية التي جعلتها القذائف الاسرائيلية وطلعات الطيران المتكررة تكره وجود الفلسطينيين الى حد ان قام البعض لتحرير لبنان منهم.. لانهم

يجلبون الويلات للبلد على حد قولهم .

ويلجأ الساسة الاسرائيليون لكل الوسائل لتنفيذ مخططاتهم فهم يبدأون مع الاردن بالتحرك الديبلوماسي وادعاء الرغبة في السلام . . وان لم تجد هذه الطريقة فالحل العسكري جاهز وعلى التنفيذ! .

ولو ان معلقا اسرائيليا كـ «زئيف شيف» يقول: الحل العسكري لا يفيد كثيرا وهو الذي كتب عن الغزو الاسرائيلي لبيروت شاجبا هذه العملية . وكتب مقالا في صحيفة دافار يوم ١١/١١/١٩٨٥، تحت عنوان ـ عواء على القمر ـ وقد اوردنا اسم المقال لدلالته . . وقد قال فيه: «ان الغارة الجوية التي قام بها سلاح الجو الاسرائيلي على تونس كانت قوية ولامعة . وقد كانت بمثابة عقاب على العمل ـ الارهابي ـ لما قامت به منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن المشكلة الفلسطينية بقيت بدون حل! وبدون حل القضية الفلسطينية لن ينتهي العمل الارهابي ـ وحل القضية الفلسطينية سينهي العمل الارهابي . ان جيش الدفاع الاسرائيلي لن يحل المشكلة الفلسطينية رغم كل جبروته . لقد تعلمنا ذلك جيدا في لبنان . ان جيش الدفاع الاسرائيلي لن يحل القضية الفلسطينية وانه يجب حلها بالطرق السياسية وليس بالطرق العسكرية . اننا نستطيع ان نحلها بجرأة سياسية وبتخطيط سياسي لامع وبرؤية وامل سياسي ويجب ان نبدأ في ذلك .

ان المشكلة ليست منظمة التحرير الفلسطينية . . وكل من يتحدث عن منظمة التحرير هذه . . فانه يوقع الآخرين بخطأ وينحاز عن الطريق الصحيح . ان المشكلة هي المشكلة الفلسطينية . ومنظمة التحرير الفلسطينية هي عبارة عن الاسنان والاظافر لهذه المشكلة ولا تمثل الجسم! ان كل من يتمسك تمسكا قويا في منظمة التحرير الفلسطينية فانه بذلك يريد ان يخفي القضية الحقيقية وهي القضية الفلسطينية غير المحلولة!» .

وبهذا التحليل المعقول يكون زئيف شيف اعقل واحكم من كل قادة اسرائيل! اذ ان القضية الفلسطينية حقيقة هي الاصل . ولو حتى دمرت كل قوى منظمة التحرير العسكرية لنبت من ابناء القضية الف مقاوم ومقاوم . فالمشكلة هي القضية . وربما هذا يكون السبب الذي يجعل الاسرائيليين ينسفون كل الجهود الديبلوماسية الرامية لحل القضية الفلسطينية لانهم لا يريدون حلها . . وانما يريدون ان يستمر هذا الصراع المسلح بين قوى غير متكافئة لحسم الصراع لصالحهم بينما الصراع السياسي والدخول الى جوهر القضية وهي قضية شعب سيحسم الوضع لصالح الخصم وهذا ما لا يريدونه . .

وقد ادرك «عرفات» هذا الغرض الخفي لذلك فهو يصارع سياسيا ويظهر المرونة والتي كثيرا ما يأخذها عليه الجانب الفلسطيني المدعي التشدد . ولكن يعلم مدى حرص عدوه على

حرمانه من اي مكاسب سياسية تمنحه مكاسب على الارض.

لذلك لم ير «عرفات» حرجا بأن يعلن انه يدرك ان تغيرات كثيرة طرأت على الحدود المثبتة في قرار التقسيم وهو موافق على تلك التغيرات ايضا. كذلك وافق على قيام اتحاد كونفدرالي دائم بين الاردن وفلسطين واعلن استنكاره لاعمال العنف ضد المدنيين مؤكدا على قرار المجلس الوطني الذي اصدره عام ١٩٧٤ والقائل بقصر عمليات المقاومة على فلسطين والاراضي العربية المحتلة.

وعاد وكرر ذلك في اعلان القاهرة مرة اخرى. ولكن يبدو ان وزير الخارجية الامريكي شولتز لا يكتفي بهذا كله ولكنه يطالب منظمة التحرير باعلان وقف اطلاق النار بشكل نهائي، ومن طرف واحد دون الحصول على التزام مماثل من جانب اسرائيل والعجيب ان شولتز هذا هو الذي يتردد في احياء مشروع ريغان نفسه رغم انه هو الذي كان قد وضع الصياغة الاخيرة للمشروع! وبذلت معه الجهود لاحيائه من قبل وزير الدفاع كاسبار واينبرغر والرئيس الامريكي نفسه ومجموعة من خبراء الشرق الاوسط في وزارته.

وعلى هذا يرى المتخصصون في وزارة الخارجية الامريكية كما يرى ملك الاردن ايضا ان امريكا بنفسها هي التي عطلت مشروع ريغان وقد شهد على ذلك مورفي نفسه بعد عودته من احدى جولاته في الشرق الاوسط وبالذات حين عاد من عمان. اذ صرح ان «عرفات» مستعد فعلا لتشكيل اتحاد كونفدرالي مع الاردن.

وقد يكون هذا رأي متقدم جدا في تفاؤله.. ولكن مورفي رآه! والعجيب ان ترفض حكومة الليكود خطة ريغان وكان رفضها بالطبع لأنها لا تريد حلاً للمشكلة الفلسطينية وبأي شكل من الأشكال لأنه كما يقول اسحاق رابين، نائب رئيس حزب العمل ووزير الدفاع في الحكومة الحالية، ان اسرائيل ترى ان المكان الوحيد الذي ستقابل فيه منظمة التحرير هو ميدان المعركة.

وكما قلنا فان بقاءها يكون فقط في استنادها على القوة. وقد اكدت غزوة لبنان التي كانت تهدف لضرب البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية بقصد القضاء على وجودها نهائيا. وظهر في تصريحات روفائيل ايتان، رئيس الاركان الاسرائيلي، في ١٩٨٥/٥/٣٠، انه لا يمكن ان نفاوض حسب شروطنا الا بعد ان نوجه اليهم ضربة قوية.. وبعد ذلك اما الا يعود هناك وجود للمخربين واما ان يضعفوا تماما..

وهكذا يريدون!.. السلام من تحت الركام! الا ان السياسة الامريكية تأخذ جانب البغي الاسرائيلي. وفي حين تطالب الفلسطينيين بالاعتراف المسبق بحق اسرائيل في الوجود وخلف حدود آمنة لا تريد ان تعترف هي بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني كله!.

رغم ان كثيرين من الساسة الامريكيين ممن هم خارج الحكم يرون ان الفلسطينيين يحق لهم ايضـا تقـرير مصـيرهم. فعـلى سبيل المثال لا الحصر فان الفرد اثرتون، السفير الامريكي السابق في مصر بين عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٣ يقول: «علينا ان نفهم لماذا يقوم الشباب الفلسطيني بمثل تلك الاعمال وان نعترف ان ظلاماتهم وشكاواهم ظلامات حقيقية وصادقة مما يعني ان علينا ان نبحث في جوهر ما يلزم للتعامل معهم. ان معظم من يقومون بهذه الاعمال كانوا قد ولدوا وترعرعوا في مخيمات اللاجئين وهم يمثلون كراهية لاولئك الذين يعتبرونهم مسؤولين عن احوالهم». اي اسرائيل ومؤيدها الرئيسي الولايات المتحدة.

وبينما تنشط الولايات المتحدة الآن في البحث عن السلام والكل يحث الفلسطينيين على ايجاد صياغة للتفاوض نجد ان ما يلزم هو ان تعطى الولايات المتحدة نقطة يلتف حولها المعتدلون العرب والفلسطينيون وهو الاعتراف بأن حق تقرير المصير ينطبق ايضا على الشعب الفلسطيني لان هذا الاعتراف سجل التناقض الواضح الذي يوجد في الموقف الامريكي منذ زمن طويل لان امريكا تعترف بحق تقرير المصير لكل شعوب العالم الاخرى! «لماذا يجب على الفلسطينيين ان يكونوا الوحيدين في هذا العالم الذي يتعرضون للارهاب ويُطلب منهم ادانته»؟. كان هذا السؤال هو محور مقال كتبه الصحفي البريطاني مايكل آدمز في صحيفة الجارديان وانتقد فيه سياسة بريطانيا تجاه الشرق الاوسط. وتساءل آدمز لماذا يطلب فقط من ضحايا النزاع في فلسطين - هذا الشعب الذي اغتصبت ارضه وشرّد منها ان يدين العنف ويعترف بحق المستوطنين الذين جاؤوا من جميع بقاع العالم ليحتلوا وطنهم؟.

ان ما يثير سخط الفلسطينيين في عملية البحث عن حقوقهم انه يطلب منهم قبول شروط مسبقة دون ان يتلقوا شيئا بالمقابل. واذا كان سير جيفري هاو سيطلب من وزير الخارجية الاسرائيلي قبل ان يجتمع معه تعهدا صريحا برفض العنف بأي صورة من الصور واحـترام حق الفلسـطينيين في دولـة مستقلة بهم في فلسـطين فعنـدهـا فقط يمكن اقناع الفلسطينيين بأن الوعود البريطانية تعني شيئا.»بل ان نفس الآراء تتصاعد من داخل الادارة الامـريكية ذاتهـا. فقـد اعلن المتحدث الرسمي لوزارة الخارجية الامريكية بأن موضوع الفلسـطينيين المـوجـودين في الضفـة الغـربية وقـطاع غزة موضوع اكبر من كونه موضوع لاجئين.. وانه يجب عدم الخلط بين قرار مجلس الامن ٢٤٢ وبين الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني.

وقد يكون هذا هو ما يدور بالفعل في ضمائر هؤلاء المتشددين والمتبعين للحرم الذي اتى به كيسنجر من ان لا لقاء ولا تعامل امريكي مع منظمة التحرير الفلسطينية. وتفقد امـريكا مكانتها كقوة عظمى حين تقف متعنتة كل هذا التعنت امام شعب يناضل لنيل

حقوقه المشروعة.

ويكشف «ياسر عرفات» العجز الامريكي حينما يعلن ان جميع الادارات الامريكية اتصلت بالمنظمة بطريقة او باخرى على الرغم من اصرار امريكا عدم الاعتراف بالمنظمة. ويعرب عن اسفه لان امريكا لاتتصل بالمنظمة الا وقت الحاجة اليها. فقد اتصلت ادارة ريغان بالمنظمة مرتين. اولهما بشأن الاتفاق الذي عقدناه لوقف اطلاق النار مع الاسرائيليين عام ١٩٨١ عن طريق فيليب حبيب المبعوث الامريكي وقتها للشرق الاوسط. والاتصال الثاني كان في مباحثات جرت بينه وبين فيليب حبيب على مدى ٨٠ يوما إبان حصار بيروت عام ١٩٨٢ واسفر عن اتفاق مكتوب توجد منه نسخة بالخارجية الامريكية. وقد استعان الامريكيون بالفلسطينيين لاجلاء رعاياهم من بيروت وكان هذا بطلب رسمي ومثبت كذلك في وثائق الخارجية الامريكية خطاب شكر وجهه كيسنجر، وزير الخارجية الاسبق، لمنظمة التحرير على الجهود التي بذلتها عام ١٩٧٦. ولكن حين سألت «عرفات» عن هذه النقطة كان كلاما اكثر ايضاحا من كل ما قلنا. اذ قال: «في سنة ١٩٧٤ كان هناك اتصال رسمي بين وفد فلسطيني ووفد امريكي. والذي كان يمثل امريكا هو الآن ممثل امريكا في الامم المتحدة واسمه جنرال وولتز.. ثم قابلت عددا من المسؤولين الامريكيين ورؤساء لجان الخارجية مرتين في القاهرة كما تمت لقاءات اخرى اثناء ترحيل الرعايا الامريكيين من بيروت.. وحصل تعاون ـ فلسطيني ـ امريكي لاسابيع طويلة في ترحيل الرعايا الامريكيين مرة عن طريق البحر ومرة عن طريق البر. واهم من هذا تمت مباحثات بين مسؤولين امريكيين على مستوى رفيع مع مسؤولين فلسطينيين للافراج عن الرهائن الامريكيين في طهران. واول ١٣ رهينة افرج عنهم الوجود الفلسطيني. وظلت العلاقات حول هذا الموضوع رسمية وموثقة بين الطرفين. وكانت هناك مباحثات بين اندرويونج وزهدي الطرزي.. وكذلك الاتفاق الذي جرى بيني وبين فيليب حبيب عام ١٩٨١.

وبعد ذلك المباحثات المفتوحة التي تمت بيني وبين فيليب حبيب اثناء حصار بيروت بصفته المبعوث الخاص للرئيس الامريكي اسفرت عن توقيع اتفاق موجود في وزارة الخارجية الامريكية. وجاءت قوة امريكية ضمن القوات متعددة الجنسيات لتنفيذ هذا الاتفاق. فالمباحثات لم تكن سياسية فقط لذلك من حقي ان اسأل لماذا تنسى الادارة الامريكية شروط كيسنجر او لاءاته عندما تحتاجنا. وعندما لا تحتاجنا تعتبر هذه الشروط مقدسة؟!.

انهم ينكرون في العلن ما يعترفون به بينهم وبين ضمائرهم. والسلام المعروض حالياً امريكياً قد تستثمره اسرائيل للمضي في لعبة الشروط المستحيلة وعندئذ نخسر ورقة الارض بعد خسارة ورقة الكفاح المسلح.» ولكن فاجأته بسؤالي الذي يبدو انه فاجأني انا شخصيا:

هل لا تحب الحديث عن الخسائر؟؟ . . قال : ولماذا اتحدث عن الخسائر وهي ماضية ولا اتحدث عن المكاسب وهي آتية؟! .

قلت له : اذن ماذا تنتظر من المكاسب؟ . قال : اولا مرحلة المخاض لابد ان تتبعها مرحلة ولادة . ونحن في مرحلة المخاض وستأتي المرحلة المنتظرة لا محالة! .

سألته : اتعتبر المكاسب ستأتي حين تستعيد وضعك في لبنان؟ . . قالوا انك انفقت ملايين الدولارات في جنوب لبنان لتسيطر على وضع الحركة الفدائية في جنوب لبنان فماذا تبغي من ذلك؟ .

فقال بارتياح : « حيث تكون جماهيرنا يكون تواجدنا القتالي . والمخيمات الفلسطينية ركيزة للوجود القتالي الفلسطيني . وكما تعلمين ويعلم الجميع فالمنظمة هي التي تدير ومنذ مدة معظم العمليات في جنوب لبنان ضد القوات الاسرائيلية . ثم ان حماية المخيمات من اهم مهماتنا ، واهم مسؤولياتنا . وقد عرضت على القادة العرب ثلاث اقتراحات : اما ان تتولى القوات العربية حماية المخيمات في لبنان ، او تتولى قوات الامم المتحدة في الجنوب اللبناني هذه المسؤولية ، او تمكن المنظمة من تحمل مسؤولياتها بهذا الصدد .»وتأملت قول «عرفات» وهزتني الثقة التي يتحدث بها وهو الذي خرج ناجيا بقواته قبل ما لا يزيد عن اربع سنوات وما كان احد يتصور ان يعود له وجود ثانية ابدا في هذه المناطق التي أُقتلع منها! وكان اعداؤه يقولون هكذا تشهد نهاية العصر الفلسطيني . فاذا بالعصر الفلسطيني يعود ليتجدد مرة اخرى! ومنذ اليوم الذي ظهرت فيه قذائف الكاتيوشا من جديد لتضرب مرتفعات الجليل شمال اسرائيل وتعلن عن الوجود الفلسطيني مرة اخرى! .

والعجيب ان يصبح «عرفات» هو القوة التي يخطب ودها الجميع . . ولكن سرا! ولا يضيره في شيء حرصهم جميعا على السرية . فهو ايضا يريد ان يتم ما يتم سرا . . لضمان نجاحه! .

اذن هم لا يقدرون على منع الفلسطينيين ، فلماذا يأتون الى اماكنهم التي يعيشون فيها بسلام وفيها المسالمون والناس الذين لا علاقة لهم بالحرب ليحاصروهم؟ .

كما تشير كل الدلائل الى ان هناك تفاهما بين الرئيس اللبناني الجميل والقيادة الفلسطينية في مسألة الجنوب اللبناني . وان اتصالات جرت بينه وبين عدد من القيادات الفلسطينية منها كان هذا اللقاء المعلن الرسمي الذي تم بين الجميل وابو إياد ـ صلاح خلف ـ اثناء زيارة الجميل الى تونس . بل ان المراقبين يقولون ان الجميل ما ذهب الى تونس الا

ليلتقي ـ ابو إياد ـ رجل «فتح» القدير! .

ولو ان كل التصريحات الفلسطينية تقول انه لم يتم بحث اي شيء بين «ابو إياد» وبين الجميل اكثر من مسألة تجديد وثائق السفر لآلاف الفلسطينيين الذين يحملون وثائق لبنانية لرفع المعاناة عنهم الا ان كثيرا لا يصدقون هذا. . . ويقولون لابد من وجود شيء آخر! .

ويحاول البعض تفسير عودة الفلسطينيين الى لبنان بأنه ربما كان لاضعاف الدور السوري ودور حركة «امل» ايضا بما يسير لصالح الرئيس اللبناني الذي يعارض الاتفاق الثلاثي ويحاول ان يجمع حوله الانصار لتعضيده في هذه المعارضة! واذا كان ابو اياد نفسه يؤكد ان عصر المنافي قد انتهى. . فان القوة الفلسطينية العائدة تصبح العروس التي يخطب ودها الجميع! .

وهذا بحد ذاته مؤشرا قويا على ان المنظمة تجددت لتصبح مرة اخرى وبعد اربع سنوات مؤثرا حقيقيا على اتجاه السلام في المنطقة . .

وهنا ستتضح قدرة المنظمة وقدرة قيادتها على تجاوز هذا الخيار الخطير. فلا هو بالهين ان تعادي قوة ما سورية. . ولا هو بالهين ايضا اغفال توجه الداخل اللبناني الذي هو اولا واخيرا الشرعية اللبنانية! .

ويبدو ان «عرفات» يريد ان يلم الوضع لانه يركز ـ ظاهريا ـ على شيء واحد حين يقول ان صواريخ الكاتيوشا التي عادت تلعلع مرة اخرى في الجنوب اللبناني من انطلاقها على المستوطنات الاسرائيلية في شمال الجليل هي رسالة سياسية مبلغة لمن يهمه الامر للتأكيد على ان المنظمة هي التي تدير معظم العمليات في جنوب لبنان ضد اسرائيل.

و«ابو عمار» هنا ذكي ومتنبه تماما. . فهو يريد ان يحصر وجود المقاومة الفلسطينية بلبنان على غرض واحد هو ضرب اسرائيل.

ولكن هذا ليس هو العمل الوحيد. فكما قلنا ان الوجود الفلسطيني هو داخل ضمن نسيج المجتمع اللبناني. ولن يستطيع بحال من الاحوال ان ينأى عن هذا النسيج ليقف بعيداً خيطاً مفرداً او منعزلاً. ويقوى من هذا ايضا تهالك الاطراف عليه بهذا الشكل.

ولا احد يدري هل تعبت القوى من ذلك النزف المستمر طوال هذه السنوات فتريد الآن الركون الى هذه القوة المتجددة التي تعود مرة اخرى بعد اربع سنوات من الهدوء استعادت قواها من خلالها. خاصة وصوت التأييد ينبعث لها من الداخل في السر والعلن.

وفي عرفنا في السر والعلن حين يعلن الشيخ حسن خالد «ان السلاح في يد كل الناس وبعد ذلك نطلب من البعض ان يترك السلاح ومن البعض الآخر ان يبقى حاملا السلاح ليتعدى به على الناس ويظلمهم من غير قانون امر لا يجوز! ويقول اذا شئنا ان نطبق قانون

حمل السلاح على المخيمات فيجب الا يكون هذا التطبيق خاصا بالفلسطينيين فقط او ببعض سكان بيروت الغربية فقط، لاننا نريد ان نقهرهم. . فهذا شيء غير معقول».

وبعد هذا الظهور القوي للمنظمة ولقائد المنظمة يتحدث الناس عن عودة «عرفات» نفسه! ويقول احد المراسلين: لن يصبح السؤال هل سيعود «عرفات» اولا. . وانما السؤال الحقيقي هو متى يعود؟!.

وانا شخصيا لا استبعد ان يصحو العالم ليجد خبر عودة «عرفات» على مشارف المخيمات يوزع على صحف الصباح. . ولا يعلم احد كيف دخل لبنان وكيف خرج لانه. . «ياسر عرفات». . فقط!.

على ان كثيرا من المعلقين والمراقبين يرون ان السلام لا ينبعث من داخل المنطقة وحدها. وانما يرى ان اوروبا لابد ان يكون لها دور كبير في الاسهام في عملية السلام. وينبه الى بروز وعي بأهمية دور اوروبا اكثر من اي وقت مضى. وبينهم برنار جرونتييه وهو يقول: «لقد اقام التاريخ والجغرافيا روابط وعلاقات وثيقة بين اوروبا من ناحية والامة العربية والعالم الاسلامي من ناحية اخرى. بيد ان عدم القدرة على مساندة حق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين قد اثر على مصداقية اوروبا. وألحق اضرارا بالغة بمصالح القارة في الشرق الاوسط. بيد أنه ينبغي فتح صفحة جديدة الآن حيث اصبحت الحاجة ملحة ابروز محور عربي - اوروبي يشكل قطبا ثالثا لا غنى عنه لاقرار السلام في الشرق الاوسط. بل في العالم كله وذلك لمواجهة نزعة تقسيم العالم الى الشرق والى الغرب. ولاوروبا مصالح حيوية في العالم العربي.

واوروبا تستورد حوالي ٧٠ بالمئة من حاجاتها من الطاقة من الوطن العربي كما ان البلدان العربية تصدر نصف صادراتها لدول السوق الاوروبية المشتركة فيما تصدر الجماعة الاوروبية ١٢ في المائة من مجموع صادراتها الى العالم العربي وهذا الواقع. وبهذا اصبح العالم العربي اول شريك تجاري للسوق الاوروبية المشتركة من ناحية التصدير والاستيراد.

وقد انشئت لجنة عامة للحوار العربي الاوروبي تجتمع مرتين في الشهر تتولى تطوير العلاقات والحوار العربي - الاوروبي في كل المجالات. ويجب على البلدان العربية تكثيف الجهود الاعلامية لدى الرأي العام الاوروبي لانه لا يسمع الا وجهة نظر واحدة من قضية الشرق الاوسط المتمثلة في وجهة النظر الاسرائيلية.

لابد ان تتخذ الدول الغربية موقف العدل والانصاف من القضية الفلسطينية وتدين بصراحة اعمال الارهاب والقمع وضم الاراضي العربية المحتلة. مع فرض عقوبات على الكيان الصهيوني او اجباره على تنفيذ قرارات الامم المتحدة. . حول الحقوق المشروعة

للشعب الفلسطيني والانسحاب من الاراضي العربية.

وقد فرضت القضية الفلسطينية نفسها على المجتمع الاوروبي كما كانت قمة البندقية التي عقدت من ١٢ - ١٢ يونيو ١٩٧٨ نقطة تحول في الموقف الاوروبي تجاه القضية الفلسطينية.

وقد تقدمت القمة بمبادرة اوروبية للسلام في المنطقة واعتبرت اقامة المستوطنات اليهودية في الاراضي العربية المحتلة غير شرعية بالاضافة الى عدد كبير من القرارات حول النزاع العربي - الاسرائيلي.

وأصيبت الدول العربية بخيبة امل كبيرة تجاه موقف الدول الاوروبية من الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. فرغم ادانة المجموعة الاوروبية للدولة الاسرائيلية الا انها لم تطالب المعتدي بسحب قواته.

ينبغي على اوروبا ان يكون لها اصدقاء ومصداقية في العالم العربي. فيجب ان تنتقل من مرحلة الكلام والتبرير الى مرحلة العمل والتطبيق فيما يتعلق بقرارات الامم المتحدة حول القضية الفلسطينية عن طريق انشاء جمعيات صداقة وتضامن بين البلدان العربية والدول الاوروبية تعمل على دحض ومواجهات الدعاية الصهيونية في الغرب، وتنوير الرأي العام الاوروبي بحقيقة النزاع العربي - الاسرائيلي.

ومن الضروري انشاء مثل هذه الجمعيات والمنظمات العربية - الاوروبية للتصدي للمنظمات الصهيونية التي تعمل على تضليل الرأي العام الاوروبي.»

واذا كان هذا رأي كاتب اوروبي.. فان «عرفات» لا يغفل عن ذلك، ويشجعه على ذلك اهتمام المجموعة الاوروبية نفسها بقضيته العادلة. ورغم ان هولندا هي رئيس الدورة الحالية للسوق الاوروبية المشتركة ويمثلها وزير خارجيتها دان بروك الذي كان قد رفض مقابلة «عرفات» نظرا لموقف بلاده المتحيز لاسرائيل حيث لم يفرق الوزير بين اتجاه بلاده وموقعه على رأس السوق الاوروبية المشتركة.. ورفض مقابلة «عرفات» ولكن وزراء خارجية السوق المشتركة لاموه على ذلك الموقف وطالبوه بضرورة اطلاعهم على الموقف الفلسطيني من التحركات الجارية لتحقيق التسوية السلمية وان يكون هذا بلقاء مع «عرفات». وقد جاء الى تونس يطلب مقابلة «عرفات». وكان من المفروض ان يجتمع معه ساعة من الزمن.. فاذا بمجال «عرفات» المغناطيسي يطويه ليستغرق اللقاء ثلاث ساعات ونصف ساعة!.

وقد قال لي «عرفات» عندما سألته عن تأجيل موعد لقائي به قال «لقد اخذه الهولندي في مقابلة طالت لاكثر من ثلاث ساعات. وقد لاقيته عندما تأكدت من حرص المجموعة الاوروبية على احترام الشعب الفلسطيني وعلى حقوقه المشروعة التي تعطيه هذا الدور الذي

لا يمكن ان يستهان به في منطقة الشرق الاوسط. وبيّنت له التصميم على احقاق الحقوق المشروعة لشعبنا بما فيها حقه في تقرير المصير، وبعيداً عن كل الحلول الدائرة الآن لاغفال دور منظمة التحرير الفلسطينية. وقلت له انكم لم تنفذوا اتفاقكم معي حين خرجت من بيروت في حماية المخيمات وهذا اخلال بالشرف العسكري. . كان من نتيجته حدوث مجازر صبرا وشاتيلا ولذلك فنحن مضطرون للدفاع عن وجودنا امام كل الاعتداءات السافرة المتكررة.»

وهكذا نرى ان «عرفات» لم يغفل عن الدور الاوروبي والذي ينادي به صاحب كتاب ـ اسرائيل سبب الحرب الكونية الثالثة.

الا ان «عرفات» لا يغفل ايضا عن اهمية دور افريقيا. ويعتبر من القادة العرب القلائل الذين يعتنوا بافريقيا لعلمه انها في دائرة الاهتمام الصهيوني. و«عرفات» بشخصه يصد تغلغل النفوذ الصهيوني في القارة السمراء. ويتحرك بفاعلية لوقف هذا النفوذ بعد ان اعادت ساحل العاج علاقتها المقطوعة بالكيان الصهيوني منذ عام ١٩٦٧.

وقد كان يجب ألا يغيب عن الحكام العرب اهمية دور افريقيا. . الا ان كل شيء غائب عن رؤيتهم تماما. بينما ادى تحرك «عرفات» في افريقيا الى كسب الرأي العام الافريقي بشكل كبير. وبعد ان كانت بعض البلاد الافريقية تنوي اقامة علاقات من جديد في عواصمها مع اسرائيل توقف ذلك بانشاء سفارات فلسطينية. . وهذا لا يخفي عن عين اي مراقب نجاحا ديبلوماسيا سياسيا كبيرا. لقد كتبت جريدة الرأي العام الكويتية في ١١/٥/١٩٨٦: اعلن الجنرال جناسين إيا، رئيس جمهورية التوغو انه اعتمد السفير سمير بكر اول سفير فلسطيني في جمهورية التوغو بمناسبة زيارة «ياسر عرفات»، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، التي بدأت اليوم. والمعروف ان ارييل شارون، وزير التجارة الاسرائيلية، وديفيد كيمحي، مدير عام الخارجية الاسرائيلية، قاما بزيارة سرية لعدد من الدول الافريقية بمناسبة اعادة جمهورية ساحل العاج علاقاتها مع اسرائيل واعلنا ان هناك ثلاث دول افريقية ستعيد علاقاتها مع الكيان الاسرائيلي، الا ان جمهوريتين قررتا بمناسبة زيارة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لافريقيا افتتاح سفارة فلسطينية في بلادها عوضا عن السفارة الاسرائيلية.

وزار «عرفات» في جولته الاخيرة ستة عشر دولة افريقية جرى له في معظمها استقبال تاريخي. فمثلا في جمهورية التوغو كان رئيس الجمهورية وهيئة الحكومة وقادة الجيش والبعثات الديبلوماسية وفي مقدمتها سفراء الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية والصين وبريطانيا وفرنسا. وقد اطلقت المدفعية اربع وعشرين طلقة بدلا من احدى

وعشرين مبالغة في تحية رئيس المنظمة، بينما كانت فرق المظلات الجوية تقوم بتشكيلات عسكرية في الجو. وتؤدي الفرق الشعبية رقصاتها في ارجاء المكان والساحات المحيطة به وجماهير المواطنين الذين وفدوا من شتى انحاء مدن وقرى التوغو وهم يحملون الاعلام الفلسطينية. وقد كان «عرفات» انهى زيارة رسمية لجمهورية بوركينا فاسو بعد ان قام في الصباح مع الرئيس سنكارا بازاحة الستار عن لوحة الحي الرئيسي الذي تقرر تسميته باسم الحي الفلسطيني وبعد ان اكد الرئيس انه مع الشعب الفلسطيني ومع منظمة التحرير حتى تتحرر الارض الفلسطينية وتقام عليها دولته المستقلة لذلك فقد الغى زيارته للولايات المتحدة عندما منع الرئيس الامريكي «عرفات» من الحضور الى الامم المتحدة لالقاء خطابه في اجتماعاتها. وأكد رئيس جمهورية بوركينا على ضرورة الوحدة العربية ـ الافريقية. وهكذا يقتضي السلام هذا التحرك الديناميكي في كل اتجاه.. وليس كـ «عرفات» يتقن هذا التحرك. نظرا لتأثيره الشخصي كرمز لكفاح شعب ومعنى كبير يسكن ضمير كل انصار الحرية. وحين سألته عن رحلته الى افريقيا قال: «باختصار لقد اقامت هذه الشعوب الصديقة عرسا لفلسطين في قلب القارة الافريقية.»

ولما قلت له: كيف اختتم هذا الفصل تحت اسم: السلام الى اين؟. ابتسم تلك الابتسامة المضيئة وقال: قولي عن لساني اننا لحسن الحظ او لسوء الحظ نقف دفاعا عن هذه الامة في الخندق الامامي.. مدافعين عن شرفها وعزتها وكرامتها.. ولسنا دعاة حرب.. فنحن اول دعاة السلام... وقد غاب السلام عن ارض السلام.. ولكن لابد له من عودة.. لابد لهذا الشعب الذي طالت معاناته من هدأة يعيش فيها اطفالنا بسلام وحرية وعزة.. ونحن لهذا نناضل ونقدم التضحيات ونرفع يدا بالبندقية ويدا بغصن الزيتون.. فنحن اصحاب قضية عادلة نقدمها للضمير العالمي. ونحن مع مجرى التيار واعداؤنا ضد مجرى التاريخ ولذلك سننتصر.

# * الخاتمة..

وبعـد هل اقـول اني قد فرغت من كتـاب «عرفات»؟! . . وهل «عرفات» ينتهي الانسان منه بكتابة كتاب؟ . . ان «ياسر عرفات» كتاب تاريخي اسطوري لا تكفي للكتابة عنـه الكتب والمجلدات. انه بحد ذاته كتاب انساني كبير في التاريخ المعاصر. لا احد يستطيع تسجيل كل جوانب شخصية «عرفات» انه فوق الوصف واعمق من التسجيل. شيء يقترب من الاساطير واصحاب التاريخ!.

والمعروف ان كل مؤلف يكون سعيدا حين يختتم كتابا او مؤلفاً. الا انا! فحين وصلت لنهاية هذا الكتاب شعرت بالبرودة وكأنني انفصل عن جزء مني. فقد كنت في غمار الاحداث العظيمة وامام القائد الكبير اشعر بالدفء والسعادة. انني قد فرغت. . و«ياسر عرفات» لا ينتهي تأثيره على من يلقاه ويعرفه بسهولة. وهذا من اكثر الاسباب التي تبقي حوله كل هؤلاء المعتنقين له.

فلو كانت هي المهارة في القيادة وحدها، او قوة التأثير والاقناع او الاخلاص والتفاني في العمـل، او روح الصمـود والمثـابرة، او العطف والود والمحبة التي تملؤه، او التواضع والايثار، او الايمان واليقين. لو كانت أياً من هذه الصفات هي التي تميز «ياسر عرفات» لكان شخصا ممتازا بالفعل. ولكن حين تجتمع كل هذه الصفات واكثر فيه. . هنا تكون المعجزة. .

قد يتهمني البعض بالمبالغة او عدم الحياد او التحيز. ولكني حقيقة اكثر من ذلك. فمهما كنت مبالغة في طبعي . . فالرجل يفوق كل ما قلت واقسم فقد كنت احاول ان اقتصر بقدر الامكان في كل ما عرفت وسمعت عنه حتى لا يقول احد مبالغة! . ولو قلت كل ما عرفت وسمعت لذهـل كل قارىء لهذا الكتاب من الاشياء التي يرويها الناس عنه والتي عرفتها فيه! فهو نفسه شخص مبالغ بتكوينه، مبالغ في كل شيء، في قدرته على العمل، في حبه، في التزامه، في قربه من الناس، في تفانيه وفي يقينه. في اي شيء. . وكل شيء، بما تنتفي معه وصف من يكتب عنه بالمبالغة. فمهما قلنا . . لن نبلغ الحقيقة لانه حقيقة يفوق اية مبالغة! .

امـا عدم الحياد. . فأقول عن صدق، ان الذي يقترب من القضية الفلسطينية لا يمكن ان يكون محايدا، فالحياد هنا قصور، والمشاعر القومية او الوطنية لا تعرف الحياد، واذا كانت الحكمة تقول انصر اخاك ظالما او مظلوما فكيف نقف من قضيتنا على الحياد؟ . . اما الحياد بالنسبة لشخص «عرفات» فقد حاولت التشبث به ـ رغم احترامي الشديد له ـ ولكن ناقشته وعارضته ونقدته ايضا في مواضع كثيرة. وكان هذا عن موضوعية تعودتها في منهج البحث العلمي. واول شروط كاتب السيرة الا يساير الشخصية التي يكتب عنها بحيث

يوافقها على كل افعالها ويمجدها. واظن في صفحات هذا الكتاب من النقد ورواية بعض احاديث الناس ما يكفل لنا ان نقول بتوفر الموضوعية.

اما تهمة التحيز.. فلا استطيع ان انكرها.. فأنا متحيزة لـ «ياسر عرفات» متحيزة له بالفعل. لانه متحيز لكل المعاني الشريفة والنبيلة التي خرج من اجلها. ونضاله وكفاحه البطولي يسطر صفحة فخار في التاريخ العربي. ولقد كنت قد اخترت لهذا الكتاب اسم: اعظم ثوار العالم!.. لاني حقيقة اعتقد انه كذلك.. ولكنه هو الذي اراد تغيير الاسم.. وقال لا اريد ان يتهمك احد بالمبالغة.. ولان هذا الاسم استفزازي!.

ومن يعرف «ياسر عرفات» لابد ان ينحاز له. فقد سبق ان قلت ان بالرجل قوة سحرية مغناطيسية تظل ابدا تربطك بمحيطه. وكل الذين يعملون معه منحازون له. لانه بالفعل يمثل لهم كل شيء. كل ما يطلبه الانسان في المثل او النموذج. ولانه ـ وهو الاهم ـ على حق.. ويتمسك بالحق. وماذا يطلب الانسان اكثر من حق ينحاز اليه؟.

لذلك فانا لا انفي عني التحيز لـ «ياسر عرفات».. بل اعلن وبكل وضوح اني متحيزة له.

واذا كان قد عزّ عليّ ان انهي فصلا من كتاب «ياسر عرفات» الكبير فإن قلمي لن يصمت ابدا عن الكتابة عنه. وكل كلمة تكتب لنصرة القضية الفلسطينية ستكون عن «عرفات».. فهو روح الشعب الفلسطيني الذي تُرفع باسمه القضية العادلة.

وسأبقى دائما اسطر كلماتي التزاما واعتزازا ومحبة في كتابه المضيء وليتني استطيع ان اوفي شيئا مما يقتضيه عليّ شعوري القومي ويقيني بالحق الفلسطيني.. واعتناقي للقائد العظيم.

«ياسر عرفات» سيكتب عنه التاريخ، وهو الذي سيسجل اسمه في انصع صفحاته، ولن نستطيع نحن ابدا ان نوفيه قدره.

«ياسر عرفات» سيظل ابدا المعنى والرمز. ليس لقضيته فقط.. وليس لشعبه فقط.. وانما لكل المعاني الشريفة الحرة الكريمة.. وسيبقى ابدا زعيما خالدا في سجل الفخار الانساني.. برهانا على جوهر الانسان الحقيقي.. حينما يتجرد ويصبح روحا مشعا خلّاقا خالصا.

تحية وسلاما.. ابو عمار.. واقبلني احد المنتمين لقضيتك.. واقبلني احد المعتنقين لك.. وأحد المناضلين تحت رايتك.

« إنتهــــــــى »



مع الرئيس المناضل صدام حسين



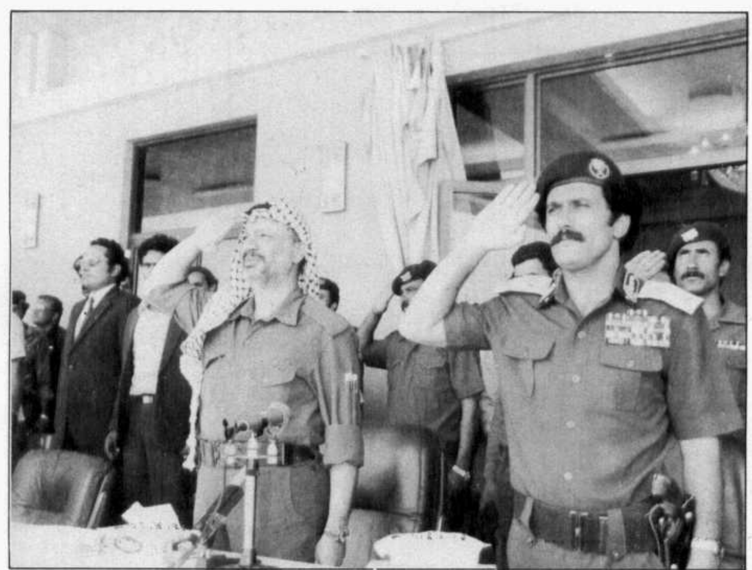
مع الشاذلي بن جديد



مع جلالة الملك فهد بن عبد العزيز



مع الرئيس حسني مبارك



مع الرئيس علي عبد الله صالح



مع امير الكويت



استقبال الرئيس بورقيبة لـ ـ ابو عمار ـ عند الوصول الى تونس بعد الخروج من بيروت



مع الفريق سوار الذهب وقدْ ظهر في الصورة جويد الغصين



«عرفات» بين الملك حسين وولي عهده الامير حسن



مع الشيخ زايد بن سلطان



مع امير دولة البحرين



مع جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب



مع الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني



ابو عمار مع الصادق المهدي ويبدو ابو جهاد



«اذكروا الله يذكركم» ـ ابو عمار والعقيد!



الرئيس السوري و «ابو عمار»



لعلهم يتذكرون!



اثناء انعقاد جبهة الصمود والتصدي



مع رئيس اليمن الجنوبي السابق علي ناصر محمد



مع الامير عبد الله بن عبد العزيز



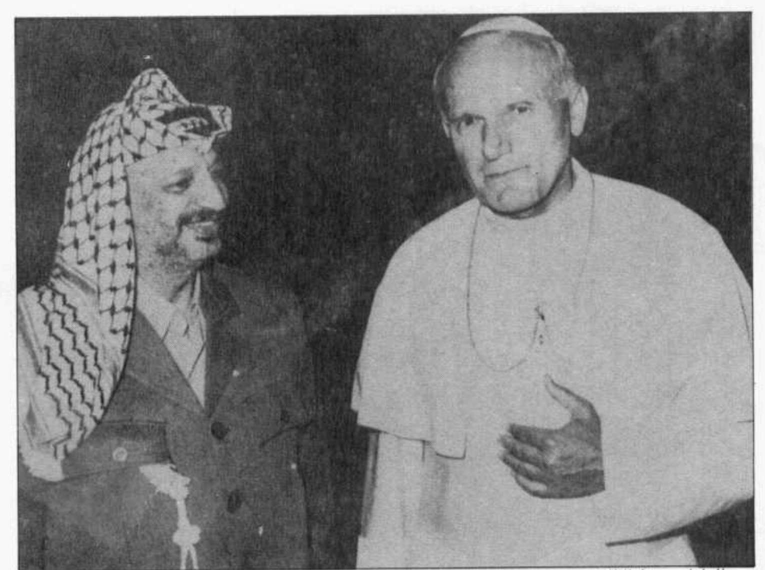
مع غورباتشوف علاقة فلسطينية سوفياتية



مع جروميكو


عرفات ـ والخميني


حديث مع زعماء ايران



مع البابا يوحنا الثاني



مع اولف بالم اثناء زيارته للسويد



لقاء الأحرار.. ياسر عرفات.. فيدل كاسترو



مع هونيكر



زعيم الثورة الفلسطينية مع ثائر نيكاراغوا



مع رئيس زامبيا كينيث كاوندا



مع رئيس الكونغو



مع رئيس جمهورية بوركينافاسو



خلال زيارته لافريقيا




يلقي كلمة في مؤتمر عدم الانحياز في هراري



ابو عمار دائما في المحافل الدولية



مع مستشار النمسا



مع قادة المانيا الديموقراطية



التضامن الافريقي مع الشعب الفلسطيني



خلال زيارته لانغولا



مع الرئيس الراحل ساموراا ماشيل



مع راجيف غاندي في هراري



مع رئيس رومانيا تشاوشيسكو



مع كراكسي



مع كرايسكي



مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر



مع الرئيس الجزائري الراحل بومدين



مع الزعيم الراحل كمال جنبلاط



مع زعيمة الهند الراحلة انديرا غاندي



مؤلفة الكتاب بين الشرعيتين



اثناء الحديث مع المؤلفة




الفارس الذي أطلق السهم الى قلب أعدائه. اثناء زيارته لدول افريقيا



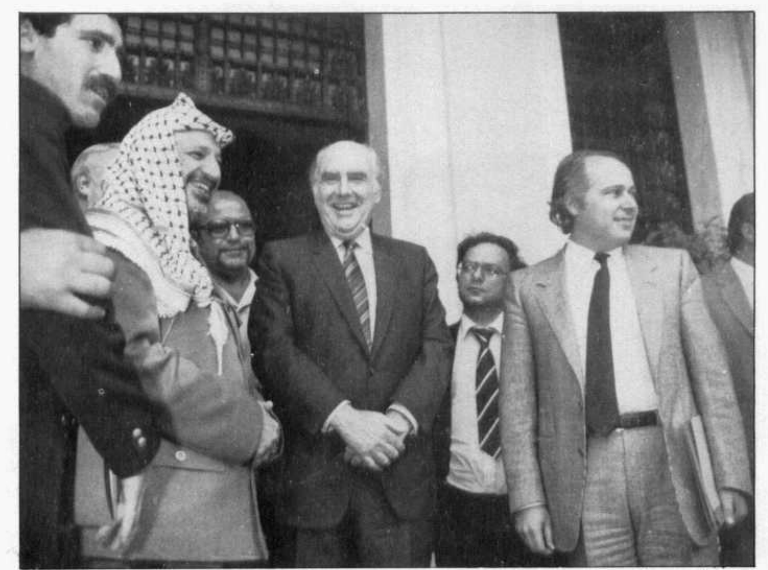
مع رئيس تنزانيا جوليوس نيريري



مع رئيس السنغال عبدو ضيوف


مع رئيس الغابون عمر بنغو


مع زعماء الصين



مع باباندريو رئيس وزراء اليونان



استقبال حار للزعيم الفلسطيني في كوريا


مع كلود شيسون وزير خارجية فرنسا


مع رئيس فيتنام


مع مكاريوس

صدر عن مؤسسة «الديار» للطباعة والنشر
بالتعاون مع دار «بروسفيتا» اليوغسلافية

الطبعة الأولى
عشرة آلاف نسخة